

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر: 02

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية اللغة العربية وآدابها
واللغات الشرقية

اللّطائف البيانية في اقتران أسماء
الله وصفاته وختم الآيات بها

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم
تخصص: دراسات لغوية نظرية

إعداد الطالب:
قوري الصديق

السنة الدراسية 2017/2016

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر: 02

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية اللغة العربية وآدابها
واللغات الشرقية

اللّطائف البيانية في اقتران أسماء
الله وصفاته وختم الآيات بها

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم
تخصص: دراسات لغوية نظرية

إشراف : أ. الدكتور:
أحمد حساني

إعداد الطالب:
قوري الصديق

السنة الدراسية 2017/2016

وقفه شكر :

أعوذ بربّ النَّاسِ من كلِّ طاعنٍ * علينا بسوءٍ أو ملحٍ بباطلٍ
ومن كاشِحٍ يسعى لنا بمعيبَةٍ * ومن ملحقٍ في الدِّينِ ما لم نحاول
نحمد الله على الهداية والتسديد إنّه هو الحميد المجيد ونشكره ولا نكفره وهو الرزاق
الشكور نسأله لنا ولشيخنا أحمد حسّاني الذي يسّر لنا بتوفيق الله كلّ صعب وهون
علينا كلّ خطب أنّ يزكّي لنا ما فيه من حقّ وصدق ويغفر ثمّ يرحم ما اقترفنا فيه
من زلل وباطل إنّه كان بنا رؤوفا رحيمًا ، ونسأله قبوله بإصلاحه وإخلاصه لوجهه
الكريم إنّ ربّي واسع عليم وأن يقبّل له كراما ينخلّونه ويهدّبونه :
و لست بمستبق أخا لا تلمّه على شعث أيّ الرجال المهذب .
اللّهم اكتب لوالديّ أجره ولصاحبتيّ وبنيّ وإخوتيّ والمسلمين أجمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث :

يحار القلب في وصف الله ويشفي حيرته أن جعل نفسه معاذاً من أعظم الشرور ومستعانا في كل الأمور، فكيف لا يحمد أبد الدهور وهو الحميد الشكور ، علّمنا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أمنا من كل شرّ باستحضار ما في طيّها من ربوبية وجلال وجمال تليها بسم الله الرحمن الرحيم مقابلة ومفارقة وقهرا للذّات بالذّات والاسم بالاسم والصفة بالصفة تيمنا وتسهيلا لكل أمر ثم الحمد لله إقرارا بمنتهى الحاجة والفقر لذي الكمال والإنعام والطول والقهر لم يزل له الأسماء الحسنى ولا يزال ، خلق أرضه ثم استوى وعلا إلى سمائه فسوّاها وعلا على أعلاها وسماه عرشه ، ثم خلق آدم وذريته وعلمه من علمه وأسكنه جنّته ثم بحكمته وسابق علمه كتب له النزول إلى أرضه لتبتلى ذريته ، فكان حقّا أحقّه على نفسه أن يتعرّف إليهم بربوبيته وملكه وجبروته وقهره ورحمته وغفرانه وبرّه وإحسانه ، فبعث الأنبياء وأرسل الرسل وأنزل معهم الكتب فيها أدلّة كماله وسلطانه وعفوه وإكرامه وهياً فطرهم لتعقلها إقامة للحجّة وبيانا لصراط النجاة والهداية إلى دار النعيم والزلفى التي منها أهبط أبوهم ، فكان ما جاءت به الرسل أدلة خبرية نقلية لا تحيل ولا تخالف ما كسبوا من أدلة عقلية ولكنها قد تحيّرنا فتحار العقول ، فبين لهم أنّهُ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَظِيمُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ مُتَكَلِّمٌ بِمَا شَاءَ كَيْفَمَا شَاءَ مُرِيدٌ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَيَرْزُقُ وَيَغْضَبُ وَيُحِبُّ وَيَبْغِضُ وَيَكْرَهُ وَيَضْحَكُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى ذُو الْوَجْهِ الْكَرِيمِ وَالسَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ الْبَصِيرِ وَالْكَلَامِ الْمُبِينِ وَالْيَدَيْنِ الْقَابِضَتَيْنِ وَالْمَقْدَرَةَ وَالسُّلْطَانَ وَالْعِظْمَةَ وَالْإِمْتِنَانَ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ وَلَا يَزَالُ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ فَبَانَ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ عَلَيْهِمْ بِهِمْ مُحِيطٌ وَبَصَرُهُ بِهِمْ نَافِذٌ وَهُوَ فِي ذَاتِهِ وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَلَا تَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَارِحِ مَبْتَدَعَاتِهِ بَلْ هِيَ صِفَاتٌ لائِقَةٌ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ لَا تَتَخِيلُ كَيْفِيَّتَهَا الظُّنُونُ وَلَا تَرَاهَا فِي الدُّنْيَا الْعُيُونُ ، فَأَمِنْ أَتْبَاعِ الرِّسْلِ بِحَقَائِقِهَا وَمَعَانِيهَا وَوَصَفُوا رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا وَعَلِمُوا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ أَنَّ مِنَ الْعَقْلِ إِخْضَاعَ عَقُولِهِمْ لِأَخْبَارِ الرِّسْلِ وَنَقُولِهِمْ عَنْ رَبِّهِمْ فَهُوَ أَعْلَمُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ مِنْهُمْ وَزَاغَتْ طَوَائِفُ وَفَرَّقَ مِنْ أُمَّةِ الرِّسُولِ الْخَاتِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِبَسِّ عَلَيْهَا الرَّجِيمِ اللَّعِينِ الْعَدُوِّ الْمُبِينِ إِجْلَالَ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ بِتَنْزِيهِهِ عَنْ شَبهِ الْمَخْلُوقِ فَغَالُوا وَأَوْغَلُوا كَأَنَّهُمْ صَمُّوا وَعَمُوا فِي نَفْسِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، كَمَا نَفَوْا عَنْهُ صِفَةَ الْإِرَادَةِ فَقَالُوا : هِيَ حَرَكَةُ النَّفْسِ لَجَلْبِ مَا يَنْفَعُهَا

وَدَفَعَ مَا يَضُرُّهَا وَالرَّبُّ تَعَالَى يَتَعَالَى عَنِ ذَلِكَ فَلَا إِرَادَةَ لَهُ وَالغَضَبُ غَلِيَانٌ دَمُ الْقَلْبِ طَلِبًا لِلانْتِقَامِ وَالرَّبُّ مَنْزَهُ عَنِ ذَلِكَ فَلَا غَضَبَ لَهُ وَسَلَكُوا هَذَا الْمَسْلَكَ الْبَاطِلَ فِي حَيَاتِهِ وَكَلَامِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ وَهُوَ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ فَإِنَّ النَّافِيَّ أَخَذَ فِي مُسَمَى الصِّفَةِ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِ ثُمَّ نَفَاهَا جَمَلَةً عَنِ الْخَالِقِ وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّلْبِيسِ وَالْإِضْلَالِ فَإِنَّ الْخَاصَّةَ الَّتِي أَخَذَهَا فِي الصِّفَةِ لَمْ يَثْبُتْ لَهَا لِدَاتِهَا وَإِنَّمَا يَثْبُتْ لَهَا بِإِضَافَتِهَا إِلَى الْمَخْلُوقِ الْمُمَكَّنِ وَمَعْلُومٍ أَنَّ نَفِيَّ خَصَائِصِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ عَنِ الْخَالِقِ لَا يَقْتَضِي نَفِيَّ أَسْلِ الصِّفَةِ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَلَا إِثْبَاتِ أَسْلِ الصِّفَةِ لَهُ يَقْتَضِي إِثْبَاتِ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِ لَهُ كَمَا أَنَّ مَا نَفَى عَنِ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى مِنَ النِّقَائِصِ وَالتَّشْبِيهِ لَا يَقْتَضِي نَفِيَّهِ عَنِ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ وَلَا مَا ثَبَّتْ لَهَا مِنَ الْوُجُوبِ وَالْقَدَمِ وَالْكَمَالِ يَقْتَضِي ثُبُوتَهُ لِلْمَخْلُوقِ وَلَا إِطْلَاقَ الصِّفَةِ عَلَى الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ وَهَذَا مِثْلُ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ فَإِنَّ حَيَاةَ الْعَبْدِ تَعْرِضُ لَهَا الْأَفَاتُ الْمُضَادَّةُ لَهَا مِنَ الْمَرَضِ وَالنَّوْمِ وَالْمَوْتِ وَكَذَلِكَ عِلْمُهُ يَعْرِضُ لَهُ النِّسْيَانُ وَالْجَهْلُ الْمُضَادُّ لَهُ وَهَذَا مَحَالٌ فِي حَيَاةِ الرَّبِّ وَعِلْمُهُ فَمَنْ نَفَى عِلْمَ الرَّبِّ وَحَيَاتِهِ لَمَّا يَعْرِضُ فِيهِمَا لِلْمَخْلُوقِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَهُوَ نَظِيرُ نَفْيِ مَنْ نَفَى رَحْمَةَ الرَّبِّ وَعِلْمَهُ فَمَنْ نَفَى رَحْمَةَ الرَّبِّ عَنْهُ لَمَّا يَعْرِضُ فِي رَحْمَةِ الْمَخْلُوقِ مِنْ رِقَّةِ الطَّبَعِ وَتَوْهَمِ الْمَتَوْهَمِ أَنَّهُ لَا تَعْقِلُ رَحْمَةَ إِلَّا هَكَذَا نَظِيرُ تَوْهَمِ الْمَتَوْهَمِ أَنَّهُ لَا يَعْقِلُ عِلْمَ وَلَا حَيَاةَ وَلَا إِرَادَةَ إِلَّا مَعَ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِ وَهَذَا الْغَلَطُ مَنْشُؤُهُ إِنَّمَا هُوَ تَوْهَمُ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ الْمُقَيَّدَةِ بِهِ أَوَّلًا وَتَوْهَمُ أَنَّ إِثْبَاتَهَا لِلَّهِ هُوَ مَعَ هَذَا الْقَيْدِ وَهَذَا هَمَانُ بَاطِلَانِ فَإِنَّ الصِّفَةَ الثَّابِتَةَ لِلَّهِ مُضَافَةٌ إِلَيْهِ لَا يَتَوَهَّمُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ لَا فِي لَفْظِهَا وَلَا فِي ثُبُوتِ مَعْنَاهَا وَكُلٌّ مِنْ نَفْيِ عَنِ الرَّبِّ تَعَالَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ لِهَذَا الْخِيَالِ الْبَاطِلِ لَزِمَهُ نَفْيُ جَمِيعِ صِفَاتِ كَمَالِهِ لِأَنَّهُ لَا يَعْقِلُ مِنْهَا إِلَّا صِفَةَ الْمَخْلُوقِ بَلْ وَيَلْزِمُهُ نَفْيُ دَاتِهِ لِأَنَّهُ لَا يَعْقِلُ مِنَ الذَّوَاتِ إِلَّا الذَّوَاتِ الْمَخْلُوقَةَ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْهَا وَهَذَا الْبَاطِلُ قَدْ التَّزَمَهُ غَلَاةُ الْمَعْطَلَةِ وَكَلِمَا أَوْغَلَ النَّافِيَّ فِي نَفْيِهِ كَانَ قَوْلُهُ أَشَدَّ تَنَاقُضًا وَأَظْهَرَ بَطْلَانًا وَلَا يَسْلَمُ عَلَى مَحْكَ الْعَقْلِ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يَكْذِبُ إِلَّا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} الصَّافَاتُ 159 فَزَمَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ إِلَّا الْمُخْلِصِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَهُمْ الرُّسُلُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الصَّافَاتُ: 180/ 182 فَزَمَهُ نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْوَاصِفُونَ وَسَلَمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا وَصَفُوهُ بِهِ مِنْ

كل نقص وعيب وحمد نفسه إذ هو الموصوف بصِفات الكَمال التي يستحق لأجلها الحمد ومنزه عن كل نقص يُنافي كَمال حمده .

وعلى النقيض منهم أقوام مخافة التعطيل شبّهوا ومثّلوا وما ذاك إلا لأنهم في ردّ فعلهم غالوا وأفرطوا .

وأضل من هؤلاءٍ وأسوأ حالا من سوى كل شيءٍ بالله سُبْحانَهُ في الوجود وجعله وجود كل موجود كَامِلٍ أو ناقصٍ فإذا كان الله قد حكم بالضلال والشقاء لمن سوى بينه وبين الأصنام في الحبِّ مع اعتقادهم تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذات والصفات والأفعال فكيف بمن سوى الله بالموجودات في جميع ذلك وزعم أنه ما عبد غير الله في كل معبود ، ألا إنهم قوم تفلسفوا وتعبدوا فنفخهم الشيطان فظنّوا أنهم بالسلام القدوس الواحد القهار حلّوا واتحدوا ، فليت شعري كيف لم يدرك أولئك أنّ الشرّ دخلهم من صابئة اليونان ومشبهة عبدة المسيح والصلبان وزنادقة الهند والمجوس أكلة النيران عبدة الفيران .

فإن الله تبارك وتعالى ذاته ليست كالذوات وكذلك أسماءه تعالى ليست كأسماء خلقه ، فربّ رجل سمي محسنا وهو مسيء وربّ امرأة سمّوها كريمة وهي لثيمة ، فأسماءه كلها أسماء مدح وليست ألفاظاً مُجرّدة لا معاني لها ولا تدل على المدح لأنه سُبْحانَهُ وصفها بأنّها حسنى كلها فقال ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف 18 ، فهِيَ لم تكن حسنى لمُجرّد اللفظ بل لدلالاتها على أوصاف الكَمال ولِهَذَا لما سمع بعض العرب قارياً يقرأ ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾ المائدة 38 والله غفور رحيم قال ليس هذا كلام الله تعالى فقال القارئ أتكذب بكلام الله تعالى فقال لا ولكن ليس هذا بكلام الله فعاد إلى حفظه وقرأ ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال الأعرابي صدقت عزّ فحكّم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع .

ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذاب أو بالعكس ظهر تنافر الكلام وعدم انتظامه . وفي السنن من حديث أبي بن كعب : " قراءة القرآن على سبعة أحرف ثم قال ليس منهنّ إلا شاف كاف إن قلت سمياً عليماً عزيزاً حكيماً ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب ولو كانت هذه الأسماء أعلاماً محضّة لا معنى لها لم يكن فرق بين ختم الآية بهذا أو بهذا وأيضاً فإنّه سُبْحانَهُ يُعلل أحكامه وأفعاله بأسمائه ولو لم يكن لها معنى لما كان التعليل صحيحاً كقوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ نوح 10 وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ

تَرِيصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاوُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {البقرة 226 227} . فختم حكم الفیء الذی هُوَ الرجوع والعود إلى رضی الزوجة والإحسان إليها بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والجزء من جنس العمل فكما رجع إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة {وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم} فإن الطلاق لما كان لفظا يسمع ومعنى يفصد عقبه باسم السميع للنطق به العليم بمضمونه وهذه طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء وأسماء المخافة كقوله تعالى {اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم} (المائدة 98) وقال أهل الجنة {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور} سبأ 34 لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم قالوا {إن ربنا لغفور شكور} وفي هذا معنى التعليل أي بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات وقال تعالى {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما} النساء 147 فهذا جزاء لشكرهم أي إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره .

والقرآن مملوء من هذا ، وكثيرا ما يستدل سبحانه بأسمائه على توحيده ونفي الشرك عنه ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك كقول هارون لعبدة العجل ليا قوم إنما فتننتم به وإن ربكم الرحمن طه 90

وقوله سبحانه في القصة {إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما} طه 98
 وقوله تعالى {واللهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} البقرة 163
 وقوله سبحانه في آخر سورة الحشر {هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون} الحشر 22 23 فسيح نزه نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له وأيضا فإن الله تعالى يعلق بأسمائه المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما ولو كانت أعلاما محضة لم يصح فيها ذلك كقوله {والله بكل شيء عليم} الحجرات 16 {والله عليم بالظالمين} الجمعة 7 {فإن الله عليم بالمفسدين} آل عمران 63 و {وكان بالمؤمنين رحيما} الفرقان 43 {إنه بهم رؤوف رحيم} التوبة 117 {والله على كل شيء قدير} آل عمران 189 {والله محيط بالكافرين} البقرة 19 {وكان الله بهم عليما} النساء 49 {وكان الله على كل شيء مقديرا} الكهف 45 {إنه بما

يَعْمَلُونَ خَيْرًا) هود 111 {وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ} الحجرات 18 {إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} الشورى 27 ونظائره كثيرة .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُ أَسْمَاءَهُ دَلِيلًا عَلَى مَا يُنْكِرُهُ الْجَاهِدُونَ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} الملك 14.

وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ هَبَّطَ بِهِ عَلَى رِيَاضٍ مِنَ الْعِلْمِ حَمَاهَا اللَّهُ عَنْ كُلِّ أَفَّاكٍ مَعْرُوضٍ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَاقْتَبَسَ الْهَدْيَ مِنْهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِنَا هَذَا إِلَّا هَذَا الْفَصْلُ وَحْدَهُ لَكَفَى مِنْ لَهُ ذَوْقٌ وَمَعْرِفَةٌ وَاللَّهُ الْمُوفِقُ لِلصَّوَابِ .

ولقد اعتنى بأسمائه الحسنی وصفاته العلاب كبار العلماء على اختلاف عصورهم وتخصصاتهم وعقائدهم فأهل الحديث منهم كالبيهقي وابن ماجة ينقبون عن الآي والسنن الدالة عليها وأهل اللغة كالحليمي والزجاجي والخطابي يبحثون في اشتقاقاتها ومعانيها وأهل الكلام والعقيدة يبحثون في قواعدها وأدلتها النقلية والعقلية كالغزالي والرازي وابن تيمية وابن القيم ، ولا يزال العلماء إلى اليوم يعتنون بها جمعا وتحقيقا بالزيادة فيها على القدماء أو النقصان منها ولا نعلم أحدا اعتنى بدراسة نكت ورودها كلها في القرآن الكريم أو جمع في دراسة بين أدلتها وقواعدها واشتقاقاتها وأسرار ورودها في الكتاب العزيز .

ولعل بدراسة مثل هذه يتضح كثير من أسباب خلاف طوائف المسلمين فيها ويقتررب من القول الحق فيها ويستفاد من محاولة فقه ورودها في سياقها في القرآن الكريم تأويل كلامه عز وجل على مراده هو تعالى .

ومما حملني على هذه الدراسة بعينها أن قد كنت يوما عام 2007 اقترحت هذا العنوان أو قريبا منه لرسالة الماجستير على أستاذ لي بجامعة الجزائر، فأبى - حفظه الله - تورعا وقال : أي أرض تقلني و أي سماء تظلني إن أنا تكلمت في كتاب الله بما لا أعلم ، فاخترت موضوعا آخر في دلالة المفرد والجمع وسهل الله بحته مع أستاذي أحمد حساني، ويوما على كرسي مكتبة الجامعة وقفت على رسالة دكتوراه ، فوجدته - وهو الذي تورع عن الخوض في كتاب الله وأسمائه - ينقل - عن حسن ظن منه - كلام علم من أعلام العربية ألا وهو ابن جني في آية : " فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ " القصص : (30) ، حيث قال : "خلق له كلاما في الشجرة "، تركبة الاعتزال التي ما سلم منها إلا القليل من أساطين اللغة والبيان ، والله الحمد أن سلم أئمة العربية

أبا عمرو وقرائه والأصمعي ودواوينه والخليل وعينه وسيبويه وكتابه والكسائي ونحوه ومن بعدهم قليل وإلا لتقولوا على العرب وشعرائها على حسن قصد منهم ما لم تكلم به الأعراب ، وقد روى الزبيدي بسنده إلى الأصمعي ، قال : حدثنا أحمد قال : حدثنا مروان قال : حدثنا العباس بن الفرغ عن الأصمعي قال : كادت الإباضية تغلب على الخليل حتى من الله عليه بمجالسة أيوب¹ (بن أبي تميمة السختياني راوية الحديث وعلم السنة) ، فلأجل هذا كان لزاما - وتركه الاعتزال تركت وصية لورثة استولوا على منابر العلم ولئن سألتهم ليقولن استوبنا وكنا أهلا فعلونا وعن الرحمن الذي على العرش استوى قالوا استولى - بيان أقوال أئمة السلف في أسمائه وصفاته قبل البحث في نكت سوقها في كلامه .

فهل بعد هذا من معاذ لعائد وهل من معيذ يتقي الله عاذل

فيا أيها المتأمل لهذا البحث الواقف عليه لك غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، ولك فائدته، وعليه عائدته، فلا تعجل بإنكار ما لم يتقدم لك أسباب معرفته ولا يحملتك شأن مؤلفه وأصحابه على أن تحرم ما فيه من الفوائد التي لعلك لا تظفر بها في كتاب ولعل أكثر من تعظمه ماتوا بحسرتها ولم يصلوا إلى معرفتها والله يقسم فضله بين خلقه بعلمه وحكمته وهو العليم الحكيم والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ولعل أقرب بحث للباب الثاني في بحثنا هو رسالة الدكتوراه التي نبهنا إليها. بعد إنهائه - بعض الفضلاء ولم نستفد منها وهي : " أثر السياق في بنية الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى (دراسة تحليلية) " للدكتورة هانم محمد حجازي الشامي مدرس النقد والبلاغة - قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية كلية الآداب - جامعة كفر الشيخ ، صدر عن مكتبة الآداب بالقاهرة الطبعة الأولى (2013) ويقع الكتاب في 266 صفحة من القطع العادي.

قالت المؤلفة وفقها الله تعالى في مقدمة الكتاب ص 3 : ويقع هذا الكتاب في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

¹ - محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مزحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (المتوفى: 379هـ) - طبقات النحويين واللغويين - ت : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - ط : 2 - ص : 48/1 .

أما التمهيد ، فقد تم تخصيصه للحديث عن السياق وأثره الفاعل فى الكشف عن غموض المعنى ، فهو المؤسس للدلالة الكاشف عنها ، وهو الدال على المناسبات وأسرار خاتمة الآيات.

الفصل الأول : أثر السياق فى فهم مشكل الفواصل :

ويعنى بالكشف عن أهمية السياق والقرائن والدلالات وعرض لنماذج من الخواتم جاءت على خلاف توقع المتلقى ، لتوافق تعالق اللفظة بالسياق الذى وردت فيه.

الفصل الثانى : فاعلية السياق فى خواتم الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى :

ويعنى بالكشف عن الترابط اللفظى والمعنوى بين آى القرآن الكريم ، ممثلا فى (علم المناسبات) لكونه وجها من وجوه الملاءمة لمقتضى الحال ، ليتحقق مبدأ اتساق المعانى ، وانتظام المبانى فى النص القرآنى .

وتناول الفصل هذه العلاقة من زاويتين :

الأولى : العلاقة على مستوى (الجملة) . وتضمنت ثلاثة أنواع من العلاقات : (التمكين ، التصدير ، التوشيح) ، وبيان أهميتها كوسيلة من وسائل التماسك النصى.

الثانية: العلاقة على مستوى (النص) . وتضمنت أربعة أنواع : (علاقة السورة باسمها ، علاقة السورة بالسور الأخرى ، علاقة السورة بالسور التالية لها ، تعلق الفاصلة موسيقيا بمضمون السورة). قصدا لإظهار تماسك النص القرآنى ، وأنه يفسر بعضه بعضا.

الفصل الثالث : أثر السياق فى بناء الخاتمة فى أسماء الله الحسنى :

ويعنى بالكشف عما تحققه بنية النص من قوة تعبيرية ممثلة فى الجملة الخبرية ، فى ظل منظومة سياقية كبرى ، ليتحقق التفاعل والمشاركة بين أطراف العملية التواصلية.

ويتضمن عدة مباحث :

المبحث الأول : الأسلوب الخبرى فى خواتم الآيات المنتهية بالأسماء الحسنى :

ويتضمن دراسة أغراض الإسناد الخبرى ، والتبادل بين أضرب الخبر ، وتحولات الأسلوب بين مقتضى الظاهر ، وخلاف مقتضى الظاهر . لينتولن الأسلوب اللغوى للتعبير بتلون الصور الدلالية التى يعبر عنها ، ويتماوج بتماوج النفس وأحوالها المتنوعة.

المبحث الثانى: أسماء الله الحسنى بين الألف واللام والتجريد منها :

وعرض هذا المبحث تحليلاً لأنماط من الأسماء الحسنى - فى نسيج النظم القرآنى - جاءت متصلة بالألف واللام فى موضع ، ومجردة منها فى آخر ، نظراً لاختلاف السياق وترتيب النزول .

المبحث الثالث: التكرار فى أسماء الله الحسنى :

وانعقد لبيان الدواعى الفنية للتكرار ، وأنواعه فى أسماء الله الحسنى ، وهى : ما تكررت فيه اللفظة فى مواضع عدة سواء كانت مفردة أو متعاقبة بغيرها فى سياق النص القرآنى .

ما تكررت فيه الآيات - المتقاربة لفظاً ومعنى - على مستوى النص القرآنى (النص / التناص) .

ما تكررت فيه الجملة على مستوى النص الواحد ، (الجملة / النص).
وركزت الدراسة على النوع الثالث ، إذ تم تناول المستوى الأول والثانى فى كتاب الباحثة المعنون / الدلالة السياقية لاقتزان أسماء الله الحسنى فى خواتيم الآيات.

المبحث الرابع: الأسلوب العدولى فى خواتم الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى وأثره البلاغى :
وانعقد لبيان ما يطرأ على التركيب من تحول لبعض عناصره ، وتضمن ثلاثة أنواع من التحولات : (العدول من اسم إلى اسم آخر) . (الإظهار فى موضع الإضمار) . و(العدول فى الضمائر) ، ليرتبط ذلك التحول بالمقام والسياقات المحيطة بالنص.
الخاتمة :

وتضمنت ملخصاً يبين أهم النتائج التى توصلت إليها .

ثم ثبت بالمصادر والمراجع التى اعتمد البحث عليها.

ولعلّ الله يوفقنا للوقوف على هذا الكتاب وعلى بحوث أخرى غيره يفيدنا الله بها فى قادم الأيام لكن الشيء الذى أرهقنا طويلاً فى بحثنا هو خطة الباب الثانى ولمن شكّ فى تعسّر إيجاد خطة تجمع فيها كل الأسماء والصفات الواردة فى القرآن فليحاول قبل النظر فيما منّ الله به علينا من خطة فيها أن يجد مخرجاً أكاديمياً يدرس فيه لطائفها البيانية كلها دون التمثيل والاقتضاب ، فإن حمل النصال، غير مباشرة القتال.

ولمّا كان مثل هذه اللطائف والمعاني يستدعي لطافة ذهن ورقة طبع ولا تتأتى مع غلظ القلوب والرضى بأوائل مسائل المعاني والبيان دون تأملها وتدبرها والنظر إلى حكم الله وأسرار كتابه

الَّتِي تَدِقُّ عَلَى أَكْثَرِ الْعُقُولِ ، وقد أشكلت معرفة ذاته وصفاته على مقاحيم النظر الفحول، بسطنا القول في بحثنا في نزاع أهل النظر وأهل الأثر في الاسم والمسمى لأن في ذيلها نفيًا أو إثباتًا للأسماء والصفات فلما شفينا فيها الغليل وقطعنا فيها شبه كلِّ ملبِّس ضلِّيل ثنينا بأدلة القرآن والسنة مع أدلّة عقول العلماء العدول ثمّ ثلثنا ببيان معاني الأسماء والصفات وما فيها من أوزان واشتقاقات في لسان العرب الثقات ، ثمّ فتحنا باب الجدل والكلام لأنّ في تمحيص أقوال النفاة والمشبّهة العتاة والحلولية الغلاة عظيم دفاع عن ما لله من أسماء وصفات ولأنّ بنصرة طائفة من الطوائف بردّ كلِّ دليل زائف يردّ الباحث باب اللطائف فينهل ما يستقيم من المعارف .

ولأجل هذا امتزج البحث بعلم الكلام وعلم متن اللغة وعلم الصرف وعلم البيان ، فكان المنهج في مناقشة المتكلمين جدليا قائما على الحجّة والبرهان واستقصائيا بنويًا في تتبع اشتقاقات الأسماء والصفات ومعاني أبنيتها ، ونهجنا في باب استنباط اللطائف طريقة المقارنة بين الآي المتشابهة لتعليل نكت اختلاف بعض ألفاظها وكذا اختلاف ما عقبت به من أسماء مختلفة .

و ساقنا إلى هذا الطريق في البحث ما أشكل علينا ردحا من الزمن حول سرّ خلاف طوائف الإسلام في معرفة الخالق وصفاته ومعرفة البدئ والميعاد وشفاء الغليل ونيل الوطر من معاني الأزلية والأبدية ، وإشكالية : هل الأسماء والصفات هي التي تقيّد معاني الآيات التي وردت فيها، وبذلك يتوقف فهم الآية على فهم دلالة الصفة أو الاسم الذين ختمت بهما ؟ أم أن سياق الآيات بقرائنه المحيطة بهذه الأسماء والصفات هو الذي يفسّر ويوضح دلالة ومقتضى هذه الأسماء والصفات؟ أم أن المعنى التام هو نتاج نظرة سياقية شاملة لكلامه عزّ وجلّ قبل ورود الأسماء والصفات ونظرة أخرى في هذه الأسماء والصفات ذاتها وكيفية تزاوجها وإقترانها؟ وفي الكتاب الكريم ما تتوق إليه القلوب من فهم ذلك الأسلوب الذي فيه تأتي الأسماء والصفات في عقب الآيات فنتطّلع النفوس وتشرئب الأفئدة إلى لمس نكت البيان في مثل هذه الآي من القرآن فجاءت خطة البحث وهذه الإشكالات سيان كأنهما رضيعا لبان :

الباب الأول : أدلة الأسماء والصفات وأقسامها وقواعدها واشتقاقاتها

الفصل الأول : مدخل إلى الأسماء والصفات

المبحث الأول : تعريف الأسماء والصفات

المطلب الأول : تعريف الاسم

المطلب الثاني : النزاع في الاسم والمسمى

المطلب الثالث : تعريف الصفة

المبحث الثاني : أدلة إثبات الأسماء والصفات

المطلب الأول : الأدلة النقلية

المطلب الثاني : الأدلة العقلية

الفصل الثاني : أقسام الأسماء والصفات وقواعدها واشتقاقاتها

المبحث الأول : أقسام الأسماء والصفات وقواعدها

المطلب الأول : أقسام الأسماء والصفات

المطلب الثاني : قواعد في الأسماء والصفات

المبحث الثاني : اشتقاق الأسماء والصفات

المطلب الأول : اشتقاق اسمه العلم المتضمن لجميع معاني

الأسماء والصفات

المطلب الثاني : اشتقاق الأسماء المتضمنة لصفة ذات الله عز وجل

المطلب الثالث : اشتقاق الأسماء المتضمنة لفعل الله عزّ وجلّ

الباب الثاني : لطائف البيان في أسماء وصفات الرحمن بين الفراق والقران

مدخل : في الفاصلة القرآنية

الفصل الأول : حكم المنان في أفراد الأسماء والصفات في تعقيب الآيات

المبحث الأول : انفراد الأسماء والصفات الدالّة على معاني الألوهية

المطلب الأول : اسمه الأعظم العلم الله / إله

المبحث الثاني : انفراد الأسماء والصفات الدالّة على معاني الربوبية

المطلب الأول : الربّ

المطلب الثاني : الملك / المالك / المليك

المطلب الثالث : المحيط

المطلب الرابع : البارئ

المطلب الخامس : الخالق

المطلب السادس : السميع

المطلب السابع : البصير

المطلب الثامن : الخبير

المطلب التاسع : العليم : عليم / عالم / علّام

المطلب العاشر : الحافظ / الحفيظ

المطلب الحادي عشر : الحسيب

المطلب الثاني عشر : الحفيّ

المطلب الثالث عشر : الرزّاق / خير الرازقين

المطلب الرابع عشر: الوارث

المطلب الخامس عشر: الوكيل

المطلب السادس عشر: القريب

المطلب السابع عشر: الوهّاب

المطلب الثامن عشر: المقيت

المطلب التاسع عشر: الحيّ

المبحث الثالث : انفراد أسماء وصفات الجلال

المطلب الأول : القدير/ القدير

المطلب الثاني : المجيد

المطلب الثالث : الأعلى

المطلب الرابع : القاهر

المطلب الخامس : العزيز

المطلب السادس : العظيم

المطلب السابع : الغني

المطلب الثامن :القويّ

المبحث الرابع : انفراد أسماء وصفات الجمال

المطلب الأول : الرحمن / الرحيم

المطلب الثاني : غافر / الغفار / غفور

المطلب الثالث : التّوّاب

المطلب الرابع : الرؤوف

المطلب الخامس : الكريم

المطلب السادس: المولى / الولي / النصير

المطلب السابع : الهادي / النور

الفصل الثاني : النكت في اقتران الأسماء والصفات في تذييل الآيات

المبحث الأول : اقتران أسماء وصفات الألوهية فيما بينها

المطلب الأول : الله / إله و واحد و أحد

المطلب الثاني : الحق مع ما اقترن به

المبحث الأول : اقتران أسماء وصفات الربوبية فيما بينها

المطلب الأول : الخالق مع الوكيل والخلق مع العليم

المطلب الثاني : السميع مع ما اقترن به " العليم ، البصير، القريب"

المطلب الثالث : الخبير مع ما اقترن به : العليم، الحيّ، الرحمن، الحكيم،

اللطيف ، البصير

المطلب الرابع : العليم مع ما اقترن به " الحكيم ، الفتاح ، الواسع ، والأول

والآخر و الظاهر والباطن

المبحث الثالث : اقتران الأسماء والصفات الدالة على الجلال فيما بينها

المطلب الأول : المقتدر مع العزيز

المطلب الثاني : العليّ مع العظيم و الكبير

المبحث الرابع : اقتران الأسماء والصفات الدالة على الجمال فيما بينها

المطلب الأول : الرحيم مع ما اقترن به : الغفور / البرّ / التوّاب / الرؤوف / العفوّ

المطلب الثاني : الغفور مع ما اقترن به : الحليم / الشكور / الودود / العفوّ / الكريم

المطلب الثالث : الولي الحميد

المطلب الرابع : الشكر زيادة على الحلم

المطلب الخامس : نعم المولى ونعم النصير

المبحث الخامس : مطلق الاقتران بين الأسماء والصفات

المطلب الأول : الألوهية مع ما بقي من معان

المطلب الثاني : الربوبية مع الجلال

المطلب الثالث : الربوبية مع الجمال

المطلب الرابع : الجلال مع الجمال

الباب الأول :

أدلة الأسماء والصفات وأقسامها وقواعدها واشتقاقاتها

الفصل الأول : مدخل إلى الأسماء والصفات

تمهيد :

لقد تحدّث القرآن الكريم عن الذات الإلهية في عديد من الآيات "دون تصريح بلفظ الذات" وكثيراً ما يصدر الحديث باسم " الله " فالله علم على الذات العلية مثل:

- قوله تعالى: { الحمد لله ربّ العالمين - الرحمن الرحيم - ملك يوم الدين } [الفاتحة : 1،2،3]
- قوله تعالى: { الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم } [البقرة : 255]
- وقوله تعالى: { الله لا إله إلاّ هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة } [النساء : 87] .
- وقوله تعالى: { الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم نزل عليك الكتاب } [آل عمران: 2،3]
- وقوله تعالى: { الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور } [البقرة : 257]
- وقوله تعالى: { الله الذي له ما في السموات وما في الأرض } [الرعد : 2] .
- وقوله تعالى: { الله لا إله إلاّ هو له الأسماء الحسنى } [طه : 8] .
- وقوله تعالى: { الله نور السموات والأرض } [النور : 35] .
- وقوله تعالى: { الله لا إله إلاّ هو ربّ العرش العظيم } [النمل : 26] .
- وقوله تعالى: { الله ربّكم وربّ آبائكم الأولين } [الصافات : 126] .
- وقوله تعالى: { الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً } [الزمر : 23] .
- وقوله تعالى: { الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان علمه البيان } [الرحمن : 1-4]

فالله والرحمن وغيرهما من أسماء الله إنما هي أعلام دالة على ذات الله تعالى، وهي مع كونها أعلاماً دالة على الذات، وهي أيضاً أوصاف كمال.

وليس بين المؤمنين بالله وكتابته وبرسوله عليه الصلاة والسلام، وما جاء به من الهدى خلاف في أن مقام الإلهية فوق كل مقام. وأن ذاته سبحانه فوق كل الذوات، وأن له سبحانه الكمال المطلق في ذاته وصفاته.

ثم إنه من غير الجائز عقلاً وشرعاً محاولة إدراك حقيقة ذاته، وصفاته بل لا بد من الوقوف عند فهم المعنى العام فقط دون تعمق أو تفلسف لمحاولة إدراك الكنه والكيفية ثم اللجوء إلى التأويل عند العجز عن إدراك الحقيقة، وهو أمر محتم " فالعجز عن الإدراك هو الإدراك في

المطالب الإلهية¹ ، لأن إدراك كيفية صفات البارئ فوق مستوى العلم البشري لَوْ مَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء : 85] ، هذا هو موقف السلف من معاني صفاته بكل إيجاز ، كما يحكى ذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قيل له : بم عرفت ربك فقال: عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي ، فقيل له وهل يتأتى لبشر أن يدركه؟ فقال العجز عن الإدراك إدراك² . وأما الخلف فلا يسعهم - عادة - إلا الخوض والتعمق والمناقشات المتطرفة هذا ... وذات الله - مع أنها فوق أن تدرك وفوق أن تحد - قد وصفت في القرآن بصفات كثيرة ، كالإرادة والعلم ، والقدرة وغيرها ، وهي صفات كمال الكمال المطلق ، ومع هذا فلا بد أن تضاف هذه الصفات إلى "ذات" كما تضاف مثل هذه الصفات وغيرها إلى ذاتنا مع الفارق البعيد بين كمالها في ذات الإله ، ونقصها في ذات الإنسان !!

وقد جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات التي تضيف إلى الله صفات فعل تدل على الإيجاد كقوله تعالى: في أول ما نزل من الكتاب: {أَفْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ أَفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق : 1- 5] . ففي الآيات تعريف بذات الله ، وأنها تخلق وتعلم ، وكقوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ} [الرعد : 8 - 9] ، وقوله تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [الشورى : 19] ، وقوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة : 1] ، فذات الإله ذات توصف بالسمع وتوصف بالرؤية وتوصف بالعزة والحكمة {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ* هُوَ الَّذِي

¹ - ينظر : محمد أمان الجامي - الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه - المجلس العلمي

بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، الطبعة : الأولى، 1408هـ - ص : 287

² - لكن القشيري يعزوه لشيخ الزهد " ذي النون " المصري بهذا اللفظ : سمعت مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شاذَانَ يَقُولُ: سمعت

يُوسُفَ بْنَ الْحُسَيْنِ يَقُولُ قِيلَ لَدَيْ النُّونِ الْمِصْرِيِّ بِمَ عَرَفْتَ رَبِّكَ قَالَ: "عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي " ينظر

القشيري عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: 465هـ) . الرسالة القشيرية - ت : عبد الحليم محمود، و محمود بن

الشريف - دار المعارف، القاهرة - مصر - ص : [481/2] . وينظر ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر - مدارج

السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - ت : محمد المعتصم بالله البغدادي - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - ط :

3/ 1416 هـ - 1996م - ص : [319/3] .

يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران : 5- 6] وأكثر
فواصل القرآن تنتهي غالباً بصفة من صفات الله تعالى أو بالمزاوجة بين صفتين من صفاته. ¹

المبحث الأول : تعريف الأسماء والصفات

المطلب الأول : تعريف الاسم

- اشتقاق الاسم والتسمية والمسمى :

قال الخليل : " سَمَوَ : سما [الشيء] يَسْمُو سُمُوًّا ، أي : ارتفع ، وسما إليه بَصَرَكَ ، أي ارتفع
بَصَرَكَ إليه ، وإذا رُفِعَ لك شيءٌ من بعيدٍ فاستبنته قلت : سما لي شيءٌ ، قال :

سما لي فرسانٌ كأنَّ وجوههم مصابيح تبدو في الظلام زواهر ²

وإذا خرج القومُ للصَّيد في قفار الأرض وصحاريها قلت : سَمَوًا ، وهم السُّمَاءُ ، أي : الصَّيَّادون .
وسما الفحلُ إذا تطاول على شؤله سُمُوًّا . والاسم : أصلُ تَأْسِيسِهِ : السُّمُو ، وألفُ الاسمِ زائدةٌ
ونقصائه الواوُ ، فإذا صَغُرَتْ قُلْتُ : سُمِّي . وسَمَّيت ، وأسَمَّيت ، وتَسَمَّيت بكذا ، قال :

باسم الذي في كلِّ سورة سِمُهُ قد وَرَدَتْ على طريقِ تَعَلُّمِهِ ³

قال الجوهري : " واختلف في تقدير أصله ، فقال بعضهم فعل ، وقال بعضهم فُعل ، وأسماء يكون
جمعا لهذين الوزنين ، مثل جذع وأجداع ، وقفل وأقفال ، وهذا لا تدرك صيغته إلا بالسمع . وفيه
أربع لغات اسم وأسم بالضم ، وسِم وسُم [زاد الجواليقي : " وسُمِّي كهُدَى "] .

وأنشد : والله أسماك سما مباركا أترك الله به إيثاركا ،

وقال آخر : وعامنا أعجبنا مقدمه يدعى أبا السمع وقرضاب سمه

¹ محمد أمان الجامي - الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه - مرجع سابق ، ص : 84

² - ينظر تتمته : الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد - أساس البلاغة - ت : محمد باسل عيون السود -
دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان - ط : 1 / 1419 هـ - 1998 م - ص : 476 ، لم يهتدى لقائله .

³ - الفراهيدي الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم - العين - ت : مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي - دار ومكتبة الهلال -
ص : [318/7] . ينظر تنمة الرجز : أبو بكر الأنباري محمد بن القاسم بن محمد بن بشار- الزاهر في معاني كلمات الناس -
ت : حاتم صالح الضامن - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط : 1 / 1412 هـ - 1992 م - ص : 54 وعزي الرجز لرجل من
كلب في نوادر أبي زيد 166 وبلا عزو في الإنصاف 16 . ونسب إلى رؤية في شرح شواهد الشافية 177 وليس في ديوانه .
وأصل رواية البيهتين :

أرسلَ فيها بارزًا يُقرِّمُهُ ... وهو به ينحو طريقًا يعلمُهُ

باسم الذي في كلِّ سورة سِمُهُ

بالضم والكسر جميعا. وألفه ألف وصل وربما جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة كقول الأحوص:

وما أنا بالمخسوس في جذم مالك ولا من تسمى ثم يلتزم الاسما
وإذا نسبت إلى الاسم قلت سَمَوِيٌّ، وإن شئت اسمي تركته على حاله. وجمع الأسماء أسامٍ.
وحكى الفراء: أَعْيَذُكَ بِأَسْمَاوَاتِ اللَّهِ.¹
وَسَمَاءُ النَّعْلِ: أَعْلَاهَا الَّتِي تَقَعُ عَلَيْهَا الْقَدَمُ. وَسَمَاوَةُ الْبَيْتِ: سَقْفُهُ.
وَسَمَاوَةُ كُلِّ شَيْءٍ: شَخْصُ أَعْلَاهُ. قَالَ طَفِيلُ الْغَنَوِيِّ يَصِفُ سَقْفَ بَيْتٍ تَطَلَّلَ فِيهِ قَائِلَةٌ فِي فَلَاةٍ
مِنَ الْأَرْضِ:

سماوته أسمالُ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ وصهوته من أنحميٍّ مُعَصَّبٍ
وقال أبو عبيدة: سماءُ الفرس من لدن عجب الذنب إلى الصُّطرة.
قال: والسَّمَاءُ: سَقْفُ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلُّ بَيْتٍ. وَالسَّمَاءُ: السَّحَابُ. وَالسَّمَاءُ: الْمَطَرُ. وَالسَّمَاءُ أَيْضًا:
اسْمُ الْمَطَرَةِ الْجَدِيدَةِ.

يُقَالُ: أَصَابَتْهُمْ سَمَاءٌ، وَسُمِّيَتْ كَثِيرَةً، وَثَلَاثُ سُمِّيَتْ، وَالْجَمِيعُ الْأَسْمِيَّةُ وَالْجَمْعُ الْكَثِيرُ سُمِّيَتْ.
قَالَ: وَالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ: أَطْبَاقُ الْأَرْضِيِّينَ، وَتُجْمَعُ سَمَاءٌ وَسَمَاوَاتٌ.
قُلْتُ: السَّمَاءُ عِنْدَ الْعَرَبِ مُؤَنَّثَةٌ، لِأَنَّهَا جَمْعُ سَمَاءَةٍ، وَسَبِقَ الْجَمْعُ الْوُحْدَانَ فِيهَا.
وَيُقَالُ سَمَاءٌ وَسَمَاوٌ، وَحَكَى الْأَخِيرَةَ الْكِسَائِيُّ غَيْرَ مُعْتَلَّةً؛ وَأَنشَدَ ذُو الرِّمَّةِ:
وَأَقْسَمَ سَيَّارٌ مَعَ الرِّكْبِ لَمْ يَدَعْ ... تَرَاوُحَ حَافَاتِ السَّمَاوِ لَهُ صَدْرًا
هَكَذَا أَنشَدَهُ بِنَصْحِيحِ الْوَاوِ. وَاسْتَمَاءُ: نَظَرَ إِلَى سَمَاوَتِهِ. وَسَمَاوَةُ الْهَيْلَالِ: شَخْصُهُ إِذَا ارْتَفَعَ عَنِ
الْأَفُقِ شَيْئًا؛ وَأَنشَدَ لِلْعَجَّاجِ:

ناجِ طَوَاهُ الْأَيْنِ هَمًّا وَجَفَا ... طَيِّ اللَّيَالِي زُفَاً فُزُفَاً،
سَمَاوَةَ الْهَيْلَالِ حَتَّى احْقُوقَهَا²

¹ - الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية - ت: أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - ط: 4/ 1407 هـ - 1987 م - ص: [2383/ 6].

² - ينظر ابن منظور أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي - لسان العرب - دار صادر - بيروت ط: 3- 1414 هـ - ص: [400/14].

وجاء في تهذيب اللغة: " والسماء أصلها سماوة فأعلم. وإذا ذكرت العرب السماء عنوا بها السقف.

ومنه قول الله: {شَبَّيْنَا السَّمَاءَ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} [المزل: 18] ، ولم يقل مُنْفَطِرَةٌ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: السماءُ فِي اللُّغَةِ: يُقَالُ لِكُلِّ مَا ارْتَفَعَ وَعَلَا قَد سَمَا يَسْمُو، وَكُلُّ سَقْفٍ فَهُوَ سَمَاءٌ، وَمِنْ هَذَا قِيلَ لِلسَّحَابِ: السَّمَاءُ، لِأَنَّهَا عَالِيَةٌ. وَالِاسْمُ أَلْفُهُ أَلْفٌ وَصَلَّ، وَالِدَلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّكَ إِذَا صَعَّرْتَ الْاسْمَ قُلْتَ: سُمِّيَ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: هَذَا اسْمٌ، وَهَذَا سُمٌّ وَأَنْشَدَ:

بِاسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سُمُّهُ

وَسُمُّهُ رَوَى ذَلِكَ أَبُو زَيْدٍ وَغَيْرُهُ مِنَ النُّحَوِيِّينَ.

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: وَمَعْنَى قَوْلِنَا: اسْمٌ هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّمُو، وَهُوَ الرَّفْعَةُ، وَالْأَصْلُ فِيهِ سِمُوٌّ بِالْوَاوِ، وَجَمَعَهُ أَسْمَاءٌ، مِثْلَ قِنُوٍّ وَأَفْنَاءٍ، وَإِنَّمَا جُعِلَ الْإِسْمُ تَنْوِيهًا عَلَى الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ الْمَعْنَى تَحْتَ الْإِسْمِ.

قَالَ: وَمَنْ قَالَ: إِنَّ اسْمًا مَأخُودٌ مِنْ وَسَمْتُ، فَهُوَ غَلَطٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ اسْمٌ مِنْ سِمْتُهُ لَكَانَ تَصْغِيرُهُ وَسِيمًا مِثْلَ تَصْغِيرِ عِدَّةٍ وَصِلَّةٍ، وَمَا أَشْبَهَهُمَا. ¹

وقال الخليل في " و س م " : " وسم: الوسم، والوسمة الواحدة: شجرة ورقتها خضاب. والوسم: أثر كي. ويعير موسوم: وسم بسمه يعرف بها، من قطع أذن أو كي. والميسم: المكواة، أو الشيء الذي يؤسم به سمات الدواب، والجميع: المواسم، قال الفرزدق:

لقد قلدت جلف بني كليب ... قلائد في السوالف ثابتات

قلائد ليس من ذهب ولكن ... مواسم من جهنم منضجات

وفلان موسوم بالخير والشر، أي: عليه علامته. وتوسمت في الخير والشر، أي: رأيت فيه أثراً. قال:

توسمته لما رأيت مهابة ... عليه، وقلت: المرء من آل هاشم ²

¹ - الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد الهروي - تهذيب اللغة - ت : محمد عوض مرعب - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - د ت - ص : [79/13] .

² - مطلع قصيدة رائعة لأعرابي يمدح فيها عبيد الله بن العباس - ينظر القصة بطولها : أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (المتوفى: 390هـ) - المجلس الصالح الكافي والأنيب الناصح الشافى - ت : عبد الكريم سامى الجندي - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط : 1426/1 هـ - 2005 م - ص : 177 .

وقلانة ذات ميسم وجمال، وميسمها أثر الجمال فيها، وهي وسيمة قسيمة، وقد وسمت وسامة،
بيبة الوسام والقسام، قال عمرو بن كلثوم في طويلته :

ظعائن من بني جشم بن بكرٍ ... خلطن بميسم حسبا ودينا ¹

وقد نصر الباقلائي كونه مشتقا من سمو، قال : " اختلف الناس في الاسم ومما اشتقاقه فقال
أهل الحق إنه مشتق من سمو وقالت المعتزلة وغيرها من أهل الأهواء إنه مشتق من السمة
وهي العلامة "

ثم قال : " والدليل على صحة ما قلناه إنه مشتق من سما يسمو وليس من وسم يسم أن العرب
صغرتة فقالت سمي ولو كان من السمة لقالوا وسيم كما قالوا في تصغير عدة وزنة وعيدة
ووزينة فدل ذلك على أن المحذوف منه لام الفعل دون الفاء وقد أطبقوا على أن اسم قد حذف
منه لأنه على حرفين السين والميم وأصله سمو على ما قلناه والألف التي قبل السين في قولك
اسم ألف وصل لا يعتد بها وإنما أدخلت في الكلام ليتوصل بها إلى النطق بالسكان وإذا كان
ذلك كذلك ثبت أن اسم على حرفين فقط السين والميم وعلمنا بذلك أنه قد حذف منه حرف لأن
أقل الأصول في الأسماء ما كان على ثلاثة أحرف فإذا وجدنا اسما على أقل من ذلك علما أنه
قد حذف منه حرف مثل يد ودم وأب وابن وما جرى مجرى ذلك مما هو على حرفين وإذا ثبت
ذلك فلا يخلو أن يكون المحذوف منه الفاء أو اللام ولا يجوز أن يكون المحذوف منه الفاء لأن
العرب قالت في تصغيره سمي كما صغرت ابنا فقالت فيه بني فردت منه اللام ولو كان
المحذوف منه الفاء لقالوا وسيم كما قالوا في تصغير عدة وزنة وجهة وعيدة ووزينه ووجهية لأنه
من الوعد والوزن والوجه وإنما حذف الواو من المصدر لأنها حذفت من الفعل لأنهم قالوا يعد
مكان يوعد ومن شأنهم إذا غيروا الفعل ضربا من التغيير أن يحملوا المصدر عليه فيفعلوا فيه
كما يفعلون في الفعل..... ²

وقال أيضا : " وقد علمنا أنه لا يجوز تصغير الاسم الذي يكون على حرفين وإنما يصح ذلك
فيه إذا كان على ثلاثة أحرف فصاعدا فاحتجنا أن نرد المحذوف ...

¹ - الفراهيدي - العين - مصدر سابق - ص : [321/7 - 322] .

² - الباقلائي القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المالكي (المتوفى: 403هـ) - تمهيد الأوائل في
تلخيص الدلائل - ت : عماد الدين أحمد حيدر- مؤسسة الكتب الثقافية - لبنان - ط : 1 / 1407هـ - 1987م - ص : 256

فَإِذَا صَغُرَتْ اسْمًا قَلَّتْ فِيهِ سُمِّيٌّ وَذَلِكَ لِأَنَّكَ رَدَدْتَ الْمَحْدُوفَ وَهُوَ الْوَاوُ ثُمَّ أَدَخَلْتَ يَاءَ التَّصْغِيرِ إِلَيْهِ سَاكِنَةً فَاجْتَمَعَ يَاءٌ وَوَاوٌ وَالْأَوَّلُ مِنْهُمَا سَاكِنٌ فَقَلَبْتَ الْوَاوُ يَاءً وَأَدغَمْتَ الْيَاءَ فِيهَا فَصَارَ سُمِّيٌّ كَقَوْلِكَ حُجَيْرٌ وَجَبِيلٌ وَبَنِي - تَصْغِيرُ ابْنِ الَّذِي أَصْلُهُ بِنُو- وَهَذَا أَصْلُ مَطْرَدٍ فِي كَلَامِهِمْ إِذَا اجْتَمَعَتْ وَوَاوٌ وَبِئَاءٌ وَالْأَوَّلُ مِنْهَا سَاكِنٌ أَدغَمَ أَحدهمَا فِي صَاحِبِهِ فَصَارَ يَاءً مُشَدَّدَةً ، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ سَيْدٌ وَمَيْتٌ وَأَصْلُهُ سَيْوِدٌ وَمَيْوَيْتٌ لِأَنَّهُ فَعِلٌ مِنْ سَادَ يَسُودُ وَمَاتَ يَمُوتُ فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ الْيَاءُ وَالْوَاوُ وَالْأَوَّلُ مِنْهُمَا سَاكِنٌ أَدغَمَ أَحدهمَا فِي صَاحِبِهِ فَصَارَ يَاءً مُشَدَّدَةً فَلَذَلِكَ قَالُوا فِي تَصْغِيرِ اسْمٍ سَمِيٌّ وَفِي تَصْغِيرِ ابْنِ بَنِي ، وَهَذَا وَاضِحٌ فِي إِبْطَالِ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مِنْ وَسْمٍ يَسْمُ وَأَنَّ الْمَحْدُوفَ مِنْهُ فَأَنَّ الْفِعْلَ وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَمَا يَسْمُو¹

عصارة ما يستفاد من أقوال أصحاب المعاجم أن اشتقاق الاسم من "السُّمُو" هو الاشتقاق الخاص الذي يتفق فيه اللفظان في الحروف وترتيبها، فإنهم يقولون في تصريفه: "سميت"، "تسمية" [وأصلها "تسموة" قلبت واوها ياء لأجل الكسر قبلها] ولا يقولون: "وسمت". "وسما"

ويقولون في جمعه: "أسماء"، ولا يقولون: "أوسام".
 ويقولون في تصغيره: "سُمِّيٌّ"، ولا يقولون: "وسيم".
 ويقال لصاحبه: "مسمي"، ولا يقال: "موسوم".

وأما "السمة" فهي تتفق مع الاسم في "الاشتقاق الأوسط" وهو ما يتفق فيه حروف اللفظين دون ترتيبهما، فإنه في كليهما (السَّيْنُ وَالْمِيمُ وَالْوَاوُ) لكن اشتقاقه من "السُّمُو" هو الاشتقاق الخاص، كما أسلفنا.

وهذا ما نصره شيخ الإسلام جمعا بين قولي المدرستين - البصرة والكوفة - في فتاواه : " وهو مشتق من " السُّمُو " وَهُوَ الْعُلُوُّ كَمَا قَالَ النَّحَّاءُ الْبَصْرِيُّونَ وَقَالَ النَّحَّاءُ الْكُوفِيُّونَ هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ " السِّمَّةِ " وَهِيَ الْعَلَامَةُ وَهَذَا صَحِيحٌ فِي " الْإِشْتِقَاقِ الْأَوْسَطِ " وَهُوَ مَا يَنْتَقِ فِيهِ حُرُوفُ اللَّفْظَيْنِ دُونَ تَرْتِيبِهِمَا فَإِنَّهُ فِي كِلَيْهِمَا (السَّيْنُ وَالْمِيمُ وَالْوَاوُ) وَالْمَعْنَى صَحِيحٌ فَإِنَّ السِّمَّةَ وَالسِّيمَةَ الْعَلَامَةَ. وَمِنْهُ يُقَالُ: وَسَمْتَهُ أَسْمُهُ كَقَوْلِهِ: {سَسَمَهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} [القلم : 16] ، وَمِنْهُ التَّوَسُّمُ كَقَوْلِهِ: {لَايَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} [الحجر : 75] ، لَكِنَّ اشْتِقَاقَهُ مِنْ " السُّمُو " هُوَ الْإِشْتِقَاقُ الْخَاصُّ الَّذِي يَنْتَقِ فِيهِ اللَّفْظَانِ فِي الْحُرُوفِ وَتَرْتِيبِهَا وَمَعْنَاهُ أَخْصُ وَأَتْمُ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي تَصْرِيْفِهِ سَمِيَّتٌ وَلَا

¹ - الباقلائي - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل - ص : 257

يَقُولُونَ وَسَمَتَ وَفِي جَمْعِهِ أَسْمَاءٌ لَا أَوْسَامَ وَفِي تَصْغِيرِهِ سُمِّيَ لَا أُوسِيمَ. وَيُقَالُ لِصَاحِبِهِ مُسَمَّى لَا يُقَالُ مَوْسُومٌ وَهَذَا الْمَعْنَى أَحْصُ. " فَإِنَّ الْعُلُوَّ مُقَارِنٌ لِلظُّهُورِ " كُلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَعْلَى كَانَ أَظْهَرَ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلُوِّ وَالظُّهُورِ يَتَضَمَّنُ الْمَعْنَى الْآخَرَ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: {وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ} ¹، وَلَمْ يَقُلْ فَلَيْسَ أَظْهَرَ مِنْكَ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الظُّهُورَ يَتَضَمَّنُ الْعُلُوَّ وَالْفُوقِيَّةَ؛ فَقَالَ: " فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ". وَمِنْهُ قَوْلُهُ: {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ} [الكهف : 97] ، أَي يَعْلُوا عَلَيْهِ. وَيُقَالُ ظَهَرَ الْخَطِيبُ عَلَى الْمُنْبَرِ إِذَا عَلَا عَلَيْهِ. وَيُقَالُ لِلْجَبَلِ الْعَظِيمِ عِلْمٌ؛ لِأَنَّهُ لِعُلُوِّهِ وَظُهُورِهِ يُعْلَمُ وَيُعْلَمُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ تَعَالَى: { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ } [الشورى : 32] . وَكَذَلِكَ " الرَّابِئَةُ الْعَالِيَةُ " الَّتِي يُعْلَمُ بِهَا مَكَانُ الْأَمِيرِ وَالْجِيُوشِ يُقَالُ لَهَا عِلْمٌ وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ فِي الثُّوبِ لِظُهُورِهِ كَمَا يُقَالُ لِعُرْفِ الدِّيَكِ وَاللِّجْبَالِ الْعَالِيَةِ أَعْرَافٌ لِأَنَّهَا لِعُلُوِّهَا تُعْرَفُ فَالِاسْمُ يَظْهَرُ بِهِ الْمُسَمَّى وَيَعْلُو؛ فَيُقَالُ لِلْمُسَمَّى: سَمَّهُ: أَي أَظْهَرَهُ وَأَعْلَهُ أَي أَعْلَ ذِكْرَهُ بِالِاسْمِ الَّذِي يُذَكَّرُ بِهِ؛ لَكِنْ يُذَكَّرُ تَارَةً بِمَا يُحْمَدُ بِهِ وَيُذَكَّرُ تَارَةً بِمَا يُدْمُ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: { وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم : 50] وَقَالَ: { وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ } [الشرح : 4] وَقَالَ: { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ } { سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ } [الصافات : 78-79] . وَقَالَ فِي النَّوعِ الْمَذْمُومِ: { وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ } [القصص : 42] وَقَالَ تَعَالَى: { نَتَلَّوْا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ } [القصص : 3] . فَكِلَاهُمَا ظَهَرَ ذِكْرُهُ؛ لَكِنْ هَذَا إِمَامٌ فِي الْخَيْرِ وَهَذَا إِمَامٌ فِي الشَّرِّ. ²

المطلب الثاني : النزاع في الاسم والمسمى :

غير خفي عند أهل العلم أن هذه المسألة لم يخض فيها السابقون الأولون الصحابة والتابعون ولا الأئمة الأعلام الموثوقون ولو تكلموا فيها لهبّ المتنازعون إلى نصره أقوالهم بكلامهم ، ولكن نفاة الصفاة أحدثوا فيها سفسطة خدمة واحتجاجا وترويجا لعقائدهم الباطلة .

حدّث أبو بكر الخلال عن شيخه الإمام أحمد قال : " وعظم عليه الكلام في الإسم والمسمى وتكلم أصحابه في ذلك فمنهم من قال الإسم للمسمى ومنهم من قال الإسم هو المسمى والقول

¹ - مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري - المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ت : محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ص : [4 / 2084] .

² - ابن تيمية - مجموع الفتاوى - [208-207/6]

الأول قول جَعْفَر بن مُحَمَّد [الطبري] وَالْقَوْل الثَّانِي قول جماعَة من متكلمي أصحاب الحديث
وَالَّذِينَ طَلَبُوا السَّلَامَةَ أَمْسَكُوا وَقَالُوا لَا نَعْلَم " ¹

فقضية الاسم و المسمى من القضايا التي اشتهر النزاع فيها بعد أئمة السلف الأوائل كالإمام
أحمد وغيره، والذي كان معروفا عند أئمة السنة أحمد وغيره في ذلك: هو: الإنكار على
الجهمية الذين يقولون أسماء الله مخلوقة

أخرج اللالكائي عن إبراهيم بن هانئ قال: " سألت أحمد بن حنبل عن القرآن - وهو مختلف
عندي - فقال: من زعم أن أسماء الله مخلوقة فهو كافر". ²

لأن الجهمية يقولون: الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق. فذمهم
السلف وغلطوا القول فيهم لأن أسماء الله من كلامه وكلام الله غير مخلوق بل هو المتكلم به
وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء فأنكر الإمام أحمد قول الجهمية هذا لأنهم يريدون أن
يتوصلوا إلى القول بأن القرآن مخلوق.

على هذا القدر اقتصر القول في هذه المسألة في عصر الإمام أحمد، ثم اشتهر النزاع فيها
بعده، وتحصل فيها عدة أقوال:

الأول: أن الاسم غير المسمى - وهو قول الجهمية والمعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة
والزيدية.

الثاني: أن الاسم هو المسمى وأن أسماء الباري هي الباري. وهو قول أكثر أصحاب الحديث
والمنتسبين إلى السنة مثل أبي بكر بن عبد العزيز، وأبي القاسم الطبري واللالكائي، والبغوي. ³
الثالث: أن الاسم لا هو المسمى ولا هو غيره، وأن أسماء الباري لا هي الباري ولا هي غيره.
وعزاه الأشعري لبعض أصحاب ابن كلاب. ⁴

¹ - أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ) - العقيدة رواية أبي بكر الخلال - ت :
عبد العزيز عز الدين السيروان - دار قتيبة - دمشق - سوريا - ط : 1 / 1408 - ص : 113 .

² - اللالكائي أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي (المتوفى: 418هـ) - شرح أصول اعتقاد أهل السنة
والجماعة - ت : أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي - دار طيبة - السعودية - ط : 8 - 1423هـ / 2003م - ص : [351/2] .

³ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى - [187/6] .

⁴ - ينظر أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى
الأشعري (المتوفى: 324هـ) - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - عنى بتصحيحه: هلموت ريتز - دار فرانز شتايز،
بمدينة فيسبادن (ألمانيا) - ط : 3 / 1400 هـ - 1980 م - ص : 1 / 169 .

الرابع: التوقف: فلا يقال: أسماء الباري هي الباري، ولا يقال: لا هي الباري، ولا هي غيره.¹
الخامس: وهناك قول خامس في المسألة ارتضاه ابن جرير الطبري في كتابه " صريح السنة " بعد أن ذكر أن الكلام في هذه المسألة من الأمور المحدثّة التي لم يرد فيها نصٌّ عن السلف. وهو أن الاسم للمسمى. فقال: (وأما القول في الاسم هو المسمى أم هو غيره فإنه من حماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع فالحوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرئ من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قوله جلّ ثناؤه الصادق وهو قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: 110] وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} " [الأعراف: 180] ² .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عقب إيراد كلام الطبري هذا في فتاواه: (وهذا هو القول بأن الاسم للمسمى، وهذا الإطلاق اختيار أكثر المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره.³

ونذكر ابن أبي يعلى أن الإمام أحمد كان يشق عليه الكلام في الاسم والمسمى ويقول: هذا كلام محدث ولا يقول إن الاسم غير المسمى ولا هو هو، ولكن يقول: إن الاسم للمسمى اتباعاً لقوله تعالى {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} ⁴ .

فالمسألة طال فيها التنازع وكثر فيها القول بين الأصوليين والمتفلسفين وشاركهم فيها طائفة من النحويين، حتى ألفوا فيها التواليف، وصنّفوا فيها التصانيف، وشنّع كل فريق على مخالفة بأنواع من التشنيع والتعنيف، وبدع بعضهم بعضاً أو كاد يكفره.

والأمر في ذلك - إن شاء الله تعالى - سهل المسلك. قريب المدرك، لمن شرح الله صدره ونور بصيرته وإن كان " أبو حامد " قد زعم أنها طويلة الذيل، قليلة النيل.

ثم راح يؤصل فيها ويفصل فأتى رحمه الله بفوائد جمّة خالف فيها أسلافه الأشاعرة القدماء في تفريقه بين الاسم والمسمى ثم عاد رحمه الله في ختام بحثه فقال: فَهَذَا الْقَدْرُ يَكْفِيكَ فِي كَشْفِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَإِنْ كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ لِقَلَّةِ جِدْوَاهَا لَا تَسْتَحِقُّ هَذَا الْإِطْنَابَ وَلَكِنْ قَصَدْنَا بِالشرحِ تَعْلِيمِ

¹ - وقد ذكر هذه الأقوال الأربعة الأشعري في المقالات (253-252/1) .

² - الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر (المتوفى: 310هـ) - صريح السنة - بدر يوسف

المعتوق - دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت - ط : 1 / 1405 - ص : [1 / 26] .

³ - ينظر ابن تيمية - مجموع الفتاوى 187/6

⁴ ينظر : اللالكائي - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة - مصدر سابق - ص : [206/1] .

طريق التعرف لأمثال هذه المباحث لتستعمل في مسائل أهم من هذه المسألة فإن أكثر تطواف النظر في هذه المسألة حول الألفاظ دون المعاني والله أعلم ¹ غير أن السهيلي يرى أن فصل القول فيها بعد النظر والتبصر - لا سيما وقد ألبسها أقوام شيئا لإنفاق باطلهم - يثمر خيرا كثيرا . قال رحمه الله : ² " بل نيلها كثير لمن نظر واستبصر، وذلك أنها مسألة إذا انفتح ما استغلق منها، انفتح بذلك على الناظر كثير من المشكلات في كتاب الله عز وجل، وفي حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكلام العرب الذين بفهم كلامهم نفهم عن الله - عز وجل - وعن رسوله - صلى الله عليه وسلم - ونتوصل إلى فهم الكتاب وتأويله. "

وهذا عرض عقدي مفصل للمسألة نشد به أزر السهيلي رحمه الله :

- الفرق بين "الاسم" و"المسمى" و"التسمية":

يجب التفريق بين هذه الألفاظ الثلاثة؛ لأن منشأ الغلط في هذه المسألة من إطلاق هذه الألفاظ لغير معانيها التي لها، فلا يفصل النزاع إلا بتفصيل تلك المعاني، وتنزيل ألفاظها عليها فالاسم هو: اللفظ الدال على المسمى.

وأما "المسمى" فهو: الشيء الموجود في الأعيان أو الأذهان.

وأما "التسمية" فهي: فعل المسمى ووضعه الاسم للمسمى.

كما أن التحلية عبارة عن فعل "المحلى" ووضعه الحلية للتحلية.

ولهذا تقول: سميت هذا الشخص بهذا الاسم، كما تقول: حليته بهذه، التحلية، والحلية غير المحلى .

والتسمية: مصدر "سمى" "يسى" "تسمية" فالتسمية نطق بالاسم وتكلم به وليست هي الاسم نفسه

¹ . ينظر: الغزالي أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (المتوفى: 505هـ) - المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى -

ت : بسام عبد الوهاب الجابي - الجفان والجابي - قبرص - ط : 1/ 1407 - 1987 .

ص : [39 - 34] .

² - السهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (المتوفى: 581هـ) - نتائج الفكر في النحو - دار الكتب العلمية -

بيروت - ط : 1/ 1412 - 1992 م - ص : 29 .

فهنا ثلاث حقائق "اسم" و"مسمّى" و"تسمية" مثل: "حلية" و"مُحلى" و"تحلية"، و"علامة" و"مُعَلَّم" و"تعليم"، ولا سبيل إلى جعل لفظين منهما مترادفين على معنى واحد، لتباين حقائقها، وإذا جعلت الاسم هو المسمّى، بطل واحد من هذه الثلاثة ولا بد¹

فهل الاسم هو المسمّى في اللغة؟

من خلال ما تقدم ذكره تبين الفرق بين "الاسم" و"المسمّى" و"التسمية"، ولذلك ينبغي التنبيه على الحقائق التالية:

1- أن الاسم في أصل الوضع ليس هو المسمّى، وما قال نحويّ قط ولا عربيّ إن الاسم هو المسمّى² إلاّ أبا عبيدة معمر بن المثنى فقد نقل الأزهري عن أبي العباس المبرد أنّه قال: "الاسمُ رَسْمٌ وَسِمَةٌ يُوضَعُ على الشّيءِ يُعرَفُ بِهِ.

وَسُئِلَ عَنِ الْإِسْمِ أَهَوَ الْمَسْمَى أَوْ غَيْرُ الْمَسْمَى؟ .

فَقَالَ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْإِسْمُ هُوَ الْمَسْمَى.

وَقَالَ سَبِيوِيَه: الْإِسْمُ غَيْرُ الْمَسْمَى، قِيلَ لَهُ: فَمَا قَوْلُكَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ لِي فِيهِ قَوْلٌ " ³

وقول سيبويه يريد به أن لفظ " اسم " غير ما دلّ عليه لا ما أرادته المعتزلة

والعرب تقول: أجلّ مسمّى، ولا يقولون: أجلّ اسم.

ويقولون: مسمّى هذا الاسم كذا، ولا يقول أحد: اسمُ هذا الاسم كذا.

و لتوضيح الجانب العقدي في مسألة " الاسم والمسمّى والتسمية " يحسن:

أولاً: التعرف على أصل المسألة، أساسها الذي تعود إليه، فهذا يعين من جهة على تصور

المسألة وفهمها، ويعين من جهة أخرى على معرفة غاية كل طائفة من قولها

ومراميها وأهدافها التي تسعى إليها من وراء قولها في المسألة. فأصل هذه المسألة هو مسألة

"صفات الله تعالى" فقول كل فريق مبنيّ على قوله في صفات الله تعالى على وجه العموم، وفي

"صفة الكلام" على وجه الخصوص.

¹ . ينظر : الغزالي - المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى - ص : [28] .

² . ينظر : السهيلي - نتائج الفكر - مصدر سابق - ص : 29 .

³ . الأزهري - تهذيب اللغة - مصدر سابق - ص : [79/13]

فلمسألة "الاسم والمسمى" ارتباطاً وثيقاً بمسألة "صفة الكلام"، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن القول في أسماء الله هو نوع من القول في كلام الله"¹ ولذلك سنعرض أقوال من له قول في هذه المسألة في كل من "مسألة الصفات"، و"مسألة صفة الكلام"، وذلك على وجه الإجمال لتستبين خلفية كل فريق وقوله في المسألتين قبل تفصيل الأقوال في مسألة الاسم والمسمى.

أما أقوالهم في مسألة الصفات فهي، كما يلي:

1- قول أهل السنة والجماعة:

إنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكيف ولا تمثيل، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، فقولهم في الصفات مبنيٌّ على أصليين:

أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى منزّهٌ عن صفات النقص مطلقاً؛ كالسنة، والنوم، والعجز، والجهل، وغير ذلك.

والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها، على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيءٌ من المخلوقات في شيء من الصفات .

2- قول الجهمية والمعتزلة:

الجهمية والمعتزلة ينفون جميع الصفات عن الله عز وجل، ولا يثبتون له صفة من الصفات التي أثبتتها لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

3- قول الكلائية وقدماء الأشاعرة:

الكلائية والمتقدمون من الأشاعرة كأبي الحسن الأشعري في طوره الثاني، والباقلاني، وابن فورك، يثبتون جميع الصفات ما عدا الأفعال الاختيارية، فإنهم ينفونها.

4- الأشاعرة المتأخرون والماتريديّة:

يثبتون سبع صفات هي: الحياة، العلم، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام وينفون ما عداها من الصفات.

¹ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى : 6 / 186.

وأما أقوالهم في "مسألة صفة الكلام" فهي كما يلي:

1- قول أهل السنة والجماعة:

اتفق قول أهل السنة والجماعة على إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأن الله يتكلم بمشيئته متى شاء كيف شاء، وكلامه بحرف وصوت مسموعين على الوجه اللائق بجلاله وعظمته. وصفة الكلام صفة ذاتية وفعلية باعتبارين؛ فإنه باعتبار أصله ونوعه صفة ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلمًا.¹

وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته تعالى متى شاء وبما شاء.²

2- قول الجهمية والمعتزلة:

يقولون: إن الله تعالى لا يقوم به شيء من الصفات: لا حياة ولا علم، ولا قدرة، ولا كلام، ولا غير ذلك، وإن كلامه مخلوق، ومن بعض مخلوقاته، خلقه كما خلق السموات والأرض. خارجا عن ذاته، وأنه خلقه في بعض الأجسام، وابتدأه من ذلك الجسم لا من الله. وهذا المذهب هو من فروع ذلك الأصل الباطل المخالف لجميع كتب الله ورسوله، ولصريح المعقول والفطر، من جحد صفات الرب وتعطيل حقائق أسمائه ونفي قيام الأفعال به، فلما أصلوا أنه لا يقوم به وصف ولا فعل، كان من فروع هذا الأصل أنه لم يتكلم بالقرآن ولا بغيره، وأن القرآن مخلوق وأن أسماءه مخلوقة.³

3- قول الكلابية: أَتْبَاعِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كَلَّابٍ

¹ محمد بن خليفة بن علي التميمي - معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى - أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط : 1/ 1419هـ/1999م - ص : 281 .

² - صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذري الصالحي الدمشقي (المتوفى: 792هـ) - شرح العقيدة الطحاوية - ت: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني - دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي) الطبعة المصرية الأولى، 1426هـ - 2005م - ص : 180 . وكذا : عبد الله بن يوسف الجديع - العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية - دار الإمام مالك، دار الصمعي للنشر والتوزيع - ط : 2/ 1416 هـ - 1995 م . 63

³ - ينظر : ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد - مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة - اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: 774هـ) - ت : سيد إبراهيم - دار الحديث، القاهرة - مصر - ط : 1/ 1422هـ - 2001م - 497 .

إن كلام الله معنى قائم بالنفس، وهو الكلام النفسي، وهو قديم بقدمه تعالى، ولازم لذاته كلزوم الحياة والعلم، غير متعلق بمشيئته وقدرته، وأنه لا يُسمع على الحقيقة، والحروف والأصوات حكاية له دالة عليه، وهي مخلوقة¹.

4- قول الأشاعرة والماتريدية:

يقولون إن كلام الله معنى نفسي قائم بذات الرب، وهو صفة أزلية قديمة قدم الذات الإلهية، وإنه واحد لا يتجزأ ولا يتبعض وهو التوراة والإنجيل والقرآن، وليس بحرف ولا صوت، وإن الألفاظ عبارة عنه، وهي خلق من المخلوقات².

والفرق بينهم وبين الكلابية؛ أن الكلابية يقولون بأن الحروف والأصوات حكاية لكلام الله ودالة عليه. والأشاعرة والماتريدية يقولون إنها عبارة، ولا يسمونها حكاية. كما أن الكلابية يقولون: هو معانٍ متعددة في نفسها، فهو عندهم أربع معانٍ، وهي الأمر، والنهي، والخبر، والاستفهام.

وأما الأشاعرة فيقولون: هو معنى واحد بالعين لا ينقسم ولا يتبعض³.

ثالثاً: تفصيل الأقوال في مسألة الاسم والمسمى:

أولاً: قول أهل السنة والجماعة:

يثبت أهل السنة والجماعة الصفات لله حقيقة، ويؤمنون بأن الله متصف بصفة الكلام حقيقة، وهم لذلك يؤمنون بأن الله سمى نفسه وتكلم بهذه الأسماء، وأن هذه الأسماء ليست من وضع البشر، وليست مخلوقة، وكذلك هي دالة على الصفات حقيقة.

ويؤمنون بأن أسماء الله الحسنى التي في القرآن من كلامه عز وجل، وكلامه غير مخلوق، ولذلك يقولون: إذا كان القرآن كلامه وهو صفة من صفاته، فهو متضمن لأسمائه الحسنى، فإذا كان القرآن غير مخلوق ولا يقال: إنه غير الله، فكيف يقال إن بعض ما تضمنه وهو أسماءه مخلوقة وهي غيره⁴.

¹ - نفسه وينظر كذلك : شرح الطحاوية ص 180، العقيدة السلفية في كلام رب البرية ص 7 - مصدرين سابقين

² - ينظر: مختصر الصواعق - ص : 497 و شرح العقيدة الطحاوية - ص 180، العقيدة السلفية في كلام رب البرية - ص 278،279

³ - مختصر الصواعق - ص : 498 .

⁴ - ابن قيم الجوزية - بدائع الفوائد - دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان - ص: [18/1] .

وقد اتَّفَق قول أهل السنة في الرد على من زعم بأن أسماء الله مخلوقة وقال بأن الاسم غير المسمى. ولذلك كان معروفاً عند أئمة أهل السنة مثل الإمام أحمد وغيره إنكارهم على الجهمية الذين يقولون: أسماء الله مخلوقة، فيقولون الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق¹

قال الإمام أحمد رحمه الله: "لسنا نشكُّ أن أسماء الله عز وجل غير مخلوقة؛ لسنا نشكُّ أن علم الله غير مخلوق، فالقرآن من علم الله وفيه أسماء الله، فلا نشكُّ أنه غير مخلوق، وهو كلام الله عز وجل، لم يزل متكلماً به"²

فهذا هو موقف أهل السنة والجماعة من أصل المسألة ومن دعوى من قال بأن أسماء الله مخلوقة وأطلق القول بأن "الاسم غير المسمى".

أما موقفهم من القول نفسه - أي هل يُقال: الاسم هو المسمى أو غير المسمى، وغير ذلك من الألفاظ .

فلأهل السنة والجماعة تجاه ذلك أربعة مواقف، متفقة جميعاً في مضمونها وإن اختلفت في ألفاظها وتعبيراتها، وهذه المواقف هي:
الموقف الأول:

الإمساك عن القول في المسألة نفياً وإثباتاً، فلا يقال: "الاسم هو المسمى"، ولا يُقال: "الاسم غير المسمى".

إذ إن كلا الإطالين بدعة³ فلم يعرف عن أحد من السلف أنه قال: الاسم هو المسمى؛ بل هذا قاله كثير من المنتسبين إلى السنة بعد الأئمة. والقول بأن "الاسم غير المسمى" هو قول الجهمية والمعتزلة. وغير داخل فيه قول إمام الصنعة - سيبويه - لأنه علم أن مراده لغوي لا عقدي .

¹ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى 6 / 185، 186.

² - ينظر : الأشعري أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: 324هـ) - الإبانة عن أصول الديانة - ت : فوقية حسين محمود - دار الأنصار - القاهرة - ط : 1 / 1397 - ص : 74 ، وكذا : ابن تيمية - الفتاوى الكبرى - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط : 1 / 1408هـ -

1987م - ص : [478/6] .

³ - مجموع الفتاوى 6 / 187

وهذا القول ذكره الخلال عن إبراهيم الحربي وغيره، وذكره أبو جعفر الطبري في الجزء الذي سمّاه صريح السنة ، حيث قال: "وأما القول في الاسم فهو المسمى أم غير المسمى، فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيُتَّبَع ولا قول من إمام فيُستَمَع، فالخوض فيها شينٌ، والصمتُ عنه زينٌ، وحسب المرء من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قول الله عز وجل ثناؤه الصادق وهو قوله: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ، وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} ¹

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن أورد كلام الطبري السابق: "وهذا هو القول بأن الاسم للمسمى" ؛ وهذا التعليق من شيخ الإسلام لعل مراده منه أن يبين أن ما نقل عن بعض علماء أهل السنة من الإمساك في المسألة نفياً وإثباتاً، لا يتعارض مع ما نقل عن بعضهم الآخر من قول في المسألة، فأهل السنة يسكون عن الأقوال المحدثّة المبتدعة، لاستغنائهم بالألفاظ الشرعية من جهة، ولأن الألفاظ البدعية تجرُّ إلى محاذير فاسدة.

فسكوتهم إنما كان عن الألفاظ البدعية لا عن الألفاظ الشرعية، ويؤكد هذا الفهم ما نقل عن الإمام أحمد في المسألة، فقد ذكر القاضي ابن أبي يعلى أن الإمام أحمد كان يشقُّ عليه الكلام في "الاسم والمسمى" ويقول: هذا كلام محدث، ولا يقول: الاسم غير المسمى، ولا هو هو، ولكن يقول الاسم للمسمى اتباعاً لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} ²

فالذي يظهر والله أعلم أن الموقف الأول هو تنتمي للموقف الثاني، فلا يقال: "الاسم غير المسمى"، ولا "الاسم هو المسمى" ولكن يقال: "الاسم للمسمى" لأن النصوص دلت على ذلك. الموقف الثاني: الاسم للمسمى:

وهذا قول أكثر المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره ³ وهذا الذي دلت عليه النصوص.

قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الأعراف : 185].

وقال تعالى: {لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [طه : 8] .

¹ - ابن جرير الطبري - صريح السنة - مصدر سابق - ص 26، 27

² - القاضي أبو الحسن محمد بن أبي يعلى - طبقات الحنابلة ، ت : محمد حامد الفقي، ط: السنة المحمدية القاهرة - ص : 2 /

270

³ - ينظر : مجموع الفتاوى [6 / 187، 206، 207]، ابن قيم الجوزية - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، - دار المعرفة - بيروت. 1398هـ/1978 - ص 277.

وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء : 110] وقال تعالى: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الحشر: 24].

وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسما"¹

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الذين يقولون: "الاسم للمسمى" كما يقوله أكثر أهل السنة فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنة والمعقول"²

قال ابن القيم: "والاسم للمسمى ولا يقال غيره"³

الموقف الثالث: الاسم هو المسمى: وهذا قاله كثير من المنتسبين إلى السنة بعد الأئمة، وإن كان قد أنكره أكثر أهل السنة عليهم⁴

وممن قال به اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة⁵ والسجزي في رسالته إلى أهل زيد وعزى ذلك إلى الأصمعي والشافعي⁶

والأصبهاني، في الحجّة في بيان المحجّة⁷، والبغوي صاحب شرح السنة،⁸ وغيرهم

وهؤلاء جعلوا الاسم ليس هو اللفظ، بل هو المراد باللفظ "أي المسمى" فهم يقولون: إنك إذا قلت: يا زيد! يا عمرو! فليس مرادك دعاء اللفظ، بل مرادك دعاء المسمى باللفظ، وذكرت الاسم، فصار المراد بالاسم هو المسمى.

فهؤلاء نظروا إلى المسألة من جهة أن أسماء الأشياء إذا ذُكرت في الكلام المؤلف فإنما المقصود هو المسميات، فقالوا: "الاسم هو المسمى" أي يراد به المسمى.

1 - متفق عليه.

2 - مجموع الفتاوى 6/ 206، 207

3 - شفاء العليل ص 277.

4 - مجموع الفتاوى 6/ 187، 188 - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [211/2]

5 - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [204/2]

6 - عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزي الوائلي البكري، أبو نصر (المتوفى: 444هـ) - رسالة السجزي إلى أهل زيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت - ت: محمد با كريمة با عبد الله - عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية - ط: 2/ 1423هـ/ 2002م - ص: 275 .

7 - إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى:

535هـ) - الحجّة في بيان المحجّة وشرح عقيدة أهل السنة - ت: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي - دار الراية -

السعودية / الرياض - ط: 1/ 1419هـ - 1999م - ص: 134

8 - مجمر الفتاوى : 6/ 188

وهذا لا ريب فيه، فإنه إذا أخبر عن الأشياء فذكرت أسماءها فقول مثلاً: "محمدٌ رسول الله وخاتم النبيين، وكلم الله موسى تكليماً، فليس المراد أن هذا اللفظ هو الرسول، وهو الذي كلمه الله، وكذلك إذا قيل: جاء زيد، وأشهد على عمرو، وفلانٌ عدلٌ، ونحو ذلك، فإنما تُذكر الأسماء ويُراد بها المسميات"¹

ثانياً: أقوال مخالفي أهل السنة والجماعة في المسألة:

القول الخامس: الاسم عين المسمى: وهو قول الأشاعرة والماتريدية. وهؤلاء وإن وافقوا السلف على أن كلامه غير مخلوق وأسماءه غير مخلوقة، لكنهم يقولون: إن الكلام والأسماء من صفات ذاته، لكنه لا يتكلم ولا يسمي نفسه بمشيئته وقدرته² فهم جميعاً ينكرون صفات الأفعال الاختيارية، وبالتالي هم وإن أثبتوا صفة الكلام لله عز وجل لكنهم لا يثبتونها على الحقيقة.

فهم يقولون في كلام الله: هو الكلام النفسي (أي المعنى القائم بالذات)

فهو عندهم: معنى واحد قائم بذاته، غير مخلوق؛ صفة من صفاته غير بائن منه، لم يزل موصوفاً به، ليس بحرف ولا صوت وليس هو بلغة، ولا يتجزأ ولا ينقسم ولا يتفاضل، ولا يتعلق بمشيئة الله واختياره، وأن الله يفهمه من يشاء بعبارة مخلوقة تدل عليه، فعبارة القرآن بالعربية، والتوراة بالعبرية، والإنجيل بالسريانية، وهي عبارات عن الكلام النفسي الحقيقي ودلالات عليه، وهي جميعاً بمعنى واحد، فمعنى القرآن هو معنى التوراة والإنجيل وغير ذلك من كلام الله، وتكليم الله لمن كلمه من عباده إنما هو خلق إدراك ذلك المعنى لهم فالقرآن والتوراة والإنجيل بألفاظها وحروفها مخلوقة، وهي دلالات على الكلام النفسي، خلقها الله في شيء.

وقالوا في القرآن العربي؛ خلقه الله في اللوح المحفوظ، وهذا هو الأشهر عن المتأخرين، ومنهم من قال: خلقه في الهواء، فأخذه جبريل عليه السلام، ومنهم من قال: بل إن الله أفهم جبريل المعنى فعبر عنه جبريل بقوله، فالقرآن قول جبريل عليه السلام، ومنهم من قال: بل هو عبارة محمد صلى الله عليه وسلم³

1 - نفسه : بتصريف

2 - ابن تيمية - مجموع الفتاوى 6 / 186

3 - عبد الله بن يوسف الجديع - العقيدة السلفية في كلام رب البرية - مرجع سابق : ص : [343 - 344] .

فهؤلاء ينكرون أن الله يتكلم حقيقة بحرف وصوت مسموعين، وينكرون أن الله يتكلم بمشيئته واختياره أي متى شاء تكلم ومتى شاء لم يتكلم، وينكرون تكليم الله لمن شاء من ملائكته ورسله "وهم بذلك وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم: إنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته، وإنه لا تقوم به الأمور الاختيارية"¹

وبالتالي فإن عقيدة هؤلاء في كلام الله جرتهم إلى إدخال أسمائه الحسنی فالعرب تفرق بين الاسم والمسمى، وهؤلاء يقولون باتحاد الاسم والمسمى.

ف "زيد" اسم علم بلا نزاع، فإذا سُمِّي أحد به لم يكن هو عين المسمى، إنما هو اللفظ الدال عليه، وإطلاق هذا اللفظ على زيد هو تسميته به².

فهم ادعوا أن لفظ الاسم الذي هو " ألف - سين - ميم": هو في الأصل ذات الشيء، ولكن التسمية سُمِّيت اسماً لدالاتها على ذات الشيء، تسمية للدال باسم المدلول، كتسمية المقذور قدرة.

وليس الأمر كذلك، بل التسمية مصدر سمي يسمى تسمية، والتسمية: نطق بالاسم وتكلم به، ليست هي الاسم نفسه، وأسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها، وليست هي أعيان الأشياء، وأما تسمية المقذور قدرة فهو من باب تسمية المفعول باسم المصدر، وهذا كثير شائع في اللغة، كقولهم للمخلوق: خلق، وقولهم: درهم ضرب الأمير، أي: مضروب الأمير، ونظائره كثيرة³.
فخلاصة دعوى هؤلاء تقوم على أمرين:

1- أن لفظ "اسم" الذي هو " ألف - سين - ميم" معناه: ذات الشيء ونفسه.

2- وأن الأسماء - التي هي الأسماء -: مثل: "زيد وعمرو" هي التسميات وليست هي أسماء المسميات.

وكلاهما باطل مخالف لما يعلمه جميع الناس من جميع الأمم ولما يقولونه؛ فإنهم يقولون: إن "زيداً وعمراً" ونحو ذلك هي أسماء الناس⁴.

و"التسمية": جعل الشيء اسماً لغيره، هي مصدر "سميته، تسمية" إذا جعلت له اسماً.

1 - ابن تيمية - مجموع الفتاوى 12 / 594.

2 - مجموع الفتاوى 6 / 195، العقيدة السلفية في كلام رب البرية ص 398-399.

3 - مجموع الفتاوى 6 / 195.

4 - محمد بن خليفة بن علي التميمي - معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنی - ص : 292 .

و"الاسم" القول الدال على المسمى،. ليس الاسم الذي هو لفظ "اسم" أي: "ألف- سين- ميم" هو "المسمى"؛ بل قد يُراد به المسمى؛ لأنه حكم عليه ودليل عليه، وهم تكلفوا هذا التكلف ليقولوا: إن اسم الله غير مخلوق، ومرادهم أن الله غير مخلوق، وهذا مما لا تنازع فيه الجهمية والمعتزلة.

وبالتالي هم وافقوا الجهمية والمعتزلة في المعنى، ووافقوا قول من قال من أهل السنة: "الاسم هو المسمى" في اللفظ فقط .

ولقد أنكر قولهم جمهور الناس من أهل السنة وغيرهم¹ حتى بعض كبار الأشاعرة كالغزالي والرازي، فالغزالي يقول: "والحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى، وأن هذه الثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة"²

وقال الرازي: "المشهور من قول أصحابنا رحمهم الله تعالى أن الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة إنه غير التسمية وغير المسمى، واختيار الشيخ الغزالي أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متباينة هو الحق عندي"³

وقد أورد الرازي بعض حججهم ورد عليها، وبعض ردوده وفق الطريقة الكلامية فلا تخلو من مخالفات، وأحسن من، تصدى لشبههم ورد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية، وسنورد بعض ما تمسكوا به من شواهد- وإن كانت في الحقيقة حجة عليهم - وأذكر رد شيخ الإسلام لها.

الحجة الأولى: قوله تعالى: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى : 1] .

وقوله: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن : 48] .

وقوله: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة : 74] .

ووجه الاستدلال: أنه أمر بتسبيح اسم الله تعالى، ودل العقل على أن المسبَّح هو الله تعالى لا غيره، وهذا يقتضي أن اسم الله تعالى هو هو لا غيره⁴

¹ - مجموع الفتاوى 6/ 192.

² - أبو حامد الغزالي - المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى ص : 7.

³ - فخر الدين الرازي - لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات - دار الكتاب العربي - د ط ، ت - ص : 21 .

⁴ - نفسه - ص : 24 . وينظر كذلك : محمد بن خليفة بن علي التميمي - معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى -

ص : 294.

الرد عليهم:

احتجاجهم بقوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} ، وأن المراد سبح ربك الأعلى، وكذلك قوله: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} ، وما أشبه ذلك. فهذا للناس فيه قولان معروفان، وكلاهما حجة عليهم:

القول الأول:

منهم من قال: " الاسم " هنا صلة والمراد سَبِّحِ رَبِّكَ وتبارك ربك.

وإذا قيل: هو صلة زائد لا معنى له؛ فيبطل قولهم: إن مدلول لفظ اسم "ألف- سين- ميم" هو المسمى، فإنه لو كان له مدلول مراد لم يكن صلة.

ومن قال: إنه هو المسمى وإنه صلة، فقد تناقض؛ فإن الذي يقول: هو صلة لا يجعل له معنى؛ كما يقوله من يقول ذلك في الحروف الزائدة التي تجيء للتوكيد، كقوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} [آل عمران : 159] وقوله: {قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ} [المؤمنون : 40] .

والقول الثاني:

إنه ليس بصلة، بل المراد تسبيح الاسم نفسه، وهذا مناقض لقولهم مناقضة ظاهرة. و"التحقيق" أنه ليس بصلة، بل أمر الله بتسبيح اسمه، كما أمر بذكر اسمه، والمقصود بتسبيحه وذكره هو: 1- إما تسبيح المسمى وذكره، فإن المسبح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه، فيقول: "سبحان ربي الأعلى" فهو نطق بلفظ ربي الأعلى، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى، فقول {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} أي قل: سبحان ربي الأعلى. وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} فقال: "سبحان ربي الأعلى" وحديث عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نزل {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} قال: "اجعلوها في ركوعكم"، ولما نزل: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} قال: "اجعلوها في سجودكم" ¹

¹ - محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: 741هـ) - مشكاة المصابيح - ت: محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ط : 3 / 1985 - ص : [277/1] قال المحقق رحمه الله : حديث حسن . ورواه الإمام أحمد و أبو داؤد وابن ماجه والدارمي .

والمراد بذلك أن يقولوا في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى، فالذي يقول: سبحان الله، وسبحان ربنا، إنما نطق بالاسم الذي هو "الله"، والذي هو "ربنا" فتسبيحه إنما وقع على الاسم ولكن مراده هو المسمى، فهذا يبين أنه ينطق باسم المسمى والمراد المسمى. وهذا لا ريب فيه، لكن هذا لا يدل على أن لفظ اسم الذي هو "ألف- سين- ميم") يُراد به المسمى. ولكن يدل على أن "أسماء الله" مثل "الله" و"ربنا" و"ربي الأعلى" ونحو ذلك يراد بها المسمى، مع أنها هي في نفسها ليست هي المسمى، لكن يُراد بها المسمى.

2- وإما أن يكون المقصود بتسبيحه تسبيح الاسم.

ومن جعله تسبيحا للاسم يقول: المعنى: إنك لا تُسمِّ به غير الله، ولا تلحد في أسمائه، فهذا ما يستحقه اسم الله ولكن هذا تابع للمراد بالآية وليس هو المقصود بها القصد الأول.

وقد ذكر الأقوال الثلاثة غير واحد من المفسرين ، وأما قوله: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} فالجواب فيها:

أولاً: أن الآية فيها قراءتان:

أ- فالأكثرون يقرأون "ذي الجلال"، فالربُّ المسمى هو ذو الجلال والإكرام.

ب - وقرأ ابن عامر: "ذو الجلال والإكرام"، وكذلك هي في المصحف الشامي، وفي مصاحف أهل الحجاز والعراق هي بالياء.

وأما قوله: {وَيُبَيِّنُ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن : 27] فهي بالواو باتفاقهم.

ثانياً: أن "تبارك" تفاعل من البركة، والمعنى أن البركة تُكتسب وتُتال بذكر اسمه؛ فلو كان لفظ الاسم معناه المسمى لكان يكفي قوله "تبارك ربك" فإن نفس الاسم عندهم هو نفس الرب؛ فكان هذا تكريراً.

وقد قال بعض الناس: إن ذكر الاسم هنا صلة، والمراد تبارك ربك؛ ليس المراد الإخبار عن اسمه بأنه تبارك، وهذا غلط، فإنه على هذا يكون قول المصلِّي "تبارك اسمك" أي: تباركت أنت، ونفس أسماء الرب لا بركة فيها. ومعلوم أن نفس أسمائه مباركة وبركتها من جهة دلالتها على المسمى. ولهذا فرقت الشريعة بين ما يُذكر اسم الله عليه، وما لا يُذكر اسم الله عليه في مثل قوله: {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ} [الأنعام : 118] ، وقوله: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} [الأنعام : 119] ، وقوله: {وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} [المائدة : 4]

الحجة الثانية:

قوله تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} [يوسف : 40]

ووجه استدلالهم:

أن الله أخبر أنهم عبدوا الأسماء، والقوم ما عبدوا إلا تلك الذوات، فهذا يدل على أن الاسم هو المسمى¹.

والرد عليهم:

أنه ليس المراد كما ذكره: أنكم تعبدون الأوثان المسماة، فإن هذا هم معترفون به، والرب تعالى نفى ما كانوا يعتقدونه، وأثبت ضده، ولكن المراد أنهم سموها آلهة، واعتقدوا ثبوت الإلهية فيها، وليس فيها شيء من الإلهية، فإذا عبدوها معتقدين إلهيتها مسمين لها آلهة لم يكونوا قد عبدوا إلا أسماء ابتدعوها هم، ما أنزل الله بها من سلطان؛ لأن الله لم يأمر بعبادة هذه ولا جعلها آلهة، كما قال: {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف : 45]، فتكون عبادتهم لما تصوّروه في أنفسهم من معنى الإلهية وعبروا عنها بألسنتهم، وذلك أمر موجود في أذهانهم وألسنتهم لا حقيقة له في الخارج²، فما عبدوا إلا هذه الأسماء، التي تصوّروها في أذهانهم، وعبروا عن معانيها بألسنتهم؛ وهم لم يقصدوا عبادة الصنم إلا لكونه إلهها عندهم، وإلهيته هي في أنفسهم لا في الخارج، فما عبدوا في الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسد الذي عبر عنه.

ولهذا قال في الآية الأخرى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمَّوْهُمْ أَمْ تُنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} [الرعد : 33]، يقول: سموهم بالأسماء التي يستحقونها، هل هي خالقة رازقة محيية مميتة، أم هي مخلوقة لا تملك ضرراً ولا نفعاً؛ فإذا سموها فوصفوها بما تستحقه من الصفات تبين ضلالهم. قال تعالى: {أَمْ تُنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ}، وما لا يعلم أنه موجود فهو باطل لا حقيقة له، ولو كان موجوداً لعلمه موجوداً {أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} أم بقول ظاهر باللسان لا حقيقة له في القلب، بل هو كذب وبهتان³.

¹ - الرازي : لوامع البينات - مصدر سابق - ص : 24.

² - ستأتي الإشارة قريباً أن الشيء له أربعة مراتب في الوجود .

³ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى - ص : 194 / 6، 195.

وقال الرازي- وهو من كبار الأشاعرة- في معرض رده لحجة الأشاعرة هذه: "إن الآية تدل على أن اسم الإله كان حاصلًا في حق الأصنام، ومسمى الإله ما كان حاصلًا في حقهم، وهذا يوجب المغايرة بين الاسم والمسمى، ويدل على أن الاسم غير المسمى.

ثم نقول: المراد بالآية أن تسمية الصنم بالإله كان اسماً بلا مسمى، كمن يسمي نفسه باسم السلطان وكان في غاية القلة والذلة، فإنه يقال: إنه ليس له من السلطنة إلا الاسم، فكذا هنا¹ الحجة الثالثة:

احتجوا بقوله تعالى: {تُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى} [مريم : 7] ثم قال: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم : 12] ، فنادى الاسم وهو المسمى² الرد عليهم:

إن الاسم الذي هو يحيى هو هذا اللفظ المؤلف من "ياء" و"حاء" و"ياء" هذا هو اسمه، ليس اسمه هو ذاته، بل هذا مكابرة. ثم لما ناداه فقال: {يَا يَحْيَى} ، فالمقصود المراد بنداء الاسم هو نداء المسمى؛ لم يقصد نداء اللفظ، لكن المتكلم لا يمكنه نداء الشخص المنادى إلا بذكر اسمه وندائه، فيعرف حينئذ أن قصده نداء الشخص المسمى، وهذا من فائدة اللغات، وقد يدعى بالإشارة، وليست الحركة هي ذاته، ولكن هي دليل على ذاته³

وهؤلاء اقتصروا على أن أسماء الشيء؛ إذا ذُكرت في الكلام فالمراد بها المسميات- كما ذكره في قوله: {يَا يَحْيَى} ، ونحو ذلك لكان ذلك معنى واضحاً لا ينازعه فيه من فهمه، ولكن لم يقتصروا على ذلك، ولهذا أنكر قولهم جمهور الناس من أهل السنة وغيرهم لما في قولهم من الأمور الباطلة كما تقدم ذكره⁴

الحجة الرابعة: التمسك بقول لبيد:

إلى الحَوْلِ ثم اسم السَّلَامِ عليكما ... ومن يبيكِ حِوْلاً كاملاً فقد اعتذر

ووجه استشهادهم: أنه أراد باسم السلام نفس السلام، ويلزم منه أن الاسم نفس المسمى⁵ ويقول ذي الرمة:

¹ - الرازي - لوامع البيئات - ص : 28، 29

² . مجموع الفتاوى 6 / 190 .

³ . نفسه : 6 / 192، 193 .

⁴ . نفسه : 6 / 191 .

⁵ - الرازي - لوامع البيئات - ص : 28 .

لا يَنْعَشُ الطرفَ إلا ما تَخَوَّنَه ... داعٍ يناديه باسم الماء مبعوم
" يَقُولُ: لا يرفع ولد الطيبة عينه إلا أن يتعهده داعٍ من أمه وَهُوَ صَوْتُهَا وَالْمَاءُ: حِكَايَةُ صَوْتِ
الطيبة. مبعوم من البغام. [والمُبَاغَمَةُ: المحادثة بصوتٍ رخيمٍ] وَيُقَالُ: نعش فلان فلانا إذا رفع
من ذكره وأمره وَمِنْهُ سُمِيَ النعش نعشا لِأَنَّهُ يرفع. ¹
ووجه استشهادهم ويقول ذي الرمة:

أن الداعي في البيت قبل هذا هي الطيبة، وإنما دعت ولدها بهذا الصوت يعني: " ماء. ماء. ماء. "،
لا بلفظ دال عليه، وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى.
وبقوله أيضا يصف إِبِلًا تَشْرَبُ فِي حَوْضٍ مُتَتَلِّمٍ، وَأَصْوَاتُ مَشَافِرِهَا شَيْبٌ شَيْبٌ:
تَدَاعَيْنِ بِاسْمِ الشَّيْبِ فِي مُتَتَلِّمٍ ... جَوَانِبُهُ مِنْ بَصْرَةٍ وَسِلَاحٍ
وَأَرَادَ ذُو الرُّمَّةِ بِالْمُتَتَلِّمِ حَوْضًا قَدْ تَهَدَّمَ أَكْثَرَهُ لِقَدَمِهِ وَقِلَّةَ عَهْدِ النَّاسِ بِهِ وَالْبَصْرَةَ الْحِجَارَةَ الْبَيْضَاءَ
الرَّخْوَةَ وَالسَّلَامَ الْحِجَارَةَ الصَّلْبَةَ .
وَمِثْلُهُ قَوْلُ الرَّاعِي:

إِذَا مَا دَعَتْ شَيْبًا، بَجَنَّبِي عُنَيْزَةً، ... مَشَافِرُهَا فِي مَاءِ مُزْنٍ وَبِاقِلِ
الرد عليهم:

ما ذكروه من قول لبيد مراده ثم النطق بهذا الاسم وذكره وهو التسليم المقصود، وكأنه قال: ثم
سلام عليكم، ليس مراده أن السلام يحصل عليهما بدون أن ينطق به ويذكر اسمه، فإن اسم
السلام قول؛ فإن لم ينطق به ناطق ويذكره لم يحصل ²
قال السهيلي رحمه الله رادا شبهتهم: " إن لبيدا لم يرد إيقاع التسليم عليهم لحينه، وإنما أراد
بعد الحول، ولو قال: " ثم السلام عليكم " لكان مسلماً في وقته الذي نطق به في البيت، فلذلك
ذكر الاسم الذي هو عبارة عن اللفظ، أي: إنما اللفظ بالتسليم بعد الحول، وذلك أن السلام
دعاء، فلا يتقيد بالزمان المستقبل وإنما هو لحينه، ألا ترى أنه لا يقال بعد الجمعة اللهم ارحم
زيداً ولا بعد الموت اللهم اغفر لي، إنما تقول: " اللهم اغفر لي بعد الموت "، فيكون " بعد "

¹ - ينظر ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفى: 276هـ) - غريب الحديث - ت: عبد الله الجبوري - مطبعة
العاني - بغداد - ط: 1/ 1397 - ص: 298/2 .

² - ابن تيمية - مجموع الفتاوى - ص: 202/6 .

ظرفاً للمغفرة والدعاء واقع لحينه. فإن أردت أن تجعل الوقت ظرفاً للدعاء صرحت بلفظ الفعل فقلت: " بعد الجمعة أدعو بكذا "، أو أسلم، أو أَلْفِظ (بكذا) ، لأن الظروف إنما تقيد بها الأحداث الواقعة فيها خبراً أو أمراً أو نهياً، وأما غيرها من المعاني كالعقود، أعني عقد الطلاق وعقد اليمين، وكالدعاء والتمني والاستفهام وغير ذلك من المعاني فإنما هي واقعة لحين النطق بها، ولذلك يقع الطلاق لمن قال: " بعد يوم الجمعة أنت طالق يا فلانة، فهو مطلق لحينه، ولا ينفعه ذكر الوقت.

وكذلك القسم إذا قال: " بعد الحول والله لأخرجن " فقد انعقد اليمين (عليه) حين نطق به، ولا ينفعه أن يقول: أردت أن لا أوقع اليمين إلا بعد الحول. فإنه لو أراد ذلك فقال: بعد الحول أحلف أو أَلْفِظ باليمين. فأما الأمر والنهي والخبر فإنما تقيدت بالظروف، لأن الظروف في الحقيقة إنما يقع فيها الفعل المأمور به أو المخبر به، دون الأمر والخبر، فإنهما واقعان لحين النطق بهما فإذا قلت: " اضرب زيداً يوم الجمعة "، فالضرب واقع في اليوم وأنت من الآن أمر. وكذلك في الخبر إذا قلت: " سأقوم يوم الجمعة " فالقيام في اليوم وأنت من الآن مخبر. فلا تعلق للظروف إلا بالأحداث، فقد رجع الباب كله باباً واحداً، فلو أن ليبيداً قال: " إلى الحول ثم السلام عليكم " لكان مسلماً لحينه ولكنه أراد أن لا يوقع اللفظ بالتسليم والوداع إلا بعد الحول (ولذلك ذكر الاسم الذي هو بمعنى اللفظ، ليكون ما بعد الحول) ظرفاً له، فافهم ذلك، والحمد لله.¹ وهذا الجواب من أحد أعاجيبه وبدائعه رحمه الله .

ثم قال أيضاً في ردّ الأبيات الأخرى : وهذه الأبيات التي احتجوا بها عندي أبين شيء في الرد عليهم، وأدل شيء على أن الاسم غير المسمى، وذلك أنه قال: " باسم الماء " ولم يقل: " باسم ماء. والماء - بالألف واللام - ليس إلا الماء المشروب، فكيف يريد بها حكاية صوتها؟ ولكن الشاعر ألغز حيث وقع الاشتراك بين لفظ الماء وصوتها، فصار صوتها كأنه هو اللفظ المعبر به عن الماء المشروب، فأبيّن من هذا من أن الاسم غير المسمى؟.

وأما قوله: " تداعين باسم الشيب " فهو كذلك، لأنه لم يقل: " باسم شيب وإنما قال: " الشيب " - بالألف واللام - ولفظ الألف واللام غير موجود في صوت الإبل وإنما أراد: تداعين بصوت

¹ - السهيلي - نتائج الفكر - مصدر سابق - ص : 38- 39 .

يشبه في اللفظ اسم الشيب، أعني: جمع " أشيب "، كما في البيت الأول.¹ والشئ ذاته يقال في لفظة شيب الموجودة في بيت راعي الإبل السابق
الحجة الخامسة:

التمسك بقول سيبويه: " الأفعال أمثلة : أخذت من لفظ أحداث الأسماء؛ ومن المعلوم أن الأحداث التي هي المصادر صادرة عن المسميات لا عن الألفاظ، فدلّ هذا على أن قوله من أحداث لفظ الأسماء، أي من لفظ أحداث المسميات.²
الرد عليهم:

قد نص - رحمه الله - قبل هذا الكلام بسطر واحد على أن الاسم غير المسمى لو تأملوه، ولكنهم تعاملوا عنه وأغفلوه، فقال: " الكلام: اسم وفعل وحرف " فقد صرح أن الاسم كلمة، فكيف تكون الكلمة هي المسمى، والمسمى إنما هو شخص، فهذا بيان ونمى، لا سيما مع قوله فيما بعد: " تقول: سميت زيدا بهذا الاسم كما تقول: علمته بهذه العلامة، وكذلك نص في أكثر من ألف موضع في كتابه على أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمى؛ لأنه متى ذكر الخفض أو النصب أو التثوين أو الألف واللام، وجميع ما يدخل على الأسماء ويعتريها من الزيادة والحذف، حتى يكون بعضها ثلاثيا، وبعضها رباعيا، وبعضها خماسيا، إلى غير ذلك مما يذكر سيبويه وجميع النحويين أنه يعتري الاسم ويختص به - فلا يتعلق بشيء من ذلك بالمسمى الذي هو الشخص.

فسبحان الله كيف لا يستحيي من عرف هذا من مذهب النحويين أجمعين، ومن مذاهب العرب، ثم يخبر عن أحد منهم بأن الاسم هو المسمى! ما أشار إلى ذلك نحوي قط ولا اعتقده عربي! ألا ترى أنهم يقولون: " أجل مسمى " ولا يقولون: " أجل اسم " ويقولون: " هذا الرجل مسمى يزيد " ولا يقولون: " اسم يزيد ". وتقول: " باسم الله "، ولا تقول: " بمسمى الله ". ولو كان الاسم بمعنى المسمى ما امتنع شيء من هذا، فهذا غاية العجب، ونهاية

¹ . . السهيلي - نتائج الفكر - مصدر سابق - ص : 38 .

² - الرازي - لوامع البينات - ص : 28

الكذب على العرب! نعم، وعلى الكتاب الذي نزل بلسانهم "، نعم، وعلى الرسول الذي يقول: " لي خمسة أسماء،¹ و " سمو باسمي ولا تكنوا بكنيتي "².

وقال شيخ الإسلام في ردّ زعمهم: " إن هذا لا حجة فيه؛ لأن سيبويه مقصوده بذكر الاسم والفعل ونحو ذلك الألفاظ، وهذا اصطلاح النحويين، سمّوا الألفاظ بأسماء معانيها؛ فسموا "قام ويقومُ وقُم" فعلا؛ والفعل هو نفس الحركة، فسمّوا اللفظ الدالّ عليها باسمها. وكذلك إذا قالوا: اسم معرب! ومبني، فمقصودهم اللفظ، ليس مقصودهم المسمى، وإذا قالوا: هذا الاسم فاعل فمرادهم أنه فاعل اللفظ؛ أي أسندَ إليه الفعل، ولم يرد سيبويه بلفظ الأسماء المسميات كما زعموا، ولو أرادوا ذلك فسَدَّتْ صناعته"³

الحجة السادسة:

إن القائل إذا قال: ما اسمُ معبودكم؟

قلنا: الله، فإذا قال: ما معبودكم؟ قلنا: الله.

فنجيب في الاسم بما نجيب به في المعبود؛ فدلّ على أن اسم المعبود هو المعبود لا غير⁴ الرد عليهم:

إن هذا حجة باطلة وهي عليهم لا لهم.

فإن القائل إذا قال: ما اسم معبودكم؟ قلنا: الله، فالمراد أن اسمه هو هذا القول، ليس المراد أن اسمه هو ذاته وعينه الذي خلق السموات والأرض، فإنه إنما سأل عن اسمه، لم يسأل عن نفسه؛ فكان الجواب بذكر اسمه.

وإذا قال: ما معبودكم؟ قلنا: الله، فالمراد هناك المسمى؛ ليس المراد أن المعبود هو القول.

فلما اختلف السؤال في الموضعين اختلف المقصود بالجواب، وإن كان في الموضعين قال: الله، لكنه في أحدهما أريدَ هذا القول الذي هو من الكلام؛ وفي الآخر أريد به المسمى بهذا القول. كما إذا قيل: ما اسم فلان؟ فقيل: زيدٌ أو عمرو، فالمراد هو القول، وإذا قيل: من أميركم؟ أو من

¹ - البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري - ت: محمد زهير بن ناصر الناصر - دار طوق النجاة - ط : 1/1422 هـ - ص : 184/4 .

² - متفق عليه .

³ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى 6 / 252 .

⁴ - نفسه : 197/6 .

أنكحت؟ فقيل؛ زيد أو عمرو، فالمراد به الشخص، فكيف يجعل المقصود في الموضوعين واحد؟¹.

القول السادس:

الاسم تارة يكون هو المسمى كاسم "الله" و"الموجود"، وتارة الاسم غير المسمى كاسم "الخالق"، و"الرازق"، وتارة لا يكون هو المسمى ولا غير المسمى كاسم "العليم"، و"القدير":

وهذا هو القول المشهور عن أبي الحسن الأشعري²، وقد قسمَّ الأسماء إلى ثلاثة أقسام، فقال:

1- قد يكون الاسم عين المسمى نحو: "الله"، فإنه اسم علم للذات من غير اعتبار معنى فيه.

2- وقد يكون غيره نحو: "الخالق" و"الرازق" مما يدل على نسبته إلى غيره.

3- وقد يكون لا هو ولا غيره ك"العليم" و"القدير" مما يدل على صفة حقيقية³

وهذا التقسيم راجع إلى اعتبار معانيها ومعتقده فيها.

فالقسم الأول: يرى أنه اسم جامد لا يدل، على معنى، وهذا زعم مردود؛ فليس في الأسماء

الحسنى اسم جامد غير مشتق، فكل أسماء الله الحسنى دالة على معان في غاية الكمال.

وأما القسم الثاني: فلاعتقاده - في طوره الثاني⁴ - بنفي صفات الأفعال الاختيارية وإنكار

قيامها بالله عز وجل، فهو بالتالي جعل "الخالق" و"الرازق" ونحوهما غير المسمى، وهذا قول

باطل، فاسمه "الخالق" هو الرب الخالق نفسه وليس المخلوقات، كما أن اسمه "العليم" هو الرب

العليم الذي العلم صفته، فليس العلم هو المسمى ولا الخلق هو المسمى.

وأما القسم الثالث: فلاثبتاته الصفات الذاتية فقد جعل العليم والحكيم ونحوهما

للمسمى⁵.

القول السابع: الاسم غير المسمى:

¹ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى : 6 / 197، 198.

² - نفسه : 6 / 188 .

³ - الإيجي - المواقف في علم الكلام - عالم الكتب ، بيروت - د ت - ص 333.

⁴ - مرَّ أبو الحسن الأشعري بثلاثة أطوار، فقد كان معتزليا إلى سن الأربعين، ثم كان كلابيا يثبت الصفات الخبرية وينفي

الأفعال الاختيارية، ثم رجع عن ذلك إلى عقيدة أهل السنة رجوعا غير كلي في الإقرار بالأفعال الاختيارية . ينظر : عبد

الرحمن بن صالح بن صالح المحمود - موقف ابن تيمية من الأشاعرة - مكتبة الرشد - الرياض - السعودية - ط : 1 / 1415

هـ / 1995 م

⁵ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى 6 / 201 - 202 "بتصرف".

وهو قول الجهمية والمعتزلة، فهم لا يثبتون لله صفات ينصف بها حقيقة، فلذلك ينفون صفة الكلام عن الله عز وجل، ويقولون: إن الله لم يتكلم بكلام يقوم بذاته؛ وإن كلامه مخلوق خلقه كما خلق السموات والأرض خارجا عن ذاته، فأنكروا أن يقوم بذاته كلام أو قول، وبالتالي لم يسم نفسه باسم هو المتكلم به، فأسماءه مخلوقة.

"فغاية قولهم إن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسما، وأحتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم وهذا من أعظم الضلالة والإلحاد في أسماء الله تعالى" ¹ ولذلك قالوا: الاسم غير المسمى، فأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، ف "الرحمن- الرحيم- الحي- القيوم" هذه الأسماء المؤلفة من الحروف وغيرها من الأسماء الحسنی مخلوقة عندهم.

ولذلك ينفون ما دلت عليه من المعاني لأنهم يعاملونها معاملة أسماء المخلوقين، أي على أنها لم توضع لمساها باعتبار معنى قائم به، بل هي أعلام محضة لا تدل على معنى، كما سبق وأن، أوضحنا ذلك في التمهيد.

وأما قول هؤلاء بأن أسماء الله أو كلامه غيره، فيُجاب عنه بأن لفظ الغير مجمل يحتاج إلى تفصيل. (وتحقيق ذلك أن الشيء له أربع مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبته في الأعيان، ويراد بها وجوده العيني الخارجي.

والمرتبة الثانية: مرتبته في الأذهان، ويراد بها وجوده الذهني.

والمرتبة الثالثة: مرتبته في اللسان، ويراد: بها وجوده اللفظي.

والمرتبة الرابعة: مرتبته في الخط، ويراد بها وجوده الرسمي

وهذه المراتب الأربع تظهر في الأعيان القائمة بنفسها " كالشمس" مثلا، وفي أكثر الأعراض أيضا، كالألوان وغيرها، وتارة تتحد مرتبتان كالعلم، فإن وجوده الخارجي مماثل لوجوده الذهني، وكالكلام فقد اتحدت فيه المرتبتان الخارجية واللفظية.²

1- فإن أريد "بالغير": المغايرة بين الوجود اللفظي والوجود العيني فهذا صحيح، وهذا الذي عناه أهل اللغة بقولهم في الاسم: هو اللفظ الدال على المسمى، (وهذا ما يسمى بالوجود اللفظي) .
وقولهم في المسمى: هو الشيء الموجود في الأعيان هنا: (وهذا ما يسمى بالوجود العيني) .

¹ - شرح الطحاوية ص 131.

² - ينظر: مختصر الصواعق 2/ 304، 305.

2- وإن أريد "بالغير" المغايرة في الوجود الذهني، فهذا صحيح، فإذا أريد بالغير هذا فإنما يفيد المباينة في ذهن الإنسان، فقد يذكر الإنسان الله ويخطر بقلبه ولا يشعر حينئذ بكل معاني أسمائه، بل قد يشعر بالبعض دون البعض الآخر، فقد لا يخطر له أنه عزيز وأنه حكيم، لكونه قد يعلم هذا دون هذا؛ وبالتالي فقد أمكن العلم بهذا دون هذا، وذلك لا ينفي التلازم في نفس الأمر (أي في الوجود العياني) فهي معاني متلازمة لا يمكن وجود الذات دون هذه المعاني، ولا وجود هذه المعاني دون وجود الذات¹

3- وإن أريد بالغير المغايرة في الوجود العياني بين ذات الله وصفاته، أي القول بإثبات ذات مجردة عن الصفات وصفات مجردة عن الذات فهذا باطل. وهذا هو مقصد الجهمية والمعتزلة بقولهم: "الاسم غير المسمى".

فيقال لهم: قولكم: إن أسماءه غيره مثل قولكم: إن كلامه غيره، وإن إرادته غيره، ونحو ذلك، وهو مبني على نفيكم لقيام الصفات بالله وزعمكم أن ذات الله مجردة من كل صفة، وهذا زعم باطل؛ لأنه ليس في نفس الأمر ذات مجردة حتى يقال: إن الصفات زائدة عليها (أي إنها غيرها)، بل لا يمكن وجود الذات إلا بما به تصير ذاتا من الصفات، فتخيّل وجود أحدهما في العيان دون الآخر، ثم زيادة الآخر عليه تخيل باطل، فلا يوجد ذات مجردة من الصفات ولا صفات مجردة من الذات كما يزعم هؤلاء.

ولذلك قال أهل السنة: إنه إذا قيل غيره بمعنى أنه يجب أن يكون مباينا له فهذا باطل، فأسماء الله من كلامه عز وجل وليس كلامه بائنا عنه حتى يقال: إنه غيره²

ونظرا لهذا المقصد الفاسد عند الجهمية والمعتزلة منع أهل السنة القول بأن "الاسم غير المسمى" لما في لفظ "الغير" من الإجمال فهو يحتمل وجها صحيحا وآخر باطلا.

أما الوجه الصحيح: فهو أن يُراد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فهذا حق.

وأما الوجه الباطل: أن يُراد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسما، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد³ ولأجل هذا المعنى الفاسد رد أهل

1 - مجموع الفتاوى 6/ 205، 206 "بتصرف".

2 - مجموع الفتاوى 6/ 204، 205، 206، 207 "بتصرف".

3 - ابن القيم - شفاء العليل ص 277

السنة القول بأن "الاسم غير المسمى" لعلمهم أن هذا هو مراد قائله، فالجهمية والمعتزلة يقولون: الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق.

وهذا قول فاسد "لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق؛ بل هو المتكلم به، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء" ¹ كما جاء في الحديث: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك". ² فالحديث يدل على أن أسماء الله غير مخلوقة، بل هو الذي تكلم بها، وسمى بها نفسه، ولهذا لم يقل: بكل اسم خلقته لنفسك؛ ولو كانت مخلوقة لم يسأل بها، فإن الله لا يُقسَمُ عليه بشيء من خلقه، فالحديث صريح في أن أسماءه ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم.

وأیضا فإن أسماءه مشتقة من صفاته، وصفاته قديمة به، فأسمائها غير مخلوقة ³ القول الثامن: أسماء الباریء لا هي الباریء، ولا هي غيره ، وهذا قول بعض الكلابية، والبعض الآخر منهم امتنعوا من أن يقولوا: لا هي الباریء ولا هي غيره.

وقولهم في هذه المسألة متفرغ عن قولهم في الصفات، فابن كلاب كان يقول: إن أسماء الله وصفاته لذاته لا هي الله ولا هي غيره، وإنها قائمة بالله، ولا يجوز أن تقوم بالصفات صفات، وكان يقول إن وجه الله لا هو الله ولا هو غيره وهو صفة له، وكذلك يداه وعينه وبصره صفات له لا هي هو ولا غيره، وإن ذاته هي هو، ونفسه هو، وإنه موجود لا بوجود ... ، وكان يزعم أن صفات الباریء لا تتغاير، وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها، وكذلك كل صفة من صفات الذات لا هي الصفة الأخرى ولا غيرها ⁴.

¹ - مجموع الفتاوى 6/ 186

² - الألباني أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها - مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض - ط: ج 1 - 4 : 1415 هـ - 1995 م / ج 6 : 1416 هـ - 1996 م / ج 7 : 1422 هـ - 2002 م - ص : 384/1 .

قال الألباني رحمه الله في قول الحاكم رحمه الله في الحديث " صحيح على شرط مسلم ."

³ - ابن القيم - شفاء العليل - ص : 276 ، 277 .

⁴ - أبو الحسن الأشعري - مقالات الإسلاميين ص : 169 ، 170 . وينظر في هذا كله : محمد بن خليفة بن علي التميمي -

معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى - ص : 308 . ومحمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد - مصطلحات في كتب

العقائد - درا بن خزيمه - ط : 1 دت - ص : 79 - 82 .

المطلب الثالث : تعريف الصفة

المعنى اللغوي: " يقال: وصف الشيء يصفه وصفاً أي نعته، وهذا صريح في أن الوصف والنعت مترادفان، وقد أكثر الناس القول في الفرق بينهما ولا سيما علماء الكلام، وهو مشهور، ولا داعي للإطالة فيه ، وفي اللسان : وصف: وصَفَ الشيءَ لَهُ وَعَلَيْهِ وَصْفًا وَصِفَةً: حَلَّاهُ، وَالْهَاءُ [يقصد التاء المربوطة] عَوْضٌ مِنَ الْوَاوِ، وَقِيلَ: الْوَصْفُ الْمَصْدَرُ وَالصِّفَةُ الْحَلِيَّةُ، اللَّيْثُ: الْوَصْفُ وَصْفُكَ الشَّيْءَ بِحَلِيَّتِهِ وَنَعْتِهِ. وَتَوَاصَفُوا الشَّيْءَ مِنَ الْوَصْفِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ؛ أَرَادَ مَا تَصِفُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ. وَاسْتَوَصَفَهُ الشَّيْءُ: سَأَلَهُ أَنْ يَصِفَهُ لَهُ. وَاتَّصَفَ الشَّيْءُ: أَمَكَنَ وَصْفُهُ؛ قَالَ سُحَيْمٌ:

وَمَا دُمِيَّةٌ مِنْ دُمَى مَيْسَانَ، ... مُعْجِبَةٌ نَظْرًا وَاتِّصَافًا¹

اتَّصَفَ مِنَ الْوَصْفِ. وَاتَّصَفَ الشَّيْءُ أَي صَارَ مُتَوَاصِفًا؛ قَالَ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ:

إِنِّي كَفَانِي مِنْ أَمْرٍ هَمَمْتُ بِهِ ... جَارٌّ، كَجَارِ الْحِذَاقِيِّ الَّذِي اتَّصَفَا ، أَي صَارَ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ الْجَوَارِ. وَوَصَفَ الْمُهْرُ: تَوَجَّهَ لِحُسْنِ السَّيْرِ كَأَنَّهُ وَصَفَ الشَّيْءَ. وَيُقَالُ لِلْمُهْرِ إِذَا تَوَجَّهَ لِشَيْءٍ مِنْ حُسْنِ السَّيْرِ: قَدْ وَصَفَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ وَصَفَ الْمَشْيَ. يُقَالُ: مَهْرٌ حِينَ وَصَفَ. وَوَصَفَ الْمُهْرُ إِذَا جَادَ مَشْيُهُ؛ قَالَ الشَّمَاخُ:

إِذَا مَا أَدْلَجَتْ، وَصَفَتْ يَدَاهَا ... لَهَا الْإِدْلَاجُ، لَيْلَةٌ لَا هُجُوعَ

يُرِيدُ أَجَادَتِ السَّيْرِ. وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: أَي تَصِفَ لَهَا إِدْلَاجَ اللَّيْلَةِ الَّتِي لَا تَهْجَعُ فِيهَا؛ قَالَ الْقُطَامِيُّ: وَقِيدَ إِلَى الظَّعِينَةِ أَرْحَبِيٍّ، ... جُلَّالٌ هَيْكَلٌ يَصِفُ الْقِطَارَا

أَي يَصِفُ سِيرَةَ الْقِطَارِ. وَبَيْعُ الْمُوَاصَفَةِ: أَنْ يَبِيعَ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ. وَفِي حَدِيثِ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَرِهَ الْمُوَاصَفَةَ فِي الْبَيْعِ؛ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: إِذَا بَاعَ شَيْئًا عِنْدَهُ عَلَى الصِّفَةِ لَزِمَهُ الْبَيْعُ؛ وَقَالَ إِسْحَاقُ كَمَا قَالَ؛ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: هَذَا بَيْعٌ عَلَى الصِّفَةِ الْمَضْمُونَةِ بِلَا أَجَلٍ يُمَيِّزُ لَهُ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، وَأَهْلُ مَكَّةَ لَا يُجِيزُونَ السَّلْمَ إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ. وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: بَيْعُ الْمُوَاصَفَةِ هُوَ أَنْ يَبِيعَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ثُمَّ يَبْتَاعَهُ فَيُدْفَعُهُ إِلَى الْمُشْتَرِي، قِيلَ لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ بَاعَ بِالصِّفَةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلَا حِيَازَةٍ مِلْكَ. وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنْ لَا يَشْفَ فَإِنَّهُ

¹ - قوله [دمية من دمی] أنشده في مادة ميس : قرية من قرى، وأراد الشاعر ميسانَ فاضطرَّ فَرَادَ النَّوْنَ .

يَصِفُ " ¹ أَي يَصِفُهَا، يُرِيدُ النَّوْبَ الرَّقِيقَ إِنْ لَمْ يَبَيِّنْ مِنْهُ الْجَسَدَ فَإِنَّهُ لِرَقَّتِهِ يَصِفُ الْبَدْنَ فَيَظْهَرُ مِنْهُ حَجْمُ الْأَعْضَاءِ، فَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالصِّفَةِ كَمَا يَصِفُ الرَّجُلُ سِلْعَتَهُ .

الوصيف "كأمير" الخادم أو الخادمة، أي غلاماً كان أو جارية، وربما قالوا للجارية: وصيفة والجمع وصائف، وجمع الوصيف وصفاء. وفي الأثر: " نهى عن بيع ² العُسْفَاءِ وَالْوُصْفَاءِ"، وفيه حديث أم أيمن: "إنها كانت وصيفةً لعبد المطلب" ³

وَاسْتَوْصَفَتِ الطَّبِيبَ لِذَائِي إِذَا سَأَلْتَهُ أَنْ يَصِفَ لَكَ مَا تَتَعَالَجُ بِهِ. وَالصِّفَةُ: كَالْعِلْمِ وَالسَّوَادِ. قَالَ: وَأَمَّا النَّحْوِيُّونَ فَلَيْسَ يُرِيدُونَ بِالصِّفَةِ هَذَا لِأَنَّ الصِّفَةَ عِنْدَهُمْ هِيَ النَّعْتُ، وَالنَّعْتُ هُوَ اسْمُ الْفَاعِلِ نَحْوُ ضَارِبٍ، وَالْمَفْعُولِ نَحْوُ مَضْرُوبٍ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا مِنْ طَرِيقِ الْمَعْنَى نَحْوُ مِثْلِ وَشَبِّهِ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ، يَقُولُونَ: رَأَيْتَ أَخَاكَ الظَّرِيفَ، فَالْأَخُ هُوَ الْمُؤْصُوفُ، وَالظَّرِيفُ هُوَ الصِّفَةُ،

¹ - إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي، أبو إسحاق ابن قرقول (المتوفى: 569هـ) - مطالع الأنوار على صحاح الآثار - ت: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر - ط: 1/1433 هـ - 2012 م - ص: 68/6 . ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه 5/164 عن ابن عمر موقوفاً ، وإبراهيم الحربي في "غريب الحديث" 2/812 - 813 ، والطبري في "تاريخه" 4/216 ، والبيهقي 2/234 عن عمر موقوفاً . والألباني في جلاباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة - دار السلام للنشر والتوزيع - ط: 3/1423 هـ - 2002 م - ص: 128 . قال الألباني معلقاً : أخرجه البيهقي "2/234-235"، وقال: "إنه مرسل"، يعني منقطع بين عبد الله بن أبي سلمة وعمر، لكن رجاله ثقات. ويقويه قول البيهقي عقبه: "وقد رواه أيضاً مسلم البطين عن أبي صالح عن عمر"

² - جميع من رواه يثبت لفظه " قتل " بدل " بيع " ينظر : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ) - مسنده - ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون - إشراف: د: عبد الله بن عبد المحسن التركي - مؤسسة الرسالة - ط: 1/1421 هـ - 2001 م - ص: 146/24 رقم: 15420 قال المحققون: صحيح، وهذا إسناد ضعيف لإبهام الرجل الذي روى عنه أيوب. إسماعيل: هو ابن إبراهيم المعروف بابن عُليَّة، وأيوب: هو ابن أبي تيمية السخيتاني. وأخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (2628) ، والبيهقي في "السنن" 9/91 من طرق عن أيوب، به. وأخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (9379) عن معمر، عن أيوب، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذا إسناد ضعيف لإعضاله. ويشهد له حديث رباح بن الربيع الذي سيرد 3/488 ولفظه: "الْحَقُّ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلُونَ ذُرِيَةَ وَلَا عَسِيفًا" وهو حديث صحيح.

³ - المقرئزي تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (المتوفى: 845هـ) - إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع - ت: محمد عبد الحميد النميسي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط: 1/1420 هـ - 1999 م - ص: 9/205

فَلِهَذَا قَالُوا لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ الشَّيْءُ إِلَى صِفَتِهِ كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّ الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفُ عِنْدَهُمْ، أَلَا تَرَى أَنَّ الظَّرِيفَ هُوَ الْأَخ؟¹.

المعنى الاصطلاحي:

"والصفة في اصطلاح المتكلمين حال وراء الذات، أو ما قام بالذات من المعاني والنعوت وهي في حق الله تعالى نعوت الجلال والجمال والعظمة والكمال، كالقدرة والإرادة والعلم والحكمة.²"

" ولهذا لما تنازع الناس في صفات الله تعالى بل في صفة كل موصوف وبعض كل مجموع هل يقال أنه غير له أم لا فقالت طائفة صفة الموصوف وبعض الجملة ليس غيرا له لأنه لا يوجد إلا به وقال بعضهم بل هو غير له لأنه يمكن العلم به دونه كان هذا نزاعا لفظيا فامتنع السلف والأئمة أن يطلقوا على صفات الله ككلامه وعلمه ونحو ذلك أنه غير له أو أنه ليس غيره ولهذا لما سألوا الإمام أحمد في مناظرتهم له في المحنة وأمر المعتصم قاضيه عبد الرحمن بن إسحق أن يناظره سأله فقال ما تقول في القرآن أهو الله أم غير الله عارضه الإمام أحمد بالعلم فقال ما تقول في علم الله أهو الله أم غير الله فسكت، وذلك أنه إن قال القائل لهم القرآن هو الله كان خطأ وكفرا وإن قال غير الله قالوا فما كان غير الله فهو مخلوق فعارضهم الإمام أحمد بالعلم فإن هذا التقسيم وارد عليه ولا يجوز أن يقال علم الله مخلوق ومما يبين ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "من حلف بغير الله فقد أشرك" وقد ثبت عنه أنه حلف بعزة الله والحلف بعمر الله ونحو ذلك من صفاته فعلم أن الحالف بصفاته ليس حالفا بغيره ولو كانت الصفة يطلق عليها القول بأنها غيره لكان الحلف بها حلفا بغيره وإذا قال القائل الحالف بصفته حالف به لأن الصفة تستلزم الموصوف وهو المقصود باليمين قيل لهم فلماذا لم يدخل في إطلاق القول بأنها غير الله فعلمه لازم له وملزوم له وكلامه لازم له وملزوم له والصفة داخلة في مسمى الموصوف فإذا قال القائل عبدت الله وذكرت الله ونحو ذلك فاسم الله متضمن

¹ - ينظر : ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري (المتوفى: 606هـ) - النهاية في غريب الحديث والأثر - ت : طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م - ص : [191/5]

وينظر : ابن منظور - لسان العرب - ص : [357.356 / 9] .

² - محمد أمان الجامي - الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتزويه - مرجع سابق - ص : 84

لصفاته اللازمة لذاته فإذا قيل أنها غير الله فقد يفهم منه أنها خارجة عن مسمى اسمه وهذا باطل ولهذا قد يقال أنها غير الذات ولا يقال أنها غير الله لأن لفظ الذات يشعر بمغايرته للصفة بخلاف اسم الله تعالى فإنه متضمن لصفات كماله وقولنا أنه مغاير للذات لا يتضمن جواز وجوده دون الذات فإنه ليس في الخارج ذات منفكة عن صفات ولا صفات منفكة عن ذات بل ذلك ممتنع لنفسه ومن قال من أهل الإثبات أن له صفات زائدة على ذاته فحقيقة قوله أنها زائدة على ما أثبتته المثبت من الذات حيث أقر بذات ولم يقر بصفاتها وإلا ففي الخارج ليس هناك ذات منفكة عن صفات حتى يقال أن الصفات زائدة عليها ¹

قال شيخ الإسلام في الرسالة الأكملية مبينا مورد الإشكال على أهل الكلام في ألفاظ: الغير والذات والصفة : " ومنهم من يقول: أنا لا أطلق عليها - يقصد الصفة - أنها ليست هي هو، ولا أطلق عليها أنها ليست غيره، ولا أجمع بين السلبين فأقول: لا هي هو ولا هي غيره، وهو اختيار طائفة من المثبتة كالأشعري، وأظن أن قول أبي الحسن التميمي هو هذا، أو ما يشبه هذا.

ومنهم من يجوز إطلاق هذا السلب وهذا السلب في إطلاقهما جميعًا، كالقاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلى.

ومنشأ هذا أن لفظ [الغير] يراد به المغاير للشيء، ويراد به ما ليس هو إياه، وكان في إطلاق الألفاظ المجملة إيهام لمعانٍ فاسدة.

ونحن نجيب بجواب علمي فنقول: قول القائل: يتكلم بغيره. أيريد به بشيء منفصل عنه أم يريد بصفة لوازم ذاته؟ أما الأول فممتنع. وأما الثاني فهو حق، ولوازم ذاته لا يمكن وجود ذاته بدونها، كما لا يمكن وجودها بدونها، وهذا كمال بنفسه لا بشيء مباين لنفسه.

وقد نص الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره وأئمة المثبتة كأبي محمد بن كلاب وغيره على أن القائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: دعوت الله وعبدته، أو قال: بالله، فاسم الله متناول لذاته المتصفة بصفاته، وليست صفاته زائدة على مسمى أسمائه الحسنی.

وإذا قيل: هل صفاته زائدة على الذات أم لا؟ قيل: إن أريد بالذات المجردة التي يقر بها نفاة الصفات، فالصفات زائدة عليها، وإن أريد بالذات الموجودة في الخارج، فتلك لا تكون

¹ - ابن تيمية - الصفية - ت : محمد رشاد سالم - مكتبة ابن تيمية ، مصر - ط : 2 / 1406 - ص : [107/1 . 108 - 109]

موجودة إلا بصفاتهما اللازمة. والصفات ليست زائدة على الذات المتصفة بالصفات، وإن كانت زائدة على الذات التي يقدر تجردها عن الصفات.

وأما قول القائل: لو قامت به صفات وجودية لكان مفتقراً إليها وهي مفتقرة إليه، فيكون الرب مفتقراً إلى غيره، فهو من جنس السؤال الأول.

فيقال: أولاً: قول القائل: [لو قامت به صفات وجودية لكان مفتقراً إليها] يقتضي إمكان جوهر تقوم به الصفات، وإمكان ذات لا تقوم بها الصفات، فلو كان أحدهما ممتنعاً لبطل هذا الكلام، فكيف إذا كان كلاهما ممتنعاً؟ فإن تقدير ذات مجردة عن جميع الصفات، إنما يمكن في الذهن لا في الخارج. كتقدير وجود مطلق لا يتعين في الخارج.

ولفظ [ذات] تأنيث ذو، وذلك لا يستعمل إلا فيما كان مضافاً إلى غيره، فهم يقولون: فلان ذو علم وقدرة، ونفس ذات علم وقدرة. وحيث جاء في القرآن أو لغة العرب لفظ [ذو] ولفظ [ذات] لم يجئ إلا مقروناً بالإضافة كقوله: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال: 1] ، وقوله: {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران: 119] .

وقول خبيّب رضي الله عنه: وذلك في ذات الإله. . . ونحو ذلك.

لكن لما صار النظر يتكلمون في هذا الباب، قالوا: إنه يقال: إنها ذات علم وقدرة، ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة وعرفوه، فقالوا: [الذات] . وهي لفظ مؤلّد ليس من لفظ العرب العرباء؛ ولهذا أنكره طائفة من أهل العلم، كأبي الفتح بن برهان، وابن الدهان وغيرهما، وقالوا: ليست هذه اللفظة عربية ورد عليهم آخرون، كالقاضي وابن عقيل وغيرهما.

وفصل الخطاب: أنها ليست من العربية العرباء، بل من المولدة، كلفظ الموجود ولفظ الماهية والكيفية ونحو ذلك، فهذا اللفظ يقتضي وجود صفات تضاف الذات إليها، فيقال: ذات علم وذات قدرة وذات كلام والمعنى كذلك، فإنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج لا يتصف بصفة ثبوتية أصلاً، بل فرض هذا في الخارج كفرض عرض يقوم بنفسه لا بغيره.

ففرض عرض قائم بنفسه لا صفة له، كفرض صفة لا تقوم بغيرها، وكلاهما ممتنع، فما هو قائم بنفسه فلا بد له من صفة، وما كان صفة فلا بد له من قائم بنفسه متصف به.

ولهذا سلم المنازعون أنهم لا يعلمون قائماً بنفسه لا صفة له، سواء سموه جوهرًا أو جسمًا أو غير ذلك، ويقولون: وجود جوهر معرى عن جميع الأعراض ممتنع، فمن قدر إمكان موجود

قائم بنفسه لا صفة له، فقد قدر ما لا يعلم وجوده في الخارج ولا يعلم إمكانه في الخارج، فكيف إذا علم أنه ممتنع في الخارج عن الذهن.

وكلام نفاة الصفات جميعه يقتضي أن ثبوته ممتنع، وإنما يمكن فرضه في العقل، فالعقل يقدره في نفسه، كما يقدر ممتنعات، لا يعقل وجودها في الوجود ولا إمكانها في الوجود.¹

هذا وإن صفات الله تعالى توقيفية فلا مجال فيها للاجتهاد والاستحسان، بل الواجب الوقوف عند ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، قال الإمام أحمد في هذا الصدد: " لا يتجاوز الكتاب والسنة "، إذ لا يصف الله أعلم بالله من الله، ولا يصفه في خلقه أعلم من رسوله عليه الصلاة والسلام .

¹ - ينظر : ابن تيمية - الرسالة الأكملية فيما يجب لله من صفات الكمال - مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة، مصر . ط : 1403هـ/1983م ، ص : 24 - 25 - 26 .

المبحث الثاني : أدلة إثبات الأسماء والصفات

لا شك أنّ أول ما يجب على من يلزمه الخطاب، أن يعلم أن للعالم بأسره صانعًا، وأنه هو الله الواحد لا شريك له، وقد جرى كثير من عوام المسلمين في هذا على عادة النشوء وحكم الولادة، فكان إيمانهم إيمان تلقين وتربية، وذلك أنهم يولدون في دار الإسلام، ويتربون في حجور المسلمين، وينشأون في بلادهم، فيتلقون كلمة التوحيد من الآباء والأمهات، ويسمعون الأذان من المؤذنين، ويتلقون القرآن من الأئمة في الصلوات، ومن المعلمين في المكاتب، فيستحکم حكم الدين في قلوبهم، ويعتقدون حسنه وصحته تقليدًا، فينتفعون به ويقتصرون عليه. ودين الإسلام إذ كان موثوقًا بصحته، مشهودًا له بالفضل على كل دين سواه، فقد يجب على كل متدين به، أن يكون مصدر اعتقاده إياه عن نظر واستدلال، ليكون العلم به أصح، والوثيقة به أشد، وقد نصب الله تعالى الأدلة وأزاح بها العلة، ووسع من وجوها، وكثر من عددها، فهي على اختلاف مراتبها في الوضوح والغموض، معروضة للاستدلال بها، والاستشهاد بمواضعها، فلا أحد يعقل من آحاد الناس، إلا وله في جليها مستدل، وفي واضحها مستشهد، وإن كان نزل فهمه عن دقيقتها ولطيفها، فالواجب على كل من الناس أن يبذل وسعه فيه، ويبلغ جهده في دركه، فإن الله تعالى يقول: { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [الأعراف : 69] .

قال ابن رشد في مناهج الأدلة : " لذلك كان واجبًا على من أراد أن يعرف الله حق معرفته، أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، ولهذا أشار تعالى وتقدس بقوله: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} [الأعراف: 185] وكذلك أيضًا من تتبع معنى الحكمة في موجود موجود؛ أعني معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به، كان وقوفه على دليل العناية أتم. فهذان الدليلان هما دليلًا الشرع.

وأما أن الآيات المنبهاة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه في الكتاب العزيز، هي منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة فهذا بين لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في

هذا المعنى [وذلك أن الآيات في الكتاب العزيز في هذا المعنى] إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع:

إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية.

وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع.

وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً.

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط، فمثل قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) { [النبا: 6-7]- إلى قوله- {وَجَنَاتٍ أَلْفَافًا (16) { [النبا: 16] ومثل قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) { [الفرقان 61] إلى قوله تعالى: {أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) { [الفرقان 62] ومثل قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) { [عبس: 24] الآية. ومثل هذا في القرآن كثير.

وأما الآيات التي تضمنت دلالة الاختراع فقط، فمثل قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (6) { [الطارق: 5-6] ومثل قوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) { [الغاشية: 17] الآية، ومثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ { [الحج: 73] .

ومن هذا قوله تعالى حكاية عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) { [الأنعام: 79] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى.

فأما الآيات التي تجمع الدالتين فهي كثيرة أيضاً، بل هي الأكثر مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) { [البقرة: 21] إلى قوله تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) { [البقرة: 22] فإن قوله: {الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) { [البقرة: 21] تنبيه على دلالة الاختراع، وقوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً { [البقرة: 22] تنبيه على دلالة العناية، ومثل قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ { [يس: 33] وقوله: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) { [آل عمران: 191] وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى، يوجد فيها النوعان من الدلالة.

فهذه الطريق هي الصراط المستقيم، التي دعا الله تعالى الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم على ذلك بما جعل في فطرهم من إدراك هذا المعنى " ¹

أما الكلام على صفاته ، فلا شك أنّ الكمال ثابت له، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى يستحقه بنفسه المقدسة، وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه؛ فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز، وإن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية، مع دلالة السمع على ذلك.

ودلالة القرآن على الأمور نوعان:

أحدهما: خبر الله الصادق، فما أخبر الله ورسوله به فهو حق كما أخبر الله به.

والثاني: دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب. فهذه دلالة شرعية عقلية؛ فهي [شرعية] لأن الشرع دل عليها، وأرشد إليها؛ و [عقلية] لأنها تعلم صحتها بالعقل. ولا يقال: إنها لم تعلم إلا بمجرد الخبر.

وإذا أخبر الله بالشيء، ودلّ عليه بالدلالات العقلية، صار مدلولاً عليه بخبره، ومدلولاً عليه بدليله العقلي الذي يعلم به، فيصير ثابتاً بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى [الدلالة الشرعية].

المطلب الأول : الأدلة النقلية

إنّ الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق والإقرار برسوله وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا فإن الله وجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً ، فلما كانت حاجتهم إلى النفس أكثر من حاجتهم إلى الماء وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل كان سبحانه قد جاء بالهواء جوداً عاماً في كل مكان وزمان لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر لأن الحاجة إليه أشد .

¹ - ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل - ت : الدكتور محمد رشاد سالم - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية - ط : 2، 1411 هـ - 1991 م - ص : [327/9، 328، 329]
وينظر أيضاً مؤلفه : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية - ت : مجموعة من المحققين - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - ط : 1/1426 هـ - ص : [496.495.494/1].

فكذلك دلائل الربوبية حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات ثم دلائل النبوة فهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما لا يحتاج إليه العامة .

" وقد عُلم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها، إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه - مع ما أثبتته من الصفات - من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته، كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف : 180] .

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [فصلت: 40]. فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتا بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل، كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى : 11] ففي قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} رد للتشبيه والتمثيل، وقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} رد للإلحاد والتعطيل.

والله سبحانه وتعالى بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل على وجه الإجمال، كما قال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم : 65] ، قال أهل اللغة: (هل تعلم له سمياً) أي نظيراً يستحق مثل اسمه، ويقال مُسامياً يُساميه. وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له شبيهاً وعن مجاهد: هل تعلم له مثلاً أو شبيهاً¹.

وقال تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ، وقال تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ، وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} ، وقال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ • بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا • الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} ، وقال تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ • أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ

¹ - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي - جامع البيان في تأويل القرآن - ت : أحمد محمد

شاکر: مؤسسة الرسالة - ط : 1 / 1420 هـ - 2000 م - ص : [266/18] .

شَاهِدُونَ • أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ • وَلَدَ اللّٰهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ • أَصْطَفَى النَّبَاتِ عَلَى النَّبِيِّنَ • مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ • أَفَلَا تَذَكَّرُونَ • أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ • فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ • وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ • سُبْحَانَ اللّٰهِ عَمَّا يُصِفُونَ • إِلَّا عِبَادَ اللّٰهِ الْمُخْلِصِينَ} إِلَى قَوْلِهِ: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ • وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ • وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ، فسبح نفسه عما يصفه المفترون المشركون، وسلّم على المرسلين، لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، وحمد نفسه إذ هو سبحانه المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبيدع المخلوقات.

وأما الإثبات المفصل، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته، كقوله تعالى: {اللّٰهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} الآية بكمالها، وقوله: {قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ • اللّٰهُ الصَّمَدُ • لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} وقوله: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} ، {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} ، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ، {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ • ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ • فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ} ، {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ • هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} . وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللّٰهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} ، وقوله: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} ، وقوله: {رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} ، وقوله: {وَمَنْ يَفْتَلِ مُؤْمِنًا مَّتَّعِدًا فَجْرَؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} ، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} ، وقوله: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّٰهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ} ، وقوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} . وقوله: {وَكَلَّمَ اللّٰهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} ، وقوله: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} ، وقوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} ، وقوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} .

وقوله تعالى: {هُوَ اللّٰهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ • هُوَ اللّٰهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللّٰهِ

عَمَّا يُشْرِكُونَ • هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} .

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في أسماء الرب تعالى
وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي
التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل صلى الله عليهم أجمعين

المطلب الثاني : الأدلة العقلية

تقدمنا للأدلة النقلية على العقلية ليست مطية لقائل : " إن تقديم النقل على العقل طعن في
أصله الذي هو العقل، فيكون طعناً فيه غير مسلم .
وذلك لأن قوله: إن العقل أصل للنقل إما أن يريد به: أنه أصل في ثبوته في نفس الأمر . أو
أصل في عملنا بصحته .

والأول لا يقوله عاقل، فإن ما هو ثابت في نفس الأمر بالسمع أو بغيره هو ثابت، سواء علمنا
بالعقل أو بغير العقل ثبوته، أو لم نعلم ثبوته لا بعقل ولا بغيره، إذ عدم العلم ليس علماً بالعدم،
وعدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في أنفسنا، فوجود الرب تعالى وما يستحقه من الأسماء
والصفات ثابت في نفس الأمر، سواء علمناه أو لم نعلمه .

فتبين بذلك أن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه، ولا معطياً له صفة لم تكن له، ولا
مفيداً له صفة كمال، إذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم، تابع له، ليس مؤثراً فيه .
فإن العلم نوعان: أحدهما العملي، وهو ما كان شرطاً في حصول المعلوم، كتصور أحدنا لما
يريد أن يفعله، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به محتاج إليه .

والثاني: العلم الخبري النظري، وهو ما كان المعلوم غير مفتقر في وجوده إلى العلم به، كعلمنا
بوحداية الله تعالى وأسمائه وصفاته وصدق رسله وبملائكته وكتبه وغير ذلك، فإن هذه
المعلومات ثابتة سواء علمناها أو لم نعلمها، فهي مستغنية عن علمنا بها، والشرع مع العقل هو
من هذا الباب، فإن الشرع المنزل من عند الله ثابت في نفسه، سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه،
فهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا، فإن
العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به، وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج

إليها في دنياه وآخرته، وانتفع بعلمه به، وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك، ولو لم يعلمه لكان جاهلاً ناقصاً.¹

وتبدعتنا بالأدلة النقلية لبيان وجودها الموجب لعدم معارضة أدلة عقلية صحيحة يتفاوت في معرفتها أهل العقول وللرد على من قال إن الغيبات تمتنع عقلاً، "فإن نفس الغريزة العقلية التي تكون للشخص قد تعجز عن إدراك كثير من الأمور، لا سيما الغائبات، فمن رام بعقل نفسه أن يدرك كل شيء كان جاهلاً، لا سيما إذا طعن في الطرق السمعية النبوية الخبرية. وهذا هو الذي يسلكه من يسلكه من الفلاسفة ومن يشبههم من أهل الكلام. وهؤلاء هم الذين يذكر أبو حامد الغزالي وغيره تهافتهم وتناقضهم، وأن ما يدعونه من المعارف الإلهية بعقولهم جمهوره باطل، وإن كان قد وقع في كلامه من كلام هؤلاء أمور، قيل أنه رجع عنها.

ولا ريب أن الرسل صلوات الله عليهم يخبرون الخلق بما تعجز عقولهم عن معرفته، ولا يخبرونهم بما يعلمون امتناعه، فهم يخبرونهم بمحارات العقول لا بمحالاتها، فمن أراد أن يعرف ما أخبرت به الرسل بعقله، كان شبيهاً بمن قال الله تعالى فيه: { وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته } الأنعام 124 ، وقال: { بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسورة } [المُنْتَرِ: 52] " 2

إن ثبوت الكمال لله معلوم بالعقل، وإن نقيض ذلك مُنْتَفٍ عنه، فإن الاعتماد في الإثبات والنفي على هذه الطريق مستقيم في العقل والشرع ، فلم يُعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم إلا من سفه نفسه ، سواء أخبر به الرسول، أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودلّ به، وبينه، واحتج به، فهو دليل شرعي، لأن الشارع استدل به، وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته.

وجمهور أهل الفلسفة والكلام يوافقون على أن الكمال لله ثابت بالعقل، والفلاسفة تسميه التمام، وبيان ذلك من وجوه:

1 - قاعدة : واجب الوجود واجب القيومية والقدم

قد ثبت أن الله قديم بنفسه، واجب الوجود بنفسه، قيوم بنفسه، خالق بنفسه، إلى غير ذلك من خصائصه. والطريقة المعروفة في وجوب الوجود تقال في جميع هذه المعاني.

¹ - ينظر ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل - ص : 88/1 - 89 . بتصرف

² - ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل - ص : 326/7 - 327 .

فإذا قيل: الوجود إما واجب وإما ممكن، والممكن لا بد له من واجب، فيلزم ثبوت الواجب على التقديرين، فهو مثل أن يقال: الموجود إما قديم وإما حادث، والحادث لا بد له من قديم، فيلزم ثبوت القديم على التقديرين. والموجود إما غني وإما فقير، والفقير لا بد له من الغني، فلزم وجود الغني على التقديرين. والموجود إما قيوم بنفسه وإما غير قيوم، وغير القيوم لا بد له من القيوم، فلزم ثبوت القيوم على التقديرين، والموجود إما مخلوق وإما غير مخلوق، والمخلوق لا بد له من خالق غير مخلوق، فلزم ثبوت الخالق غير المخلوق على التقديرين ونظائر ذلك متعددة.

2 - قاعدة : الكمال في الممكن يستلزم كمال الواجب بالأولى

لقد استدل شيخ الإسلام لهذه القاعدة في فتاواه قال : " ثم يقال: هذا الواجب القديم الخالق، إما أن يكون ثبوت الكمال الذي لا نقص فيه الممكن الوجود ممكناً له، وإما ألا يكون. والثاني ممتنع؛ لأن هذا ممكن للموجود المحدث الفقير للممكن، فلأن يمكن للواجب الغني القديم بطريق الأولى والأخرى؛ فإن كلاهما موجود. والكلام في الكمال الممكن الوجود الذي لا نقص فيه. فإذا كان الكمال الممكن الوجود ممكناً للمفضول، فلأن يمكن للفاضل بطريق الأولى؛ لأن ما كان ممكناً لما هو في وجوده ناقص، فلأن يمكن لما هو في وجوده أكمل منه بطريق الأولى، لاسيما وذلك أفضل من كل وجه فيمتنع اختصاص المفضول من كل وجه بكمال لا يثبت للأفضل من كل وجه، بل ما قد ثبت من ذلك للمفضول فالفاضل أحق به، فلأن يثبت للفاضل بطريق الأولى.

ولأن ذلك الكمال إنما استفاده المخلوق من الخالق، والذي جعل غيره كاملاً هو أحق بالكمال منه، فالذي جعل غيره قادراً أولى بالقدرة، والذي علم غيره أولى بالعلم، والذي أحيا غيره أولى بالحياة، والفلاسفة توافق على هذا، ويقولون: كل كمال للمعلول فهو من آثار العلة، والعلة أولى به.¹

3 - قاعدة : الكمال في الوجود الممكن يستلزم الكمال للواجب الموجد له ولكماله

¹ ابن تيمية - مجموع الفتاوى - ت : عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن قاسم - ط : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية : 1416هـ/1995م - ص : [76/6] . وينظر أيضاً كتابه : شرح العقيدة الأصفهانية - ت : محمد بن رياض الأحمد - المكتبة العصرية - بيروت - لبنان ، ط 1425/1هـ - ص : [134/1] .

لم يذكر شيخ الإسلام هذه القواعد وإنما هي مستنبطة من كلامه وهذه مستفادة من قوله : " وإذا ثبت إمكان ذلك له، فما جاز له من ذلك الكمال الممكن الوجود، فإنه واجب له لا يتوقف على غيره، فإنه لو توقف على غيره لم يكن موجوداً له إلا بذلك الغير، وذلك الغير إن كان مخلوقاً له لزم الدور القبلي الممتنع، فإن ما في ذلك الغير من الأمور الوجودية فهي منه، ويمتنع أن يكون كل من الشئيين فاعلاً للآخر، وهذا هو الدور القبلي فإن الشئ يمتنع أن يكون فاعلاً لنفسه، فلأن يمتنع أن يكون فاعلاً لفاعله بطريق الأولى والأخرى.

وكذلك يمتنع أن يكون كل من الشئيين فاعلاً لما به يصير الآخر فاعلاً، ويمتنع أن يكون كل من الشئيين معطياً للآخر كماله، فإن معطي الكمال أحق بالكمال، فيلزم أن يكون كل منهما أكمل من الآخر، وهذا ممتنع لذاته، فإن كون هذا أكمل يقتضي أن هذا أفضل من هذا، وهذا أفضل من هذا، وفصل أحدهما يمنع مساواة الآخر له، فلأن يمنع كون الآخر أفضل بطريق الأولى.

وأيضاً، فلو كان كماله موقوفاً على ذلك الغير، للزم أن يكون كماله موقوفاً على فعله لذلك الغير، وعلى معاونة ذلك الغير في كماله، ومعاونة ذلك الغير في كماله موقوف عليه؛ إذ فعل ذلك الغير، وأفعاله موقوفة على فعل المبدع لا تفتقر إلى غيره، فيلزم ألا يكون كماله موقوفاً على غيره.

فإذا قيل: كماله موقوفاً على مخلوقه، لزم ألا يتوقف على مخلوقه، وما كان ثبوته مستلزماً لعدمه كان باطلاً من نفسه. وأيضاً، فذلك الغير كل كمال له فممه وهو أحق بالكمال منه، ولو قيل يتوقف كماله عليه لم يكن متوقفاً إلا على ما هو من نفسه، وذلك متوقف عليه لا على غيره.

وإن قيل: ذلك الغير ليس مخلوقاً بل واجباً آخر قديماً بنفسه. فيقال: إن كان أحد هذين هو المعطي دون العكس، فهو الرب، والآخر عبده.

وإن قيل: بل كل منهما يعطي للآخر الكمال، لزم الدور في التأثير وهو باطل، وهو من الدور القبلي، لا من الدور المعني الاقتراني فلا يكون هذا كاملاً حتى يجعله الآخر كاملاً، والآخر لا يجعله كاملاً حتى يكون في نفسه كاملاً، لأن جاعل الكامل كاملاً أحق بالكمال ولا يكون الآخر كاملاً حتى يجعله كاملاً، فلا يكون واحداً منهما كاملاً بالضرورة، فإنه لو قيل: لا يكون كاملاً

حتى يجعل نفسه كاملاً، ولا يجعل نفسه كاملاً حتى يكون كاملاً لكان ممتنعاً، فكيف إذا قيل: حتى يجعل ما يجعله كاملاً كاملاً؟! !

وإن قيل: كل واحد له آخر يكمله إلى غير نهاية لزم التسلسل في المؤثرات، وهو باطل بالضرورة واتفاق العقلاء. فإن تقدير مؤثرات لا تنتهي: ليس فيها مؤثر بنفسه لا يقتضي وجود شيء منها، ولا وجود جميعها، ولا وجود اجتماعها، والمبدع للموجودات لا بد أن يكون موجوداً بالضرورة.

فلو قدر أن هذا كامل فكماله ليس من نفسه بل من آخر، وهلم جرا، للزم ألا يكون لشيء من هذه الأمور كمال، ولو قدر أن الأول كامل لزم الجمع بين النقيضين، وإذا كان كماله بنفسه لا يتوقف على غيره، كان الكمال له واجباً بنفسه، وامتنع تخلف شيء من الكمال الممكن عنه، بل ما جاز له من الكمال وجب له، كما أقر بذلك الجمهور من أهل الفقه والحديث، والتصوف والكلام والفلسفة وغيرهم، بل هذا ثابت في مفعولاته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وكان ممتنعاً بنفسه أو ممتنعاً لغيره، فما ثم إلا موجود واجب إما بنفسه وإما بغيره، أو معدوم إما لنفسه وإما لغيره، والممكن أن حصل مقتضيه التام: وجب بغيره، وإلا كان ممتنعاً لغيره، والممكن بنفسه: إما واجب لغيره، وإما ممتنع لغيره.¹

هذه الاستدلالات العقلية لها شواهدا من الأدلة النقلية، فقد بين الله سبحانه أنه أحق بالكمال من غيره وأن غيره لا يساويه في الكمال في مثل قوله تعالى {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون}؟ وقد بين أن الخلق صفة كمال وأن الذي يخلق أفضل من الذي لا يخلق وأن من عدل هذا بهذا فقد ظلم. وقال تعالى: {ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون} فبين أن كونه مملوكا عاجزا صفة نقص وأن القدرة والملك والإحسان صفة كمال وأنه ليس هذا مثل هذا وهذا الله وذاك لما يعبد من دونه. وقال تعالى: {وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم} وهذا مثل آخر. فالأول مثل العاجز عن الكلام وعن الفعل الذي لا يقدر على شيء. والآخر المتكلم الأمر بالعدل الذي هو على صراط مستقيم فهو عادل في أمره مستقيم في فعله. فبين أن التفضيل بالكلام المتضمن للعدل والعمل المستقيم فإن مجرد الكلام

¹ ابن تيمية - مجموع الفتاوى - مصدر سابق - ص : [78-77/6]

والعمل قد يكون محمودا وقد يكون مذموما. فالمحمود هو الذي يستحق صاحبه الحمد فلا يستوي هذا والعاجز عن الكلام والفعل. وقال تعالى: {ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون} . يقول تعالى: إذا كنتم أنتم لا ترضون بأن المملوك يشارك مالكة لما في ذلك من النقص والظلم فكيف ترضون ذلك لي وأنا أحق بالكمال والغنى منكم؟ .

وهذا يبين أنه تعالى أحق بكل كمال من كل أحد وهذا كقوله: {وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم} {يتواری من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون} {للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم} {ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} {ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنی لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون} حيث كانوا يقولون: الملائكة بنات الله وهم يكرهون أن يكون لأحدهم بنت فيعدون هذا نقصا وعيبا. والرب تعالى أحق بتتزيهه عن كل عيب ونقص منكم؛ فإن له " المثل الأعلى " فكل كمال ثبت للمخلوق: فالخالق أحق بثبوت منه إذا كان مجردا عن النقص وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص وعيب: فالخالق أولى بتتزيهه عنه. وقال تعالى: {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} وهذا يبين أن العالم أكمل ممن لا يعلم. وقال تعالى: {وما يستوي الأعمى والبصير} {ولا الظلمات ولا النور} {ولا الظل ولا الحرور} فبين أن البصير أكمل والنور أكمل والظل أكمل؛ وحينئذ فالمتصف به أولى. {والله المثل الأعلى} . وقال تعالى: {واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين} فدل ذلك على أن عدم التكلم والهداية نقص وأن الذي يتكلم ويهدي: أكمل ممن لا يتكلم ولا يهدي والرب أحق بالكمال. وقال تعالى: {قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون} فبين سبحانه بما هو مستقر في الفطر أن الذي يهدي إلى الحق أحق بالاتباع ممن لا يهتدي إلا أن يهديه غيره؛ فلزم أن يكون الهادي بنفسه هو الكامل؛ دون الذي لا يهتدي إلا بغيره. وإذا كان لا بد من وجود الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل وقال تعالى في الآية الأخرى: {أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا} فدل على أن الذي يرجع إليه القول ويملك الضر والنفع: أكمل منه.

وقال إبراهيم لأبيه: {يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً} فدل على أن السميع البصير الغني أكمل وأن المعبود يجب أن يكون كذلك. ومثل هذا في القرآن متعدد من وصف الأصنام بسلب " صفات الكمال " كعدم التكلم والفعل وعدم الحياة ونحو ذلك مما يبين أن المتصف بذلك منتقص معيب كسائر الجمادات وأن هذه الصفات لا تسلب إلا عن ناقص معيب.

أخبر أن له الحمد وأنه حميد مجيد وأن له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم ونحو ذلك من أنواع المحامد. و " الحمد نوعان " : حمد على إحسانه إلى عباده. وهو من الشكر؛ وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون إلا على ما هو في نفسه مستحق للحمد وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي أمور وجودية فإن الأمور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال. ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت أنه المستحق للمحامد الكاملة وهو أحق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب.¹

وذكر البيهقي رحمه الله في صدد الاستدلال بالخلق وكمال على الخالق وكمال ما نصّه : " فالإنسان إذا فكر في نفسه، رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرفة كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم لحماً وعظماً، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال، لأنه لا يقدر أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل، التي هي حال كمال عقله، وبلوغ أشده، عضواً من الأعضاء ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، فيدله ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز، وقد يرى نفسه شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة، إلى الشيخوخة والهزم ولا اختاره لنفسه، ولا في وسعه أن يزائل حال المشيب، ويراجع قوة الشباب، فيعلم بذلك أن ليس هو الذي فعل هذه الأفعال بنفسه وأن له صانعاً صنعه، وناقلاً نقله من حال إلى حال، ولولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقل، ولا مدبر. ثم يعلم أنه لا يتأتى الفعل المتقن المحكم ولا يوجد الأمر والنهي ممن لا حياة له ولا علم ولا قدرة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام فيستدل بذلك على أن صانعه حي عالم قادر مرید سميع

¹ - ينظر ابن تيمية - مجموع الفتاوى - ت : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم مصدر سابق ص : [6/ 80 - 84]

وينظر له أيضا : الرسالة الأكملية فيما يجب لله من صفات الكمال - مصدر سابق - ص : [1/ 11 - 20]

بصير متكلم ، ثم يعلم استغناء المصنوع بصانع واحد وعلو بعضهم على بعض " أن لو كان معه آلهة " وما يدخل من الفساد في الخلق أن لو كان معه آلهة فيستدل بذلك على أنه إله واحد لا شريك له كما قال عزّ من قائل : { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ } وقال تعالى : [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون]

هاتان الطريقتان اللتان سلكهما البيهقي للاستدلال على وجود الله - أعني النظر في الأنفس و الملكوت [والتي سنذكرها لاحقاً] - هما عقليتان، وشرعيتان في الوقت نفسه والاستدلال بمثل هذا النوع من الأدلة هو منهج السلف إذ من منهجهم قبول كل دليل اتفقت العقول على صحته، وكان شرعياً بمعنى أن الشارع قد أتى به وأمر الناس أن يستدلوا به .

فإن الإنسان هو المستدلّ وهو الدليل والبرهان. قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}.

غير أن البيهقي رحمه الله تابع أبا الحسن الأشعري رحمه الله كما في كتابيه : " اللّمع " و " الرسالة إلى أهل الثغر " فكلاهما استدل على حدوث الإنسان بتغيّره وتقلّبه من حال إلى حال ، ثم استدلاً بذلك على وجود الخالق المحدث له ، وهذا مبني على نفي الصفات الاختيارية عن الله - التي يسمونها حلول الحوادث - ونفيها مذهب الأشاعرة المنسوب لأبي الحسن الأشعري فقد قال - رحمه الله - في بيان هذا الدليل: " ثم إن الله تعالى حضّمهم على النظر في ملكوت السموات والأرض، وغيرهما من خلقه في آية أخرى فقال: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف : 158] يعني بالملكوت الآيات ، يقول: " أولم ينظروا فيها نظر تفكر وتدبر، حتى يستدلوا بكونها محلاً للحوادث والتغييرات على أنها محدثات، وأن المحدث لا يستغني عن صانع يصنعه على هيئة لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات، كما استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بمثل ذلك، فانقطع عنها كلها إلى ربّ هو خالقها ومنشئها " ¹.

كذا اعتمد الزمخشري والبقاعي في تفسيريهما لقول الله عزّ وجلّ على لسان خليله : " لا أحبّ الآفلين " [الأنعام : 67] دليل حلول الحوادث وتغيّر صفات المخلوق وتجديدها في نفي الصفات الاختيارية عن الخالق تعالى شأنه ، حيث فسّر الأول الأفل بالانتقال والتغيّر قال :

¹ - البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين - الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد - مصدر سابق : ص : 59 .

لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ: لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام " ¹

وفسره البقاعي بقوله: " {فلما أفل} أي غاب بعد ذلك الظهور الذي كان آية سلطان {قال لا أحب الآفلين} لأن الأفل حركة، والحركة تدل على حدوث المتحرك وإمكانه " ²

وفسره الشهرستاني بالانتقال والتغير قال: " ثم استدل بالأفول والزوال، والتغير، والانتقال، على أنه لا يصلح أن يكون ربا إلها. فإن الإله القديم لا يتغير، وإذا تغير احتاج إلى مغير، هذا لو اعتقدتموه ربا قديما، وإلها أزليا، ولو اعتقدتموه واسطة، وقبلة، وشفيعا، ووسيلة، فإن الأفول، الزوال، يخرج أيضا عن حد الكمال. وعن هذا ما استدل عليه بالطلوع، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص لما عراهم من التحير بالأفول، فأتاهم الخليل عليه السلام من حيث تحيرهم، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته، وذلك أبلغ في الاحتجاج. " ³

وينبغي أن يعلم هنا الفرق بين الاستدلال بحدوث الإنسان وخلقه ودلالة ذلك على خالقه، والاستدلال على حدث الإنسان بتغيره وأنّ تغيره يدلّ على خالقه وأنّ خالقه لا يكون متغيّرا، فالأول دليل صحيح جاء به القرآن والثاني جاء به أهل الكلام من الأشاعرة

قال شيخ الإسلام رحمه الله: " الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها، وبيّنها وأرشد إليها، وهي عقلية، فإن نفس كون الإنسان حادثاً، بعد أن لم يكن، ومولوداً ومخلوقاً من نطفة، ثم من علقه، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، سواء أخبر به الرسول، أو لم يخبر، لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودلّ به، وبيّنه، واحتج به، فهو دليل شرعي، لأن الشارع استدل به، وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته. " ⁴

¹ - الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد - الكشاف عن حقائق التأويل و غوامض التنزيل . دار الكتاب

العربي - بيروت - لبنان - ط : 3 / 1407 هـ ص : [40/2]

² - البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، د ت - ص : [159/7] .

³ - الشهرستاني أحمد أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر - الملل والنحل ، مؤسسة الحلبي د ت - ص : [111/8] .

⁴ - ابن تيمية - النبوات - ت : عبد العزيز بن صالح الطويان - أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية : ط : 1 / 1420هـ/2000م - ص : [292 / 1] .

أما قضية الأفل التي فرّج عنها الأشعرية وكثير من أهل الفقه المتكلمين ميراثاً عن أهل الفلسفة السوفسطائيين شبهة حلول الحوادث التي نفوا بها الصفات الفعلية الاختيارية المتجددة للخالق التابعة لمشيئته كالكلام والنزول والمجيئ لفصل الحساب فقد كشف وبين شيخ الإسلام رحمه الله زيغها وتهافتها وقد كانت من قبل حيّرت حدّاقهم كأبي حامد و الرازي والآمدي

معنى الأفل في اللغة:

قال الخليل بن أحمد: " أفلت الشمس، تأفل، أفولاً، وكل شيء غاب فقد أفل، وهو آفل، وإذا استقر اللقاح في قرار الرحم قيل قد أفل، والآفل في هذا المعنى هي التي حملت، ويقولون لبوءة آفل، وآفلة، إذا حملت . قال الشاعر :

فَدَعُ عَنكَ سَعْدَى إِنَّمَا تُسَعِفُ النَّوَى ... قِرَانَ الثُّرَيَّا مَرَّةً ثُمَّ تَأْفِلُ¹ .

ويقول الأزهري: "وكذلك القمر يأفل إذا غاب، قال الله - تعالى - : {فَلَمَّا أَفَلَ} [الأنعام: 76] ، أي غاب وغرب..وفي النوادر: أفل الرجل، إذا نشط، فهو أفل² .

وفي المصباح المنير: " أفل الشيء أفلاً وأفولاً من بابي ضرب، وقعد، غاب. ومنه قيل : أفل فلان عن البلد، إذا غاب عنها³ "

- معنى الأفل في الشرع:

لقد ورد لفظ أفل، وأفلت، والآفلين، في سورة الأنعام، في ثلاث آيات متتالية، وهي قوله - تعالى - : {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام : 76 - 78] .

¹ - الخليل بن أحمد الفراهيدي - العين - ص : 337/8 ،

وينظر: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي - معجم مقاييس اللغة ص : 119/1 .

وينظر: ابن منظور - لسان العرب - ص : 18/11 - 19 .

² - الأزهري - تهذيب اللغة للأزهري - ص : 378/15 .

³ - أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير - المكتبة العلمية - بيروت - لبنان

- د ت - ص : 17/1

قال ابن جرير الطبري: " وأما قوله: " فلما أفل"، فإن معناه: فلما غاب وذهب، كما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل قال: قال ابن إسحاق: "الأفول"، الذهاب. يقال منه: " أفل النجم يَأْفُلُ ويَأْفِلُ أفولا وأفلا"، إذا غاب، ومنه قول ذي الرمة:
 مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا ... نُجُومٌ، وَلَا بِالْأَفْلَاتِ الدَّوَالِكِ
 ويقال: "أين أفلت عنا" بمعنى: أين غبت عنا؟ قَالَ قَتَادَةُ: عَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ¹.
 وفي المفردات للراغب: " الأفول: غيبوبة النيرات، كالقمر، والنجوم"².

وقد أطبقت جميع التفاسير الموثوقة على أن معنى أفل: غاب، ويذكرون أن هذا هو معناه في لغة العرب³

¹ - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير - جامع البيان في تأويل القرآن ، مصدر سابق : 487/11 - وينظر: ديوانه: من قصيدة طويلة، وصف بها الإبل، وهذا البيت من صفة الإبل. "مصابيح" جمع "مصباح"، و"المصباح" التي تصبح في مبركها لا ترعى حتى يرتفع النهار، وهو مما يستحب من الإبل، وذلك لقوتها وسمنها. يقول: ليست بنجوم أفلات، ولكنها إبل. وينظر ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي - تفسير القرآن العظيم - ت: محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت ط: 1/ 1419 هـ - ص: 260/3 . وينظر أيضا: الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ت: صفوان عدنان داوودي - دار القلم - دمشق بيروت ط: 1/ 1415 هـ - ص: 1/ 362 . وينظر: ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي - زاد المسير في علم التفسير - ت: عبد الرزاق المهدي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط: 1/ 1422 هـ - ص: 48/2 . وكذا: البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي - معالم التنزيل في تفسير القرآن - ت: عبد الرزاق المهدي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ط: 1/ 1420 هـ - ص: 138/2 .

² - الأصبهاني أبو القاسم الحسين بن محمد - المفردات في غريب القرآن - ت: صفوان عدنان الداودي - دار القلم، الدار الشامية - دمشق - بيروت - لبنان - ط: 1 - 1412 هـ - ص 80 .

³ - ينظر كذلك: الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل - معاني القرآن وإعرابه - ت: عبد الجليل عبده شلبي - عالم الكتب - بيروت - ط: 1 - 1408 هـ - 1988 م - ص: 266/2 ، وينظر: الثعالبي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف - الجواهر الحسان في تفسير القرآن - ت: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط: 1 - 1418 هـ - ص: 487/2، وينظر: السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر - الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور - دار الفكر - بيروت - د ت - ص: [304/3 - 305]

إلا أن بعض المفسرين ممن تأثر بعلم الكلام، يزيد على هذا المعنى تعقيباً من عنده؛ هو أن الغياب يعني التغير والانتقال، وهذه إضافة منهم، ليس لها دليل من لغة العرب، ولا من تفسير الصحابة.

فالأقول في الشرع و اللغة : المغيب والاحتجاب، وهذا بإجماع أهل اللغة والتفسير¹.

- معنى الأقول في اصطلاح المتكلمين والفلاسفة:

ذهبت الجهمية، والمعتزلة، ومن اتبعهم من الأشاعرة، والماتريدية، إلى تفسير الأقول بالحركة والانتقال والتغير، وجعلوا ذلك دليلاً على الحدوث، ونفوا صفات الأفعال عن الله بناء على هذه الشبهة، واعتمدوا في بدعتهم هذه، على قول الخليل - عليه السلام - : { لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } [الأنعام - 76]²، يقول شيخ الإسلام - رحمه الله - : "ومن عجائب الأمور، أن كثيراً من الجهمية، نفاة الصفات والأفعال، ومن اتبعهم على نفي الأفعال، يستدلون على ذلك بقصة الخليل - صلى الله عليه وسلم - ، كما ذكر ذلك بشر المريسي، وكثير من المعتزلة، ومن أخذ ذلك عنهم، أو عمن أخذ ذلك عنهم؛ كأبي الوفاء بن عقيل، وأبي حامد، والرازي، وغيرهم، وذكروا في كتبهم أن هذه الطريقة هي طريقة إبراهيم الخليل - عليه صلوات الله وسلامه - ، وهو قوله : { لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } [الأنعام - 76] ، قالوا : فاستدل بالأقول، الذي هو الحركة والانتقال، على حدوث ما قام به ذلك كالكوكب، والقمر، والشمس " ³.

قال الرازي في استدلاله على نفي صفات الأفعال: " الثالث قول الخليل: { لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } [الأنعام - 76] يدل على أن المتغير لا يكون إلهاً ⁴ . ويقول النسفي في تفسيره لقوله - تعالى - : { فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } [الأنعام - 76] : " { فَلَمَّا أَفَلَ } غاب، { قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } أي لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، لأن ذلك من صفات الأجسام " ⁵.

¹ - ينظر: درة التعارض [109/1، 313] ، مجموع الفتاوى 5/547، 6/254 . ينظر كذلك : آمال بنت عبد العزيز العمرو - الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية - رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، الرياض - ص : [294/295]

² - ينظر: الدارمي عثمان بن سعيد - رد الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد - ت : محمد حامد الفقي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط : 1/1358 - ص 55 ، درة التعارض 1/310 .

³ - درة التعارض 1/310.

⁴ - نفسه 2/216، وقد نقله شيخ الإسلام عن الرازي في لباب العقول.

⁵ - النسفي حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود - مدارك التنزيل وحقائق التأويل - ت: يوسف علي بدوي مراجعة : محيي الدين ديب مستو - دار الكلم الطيب، بيروت - لبنان - ط : 1/1419 هـ - 1998 م ص : [1/516] .

وقال القرطبي: " فلما أفل النجم، قرّر الحجة، وما تغير لا يجوز أن يكون رباً، وكانوا يعظمون النجوم، ويعبدونها، ويحكمون بها"¹. وقال أبو السعود: " {فَلَمَّا أَفَلَ} أي غرب، {قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} أي الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان، المتغيرين من حال إلى حال، المحتجبين بالأسفار، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبية"².

ويلاحظ أن هؤلاء المفسرين، من متكلمة الصفاتية، يذكرون أن معنى الأفل هو المغيب، ثم يضيفون إليه معنى زائداً، وهو التغير والحركة والانتقال، وهو ما قرره أهل الكلام في كتبهم. أما ابن سينا فإنه يجعل الأفل بمعنى الإمكان، كما قال في إشارته: " قال قوم إن هذا الشيء المحسوس، موجود لذاته، واجب لنفسه، لكنك إذا تذكرت ما قيل لك في شرط واجب الوجود، لم تجد هذا المحسوس واجباً، وتلوت قوله - تعالى - : {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} [سورة الأنعام - 76] فإن الهوى في حظيرة الإمكان، أفل ما"³.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة: " وهذه العبارة يقولها ابن سينا وأمثاله من الباطنية فإنهم يأخذون عبارات المسلمين فيطلقونها على معانيهم كما قال مثل ذلك في لفظ الأفل فإن أهل الكلام المحدث لما احتجوا بحدوث الأفعال على حدوث الفاعل الذي قامت به الأفعال وزعموا أن إبراهيم الخليل احتج بهذا وأن المراد بالأفل الحركة والانتقال وأنه استدل بذلك على حدوث المتحرك والمنتقل نقل ابن سينا هذه المادة إلى أصله وذكر هذا في إشارته فجعل هذا الأفل عبارة عن الإمكان وقال إن ما هوى في حظيرة الإمكان هوى في حظيرة الأفل ولفظه فإن الهوى في حظيرة الإمكان أفل ما وذلك أنه أراد أن يقول بقول سلفه الفلاسفة مع قوله بما يشبه طريقة المتكلمين والمتكلمون استدلو على حدوث الجسم بطريقة التركيب فجعل هو التركيب دليلاً على الإمكان والمتكلمون جعلوا دليلهم هو دليل إبراهيم الخليل بقوله لا أحب الآفلين (سورة

¹ - القرطبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي - الجامع لأحكام القرآن - ت:

أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية - القاهرة . ط: 2/ 1384 هـ - 1964 م - ص: [26/7] .

² - أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - دار إحياء التراث العربي - بيروت - د ت - ص: [153/3].

وينظر: الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ت: علي عبد الباري عطية - دار الكتب العلمية - بيروت - ط: 1/ 1415 هـ - ص: [189/4] .

³ - ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله شرف الملك الفيلسوف المعروف (المتوفى: 428هـ) - الإشارات والتنبيهات - ت: سليمان دنيا - دار المعارف - مصر - ط: 3/ 1958 - ص: 3/ 102 - 103، وانظر: درء التعارض 314/1.

الأنعام). وفسروه بأن الأقول هو الحركة فقال ابن سينا قال قوم إن هذا الشيء المحسوس موجود لذاته واجب لنفسه لكنك إذا تذكرت ما قيل في شرط واجب الوجود لم تجد هذا المحسوس واجبا وتلوت قوله تعالى لا أحب الآفلين فإن الهوى في حظيرة الإمكان أقول ما ويريد بالشرط أنه ليس بمركب وأن المركب ممكن ليس بواجب والممكن أقل الإمكان أقول ما والآفل عندهم هو الذي يكون موجودا بغيره ويقولون نحن نستدل بإمكان الممكنات على الواجب ونقول العالم قديم لم يزل ولا يزال ونجعل معنى قوله تعالى لا أحب الآفلين أي لا أحب الممكنين وإن كان الممكن واجب الوجود بغيره قديما لم يزل ولا يزال ومعلوم أن كلا القولين من باب تحريف الكلم عن مواضعه وإنما الأقول هو المغيب والاحتجاب ليس هو الإمكان ولا الحركة ، وإبراهيم الخليل لم يحتج بذلك على حدوث الكواكب ولا على إثبات الصانع وإنما احتج بالأقول على بطلان عبادتها فإن قومه كانوا مشركين يعبدون الكواكب ويدعونها من دون الله لم يكونوا يقولون إنها هي التي خلقت السموات والأرض فإن هذا لا يقوله عاقل ولهذا قال يا قوم إني برئ مما تشركون [سورة الأنعام: 78] وقال : " أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين " [سورة الشعراء: 75 - 77] .¹

– نقد معنى الأقول عند المتكلمين والفلاسفة:

لقد ردّ أئمة أهل السنة على من حرّف معنى الأقول؛ من المعتزلة، والجهمية، وأتباعهم. حيث زعموا أن معنى الأقول هو الحركة، والانتقال، وأنه يعني التغير، وهو تحريف ظاهر لمعنى الأقول، مخالف لدليل السمع واللغة، ومن وجوه الردّ عليهم في ذلك ما يلي:

الوجه الأول: أنه من المعلوم باتفاق أهل اللغة والمفسرين، أن الأقول ليس هو الحركة، ولا هو التغير، فلا يسمى في اللغة كل متحرك، أو متغير، آفلاً، ولا أنه أقل، فلا يقال للمصلي، أو الماشي، إنه أقل. ولا يقال للتغير الذي هو استحالة؛ كالمرض، واصفرار الشمس، إنه أقول. ولا

¹ - ابن تيمية - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية - محمد رشاد سالم - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ط : 1 / 1406 هـ - 1986 م - ص : [201/1 - 202 - 203] . ويسمى هذا الكتاب أيضا : "منهاج الاعتدال في نقض قول الرافض والاعتزال " وهو ردّ على الشيعة الرافضي ابن المطهر في مصنّفه : " منهاج الكرامة في إثبات الإمامة "

يقال للشمس إذا اصفرت إنها أفلت. وإنما يقال أفلت إذا غابت واحتجبت. وهذا من المتواتر المعلوم بالاضطرار من لغة العرب، أن أفلاً بمعنى غائب، وقد أفلت الشمس، تأفل، أفولاً، أي غابت¹.

الوجه الثاني: أنه لو كان احتجاجه بالحركة، والانتقال، لم ينتظر إلى أن يغيب، بل كان نفس الحركة التي يشاهدها، من حين تطلع، إلى أن تغيب يعد أفولاً (على زعمهم). وأيضاً فحركتها بعد المغيب، والاحتجاب، غير مشهودة، ولا معلومة².

قال شيخ الإسلام: " قال الرازي: (الثالث قول الخليل: { لا أحب الآفلين } (الأنعام: 67) يدل على أن المتغير لا يكون إلهاً) .

ولقائل أن يقول: إن كان الخليل صلى الله عليه وسلم احتج بالأقول على نفي كونه رب العالمين، لزم أنه لم يكن ينفي عنه حلول الحوادث، لأن الأفول هو المغيب والاحتجاب باتفاق أهل التفسير واللغة، وهو مما يعلم من اللغة اضطراراً، وهو حين بزغ قال: (هذا ربي) فإذا كان من حين بزوغه إلى حال أفوله لم ينفي عنه الربوبية دل على أنه لم يجعل حركته منافية لذلك، وإنما جعل المنافي الأفول، وإن كان الخليل صلى الله عليه وسلم إنما احتج بالأقول على أنه لا يصلح أن يتخذ رباً يشرك به، ويدعى من دون الله، فليس فيه تعرض لأفعال الله تعالى، فقصه الخليل إما أن تكون حجة عليهم، أو لا لهم ولا عليهم³.

الوجه الثالث: أنه قد ظن طائفة من الجهمية، والمعتزلة، وغيرهم، أن مراد إبراهيم - عليه السلام - بقوله: { هَذَا رَبِّي } [الأنعام - 76] أن هذا خالق العالم، وأنه استدل بالأقول، وهو الحركة والانتقال، على عدم ربوبيته، وزعموا أن هذه الحجة هي الدالة على حدوث الأجسام، وحدث العالم، وهذا غلط من وجوه:

¹ - ينظر: مؤلفات شيخ الإسلام: درء التعارض 1/109، 2/216، 8/355 - 356 مصدر سابق - بغية المراتد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية - ت: موسى الدويش - مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية - ط: 1415/3هـ/1995م - ص: 359، مجموع الفتاوى 5/547 - 548، 6/254، 284 - 286، مصدر سابق .
وينظر ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الدمشقي - الصواعق المرسلّة في الرد على الجهمية والمعطلة - ت: علي بن محمد الدخيل الله - دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط: 1/1408هـ - ص: 190/1.

² - انظر: بيان تلبيس الجهمية 1/528 - 529، درء التعارض 4/77.

³ - ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل: 2/216

أحدها: أن هذا القول لم يقله أحد من العقلاء، لا من قوم إبراهيم ولا غيرهم، ولا توهم أحدهم أن كوكباً، أو القمر، أو الشمس، خلق هذا العالم، وإنما كان قوم إبراهيم مشركين، يعبدون هذه الكواكب، زاعمين أن في ذلك جلب منفعة، أو دفع مضرة، ولهذا قال الخليل: لِيَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ { [الأنعام - 78] ، وقال: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء - 75 - 77] ، وأمثال ذلك.

الثاني: أنه لو كان قوله: {هَذَا رَبِّي} [الأنعام - 76] ، هذا رب العالمين، لكانت قصة إبراهيم - عليه السلام - حجة عليهم؛ لأنه حينئذ لم تكن الحركة عنده مانعة من كونه رب العالمين، وإنما المانع هو الأقول، وقد أخبر الله في كتابه، أنه من حين بزغ الكواكب والقمر والشمس، وإلى حين أفولها، لم يقل الخليل لا أحب البازغين، ولا المتحركين، ولا المتحولين، ولا أحب من تقوم به الحركات، ولا الحوادث. والأقول باتفاق أهل اللغة والتفسير هو المغيب والاحتجاب، بل هذا معلوم بالاضطرار من لغة العرب التي نزل بها القرآن، وهو المراد باتفاق العلماء، فلم يقل إبراهيم لا أحب الآفلين، إلا حين أفل وغاب عن الأبصار، فلم يبق مرئياً ولا مشهوداً، فحينئذ قال لا أحب الآفلين، وهذا يقتضي أن كونه متحركاً منتقلاً تقوم به الحوادث، بل كونه جسماً متحيزاً تقوم به الحوادث، لم يكن دليلاً عند إبراهيم على نفي محبته¹.

أما من فسر الأقول بالإمكان من الفلاسفة، فإن قولهم أبعد بكثير عن الصحة، ممن فسر الأقول بالحركة، وأفسد منه، ووجوه الرد عليه كثيرة منها:

أولاً: أنه من المعلوم بالضرورة من لغة العرب، أنهم لا يسمون كل مخلوق، موجود، آفلاً، ولا كل موجود بغيره، آفلاً، ولا كل موجود يجب وجوده بغيره، لا بنفسه، آفلاً، ولا ما كان من هذه المعاني، التي يعنيها هؤلاء بلفظ الإمكان، بل هذا أعظم افتراء على القرآن، واللغة، من تسمية كل متحرك آفلاً².

¹ - ينظر: بيان تلبيس الجهمية 529/1.

² - ينظر: درء التعارض 315/1، 111، 76/4 - 77.

ثانياً: لو كان الخليل - عليه الصلاة والسلام - أراد بقوله: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} [الأنعام - 76] هذا المعنى، لم ينتظر مغيب الكوكب، والشمس، والقمر، ففساد قول هؤلاء المتفلسفة في الاستدلال بالآية، أظهر من فساد قول المتكلمين¹.

ثالثاً: أن هؤلاء من أعظم الناس تحريفاً للفظ الأقول، ولفظ الإمكان، فإنهم وسائر العقلاء يسلمون أن الممكن الذي يقبل الوجود والعدم، لا يكون إلا ما كان معدوماً. فأما القديم الأزلي الذي لم يزل، فيمتنع عندهم، وعند سائر العقلاء، أن يكون ممكناً، يقبل الوجود والعدم. ولكنهم يتناقضون تناقضاً بيناً، فقالوا الفلك ممكن، يقبل الوجود والعدم، وهو مع ذلك قديم أزلي².

رابعاً: لو كان معنى الأقول هو الإمكان، لما قال الله - عز وجل - : {فَلَمَّا أَفَلَتْ} [الأنعام - 78] ، لأنها آفة منذ وجودها، بمعنى ممكنة، لكن لما قال - تعالى - : {فَلَمَّا أَفَلَتْ} [الأنعام - 78] ، دل على أن هذا شيء يطراً عليها في وقت دون وقت، وهو المغيب والاحتجاب، فيمتنع كون الأقول بمعنى الإمكان.

ومما سبق من الردود - على إيجازها - يتبين مدى تحريف المتكلمين والفلاسفة لمصطلح الأقول، وبعدهم عن معاني اللغة والقرآن.

- معنى التغير في اللغة:

يقول ابن فارس: "قولنا هذا غير ذلك، أي هو سواه وخلافه. ومن الباب الاستثناء بغير، تقول: عشرة غير واحد، ليس هو من العشرة"³.

وقال الجوهري: "والغير أيضا الاسم من قولك غيرت الشيء فتغير.. وتغايرت الأشياء، اختلفت، والغير البدال"⁴.

وفي اللسان: "وتغير الشيء عن حاله تحول. وغيّره: حوله وبدله، كأنه جعله غير ما كان، وفي التنزيل العزيز: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}

¹ - ينظر: المصدر السابق 314/1 - 315، 76/4، بيان تلبيس الجهمية 531/1، مجموع الفتاوى 550/5، منهاج السنة : 197/2.

² - ينظر: درء التعارض 76/4.

³ - ينظر: العين 441/8. و ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي - مقاييس اللغة - ت : عبد السلام محمد هارون - دار الفكر : 1399 هـ - 1979 م - ص : [404/4] .

⁴ - الصحاح. مصدر سابق - ص : 776/2.

[الأفعال - 53] ، قال ثعلب: معناه حتى يبدلوا ما أمرهم الله. والغير: الاسم من التغير" ¹.
فالتغير في اللغة هو التحول من شيء إلى آخر.

— معنى التغير في الشرع:

ولم يرد دليل التغير في الكتاب أو السنة، وقد ورد في كتاب الله لفظ يغير ومغير ويتغير، قال - تعالى -: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد - 11] ، قال الطبري: "يقول - تعالى ذكره - إن الله لا يغير ما بقوم من عافية، ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضاً، واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره" ².

وقال - تعالى -: {وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ} [محمد - 15] ، ويبين الراغب معنى التغير فيقول: "والتغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشيء دون ذاته. يقال غيرت داري: إذا بنيتها بناء غير الذي كان. والثاني: لتبديله بغيره. نحو: غيرت غلامي ودابتي، إذا أبدلتها بغيرهما. نحو: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد - 11]" ³

— معنى دليل التغير في اصطلاح المتكلمين والفلاسفة:

يقول الرازي: "وأما الخليل - صلى الله عليه وسلم -، فقد حكى الله - تعالى - عنه في كتابه، أنه استدل بحصول التغير في أحوال الكواكب، على حدوثها" ⁴.
ويستدل كثير من المتكلمين بقصة إبراهيم، ويقولون إن إبراهيم استدل بالأقول على الحدوث. كما أن ابن سينا استدل بالأقول على الإمكان، ويقولون: الحادث والممكن ليس بواجب. يقول شيخ الإسلام مبيناً كلامهم: "ثم إنه لما قال هؤلاء إن الأقول هو الحدوث، والأقول هو التغير، فبنى ابن سينا وأتباعه من الدهرية على هذا، وقالوا: ما سوى الله ممكن، وكل ممكن فهو آفل، فالآفل لا يكون واجب الوجود.. فيستدلون بالتغير على الإمكان، كما استدل الأكثرون من هؤلاء بالتغير على الحدوث، وكل من هؤلاء يقول: هذه طريقة الخليل" ⁵

¹ - لسان العرب : 40/5.

² - تفسير الطبري : 121/13.

³ - المفردات : ص : 619 .

⁴ - أساس التقديس : ص : 527/1 .

⁵ - درء التعارض 102/1 - 103.

– مناقشة الدليل:

أولاً: أن استدلالهم بقصة إبراهيم الخليل – عليه السلام – باطل، فقد علم باتفاق أهل اللغة والمفسرين أن الأفول ليس هو الحركة، سواء كانت حركة مكانية وهي الانتقال، أو حركة في الكم كالنمو، أو في الكيف كالتسود والتبييض، ولا هو التغير، فلا يسمى في اللغة كل متحرك أو متغير آفلاً، ولا أنه آفل، لا يقال للمصلي أو الماشي إنه آفل، ولا يقال للتغير الذي هو استحالة؛ كالمرض، واصفرار الشمس، إنه أفول، وإنما يقال للشمس أفلت إذا غابت واحتجبت، وهذا من المتواتر المعلوم بالاضطرار من لغة العرب، أن آفلاً بمعنى غائب، وقد أفلت الشمس، تأفل، وتأفل، أفولاً، أي غابت¹.

ثانياً: أن قول القائل: "كل متحرك محدث، أو كل متحرك ممكن يقبل الوجود والعدم"، فهذه المقدمة ليست ضرورية فطرية باتفاق العقلاء، بل من يدعي صحة ذلك يقول إنها لا تعلم إلا بالنظر الخفي، ومن ينازع في ذلك يقول إنها باطلة عقلاً وسمعاً، ويمثل من مثل بها في أوائل العلوم الكلية لقصوره وعجزه، وأما قوله: "كل متغير محدث أو ممكن" فإن أراد بالتغير ما يعرف من ذلك في اللغة، مثل استحالة الصحيح إلى المرض، والعادل إلى الظلم، والصديق إلى العداوة، فإنه يحتاج في إثبات هذه الكلية إلى دليل، وإن أراد بالتغير معنى الحركة، أو قيام الحوادث مطلقاً، حتى تسمى الكواكب حين بزوغها متغيرة، ويسمى كل متكلم ومتحرك متغيراً، فهذا مما يتعذر عليه إقامة الدليل فيه على دعواه².

فدليل التغير الذي زعموه دليلاً، فاسد، لأنهم بنوه على أن معنى الأفول هو التغير، وهذا ليس بصحيح، كما بنوه على أن التغير هو التحرك، والتكلم، ونحو ذلك، وهذا ظاهر الفساد؛ بل ويتعذر عليهم إقامة الدليل عليه. ومن لوازمه الفاسدة نفي الصفات الفعلية المتعلقة بالقدرة والمشية.

ولذلك لا بد من الغور في طريقة إثباتهم للصفات السبع فهل نقضوا بها قاعدتهم في حلول الحوادث أم أنهم عند التحقيق لم يثبتوها تمام الإثبات لمقتضى قاعدتهم وفي هذا المبحث بيان ذلك .

¹ - انظر: درء التعارض 109/1.

² - انظر: المصدر السابق : 112/1 - 113.

الفصل الثاني : أقسام الأسماء والصفات وقواعدها واشتقاقاتها

المبحث الأول : أقسام الأسماء والصفات وقواعدها

المطلب الأول : أقسام الأسماء والصفات

لم يتوسع السلف في تقسيم الصفات وتنويعها، إذ ليس من عاداتهم الإسراف في الكلام في المطالب الإلهية، بل لا يكادون يتجاوزون الكتاب والسنة في مبحث الصفات، أسوتهم في ذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين جاءوا بإثبات مفصل (أي تفصيل في الصفات الثبوتية) ، ونفي مجمل (أي إجمال في الصفات السلبية) فطريقة الرسل التي هي طريقة القرآن: التفصيل في صفات المدح والثناء، والإجمال في صفات النفي التي فيها النقائص والعيوب والتمثيل. والأمثلة من القرآن كثيرة:

فمنها: قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى : 11] وقوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم : 65]

وقوله تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ... الآية} [الحديد : 4-3].

وقوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِلَى قَوْلِهِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر : 22 - 24] . ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفات ثلاثة أوجه: الوجه الأول: التصريح بالصفة.

كالعزة في قوله تعالى: {قَلِيلٌ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [البقرة : 10]

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت" ¹

والقوة في قوله تعالى: {أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [البقرة : 165]

والرحمة في قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} [الأنعام : 133]

والبيدين في قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة : 64]

والبطش في قوله تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} [البروج : 12]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى: {وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ} [البقرة : 255] وقوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ} 8، وفي حديث الاستخارة

¹ - أخرجه البخاري : 194/4، ومسلم : 2086/4.

"اللهم إني أستخبرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك" 9، وفي الحديث الآخر "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق" 10، فهذا في الإضافة الاسمية.

وأما بصيغة الفعل فكقوله: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ} 11، وقوله {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} 12.

أما الخبر الذي هو جملة اسمية فمثل قوله تعالى: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 13، وقوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 14

وذلك لأن الكلام الذي توصف به الذوات:

1- إما جملة أو مفرد

فالجملة إما اسمية: كقوله تعالى: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

أو فعلية: كقوله: {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ} .

أما المفرد فلا بد فيه من:

1. إضافة الصفة لفظاً أو معنى كقوله: {بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ} وقوله: {هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}

2. أو إضافة الموصوف كقوله: {ذُو الْقُوَّةِ} ¹

الوجه الثاني: تضمن الاسم للصفة.

فمن الأمور المتقررة في عقيدة أهل السنة والجماعة أن أسماء الله الحسنى متضمنة للصفات، فكل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر.

فالعزیز متضمن لصفة العزة وهو مشتق منها.

والخالق متضمن لصفة الخلق وهو مشتق منها.

والرحيم متضمن لصفة الرحمة وهو مشتق منها.

فأسماء الله مشتقة من صفاته.

وترجع أسماء الله الحسنى من حيث معانيها إلى أحد الأمور التالية:

1- إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

2- ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق، والبارئ، والمصور.

3- ما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحض:

كالقدوس، والسلام، والأحد.

¹ - مجموع الفتاوى 144/6، 145.

4- ما دل على جملة أوصاف عديدة ولم يختص بصفة معينة بل هو دال على معنى مفرد نحو: المجيد، العظيم، الصمد¹

الوجه الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها أي ما فيها معنى الصفة والفعل مثل قوله

تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} . [النساء: 164]

وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة يس : 82].

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة : 1]

وقوله تعالى: {فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ} [سورة البروج : 16]

وقوله تعالى: { وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } [النساء : 93]

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ} 7.

وقوله تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} 8.

وقوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ} 9.

وقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} 10.

وقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} 11.

وقوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} 12.

وبعد بيان طرائق ثبوت الأسماء والصفات في الكتاب والسنة عليه فأقسام الصفات الثابتة لله

تعالى هي كما يلي:

صفات ذاتية: وهي التي لا تنفك عن ذات الله تعالى، كالعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر.. الخ.

وصفات فعلية: وهي التي تتعلق بمشيئته وقدرته بمعنى إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش والنزول والمجيء: إلى آخره.

وبعض الصفات تجمع الأمرين، فتكون ذاتية باعتبار، وفعلية باعتبار آخر، مثل صفة الكلام فهي ذاتية باعتبار أن الله تعالى لم يزل ولا يزال يتكلم لا تنفك عن ذاته هذه الصفة، وهي فعلية باعتبار أن الله يتكلم حسب مشيئته.

ومن جهة أخرى تنقسم الصفات الثابتة لله تعالى إلى:

¹ - ابن القيم - بدائع الفوائد 1/159، 160 (بتصرف) .

صفات عقلية: ثبتت بالنص وبالعقل أيضاً، كالعلم، والكلام، والسمع، والبصر، والإرادة، والبقاء، والحياة، والقدرة، والوجود، والوحدانية.

صفات خبرية: وهى التي ثبتت بالخبر - السمع - دون النظر إلى ثبوتها بالعقل، كالاستواء، والنزول، والوجه، واليدين.

وهذه الصفات تشمل: الصفات الفعلية الاختيارية، المتعلقة بمشيئة الله تعالى، كالنزول، والاستواء، والرضى، والغضب، والإتيان، والمجيء، والفرح والسخط.

وهذه الصفات يقال لها: قديمة النوع، باعتبار أن الله تعالى لم يزل متصفاً بها، حادثه الآحاد، باعتبار تجدد وقوعها.

" وأما طريقة مخالفي الرسل من أهل الإلحاد والزندقة وغيرهم: فإنهم يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل، ولا يُثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند التحصيل؛ فيقولون: لا يوصف بالحياة، ولا العلم، ولا القدرة، ولا يقرب من شيء، ولا يقرب منه شيء، ولا يرى في الآخرة، ولا له كلام يقوم به، ولا داخل العالم ولا خارجه ... إلى أمثال هذه العبارات السلبية التي لا تنطبق إلا على المعدوم.

ثم قالوا في الإثبات: هو وجود مطلق، أو وجود مقيد بالأمر السلبية.¹ وأما الأشاعرة²، فقد أولعوا بتقسيم الصفات وتنويعها، ومن ذلك تنويعهم الصفات إلى سلبية ونفسية وصفات معان، ومعنوية وصفات فعلية، وصفات جامعة، والصفة الإضافية وهي تتداخل مع الفعلية: قال الغزالي في المقصد الأسنى: " لَعَلَّكَ تَقُولُ هَذِهِ أَسْمَاءُ كَثِيرَةٌ وَقَدْ مَنَعْتَ التَّرَادِفَ فِيهَا وَأُوجِبْتَ أَنْ يَتَضَمَّنَ كُلُّ وَاحِدٍ مَعْنَى آخَرَ فَكَيْفَ يَرْجِعُ جَمِيعُهَا إِلَى سَبْعِ صِفَاتٍ³ ، فَأَعْلَمُ أَنَّ الصِّفَاتَ إِنْ كَانَتْ سَبْعًا فَالْأَفْعَالُ كَثِيرَةٌ وَالْإِضَافَاتُ كَثِيرَةٌ وَالسُّلُوبُ كَثِيرَةٌ وَيَكَادُ يَخْرُجُ

¹ - ينظر: ابن تيمية - العقيدة التدمرية - ص: [8 - 15] . وكتايبه الصفدية : 116-117 . وشرح الأصفهانية : 379 - 380 . مصادر سابقة .

² - وسيأتي التفريق بين متقدميهم و متأخريهم وذكر اختلافهم وتهافت أدلة عقولهم التي يزعم جمهورهم أنها قطعية

³ - تثبت الأشاعرة سبع صفات لله لا غير- وأي إثبات - اتباعاً لأبي الحسن الأشعري في طوره الثاني يوم كان على مذهب ابن كلاب وقبل رجوعه إلى مذهب أهل السنة والجماعة أهل الإثبات والتنزيه . قال في رسالته إلى أهل الثغر - مصدر سابق - الصفحة : 120 " وأجمعوا أنه تعالى لم يزل موجوداً حياً قادراً عالماً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً على ما وصف به نفسه " . ولكنه في آخر كتبه الإبانة رجع عن مذهب أهل الكلام والفرقة إلى مذهب أهل السنة والجماعة وبقيت فيه بقايا لأنه طالت لباتته مع القوم وأفكارهم .

جَمِيعَ ذَلِكَ عَنِ الْحَصْرِ ثُمَّ يُمكن التَّرْكِيبُ مِنْ مَجْمُوعِ صِفَتَيْنِ أَوْ صِفَةٍ وَإِضَافَةٍ أَوْ صِفَةٍ وَسَلْبِ أَوْ سَلْبِ وَإِضَافَةٍ وَيُوضَعُ بِإِزَائِهِ اسْمٌ فَتَكْثُرُ الْأَسْمَاءُ بِذَلِكَ وَكَانَ مَجْمُوعَهَا يَرْجِعُ إِلَى مَا يَدُلُّ مِنْهَا عَلَى الذَّاتِ أَوْ عَلَى الذَّاتِ مَعَ سَلْبِ أَوْ عَلَى الذَّاتِ مَعَ إِضَافَةٍ أَوْ عَلَى الذَّاتِ مَعَ سَلْبِ وَإِضَافَةٍ أَوْ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الصِّفَاتِ السَّبْعِ أَوْ عَلَى صِفَةٍ وَسَلْبِ أَوْ عَلَى صِفَةٍ وَإِضَافَةٍ أَوْ عَلَى صِفَةٍ فَعَلٍ أَوْ عَلَى صِفَةٍ فَعَلٍ وَإِضَافَةٍ أَوْ سَلْبِ فَهَذِهِ عَشْرَةٌ أَقْسَامُ الْأَوَّلِ مَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ كَقَوْلِكَ اللهُ وَيَقْرَبُ مِنْهُ اسْمُ الْحَقِّ إِذَا أُريدَ بِهِ الذَّاتُ مِنْ حَيْثُ هِيَ وَاجِبَةُ الْوُجُودِ.

الثَّانِي مَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ مَعَ سَلْبِ مِثْلِ الْقُدُوسِ وَالسَّلَامِ وَالْغَنِيِّ وَالْأَحَدِ وَنظَائِرِهِ فَإِنَّ الْقُدُوسَ هُوَ الْمَسْلُوبُ عَنْهُ كُلُّ مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ وَيَدْخُلُ فِي الْوَهْمِ وَالسَّلَامَ هُوَ الْمَسْلُوبُ عَنْهُ الْعُيُوبُ وَالْغَنِيَّ هُوَ الْمَسْلُوبُ عَنْهُ الْحَاجَةُ وَالْأَحَدُ هُوَ الْمَسْلُوبُ عَنْهُ النَّظِيرُ وَالْقِسْمَةُ .

الثَّلَاثُ مَا يَرْجِعُ إِلَى الذَّاتِ مَعَ إِضَافَةٍ كَالْعَلِيِّ وَالْعَظِيمِ وَالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَنظَائِرِهِ فَإِنَّ الْعَلِيَّ هُوَ الذَّاتُ الَّتِي هِيَ فَوْقَ سَائِرِ الذَّوَاتِ فِي الْمُرْتَبَةِ¹ فَهِيَ إِضَافَةٌ وَالْعَظِيمُ يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ مِنْ حَيْثُ تَجَاوَزَ حُدُودَ الْإِدْرَاكَاتِ وَالْأَوَّلُ هُوَ السَّابِقُ عَلَى الْمَوْجُودَاتِ وَالْآخِرُ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ الْمَوْجُودَاتِ وَالظَّاهِرُ هُوَ الذَّاتُ بِالإِضَافَةِ إِلَى دَلَالَةِ الْعَقْلِ وَالْبَاطِنُ هُوَ الذَّاتُ مُضَافَةً إِلَى إِدْرَاكِ الْحَسِّ وَالْوَهْمِ وَقَسَّ عَلَى هَذَا غَيْرُهُ .

الرَّابِعُ مَا يَرْجِعُ إِلَى الذَّاتِ مَعَ سَلْبِ وَإِضَافَةٍ كَالْمَلِكِ وَالْعَزِيزِ فَإِنَّ الْمَلِكَ يَدُلُّ عَلَى ذَاتٍ لَا تَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وَالْعَزِيزُ هُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَهُوَ مَا يَصْعَبُ نَيْلُهُ وَالْوَصُولُ إِلَيْهِ

الخَامِسُ مَا يَرْجِعُ إِلَى صِفَةٍ² : كَالْعَلِيمِ وَالْقَادِرِ وَالْحَيِّ وَالسَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ السَّادِسُ مَا يَرْجِعُ إِلَى الْعِلْمِ مَعَ إِضَافَةٍ كَالْخَبِيرِ وَالشَّهِيدِ وَالْحَكِيمِ وَالْمَحْصِي فَإِنَّ الْخَبِيرَ يَدُلُّ عَلَى الْعِلْمِ مُضَافًا إِلَى الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ وَالشَّهِيدَ يَدُلُّ عَلَى الْعِلْمِ مُضَافًا إِلَى مَا يُشَاهَدُ وَالْحَكِيمَ يَدُلُّ عَلَى الْعِلْمِ مُضَافًا إِلَى أَشْرَفِ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمَحْصِي يَدُلُّ عَلَى الْعِلْمِ مِنْ حَيْثُ يُحِيطُ بِمَعْلُومَاتِ مَحْصُورَةٍ مَعْدُودَةٍ النَّقْصِيلِ

1 - علو المرتبة والشأن لاشك في ثبوته ، لكن الأشاعرة ينفون العلو والفوقية الحقيقيين

2 - سيأتي بيان ما يقصد بقوله " إلى صفة " ولم لم يقل " وصف " أو يرجع ما قبلها وما بعدها إلى صفة كذلك .

السَّابِعُ مَا يَرْجِعُ إِلَى الْقُدْرَةِ مَعَ زِيَادَةِ إِضَافَةِ كَالْقَهَارِ وَالْقَوِيِّ وَالْمَقْتَدِرِ وَالْمَتِينِ فَإِنَّ الْقُوَّةَ هِيَ تَمَامُ الْقُدْرَةِ وَالْمَتَانَةَ شِدَّتِهَا وَالْقَهْرَ تَأْثِيرَهَا فِي الْمَقْدُورِ بِالْغَلْبَةِ

الثَّامِنُ مَا يَرْجِعُ إِلَى الْإِزَادَةِ مَعَ إِضَافَةِ أَوْ مَعَ فِعْلِ كَالرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ وَالرَّؤُوفِ وَالْوَدُودِ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ تَرْجِعُ إِلَى الْإِزَادَةِ مُضَافَةً إِلَى قَضَاءِ حَاجَةِ الْمُحْتَاجِ الضَّعِيفِ وَالرَّأْفَةَ شِدَّةَ الرَّحْمَةِ وَهِيَ مُبَالِغَةٌ فِي الرَّحْمَةِ وَالْوَدُودِ يَرْجِعُ إِلَى الْإِزَادَةِ مُضَافًا إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ وَفِعْلُ الرَّحِيمِ يَسْتَنْدِعِي مُحْتَاجًا وَفِعْلُ الْوَدُودِ لَا يَسْتَنْدِعِي ذَلِكَ بَلِ الْإِنْعَامِ عَلَى سَبِيلِ الْإِبْتِدَاءِ يَرْجِعُ إِلَى الْإِزَادَةِ مُضَافًا إِلَى الْإِحْسَانِ وَقَضَاءِ حَاجَةِ الضَّعِيفِ وَقَدْ عَرَفْتَ وَجْهَ ذَلِكَ فِيمَا تَقْدَمُ¹

التَّاسِعُ مَا يَرْجِعُ إِلَى صِفَاتِ الْفِعْلِ كَالخَالِقِ وَالْبَارِئِ وَالْمَصُورِ وَالْوَهَّابِ وَالرِّزَاقِ وَالْفَتَّاحِ وَالْقَابِضِ وَالْبَاسِطِ وَالخَافِضِ وَالرَّافِعِ وَالْمَعزِ وَالْمَذَلِّ وَالْعَدْلُ وَالْمَغِيثُ وَالْمَجِيبُ وَالْوَاسِعُ وَالْبَاعِثُ وَالْمَبْدِئُ وَالْمَعِيدُ وَالْمَحْيِي وَالْمَمِيتُ وَالْمَقْدَمُ وَالْمُؤَخَّرُ وَالْوَالِي وَالْبَرُّ وَالنُّوَابِ وَالْمُنْتَقِمُ وَالْمَقْسُطُ وَالْجَامِعُ وَالْمَانِعُ وَالْمُعْنِي وَالْهَادِي وَنظائره .

الْعَاشِرُ مَا يَرْجِعُ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى الْفِعْلِ مَعَ زِيَادَةِ كَالْمَجِيدِ وَالْكَرِيمِ وَاللَّطِيفِ فَإِنَّ الْمَجِيدَ يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ الْإِكْرَامِ مَعَ شَرَفِ الذَّاتِ وَالْكَرِيمَ كَذَلِكَ وَاللَّطِيفَ يَدُلُّ عَلَى الرَّفْقِ فِي الْفِعْلِ فَلَا تَخْرُجُ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَغَيْرُهَا عَنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْعَشْرَةِ فَقَسِّمْنَا أوردناه ما لم نوردناه فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى وَجْهِ خُرُوجِ الْأَسْمَاءِ عَنِ التَّرَادُفِ مَعَ رُجُوعِهَا إِلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَحْصُورَةِ الْمَشْهُورَةِ²

المقصود بالصفات السبع التي أثبتتها جميع الأشاعرة، متقدموهم ومتأخروهم، وهي: العلم، والقدر، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والحياة، وهي الصفات التي يسمونها صفات المعاني أو الصفات المعنوية، والتي يعيدون ويرجعون إليها كل صفات المعاني ويجعلونها في مقابل الصفات النفسية - أو الذاتية - مثل كون الرب موجودا، وقائما بنفسه، وقديما عند بعضهم، ويضيفون إليها قسما ثالثا وهو الصفات الفعلية .

ولبيان المسألة نذكر أن نفي أو إثبات الصفات وكذا طرق تقسيمها مبناه عند طوائف الحق والباطل على فهمهم لمصطلحي " الوصف " و " الصفة " ، فكل واحد من لفظ " الوصف " و " الصفة " مصدر في الأصل ك " الوعد - والعِدَّة " و " الوزن - والزنَّة "

¹ - هذا تأويلهم - الأشاعرة - لا تأويل أهل الإثبات من غير تشبيه أهل السنة والجماعة أتباع السلف صدقا وعدلا

² - ينظر : أبو حامد الغزالي - المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى - مصدر سابق - ص : 157 - 158 - 159 .

فالصفة: مصدر وصفتُ الشيء أصفه صفة¹
والوصف والصفة:

1- تارة يراد به: الكلام الذي يوصف به الموصوف، مثاله: قول الصحابي في رُؤْلُ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ [الإخلاص : 1] أحبها لأنها صفة الرحمن²

2- وتارة يراد به: المعاني التي دل عليها الكلام كالعلم والقدرة، والجهمية والمعتزلة وغيرهم تنكر
هذا ويقولون: إنما الصفات مجرد العبارة التي يعبر بها عن الموصوف، فقالوا: إن إضافة
الصفات إلى الله إضافة وصف من غير قيام معنى به³

والكلابية ومن اتبعهم من الصفاتية كالأشعرية قد يفرقون بين الوصف والصفة، فيجعلون
الوصف: هو القول، والصفة: المعنى القائم بالموصوف⁴ فأدخلوا في الوصف (الذي هو القول
عندهم) صفات الأفعال حتى ينفوا قيامها بالذات.

وأدخلوا في الصفة (التي هي المعنى القائم بالذات) ما أثبتوه من الصفات كصفات المعاني
السبعة (العلم، الحياة، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام) ليتأتى لهم على هذا التقسيم
اعتبار بعض الصفات قائماً بالذات، وبعضها غير قائم بها، فأرادوا بذلك نفي صفات الأفعال
واعتبروها نسباً وإضافات لا تقوم بالذات.

قال ابن القيم في الرد على زعمهم هذا:

وهو المقدم والمؤخر ذانك الص... فتان للأفعال تابعتان
وهما صفات الذات أيضا إذ هما... بالذات لا بالغير قائمتان
ولذلك قد غلط المقسم حين ظ... ن صفاته نوعان مختلفان
إن لم يرد هذا ولكن قد أرا... د قيامها بالفعل ذي الإمكان
والفعل والمفعول شيء واحد... عند المقسم ما هما شيئان
فلذلك وصف الفعل ليس لديه إلا... نسبة عدمية ببيان
فجميع أسماء الفعال لديه لي... ست قط ثابتة ذوات معان

¹ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى 340/6.

² - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك
وتعالى، ح 7375 ولفظ البخاري " فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها".

³ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى 148-147/6.

⁴ - ابن تيمية - مجموع الفتاوى 335/3. 341/6.

موجودة لكن أمور كلها ... نسب ترى عدمية الوجدان
هذا هو التعطيل للأفعال ... كالتعطيل للأوصاف بالميزان
فالحق أن الوصف ليس بمورد التق ... سيم هذا مقتضى البرهان
بل مورد التقسيم ما قد قام ... بالذات التي للواحد الرحمن
فهما إذا نوعان أوصاف وأفع ... ال فهذي قسمة التبيان
فالوصف بالأفعال يستدعي قيا ... م الفعل بالموصوف بالبرهان
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما ... إن بين ذينك قط من فرقان
ومن العجائب أنهم ردوا على ... من أثبت الأسماء دون معان
قامت بمن هي وصفه هذا محا ... ل غير معقول لذي الأذهان
وأثوا إلى الأوصاف باسم العقل قا ... لوا لم تقم بالواحد الديان
فانظر إليهم أبطلوا الأصل الذي ... ردوا به أقوالهم بوزان
إن كان هذا ممكنا فكذلك قو ... ل خصومكم أيضا فذو إمكان¹

والحق أن مورد القسمة هو نفس ما يقوم بالذات، فيقال إن ما يقوم بالذات ويكون وصفاً لها، إما أن يكون:

1- صفة معنى لازماً للذات.

2. وإما أن يكون صفة فعل.

والوصف بالفعل يستدعي قيام الفعل بالموصوف، كالوصف بالمعنى سواء بسواء.
فإذا كان وصفه سبحانه بأنه عليم، قدير، حي، ... الخ، يقتضي قيام العلم والقدرة والحياة به.
فكذلك وصفه بأنه خالق أو رازق أو مقدم أو مؤخر يقتضي قيام هذه الأفعال من الخلق والرزق
والتقديم والتأخير ونحوها به .

"ومن قال الصفات تنقسم إلى صفات ذاتية وفعلية، ولم يجعل الأفعال تقوم به، فكلامه فيه
تلبيس، فإنه سبحانه لا يوصف بشيء لا يقوم به.

وإن سلم أنه يتصف بما لا يقوم به فهذا هو أصل الجهمية الذين يصفونه بمخلوقاته ويقولون:
إنه متكلم مرید وراض و غضبان ومحب ومبغض وراحم للمخلوقات يخلقها منفصلة عنه لا بأمر

¹ . ابن قيم الجوزية - نونية ابن القيم - الكافية الشافية - مكتبة ابن تيمية، القاهرة - ط : 3 / 1417 هـ - ص : 214

تقوم بذاته وتبعهم في زيغهم هذا الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية ، قال الإمام الذهبي - رحمه الله - : " القسم الثالث: - وهو محل الكلام هنا - ما فيه معنى الصفة والفعل. [أي الصفة الذاتية الأزلية أزلية ذاته تعالى والفعل المتجدد بحسب مشيئته]

كقوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء 164] ، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة 1] ، وقوله تعالى: {فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} [البقرة 90] .

فهذا القسم الثالث لا يثبت الكلابية ومن وافقهم على زعم أن الحوادث لا تحل بذاته. فهو على هذا يلحق عندهم بأحد القسمين قبله فيكون:

1. إما قديماً قائماً به.

2. وإما مخلوقاً منفصلاً عنه.

ويمتنع عندهم أن يقوم به نعت أو حال أو فعل ليس بقديم ويسمون هذه المسألة: (مسألة حلول الحوادث بذاته) وذلك مثل صفات الكلام، والرضا، والغضب، والفرح، والمجيء، والنزول والإتيان، وغيرها. وبالتالي هم يؤولون النصوص الواردة في ذلك على أحد الوجوه التالية:

1. إرجاعها إلى الصفات الذاتية واعتبارها منها، فيجعلون جميع تلك الصفات قديمة أزلية، ويقولون: نزوله، ومجيئه وإتيانه، وفرحه، وغضبه، ورضاه، ونحو ذلك: قديم أزلي وهذه الصفات جميعها صفات ذاتية لله، وإنما قديمة أزلية لا تتعلق بمشيئته واختياره

2. وإما أن يجعلوها من باب "النسب" و"الإضافة" المحضة بمعنى أن الله خلق العرش بصفة التحت فصار مستوياً عليه، وأنه يكشف الحجب التي بينه وبين خلقه فيصير جانياً إليهم ونحو ذلك. وأن التكليم إسماع المخاطب فقط .

فهذه الأمور من صفات الفعل منفصلة عن الله بئنة وهي مضافة إليه، لا أنها صفات قائمة به. ولهذا يقول كثير منهم: "إن هذه آيات الإضافات وأحاديث الإضافات، وينكرون على من يقول آيات الصفات وأحاديث الصفات"

3. أو يجعلوها "أفعالاً محضة" في المخلوقات من غير إضافة ولا نسبة مثل قولهم في الاستواء إنه فعل يفعله الرب في العرش بمعنى أنه يحدث في العرش قرباً فيصير مستوياً عليه من غير أن يقوم بالله فعل اختياري، وكقولهم في النزول إنه يخلق أعراساً في بعض المخلوقات يسميها نزولاً¹

¹ - الذهبي - العرش - مصدر سابق - [102/1 - 103 - 104] . وينظر : ابن تيمية - مجموع الفتاوى : [149/6 - 150]

إذا تبين ذلك فالسلف لما علموا هذا علموا أن قول من قال: إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا « طه : 14 » مخلوق يوجب أن يكون هذا الكلام كلاما للشجرة لا كلاما لله لأنه قام بالشجرة لم يقم بالله. كما أن كلام فرعون قام به، وإن كان الله خالق ذلك كله فإنه خالق العباد وأفعالهم وكلامهم وهذا أيضا مما يبين أنه لو كان من يخلق الكلام في غيره متكلمًا لوجب أن يكون كل كلام في الوجود كلامه وهذا يقوله غالبية الجهمية الاتحادية كصاحب الفصوص [يقصد : ابن عربي] ونحوه فإنه يقول:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه ¹

ومعلوم أن هذا الكلام أعظم من كفر عبّاد الأصنام، كما ذكر ابن المبارك وغيره من السلف وأيضًا فإن الله تعالى قد أنطق أشياء كما قال تعالى: [يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ بَيْنَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25)] [النور : 24 - 25] وقال: [حَتَّى إِذَا مَا جَاؤَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ] [فصلت : 20 . 21] .

وقال: فهو مُنطق كل شيء وخالق نطقه ولا نزاع أنه خالق النطق في غير الحي المختار، وإنما تنازعت القدرية في خلق أقوال الأحياء وأفعالهم، فإن كان حقيقة كلامه ما خلقه في غيره من الكلام فهذا جميعه كلامه وما في هذا الكلام المخلوق من ضمير المتكلم إما أن يعود إلى خالقه أو إلى محله، فإن عاد إلى خالقه كانت شهادة الأعضاء شهادة الله وكان قول فرعون: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى [النازعات : 24] قولاً لله وكان قولهم لجلودهم «لم شهدتهم علينا» قولاً لله وكان قول الجلود «أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء» بمعنى أنطقت نفسي.²

وقد أوضح شيخ الإسلام سبب هذا التقسيم عندهم، ثم انتقده، فقال: "والذين فرقوا بين الصفات النفسية والمعنوية قالوا: القيام بالنفس والقدم - ونحو ذلك من الصفات النفسية - بخلاف العلم والقدرة، فانهم نظروا إلى ما لا يمكن تقدير الذات في الذهن بدون تقديره، فجعلوه من النفسية، وما يمكن تقديرها بدونها فجعلوه معنوية، ولا ريب أنه لا يعقل موجود، قائم بنفسه، ليس قائماً بنفسه، بخلاف ما يقدر أنه عالم، فإنه يمكن تقدير ذاته بدون العلم.

¹ - البيت لابن عربي الصوفي المتكلسف .

² - ابن تيمية - شرح العقيدة الأصفهانية - محمد بن رياض الأحمد - المكتبة العصرية - بيروت ط 1 - 1425 هـ ص : 110 .

وهذا التقدير عاد إلى ما قدّروه في أنفسهم، وإلاّ ففي نفس الأمر جميع صفات الرب اللازمة له هي صفات نفسية ذاتية فهو عالم بنفسه وذاته وهو عالم بالعلم وهو قادر بنفسه وذاته، وهو قادر بالقدرة، فله علم لازم لنفسه، وقدرة لازمة لنفسه، وليس ذلك خارجاً عن مسمى اسم نفسه .
وعوداً إلى كلام أبي حامد - رحمه الله - وتفصيل ما فيه من حق وباطل نورد تفصيلاً للعلامة الشنقيطي - رحمه الله - صاحب أضواء البيان ، قال : ثم إن المتكلمين الذين خاضوا في الكلام وجاءوا بأدلة يسمونها أدلة عقلية ركبوها في أقيسة منطقية قسموا صفات الله جل وعلا إلى ستة أقسام قالوا هناك صفة نفسية وصفة معنى . وصفة معنوية وصفة فعلية وصفة سلبية وصفة جامعة . أما الصفات الإضافية فقد جعلوها أموراً اعتبارية لا وجود لها في الخارج وسببوا بذلك إشكالات عظيمة وضلالاً مبيهاً¹

وقد بيّن رحمه الله مصطلحي : " الصفة الفعلية " و " الصفة الإضافية " وما بينهما من عموم وخصوص وبيّن أيضاً - وهو خزيت خبير بأصول الفلسفة وعلم الكلام - خطورة إطلاق مصطلح " الصفة النفسية " ، قال : " والصفة الإضافية تتداخل مع الفعلية . لأن كل صفة فعلية من مادة متعدية إلى المفعول كالخلق والإحياء والإماتة ، فهي صفة إضافية ، وليست كل صفة إضافية فعلية فبينهما عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان في نحو الخلق والإحياء والإماتة ، وتتفرد الفعلية في نحو الاستواء ، وتتفرد الإضافية في نحو كونه تعالى كان موجوداً قبل كل شيء ، وأنه فوق كل شيء ، لأن القبلية والفوقية من الصفات الإضافية ، وليستا من صفات الأفعال ، ولا يخفى على عالم بالقوانين الكلامية والمنطقية أن إطلاق النفسية على شيء من صفاته جل وعلا أنه لا يجوز ، وأن فيه من الجراءة على الله جل وعلا ما الله عالم به ، وإن كان قصدهم بالنفسية في حق الله الوجود فقط وهو صحيح ، لأن الإطلاق الموهوم للمحذور في حقه تعالى لا يجوز ، وإن كان المقصود به صحيحاً . لأن الصفة النفسية في الاصطلاح لا تكون إلا جنساً أو فصلاً ، فالجنس كالحَيوان بالنسبة إلى الإنسان ، والفصل كالنطق بالنسبة إلى الإنسان ، ولا يخفى أن الجنس في الاصطلاح قدر مشترك بين أفراد مختلفة الحقائق كالحَيوان بالنسبة إلى الإنسان والفرس والحمار ، وأن الفصل صفة نفسية لبعض أفراد الجنس

¹ - الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (المتوفى: 1393هـ) - الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً -

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - الطبعة: السنة الخامسة، العدد الرابع، ربيع ثاني 1393هـ مايو 1973م - ص : 11 .

ينفصل بها عن غيره من الأفراد المشاركة له في الجنس كالنطق بالنسبة إلى الإنسان ، فإنه صفته النفسية التي تفصله عن الفرس مثلاً : المشارك له في الجوهرية والجسمية والنمائية والحساسية ، ووصف الله جل وعلا بشيء يراد به اصطلاحاً ما بينا لك . من أعظم الجراءة على الله تعالى كما ترى . لأنه جل وعلا واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، فليس بينه وبين غيره اشتراك في شيء من ذاته ، ولا من صفاته ، حتى يطلق عليه ما يطلق على الجنس والفصل سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً لأن الجنس قدر مشترك بين حقائق مختلفة .

والفصل : هو الذي يفصل بعض تلك الحقائق المشتركة في الجنس عن بعض سبحان رب السماوات والأرض وتعالى عن ذلك علواً كبيراً¹ .

أما قول الغزالي رحمه الله : " الخَامِسُ مَا يَرْجِعُ إِلَى صِفَةٍ : كَالْعَلِيمِ وَالْقَادِرِ وَالْحَيِّ وَالسَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ " فهو يريد بالصفة كغيره من الأشاعرة (المعنى القائم بالذات) المقابلة للوصف (الذي هو مجرد القول عندهم) ليدخلوا ما أثبتوه من الصفات كصفات المعاني السبعة (العلم، الحياة، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام) ليتأتى لهم على هذا التقسيم اعتبار بعض الصفات قائماً بالذات، وبعضها غير قائم بها، فأرادوا بذلك نفي صفات الأفعال كالاستواء والنزول والمجيء واعتبروها نسباً وإضافات لا تقوم بالذات.

ومن ناحية أخرى لا شك أن الأشاعرة أثبتوا هذه السبعة الصفات لدلالة العقل عليها لا لدلالة النقل عليها - وكفى به دليلاً - وذلك لأن النصوص الصحيحة دلّت والعقول الصريحة على غيرها ولكن قواطعهم العقلية قصمت ظهور النصوص ولم تبق إلا بعضاً منها دلّ على سبعة وقد وافق شيخ الإسلام متقدمي الأشعرية - كالأشعري والباقلاني وغيرهما - على إثبات هذه الصفات بالعقل² ، كما أنها ثابتة بالسمع، ومع ذلك فقد ردّ على الأشاعرة المتأخرين في عدة أمور، منها:

أحدها: جعلهم القول في الصفات من الأصول العقلية، خلافاً للأشعري وأئمة أصحابه الذين يحتجون عليها بالسمع كما يحتجون بالعقل³ .

1 - الشنقيطي محمد الأمين - أضواء البيان - مصدر سابق - ص : [20 - 19] .

2 - من الأمثلة على إثبات شيخ الإسلام الصفات السبع بالعقل ما ذكر في تفسير سورة العلق . ينظر : مجموع الفتاوى . (355-353/16) .

3 - ينظر : درء التعارض (328/5) .

الثاني: قول بعضهم " إن الصفات الثابتة بالعقل هي التي يجب الإقرار بها، ويكفر تاركها، بخلاف ما ثبت بالسمع، فإنهم تارة ينفونه وتارة يتأولونه ويفوضون معناه، وتارة يثبتونه لكن يجعلون الإيمان والكفر متعلقا بالصفات العقلية، فهذا لا أصل له عن سلف الأمة وأئمتها، إذ الإيمان والكفر هما من الأحكام التي تثبت بالرسالة. وبالأدلة الشرعية يميز بين المؤمن والكافر لا بمجرد الأدلة العقلية. " ¹

ويرى شيخ الإسلام أن قولهم إن أصول الدين هي التي تعرف بالعقل، ثم قولهم: إن المخالف لها كافر، مقدمتان باطلتان، والجمع بينهما تناقض لأن ما لا يعرف إلا بالعقل لا يعلم أن مخالفه كافر الكفر الشرعي، لأنه لم يرد في الشرع أن من خالف ما لا يعلم إلا بالعقل فهو كافر ².

الثالث: تفريق بعض المتأخرين كالرازي والأصفهاني - صاحب العقيدة التي شرحها شيخ الإسلام - بين هذه الصفات السبع في طرق ثبوتها، حيث أثبتوا بعضها بالعقل، وبعضها بالسمع فقط .

يقول شيخ الإسلام في شرح الأصفهانية: " لكن المصنف سلك في ذلك طريقة أبي عبد الله الرازي، ³ فأثبت العلم والقدرة والإرادة والحياة بالعقل، وأثبت السمع والبصر والكلام بالسمع، ولم يثبت شيئا من الصفات الخبرية. وأما من قبل هؤلاء كأبي المعالي الجويني وأمثاله، والقاضي أبي يعلى وأمثاله، فيثبتون جميع هذه الصفات بالعقل، كما كان يسلكه القاضي أبو بكر ومن قبله كأبي الحسن الأشعري وأبي العباس القلانسي ومن قبلهم كأبي محمد بن كلاب ⁴ والحارث

¹ - مجموع الفتاوى (328/3) .

² - ينظر: درء التعارض (242/1) .

³ . ينظر مؤلفه الشهير : المطالب العالية من العلم الإلهي وهو المسمى في لسان اليونانيين " باتلوجيا " وفي لسان المسلمين علم الكلام أو الفلسفة الإسلامية - ت : أحمد حجازي السقا - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - د ت - حيث أفرد مجلدا كاملا للاستدلال عقليا على إثبات هذه الصفات السبع وبعض ما تعلق بها - ينظر : ج 3 / من الباب الأول / الفصل السابع - ص: 45 حتى الفصل الثاني من الباب التاسع - 234

⁴ - هو رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه شيخ أبي الحسن الأشعري أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة وربما وافقهم، .

انظر ترجمته في السير (11 / 174) ولسان الميزان (3 / 290، 291) وطبقات الشافعية (2 / 299، 300).

المحاسبي¹ وغيرهما. وهكذا السلف والأئمة كالإمام أحمد بن حنبل وأمثاله، يثبتون هذه الصفات بالعقل كما ثبتت بالسمع وهذه الطريقة أعلى وأشرف من طريقة هؤلاء المتأخرين " ² ومنهج شيخ الإسلام أن كثيرا من الصفات- غير الصفات السبع- قد يعلم بالعقل، مثل الحب والرضا والغضب، والعلو والرؤية ³ .

ثم إن شيخ الإسلام مع موافقته للأشعرية في أن الصفات السبع يدل عليها العقل، كما قد دل عليها السمع، إلا أنه يرد عليهم منهجهم في إثبات هذه الصفات، حيث إنهم أثبتوها أولا لأن العقل دل عليها، ثم إنهم لما وجدوا أن السمع وافق العقل في هذا احتجوا به، وليس هذا هو منهج السلف الصالح- رحمهم الله الذي يقوم على الإقرار بما ورد في الكتاب والسنة وإن لم نعلمه بعقولنا، يقول شيخ الإسلام: " إن وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر الله به ورسوله من صفاته ليس موقوفا على أن يقوم دليل عقلي على تلك الصفة بعينها، فإنه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا أخبرنا بشيء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا.

ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله عنهم: " قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ " [الأنعام: 124] ، ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمنا بالرسول، ولا متلقيا عنه الأخبار بشأن الربوبية، ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك، أو لم يخبر به، فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه لا يصدق به، بل يتأوله أو يفوضه، وما لم يخبر به إن علمه بعقله آمن به وإلا فلا " ⁴ .

¹ - هو الزاهد العارف شيخ الصوفية أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي صاحب التصانيف الزهدية، قال الخطيب عنه: له كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة.

وقال الإمام الذهبي عنه: المحاسبي كبير القدر وقد دخل في شيء يسير من الكلام فنقم عليه، وورد أن الإمام أحمد أتى على حال الحارث من وجه. وحذر منه. مات سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

انظر ترجمته في السير (110 / 12) وتاريخ بغداد (211 / 8) وطبقات الشافعية (275 / 2) والبداية والنهاية (10 / 345).

² - ابن تيمية - شرح الأصفهانية - مصدر سابق - ص 39 .

³ - ينظر: ابن تيمية - التدمرية - ص: 149- 150 .

⁴ - عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود - موقف ابن تيمية من الأشاعرة - مصدر سابق - ص : 1052

وهذا المنهج أثر على الأشاعرة في بقية الصفات التي دل عليها السمع ولكن عقولهم أو أصولهم العقلية خالفتها، فكانت النتيجة كما أشار شيخ الإسلام - النفي والإنكار، بالتأويل أو التفويض.

ومن الأدلة المشهورة على إثبات هذه الصفات لله تعالى، أن هذه الصفات من صفات الكمال، والعقل دل على اتصاف الله بصفات الكمال، وعلى نفي أصداده من النقائص، ومن الأدلة أيضا: أن كل كمال ثبت للمخلوق - إذا لم يكن فيه نقص بوجه ما - فالخالق أحق به، لأنه هو الذي خلقه¹.

ومع وضوح هذا الاستدلال إلا أن بعض الأشاعرة - كالجويني والرازي والآمدي - قالوا في إثبات صفات الكمال لله ونفي النقائص: إن ذلك لا يعلم إلا بالسمع الذي هو الإجماع²، وجعلوا الطريق التي بها نفوا عنه ما نفوه إنما هو نفي مسمى الجسم، ونحو ذلك. يقول شيخ الإسلام عن هؤلاء إنهم: "خالفوا ما كان عليه شيوخ متكلمة الصفاتية كالأشعري، والقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق، ومن قبلهم من السلف والأئمة في إثبات السمع والبصر والكلام له بالأدلة العقلية وتنزيهه عن النقائص بالأدلة العقلية، ولهذا صار هؤلاء يعملون في إثبات هذه الصفات على مجرد السمع ويقولون: إذا كنا نثبت هذه الصفات بناء على نفي الآفات، ونفي الآفات إنما يكون بالإجماع الذي هو دليل سمعي، والإجماع إنما يثبت بأدلة سمعية من الكتاب والسنة، قالوا: والنصوص المثبتة للسمع والبصر والكلام أعظم من الآيات الدالة على كون الإجماع حجة، فالاعتماد في إثباتها ابتداء على الدليل السمعي الذي هو القرآن أولى وأحرى³.

فهذا الدليل الذي ذكره شيخ الإسلام - وضعفه هؤلاء وأحالوا على السمع - هو الدليل المشهور بقياس الأولى الذي جاء به القرآن.

ويبين شيخ الإسلام إن " كل كمال - لا نقص فيه بوجه - ثبت للمخلوق فالخالق أحق به من وجهين - وقد مرّ معنا في مبحث الأدلة العقلية - :

¹ - درء التعارض - ص : 4 / 76 ، 153/10 - 156 ، ومجموع الفتاوى - ص : 6 / 228.

² - انظر: الرازي - الأربعين في أصول الدين ص: 172-174.

³ - مجموع الفتاوى : (74-73/6) .

أحدهما: أن الخالق الموجود الواجب بذاته القديم أكمل من المخلوق القابل للعدم، المحدث المرئوب.

الثاني: أن كل كمال فيه فإنما استفاده من ربه وخالقه، فإذا كان هو مبدعا للكمال وخالقا له كان من المعلوم بالاضطرار أن معطي الكمال وخالقه ومبدعه أولى بأن يكون متصفا به".
والعجيب من هؤلاء الأشاعرة المتأخرين إذا جاء دليل العقل من منطق اليونان وفلاسفته أو أئمة الجهمية، صدقوا به وأخضعوا له النصوص، وإذا جاء دليل العقل من الكتاب والسنة- بقياس الأولى وضرب الأمثال - قالوا لا حجة فيه، ثم أحالوا على أدلة أخرى من السمع وغيره؟¹
ولا شك أن الباحث في كتاب الله يدرك أن جميع الصفات على تقسيمهم لها جاء في القرآن وصف الخالق والمخلوق بها، وهم في بعض ذلك يقرون بأن الخالق موصوف بها، وأنها جاء في القرآن أيضا وصف المخلوق بها، ولكن وصف الخالق مناف لوصف المخلوق، كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق، ويلزمهم ضرورة فيما أنكروا مثل ما أقروا به ؛ لأن الكل من باب واحد، لأن جميع صفات الله جل وعلا من باب واحد ؛ لأن المتصف بها لا يشبهه شيء من الحوادث.

فمن ذلك: الصفات السبع، المعروفة عندهم بصفات المعاني وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

فقد قال تعالى في وصف نفسه بالقدرة:

والله على كل شيء قدير [284 \ 2] و [29 \ 3] و [189 \ 3] و [19 \ 5] و [40 \ 5] و [41 \ 8].

وقال في وصف الحادث بها: إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم [34 \ 5] فأثبت لنفسه قدرة حقيقية لا ثقة بجلاله وكماله، وأثبت لبعض الحوادث قدرة مناسبة لحالهم من الضعف والافتقار والحدوث الفناء، وبين قدرته، وقدرة مخلوقه من المنافاة ما بين ذاته وذات مخلوقه.

وقال في وصف نفسه بالإرادة: فعال لما يريد [107 \ 11] و [16 \ 85] ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون [82 \ 36] ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [185 \ 2] ، ونحو ذلك من الآيات.

¹ - عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود - موقف ابن تيمية من الأشاعرة - مصدر سابق - ص : 1052

وقال في وصف المخلوق بها: تريدون عرض الدنيا الآية [8 \ 67] ، إن يريدون إلا فرارا [33 \ 13] ، يريدون ليطفئوا نور الله [8 \ 61] ، ونحو ذلك من الآيات.

فله جل وعلا إرادة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوق إرادة أيضا مناسبة لحاله، وبين إرادة الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وقال في وصف نفسه بالعلم: والله بكل شيء عليم [24 \ 35] ، لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه الآية [4 \ 166] ، فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين [7 \ 7] .

وقال في وصف الحادث به: قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم [51 \ 28] ، وقال: وإنه لذو علم لما علمناه [12 \ 68] ، ونحو ذلك من الآيات.

فله جل وعلا علم حقيقي لائق بكماله وجلاله، وللمخلوق علم مناسب لحاله، وبين علم الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وقال في وصف نفسه بالحياة: الله لا إله إلا هو الحي القيوم [2 \ 55] ، هو الحي لا إله إلا هو الآية [40 \ 65] ، وتوكل على الحي الذي لا يموت الآية [25 \ 58] ، ونحو ذلك من الآيات.

وقال في وصف المخلوق بها: وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا [19 \ 15] ، وجعلنا من الماء كل شيء حي [21 \ 30] ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت [30 \ 19] فله جل وعلا حياة حقيقية تليق بجلاله وكماله، وللمخلوق أيضا حياة مناسبة لحاله ؛ وبين حياة الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وقال في وصف نفسه بالسمع والبصر: ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير، إن الله سميع بصير [22 \ 75] و [31 \ 28] ، ونحو ذلك من الآيات.

وقال في وصف الحادث بهما: إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا [2 \ 76] ، أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا الآية [19 \ 38] ونحو ذلك من الآيات.

فله جل وعلا سمع وبصر حقيقيان يليقان بكماله وجلاله، وللمخلوق سمع وبصر مناسبان لحاله، وبين سمع الخالق وبصره، وسمع المخلوق وبصره من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وقال في وصف نفسه بالكلام وكلم الله موسى تكليما [4 \ 164] ، إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي [7 \ 144] ، فأجره حتى يسمع كلام الله [9 \ 6] ، ونحو ذلك من الآيات.

وقال في وصف المخلوق به: فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين [12 \ 54] ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم الآية [36 \ 65] ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا [19 \ 29] ، ونحو ذلك من الآيات.

فله جل وعلا كلام حقيقي يليق بكماله وجلاله ؛ وللمخلوق كلام أيضا مناسب لحاله. وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وهذه الصفات السبع المذكورة يثبتها كثير ممن يقول بنفي غيرها من صفات المعاني. والمعتزلة يفونها ويثبتون أحكامها فيقولون: هو تعالى حي قادر، مرید عليم، سميع بصير، متكلم بذاته لا بقدرة قائمة بذاته، ولا إرادة قائمة بذاته، هكذا فرارا منهم من تعدد القديم! ومذهبهم الباطل لا يخفى بطلانه وتتاقضه على أدنى عاقل ؛ لأن من المعلوم أن الوصف الذي منه الاشتقاق إذا عدم فلاشتقاق منه مستحيل فإذا عدم السواد عن جرم مثلا استحال أن تقول هو أسود، إذ لا يمكن أن يكون أسود ولم يقم به سواد، وكذلك إذا لم يقم العلم والقدرة بذات، استحال أن تقول: هي عالمة قادرة لاستحالة اتصافها بذلك، ولم يقم بها علم ولا قدرة، قال في «مراقي السعود»: [الرجز]

وعند فقد الوصف لا يشتق ... وأعوز المعتزلي الحق وأما الصفات المعنوية عندهم: فهي الأوصاف المشتقة من صفات المعاني السبع المذكورة، وهي كونه تعالى: قادرا، مریدا، عالما حيا، سميعا بصيرا، متكلمًا.

والتحقيق أنها عبارة عن كيفية الاتصاف بالمعاني، وعد المتكلمين لها صفات زائدة على صفات المعاني مبني على ما يسمونه الحال المعنوية، زاعمين أنها أمر ثبوتي ليس بموجود، ولا معدوم والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذا الذي يسمونه الحال المعنوية لا أصل له، وإنما هو مطلق تخييلات يتخيلونها، لأن العقل الصحيح حاكم حكما لا يتطرقة شك بأنه لا واسطة بين النقيضين البتة، فالعقلاء كافة مطبقون على أن النقيضين لا يجتمعان، ولا يرتفعان، ولا واسطة بينهما البتة، فكل ما هو غير موجود، فإنه معدوم قطعا، وكل ما هو غير معدوم، فإنه موجود قطعا، وهذا مما لا شك فيه كما ترى.

وقد بينا في اتصاف الخالق والمخلوق بالمعاني المذكورة منفاة صفة الخالق للمخلوق، وبه تعلم مثله في الاتصاف بالمعنوية المذكورة لو فرضنا أنها صفات زائدة على صفات المعاني، مع أن التحقيق أنها عبارة عن كيفية الاتصاف بها.

لكن البحث العلمي يوقفنا هنا عند قضية مهمة جدا وهي كونهم يقولون بنفي حلول الحوادث بذات الله تعالى، أي نفي ما يتعلق بالله من الصفات الفعلية والاختيارية التي تقوم بذاته، وهذا قالوه بناء على دليل حدوث الأجسام - الذي سنناقشه في مباحث لاحقة - وأن ما حلت به الحوادث فهو حادث. ثم إن الأشاعرة مع قولهم بهذا وتقريرهم له أثبتوا لله الصفات السبع، فوجدوا أن هذه الصفات - ما عدا صفة الحياة - يلزم من إثباتها حلول الحوادث بالله، لأنه مع وجود المخلوقات توجد معلومات ومرادات ومسموعات ومبصرات، ومقدرات، وكذا إذا كلم بعض رسله أو أوحى اليهم، وصلة هذه بالله تعالى يلزم منها ما يسمونه بحلول الحوادث بالله تعالى، لأن علم الله بالشيء بعد وجوده ليس هو نفس علمه قبل وجوده، لم يتجدد له فيه نعت ولا صفة، وإلا صار جهلا، وهكذا بقية الصفات.

وهذا ما حاول بيانه الدكتور " عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود " في رسالة دكتوراه : " موقف ابن تيمية من الأشاعرة " حيث كشف النقاب عن قضية هامة تبين أن إثباتهم لها لم يهدموا به أصلهم الباطل - أنه لا تحل به الحوادث - بل لووا أعناق المعقول والمنقول ليسلم لهم هذا الأصل .

وحق ما قال ، فالأشاعرة حلّوا هذه المعضلة - بزعمهم - بأن قالوا بأزلية هذه الصفات، وأنها لازمة لذات الله أزلا وأبدا، وقالوا إنه لا يتجدد لله عند وجود هذه الموجودات نعت ولا صفة، وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم فقط .

فكأن الأبد وجد أزلا وعلى قولهم هذا كيف تفسر آية " كل يوم هو في شأن "؟؟؟ فقد خالفوا المعقول والمنقول، لأن العلم بالشيء بعد وجوده ليس كالعلم به قبل وجوده، وقد ذكر الله تعالى علمه بما يكون في بضعة عشر موضعا، مع أنه تعالى قد أخبر أن علمه قد أحاط بكل شيء قبل كونه.

ونضرب أمثلة لمناقشات شيخ الإسلام لهؤلاء في هذه المسألة، في صفة العلم، والكلام والإرادة، والسمع والبصر.

أ - صفة "العلم" ¹.

¹ - الأدلة النقلية على إثبات صفة العلم كثيرة، أما أدلة العقل فقد قررها شيخ الإسلام بعدة طرق، انظر: درء التعارض (113/10-126)، وشرح الأصفهانية (ص: 24-26) - ت: مخلوف .

يقول شيخ الإسلام موضحا الخلاف في علم الله وتعلقه بالمستقبل: "الناس المنتسبون إلى الإسلام في علم الله باعتبار تعلقه بالمستقبل على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته، ولا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة، وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم، وهذا قول طائفة من الصفاتية من الكلابية والأشعرية، ومن وافقهم من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة، وهو قول طوائف من المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات، لكن هؤلاء يقولون: يعلم المستقبلات ويتجدد التعلق بين العالم والمعلوم، لا بين العلم والمعلوم.

وقد تنازع الأولون: هل له علم واحد أو علوم متعددة؟ على قولين:

والأول قول الأشعري وأكثر أصحابه، والقاضي أبي يعلى وأتباعه، ونحو هؤلاء. والثاني قول أبي سهل الصعلوكي.

والقول الثاني: أنه لا يعلم المحدثات إلا بعد حدوثها، وهذا أصل قول القدرية الذين يقولون: لم يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وأن الأمر أنف، لم يسبق القدر لا شقاوة ولا سعادة، وهم غلاة القدرية

والقول الثالث: أنه يعلمها قبل حدوثها، ويعلمها بعلم آخر حين وجودها"¹. وهذا قول السلف، وهو قول أبي البركات صاحب المعبر من الفلاسفة، وقول الرازي في المطالب العالية، وهو مخالف لما ينسب إلى الجهم الذي يقول بتجدد علم قبل الحدث، والذي في القرآن أن التجدد يكون بعد الوجود².

يقول شيخ الإسلام: "لا ريب أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون، ثم إذا كان: فهل يتجدد له علم آخر؟ أم علمه به معدوما هو علمه به موجودا؟

هذا فيه نزاع بين النظار" ثم قال عن القول الأول- وهو أنه يتجدد له علم آخر- "وإذا كان هو الذي يدل عليه صريح المعقول، فهو الذي يدل عليه صحيح المنقول، وعليه دل القرآن في أكثر من عشر مواضع، وهو الذي جاءت به الآثار عن السلف"³

¹ -رسالة في تحقيق علم الله جامع الرسائل (177/1-179) ت : رشاد سالم

² - ينظر: المصدر السابق (179/1- 181) .

³ -درء التعارض (17/10) .

فقول الأشاعرة إنه لا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة هذا بناء على نفيهم لحلول الحوادث، لأنه يلزم من ذلك التغير في ذات الله، وقد ذكر شيخ الاسلام أن "التغير" من حجج الفلاسفة على نفي علم الله وأنهم قالوا: " العلم بالمتغيرات يستلزم أن يكون علمه بأن الشيء سيكون غير علمه بأنه قد كان، فيلزم أن يكون محلا للحوادث" ¹. قال شيخ الإسلام: " وهم ليس لهم على نفي هذه اللوازم حجة أصلا- لا بينة ولا شبهة- وإنما نفوه لنفيهم الصفات، لا لأمر يختص بذلك" ثم قال: " بخلاف من نفي ذلك [أي التغير] من الكلابية ونحوهم، فإنهم لما اعتقدوا أن القديم لا تقوم به الحوادث قالوا: " لأنها لو قامت به لم يخل منها، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث" ²، ثم بين شيخ الاسلام أن الرازي والآمدي - من أتباعهم - والفلاسفة خالفوه في ذلك ، قال: " وقد بين أتباعهم كالرازي والآمدي وغيرهم فساد المقدمة الأولى التي يخالفهم فيها جمهور العقلاء ويقولون بل القابل للشيء قد يخلو عنه وعن ضده أما المقدمة الثانية فهي حجة المتكلمين الجهمية والقدرية ومن وافقهم من أهل الكلام على إثبات حدوث الأجسام باستلزامها للحوادث وقالوا ما لا يخلو عن الحوادث أو ما لا يسبقها فهو حادث لبطلان حوادث لا أول لها وهو التسلسل في الآثار.

والفلاسفة لا يقولون بشيء من ذلك بل عندهم القديم تحله الحوادث ويجوزون الحوادث لا أول لها ولهذا كان كثير من أساطينهم ومتأخريهم كأبي البركات يخالفونهم في إثبات الصفات وقيام الحوادث بالواجب وقالوا لا خوانهم الفلاسفة ليس معكم حجة على نفي ذلك بل هذه الحجة أثبتوها من جهة التنزيه والتعظيم بلا حجة والرب لا يكون مدبرا للعالم إلا بهذه القضية فكان من تنزيه الرب وإجلاله تنزيهه عن هذا التنزيه وإجلاله عن هذا الإجلال. ³

أما شبهة التغير في مسألة العلم- التي جاء بها الفلاسفة- المبنية على المقدمتين السابقتين: ما قامت به الحوادث لم يخل منها- وما لم يخل من الحوادث فهو حادث- فلننظر في جوابها طريقان:

¹ - ابن تيمية - الرد على المنطقيين (ص: 463)

² - نفسه

³ - ابن تيمية - الرد على المنطقيين (ص: 464)

أحدهما: منع المقدمة الأولى بالنسبة للعلم وأنه لا يلزم منه حلول الحوادث، وهذا قول الأشاعرة الذين قالوا: "إن العلم بأن الشيء سيكون هو عين العلم بأنه قد كان، وأن المتجدد إنما هو نسبته بين المعلوم والعلوم، لا أمر ثبوته" ¹.

والثاني: منع المقدمة الثانية، وهي أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، فهؤلاء قالوا: "لا محذور في هذا، وإنما المحذور في أن لا يعلم الشيء حتى يكون، فإن هذا يستلزم أنه لم يكن عالما، وأنه أحدث بلا علم، وهذا قول باطل" ²، وهذا قول هشام بن الحكم وابن كرام والرازي وطوائف غير هؤلاء.

ومما سبق يتبين حقيقة الخلاف، وعلاقته بمسألة حلول الحوادث التي جعل الأشاعرة منعها أحد أصولهم التي لا يتنازلون عنها، ومما سبق أيضا يتبين المذهب الحق في ذلك، وأن الله يعلم الشيء كائنا بعد وجوده مع علمه السابق به قبل وجوده، وأن علمه الثاني والأول ليس واحدا، وهذا هو الذي دل عليه القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ" [البقرة: 143] وقوله: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ" [آل عمران: 142] ، وقوله: "وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ" [آل عمران: 140] ، وقوله: "وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" - إلى قوله "وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ [العنكبوت: 3-11] وقوله: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ" [محمد: 31] ، وغيرها.

يقول شيخ الإسلام في هذه الآيات: "وعامة من يستشكل الآيات الواردة في هذا المعنى، كقوله: "إِلَّا لِنَعْلَمَ" و "حَتَّى نَعْلَمَ"، يتوهم أن هذا ينفي علمه السابق بما سيكون، وهذا جهل؛ فإن القرآن قد أخبر بأنه يعلم ما سيكون في غير موضع، بل أبلغ من ذلك أنه قدر مقادير الخلائق كلها، وكتب ذلك قبل أن يخلقها، فقد علم ما سيخلقه علما مفصلا، وكتب ذلك وأخبر بما أخبر به من ذلك قبل أن يكون، وقد أخبر بعلمه المتقدم على وجوده، ثم لما خلقه علمه كائنا مع علمه الذي تقدم أنه سيكون، فهذا هو الكمال، وبذلك جاء القرآن في غير موضع، بل وإثبات رؤية الرب له

¹ - نفسه

² - الرد على المنطقيين (ص: 464)

بعد وجوده، كما قال تعالى: "وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ" [التوبة: 105] فأخبر أنه سيرى أعمالهم ... " 1 .

ثم ذكر شيخ الإسلام أقوال المفسرين في قوله "إِلَّا لِنَعْلَمَ" [البقرة: 143] فقال: " وروى عن ابن عباس في قوله: "إِلَّا لِنَعْلَمَ" أي لنرى، وروي لنمیز وهكذا قال عامة المفسرين: إلا لنرى ونميز، وكذلك قال جماعة من أهل العلم، قالوا: لنعلمه موجودا واقعا بعد أن كان قد علم أنه سيكون² ونلفظ بعضهم قال: العلم على منزلتين: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم به بعد وجوده، والحكم للعلم به بعد وجوده لأنه يوجب الثواب والعقاب، قال فمعنى قوله "إِلَّا لِنَعْلَمَ" أي لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب، ولا ريب أنه كان عالما سبحانه بأنه سيكون، لكن لم يكن المعلوم قد وجد³، وهذا كقوله: "قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ" [يونس: 18] ، أي بما لم يوجد، فإنه لو وجد لعلمه، فعلمه بأنه موجود ووجوده متلازمان، يلزم من ثبوت أحدهما ثبوت الآخر، ومن انتفائه انتفاؤه" 4 .

فالعقل والقرآن يدلان على أن علمه تعالى بالشيء بعد فعله قدر زائد عن العلم الأول⁵. وتسمية ذلك تغيرا أو حلولا لا يمنع من القول به ما دام دالا على الكمال لله تعالى من غير نقص، وما دامت أدلة الكتاب والسنة تعضده.

ب - صفة الإرادة: 6

ساق شيخ الإسلام الخلاف في الإرادة للشيء وفعله، في مثل قوله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" [يونس: 82] ، وقوله: "فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا" [الكهف: 82] وقوله: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

1 - الرد على المنطقيين - ص: 464-465 .

2 - انظر: تفسير هذه الآية- البقرة: 143- في الطبري، والبيهقي، والخازن، والدر المنثور

3 - مصطفى محمد حلمي - منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط : 1 / 1426 هـ .

ص : 101 . وينظر : ابن تيمية - الفتوى الحموية الكبرى - ص : 388 - 391 . حيث نقل شيخ الإسلام اعتقاد الحارث المحاسبى في هذه المسألة

4 - الرد على المنطقيين (ص: 466-467) .

5 - انظر: مجموع الفتاوى (304/16)

6 - أدلتها من القرآن والسنة كثيرة، وانظر: دليلها من العقل في شرح الأصفهانية - ص: 26

الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" [الإسراء: 16] وقوله: "وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ" [يونس: 107] فقال: "وهو سبحانه إذا أراد شيئاً من ذلك فللناس فيها أقوال:

قيل: الإرادة قديمة أزلية واحدة، وإنما يتجدد تعلقها بالمراد، ونسبتها إلى الجميع واحدة، ولكن من خواص الإرادة أنها تخصص بلا مخصص، فهذا قول ابن كلاب والأشعري ومن تابعهما والقول الثاني: قول من يقول بإرادة واحدة قديمة، مثل هؤلاء، لكن يقول تحدث عند تجدد الأفعال إرادات في ذاته بتلك المشيئة القديمة، كما تقوله الكرامية وغيرهم والقول الثالث: قول الجهمية والمعتزلة الذين ينفون قيام الإرادة به، ثم إما أن يقولوا بنفي الإرادة، أو يفسرونها بنفس الأمر والفعل، أو يقولوا بحدوث إرادة لا في محل كقول البصريين والقول الرابع: أنه لم يزل مريدا بإرادات متعاقبة، فنوع الإرادة قديم، وأما إرادة الشيء المعين فإنما يريده في وقته، وهو سبحانه يقدر الأشياء ويكتبها، ثم بعد ذلك يخلقها، فهو إذا قدرها علم ما سيفعله، وأراد فعله في الوقت المستقبل، لكن لم يرد فعله في تلك الحال، فإذا جاء وقته أراد فعله، فالأول عزم، والثاني قصد" ¹.

وفي موضع آخر يذكر الخلاف في المشيئة والإرادة هل هي قديمة أو حادثة ويذكر أن للصفاتية في ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ليست إلا قديمة، وهو قول ابن كلاب والأشعري وأتباعهما.
الثاني: أنها حادثة.

الثالث: أنها قديمة وحادثة، وهو قول طوائف من الكرامية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم، وهؤلاء يقولون: إن الله متكلم في الأزل، وأنه يتكلم إذا شاء، كما صرح بذلك أحمد وغيره ². فالأشاعرة والكلابية جعلوا الإرادة واحدة قديمة، وإنما يتجدد تعلقها - بالمراد، ويشبه هذا مذهبهم في الخلق حين قالوا الفعل هو المفعول، حتى لا يقولوا بحلول الحوادث.

وقد رد شيخ الإسلام على الأشاعرة في قولهم السابق فقال: " وكثير من العقلاء يقول: إن هذا فساده معلوم بالاضطرار، حتى قال أبو البركات: ليس في العقلاء من قال بهذا، وما علم أنه قول طائفة كبيرة من أهل النظر والكلام.

¹ - مجموع الفتاوى (16/301-303) .

² - ينظر: رسالة في تحقيق مسألة علم الله جامع الرسائل لابن تيمية : (182/1) .

وبطلانه من جهات: من جهة جعل إرادة هذا غير إرادة ذلك، ومن جهة أنه جعل الإرادة تخصص لذاتها، ومن جهة أنه لم يجعل عند وجود الحوادث شيئاً حدث حتى تخصص أو لا تخصص، بل تجددت نسبة عدمية، ليست وجوداً، وهذا ليس بشيء. فلم يتجدد شيء، فصارت الحوادث تحدث وتتخصص بلا سبب حادث ولا مخصص " 1.

فالأشاعرة جعلوا الإرادة واحدة، كما جعلوا العلم واحداً، حتى لا يقولوا بتجدد العلم والإرادة 2. ولاشك أن مشكلة الأشاعرة هنا مرتبطة بمذهبهم الأصلي في مسألة الصفات الاختيارية التي تقوم بالله، وهم لما التزموا نفي ذلك في صفات الفعل كالاستواء والمجيء والغضب والرضا وغيرها، أثر ذلك في إثباتهم لهذه الصفات السبع.

بقي في مسألة الإرادة أن شيخ الإسلام في شرحه لمذهب أهل السنة في الإرادة لما ذكر الفرق بين الإرادة القدرية الشاملة السابقة، وإرادة فعل الشيء في وقته ذكر العزم والقصد، ثم ذكر أن هناك خلافاً في العزم، هل يوصف الله به على قولين:

أحدهما: المنع، كقول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى.

والثاني: الجواز.

ثم قال عن الثاني "وهو أصح، فقد قرأ جماعة من السلف: "فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" [آل عمران: 159] بالضم 3.

وفي الحديث الصحيح من حديث أم سلمة "ثم عزم الله لي" 4، كذلك في خطبة مسلم: " فعزم لي" 5، وسواء سمي عزمًا أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها، وأراد أن

1 - مجموع الفتاوى (302/16) .

2 - ينظر: درء التعارض (172/2) ، وشرح الأصفهانية (ص: 27)

3 - قراءة الجمهور بفتح التاء من "عزمت"، وقرأ جابر بن زيد، وأبو نهيك، وعكرمة وجعفر ابن محمد- بضم التاء-، انظر: الدر المنثور (360/2)

4 - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، ورقمه (918) مكرر

5 - الذي في مقدمة صحيح مسلم (4/1) - ط عبد الباقي- "أن لو عزم لي عليه" وكذا في طبقات مسلم الأخرى. وقد نفى هذه

الصفة النووي في شرحه لمسلم (46/1، 221/6-222)، وذكر أقوالاً في تأويلها، وشيخ الإسلام استشهد بقول مسلم هنا

ليبان أن أئمة السلف يقولون به، ومسلم قصد أن لو عزم الله لي، قال المازري في المعلم: "لا يظن بمسلم أنه أراد لو عزم الله

عليه، لأن إرادة الله سبحانه لا تسمى عزمًا... " (ص: 102) ، وهذا بناء على مذهب بعض الأشاعرة، وقد رد عليه ابن

الصلاح قائلاً: ليس ذلك كما قال، ثم استشهد بحديث أم سلمة، وذكر وجهين في معنى العزم، انظر: صيانة صحيح مسلم

(ص: 116-117) .

يفعلها في وقتها، فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعين، ونفس الفعل ولا بد من علمه بما يفعله" ¹ .

د - صفة الكلام²:

السلف وأئمة السنة والحديث يقولون: إنه يتكلم بمشيئته وقدرته؛ وكلامه ليس بمخلوق؛ بل كلامه صفة له قائمة بذاته.

وممن ذكر أن ذلك قول أئمة السنة: أبو عبد الله ابن منده وأبو عبد الله ابن حامد وأبو بكر عبد العزيز وأبو إسماعيل الأنصاري وأئمة السنة - كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاري وعثمان بن سعيد الدارمي ومن لا يخصى من أئمة التنزيه والإثبات .

وأما " الجهمية " و " المعتزلة " فيقولون: ليس له كلام قائم بذاته؛ بل كلامه مخلوق منفصل عنه. و " المعتزلة " يطلقون القول: بأنه يتكلم بمشيئته؛ ولكن مرادهم بذلك أنه يخلق كلاماً منفصلاً عنه

و " الكلابية والسالمية " يقولون: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته؛ بل كلامه قائم بذاته بدون قدرته ومشيئته مثل حياته؛ وهم يقولون: الكلام صفة ذات؛ لا صفة فعل يتعلق بمشيئته وقدرته؛ وأولئك يقولون: هو صفة فعل؛ لكن الفعل عندهم: هو المفعول المخلوق بمشيئته وقدرته.

وأما " السلف وأئمة السنة " وكثير من أهل الكلام كالهشامية والكرامية وأصحاب أبي معاذ التومني وزهير الأثري وطوائف غير هؤلاء فيقولون: إنه " صفة ذات وفعل " هو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته. وهذا هو المفعول من صفة الكلام لكل متكلم فكل حي وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم: فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم.

والكلام صفة كمال؛ لا صفة نقص ومن تكلم بمشيئته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته؛ فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ولكن " الجهمية والمعتزلة " بنوا على " أصلهم ": أن الرب لا يقوم به صفة؛ لأن ذلك بزعمهم يستلزم التجسيم والتشبيه الممتنع؛ إذ الصفة عرض والعرض لا يقوم إلا بجسم.

¹ - مجموع الفتاوى (304-303/16)

² - ينظر جامع الرسائل - ابن تيمية - ص : 2 / 4 - 13 .

و" الكلاسيكية والأشعرية " يَقُولُونَ: هُوَ متصف بِالصِّفَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهُ عَلَيْهَا قَدْرَةٌ وَلَا تَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ؛ فَأَمَّا مَا يَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ فَإِنَّهُ حَادِثٌ وَالرَّبُّ - تَعَالَى - لَا تَقُومُ بِهِ الْحَوَادِثُ. وَيَتْرَجِمُونَ " الصِّفَاتِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ " بِمَسْأَلَةِ " حُلُولِ الْحَوَادِثِ " فَإِنَّهُ إِذَا كَلَّمَ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ بِمَشِيئَتِهِ وَقَدْرَتَهُ وَنَادَاهُ حِينَ أَتَاهُ بِقَدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ كَانَ ذَلِكَ النِّدَاءَ وَالْكَلَامَ حَادِثًا.

قَالُوا: فَلَوْ اتَّصَفَ الرَّبُّ بِهِ لِقَامَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ قَالُوا: وَلَوْ قَامَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ لَمْ يَخُلْ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَخُلْ مِنَ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ؛ قَالُوا: وَلِأَنَّ كَوْنَهُ قَابِلًا لِتِلْكَ الصِّفَةِ إِنْ كَانَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ كَانَ قَابِلًا لَهَا فِي الْأَزَلِّ فَيُلْزَمُ جَوَازُ وجودِهَا فِي الْأَزَلِّ وَالْحَوَادِثُ لَا تَكُونُ فِي الْأَزَلِّ؛ فَإِنْ ذَلِكَ يَقْتَضِي وجودَ حَوَادِثٍ لَا أَوَّلَ لَهَا وَذَلِكَ مَحَالٌ قَالُوا: وَبِذَلِكَ اسْتَدَلَّلْنَا عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ وَبِهِ عَرَفْنَا حُدُوثَ الْعَالَمِ وَبِذَلِكَ أَثْبَتْنَا وجودَ الصَّانِعِ وَصَدَقَ رِسَالُهُ؛ فَلَوْ قَدَحْنَا فِي ذَلِكَ لَزِمَ الْقَدْحُ فِي أَصُولِ " الْإِيمَانِ " وَ " التَّوْحِيدِ " .

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ صَارَ قَابِلًا لَهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَابِلًا فَيَكُونُ قَابِلًا لِتِلْكَ الْقَابِلِيَّةِ فَيُلْزَمُ التَّسْلُسُ الْمُمْتَنِعُ¹ .

وَفَضْلَاهُمْ الْمُتَأَخَّرُونَ: كَالرَّازِي وَالْأَمَدِي وَالطُّوسِي وَالْحَلِي وَغَيْرِهِمْ - مَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ؛ بَلْ ذَكَرَ الرَّازِي وَأَتْبَاعَهُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُلْزَمُ جَمِيعَ الطَّوَائِفِ وَنَصَرَهُ فِي آخِرِ كِتَابِهِ: " كَالْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ " - وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ كِتَابِهِ الْكَلَامِيَّةِ وَخَالَفَ بِذَلِكَ قَوْلَهُ فِي أَجْلِ مَا صَنَفَهُ فِي الْكَلَامِ وَهُوَ كِتَابُهُ الَّذِي سَمَّاهُ " نِهَآيَةَ الْعُقُولِ فِي دِرَايَةِ الْأَصُولِ " - وَلَمَّا عَرَفَ فَسَادَ قَوْلِ النَّفَاةِ لَمْ يَعْتَمِدْ عَلَى ذَلِكَ فِي " مَسْأَلَةِ الْقُرْآنِ " . فَإِنْ عَمِدْتُمْ فِي " مَسْأَلَةِ الْقُرْآنِ " إِذَا قَالُوا: لَمْ يَتَكَلَّمْ بِمَشِيئَتِهِ وَقَدْرَتِهِ - قَالُوا - لِأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ حُلُولَ الْحَوَادِثِ؛ فَلَمَّا عَرَفَ فَسَادَ هَذَا الْأَصْلِ لَمْ يَعْتَمِدْ عَلَى ذَلِكَ فِي " مَسْأَلَةِ الْقُرْآنِ " . فَإِنْ عَمِدْتُمْ عَلَيْهِ؛ بَلْ اسْتَدَلَّ بِاجْتِمَاعِ مَرْكَبٍ وَهُوَ دَلِيلٌ ضَعِيفٌ إِلَى الْغَايَةِ لَكِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فِي نَصْرِ قَوْلِ الْكَلَابِيَّةِ غَيْرُهُ؛ وَهَذَا مِمَّا يَبِينُ أَنَّهُ وَأُمَّثَالُهُ تَبِينُ لَهُمْ فَسَادَ قَوْلِ الْكَلَابِيَّةِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ الْأَوَائِلِ .

¹ - والفلاسفة لا توافقهم ولا تمنع حوادث لا أول لها ، وسيأتي بيان القول الوسط بين الفلاسفة والأشاعرة لاحقا إن شاء الله .
ينظر في مسألة تسلسل حوادث لا أول لها عند الفلاسفة ونفيها عند الأشاعرة والقول الوسط في ذلك : موقف ابن تيمية من الأشاعرة - 3 / 996 - ودرء التعارض : 99/3 - 104 . وفيه ملخص الرد على حجة " التأثير " التي بها أثبتوا تسلسل حوادث إلى ما لا نهاية في الأزل فنفوا الصانع : 1 / 63 - 67 .

وَكَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ كَأَبِي الْمَعَالِي وَذَوِيهِ إِنَّمَا عَمَدَتُهُمْ أَنْ " الكرامية " قَالُوا ذَلِكَ وَتَنَاقَضُوا فَيَبِينُونَ تَنَاقُضَ الْكِرَامِيَّةِ وَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ إِذَا بَيَّنُّوا تَنَاقُضَ الْكِرَامِيَّةِ - وَهِيَ مَنَازِعُهُمْ - فَقَدْ فَلَجُوا؛ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّلْفَ وَأُئِمَّةَ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ - بَلْ مِنْ قَبْلِ الْكِرَامِيَّةِ مِنَ الطَّوَائِفِ - لَمْ يَكُنْ يَلْتَقِ إِلَى الْكِرَامِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ؛ بَلْ تَكَلَّمُوا بِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ الْكِرَامِيَّةُ: فَإِنَّ ابْنَ كِرَامٍ كَانَ مُتَأَخِّرًا بَعْدَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي زَمَنِ مُسْلِمِ بْنِ الْحَجَّاجِ وَطَبَقَتَهُ وَأُئِمَّةَ السُّنَّةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ تَكَلَّمُوا بِهَذِهِ قَبْلَ هَؤُلَاءِ وَمَا زَالَ السَّلْفُ يَقُولُونَ بِمُوجِبِ ذَلِكَ.

لَكِنْ لَمَّا ظَهَرَتْ " الْجَهْمِيَّةُ النِّفَاةُ " فِي أَوَائِلِ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ضَلَالَهُمْ وَخَطَأَهُمْ؛ ثُمَّ ظَهَرَتْ مَحَنَةُ الْجَهْمِيَّةِ فِي أَوَائِلِ الْمِائَةِ الثَّلَاثَةِ وَامْتَحَنَ " الْعُلَمَاءُ ": الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ فَجَرَدُوا الرَّدَّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَكَشَفَ ضَلَالَهُمْ حَتَّى جَرَدَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ الْآيَاتِ الَّتِي مِنَ الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِهِمْ وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا. بَلِ الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى " الصِّفَاتِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ " الَّتِي يَسْمُونَهَا " حُلُولِ الْحَوَادِثِ " كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَالْآيَاتِ الدَّالَّةُ عَلَى صِفَةِ الْكَلَامِ كَثِيرَةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا} فَهَذَا بَيِّنٌ فِي أَنَّهُ إِنَّمَا أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ بَعْدَ خَلْقِ آدَمَ؛ لَمْ يَأْمُرْهُمْ فِي الْأَزَلِّ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} فَإِنَّمَا قَالَ لَهُ: " كُنْ " بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ؛ لَا فِي الْأَزَلِّ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي " قِصَّةِ مُوسَى ": {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} [النمل : 8] وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص: 30] فَهَذَا بَيِّنٌ فِي أَنَّهُ إِنَّمَا نَادَاهُ حِينَ جَاءَ لَمْ يَكُنِ الْنِدَاءُ فِي الْأَزَلِّ كَمَا يَقُولُهُ " الْكَلَابِيَّةُ " يَقُولُونَ: إِنْ الْنِدَاءُ قَائِمٌ بِذَاتِ اللَّهِ فِي الْأَزَلِّ وَهُوَ لِأَزْمٍ لِذَاتِهِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مَنَادِيًا لَهُ لَكِنَّهُ لَمَّا أَتَى خَلَقَ فِيهِ إِدْرَاكَ مَا كَانَ مَوْجُودًا فِي الْأَزَلِّ.

ثُمَّ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ إِنْ الْكَلَامُ مَعْنَى وَاحِدٍ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: سَمِعَ ذَلِكَ الْمَعْنَى بِأَنَّهُ كَمَا يَقُولُهُ الْأَشْعَرِيُّ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ أَفْهَمَ مِنْهُ مَا أَفْهَمَ؛ كَمَا يَقُولُهُ: الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ وَغَيْرُهُ

فَقِيلَ لَهُمْ: عِنْدَكُمْ هُوَ مَعْنَى وَاحِدٍ لَا يَتَّبَعُ وَلَا يَتَّعَدُّ فَمَوْسَى فَهِيَ الْمَعْنَى كُلُّهُ أَوْ بَعْضُهُ؟ إِنْ قُلْتُمْ كُلُّهُ فَقَدْ عَلِمَ عِلْمَ اللَّهِ كُلُّهُ وَإِنْ قُلْتُمْ بَعْضُهُ فَقَدْ تَبَعْتُمْ وَعِنْدَكُمْ لَا يَتَّبَعُ.¹

وَمَنْ قَالَ مِنْ أَتْبَاعِ " الْكَلَابِيَّةِ " : بِأَنَّ النِّدَاءَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْكَلَامِ الْقَدِيمِ حُرُوفٌ أَوْ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ لِأَزِمَةِ لِدَاتِ الرَّبِّ كَمَا يَقُولُهُ " السَّالِمِيَّةُ " وَمَنْ وَافَقَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَخْلُقُ لَهُ إِدْرَاكَ لِتِلْكَ الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ؛ وَالْقُرْآنَ وَالسَّنَةَ وَكَلَامَ السَّلَفِ قَاطِبَةً يَقْتَضِي أَنَّهُ إِذَا نَادَاهُ وَنَاجَاهُ حِينَ أَتَى؛ لَمْ يَكُنِ النِّدَاءُ مَوْجُودًا قَبْلَ ذَلِكَ فَضِلًّا عَنِ أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا أَرْبَابًا.

وَقَالَ تَعَالَى: {قَلَمًا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقَلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأعراف : 22] ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمَّا أَكَلَا مِنْهَا نَادَاهُمَا، لَمْ يَنَادَاهُمَا قَبْلَ ذَلِكَ وَقَالَ تَعَالَى: {وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص : 65] . {وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيُّكُمْ شَرَكَايَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [القصص : 74] ، فَجَعَلَ النِّدَاءَ فِي يَوْمٍ مَعِينٍ وَذَلِكَ الْيَوْمَ حَدَثَ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ حِينئِذٍ يَنَادِيهِمْ؛ لَمْ يَنَادِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ إِنْ اللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة : 01] ، فَبَيَّنَّ أَنَّهُ يَحْكُمُ فَيَحِلُّ مَا يُرِيدُ وَيَحْرِمُ مَا يُرِيدُ وَيَأْمُرُ بِمَا يُرِيدُ؛ فَجَعَلَ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ وَالأَمْرَ وَالنَّهْيَ مُتَعَلِّقًا بِإِرَادَتِهِ. وَهَذِهِ أَنْوَاعُ الْكَلَامِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِإِرَادَتِهِ وَيَنْهَى بِإِرَادَتِهِ، وَيَحِلُّ بِإِرَادَتِهِ وَيَحْرِمُ بِإِرَادَتِهِ.

و" الْكَلَابِيَّةُ " يَقُولُونَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِإِرَادَتِهِ؛ بَلْ هُوَ قَدِيمٌ لِأَزِمَةِ لِدَاتِهِ غَيْرُ مُرَادٍ لَهُ وَلَا مَقْدُورٌ. وَ" الْمُعْتَزَلَةُ مَعَ الْجَهْمِيَّةِ " يَقُولُونَ: كُلُّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ لَيْسَ لَهُ كَلَامٌ قَائِمٌ بِهِ لَا بِإِرَادَتِهِ وَلَا بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ.²

ج - صِفَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ³ :

¹ - ابن تيمية - مجموعة الرسائل والمسائل - مصدر سابق - ص : 43/3 . ينظر في إثبات الكلام والنداء بالصوت والحرف : علوي بن عبد القادر السقاف - صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة - الدرر السنية - دار الهجرة - ط : 3 / 1426 هـ - 2006 م - ص : 296 ، 297 ، 298 - وينظر : عبد الله بن يوسف الجديع - العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية - دار الإمام مالك، دار الصمعي للنشر والتوزيع - ط : 2 / 1416 هـ - 1995 م - ص : 83 .. 177 ... 186 .

² - ينظر : ابن تيمية - مجموعة الرسائل والمسائل - مصدر سابق - ص : 44/3 .

³ - أدلتها النقلية كثيرة جدا، أما أدلتها العقلية، فانظر : شرح الأصفهانية (73-87) ، ومجموع الفتاوى (228/6) .

أشار شيخ الإسلام إلى الخلاف فيهما فقال: "وأما السمع والبصر والكلام فقد ذكر الحارث المحاسبي عن أهل السنة في تجدد ذلك عند وجود المسموع المرئي قولين¹ .

والقول بسمع وبصر قديم يتعلق بها عند وجودها قول ابن كلاب وأتباعه والأشعري، والقول يتجدد الإدراك مع قدم الصفة قول طوائف كثيرة كالكرامية وطوائف سواهم، والقول بثبوت الإدراك قبل حدوثها وبعد وجودها قول السالمية، كأبي الحسن بن سالم وأبي طالب المكي، والطوائف الثلاثة تنتسب إلى أئمة السنة كالإمام أحمد، وفي أصحابه من قال بالأول، ومنهم من قال بالثاني، والسالمية تنتسب إليه² .

وقد شرح شيخ الإسلام المذهب الحق في ذلك فقال: "وقد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ودلائل العقل على أنه سميع بصير، والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم، فإذا خلق الأشياء رآها سبحانه، وإذا دعاه عباده سمع دعاءهم وسمع نجواهم، كما قال تعالى: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا" [المجادلة: 1] أي تشتكي إليه وهو يسمع التهاور - والتهاور تراجع الكلام - بينها وبين الرسول، قالت عائشة: "سبحان الذي وسع سمعه الأصوات لقد كانت المجادلة تشتكي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - في جانب البيت وإنه ليخفي على بعض كلامها فأنزل الله: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا" [المجادلة: 1]³ . وقال تعالى لموسى وهارون: "لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى" [طه: 46] وقال: "أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ" [الزخرف: 80]⁴ .

فإنه تعالى إذا خلق العباد فعملوا وقالوا، فلا بد من القول أنه تعالى يرى أعمالهم ويسمع أقوالهم، ونفى ذلك تعطيل لهاتين الصفتين، وتكذيب لنصوص القرآن⁵ . خاصة وأن فهم هؤلاء

¹ - ينظر: المحاسبي - فهم القرآن (مع كتاب: العقل) - ت: حسين القوتلي - دار الفكر - ط: 1/1391 هـ - 1971 م - ص: 344-346

² - رسالة في تحقيق مسألة علم الله جامع الرسائل - (181/1-182) .

³ - محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني - سنن ابن ماجه - ت: محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت - رقم: 188 - ص: 1/166 - تعليق الشيخ الألباني: صحيح

⁴ - الرد على المنطقيين (ص: 465) .

⁵ - ينظر: مجموع الفتاوى (228/6)

الأشاعرة لصفة السمع والبصر ليس هو فهم السلف- الذي يقولون إنه يطلق بمعنى ما به يسمع ويبصر- بل يفسرونهما بمجرد الإدراك فقط.

وقد بين شيخ الإسلام في رده على الأشاعرة أن بعض أئمتهم كالرازي اعترفوا بأنه لا مانع من التزام القول بحلول الحوادث هنا، وهذا نموذج لمنهج شيخ الإسلام العام في رده على الأشاعرة حين يذكر ردود بعضهم على بعض - وقد سبق تفصيل ذلك في منهجه العام في رده عليهم-. فإن شيخ الإسلام وهو يرد على الجويني في مسألة حلول الحوادث¹، ألزمه ذلك في مسألة السمع والبصر فقال: "ما ذكره [أي الجويني] أن المعتزلة قصدتهم من طرد الدليل في هذه المسألة [أي مسألة حلول الحوادث] أنه إذا لم يتمتع تجدد أحكام للذات من غير أن يدل على الحدوث، لم يبعد مثل ذلك في اعتوار الأعراض على الذات"² - قال ابن تيمية- يلزمه مثل ذلك في تجدد حكم السمع والبصر، فإنه إنما يتعلق بالموجود دون المعدوم، وإما أن يكون الرب بعد أن خلق الموجودات كحاله قبل وجودها في السمع والبصر، أو لا يكون. فإن كان حاله قبل كحاله بعد، وهو قبل لم يكن يسمع شيئاً ولا يراه فكذلك بعد، لاستواء الحالين، فإن قيل: إن حاله بعد ذلك خلاف حاله قبل، فهذا قول بتجدد الأحوال والحوادث، ولا حيلة في ذلك، ولا يمكن أن يقال في ذلك ما قيل في العلم، لأن العلم يتعلق بالمعدوم، فأمكن المفرق أن يقول حاله قبل وجود المعلوم وبعده سواء"³.

وقول ابن تيمية هنا في "العلم" ليس رجوعاً عن قوله السابق: إن الله يعلم الشيء كائناً بعد وجوده، مع علمه السابق- كما سبق بيانه في صفة العلم- وإنما قصد هنا أن مسألة السمع والبصر أكثر وضوحاً من مسألة العلم، لأن العلم يتعلق بالمعدوم، أما السمع والبصر فيتعلقان بالمسموع والمبصر من الموجودات، فلو احتج محتج على جواز تعلقهما بالمعدوم حتى لا يقال عند وجود المبصر والمسموع إنه تعالى حلت به الحوادث- على صفة العلم لم تقبل حجته، لأن العلم يجوز أن يتعلق بالمعدوم قبل وجوده ففارق السمع والبصر في ذلك، فابن تيمية قطع الاحتجاج بالعلم أولاً، مع أن التحقيق في مسألة العلم أنه لو احتج بها لم يكن له بها حجة، لأن

¹- تم الإشارة إليها عند التكلم على مفهوم الأقول عندهم

²- الفتاوى الكبرى - ص : 6 / 557 . الجويني أبو المعالي - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد - ت : محمد يوسف موسى - علي عبد الحميد - مكتبة الخانجي - مصر و مكتبة : المثني بيغداد - 1369 - 1950 - ص : 45 .

³- الفتاوى الكبرى - ص : 6 / 557

القول بأن علمه تعالى بالشيء بعد وجوده هو نفس علمه به قيل وجوده قول غير صحيح، والدليل على ما قصده ابن تيمية أن الرازي في غالب كتبه سار على طريقة الأشاعرة في أن علم الله واحد لا يتغير مع وجود المعلوم¹، إلا أنه في صفة السمع والبصر لم يحتج بالعلم، بل اعترف بضعف جواب المعترضين وقال: إن قول الكرامية بحلول الحوادث ليس محالاً.

وذلك أن شيخ الإسلام قال بعد الكلام السابق: "وقد ذكر هذا الإلزام أبو عبد الله الرازي والتزم قول الكرامية، بعد أن أجاب بجواب ليس بذاك؛ فإن المخالف احتج عليه بأن السمع والبصر يتمتع أن يكون قديماً لأن الإدراك لا بد له من متعلق، وهو لا يتعلق بالمعدوم، فيمتنع ثبوت السمع والبصر للعالم قبل وجوده، إذ هم لا يثبتون أمراً في ذات الله به يسمع ويبصر، بل السمع والبصر نفس الإدراك عندهم، ويمتنع أن يكون حادثاً لأنه يلزم أن يكون محلاً للحوادث، ويلزم أن يتغير وكلاهما محال، وقال- أي الرازي- في الجواب²: "لم لا يجوز أن يكون الله سمياً بصيراً بسمع قديم وبصر قديم، ويكون السمع والبصر يقتضيان التعلق بالمرئي والمسموع بشرط حضورهما ووجودهما، قال: وهذا هو المعنى بقول أصحابنا في السمع والبصر: إنه صفة متهيئة لدرك ما عرض له، فإن قال قائل: فحينئذ يلزم تجدد التعلقات. قلنا: وأي بأس بذلك إذا لم يثبت أن التعلقات أمور وجودية في الأعيان، فهذا هو تقرير المذهب، ثم لئن سلمنا فساد هذا القسم فلم لا يجوز أن يكون محدثاً في ذاته على ما هو مذهب الكرامية.

وقوله: يلزم أن يكون محلاً للحوادث، قلنا: إن عنيتم حدوث هذه الصفات في ذاته تعالى بعد أن لم تكن حادثاً فيها³ فهذا هو المذهب، فلم قلت: إنه محال، وإن عنيتم شيئاً آخر فبينوه لنتكلم عليه، وهذا هو الجواب عن قوله: يلزم وجود التغير في ذات الله. قال شيخ الإسلام معلقاً على قول الرازي هذا: "قلت: وقد اعترف في هذا الموضع بضعف الجواب الأول، وذلك أن قول القائل: صفة متهيئة لدرك ما عرض عليه... عند وجود هذا الدرك هل يكون سامعاً مبصراً لما لم يكن قبل ذلك سامعاً له مبصراً، أم لا يكون، فإن لم يكن كذلك لزم نفي أن يسمع ويبصر،

¹ - وإن كان قد مال في بعض كتبه كالمطالب العالية، وشرح الإشارات- إلى جواز التغير، فإنه قال في شرح الإشارات لبين سينا - المطبعة الخيرية - ط : 1 / 1325 - ص : 76/1 : بأن التغير في العلم تغير في الإضافة وذلك غير ممتنع، وقال في المطالب العالية ص : 309 : "المذهب الصحيح هو قول أبي الحسين البصري وهو أن يتغير العلم عند تغير المعلوم".

² - في نهاية العقول : 160

³ - الذي في نهاية العقول 161 : " في ذاته بعد أن يكون حادثاً فيها".

وإن كان سمع ورأى ما لم يكن سمعه ورآه فمن المعلوم بالاضطرار أن هذا أمر وجودي، قائم بذات السامع والرائي، وأنه ليس أمراً عدمياً، ولا واسطة بين الوجود والعدم" ¹.

فالأشاعرة فسروا السمع والبصر بالإدراك، ثم جعلوه ثابتاً في العدم، ثم قالوا إنه لا يتعلق إلا بالموجود، وجعلوا تعلقه بالموجود عدماً محضاً، وهذه أقوال فاسدة ². ولاشك أن اعتراف الرازي مهم جداً لأنه بين إلى أي حد كانت قناعة الأشاعرة بمنهجهم في إثباتهم لهذه الصفات.

هذا هو مذهب الأشاعرة فيما أثبتوه من الصفات، ومنه يتبين أثر مذهبهم فيما نفوه منها على ما أثبتوه، إضافة إلى وجود التناقض أحياناً في أقوالهم، كاستدلالهم على صفة العلم بالإحكام والإتقان، مع أنهم ينكرون الحكمة والتعليل في أفعال الله ³.

وأما الصفات السلبية عندهم: فهي خمس، وهي عندهم: القدم، والبقاء، والوحدانية، والمخالفة للخلق، والغنى المطلق، المعروف عندهم بالقيام بالنفس.

وضابط الصفة السلبية عندهم: هي التي لا تدل بدلالة المطابقة على معنى وجودي أصلاً، وإنما تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله.

أما الصفة التي تدل على معنى وجودي: فهي المعروفة عندهم بصفة المعنى، فالقدم مثلاً عندهم لا معنى له بالمطابقة، إلا سلب العدم السابق، فإن قيل: القدرة مثلاً تدل على سلب العجز، والعلم يدل على سلب الجهل، والحياة تدل على سلب الموت، فلم لا يسمون هذه المعاني سلبية أيضاً؟

فالجواب: أن القدرة مثلاً تدل بالمطابقة على معنى وجودي قائم بالذات، وهو الصفة التي يتأتى بها إيجاد الممكنات وإعدامها على وفق الإرادة، وإنما سلبت العجز بواسطة مقدمة عقلية، وهي أن العقل يحكم بأن قيام المعنى الوجودي بالذات يلزمه نفي ضده عنها لاستحالة اجتماع الضدين عقلاً، وهكذا في باقي المعاني.

أما القدم عندهم مثلاً: فإنه لا يدل على شيء زائد على ما دل عليه الوجود، إلا سلب العدم السابق، وهكذا في باقي السلبيات، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن القدم، والبقاء اللذين يصف المتكلمون بهما الله تعالى زاعمين، أنه وصف بهما نفسه في قوله تعالى: هو الأول والآخر

¹ - الفتاوى الكبرى لابن تيمية - ص : 558 / 6 .

² - نفسه

³ ابن تيمية - النبوات - ص: 357-358 - و ينظر : موقف ابن تيمية من الأشاعرة - مصدر سابق : 3 / 1060 - 1066 .

الآية [57 \ 3]- جاء في القرآن الكريم وصف الحادث بهما أيضا، قال في وصف الحادث بالقدم: والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم [36 \ 39] ، وقال: قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم [12 \ 95] ، وقال: أفأرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون [26 \ 75] ، [76] ، وقال في وصف الحادث بالبقاء: وجعلنا ذريته هم الباقين [37 \ 77] ، وقال: ما عندكم ينفد وما عند الله باق [16 \ 96] ، وكذلك وصف الحادث بالأولية والآخرة المذكورتين في الآية، قال: ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين [67 \ 16، 17] ، ووصف نفسه بأنه واحد، قال: والهكم إله واحد [2 \ 163] ، وقال في وصف الحادث بذلك: يسقى بماء واحد ، وقال في وصف نفسه بالغنى: والله هو الغني الحميد [35 \ 15] ، وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد [14 \ 8] ، وقال في وصف الحادث بالغنى: ومن كان غنيا فليستعفف الآية [4 \ 6] ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله الآية [24 \ 32] ، فهو جل وعلا موصوف بتلك الصفات حقيقة على الوجه اللائق بكماله وجلاله، والحادث موصوف بها أيضا على الوجه المناسب لحدوثه وفنائه، وعجزه وافتقاره، وبين صفات الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين الخالق والمخلوق، كما بيناه في صفات المعاني.

وأما الصفة النفسية عندهم، فهي واحدة، وهي: الوجود، وقد علمت ما في إطلاقها على الله، ومنهم من جعل الوجود عين الذات فلم يعده صفة، كأبي الحسن الأشعري، وعلى كل حال، فلا يخفى أن الخالق موجود، والمخلوق موجود، ووجود الخالق ينافي وجود المخلوق، كما بينا.¹ ومنهم من زعم أن القدم والبقاء صفتان نفسيتان، زاعما أنهما طرفا الوجود الذي هو صفة نفسية في زعمهم.

وأما الصفات الفعلية، فإن وصف الخالق والمخلوق بها كثير في القرآن، ومعلوم أن فعل الخالق مناف لفعل المخلوق كمنافاة ذاته لذاته، فمن ذلك وصفه جل وعلا نفسه بأنه يرزق خلقه، قال: إن الله هو الرزاق الآية [51 \ 58] ، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين [34 \ 39] ، وقال: وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها الآية [11 \ 6] ، وقال في وصف الحادث بذلك: وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه الآية [4 \ 8] ، وقال: وعلى المولود له رزقهن الآية [2 \ 233] ، ووصف نفسه بالعمل، فقال: أولم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما الآية [36 \ 71] ، وقال في وصف الحادث به: إنما تجزون

¹ - الشنقيطي محمد الأمين - أضواء البيان - 2 / 24 .

ما كنتم تعملون [66 \ 7] ووصف نفسه بتعليم خلقه فقال: الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان [55 \ 1 - 4] .

وقال في وصف الحادث به: هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة الآية [62 \ 2] .

وجمع المثاليين في قوله تعالى: تعلمونهن مما علمكم الله [5 \ 4]، نفسه بأنه ينبيء، ووصف المخلوق بذلك، وجمع المثاليين في قوله تعالى: وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير [66 \ 3] ، ووصف نفسه بالإيتاء، فقال: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك [2 \ 258] ، وقال: يؤتي الحكمة من يشاء [2 \ 269] ، وقال: ويؤت كل ذي فضل فضله [11 \ 3] ، وقال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء [57 \ 21] .

وقال في وصف الحادث بذلك: وآتيتهم إحداهن قنطارا [4 \ 20] ، وآتوا اليتامى أموالهم [4 \ 2] ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة [4 \ 4] ، وأمثال هذا كثيرة جدا في القرآن العظيم.

ومعلوم أن ما وصف به الله من هذه الأفعال فهو ثابت له حقيقة على الوجه اللائق بكماله وجلاله ; وما وصف به المخلوق منها فهو ثابت له أيضا، على الوجه المناسب لحاله، وبين وصف الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وأما الصفات الجامعة، كالعظم والكبر والعلو، والملك والتكبر والجبروت، ونحو ذلك. فإنها أيضا يكثر جدا وصف الخالق والمخلوق بها في القرآن الكريم.

ومعلوم أن ما وصف به الخالق منها مناف لما وصف به المخلوق، كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق. قال في وصف نفسه جل وعلا بالعلو والعظم والكبر: ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم [2 \ 255] ، إن الله كان عليا كبيرا [4 \ 34] ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال [13 \ 9] .

وقال في وصف الحادث بالعظم: فكان كل فرق كالطود العظيم [26 \ 63] ، إنكم لتقولون قولا عظيما [17 \ 40] ، ولها عرش عظيم [27 \ 23] ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم [9 \ 129] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في وصف الحادث بالكبر: لهم مغفرة وأجر كبير [67 \ 12] ، وقال: إن قتلهم كان خطئا كبيرا [17 \ 31] ، وقال: إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير [8 \ 73] ، وقال:

وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله [2 \ 143] ، وقال: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين [2 \ 45] .

وقال في وصف الحادث بالعلو: ورفعناه مكانا عليا [19 \ 57] ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا [19 \ 50] ، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في وصف نفسه بالملك: يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس الآية [59 \ 23] ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس الآية [59 \ 23] ، وقال: في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقال في وصف الحادث به: وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان الآية [12 \ 43] ، وقال الملك انتوني به [12 \ 50] ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا [18 \ 79] ، أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه [2 \ 247] ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء [3 \ 26] ، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في وصف نفسه بالعزة: فإن زللتن من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أن الله عزيز حكيم [2 \ 209] ، يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم [62 \ 1] ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب [38 \ 9] .

وقال في وصف الحادث بالعزة: قالت امرأة العزيز الآية [12 \ 51] ، فقال أكفنيها وعزني في الخطاب [38 \ 23] .

وقال في وصف نفسه جل وعلا بأنه جبار متكبر هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر [59 \ 23] .

وقال في وصف الحادث بهما: كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار [40 \ 35] ، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين [39 \ 60] ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين [26 \ 130] ، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في وصف نفسه بالقوة: إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين [51 \ 58] ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز [22 \ 40] .

وقال في وصف الحادث بها: الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة الآية [41 \ 15] ، ويزدكم قوة إلى قوتكم الآية [11 \ 52] ، إن خير من استأجرت

القوي الأمين [28 \ 26] ، الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة الآية [30 \ 54] إلى غير ذلك من الآيات.

وأمثال هذا من الصفات الجامعة كثيرة في القرآن، ومعلوم أنه جل وعلا متصف بهذه الصفات المذكورة حقيقة على الوجه اللائق بكماله، وجلاله. وإن ما وصف به المخلوق منها مخالف لما وصف به الخالق، كمخالفة ذات الخالق جل وعلا لذوات الحوادث، ولا إشكال في شيء من ذلك، وكذلك الصفات التي اختلف فيها المتكلمون ؛ هل هي من صفات المعاني أو من صفات الأفعال، وإن كان الحق الذي لا يخفى على من أنار الله بصيرته أنها صفات معان أثبتها الله - جل وعلا - لنفسه، كالرأفة والرحمة. قال في وصفه - جل وعلا - بهما:

فإن ريكم لرعوف رحيم [16 \ 47] ، وقال في وصف نبينا صلى الله عليه وسلم بهما: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم [9 \ 128] ، وقال في وصف نفسه بالحلم: ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حلیم [22 \ 59] . وقال في وصف الحادث به: فبشرناه بغلام حلیم [37 \ 101] ، إن إبراهيم لأواه حلیم [9 \ 114] .

وقال في وصف نفسه بالمغفرة: إن الله غفور رحيم [2 \ 182] و [5 \ 34] و [5 \ 39] و [5 \ 98] و [8 \ 69] و [9 \ 5] و [9 \ 99] و [9 \ 102] و [24 \ 62] و [29 \ 14] و [60 \ 12] و [73 \ 20] . لهم مغفرة وأجر عظيم [49 \ 3] ، ونحو ذلك من الآيات. وقال في وصف الحادث بها: ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور [42 \ 43] ، قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله الآية [45 \ 14] ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى [2 \ 263] ، ونحو ذلك من الآيات.

ووصف نفسه جل وعلا بالرضى ووصف الحادث به أيضا فقال: رضي الله عنهم ورضوا عنه [5 \ 119] ، ووصف نفسه جل وعلا بالمحبة، ووصف الحادث بها، فقال: فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم [5 \ 54] ، قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله [3 \ 31] .

ووصف نفسه بأنه يغضب إن انتهكت حرماته فقال: قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه الآية [5 \ 60] ، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه الآية [4 \ 93] .

وقال في وصف الحادث بالغضب ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا وأمثال هذا كثير جدا.

والمقصود عندنا ذكر أمثلة كثيرة من ذلك، مع إيضاح أن كل ما اتصف به جل وعلا من تلك الصفات بالغ من غايات الكمال والعلو والشرف ما يقطع علائق جميع أوهام المشابهة بين صفاته جل وعلا، وبين صفات خلقه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

فإذا حققت كل ذلك علمت أنه جل وعلا وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات، فتمدح جل وعلا في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال، والجلال ; القاضية بعظمته وجلاله جل وعلا، وأنه الرب وحده، المستحق لأن يعبد وحده.

الموضع الأول: بحسب ترتيب المصحف الكريم. قوله هنا في سورة الأعراف: إن ريكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين [54] .

الموضع الثاني: قوله تعالى في سورة يونس: إن ريكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ريكم فاعبدوه أفلا تذكرون إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده الآية [3، 4] .

الموضع الثالث: قوله تعالى في سورة الرعد: الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ريكم توقنون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون [2، 3، 4] .

الموضع الرابع: قوله تعالى في سورة طه: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلا الرحمن على العرش استوى له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى [2 - 6] .

الموضع الخامس: قوله في سورة الفرقان: وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا [58، 59] .

الموضع السادس: قوله تعالى في سورة السجدة: الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض الآية [4، 5] .

الموضع السابع: قوله تعالى في سورة الحديد: هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم [4] .

وقال جل وعلا في وصف الحادث بالاستواء على بعض المخلوقات: لتستوتوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه الآية [43 \ 13] ، فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك الآية [23 \ 28] ، واستوت على الجودي الآية [11 \ 44] ، ونحو ذلك من الآيات.

وقد علمت مما تقدم أنه لا إشكال في ذلك، وأن للخالق جل وعلا استواء لائقا بكماله وجلاله، وللمخلوق أيضا استواء مناسبا لحاله، وبين استواء الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق ; على نحو كمثلته شيء وهو السميع البصير " ¹

أما الصفات السلبية فهي خمس صفات عند الأشاعرة آخذها من فلاسفة اليونان مثبتة الخالق وأهل الكلام من فلاسفة الإسلام كالشهرستاني و الرازي² وأبي حامد الغزالي وضابطها عندهم: ما دل على سلب ما لا يليق بالله عن الله من غير أن يدل على معنى وجودي قائم بالذات وهي

¹ ينظر الشنقيطي محمد الأمين - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - ص : [29.19/2] .

² - ينظر هذه القواعد عند الرازي في مؤلفاته التالية : أساس التدريس في علم الكلام - والمطالب العالية 1337. ولباب الأربعين . ونهاية العقول في دراية الأصول ، وهي مطبوعة .

1- القدم: صانع العالم قديم لا أول له لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُحَدَّثًا لَاقْتَضَى مُحَدَّثًا ثُمَّ كَذَلِكَ مُحَدَّثُهُ
اقتضى مُحَدَّثًا آخَرَ فَيَتَسَلَّلُ إِلَى مَا لَا نِهَآيَةَ لَهُ فَتَبَّتْ أَنَّ صَانِعَ الْعَالَمِ قَدِيمٌ

2- البقاء: صانع العالم أبدي لا آخر له لِأَنَّ مَنْ تَبَّتْ قَدَمُهُ اسْتَحَالَ عَدَمُهُ وَلِأَنَّ وُجُودَهُ وَاجِبٌ
وَوُجُوبُهُ وَوُجُودُهُ يَمْنَعُ عَدَمَ بَقَائِهِ .

3- الوجدانية. صانع العلم واحد لا شريك له لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ صَانِعَانِ أَوْ أَكْثَرَ لَوَقَعَ بَيْنَهُمَا
تَمَانَعٌ وَتَدَافَعٌ وَذَلِكَ خَفِضَ إِلَى الْفَسَادِ وَيُؤَدِّي إِلَى عِزِّ أَحَدِهِمَا وَالْعَاجِزَ لَا يَصْلِحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا
فَإِذَا تَعَذَّرَ إِثْبَاتُ صَانِعِينَ كَانَ وَاحِدًا ضَرُورَةً .

4- المخالفة للحوادث : صانع العالم ليس بجوهر لِأَنَّ الْجَوْهَرَ مُتَجَزِّئٌ وَتَحْلُهُ الْحَوَادِثُ تَعَالَى
اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عَلُوًّا كَبِيرًا وَ لَيْسَ بِجِسْمٍ لِأَنَّ الْجِسْمَ مُؤَلَّفٌ مِنَ الْجَوْهَرِ وَإِذَا بَطَلَ كَوْنُهُ جَوْهَرًا بَطَلَ
كَوْنُهُ جِسْمًا ضَرُورَةً وَ لَيْسَ بِعَرَضٍ لِأَنَّ الْعَرَضَ لَا قِيَامَ لَهُ بِذَاتِهِ بَلْ هُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى جِسْمٍ يَقُومُ بِهِ
وَالْقَدِيمَ عِزٌّ وَجَلٌّ قَائِمٌ بِذَاتِهِ غَيْرَ مُفْتَقِرٍ إِلَى مَحَلٍّ يَقُومُ بِهِ وَ لَيْسَ بِصُورَةٍ لِأَنَّ الصُّورَةَ تَنْشَأُ عَنِ
النَّزْكِيبِ فَإِذَا نَفَيْتُمَا كَوْنَهُ جَوْهَرًا وَجِسْمًا نَفَيْتُمَا كَوْنَهُ صُورَةً وَلَا يُوصَفُ بِاللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ
وَالْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ وَالرُّطُوبَةِ وَالْيَبُوسَةِ لِأَنَّ الْأَلْوَانَ وَالطَّعُومَ وَالْحَرَارَةَ وَالْبُرُودَةَ وَالرَّوَائِحَ وَالطَّبَائِعَ
الْأَرْبَعَةَ أَعْرَاضَ تَحُلُّ فِي الْجَوَاهِرِ فَإِذَا نَفَيْتُمَا كَوْنَهُ عَرَضًا وَكَوْنَهُ مَحَلًّا لِلْأَعْرَاضِ يَنْتَقِي جَمِيعُ
ذَلِكَ

5- الغنى المطلق، المعروف عندهم (القيام بالنفس) " صانع العالم ليس في جهة ولا تحويه
الجهات الست لِأَنَّهَا حَادِثَةٌ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهَا فَلَوْ صَارَ مُخْتَصًّا بِجِهَةٍ بَعْدَمَا خَلَقَهَا لَكَانَ
يَتَخَصَّصُ بِمَخْصَصٍ وَذَلِكَ بَاطِلٌ ، وَلَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا فِي جِهَةٍ خَارِجَةٍ عَنْهُ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ
كَذَلِكَ لَكَانَ مُحَادِيًا لِلْعَالَمِ وَكُلِّ مُحَادٍ بِجِسْمٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ أَكْبَرَ أَوْ اصْغَرَ وَكَانَ ذَلِكَ
تَقْدِيرًا يَحْتَاجُ إِلَى مُقَدَّرٍ تَعَالَى عَنِ ذَلِكَ وَرَفَعَ الْأَيْدِي إِلَى السَّمَاءِ عِنْدَ الدُّعَاءِ إِنَّمَا تَرَفَعُ لِأَنَّهَا قَبْلَةٌ
الدُّعَاءِ كَالْتَوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي الصَّلَاةِ وَوَضَعَ الْوَجْهَ عَلَى الْأَرْضِ عِنْدَ السُّجُودِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ
عِزٌّ وَجَلٌّ فِي الْكَعْبَةِ وَلَا تَحْتَ الْأَرْضِ ¹ .

¹ الغزنوي جمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد الحنفي (المتوفى: 593هـ). كتاب أصول الدين - ت: الدكتور عمر وافي
الداعوق - دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان - ط: 1 / 1419 - 1998 - ص: 72 .
وينظر أيضا : الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد - العرش - ت: محمد بن خليفة بن علي التميمي الناشر: عمادة
البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية - ط: 2 / 1424 هـ 2003م - ص: [108/1] .

ذكر ما ورد من أدلة كلامية لحدّاق الأشاعرة

ذكر أبو المعالي الجويني¹ رحمه الله في باب ذكر ما يستحيل في أوصاف الباري تعالى :
أن الرب تعالى متقدس عن الاختصاص بالجهات والاتصاف بالمحاذاة لا تحيط به الأقطار ولا
تكتنفه الأفتار ويجل عن قبول الحد والمقدار والدليل على ذلك :
أن كل مختص بجهة شاغل لها متحيز وكل متحيز قابل لملاقاة الجواهر ومفارقتها وكل ما
يقبل الاجتماع والافتراق لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الاجتماع والافتراق حادث كالجواهر .
فإذا ثبت تقديس الباري عن التحيز والاختصاص بالجهات فيترتب على ذلك تعاليه عن
الاختصاص بمكان وملاقاة أجرام وأجسام ، فإن سئلنا عن قوله تعالى : {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
اسْتَوَى} قلنا المراد بالاستواء القهر والعلبة والعلو .
ومنه قول العرب استوى فلان على المملكة أي استعلى عليها واطردت له ومنه قول الشاعر:
قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق²

رد تأويله من وجوه

زادت المعتزلة وتبعهم الأشاعرة " لاما " على لفظة " استوى " كما زادت اليهود " نونا " في لفظ
" حطة " فقالوا " حنطة " فأبوا استواء الله على عرشه كما أبت اليهود حطّ الذنوب عنها
فتزوجت اللام النون فولد لهما نفي أعظم نعمة ، نفي رؤية الله مطلقا .
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتقطم

¹ - هو أبو المعالي الجويني عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الفقيه الشافعي، ضياء الدين؛ أحد الأئمة الأعلام من
بلدة جوين بنيسابور. ظهر في وقت اشتد فيه التعصب بين الأشعرية وخصوصهم. وكان الجويني متبحرا في العلوم والمعارف،
فأفاد الأشعرية. ودافع عنهم دفاعا مجيدا فشاع ذكره في الآفاق. ثم خرج إلى مكة فجاور بها أربع سنين ينشر العلم. ولهذا قيل
له إمام الحرمين. وعاد إلى نيسابور ثم رحل منها إلى بغداد فتولى التدريس بالمدرسة النظامية والخطابة والتذكير والإمامة
وهجرت له المجالس، وانغمز ذكر غيره من العلماء وشاعت مصنفاته. توفي سنة 478هـ - ينظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان
وأبناء أبناء الزمان ت: إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ط : 1900 - ص : 168/3 . و ابن عساكر : تبين كذب
المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري - مصدر سابق : ص : 281/280/279/278

² - هذا البيت منسوب إلى الأخطل النصراني، انظر: البداية والنهاية (7/9) في ترجمة بشر ابن مروان أخو عبد الملك بن
مروان، وتاج العروس مادة سوا من حرف الباء. ينظر : الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد أبو المعالي،
ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: 478هـ) - لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة - ت : فوقية حسين
محمود - عالم الكتب - لبنان - ط : 2 / 1407هـ - 1987م - ص : 190 .

قال الإمام القرطبي في «تفسيره» بعد أن ذكر مذهب المتكلمين: وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة، لا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة، بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وخصّ العرش بذلك لأنه أعظم المخلوقات، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم - أي في اللغة - والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة. وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها اه.¹

لقد دل الاستقراء على أنّ أغلب المتأولين الأشاعرة لصفة الاستواء متبعين للجهمية و للمعتزلة في تعويلهم على هذا البيت وهو ليس بدليل البتة بل هو عكاز عميان يستعمله كل أعمى ليُعرفَ فَيُبَيِّنُ له الصراط ، فهذا البيت - فيما نعلم - لم يعزه عالم إلى أحد قطّ .
الرد عليهم:

لقد أجمع السلف على أن هذا التأويل الذي ذهب إليه هؤلاء الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، ومتأخرو الأشاعرة، هو تأويل باطل تردّه نصوص القرآن والسنة وإجماع الأمة، وهو قول لا أصل له في لغة العرب، بل هو تفسير لكلام الله بالرأي المجرد، لم يذهب إليه صاحب ولا تابع، ولا قاله إمام من أئمة المسلمين، ولا أحد من أهل التفسير الذين يحكون قول السلف. وليبيان فساد هذا القول على وجه التفصيل نقول:

أولاً: أنه من المعلوم أن لفظ الاستواء قد ورد في القرآن الكريم في سبعة مواضع، وهذه المواضع جميعها قد اطردها فيها لفظ الاستواء دون الاستيلاء، وكذلك الأمر بالنسبة لما ورد في السنة، فلو كان معناه استولى - كما يزعم هؤلاء - لكان استعماله في أكثر موارد كذا، فإذا جاء في موضع أو موضعين بلفظ استوى حمل على معنى استولى لأنه المؤلف المعهود. أما أن يُؤتى إلى لفظ قد اطرده استعماله في جميع موارد على معنى واحد فيدعى صرفه في الجميع إلى معنى لم يعهد استعماله فيه، فهذا أمر في غاية الفساد ولم يقصده ويفعله من قصد

¹ - القرطبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (المتوفى: 671هـ). الجامع

لأحكام القرآن = تفسير القرطبي . ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش - دار الكتب المصرية - القاهرة - الطبعة: الثانية،

1384هـ - 1964م

البيان، هذا لو لم يكن في السياق ما يأبى حمله على غير معناه الذي اطرده استعماله فيه، فكيف وفي السياق ما يأبى ذلك¹.

وأما من ناحية اللسان ، "فإن أصل هذه المادة (س وي) تدل على الكمال {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [الأعلى:2] ؛ أي: أكمل ما خلقه؛ فأصل السين والواو والياء تدل على الكمال. ثم هي على أربعة أوجه في اللغة العربية: معداة بـ (إلى) ، ومعداة بـ (على) ، ومقرونة بالواو، ومجردة:

- فالمعداة بـ (على) مثل: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: 4] ، ومعناها: علا واستقر
- والمعداة بـ (إلى) : مثل قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [البقرة: 29] .

فهل معناها كالأولى المعداة بـ (على) ؟
فيها خلاف بين المفسرين:

منهم من قال: إن معناها واحد، وهذا ظاهر تفسير ابن جرير رحمه الله؛ فمعنى {اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} ؛ أي: ارتفع إليها.

ومنهم من قال: بل الاستواء هنا بمعنى القصد الكامل؛ فمعنى: استوى إليها؛ أي: قصد إليها قصداً كاملاً، وأيدوا تفسيرهم هذا بأنها عدت بما يدل على هذا المعنى، وهو (إلى) ، وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله؛ ففسر قوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} ؛ أي: قصد إلى السماء، وإلا ستواءها هنا مضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدي بـ (إلى) .أ. هـ كلامه.
والمقرونة بالواو؛ كقولهم: استوى الماء والخشبة؛ بمعنى: تساوى الماء والخشبة.

والمجردة؛ كقوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص:14] ، ومعناها: كمل.²
ثانياً: ومما يرد هذا التأويل الباطل أن كلمة استوى قد جاءت بعد "ثم" التي حقها الترتيب والمهلة، فلو كان المعنى القدرة على العرش والاستيلاء عليه لم يتأخر ذلك إلى ما بعد خلق السموات والأرض، فإن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام كما

¹ - ينظر: الذهبي - العرش - مصدر سابق - ص: 200 . / وكذا: ابن الموصلي: مختصر الصواعق المرسله: مصدر سابق: (129-128/2) .

² - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ) - شرح العقيدة الواسطية - ت: سعد فواز الصميل - دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط: 5 / 1419هـ - ص: 384 / 385 .

ثبت في صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء"¹.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض" فالآيات والحديثان يدلان دلالة واضحة على أن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض فكيف يجوز أن يكون غير قادر ولا مستولٍ على العرش إلى أن خلق السموات والأرض².

ثالثاً: لو كان بمعنى استولى لما كان العرش أولى بالاستيلاء عليه من سائر المخلوقات ولجاز لنا أن نقول الرحمن على الأرض استوى لأنه تعالى مستول عليها وعلى كل ما خلق وهذا لا يقوله أحد فصار هذا القول دعوى مجردة بلا دليل فسقط، فلما اتفق المسلمون على أن يقال: استوى على العرش، ولا يقال استوى على هذه الأشياء مع أنه يقال: استولى على العرش والأشياء، علم أن معنى استوى خاص بالعرش وليس عاما كعموم الأشياء³.

رابعاً: أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر عاد معنى الآيات كلها إلى أن الله تعالى أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض ثم غلب على العرش بعد ذلك وقهره وحكم عليه! أفلا يستحي من الله من في قلبه أدنى وقار لله ولكلامه أن ينسب ذلك إليه وأنه أراد بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: أي اعلما يا عبادي أنني بعد فراغي من خلق السموات والأرض غلبت عرشي وقهرته واستوليت عليه⁴.

خامساً: إن ما يستند إليه هؤلاء المعطلة في زعمهم هذا من قولهم أن تفسير استوى باستولى أمر مشهور في اللغة، هو قول باطل مردود لأنه لم يثبت عند أحد من أهل اللغة أن لفظة استوى يصح استعمالها بمعنى استولى بل إن هذا القول منكر عند اللغويين.

¹ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر (51/8)

² - ينظر: ابن تيمية - مجموع الفتاوى (145/5).

³ - نفسه: (144/5).

⁴ - مؤلف الأصل: ابن القيم شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (المتوفى: 751هـ) - اختصره: إلى: مختصر

الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة - محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلبي شمس الدين، ابن الموصلي

(المتوفى: 774هـ) - ت: سيد إبراهيم - دار الحديث، القاهرة - مصر - الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2001م - ص

(141-140/2).

فهذا ابن الأعرابي أحد علماء اللغة أتاه رجل فقال له: ما معنى قول الله عز وجل {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}؟ فقال: "هو كما أخبر عز وجل"، فقال: يا أبا عبد الله ليس هذا معناه، إنما معناه استولى، قال: "اسكت ما أنت وهذا، لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاداً فإذا غلب أحدهما قيل استولى، أما سمعت النابغة:

إلا لمتك أو من أنت سابقة ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد¹

"وقد سئل الخليل بن أحمد: هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: (هذا ما لا تعرفه العرب ولا هو جائز في لغتها) .

والخليل إمام في اللغة على ما عرف من حاله، فحينئذ حمله على ما لا نعرف في اللغة هو قول باطل².

وكذلك فإنه قد روي عن جماعة من أهل اللغة قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزاً ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى.

وقد روي عن أبي العباس ثعلب أنه قال: "استوى: أقبل عليه وإن لم يكن معوجاً، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ" [البقرة 29] ، و {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} : علا، واستوى الوجه: اتصل، واستوى القمر: امتأ، واستوى زيد وعمرو: تشابها واستوى فعلاهما وإن لم تتشابه شخوصهما، هذا الذي نعرفه من كلام العرب³

فبما تقدم من أقوال علماء اللغة يتضح لنا فساد زعم هؤلاء المعطلة وكذب ادعائهم بأن هذا القول مشهور في اللغة.

وأما ما استدل به هؤلاء من أبيات، كقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ولا دم مهراق
وقول آخر:

هما استويا بفضلهما جميعاً ... على عرش الملوك بغير زور

¹ - اللالكائي شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة - ت: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي - دار طيبة - الرياض - ط : 4 / 1416-1995 - ص : (399/2) .

² - مجموع الفتاوى (144/5، 149)

³ - اللالكائي - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : (399/2-400) .

فهذان البيتان لم يثبت نقل صحيح على أنهما شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروهما.

قال ابن الجوزي : "وهذا منكر عند اللغويين. قال ابن الاعرابي: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم. قالوا: وإنما يقال: استولى فلان على كذا، إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه، ثم تمكّن منه والله عزّ وجلّ لم يزل مستولياً على الأشياء والبيتان لا يعرف قائلهما، كذا قال ابن فارس اللغوي. ولو صحّا، فلا حجة فيهما لما بيّنا من استيلاء من لم يكن مستولياً. نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيهه المجسمة." ¹

فهما على هذا بيتان مصنوعان، ومعلوم أنه لو احتج بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحتاج إلى صحته، فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده وقد طعن فيه أئمة اللغة. القول الثاني:

أن معنى استوى: أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه كقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت 11] ، أي عمد إلى خلق السماء.

وهذا هو قول بعض الجهمية²، وإليه ذهب الفراء، والأشعري، وابن الضرير، واختاره الثعلبي³ الرد عليهم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا الوجه من أضعف الوجوه، فإنه قد أخبر أن العرش على الماء قبل خلق السموات والأرض.

وكذلك ثبت في صحيح البخاري عن عمران عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ... " فإذا كان العرش مخلوقاً قبل خلق السموات والأرض، فكيف يكون استواؤه عمده إلى خلقه له؟!

هذا لو كان يعرف في اللغة أن استوى على كذا، بمعنى أنه عمد إلى فعله، فكيف إذا كان لا يعرف قط في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً ولا في نظم ولا في نثر.

¹ - ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: 597هـ) - زاد المسير في علم التفسير - ت : عبد الرزاق المهدي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط : 1 - 1422 هـ - ص : 129/2 .

² - مختصر الصواعق (126/2)

³ - الذهبي - العرش - مصدر سابق - ص : 168.

ومن قال استوى بمعنى عمَدَ ، ذكره في قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} لأنه عدى بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا وقصدت إلى كذا، ولا يقال عمدت على كذا ولا قصدت عليه، مع أن ما ذكر في تلك الآية لا يعرف في اللغة أيضاً ولا هو قول أحد من مفسري السلف بل المفسرون من السلف بخلاف ذلك"¹

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "إن قولهم هذا يتضمن أن يكون خلقه بعد خلق السموات والأرض، وهذا بخلاف إجماع الأمة، وخلاف ما دل عليه القرآن والسنة، وإن ادعى بعض الجهمية المتأخرين أنه خلق بعد خلق السموات والأرض وادعى الإجماع على ذلك، وليس العجيب من جهله، بل من إقدامه على حكاية الإجماع على ما لم يقله مسلم"²

قال ابن عبد البر: "أما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل استوى استولى فلا معنى له لأنه غير ظاهر في اللغة ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد وهو الواحد الصمد ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك وإنما يوجه كلام الله عز وجل إلى الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات وجل الله عز وجل عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه قال أبو عبيدة في قوله تعالى استوى قال علا قال وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت وقال غيره استوى أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد - قال أبو عمر الاستواء الاستقرار في العلو وبهذا خاطبنا الله عز وجل وقال لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وقال واستوت على الجودي وقال فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك وقال الشاعر ... فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة ... وقد حلق النجم اليماني فاستوى"

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى لأن النجم لا يستولي وقد ذكر النضر بن شميل وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة قال حدثني الخليل وحسبك بالخليل قال أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت فإذا هو على سطح فسلمنا فرد علينا السلام وقال لنا استووا

¹ -مجموع الفتاوى (520/5-521) .

² -مختصر الصواعق : 384/1 .

فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال . قال: فقال لنا أعرابي إلى جنبه : إنه أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل " ثم استوى إلى السماء وهي دخان" [فصلت 11] فصعدنا إليه ¹ . ويدل ذلك على أن الخليل خبير واستحضاره للآية عن بصر بصير أن لا إشكال في تفسير الاستواء إلى السماء هنا بالارتفاع إليها.

قال خلاصة السلف علما وفهما : " فإن قيل إذا كان الله لا يزال عاليا على المخلوقات كما تقدم فكيف يقال: ثم ارتفع إلى السماء وهي دخان؟ أو يقال: ثم علا على العرش؟ قيل: هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد وروي " ثم يعرج " هو سبحانه لم يزل فوق العرش فإن صعوده من جنس نزوله. وإذا كان في نزوله لم يصر شيء من المخلوقات فوقه؛ فهو سبحانه يصعد وإن لم يكن منها شيء فوقه. وقوله: {ثم استوى إلى السماء} إنما فسروه بأنه ارتفع لأنه قال قبل هذا؛ {أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين} {وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين} {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين} {ففضاهن سبع سماوات في يومين} وهذه نزلت في سورة (حم) بمكة. ثم أنزل الله في المدينة سورة البقرة {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون} {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم} فلما ذكر أن استواءه إلى السماء كان بعد أن خلق الأرض وخلق ما فيها؛ تضمن معنى الصعود لأن السماء فوق الأرض فالاستواء إليها ارتفاع إليها. فإن قيل: فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام فقبل ذلك لم يكن على العرش؟ قيل الاستواء علو خاص فكل مستو على شيء عال عليه وليس كل عال على شيء مستو عليه. ولهذا لا يقال لكل ما كان عاليا على غيره إنه مستو عليه واستوى عليه ولكن كل ما قيل فيه إنه استوى على غيره؛ فإنه عال عليه: والذي أخبر الله أنه كان بعد خلق السموات والأرض " الاستواء " لا مطلق العلو مع أنه يجوز أنه كان مستويا عليه قبل خلق السموات والأرض لما كان عرشه على الماء ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا عليه ولم يكن مستويا

¹ - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ) - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - ت: مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية -

عليه؛ فلما خلق هذا العالم استوى عليه؛ فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له كما أن عظمته وكبريائه وقدرته كذلك وأما " الاستواء " فهو فعل يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته؛ ولهذا قال فيه: {ثم استوى} . ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر. وأما علوه على المخلوقات فهو عند أئمة أهل الإثبات من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع وهذا اختيار أبي محمد بن كلاب وغيره وهو آخر قول القاضي أبي يعلى وقول جماهير أهل السنة والحديث ونظار المثبتة. وهذا الباب ونحوه إنما اشتبه على كثير من الناس؛ لأنهم صاروا يظنون أن ما وصف الله عز وجل به من جنس ما توصف به أجسامهم فيرون ذلك يستلزم الجمع بين الضدين؛ فإن كونه فوق العرش مع نزوله يمتنع في مثل أجسامهم لكن مما يسهل عليهم معرفة إمكان هذا معرفة أرواحهم وصفاتها وأفعالها وأن الروح قد تعرج من النائم إلى السماء وهي لم تفارق البدن كما قال تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى} ¹

القول الثالث:

أن استوى بمعنى علا في هذه الآية، ولكن ليس المراد علو المسافة والمكان، وإنما المراد علو المكانة والقهر، وقد ذهب إلى هذا القول جماعة من الأشاعرة منهم أبو بكر بن فورك²، وهم بهذا القول جعلوا الاستواء صفة ذات وليست صفة فعل.

الرد عليهم:

أن الآيات والأحاديث قد أثبتت استواء الله على العرش حقيقة، ولو كان معنى الاستواء ههنا المراد به علو المكانة فإن الله لم يزل متعالياً على الأشياء قبل خلق العرش، فلما أضاف الاستواء على العرش فيجب على ذلك أن يكون لهذا التخصيص فائدة³.

القول الرابع:

وهو قول من يثبت الاستواء على أنه صفة للعرش وليس صفة لله تعالى.

¹ - مجموع الفتاوى : 523.522/5

² - محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (المتوفى: 406هـ) - مشكل الحديث وبيانه:

ت: موسى محمد علي - : عالم الكتب - بيروت الطبعة: الثانية، 1985م - ص: 459

³ - الذهبي - العرش - ص: 208

وأصحاب هذا القول يقولون: إن الاستواء فعل يفعله الرب في العرش بمعنى أنه يحدث في العرش قريباً فيصير مستوياً عليه من غير أن يقوم به -أي بالله- فعل اختياري. وهذا القول هو ما يقول به ابن كلاب، والأشعري وأئمة أصحابه المتقدمين كالباقلائي وغيره، وهو أيضاً قول القلانسي، ومن وافق هؤلاء من أتباع الأئمة وغيرهم من أصحاب الإمام أحمد كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل في كثير من أقواله¹ والسبب الذي جعل هؤلاء القوم يمنعون جعل الاستواء صفة لله تعالى هو قولهم بنفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته سبحانه وتعالى ولذلك يجعلون أفعاله اللازمة لذاته -كالنزل والاستواء- كأفعاله المتعدية -كالخلق والإحسان-، وقولهم في نفي الأفعال الاختيارية راجع إلى قولهم في صفات الله. وهم يقولون: "إن الله هو الموصوف بالصفات، لكن ليست الصفات أعراضاً، إذ هي قديمة أزلية"².

وحجتهم في منع قيام الحوادث بذات الله تعالى أنهم يقولون: "إن كل ما صح قيامه بالباري تعالى فإما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فإن كان صفة كمال استحال أن يكون حادثاً، وإلا كانت ذاته قبل اتصافه بتلك الصفة خالية من صفة الكمال، والخالي من الكمال الذي هو ممكن الاتصاف به ناقص، والنقص على الله محال بإجماع الأمة. وإن لم يكن صفة كمال استحال اتصاف الباري بها لأن إجماع الأمة على أن صفات الباري بأسرها صفات كمال، فإثبات صفة لا من صفات الكمال خرق للإجماع وهو أمر غير جائز" الرد عليهم:

لقد اعتمد أصحاب هذا القول في منعهم كون الاستواء صفة لله تعالى على حجة منع قيام الحوادث بذاته تعالى، وهي حجة واهية وقد رد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: "إن المقدمة التي اعتمد عليها هؤلاء وهي قولهم: إن الخالي من الكمال الذي يمكن الاتصاف به ناقص. فيقال لهم: معلوم أن الحوادث المتعاقبة لا يمكن الاتصاف بها في الأزل، كما لا يمكن وجودها في الأزل، وعلى هذا فالخلو عنه في الأزل لا يكون خلواً عما يمكن الاتصاف به في الأزل.

¹ - مجموع الفتاوى (386/5، 437، 466)، (393/16). وينظر: ابن القيم - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية - مكتبة ابن تيمية، مصر - الطبعة: الأولى، 1408هـ/1988م - 64 - 65 .

² - مجموع الفتاوى (36/6) .

ثم إنه لم يثبت امتناع ما ذكر من النقص بدليل عقلي ولا بنص من كتاب ولا سنة، بل بما ادعوه من إجماع، وإذا فمعلوم أن المنازعين في اتصافه بذلك هم من أهل الإجماع فكيف يحتج بالإجماع في مسألة النزاع.

وقولهم بإجماع الأمة على أن صفاته صفات كمال، فإن قصد بذلك صفاته اللازمة لم يكن في هذا حجة لهم، وإن قصد بذلك ما يحدث بمشيئته وقدرته لم يكن هذا إجماعاً فإن أهل الكلام يقولون أن صفة الفعل ليست صفة كمال ولا نقص والله موصوف بها بعد أن لم يكن موصوفاً. ثم إن هذا الإجماع الذي ادعوه حجة عليهم فإننا إذا عرضنا على العقول موجودين: أحدهما يمكنه أن يتكلم ويفعل بمشيئته كلاماً وفِعلاً، والآخر لا يمكنه ذلك، بل لا يكون كلامه إلا غير مقدر ولا مراد أو يكون بائناً عنه، لكانت العقول تقضي بأن الأول أكمل من الثاني.

وكذلك إذا عرضنا على العقول موجودين من المخلوقين أو مطلقاً أحدهما يقدر على الذهاب والمجيء والتصرف بنفسه والآخر لا يمكنه ذلك لكانت العقول تقضي بأن الأول أكمل، فنفس ما به يعلم أن اتصافه بالحياة والقدرة صفات كمال، به يعلم أن اتصافه بالأفعال والأقوال الاختيارية التي تقوم به والتي يفعل بها المفعولات المباينة له صفات كمال¹.

وكذلك مما يرد به على هذا القول ما قاله ابن القيم بعد ذكره لحديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه الذي في البخاري " لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي غلبت غضبي² " وبسط الاستدلال على ذلك بالسنة ثم قال: قال علماء السنة " إن الله عز وجل على عرشه بائن من خلقه " وقالت المعتزلة " هو بذاته في كل مكان " وقالت الأشعرية " الاستواء عائد إلى العرش " قال ولو كان كما قالوا كانت القراءة برفع العرش، فلما كانت بخفض العرش دل على أنه عائد إلى الله سبحانه وتعالى³.

وأكثر الحكماء والفلاسفة المثبتين لوجود الله يقرون أن الله فوق العرش وليس بجسم وأن إثبات صفة العلو والفوقية له سبحانه لا يوجب الجسمية بل ولا إثبات المكان وبنوا ذلك على ما ذكره ابن رشد أن المكان هو السطح الباطن من الجسم الحاوي للملاقي للسطح الظاهر من الجسم المحوي، فكان الإنسان عندهم هو باطن الهواء المحيط به وكل سطح باطن فهو مكان للسطح

¹ - ينظر : ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل - ص : 339/2 - 340 .

² - صحيح البخاري - 4 / 106 - برقم : 3194 .

³ - ينظر : ابن القيم - اجتماع الجيوش الإسلامية - مصدر سابق - ص : 50 / 5 .

الظاهر فيما يلاقيه ومعلوم أنه ليس وراء الأجسام سطح جسم باطن يحوي شيئاً فلا مكان هناك إذ لو كان هناك مكان حاو لسطح الجسم لكان الحاوي جسماً .

ولهذا قال : " فإذا قام البرهان على وجود موجود في هذه الجهة فواجب أن يكون غير جسم فالذي يمتنع وجوده هناك هو وجود جسم لا وجود ما ليس بجسم " وقرر إمكان ذلك كما قرر إثباته بما ذكر من أنه لا بد من نسبة بينه وبين العالم المحسوس فيجب أن يكون في جهة العلو والذي يمكن منازعيه من الفلاسفة الدهريين والجهمية والمعتزلة أن يقولوا لا يمكن أن يوجد هناك شيء لا جسم ولا غير جسم أما الجسم فلما ذكر وأما غير الجسم فلأن كونه مشاراً إليه بأنه هناك يستلزم أن يكون جسماً وحينئذ فيقول هؤلاء المثبتون لمن نازعهم في ذلك وجود موجود قائم بنفسه ليس وراء أجسام العالم ولا داخلها في العالم إما أن يكون ممكناً أو لا يكون فإن لم يكن ممكناً بطل قولكم وإن كان ممكناً فوجود موجود وراء أجسام العالم وليس بجسم أولى بالجواز وهو أننا إذا عرضنا على العقل وجود موجود قائم بنفسه لا في العالم ولا خارجاً عنه ولا يشار إليه وعرضنا عليه وجود موجود يشار إليه فوق العالم ليس بجسم كان إنكار العقل للأول أعظم وامتناعه فيه أظهر من إنكاره للثاني وامتناعه فيه فإن كان حكم العقل في الأول مقبولاً وجب قبول الثاني وإن كان الثاني مردوداً وجب رد الأول ولا يمكن العقل الصريح أن يقبل الأول ويرد الثاني أبداً.¹

الفريق الثاني: القول بالتفويض

ويذهب أصحاب هذا القول إلى إثبات لفظ الاستواء فقط مع التوقف في المعنى المراد، فهم يقولون: إن الاستواء ثابت في القرآن حيث إنه قد ورد في سبع آيات، وكذلك قد وردت به الأخبار الصحيحة وقبوله من جهة التوقف واجب، والبحث عنه وطلب الكيفية غير جائز وهو استواء لا نعلمه .

فالتفويض عند أهل الكلام: هو صرف اللفظ عن ظاهره مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه، بل يترك ويفوض علمه إلى الله تعالى بأن يقول: الله أعلم بمراده.

¹ - ينظر: ابن القيم - اجتماع الجيوش الإسلامية : 12/13 .

وقد نسب بعض العلماء هذا المذهب - خطأً - إلى السلف، ومن هؤلاء العلماء: الإمام البيهقي، والغزالي، وابن الجوزي، والنووي، والرازي، وابن حجر، والسيوطي وغيرهم.¹ ومن ذلك عرف واشتهر عند أهل الكلام ومقلديهم أن التفويض مذهب السلف وأن مذهب الخلف التأويل. وكذا الجويني إمام الحرمين كما في آخر مؤلفاته: "الرسالة النظامية وطبعت باسم "العقيدة النظامية" حيث يقول فيها: "وذهب أئمة السلف إلى انكشاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى.

والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع، والدليل السمعي القاطع في ذلك [أن] إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيه² فأبو المعالي وأتباعه ينفونها - أي نصوص الصفات - ثم لهم في التأويل والتفويض قولان، فأول قولي أبي المعالي التأويل كما ذكره في الإرشاد، وآخرهما التفويض كما ذكره في الرسالة النظامية. وهؤلاء في الحقيقة ينفون صفة الاستواء ولكن يتوقفون في المعنى الذي على زعمهم يجب تأويل اللفظ إليه.

وقد زعم كثير من الأشاعرة أن القول بالتفويض هو قول السلف³.

ويستدلون على نسبة هذا القول إلى السلف بعبارات نقلت عن السلف ظنوا أنها ترمي إلى القول بالتفويض كقول الأوزاعي: "كنا والتابعون متوافقون نقول أن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته جل وعلا".

وقول ربيعة بن عبد الرحمن، والإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب".

¹ - ينظر: حاشية كتاب - منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - أبو زكريا يحيى بن إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو بكر بن أبي طاهر الأزدي السلماسي (المتوفى: 550هـ) - ت: محمود بن عبد الرحمن قدح - مكتبة الملك فهد الوطني - الطبعة: الأولى، 1422هـ/2002م - ص: 151 .

² - الجويني أبو المعالي - العقيدة النظامية - ت: محمد زاهد الكوثري - المكتبة الأزهرية للتراث - مصر - 1412 - 1992 - ص: 33 - 34 .

³ - الذهبي - العرش - مصدر سابق - ص: 212 .

والقول بالتفويض هو مقصود هؤلاء القوم في قولهم: (إن طريقة السلف أسلم) ، حيث إنهم ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا﴾ [البقرة 78] .
الرد عليهم:

معلوم أن نسبة هذا القول إلى السلف إنما هي محض كذب وافتراء، ومن نسب هذا القول إلى السلف فإنما هو جاهل بطريقة السلف الذين لم يقولوا بهذا القول، ولم يرد عن واحد منهم أنه فوض معنى الاستواء، بل أن الوارد عنهم جميعاً أنهم يفسرون الاستواء بالمعنى المراد وهو العلو والارتفاع على العرش ويؤمنون بأن الله مستو على العرش حقيقة.

قال شيخ الإسلام: "وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف، أما في كثير من الصفات فقطعاً مثل أن الله فوق العرش فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما قصدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك"¹.

وقال في موضع آخر: "وقد فسر الإمام أحمد النصوص التي نسميها متشابهات فبين معانيها آية آية، وحديثاً حديثاً ولم يتوقف فيها هو والأئمة قبله مما يدل على أن التوقف عن بيان معاني آيات الصفات وصرف الألفاظ عن ظواهرها لم يكن مذهباً لأهل السنة وهم أعرف بمذهب السلف، وإنما مذهب السلف إجراء معاني آيات الصفات على ظواهرها بإثبات الصفات له حقيقة، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعاني لا تحرف ولا يلحد فيها"²

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: " تتنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية"³

وأما بالنسبة إلى ما استدل به أصحاب هذا القول على أن القول بالتفويض هو مذهب السلف وذكرهم لقول الإمام مالك: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه

¹ - ابن تيمية - الفتوى الحموية (ص64)

² - مجموع الفتاوى (414/17) .

³ - مختصر الصواعق (28/1) .

بدعة) ، فليس المراد ههنا تفويض معنى الاستواء ولا نفي حقيقة الصفة، ولو كان المراد الإيمان بمجرد اللفظ من غير فهم على ما يليق بالله لما قال: (الكيف مجهول) ، لأنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى¹

والاستواء على هذا المعنى لا يكون معلوماً بل هو مجهول بمنزلة حروف المعجم، لكن الأمر على عكس ذلك، فنفي علم الكيفية؛ لأنه أثبت الصفة وأراد بقوله الاستواء معلوم معناه في اللغة التي نزل بها القرآن فعلى هذا يكون معلوماً في القرآن.

ومعلوم أن ادعاء هؤلاء أن مذهب السلف إنما هو القول بالتفويض سببه اعتقاد هؤلاء أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر - كان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى - فبقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكلف. وهذا التردد هو الذي وقع فيه من قال بالتفويض من هؤلاء كالبيهقي والرازي، فهم لم يلتزموا بهذا القول مطلقاً بل غالباً ما يخالفونه كما فعل الرازي في تأسيسه حيث جنح إلى التأويل وترك القول بالتفويض.

الفريق الثالث: قول المشبهة

والمقصود بهم الهشامية² من الروافض، والكرامية³ وغيرهم. وهؤلاء يثبتون استواء الله وارتفاعه فوق عرشه، إلا أنهم تعمقوا في الكلام على كيفية ذلك الاستواء.

فالهشامية مثلاً يقولون: إن الله تعالى مماس لعرشه لا يفضل منه شيء في العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه⁴

وأما الكرامية فقد تعددت أقوالهم في كيفية استوائه:

فمنهم من يقول: إنه على بعض أجزاء العرش.

ومنهم من يقول: إن العرش مكان له وإن العرش امتلأ به.

¹ - الفتوى الحموية (ص25) .

² - هم أصحاب هشام بن عبد الحكم الرافضي من الإمامية، وتنسب إليه وإلى هشام بن سالم الجواليقي أحياناً، من الإمامية المشبهة. انظر المقالات (31/1-34) ، الملل والنحل (1/144-147) .

³ - الكرامية أتباع محمد بن كزّام السجستاني. الذين شبهوا الله بخلقه، وأطلق عليهم الأشعري اسم المجسمة، وذكر أن أقوالهم بلغت ست عشرة مقالة. (انظر: مقالات الإسلاميين 1/281، والفرق بين الفرق ص216، ولوامع الأنوار البهية 1/91) .

⁴ - نفسه : (22/2) .

ومنهم من يقول: إنه لو خلق بازاء العرش عروشاً موازية لعرشه لصارت العروش كلها مكاناً له لأنه أكبر منها كلها.

ومنهم من يقول: إن بينه وبين العرش من البعد والمسافة ما لو قدر مشغولاً بالجواهر لاتصلت به¹.

وقول هؤلاء المشبهة إنما هو نتيجة لازمة لأقوالهم في صفات الله وكلامهم في ذاته. فالهشامية يقولون: "إن الله جسم ذو أبعاد له قدر من الأقدار، ولكن لا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء".

ونقل عنهم أنهم قالوا إنه سبعة أشبار بشبر نفسه، وإن له مكاناً مخصوصاً ووجهة مخصوصة وإنه يتحرك وحركته فعله، وليست من مكان إلى مكان وهو متناه بالذات غير متناه بالقدرة، وإنه مماس لعرشه ولا يفضل منه شيء من العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه².

وأما الكرامية فيقول ابن كرام: "إن معبوده مستقر على العرش استقراراً وإنه بجهة فوق ذاتاً وإنه أحدي الذات أحدي الجوهر وإنه مماس للعرش من الصفحة العليا".

ولهم في معنى العظم خلاف فقال بعضهم: "إنه مع وحدته على جميع أجزاء العرش والعرش تحته وهو فوقه كله على الوجه الذي هو فوق جزء منه".

وقال بعضهم: "أنه يلاقى مع وحدته من جهة واحدة أكثر من واحد، وهو يلاقى جميع أجزاء العرش وهو العلي العظيم".

وقالت المهاجرية منهم: إنه لا يزيد على عرشه في جهة المماسة ولا يفضل منه شيء على العرش، وهذا يقتضي أن يكون عرضه كعرض العرش.

وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق وأنه محاذ للعرش.

الرد عليهم:

هذا القول للمشبهة يتضمن حقاً وباطلاً.

فالحق فيه هو: اعترافهم بعلو الله واستوائه على عرشه وأنه بائن من خلقه والخلق بائون عنه. وأما الباطل فهو: كلامهم في ذات الله والتعرض لكيفية استوائه، وهو كلام باطل وفساد ليس لهم به دليل من القرآن أو السنة، بل هو قول على الله بغير علم فالله سبحانه وتعالى لم يطلعنا على

¹ - نفسه: (147-144/1) .

² - نفسه: (22/2) .

كيفية ذاته فأتى لنا أن نعلم كيفية صفاته، وأمر الكيفية هو مما استأثر الله بعلمه قال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [البقرة 255] .

ومما يدلنا على فساد هذا القول وعدم وجود دليل لأصحابه على ما يقولون هو اختلاف آرائهم وأقوالهم عند الحديث عن ذات الله وكيفية استواءه. فمن خلال عرض أقوالهم يتضح اختلافهم وتناقضهم، وما ذاك إلا لأنهم يفترون على الله الكذب قال تعالى {وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء 82] .

والسؤال الذي ينبغي أن يوجه إلى هؤلاء المشبهة في هذا المقام هو: أين الدليل من الكتاب أو السنة على ما تزعمون؟

والجواب معروف وهو أنه لا دليل لهم على ذلك لا من القرآن ولا من السنة.

الفريق الرابع : الحلولية :

الحلولية في الجملة عشر فرق كلها كانت في دولة الإسلام وغرض جمعها القصد إلى إفساد القول بتوحيد الصانع وتفصيل فرقها في الأكثر يرجع الى غلاة الروافض وذلك أن السبائية والبيانية والجناحية والخطابية والنميرية منهم باجمعها حلولية وظهر بعدهم المقنعية بما وراء نهر جيحون وظهر قوم بمرق يقال لهم رزامية وقوم يقال لهم بركوكية وظهر بعدهم قوم من الحلولية يقال لهم حلمانية وقوم يقال لهم حللاجية ينسبون الى الحسين بن منصور المعروف بالحلاج وقوم يقال لهم العداقرة ينسبون الى ابن ابي العداقري وتبع هؤلاء الحلولية قوم من الخرمية شاركوهم في استباحة المحرمات واسقاط المفروضات¹ وورث مقالتهن الخبيثة هذه فقام من الجهمية والمعتزلة والقائلين بوحدة الوجود من عباد الصوفية ومتفلسفتهم كابن عربي وابن سبعين .

فقد ذكر عنهم الأشعري ثلاثة أقوال: القول الأول: قول أبي الهذيل وجعفر بن مبشر وجعفر بن حرب والجبائي بأنه في كل مكان بمعنى أنه مدير لكل مكان.

¹ - عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (المتوفى: 429هـ) - الفرق بين

الفرق وبين الفرق الناجية - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط : 3 / 1977 - ص : 241/1 .

وينظر : الأسفراييني، أبو المظفر طاهر بن محمد (المتوفى: 471هـ) - التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق

الهالكين - ت : كمال يوسف الحوت - عالم الكتب - لبنان - ط : 1 / 1403 هـ - 1983 م - ص : 130

القول الثاني: قول هشام الفوطي وعباد بن سليمان وأبي زفر بأن الباري لا في مكان بل هو على ما يزل عليه.

القول الثالث: قول بعضهم بأن الباري في كل مكان بمعنى أنه حافظ للأماكن وذاته مع ذلك موجودة في كل مكان.¹ فهذا القول الأخير يتفق مع ما ذكره المصنف هنا عنهم، وقد تقدم بيان أن النجارية وهم من المعتزلة على هذا القول، وأن صوفية وعباد الجهمية على هذا القول وهو قول جميع أهل وحدة الوجود من الصوفية.

فلأهل الحلول والقول بأنه في كل مكان أن يحتجوا بقوله عز وجل: "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا" الرد عليهم :

لا حجة لهم في ظاهر هذه الآية لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية هو على العرش وعلمه في كل مكان وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله ذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم الآية قال هو على عرشه وعلمه معهم أين ما كانوا قال وبلغني عن سفيان الثوري مثله قال سنيد وحدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود قال الله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم قال سنيد وحدثنا هشيم عن أبي بشر عن مجاهد قال إن بين العرش وبين الملائكة سبعين حجابا حجاب من نور وحجاب من ظلمة وأخبرنا إبراهيم بن شاکر قال حدثنا عبد الله بن محمد بن عثمان قال حدثنا سعيد بن جبير وسعيد بن عثمان قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن صالح قال حدثنا يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن مسعود قال ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة والعرش على الماء والله تبارك وتعالى على العرش يعلم أعمالكم.²

¹ - أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين 1/236 - 286.

² - ابن عبد البر - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - مصدر سابق - ص : [7 / 139] .

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله : فإن قيل: فإن لم يكن مخصوصاً بجهة فوق، فما بال الوجوه والأيدي ترفع إلى السماء في الأدعية شرعاً وطبعاً، وما باله صلى الله عليه وسلم قال للجارية التي قصد إعتاقها فأراد أن يستيقن إيمانها أين الله فأشارت إلى السماء فقال إنها مؤمنة؟ فالجواب عن الأول أن هذا يضاهاى قول القائل: إن لم يكن الله تعالى في الكعبة وهو بيته فما بالنا نحجه ونزوره، وما بالنا نستقبله في الصلاة؟ وإن لم يكن في الأرض، فما بالنا نتذلل بوضع وجوهنا على الأرض في السجود؟ وهذا هذيان. بل يقال: قصد الشرع من تعبد الخلق بالكعبة في الصلاة ملازمة الثبوت في جهة واحدة، فإن ذلك لا محالة أقرب إلى الخشوع وحضور القلب من التردد على الجهات، ثم لما كانت الجهات متساوية من حيث إمكان الاستقبال خصص الله بقعة مخصوصة بالتشريف والتعظيم وشرفها بالإضافة إلى نفسه واستمال القلوب إليها بتشريفه ليثيب على استقبالها، فكذلك السماء قبلة الدعاء، كما أن البيت قبلة الصلاة، والمعبود بالصلاة والمقصود بالدعاء منزله عن الحول في البيت والسماء ثم في الإشارة بالدعاء إلى السماء سر لطيف يعز من يتنبه لأمثاله، وهو أن نجاه العبد وفوزه في الآخرة، بأن يتواضع لله تعالى ويعتقد التعظيم لربه، والتواضع والتعظيم عمل القلب، وآلته العقل. والجوارح إنما استعملت لتطهير القلب وتزكيته، فإن القلب خلق خلقه يتأثر بالمواظبة على أعمال الجوارح، كما خلقت الجوارح متأثرة لمعتقدات القلوب، ولما كان المقصود أن يتواضع في نفسه بعقله وقلبه، بأن يعرف قدره ليعرف بخسة رتبته في الوجود لجلال الله تعالى وعلوه، وكان من أعظم الأدلة على خسته الموجبة لتواضعه أنه مخلوق من تراب، كلف أن يضع على التراب، الذي هو أذل الأشياء، وجهه الذي هو أعز الأعضاء، ليستشعر قلبه التواضع بفعل الجبهة في مماسستها الأرض، فيكون البدن متواضعاً في جسمه وشخصه وصورته بالوجه الممكن فيه وهو معانقة التراب الوضيع الخسيس ويكون العقل متواضعاً لربه بما يليق به، وهو معرفة الضعة وسقوط الرتبة وخسة المنزلة عند الالتفات إلى ما خلق منه.

فكذلك التعظيم لله تعالى وضيعة على القلب فيها نجاته، وذلك أيضاً ينبغي أن تشترك فيه الجوارح، وبالقدر الذي يمكنه أن تحمل الجوارح، وتعظيم القلب بالإشارة إلى علو الرتبة على طريق المعرفة والاعتقاد وتعظيم الجوارح بالإشارة إلى جهة العلو الذي هو أعلى الجهات وأرفعها في الاعتقادات؛ فإن غاية تعظيم الجارحة استعمالها في الجهات، حتى أن من المعتاد المفهوم في المحاورات أن يفصح الإنسان عن علو رتبة غيره وعظيم ولايته فيقول: أمره في

السماء السابعة، وهو إنما ينبه على علو الرتبة ولكن يستعير له علو المكان، وقد يشير برأسه إلى السماء في تعظيم من يريد تعظيم أمره، أي أمره في السماء، أي في العلو وتكون السماء عبارة عن العلو، فانظر كيف تلتف الشرع بقلوب الخلق وجوارحهم في سياقهم إلى تعظيم الله وكيف جهل من قلت بصيرته ولم يلتفت إلا إلى ظواهر الجوارح والأجسام وغفل عن أسرار القلوب واستغنائها في التعظيم عن تقدير الجهات، وظن أن الأصل ما يشار إليه بالجوارح ولم يعرف أن المظنة الأولى لتعظيم القلب وأن تعظيمه باعتقاد علو الرتبة لا باعتقاد علو المكان، وأن الجوارح في ذلك خدم وأتباع يخدمون القلب على الموافقة في التعظيم بقدر الممكن فيها، ولا يمكن في الجوارح إلا الإشارة إلى الجهات، فهذا هو السر في رفع الوجوه إلى السماء عند قصد التعظيم، ويضاف إليه عند الدعاء أمر آخر وهو أن الدعاء لا ينفك عن سؤال نعمة من نعم الله تعالى، وخزائن نعمه السموات، وخزان أرزاقه الملائكة ومقرهم ملكوت السموات وهم الموكلون بالأرزاق. وقد قال الله تعالى: " وفي السماء رزقكم وما توعدون ". والطبع يتقاضى الإقبال بالوجه على الخزانة التي هي مقر الرزق المطلوب، فطلاب الأرزاق من الملوك إذا أخبروا بتفرقة الأرزاق على باب الخزانة مالت وجوههم وقلوبهم إلى جهة الخزانة، وإن لم يعتقدوا أن الملك في الخزانة فهذا هو محرك وجوه أرباب الدين إلى جهة السماء طبعاً وشرعاً.

فأما العوام فقد يعتقدون أن معبودهم في السماء، فيكون ذلك أحد أسباب إشاراتهم، تعالى رب الأرباب عما اعتقد الزائغون علواً كبيراً .

وأما حكمه صلوات الله عليه بالإيمان للجارية لما أشارت إلى السماء، فقد انكشف به أيضاً إذ ظهر أن لا سبيل للأخرس إلى تفهم علو المرتبة إلا بالإشارة إلى جهة العلو، فقد كانت خرساء كما حكي¹، وقد كان يظن بها أنها من عبدة الأوثان، ومن يعتقد الهه في بيت الأصنام

1- ولكنه ثبت في متن الحديث أنه سأله من أنا ؟ فقالت : أنت رسول الله . والحديث بتمامه في صحيح مسلم والموطأ بلفظ :
عَنْ عَمْرِ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُ قَالَ «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ جَارِيَةَ لِي كَانَتْ تَزْعَى غَمًّا لِي فَجِئْتُهَا وَقَدْ فَدَّتْ شَاةً مِنَ الْعَنَمِ فَسَأَلْتُهَا عَنْهَا فَقَالَتْ أَكَلَهَا الذَّنْبُ فَاسْفُتَ عَلَيْهَا وَكُنْتُ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلَطَمْتُ وَجْهَهَا وَعَلَيَّ رَقَبَةٌ أَفَاعِنُهَا فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَيْنَ اللَّهُ فَقَالَتْ فِي السَّمَاءِ فَقَالَ مَنْ أَنَا فَقَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعِنُهَا»

فاستتظقت عن معتقدها فعرفت بالإشارة إلى السماء أن معبودها ليس في بيوت الأصنام كما يعتقدونه أولئك.¹

فإن قيل فنفي الجهة يؤدي إلى المحال، وهو إثبات موجود تخلو عنه الجهات الست ويكون لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً به، ولا منفصلاً عنه، وذلك محال، قلنا: مسلم أن كل موجود يقبل الاتصال فوجوده لا متصلاً ولا منفصلاً محال، وإن كان موجود يقبل الاختصاص بالجهة فوجوده مع خلو الجهات الست عنه محال، فأما موجود لا يقبل الاتصال، ولا الاختصاص بالجهة فخلوه عن طرفي النقيض غير محال، وهو كقول القائل يستحيل موجود لا يكون عاجزاً ولا قادراً ولا عالماً ولا جاهلاً فإن أحد المتضادين لا يخلو الشيء عنه، فيقال له إن كان ذلك الشيء قابلاً للمتضادين فيستحيل خلوه عنهما وأما الجماد الذي لا يقبل واحداً منهما لأنه فقد شرطهما وهو الحياة، فخلوه عنهما ليس بمحال. فكذاك شرط الاتصال والاختصاص بالجهات التحيز والقيام بالمتحيز. فإذا فقد هذا لم يستحل الخلق عن متضادته فرجع النظر إذاً إلى أن موجوداً ليس بمتحيز، ولا هو في متحيز، بل هو فاقده شرط الاتصال، والاختصاص هل هو محال أم لا؟ فإن زعم الخصم أن ذلك محال وجوده فقد دللنا عليه بأنه مهما بان، أن كل متحيز حادث وأن كل حادث يفنقر إلى فاعل ليس بحادث فقد لزم بالضرورة من هاتين المقدمتين ثبوت موجود ليس بمتحيز. أما الأصلان فقد أثبتناهما وأما الدعوى اللازمة منهما فلا سبيل إلى جردها مع الإقرار بالأصلين.

فإن قال الخصم إن مثل هذا الموجود الذي ساق دليلكم إلى إثباته غير مفهوم، فيقال له ما الذي أردت بقولك غير مفهوم فإن أردت به أنه غير متخيل ولا متصور ولا داخل في الوهم فقد صدقت، فإنه لا يدخل في الوهم والتصور والخيال إلا جسم له لون وقدر، فالمنفك عن اللون والقدر لا يتصوره الخيال، فإن الخيال قد أنس بالمبصرات فلا يتوهم الشيء إلا على وفق ما رآه ولا يستطيع أن يتوهم ما لا يوافق.

وإن أراد الخصم أنه ليس بمعقول، أي ليس بمعلوم بدليل العقل فهو محال إذا قدمنا الدليل على ثبوته ولا معنى للمعقول إلا ما اضطر العقل إلى الإذعان للتصديق به بموجب الدليل الذي لا

¹ - أبو حامد الغزالي - الاقتصاد في الاعتقاد - وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان -

ط : 1424/1 هـ - 2004 م - ص : 35 - 36 - 37 .

يمكن مخالفته. وقد تحقق هذا، فإن قال الخصم فما لا يتصور في الخيال لا وجود له، فلنحكم بأن الخيال لا وجود له في نفسه، فإن الخيال نفسه لا يدخل في الخيال والرؤية لا تدخل في الخيال وكذلك العلم والقدرة، وكذلك الصوت والرائحة ولو كلف الوهم أن يتحقق ذاتاً للصوت لقدر له لونا ومقداراً وتصوره كذلك. وهكذا جميع أحوال النفس، من الخجل والوجل والفسق والغضب والفرح والحزن والعجب، فمن يدرك بالضرورة هذه الأحوال من نفسه ويسوم خياله أن يتحقق ذات هذه الأحوال فنجده يقصر عنه إلا بتقدير خطأ ثم ينكر بعد ذلك وجود موجود لا يدخل في خياله فهذا سبيل كشف الغطاء عن المسألة. وقد جاوزنا حد الاختصار ولكن المعتقدات المختصرة في هذا الفن أراها مشتملة على الإطناب في الواضحات والشروع في الزيادات الخارجة عن المهمات مع التساهل في مضايق الإشكالات فرأيت نقل الإطناب من مكان الوضوح، إلى مواقع الغموض أهم وأولى.

الدعوى الثامنة: ندعي أن الله تعالى منزه عن أن يوصف بالاستقرار على العرش، فإن كل متمكن على جسم ومستقر عليه مقدر لا محالة فإنه إما أن يكون أكبر منه أو أصغر أو مساوياً وكل ذلك لا يخلو عن التقدير، وأنه لو جاز أن يماسه جسم من هذه الجهة لجاز أن يماسه من سائر الجهات فيصير محاطاً به والخصم لا يعتقد ذلك بحال وهو لازم على مذهبه بالضرورة، وعلى الجملة لا يستقر على الجسم إلا جسم ولا يحل فيه إلا عرض وقد بان أنه تعالى ليس بجسم ولا عرض، فلا يحتاج إلى إقران هذه الدعوى بإقامة البرهان. فإن قيل فما معنى قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى"؟ وما معنى قوله عليه السلام: "ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا" قلنا الكلام على الظواهر الواردة في هذا الباب طويل ولكن نذكر منهاجاً في هذين الظاهرين يرشد إلى ما عداه وهو أنا نقول: الناس في هذا فريقان عوام وعلماء، والذي نراه اللائق بعوام الخلق أن لا يخاض بهم في هذه التأويلات بل ننزع عن عقائدهم كل ما يوجب التشبيه ويدل على الحدوث ونحقق عندهم أنه موجود ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وإذا سألوا عن معاني هذه الآيات زجروا عنها، وقيل ليس هذا بعشكم فادرجوا لكل علم رجال. ويجاب بما أجاب به مالك بن أنس رضي الله عنه، بعض السلف حيث سئل عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وهذا لأن عقول العوام لا تتسع لقبول المعقولات ولا إحاطتهم باللغات ولا تتسع لفهم توسيعات العرب في الاستعارات.

وأما العلماء فاللائق بهم تعريف ذلك وتفهمه، ولست أقول أن ذلك فرض عين إذ لم يرد به تكليف بل التكليف التنزيه عن كل ما تشببه بغيره.¹

ردّ شبهته فيما يخص الجهة والتحيز

لا شك أنّ طلبه اعتقاد نفي الجهة والتحيز عن الله لا يخلو: إما أن يتضمن نفي كون الله على العرش، ونفي العلو والفوقية، أو لا يتضمن هذا الكلام نفي ذلك. فإن كان هذا الكلام لم يتضمن ذلك كان النزاع لفظياً، فلا ينازع في المعنى الذي أراده، لكن لفظه ليس بدال على ذلك.

وإما أن يتضمن كلامه نفي العلو والفوقية والاستواء، فيطلب ابن تيمية رحمه الله منهم أن يصرحوا بذلك في كلامهم، حتى يفهم المؤمنون كلامهم، ويعلموا مقصودهم، لكنهم لا يصرحون ولا يجترؤون أن يقولوا بهذا المعنى في مآ من المؤمنين².

- أنهم إذا بينوا مقصودهم من أنه ليس فوق العرش ربّ، ولا فوق العالم موجود فيقال لهم: هذا معلوم الفساد بالضرورة العقلية، والإيمانية السمعية الشرعية، بدلالة القرآن الكريم، وبالأحاديث المتواترة عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وبما اتفق عليه سلف الأمة، وأهل الهدى من أئمتها.

- أن لفظ الجهة عند من قاله: إما أن يكون معناه وجودياً أو عدمياً: فإن كان معناه وجودياً: نفي الجهة عن الله نفي من أن يكون الله في شيء موجود، وليس شيء موجود سوى الله و العالم، أي ما تمّ إلا الخالق و المخلوق، وهذا باطل منفي عن الله. وإن كان معناه عدمياً: كان المعنى أن الله يكون حيث لا موجود غيره، وهو ما فوق العالم، فإذا كان موجوداً في العدم ليس معناه أن العدم يحويه أو يحيط به، إذ العدم ليس بشيء أصلاً، حتى يوصف بأنه يحيط أو يحاط به، وهذا المعنى حق³.

¹ - أبو حامد الغزالي - الاقتصاد في الاعتقاد - مصدر سابق - ص : 39/38 . وينظر كتابه أيضا : قواعد العقائد - ت : موسى محمد علي عالم الكتب - لبنان - ط : 2 / 1405 هـ - 1985 م - ص : 162 - 169 .

² - ينظر : الفتاوى الكبرى 32/5 - 33 . ينظر كذلك رسالة النصيحة في صفات الرب جل وعلا - لأحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود، عماد الدين الواسطي البغدادي ثم الدمشقيّ، المعروف: بابن شيخ الحزامين (المتوفى: 711هـ) . ت : زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط : 2 / 1394 . كان من الأشعرية النفاة ثم تتلمذ على يد شيخ الإسلام فترك أشعريته ونفيه وصار مثبتاً منزّها .

³ - ينظر : المجلد الثاني من بيان تلبيس الجهمية فأغلبه رد على نفاة الجهة.

أن قولهم بنفي (التحيز) لفظ مجمل، فإن أرادوا أنه لا تحيط به المخلوقات، ولا يكون في جوف الموجودات، فهذا صحيح.

وإن أراد المتكلمون بالحيز: ما ليس خارجاً عن المتحيز كحدود المتحيز وجوانبه، فلا يكون الحيز شيئاً خارجاً عن المتحيز على هذا التفسير. وإن أرادوا به ما هو خارج عن المتحيز منفصل عنه، فقد قالوا: إنه في العالم أو في بعضه، وهذا مما هو منفي عن الله عز وجل¹.

الرد على قوله: " فإن قال الخصم إن مثل هذا الموجود الذي ساق دليلكم إلى إثباته غير مفهوم، فيقال له ما الذي أردت بقولك غير مفهوم فإن أردت به أنه غير متخيل ولا متصور ولا داخل في الوهم فقد صدقت ...

... وإن أراد الخصم أنه ليس بمعقول، أي ليس بمعلوم بدليل العقل فهو محال إذا قدمنا الدليل على ثبوته "

لا شك أن مجموع الأجسام (الكون المخلوق المكون كله) ليس في شيء موجود مكوّن فليس في مكان لأنه هو المكان ، فكما أن الواسع من أجزاء الكون يكون مكانا لما حل فيه من الأجزاء الصغيرة نحو قولنا زيد في الدار ودار زيد في المدينة وهكذا إلى أن يقال الكون كله أين هو؟؟ فهنا يقال لا مكان له لأن الكون استغرقه كله فهو في حيّز عدمي ، "والفخر الرازي يجعل الحيّز تارة موجودا وتارة معدوما وقد علم بالعقل والنقل أن الله بائن من خلقه لآتته كان قبل خلق السماوات والأرض فلما خلقها إما أن يكون قد دخل فيها أو دخلت فيه وكلاهما ممتنع فتعين أنه بائن عنها والنفاة يدعون أنه ليس مباينا لخلقته ولا مداخل له وهذا ممتنع في العقول لكن يدعون أن القول بامتناع ذلك هو من حكم الوهم لا من حكم العقل

يزعم هؤلاء النفاة الأشاعرة كأبي حامد والرازي والآمدي أن الحكم بهذا المنع من حكم الوهم المرذود لا من حكم العقل المقبول،

أما الوهم فانه قد فسره بقوله في الاشارات:

"وأیضا فان الحيوانات ناطقها وغير ناطقها تدرك في المحسوسات الجزئية معانى جزئية غير محسوسة ولا متأدية من طريق الحواس مثل إدراك الشاة معنى في الذئب غير محسوس وإدراك

¹ - ينظر: الفتاوى الكبرى 21/5 - 37، وينظر: في تفصيل في لفظ الحيّز: دره تعارض العقل والنقل 319/6 - 352.

الكبش معنى في النعجة غير محسوس إدراكا جزئيا يحكم به كما يحكم الحس بما يشاهده فعندك قوة هذا شأنها.

فهذه القوة التي سموها الوهم هي التي يدرك بها الإنسان صداقة الصديق وعدواة العدو ويدرك بها كل من الزوجين ما في الزوج الآخر من الأمر المحبوب وبها يميل الإنسان إلى غيره وبها ينفر عنه ولهذا يقولون: "أكبر حاكم على النفوس الوهم".¹

فعلى هذا قالت الأشاعرة: إن الوهم هو أن يدرك في المحسوسات ما ليس بمحسوس كما تدرك الشاة عدواة الذئب وتدركا السخلة صداقة أمها ويقولون الحكم الفطري الموجود في قلوب بني آدم بامتتاع وجود مثل هذا هو حكم الوهم لا حكم العقل فإن حكم الوهم إنما يقبل في المحسوسات لا فيما ليس بمحسوس .

فيقال لهم إن كان هذا صحيحا فقولكم إنه يمتنع أن يكون فوق العالم وليس بجسم هو أيضا من حكم الوهم لأنه حكم فيما ليس بمحسوس عندكم وكذلك حكمه بأن كل ما يرى فلا بد أن يكون بجهة من الرائي هو حكم الوهم أيضا

وكذلك سائر ما يدعون امتتاعه على الرب هو مثل دعوى امتتاع كونه لا مباينا ولا محايثا فإن كان حكم الفطرة بهذا الإمتتاع مقبولا في شيء من ذلك قبل في نظيره وإلا فقبوله في أحد المتماثلين ورده في الآخر تحكم .

وهؤلاء بنوا كلامهم على أصول متناقضة فإن الوهم عندهم قوة في النفس تدرك في المحسوسات ما ليس بمحسوس وهذا الوهم لا يدرك إلا معنى جزئيا لا كليا كالحس والتخيل وأما الأحكام الكلية فهي عقلية فحكم الفطرة بأن كل موجودين إما متحايثان وإما متباينان وبأن ما لا يكون داخل العالم ولا خارجه لا يكون إلا معدوما وأنه يمتنع وجود ما هو كذلك ونحو ذلك أحكام كلية عقلية ليست أحكاما جزئية شخصية في جسم معين حتى يقال إنها من حكم الوهم

وأيضا فإنهم يقولون إن حكم الوهم فيما ليس بمحسوس باطل لأنه إنما يدرك ما في المحسوسات من المعاني التي ليست محسوسة أي لا يمكن إحساسها

ومعلوم أن كون رب العالمين لا تمكن رؤيته أو تمكن مسألة مشهورة فسلف الأمة وأئمتها وجمهور نظارها وعامتها على أن الله يمكن رؤيته ورؤية الملائكة والجن وسائر ما يقوم بنفسه فإذا ادعى المدعى أنه لا يمكن رؤيته ولا رؤية الملائكة التي يسميها هو المجردات والنفوس

¹ - ابن تيمية - الرد على المنطقيين - ص : 429

والعقول فهو يدعى وجود موجود قائم بنفسه لا يمكن الإحساس به بحال فإذا احتج عليه بالقضايا الفطرية التي تحكم بها الفطرة كما تحكم بسائر القضايا الفطرية لم يكن له أن يقول هذا حكم الوهم فيما ليس بمحسوس فلا يقبل لأن الوهم إنما يدرك ما في المحسوس فإنه يقال له إنما يثبت أن هذا مما لا يمكن أن يرى ويحس به إذا ثبت أن هذا الحكم باطل وإنما يثبت أن هذا الحكم باطل إذا ثبت وجود موجود لا يمكن أن يرى ويحس به وأنت لم تثبت هذا الموجود إلا بدعواك أن هذا الحكم باطل ولم تثبت أن هذا الحكم باطل إلا بدعواك وجود هذا الموجود فصار حقيقة قولك دعوى مجردة بلا دليل .

فإذا ثبت امتناع رؤيته بإبطال هذا الحكم كان هذا دورا ممتعا وكنت قد جعلت الشيء مقدمة في إثبات نفسه فإنه يقال لك لم تثبت إمكان وجود غير محسوس إن لم تثبت بطلان هذا الحكم ولا تثبت بطلانه إن لم تثبت موجودا قائما بنفسه لا يمكن رؤيته ولا الإحساس به .

فإذا قلت : الوهم يسلم مقدمات تستلزم ثبوت هذا ، قيل لك : ليس الأمر كذلك فإنه لم يسلم مقدمة مستلزمة لهذا أصلا بل جميع ما ينبنى عليه ثبوت إمكان هذا وإمكان هذا وإمكان وجود ما لا يمكن رؤيته ولا يشار إليه مقدمات متنازع فيها بين العقلاء ليس فيها مقدمة واحدة متفق عليها فضلا عن أن تكون ضرورية أو حسية يسلمها الوهم .

ثم يقال لك : إذا جوزت أن يكون في الفطرة حاكمان بديهيان أحدهما حكمه باطل والآخر حكمه حق لم يوثق بشيء من حكم الفطرة حتى يعلم أن ذلك من حكم الحاكم الحق ولا يعرف عن ذلك حتى يعرف أنه ليس من الحكم الباطل ولا يعرف أنه باطل حتى تعرف المقدمات البديهية الفطرية التي بها يعلم أن ذلك الحكم باطل فيلزم من هذا أن لا يعرف شيء بحكم الفطرة فإنه لا يعرف الحق حتى يعرف الباطل ولا يعرف الباطل حتى يعرف الحق فلا يعرف الحق بحال .

وأیضا فالأقيسة القادحة في تلك الأحكام الفطرية البديهية أقيسة نظرية والنظريات مؤلفة من البديهيات فلو جاز القدح في البديهيات بالنظريات لزم فساد البديهيات والنظريات فإن فساد الأصل يستلزم فساد فرعه فتبين أن من سوغ القدح في القضايا البديهية الأولية الفطرية بقضايا نظرية ففوله باطل يستلزم فساد العلوم العقلية بل والسمعية .

وأیضا لفظ الوهم في اللغة العامة يراد به الخطأ وأنت أردت به قوة تدرك ما في الأجسام من المعاني التي ليست محسوسة وحينئذ فالحاكم بهذا الإمتناع إن كان حكم به في غير جسم فليس

هو الوهم وإن كان إنما حكم به في جسم فحكمه صادق فيه فلم قلت إن هذا هو حكم الوهم فيما لا يقبل حكمه فيه ومعلوم أن ما تحكم به الفطرة السليمة من القضايا الكلية المعلومة لها ليس فيها ما يحصل بعضه من حكم الوهم الباطل وبعضه من حكم العقل الصادق وإنما يعلم أن الحكم من حكم الوهم الباطل إذا عرف بطلانه فأما أن يدعى بطلانه بدعوى كونه من حكم الوهم فهذا غير ممكن.¹

الرد على قوله : " الدعوى الثامنة: ندعي أن الله تعالى منزه عن أن يوصف بالاستقرار على العرش، فإن كل متمكن على جسم ومستقر عليه مقدر لا محالة فإنه إما أن يكون أكبر منه أو أصغر أو مساوياً وكل ذلك لا يخلو عن التقدير، وأنه لو جاز أن يماسه جسم من هذه الجهة لجاز أن يماسه من سائر الجهات فيصير محاطاً..."

يظن متوهماً أنه إذا وصفه بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام، كقوله: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ • لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} فيتخيل أنه إذا كان مستوياً على العرش كان محتاجاً إليه كحاجة المستوي على الفلك والأنعام، فلو انخرقت السفينة لسقط المستوي عليها، ولو عثرت الدابة لخر المستوي عليها. فقياس هذا أنه لو عدم العرش لسقط الرب تبارك وتعالى، ثم يريد - بزعمه - أن ينفي هذا فيقول: ليس استواؤه بعود ولا استقرار. وكان هذا الخطأ من خطئه في مفهوم استوائه على العرش، حيث ظن أنه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك.

وليس في اللفظ ما يدل على ذلك، لأنه أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة، كما أضاف إليها سائر أفعاله وصفاته، فذكر أنه خلق ثم استوى، كما ذكر أنه قدر فهدى، وأنه بنى السماء بأيد، وكما ذكر أنه مع موسى وهارون يسمع ويرى، وأمثال ذلك. فلم يذكر استواءً مطلقاً يصلح للمخلوق، ولا عاماً يتناول المخلوق، كما لم يذكر مثل ذلك في سائر صفاته، وإنما ذكر استواءً أضافه إلى نفسه الكريمة.

فلو قُدِّر - على وجه الفرض الممتنع - أنه هو مثل خلقه - تعالى الله عن ذلك - لكان استواؤه مثل استواء خلقه. أما إذا كان هو ليس مماثلاً لخلقه، بل قد علم أنه الغني عن الخلق، وأنه الخالق للعرش ولغيره، وأن كل ما سواه مفتقر إليه، وهو الغني عن كل ما سواه، وهو لم يذكر

¹ - ابن تيمية - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية - ص : 2 / 147 - 152 .

إلا استواءً يخصه، لم يذكر استواءً يتناول غيره ولا يصلح له، كما لم يذكر في علمه وقدرته ورؤيته وسمعه وخلقه إلا ما يختص به - فكيف يجوز أن يُتوهم أنه إذا كان مستويًا على العرش كان محتاجًا إليه، وأنه لو سقط العرش لخرّ من عليه! سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا.

هل هذا إلا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك، أو توهمه، أو ظنه ظاهر اللفظ ومدلوله، أو جوّز ذلك على رب العالمين الغني عن الخلق .

وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عمّن يعتقد الجهة: هل هو مبتدع أو كافر أو لا؟. فأجاب بالتفصيل: أ - من قال بالجهة معتقدًا أن الله في داخل المخلوقات، وتحصره السموات، ويكون بعض المخلوقات فوقه، وبعضها تحته، فهذا مبتدع ضال.

ب - وإن كان يعتقد أن الله يفتقر إلى شيء يحمله - إلى العرش أو غيره -، فهذا مبتدع ضال. ج - وإن جعل صفات الله مثل صفات المخلوقين فيقول: استواء الله كاستواء المخلوق، أو نزوله كنزول المخلوق، ونحو ذلك، فهذا مبتدع ضال. د - وإن كان يعتقد أن الخالق تعالى بائن عن المخلوقات، وأنه فوق سماواته على عرشه، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، فهذا مصيب في اعتقاده موافق لسلف الأمة وأئمتها¹.

الرد على تأويله للإشارة بأنها إشارة القلوب لا الجوارح :

أنه سبحانه لو لم يقبل الإشارة الحسية إليه كما أشار إليه النبي حسًا بإصبعه بمشهد الجمع الأعظم وقبل ممن شهد لها بالإيمان الإشارة الحسية إليه فإما أن يقال إنه يقبل الإشارة المعنوية فقط أولاً يقبلها أيضاً كما لا يقبل الحسية فإن لم يقبل هذه ولا هذه فهو عدم محض بل العدم المقيد المضاف يقبل الإشارة المعنوية وإن قيل يقبل الإشارة المعنوية دون الحسية لزم أن يكون معنى من المعاني لا ذاتاً خارجية وهذا مما لا حيلة في دفعه فمن أنكر جواز الإشارة الحسية إليه فلا بد له من أحد أمرين إما أن يجعله معدوماً أو معنى من المعاني لا ذاتاً قائمة بنفسها.

أما فخر الدين الرازي المعروف بابن خطيب الري، " الإمام المطلق في اصطلاح المقتدين به من أهل الفلسفة والكلام، المقدمّ عندهم على من تقدمه من صنفه في الأنام، القائم عندهم بتجديد الإسلام، حتى قد يجعلونه في زمنه ثاني الصديقين في هذا المقام، لما رده في ظنهم من أقاويل الفلاسفة بالحجج العظام، والمعتزلة ونحوهم، ويقولون: إن «أبا حامد» ونحوه، لم يصلوا

¹ - ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 262/5 - 263.

إلى تحقيق ما بلغه هذا الإمام، فضلاً عن «أبي المعالي» ونحوه، ممن عندهم فيما يعظمونه من العلم والجدل بالوقوف على نهاية الإقدام، وإن «الرازي» أتى في ذلك من " نهاية العقول " و" المطالب العالية "، بما يعجز عنه غيره من ذوي الإقدام، حتى كان فهم ما يقوله عندهم هو غاية المرام، وإن كان فضلاؤهم مع ذلك معترفين بما في كلامه من كثرة التشكيك في الحقائق، وكثرة التناقض في الآراء والطرائق، وأنه موقع لأصحابه في الحيرة والاضطراب، غير موصل إلى تحقيق الحق، الذي تسكن إليه النفوس وتطمئن إليه الأبواب، لكنهم لم يروا أكمل منه في هذا الباب، فكان معهم كالملك مع الحُجَّاب، وكان له من العظمة والمهابة في قلوب الموافقين له والمخالفين ما قد سارت به الركبان، لما له من القدرة على تركيب الاحتجاج والاعتراض في الخطاب¹، فقد ألف أسفارا جمّة أراد أن يرسى فيها وبها أسس المذهب الأشعري الذي يسميه الأشاعرة مذهب أهل السنة والجماعة، ومن نظر فيها وجدها مزيجا مريجا بين أقوال الجهمية نفاة الصفات وأقوال ابن سينا والمتفلسفة الملحدين في قَدَم الذات² وبنقل له نصا من أساس التقديس في نفي الجهة وعلوّ الذات وغيرها من الصفات، قال: " الحمد لله الواجب وجوده وبقاؤه، الممتنع تغييره وفناؤه، العظيم قدره واستعلاؤه، العميم آلاؤه ونعمائه، الدالّ على وحدانيته أرضه وسماؤه، المتعالي عن شوائب التشبيه والتعطيل صفاته وأسمائه، فاستواؤه: قهره واستيلاؤه، ونزوله: برّه وعطاؤه، ومجيئه: حكمه وقضاؤه، ووجهه: [جوده أو جوده وحبائه] وعينه: حفظه وعونه واجتباؤه، وضحكه عفوه أو إذنه وارتضاؤه، ويده: إنعامه أو إكرامه واصطفائه.....³ ثم راح يستدل بأدلة يضيق المقام عن ذكرها يعزوها إلى شيوخ الأشعرية كذبا وافتراء ولكنها لمن اطلع على مقالات القوم أدلة الجهمية والمعتزلة وابن سينا الذي أخذها عن شيخه الفرابي الذي أخذها عن المعلم الأوّل أرسطو طاليس ولم نورد حججه لطولها ولمن أرادها وأراد نقضها فعليه بنقض التأسيس لشيخ الإسلام، وفي ذكر حجج الغزالي قبله والآمدني بعده غنية .

¹ - هذا كلام شيخ الإسلام فيه في مصنفه الذي ردّ عليه فيه: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية. مصدر سابق -

ص: 12.11.10/1. والمسمى أيضا: نقض أساس التقديس وقد طبع بهذا الاسم

² . المطالب العالية من العلم الإلهي - أساس التقديس - الأربعين في أصول الدين - شرح عيون الحكمة لابن سينا - لباب

الإشارات والتبسيهات لابن سينا - نهاية العقول في دراية الأصول - معالم أصول الدين

³ - الرازي - أساس التقديس - ت: أحمد حجازي السقا - مكتبة الكليات الأزهرية - 1406 هـ / 1986 م - ص: 11 .

يقول الآمدي في غاية المرام: "فإن قيل لا محالة إن كل شَيْئَيْنِ قاما بأنفسهما بحيث لا يكون أحدهما محلاً للآخر فإمّا أن يكونا متصلين أو منفصلين وعلى كلا التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا بُدَّ وأن يكون كل واحدٍ منهما بجهة من الآخر والباري والعالم كل واحد قائم بنفسه فإمّا أن يكونا متصلين أو منفصلين وربما أورد عبارة أخرى فقيل: إمّا أن يكون قد خلق العالم في ذاته أو خارجاً عن ذاته لا جائز أن يكون في ذاته وإلا كان محلاً للحوادث وإن كان خارجاً عن ذاته فهو في جهة منه وربما قيل إنّه لو كان في غير جهة لبطل أن يكون داخل العالم وخارجه وإثبات لوجود هذا حاله غير معقول وأيضاً فإننا اتفقنا على أنه ذو صفات قائمة بذاته ومن المعلوم أن الصفات ليس حيثها إلا حيث وجود الذات فإن القائم بغيره لا يكون له حيث إلا حيث ما قام به فإذا حيث الصفات إنما هو حيث الذات وذلك يوجب كون واجب الوجود ذا حيث وجهة

والجواب: أما الانفصال عمّا ذكر أولاً من الإشكال فقد قال بعض المنتسبين إلى التحقيق إن حاصله يرجع إلى المصادرة على المطلوب في الدليل مع تغيير في اللفظ وذلك أن المباينة والمجامعة لا تكون إلا من لوازم المتحيزات ودوات الجهات فإذا قيل إنّه مباين أو مجامع فهو نفس المصادرة على المطلوب وليس هذا عند التحقيق مصادرة لأن المصادرة على المطلوب هو أن يؤخذ المطلوب بعينه ويجعل مقدّمةً قياسيةً بلفظ مرادف مشعر بالمغيرة بين المقدّمة والمطلوب، والمطلوب فيما عرضه إنّما هو كونه في جهة أم لا وليس الجهة هي نفس الاتصال ولا نفس الانفصال بل هي قابلية للاتصال والانفصال، والانفصال والاتصال كل واحد منهما لا يقبل الآخر ولهذا يصح أن نعقل الجهة ثم نعقل بعد ذلك كونها متصلة أو منفصلة وإذا كان الاتصال والانفصال غير الجهة التي هي نفس المطلوب فالمأخوذ في الدليل إنّما هو غير المطلوب لا عينه فإذا كان كذلك فلا معنى للقول بالمصادرة ههنا فالواجب أن يقال: إنّه إن أريد بالاتصال والانفصال قيام أحدهما بذات الآخر وامتتاع القيام فلا محالة أن الباري والعالم كل واحد منهما منفصل عن الآخر بهذا الاعتبار وهو ممّا لا يوجب كون كل واحد منهما في جهة من الآخر مع امتتاع قبولية كل واحد منهما لها أو امتتاع قبولية أحدهما. ومع امتتاع تلك القبولية فلا تلزم الجهة وإن أريد بالاتصال ما يلزمه الاتّحاد في الحيز والجهة وبالانفصال ما يلزمه الاختلاف فيهما ووقوع البعد والامتداد بينهما فذلك إنّما يلزم على الباري تعالى أن لو كان قابلاً للتحيز والجهة وإلا فإن لم يكن قابلاً فلا مانع من خلوه عنهما معاً، فإن راموا إثبات الجهة بالانفصال والاتصال والخصم لا يسلم ذلك إلا فيما هو قابل للجهة أفضى ذلك إلى

الدور ولا محيص عنه وليس لهذا مثال إلا ما لو قال القائل وجود شيء ليس هو عالم ولا جاهل محال فيقال إنما هو محال فيما هو قابل لهما وكذا في كل ما هو قابل لأحد النقيضين فإن خلوه عنهما محال أما وجود ما لا يقبل ولا لوأحد منهما فخلوه عنهما ليس بمحال وذلك كما في الحجر وغيره من الجمادات وبهذا يندفع ما ذكره من الخيال الآخر أيضا.

وعدم التخيل لموجود هو لا داخل العالم ولا خارجه على نحو تخيل الصور الجزئية مع كونه معلوما بالبرهان وواجبا التصديق به غير مُضْرَبٍ لَيْسَ مَا وَجِبَ التَّصْدِيقُ بِهِ بِالْبَرْهَانِ يَكُونُ حَاصِلًا فِي الْخِيَالِ وَإِلَّا لَمَا صَحَّ الْقَوْلُ بِوُجُودِ الصِّفَاتِ الْغَيْرِ الْمَحْسُوسَةِ كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَنَحْوِهِ لِعَدَمِ حُصُولِهَا فِي الْخِيَالِ وَامْتِنَاعِ وَقُوعِهَا فِي الْمَثَالِ وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ حَيْثُ الصِّفَاتِ لَا يَكُونُ إِلَّا حَيْثُ الذَّاتِ فَذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ لَمَّا كَانَ مِنَ الصِّفَاتِ لَهُ حَيْثُ وَجْهَةٌ إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ الصِّفَاتُ فِي جِهَةٍ وَحَيْثُ إِلَّا وَهِيَ فِي جِهَةٍ مَا قَامَتْ بِهِ مِنَ الذَّاتِ وَلَا يَتَصَوَّرُ وَقُوعَ الْجِهَةِ لِلصِّفَاتِ دُونَ الذَّاتِ وَأَمَّا مَا لَا حَيْثُ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ فَلَا جِهَةَ لَهُ وَعِنْدَ ذَلِكَ فَلزومُ الْجِهَةِ وَالْحَيْثُ لذَاتٍ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِالنَّظَرِ إِلَى حَيْثُ صِفَاتِهِ مَعَ امْتِنَاعِ قَبُولِهَا لِلْحَيْثُ مَحَالٌ وَلَعَلَّ الْخِصْمَ قَدْ يَتَمَسَّكَ هَهُنَا بِظَوَاهِرٍ مِنَ الْكُتَابِ وَالسُّنَنِ وَأَقْوَالِ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ وَهِيَ بِأَسْرَافِ ظَنِيَّةٍ وَلَا يَسُوغُ اسْتِعْمَالَهَا فِي الْمَسَائِلِ الْقَطْعِيَّةِ فَلِهَذَا آثَرْنَا الْإِعْرَاضَ عَنْهَا وَلَمْ نَشْغَلِ الزَّمَانَ بِإِيرَادِهَا وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ " ¹

غفر الله زلات العلماء ، وكيف يوفق الله من جعل أدلة الكتاب والسنة وأقوال السلف المستنبطة منهما ظواهر ظنية وسفسطة ² عقولهم قواطع عقلية وكيف يوفق الله قوما نسبوا التوفيق واليقين

¹ - الأمدي أبو الحسن سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي (المتوفى: 631هـ) - غاية المرام في علم الكلام - ت : حسن محمود عبد اللطيف - ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة د ت - ص : [1/199-200] .

² - السفسطة: « تمويه بحجة باطلة بقضية أو قضايا فاسدة تقود إلى الباطل». ينظر الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم الظاهري - ت : الشيخ أحمد محمد شاكر قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس - دار الآفاق الجديدة، بيروت - ص : 37 / 1.

وقال القاضي ابن العربي الإشبيلي المالكي المتوفى [543 هـ] في : النص الكامل لكتاب العواصم من القواصم - ت : الدكتور عمار طالبى - مكتبة دار التراث، مصر - ص : 12 ، نقلا عن شيخه أبي علي الحضرمي : " السفسطة باليونانية يعنون بها خذلاننا ، وتسمى بالعربية هوسا وهذيانا ، محال في محال . وينظر تفصيل معانيها وأقسام قياساتها : ابن رشد الحفيد (المتوفى: 595هـ) - تلخيص السفسطة - ت : محمد سليم سالم - دار الكتب، القاهرة - 1972 .

لعقولهم ونفوه عن كلامه وكلام نبيه بل هذا مدعاة لخذلان عقولهم وعقلها عن فهم الكتاب .
بيان بطلان أدلته :

رد قوله : أما وجود ما لا يقبل ولا لوحدٍ مِنْهُمَا فخلوه عَنْهُمَا لَيْسَ بمحالٍ وَذَلِكَ كَمَا فِي الْحَجَرِ
وغيره من الجمادات وَبِهَذَا يَنْدَفَعُ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْخِيَالِ الْآخِرِ أَيْضًا...
الرد عليه من وجوه:
الوجه الأول :

يقال له: هذا اصطلاح اصطلمتموه، وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام
يمكن وصفه بالموت والصمم والعمى والخرس والعجمة.
الوجه الثاني :

وأيضًا: فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها، فإن الله قادر على جعل الجماد
حيًا، كما جعل عصى موسى حيّة، ابتلعت الحبال والعصي.
الوجه الثالث :

وأيضًا: فالذي لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصًا ممن يقبل الاتصاف بها مع اتصافه
بنقائضها، فالجماد الذي لا يوصف بالبصر ولا العمى، ولا الكلام ولا الخرس، أعظم نقصًا من
الحي الأعمى الأخرس.

فإذا قيل: إن الباري عز وجل لا يمكن اتصافه بذلك، كان في ذلك من وصفه بالنقص أعظم
مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم ونحو ذلك، مع أنه إذا جُعل غير قابلٍ لهما كان تشبيهًا
له بالجماد الذي لا يقبل الاتصاف بواحد منهما، وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات، فكيف
ينكر من قال ذلك على غيره ما يزعم أنه تشبيه بالحي!

الوجه الرابع :

وأيضًا فنفس نفي هذه الصفات نقص، كما أن إثباتها كمال، فالحياة من حيث هي، هي - مع
قطع النظر عن تعيين الموصوف بها - صفة كمال. وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر
والكلام والفعل ونحو ذلك. وما كان صفة كمال فهو - سبحانه وتعالى - أحق بأن يتصف به
من المخلوقات، فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به لكان المخلوق أكمل منه.

واعلم أن الجهمية المحضة كالقرامطة ومن ضاهاهم ينفون عنه تعالى اتصافه بالنقيضين حتى يقولوا: ليس بموجود ولا ليس بموجود، ولا حي ولا ليس بحي.

ومعلوم أن الخلو عن النقيضين ممتنع في بدائه العقول، كالجمع بين النقيضين.

وآخرون وصفوه بالنفي فقط، فقالوا: ليس بحي ولا سميع ولا بصير.

فإذا قيل لهؤلاء: هذا يستلزم وصفه بنقيض ذلك كالموت والصمم والبكم.

قالوا إنما يلزم ذلك لو كان قابلاً لذلك.

وهذا الاعتذار يزيد قولهم فساداً.

وكذلك من ضاهى هؤلاء، وهم الذين يقولون: ليس بداخل العالم ولا خارجه - إذا قيل لهم: هذا

ممتنع في ضرورة العقل، كما إذا قيل: ليس بقديم ولا محدث، ولا واجب ولا ممكن، ولا قائم

بنفسه ولا قائم بغيره.

قالوا: هذا إنما يكون إذا كان قابلاً لذلك، والقبول إنما يكون من المتحيز، فإذا انتفى التحيز

انتفى قبول هذين النقيضين.

فيقال لهم: علم الخلق بامتناع الخلو من هذين النقيضين هو علم مطلق، لا يستثنى منه

موجود. والتحيز المذكور إن أريد به كون الأحياز الموجودة تحيط به، فهذا هو الداخل في

العالم، وإن أريد به أنه منحا عن المخلوقات، أي: مباين لها، متميز عنها، فهذا هو الخروج.

فالتحيز يراد به تارة ما هو داخل العالم، وتارة ما هو خارج لعالم، فإذا قيل: ليس بمتحيز، كان

معناه ليس بداخل العالم ولا خارجه.

فهم غيروا العبارة ليوهموا من لا يفهم حقيقة قولهم أن هذا معنى آخر، وهو المعنى الذي علم

فساده بضرورة العقل. كما فعل أولئك في قولهم: ليس بحي ولا ميت، ولا موجود ولا معدوم، ولا

عالم ولا جاهل.¹

ويرد عليه من أوجه أخرى قاصمة وهذا الأول يحز الغلاصم، يقال له: المحل الذي لا يقبل

الاتصاف بالحياة والعلم والقدرة والكلام ونحوها، أنقص من المحل الذي يقبل ذلك ويخلو عنها،

ولهذا كان الحجر ونحوه أنقص من الحي الأعمى.

وحينئذ إذا كان البارئ منزها عن نفي هذه الصفات - مع قبوله لها - فتنزيهه عن امتناع قبوله

لها أولى وأحرى، إذ بتقدير قبوله لها يمتنع منع المتقابلين، واتصافه بالنقائص ممتنع، فيجب

¹ - ينظر: ابن تيمية - التدمرية - مصدر سابق - ص: 63/62/61 .

اتصافه بصفات الكمال، وبتقدير عدم قبوله لا يمكن اتصافه لا بصفات الكمال ولا بصفات النقص، وهذا أشد امتناعا، فثبت أن اتصافه بذلك ممكن، وأنه واجب له، وهو المطلوب، وهذا في غاية الحسن.

الوجه الثاني - أن يقال: أنتم جعلتم تقابل العدم والملكة فيما يمكن اتصافه بثبوت، فإن عنيتم بالإمكان الإمكان الخارجي، وهو أن يعلم ثبوت ذلك في الخارج، كان هذا باطلا من وجهين: أحدهما - أنه يلزمكم أن تكون الجامدات لا توصف بأنها لا حيّة ولا ميتة، ولا ناطقة ولا صامتة، وهو قولكم، لكن هذا اصطلاح محض، وإلا [فالعرب] يصفون هذه الجمادات بالموت والصمت.

وقد جاء القرآن بذلك، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ • أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل : 20]، فهذا في الأصنام وهي من الجمادات، وقد وصفت بالموت.

والعرب تقسم الأرض إلى الحيوان والموتان، قال أهل اللغة: الموتان، بالتحريك: خلاف الحيوان، يقال: اشترى الموتان ولا تشترى الحيوان، أي: اشترى الأرضين والدور، ولا تشترى الرقيق والدواب. وقالوا أيضا: الموتان: ما لا روح فيه.

فإن قيل: فهذا إنما سمي مواتا باعتبار قبوله للحياة، التي هي إحياء الأرض.

قيل: وهذا يقتضي أن الحياة أعم من حياة الحيوان، وأن الجماد يوصف بالحياة إذا كان قابلا للزرع والعمارة.

والخرس ضد النطق، والعرب تقول: لبن أخرس، أي خاثر لا صوت له في الإناء، وسحابة خرساء، ليس فيها رعد ولا برق، وعلم أخرس، إذا لم يُسمع له في الجبل صوت صدى، ويقال: كتيبة خرساء، قال أبو عبيد: هي التي صممت من كثرة الدروع ليس لها قعاقع.

وأبلغ من ذلك الصمت والسكوت، فإنه يوصف به القادر على النطق إذا تركه، بخلاف الخرس، فإنه عجز عن النطق، ومع هذا فالعرب تقول: ما له صامت ولا ناطق، فالصامت الذهب والفضة، والناطق الإبل والغنم، والصامت من اللين: الخاثر، والصموت: الدرع التي إذا صُبَّت لم يسمع لها صوت.

ويقولون: دابة عجماء، وخرساء، لما لا ينطق ولا يمكن منه النطق في العادة، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (العجماء جبار)¹.

وكذلك في العمى، تقول العرب: عمى الموجُ يَعْمِي عَمِيًّا إذا رمى القذى والزبد، والأعميان: السيل والجمل الهائج، وعمى عليه الأمر إذا التبس، ومنه قوله تعالى: {فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ}.
وهذه الأمثلة قد يقال في بعضها: إنه عدم ما يقبل المحل الاتصاف به كالصوت، ولكن فيها ما لا يقبل كموت الأصنام.

الثاني - أن الجامدات يمكن اتصافها بذلك، فإن الله سبحانه قادر أن يخلق في الجمادات حياة، كما جعل عصى موسى حيةً تبلع الحبال والعصي.
وإذا كان في إمكان العادات كان ذلك مما قد علم بالتواتر، وأنتم أيضا قائلون به في مواضع كثيرة.

وإذا كان الجمادات يمكن اتصافها بالحياة وتوابع الحياة ثبت أن جميع الموجودات يمكن اتصافها بذلك، فيكون الخالق أولى بهذا الإمكان.
وإن عنيتم الإمكان الذهني، وهو عدم العلم بالامتناع فهذا حاصل في حق الله، فإنه لا يعلم امتناع اتصافه بالسمع والبصر والكلام.

الوجه الثالث - أن يقال: هب أنه لا بد من العلم بالإمكان الخارجي، فإمكان الوصف للشيء يُعلم تارة بوجوده له، أو بوجوده لنظيره، أو بوجوده لما هو الشيء أولى بذلك منه.
ومعلوم أن الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ثابتة للموجودات المخلوقة، وممكنة لها، فإمكانها للخالق تعالى أولى وأحرى، فإنها صفات كمال، وهو قابل للاتصاف بالصفات، وإذا كانت ممكنة في حقه فلو لم يتصف بها لاتصف بأضدادها.

الوجه الرابع - أن يقال: مجرد سلب هذه الصفات نقص لذاته، سواء سميت عمى وصمما وبكما، أو لم تسم، والعلم بذلك ضروري، فإننا إذا قدرنا موجودين، أحدهما يسمع ويبصر ويتكلم، والآخر ليس كذلك - كان الأول أكمل من الثاني.

¹ - صحيح البخاري برقم 1499 - والحديث بتمامه : عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ، وَالْبَيْتُ جُبَارٌ، وَالْمَعْدِنُ جُبَارٌ، وَفِي الرَّكَازِ الْخُمْسُ»

ولهذا عاب الله سبحانه من عبد ما تنتقي فيه هذه الصفات، فقال تعالى عن إبراهيم الخليل: رَبِّا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم : 42]، وقال أيضا في قصته: {فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} [الأنبياء : 63]، وقال تعالى عنه: {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ • قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ • قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ • فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء : 72 - 77] .

وكذلك في قصة موسى في العجل: {الْمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ} [الأعراف : 148] ، وقال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل : 76] فقابل بين الأبكم العاجز وبين الأمر بالعدل الذي هو على صراط مستقيم.¹

رد قوله : وَعَدَمَ التَّخِيلِ لِمَوْجُودٍ هُوَ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ عَلَى نَحْوِ تَخِيلِ الصُّورِ الْجَزْئِيَّةِ مَعَ كَوْنِهِ مَعْلُومًا بِالْبَرْهَانِ وَوَجِبَا التَّصْدِيقِ بِهِ غَيْرِ مُضِرٍّ ...

1 - أن يقال هل للرب تعالى ماهية متميزة على سائر الماهيات يختص بها لذاته أم تقولون لا ماهية له فإن قلتم بالثاني كان هذا إنكارا له سبحانه وجودا وجعله وجودا مطلقا لا ماهية له وإن قلتم بل له ذات مخصوصة وماهية متميزة عن سائر الماهيات قيل لكم ماهيته وذاته سبحانه غير متناهية بل ذاهبه في الأبعاد إلى غير نهاية أم متناهية فإن قلتم بالأول لزم منه محالات غير واحدة وإن قلتم بالثاني بطل قولكم ولزم إثبات المباينة والجهة وهذا لا محيد عنه وإن قلتم لا نقول له ماهية ولا ليست له ماهية قيل لا يليق بالعقول المخالفة لما جاءت به الرسل إلا هذا المحال والباطل وإن قلتم بل له ذات مخصوصة وماهية متميزة عن سائر الماهيات ولا نقول إنها متناهية ولا غير متناهية لأنها لا تقبل واحدا من الأمرين قلنا التناهي وعدم التناهي يتقابلان تقابل السلب والإيجاب فلا واسطة بينهما كما لا واسطة بين الوجود والعدم والقدم والحدوث والسبق والمقارنة والقيام بالنفس والقيام بالغير وتقدير قسم آخر لا يقبل واحدا من الأمرين تقدير ذهني يفرضه الذهن كما يفرض سائر المحالات ولا يدل ذلك على وجوده في الخارج ولا إمكانه ألا ترى أن قائلا لو قال التقسيم يقتضي المعلوم إما قديم وإما حادث وإما قديم حادث وإما لا قديم ولا حادث وكذلك إما أن يكون متناهيًا أو غير متناه أو

¹ - ينظر: ابن تيمية - التتمرية - مصدر سابق - ص : (159 - 164) .

متناهيا ولا غير متناه أو قائما بنفسه أو بغيره أو بنفسه وبغيره أولا بنفسه ولا بغيره أو داخلا في العالم أو خارجا عنه أو داخلا خارجا أو لا داخلا ولا خارجا كان ذلك كله بمنزلة واحدة وكان التقسم تقسيما ذهنيا لا خارجيا وإن سلب النقيضين في ذلك كله في الإحالة كإثبات النقيضين.¹

2 - ونقول أيضا : وأي برهان يدل على أن هناك موجود لا مكان لوجوده لا داخل العالم ولا خارجه ، لو كان العدم يوصف بلفظ " موجود " لصح برهانك ولكان معناه : " العدم موجود لا داخل العالم ولا خارجه " فالمعدوم ليس بشيء أصلا وإنما سمي شيئا باعتبار ثبوته في العلم ، فإن خص الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العيني وبين الوجود الذي هو الثبوت العلمي زالت الشبهة في هذا الباب فوجود كل شيء في الخارج عين ماهيته ، كما هو قول نظار أهل السنة الذين يقولون : إن المعدوم ليس بشيء في الخارج أصلا ، ويقولون : إنه ليس في الخارج للموجودات ماهيات غير ما هو الموجود في الخارج ، فلا جرم أن لازم كلام الآمدي هنا القول بقول الفلاسفة الملا حدة بأن الله - سبحانه عما يقولون - هو : " الوجود المطلق بشرط الإطلاق " وهذا أحسن تعريف للعدم الذي يوجد ويثبت في الأذهان ولا يوجد في الخارج والله يرى في الجنة وهل يرى العدم أبدا

ودليل هذا موجود في قول الرازي في معالم أصول الدين ، قال في :

المسألة الرابعة المعدوم ليس بشيء :

" والمراد منه أن لا يمكن تقرر الماهيات منفكة عن صفة الوجود والدليل عليه أن الماهيات لو كانت متقررة في نفسها لكانت متشاركة في كونها متقررة خارج الذهن ومتخالفة بخصوصياتها وما به المشاركة غير ما به المخالفة فكأن كونها متقررة خارج الذهن أمرا مشتركا فيه زائدا على خصوصياتها ولا معنى للوجود إلا ذلك

فيلزم أن يقال إنها حال عرائها عن الوجود كانت موصوفة بالوجود وهذا محال وأيضا فإننا ندرك التفرقة بين قولنا السواد سواد وبين قولنا إن السواد متقرر في الخارج وهذا يدل على أن كونه متقررا في الخارج صفة زائدة على الماهية² واحتجوا بأن المعدوم متميز وكل متميز ثابت فالمعدوم ثابت بيان الأول من وجوه :

¹ - ينظر : ابن قيم الجوزية - الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة - ص : 1323/4 .

² - لعله يعتبر الماهية هي الوجود العلمي الذهني فيكون حينها الوجود العيني في الخارج صفة زائدة عليها

الأول أنا نميز بين طُلُوع الشَّمْسِ غَدَا من مشرقها وَبَيْن طُلُوعِهَا غَدَا من مغربها وَهَذَانِ الطُّلُوعَانِ معدومان فقد حصل الامتياز بين المعدومات .

وَالثَّانِي أَنَا نَقْدِرُ عَلَى الْحَرَكَةِ يَمَنَةً وَبَسْرَةً وَلَا نَقْدِرُ عَلَى الطَّيْرَانِ إِلَى السَّمَاءِ فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ مَعْدُومَةٌ مَعَ أَنَّهَا مَتَمِيزَةٌ .

وَالثَّلَاثُ أَنَا نَحْبُ حُصُولَ اللَّذَاتِ وَنَكْرَهُ حُصُولَ الْأَلَامِ فَقَدْ وَقَعَ حُصُولُ الْإِمْتِيَازِ فِي هَذِهِ الْمَعْدُومَاتِ .

وَبَيَانَ أَنَّ كُلَّ مَتَمِيزٍ ثَابِتٌ فَهُوَ أَنَّ الْمَتَمِيزَ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِصِفَةٍ لِأَجْلِهَا إِمْتِيَازٌ عَنِ الْآخَرِ وَمَا لَمْ تَكُنْ حَقِيقَتُهُ مَتَقَرَّرَةً أَمْتَنَعَ كَوْنَهَا مَوْصُوفَةً بِالصِّفَةِ الْمُوجِبَةِ لِلإِمْتِيَازِ

وَالْجَوَابُ أَنَّ مَا ذَكَرْتُمْ مَنقُوضٌ بِتَصَوُّرِ الْمَتَمِيزَاتِ وَبِتَصَوُّرِ الْمَرْكَبَاتِ كَجِبِلٍ مِنْ يَأْقُوتٍ وَبِحَرِّ مِنْ زَيْبِقٍ وَبِتَصَوُّرِ الْإِضَافِيَّاتِ كَكُونِ الشَّيْءِ حَاصِلًا فِي الْحَيْزِ وَحَالًا وَمَحَلًّا فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مَتَمِيزَةٌ فِي الْعِلْمِ مَعَ أَنَّهَا نَفِيٌّ مَحْضٌ بِالِاتِّفَاقِ " ¹

رَدَّهُ نَفْسَهُ عَلَى نَفْسِهِ :

إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ أَنَّهُ وَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرَّوْا مِنَ الْقَوْلِ بَعَلُو اللَّهَ فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ وَاسْتَوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ خَشِيَّةٌ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ قَدْ اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ لَا يُمْكِنُهُمْ إِثْبَاتُ الصَّانِعِ إِلَّا بِنَوْعٍ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمَثِيلِ ، فَهَذِهِ حِكَايَةُ لَفْظِ الْأَمْدِيِّ فِي مَسْأَلَةِ حَدُوثِ الْأَجْسَامِ لَمَّا ذَكَرَ حُجَّةَ الْقَائِلِينَ بِالْقَدَمِ .

قَالَ : " الْوَجْهَ الْعَاشِرُ : لَوْ كَانَ الْعَالَمُ مَحْدَثًا فَمَحْدَثُهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَسَاوِيًا لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ أَوْ مَخَالَفًا لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ أَوْ مِمَّاثِلًا لَهُ مِنْ وَجْهِ وَمَخَالَفًا لَهُ مِنْ وَجْهِ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فَهُوَ حَادِثٌ وَالْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي الْأَوَّلِ وَيَلْزَمُ التَّسْلُسُ الْمَمْتَنِعُ وَإِنْ كَانَ الثَّانِي فَالْمَحْدَثُ لَهُ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَإِلَّا لَمَّا كَانَ مَخَالَفًا لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَهُوَ خِلَافُ الْفَرَضِ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا أَمْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ مَوْجِدًا لِلْمَوْجُودِ وَإِنْ كَانَ الثَّلَاثُ فَمِنْ جِهَةٍ مَا هُوَ مِمَّاثِلٌ لِلْحَادِثِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَادِثًا وَالْكَلَامُ فِيهِ كَالأَوَّلِ وَهُوَ تَسْلُسٌ مَحَالٌ وَهَذِهِ الْمَحَالَاتُ إِنَّمَا نَشَأَتْ مِنَ الْقَوْلِ بِكَوْنِهِ مَحْدَثًا لِلْعَالَمِ قَالَ وَالْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الشَّبِيهِ أَنَّ الْمَخْتَارَ مِنْ أَقْسَامِهَا إِنَّمَا هُوَ الْقِسْمُ الْآخِرُ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْقَدِيمِ مِمَّاثِلًا لِلْحَوَادِثِ مِنْ وَجْهِ أَنْ يَكُونَ مِمَّاثِلًا لِلْحَادِثِ مِنْ جِهَةٍ كَوْنَهُ حَادِثًا بَلْ لَا مَانِعَ مِنَ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا فِي صِفَةِ الْقَدَمِ وَالْحَدُوثِ وَإِنَّمَا تَمَّاثِلًا بِأَمْرٍ آخَرَ ، وَهَذَا كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ يَخْتَلِفَانِ مِنْ وَجْهِ دُونَ وَجْهِ لِاسْتِحَالَةِ إِخْتِلَافِهِمَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَإِلَّا لَمَّا اشْتَرَكَا فِي الْعَرَضِيَّةِ

¹ - فخر الدين الرازي - معالم أصول الدين - ت : طه عبد الرؤوف سعد - دار الكتاب العربي - لبنان - د ت - ص : 30 .

واللونية والحدوث ، واستحالة تماثلها من كل وجه وإلا كان السواد بياضا ومع ذلك فما لزم من مماثلة السواد للبياض من وجه أن يكون مماثلا له في صفة البياضية .¹

فيقال يا الله العجب هلا طردتم هذا الجواب وسلكتم هذا الطريق في إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه وإثبات صفات كماله كلها وإثبات الصفات الخيرية كلها وأجبتكم بهذا الجواب لمن قال لكم من المعطلة النفاة لو كان له صفات لزم مماثلته للمخلوقات وهلا تقنعون من أهل السنة المثبتين لصفات كماله ونعوت جلاله وعلوه على مخلوقاته واستوائه على عرشه بمثل هذا الجواب الذي أجبتكم به من أنكر حدوث العالم بل إذا أجابوكم به قلبتم لهم ظهر المجن وصرحتم بتكفيرهم وتبديعهم وإذا أجبتكم أنتم به بعينه كنتم موحدين ناصرين لله ورسوله .
لم يثبت قط في القرآن تفسير الاستواء بالاستيلاء أو القهر ولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا بلغنا عن الصحابة ذلك ، أما الجهة فلم تذكر بنفي أو إثبات بلفظها عينه لكن ثبت في هذه الثلاثة ما يستلزم إثباتها من غير تشبيهه ، ولا شك أن العقل الصريح يوافق النقل الصحيح في إثباتها دون تشبيهه بالجهات إذا ما أضيفت إلى الخلق

بيان علو ذاته من القرآن :

الأصل أن نقدم أدلة الكتاب والسنة في بيان علو ذاته ، ولكن رددنا على كل واحد منهم بعد إيراد كلامه بالأدلة العقلية وهنا قطع دابر الشبهة فنقول : كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه فوق كل شيء، وعليّ على كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء، مثل قوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر:10] ، {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران:55] {أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} • أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [الملك:16-17] ، {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء:158] ، {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج:4] ، {يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} [السجدة:5] ، {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ} [النحل:50] ، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس:3] ، في ستة مواضع، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] ، {يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} • أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ

¹ - ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل - ص : 167/4 . ابن قيم الجوزية - الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة - ص : 1322/4 .

فَأُطِّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غافر:37.36] ، {تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:42]
{مُنزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ} [الأنعام:114] . إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفة.

من السنة :

نجد الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخُصَّهُ بِقُرْبِهِ عَرَجَ بِهِ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى كَانَتْ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .

ثُمَّ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِلْجَارِيَةِ أَيْنَ اللهُ فَقَالَتْ فِي السَّمَاءِ¹ فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهَا بِحَضْرَةِ أَصْحَابِهِ كِي لَا يَتَوَهَّمُوا أَنَّ الْأَمْرَ خِلافَ مَا هُوَ عَلَيْهِ بَلْ أَقْرَاهَا وَقَالَ اعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السَّلْمِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أَعْتَقَهَا قَالَ ادْعُهَا فَدَعَوْنَاهَا فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ قَالَ مَنْ أَنَا قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ قَالَ اعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ بَأْسًا أَوْ اشْتَكَى أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقْدَسَ اسْمُكَ أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحِمْتَكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اغْفِرْ لَنَا حُوبِنَا وَخَطَايَانَا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحِمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجْعِ فَيَبْرَأَ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْتِيهِ عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا زَوْجَهَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنْ اللهُ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَفِي حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ اللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ وَسَمَاوَاتِهِ فَوْقَ أَرْضِهِ مِثْلَ الْقَبَّةِ وَأَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبِيَدِهِ مِثْلَ الْقَبَّةِ .

والأحاديث في هذا مستفيضة .

¹ - فيه ردّ على الغزالي أنها كانت خرساء ، لا جرم ليس له سلف في هذا الافتراء

من آثار الصحابة :

وأما الآثار عن الصحابة في ذلك فكثيرة منها قول عمر رضي الله عنه عن حوالة لما استوقفته فوقف لها فسئل عنها فقال هذه امرأة سمع الله شكوها من فوق سبع سموات وعبد الله بن رواحة لما وقع على جارية له فقالت امرأته فعلتها فقال أما أنا فأقرأ القرآن فقالت أما أنت فلا تقرأ القرآن وأنت جنب فقال:

شهدت بأن وعد الله حق
وان العرش فوق الماء طاف
وتحملة ملائكة كرام
وأن النار مثوى الكافرينا
وفوق العرش رب العالمينا
وملائكة الإله مسومينا

وإبن عباس لما دخل على عائشة رضي الله عنها وهي في النزع فقال كنت أحب نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن يحب إلا طيبا وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات وكذلك نجد أكابر العلماء كعبد الله بن المبارك رضي الله عنه صرح بمثل ذلك روى عثمان بن سعيد الدارمي قال حدثنا الحسن بن الصباح قال ثنا علي بن الحسن بن شقيق عن ابن المبارك قيل له كيف نعرف ربنا قال بأنه فوق السماء على العرش بآئن من خلقه

حجة نقض الغزل :

رجوع شيوخ الأشعرية متقدميهم ومتأخريهم عن أقوالهم وفيه رد لما ذكروه من نفيهم وتأويلهم الفاسد :

لقد تراجع أكابر الأشاعرة عن نفيهم لصفات الأفعال والنزول والمجيء فأولهم رجوعا الإمام أبو الحسن كما في آخر كتبه الإبانة - الذي تأبى أشاعرة اليوم - عنادا - نسبه إليه - وكان قد نسبه إليه من هو أعلم منهم بالتاريخ والتراجم والطبقات صاحب السفر العظيم " تاريخ دمشق " ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله [المتوفى : 571 هـ] في كتابه " تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الأشعري " ونقل منه فصولا .

وكذا الجويني أبو المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه، الجويني، الفقيه الشافعي الملقب ضياء الدين، المعروف بإمام الحرمين؛ أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول.

" قال القرطبي في (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم) ما لفظه: ((وقد رجع كثير من أئمة المتكلمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة وأمداد بعيدة، فمنهم: إمام المتكلمين أبو المعالي، فقد حكى عنه الثقات أنه قال: (لقد خليت أهل الإسلام وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك رغبة في طلب الحق وهرباً من التقليد، والآن قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، وأختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، والويل لابن الجويني!).

وكان يقول لأصحابه: (يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلتم به).¹

ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرِ الْمُقَدِّسِيِّ مُحَدِّثُ الصُّوفِيَّةِ فِي كِتَابِهِ عَنِ أَبِي جَعْفَرِ الْهَمْدَانِيِّ الصُّوفِيِّ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ أَبِي الْمَعَالِيِّ الْجُوَيْنِيِّ وَهُوَ يَقُولُ: كَانَ اللَّهُ وَلَا عَرْشَ وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ. . . وَكَلَامًا مِنْ هَذَا الْمَعْنَى. فَقَالَ: يَا شَيْخُ دَعْنَا مِنْ ذِكْرِ الْعَرْشِ وَأَخْبِرْنَا عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا؛ فَإِنَّهُ مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ يَا اللَّهُ إِلَّا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً تَطْلُبُ الْعُلُوَّ وَلَا يَلْتَفِتُ يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً فَكَيْفَ نُدْفَعُ هَذِهِ الضَّرُورَةَ عَنْ قُلُوبِنَا؟ قَالَ: فَصَرَخَ أَبُو الْمَعَالِيِّ وَلَطَمَ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ: حَيْرَنِي الْهَمْدَانِيُّ حَيْرَنِي الْهَمْدَانِيُّ.²

أما الغزالي فقد ذكر شيخ الإسلام أنه قال: "أكثر الناس شكاً عند الموت أصحاب الكلام"³ وفي آخر عمره استقر أمره على الوقف والحيرة، بعد أن نظر فيما كان عنده من طرق النظر: أهل الكلام والفلسفة، وسلك ما تبين له من طرق العبادة والرياضة والزهد، وفي آخر عمره اشتغل بالحديث: بالبخاري ومسلم.

وقد نقل عنه الألويسي في تفسيره قال: قال الإمام حجة الإسلام في فيصل التفرقة: من أشد الناس غلوا وانحرافاً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام

¹ - ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (المتوفى: 840هـ) - الروض الباسم في الدب عن سنة أبي القاسم - صلى الله عليه وسلم - (وعليه حواشٍ لجماعة من العلماء منهم الأمير الصنعاني) - تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد - اعتنى به: علي بن محمد العمران - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - د ت - ص : 348/2 .

² - ابن قيم الجوزية - اجتماع الجيوش الإسلامية - ت : عواد عبد الله المعتق - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض - الطبعة: الأولى، 1408هـ / 1988م - ص: 275/2 . وينظر: ابن تيمية - بيان تلبيس الجهمية - 52/1

³ - ابن تيمية - الفتوى الحموية الكبرى - مصدر سابق - ص : 195

معرفتنا ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التي حررناها فهو كافر فهؤلاء ضيقوا رحمة الله تعالى الواسعة على عباده أولاً، وجعلوا الجنة وقفا على شذمة يسيرة من المتكلمين، ثم جهلوا ما تواترت به السنة ثانياً إذ ظهر من عصر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بتعليم الدلائل ولو اشتغلوا بها لم يفهموها، ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد، لا بل الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلب عبده عطية وهداية من عنده، تارة بتتبه في الباطل لا يمكن التعبير عنه، وتارة بسبب رؤيا في المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند صحبتته ومجالسته، وتارة بقرينة حال، فقد جاء أعرابي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاحداً له منكراً فلما وقع بصره على طلعتة البهية وغرته الغريرة السنية فرآها يتلألاً منها نور النبوة قال: والله ما هذا وجه كذاب، وسأله أن يعرض عليه الإسلام فأسلم، وجاء آخر فقال: أنشدك الله بعثك الله نبياً؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بلى إني والله بعثت نبياً فصدقه بيمينه وأسلم، فهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى ولم يشتغل واحد منهم قط بالكلام وتعلم الأدلة بل كانت تبدو أنوار الإيمان أولاً بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا تزال تزداد وضوحاً وإشراقاً بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفية القلوب، وليت شعري من نقل عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن الصحابة إحضاره أعرابياً أسلم وقوله الدليل على أن العالم حادث لأنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وإن الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة كلاهما زائد على الذات لا هو ولا غيره إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين، ولست أقول: لم تجر هذه الألفاظ بل لم يجر أيضاً ما معناه معنى هذه الألفاظ بل كان لا تتكشف ملحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يسلمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الأسارى يسلمون واحداً واحداً بعد طول الزمان أو على القرب وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم أو غيرها. نعم لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان في حق بعض الناس ولكن ذلك ليس بمقصود عليه وهو نادر أيضاً، وساق الكلام إلى أن قال: والحق الصريح أن كل من اعتقد أن ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واشتمل عليه القرآن حق اعتقاداً جازماً فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته، فالإيمان المستعار من الدلائل

الكلامية ضعيف جدا مشرف على التزلزل بكل شبهة بل الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها اهـ.¹ ليت هذا قاله في توبته في آخر حياته وإلا فهو يضرب حقا بباطل وينقض غزله من بعد قوة أنكاثا وهو الغزالي رحمه الله .

وَكَذَلِكَ الشَّهْرَسْتَانِيُّ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَحْبَرِ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْمَقَالَاتِ وَالِاخْتِلَافِ، وَصَنَّفَ فِيهَا كِتَابَهُ الْمَعْرُوفَ بِنَهَايَةِ الْإِقْدَامِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ، وَقَالَ : " قَدْ أَشَارَ عَلَيَّ مِنْ إِشَارَتِهِ عُنْمٌ، وَطَاعَتُهُ حَنَمٌ، أَنْ أذْكَرَ لَهُ مِنْ مُشْكَلاتِ الْأُصُولِ مَا أَشْكَلَ عَلَيَّ ذَوِي الْعُقُولِ ، وَلَعَلَّهُ اسْتَسَمَّنَ ذَا وَرَمٍ، وَنَفَخَ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ، لَعَمْرِي:

لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ فَلَمْ أَرِ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَيَّ ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سَنَّ نَادِمٍ .

فَأخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا حَائِرًا شَاكًا وَمُرْتَابًا، أَوْ مَنْ اعْتَقَدَ ثُمَّ نَدِمَ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ خَطْوُهُ. فَالْأَوَّلُ فِي الْجَهْلِ الْبَسِيطِ: كَطَلَّمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ بِرَأْيِهَا، وَهَذَا دَخَلَ فِي الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ جَهْلٌ فَنَدِمَ، وَلِهَذَا تَجَدُّهُ فِي الْمَسَائِلِ يَذْكَرُ أَقْوَالَ الْفِرَقِ وَحُجَجِهِمْ ، وَلَا يَكَادُ يُرَجِّحُ شَيْئًا لِلْحَيْرَةِ.

وَكَذَلِكَ الْأَمْدِيُّ، الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْوُفْقُ وَالْحَيْرَةُ.

وَأَمَّا الرَّازِيُّ فَهُوَ يَشْهَدُ بِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ فِي تَوْبَتِهِ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ " أقسام اللذات " علي تهافت براهين المتكلمين قال : " هذه الأشياء المسماة براهين لو كانت في أنفسها براهين لكان كل من سمعها ووقف عليها ، وجب أن يقَرَّ بها و ألا ينكرها أصلا وحيث نرى أن الذي يسميه أحد الخصمين برهانا فإن الخصم الثاني يسمعه ويعرفه ولا يفيد له ظنا ضعيفا علمنا أن هذه الأشياء ليست في أنفسها براهين بل هي مقدمات ضعيفة انضافت العصبية والمحبة إليها ، فيجعل بعضهم كونه برهانا ، مع أن الأمر فينفسه ليس كذلك " ² وقوله هذا عن نفسه يؤكد ما ذكره شيخ الإسلام عنه ، قال : " تجده في الكتاب الواحد، بل في الموضع الواحد منه، ينصُرُ قَوْلًا، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْهُ أَوْ مِنْ كِتَابٍ آخَرَ يَنْصُرُ نَقِيضَهُ. وَلِهَذَا اسْتَقَرَّ أَمْرُهُ عَلَى الْحَيْرَةِ

¹ - الألويسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ) - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع

المتاني - ت: علي عبد الباري عطية - دار الكتب العلمية - بيروت - ط : 1 / 1415 هـ - ص: 219/13 .

² - - THE TELEOLOGICQL ETHICS OF FAKHER AL-DIN AL-RAZI by :Ayman shihadeh \ - BRILL : LEIDEN - BOSTON \ 2006 - PAGE : 253

وَالشَّكِّ. وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ أَكْمَلَ الْعُلُومِ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، ذَكَرَ أَنَّ عَلَى كُلِّ مِنْهَا إِشْكَالًا¹. وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ كَلَامَهُ، وَبَيَّنَّ مَا أُشْكَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى هَؤُلَاءِ فِي أَحَدِ عَشْرٍ مَجْلَدًا فِي مَوْفِهِ " درء تعارض العقل والنقل و بيان تلبیس الجهمیة فی تأسیس بدعهم الکلامیة وغیرهما ، ثم قال : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْحَقِّ، وَخَلَقَ عِبَادَهُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَمَنْ كَمَلَ فِطْرَتَهُ بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَجَدَ الْهُدَى وَالْيَقِينَ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَنَاقُضْ. لَكِنَّ هَؤُلَاءِ أَفْسَدُوا فِطْرَتَهُمُ الْعَقْلِيَّةَ وَشَرَعَتَهُمُ السَّمْعِيَّةَ، بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالْإِخْتِلَافِ، الَّذِي لَمْ يَهْتَدُوا مَعَهُ إِلَى الْحَقِّ،

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ قَالَ: وَمَنْ الَّذِي وَصَلَ إِلَى هَذَا الْبَابِ وَمَنْ الَّذِي ذَاقَ هَذَا الشَّرَابَ.

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا ... وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ ... فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا
وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرْفَاتِهَا ... رِجَالٌ، فَرَأَلُوا وَالْجِبَالَ جِبَالُ
ثم يقول: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً،
ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]
{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [الشورى: 11] ، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: 110] ، ومن جرب
مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي"².

وهو صادق فيما أخبر به أنه لم يستفد من بحثه في الطرق الكلامية والفلسفية سوى أن جمع
قيل وقالوا وأنه لم يجد فيها ما يشفي عليلاً ولا يروي غليلاً فإن من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها
مسألة واحدة من مسائل أصول الدين موافقة للحق الذي يدل عليه المنقول والمعقول بل يذكر
في المسألة عدة أقوال والقول الحق لا يعرفه فلا يذكره وهكذا غيره من أهل الكلام والفلسفة ليس
هذا من خصائصه فإن الحق واحد ولا يخرج عما جاءت به الرسل وهو الموافق لصريح العقل

¹ - ابن تيمية - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية - مصدر سابق - ص : 275 / 5 .

² Page : 262. أقسام الذات - الرازي - THE TELEOLOGICQL ETHICS OF FAKHER AL-DIN AL-RAZI

فطرة الله التي فطر الناس عليها وهؤلاء لا يعرفون ذلك بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وهم مختلفون في الكتاب ، "وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد" سورة البقرة : 176 . وقال الإمام أحمد في خطبة مصنفة الذي صنفه في محبسه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابهه القرآن وتأولته على غير تأويله قال الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل الضلالة والعمى فكم من قتيل لإبليس قد أحبوه وكم من تائه ضال قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم ينقون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم وهو كما وصفهم رحمه الله فإن المختلفين أهل المقالات المذكورة في كتب الكلام إما نقلا مجردا للأقوال وإما نقلا وبحثا وذكرنا للجدال مختلفون في الكتاب كل منهم يوافق بعضا ويرد بعضا ويجعل ما يوافق رأيه هو المحكم الذي يجب اتباعه وما يخالفه هو المتشابه الذي يجب تأويله أو تفويضه وهذا موجود في كل من صنف في الكلام وذكر النصوص التي يحتج بها ويحتج بها عليه تجده يتأول النصوص التي تخالف قوله تأويلات لو فعلها غيره لأقام القيامة عليه ويتأول الآيات بما يعلم بالاضطرار أن الرسول لم يرده وبما لا يدل عليه اللفظ أصلا وبما هو خلاف التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين وخلاف نصوص أخرى .

المطلب الثاني : قواعد في الأسماء والصفات

إن هذا المطلب لبّ هذا البحث فلا شك أن أي شيء في الوجود له أساس وقاعدة بني عليها ومن ثم فالباحثون في أي شيء لا بد ينطلقون من أصول ظنوها بني وبينى عليها وهذه الأصول نتاج أصول استنبطها النظر في المنقول أو فطرت عليها العقول وبدعت عليها القلوب فأعظم أصل في فهم أسماء الله وصفاته ما أنزل الله مبينا في آية من كتابه : " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " ولا شك أن هذه أم الباب في الأسماء والصفات فهي من المحكم الذي ترد إليه المتشابهات ، لكن أهل الزيغ قادهم نظرهم المنكوس إلى قلبها وتأويلها وتحريفها وكأنها من المتشابه الذي يخوضون فيه بغير سلطان فأفسدت أصول فهم أصل الباب في العلم الإلهي فلا جرم قعدوا وقاسوا وعلى الشرع ركضوا وداسوا فالقوم سبق إلى أذهانهم التشبيه من قوله ليس كمثله شيء وذلك لظنهم أن المشابهة والمماثلة شيء واحد فقالوا إن ظاهر شيء من أسمائه وصفاته غير مراد فكان قولهم يقتضي أن يكون جميع أسمائه وصفاته قد أريد بها ما يخالف ظاهرها ولا يخفى مافي هذا الكلام من الفساد والتأصيل الباطل للنفي والتعطيل ولو أن أحدا تمسك بهذا الفهم السقيم وطرده وراح يستغرق في نفي مماثلة الأشياء له وكذا صفاتها شيئا شيئا وصفة صفة كان من لازم نفيه أن يجعله عدما لئلا يماثله شيء سوى عدم مثله لأن الآية لا تنفي مماثلة العدم له لأن العدم ليس بشيء¹ لأنك تنفي الشئئية بالمرّة في إجابة سؤال سائل : ما بيدك ؟ فتجيب : لا شيء ، والله يخبر عنه بلفظ " شيء " كما في قوله تعالى : " قل أي شيء أكبر شهادة قل الله " والمخالفون للمعقول والمنقول جعلوه عدما لجهلهم بتاويل الآية فقالوا لا داخل العالم ولا خارجه وقد يستدرك عليهم الفطن من طينتهم فينظر في تنمة الآية " وهو السميع البصير " ويفهمها دون هدم أصلهم ودون السقوط في جعله عدما فيقول - إفاكا - الخلق مظاهر ومجالي ومحال لذاته وصفاته . فلا جرم الجهمية والحلولية رضيعا لبان واحد .

ولا شك عند التحقيق أن الذي قادهم إلى هذه المحالات ما ظنته عقولهم محارات وهو إما بدائه أو مسلمات فغلطهم في العلم بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، هو ظنهم أنه تنال خصائصه بقياس الشمول و بقياس التمثيل، و " جهلوا أن الله تعالى لا مثل له فيقاس به، ولا يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها، فلهذا كانت طريقة القرآن - وهي

¹ - وإن قالوا بشئئيته يفضي بهم النفي إلى جعله كالممتنعات

طريقة السلف والائمة - أنهم لا يستعملون في الإلهيات قياس تمثيل وقياس شمول تستوي أفراده، بل يستعملون من هذا وهذا قياس الأولى، فإن الله له المثل الأعلى، فإذا أدخل هو - سبحانه - وغيره تحت قضية كلية، مثل أن يقال: القائم بنفسه لا يفتقر إلى المحل كما يفتقر العرض مثلاً، أو قيل: كل موجود فله خاصية لا يشركه فيها غيره ونحو ذلك - كان هو سبحانه أحق بمثل هذه الأمور من سائر الموجودات، فهو أحق بالغنى عن المحل من كل قائم بنفسه، وهو أحق بانتقاء المشارك له في خصائصه من كل موجود.

وكذلك إذا قيس قياس تمثيل فكل كمال يستحقه موجود من جهة وجوده فالوجود الواجب أحق بتنزيه عنه، وهو أحق بانتقاء أحكام العدم وأنواعه وأشباهه وملزوماته عنه من كل موجود.

وإذا كان الأمر الوجودي كالرؤية مثلاً لا يتعلق إلا بأمور موجودة لا يجوز أن تتعلق بمعدوم، لأن العدم لا يكون سبباً للوجود، وكان كل ما كان أكمل وجوداً كان أحق بأن يرى، كان الباري سبحانه بأن يرى أحق من كل موجود، وإذا كان تعذر الرؤية أحياناً قد يكون لضعف الأبصار، وكان في الموجودات القائمة بنفسها ما تتعذر أحياناً رؤيته لضعف أبصارنا في الدنيا، كان ضعفها في الدنيا عن رؤيته أولى وأولى¹.

ولهذا قال الإمام أحمد في أول رسالته في السنة التي رواها عنه عبدوس بن مالك العطار: (ليس في السنة قياس، ولا يضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول) ، فبين أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يعارض بضرب الأمثال له، ولا يدركه كل أحد بقياس، ولا يحتاج أن يثبت بقياس، بل هو ثابت بنفسه، وليس كل ما ثبت يكون له نظير، وما لا نظير له لا قياس فيه، فلا يحتاج المنصوص خبراً وأمراً إلى قياس، بخلاف من أردا أن ينال كل ما جاءت به الرسل بعقله، ويتلقاه من طريق القياس ، كالقياس العقلي المنطقي، وهو قياس الشمول أو قياس التمثيل ونحو ذلك².

والبلية التي أوتي من قبلها المتأولة بالباطل عدم تفرقتهم بين (التشبيه والتمثيل) فللناس في الفرق بينها: هل هما بمعنى واحد أو معنيين؟، قولان:

" أحدهما: أنهما بمعنى واحد، وأن ما دل عليه لفظ المثل مطلقاً ومقيداً يدل عليه لفظ الشبه، وهذا قول طائفة من النظائر.

¹ - درء التعارض : 7 / 323-324

² - نفسه : 7 / 317-318 .

والثاني: أن معناها مختلف عند الإطلاق لغة، وشرعاً، وعقلاً، وإن كان مع التقييد والقرينة يراد بأحدهما ما يراد بالآخر، وهذا قول أكثر الناس¹

و سبب الاختلاف مبني على مسألة عقلية وهي: أنه هل يجوز أن يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه، و للناس في ذلك قولين: فمن منع أن يشبهه من وجه دون وجه قال: المثل والشبه واحد.

ومن قال: إنه قد يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه، فرّق بينهما عند الإطلاق وهذا قول جمهور الناس².

وحجة المخالفين في عدم التفريق بين التشبيه والتمثيل وهو: " امتناع كون الشيء يشبه غيره من وجه ويخالفه من وجه، بل عندهم كل مختلفين كالسواد والبياض فإنهما لم يشتبها من وجه، وكل مشتبهين كالأجسام عندهم، يقولون بتمائلها، فإنها متماثلة عندهم من كل وجه لا اختلاف بينها إلا في أمور عارضة لها"³.

فالأجسام متماثلة من كل وجه، وأما الأعراض المختلفة والأجناس - كالسواد والبياض - فمختلفة من كل وجه⁴.

و نتيجة هذا القول وأنه: " كل من أثبت ما يستلزم التجسيم في اصطلاحهم فهو مشبه ممثل⁵ وذكر أن القائل بهذا كثير من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية، ومن وافقهم من الصفاتية كالباقلاني ، وأبي يعلى ، وأبي المعالي وغيرهم⁶.

وقد ناقش شيخ الإسلام هؤلاء نقاشاً عقلياً ولغوياً، وشرعياً بقوله:

" فإن العقل يعلم أن الأعراض مثل الألوان، تشته في كونها ألواناً مع أن السواد ليس مثل البياض، وكذلك الأجسام والجواهر عند جمهور العقلاء تشته في مسمى الجسم والجوهر، وإن كانت حقائقها ليست متماثلة، فليست حقيقة الماء ماثلة لحقيقة التراب، ولا حقيقة النبات ماثلة

¹ - ابن تيمية - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 444/3.

² - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 444/3 - 445، بيان تلبيس الجهمية 476/1 - 477.

³ - ابن تيمية - الصفدية 101/1 - 102.

⁴ - الصفدية 16/2.

⁵ - الصفدية 102/1.

⁶ - الصفدية 102/1، 17/2.

لحقيقة الحيوان، ولا حقيقة النار مماثلة لحقيقة الماء، وإن اشتركا في أن كلا منهما جوهر وجسم وقائم بنفسه¹.

وأيضاً فمعلوم في اللغة أنه يقال: هذا يشبه هذا، وفيه شبه من هذا، إذا أشبهه من بعض الوجوه، وإن كان مخالفاً له في الحقيقة.

قال الله تعالى: {وَأَنْتُمْ بِهِ مُتَشَابِهَةٌ} [البقرة: 25].

وقال: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [آل عمران: 7].

وقال: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} [البقرة: 118].

فوصف القولين بالتمائل، والقلوب بالتشابه لا بالتمائل، فإن القلوب وإن اشتركت في هذا القول فهي مختلفة لا متماثلة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس»².

فدل على أنه يعلمها بعض الناس، وهي في نفس الأمر ليست متماثلة، بل بعضها حرام وبعضها حلال³.

ثم إن من أهم وأخطر ما تنازع فيه طوائف المسلمين من نفاة ومشبهة ومنزهة مثبتين هل إطلاق هذه الأسماء والصفات على الله وعلى المخلوق هو من باب المشترك اللفظي، أو باب المتواطئ أو المشكك؟ فما حقيقة هذه المصطلحات؟ وما الفرق بينها؟

¹ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 445/3.

² - أخرج الحديث البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان رقم (52)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، والنسائي في سننه 3/4 كتاب البيوع، باب اجتناب الشبهات في الكسب، وأبو داود في سننه 624/3 - 625 كتاب البيوع، باب اجتناب الشبهات، وابن ماجه في سننه 1318/2 - 1319 كتاب الفتن، باب الوقوف عند الشبهات.

³ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 445/3 - 446، وانظر: التدمرية 116 - 131. عبد الله بن صالح بن عبد العزيز الغصن - دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية - ط: 1 / 1424 هـ: 152 - 153.

1 - المشترك اللفظي هو: اللفظ الواحد الذي يطلق على أشياء مختلفة بالحد والحقيقة إطلاقاً متساوياً، كالعين تطلق على آلة البصر، والينبوع، والجاسوس.¹

2- المتواطئ: يدل على أعيان متعددة بمعنى واحد مشترك بينها، كدلالة اسم الإنسان على زيد وعمرو، أو هو: الكلي الذي يكون حصول معناه وصدقه على أفراده الذهنية والخارجية بالسوية، كالإنسان والشمس، فالإنسان له أفراد في الخارج، والشمس لها أفراد في الذهن.²

3 - المشكك: هو ما يدل على أشياء لأمر عام مشترك بين أفرادها، لا على السواء، بل على التفاوت، أو هو: الكلي الذي لم يتساو صدقه على أفراده، بل كان حصوله في بعضها أولى أو أقدم أو أشد من البعض الآخر، ك الوجود فإنه ف الواجب أولى وأقدم وأشد مما في الممكن، وكالبياض للثلج والعاج. (والعاج ناب الفيل أو عظمه، وقيل هو الذيل وهو شيء يتخذ من ظهر السلحفاة البرية والبحرية، وقيل كل عظم عند العرب عاج.³

فالفرق بين المشترك اللفظي والمتواطئ أو المشكك كبير جداً، لأن معنى المشترك اللفظي أن اللفظ واحد ولكن المعاني والمدلولات التي يصدق عليها هذا اللفظ متباينة لا يجمع بينها معنى مشترك، فالعين تطلق على الباصرة وعلى الذهب وعلى الجارية وليس بين هذه الأمور أي معنى يجمعها سوى لفظ "عين" الذي يطلق على كل منها، وكذلك المشتري يطلق على مشتري السلعة، ويطلق على الكوكب المسمى بالمشتري، وليس بينهما أي معنى مشترك سوى أن لفظ "المشتري" جمع بينهما لفظاً. فإذا قيل: الله سميع، والمخلوق سميع، والمخلوق سميع، فهل السميع هنا من باب المشترك اللفظي؟ ونحن إذا فهمنا معنى السميع بالنسبة للمخلوق فهل يقول قائل: إن السميع بالنسبة لله قد يكون له معنى آخر بعيد جداً، كالبعد الذي بين الكوكب والمبتاع للسلعة؟، لا شك أن هذا القول يؤدي إلى تعطيل أسماء الله وصفاته عن معانيها اللاتقة به تعالى.

أما المتواطئ فهو معنى كلي على أعيان متعددة، كالإنسان، فهو معنى كلي يدل على جميع بني الإنسان بالسوية، فيصدق على زيد وعمرو ومحمد وأحمد من الناس، لكن هذا المعنى

¹ - ينظر: معيار العلم (ص:81) ، والتعريفات (ص:106) ، والمعجم الفلسفي (334/2) - صليبا.

² - ينظر: معيار العلم (ص:81) ، والتعريفات (ص:106) ، والمعجم الفلسفي (334/2) - صليبا.

³ - ينظر: النهاية لابن الأثير (312/3) ، والصاحح ولسان العرب وتاج العروس مادة: عوج) . وانظر في معنى المشكك:

التعريفات (ص:114) ، والمعجم الفلسفي (378/2) - صليبا - ، والمبين للأمديب (ص:50-51) - ت الأعسم - .

الكلي الذي يجمعهم لا يعني أن حقيقة زيد هو حقيقة عمرو، بل كل له حقيقته الخاصة وإن كان يجمعهم معنى "الإنسان". والمشكك جزء من التواطؤ العام، لأنه يدل على أشياء متعددة لأمر عام مشترك بين أفرادها، لكنه في بعضها أقوى أو أشد.

وقد بين أهل العلم أن هذا التوافق بين أسماء الله وصفاته وأسماء المخلوقين وصفاتهم لا يجوز أن يكون من باب المشترك اللفظي، بل هو من باب المتواطئ أو المشكك، لأن هناك معنى كلياً يفهم من مطلق صفة السمع أو البصر أو الحياة أو الوجود، وإن كان سمع الله وبصره وحياته ووجوده، يخصه لا يشاركه فيه أحد من الخلق، كما أن سمع المخلوق وبصره وحياته ووجوده يخصه.

فالقول بأنها من المتواطئ واضح في هذا الباب، و القول بأن المعنى الذي هو مدلول اللفظ العام ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، لا مانع منه ما دامت حقيقة كل قسم تخصه لا يشاركه فيه غيره،¹ وأما الذي ظنه بعض الناس من أنه يخلص من هذا الاشتراك يجعل لفظ "الوجود" أو غيره من باب المشكك، لكون واجب الوجود أكمل، كما يقال في لفظ السواد المقول على سواد القار وسواد الحدقة، ولفظ البياض المقول على بياض الثلج وبياض العاج فإن شيخ الإسلام يجيب عن هذا بقوله: "ولا ريب أ، المعاني الكلية قد تكون متفاضلة في مواردها، بل أكثرها كذلك: وتخصيص هذا القسم بلفظ المشكك أمر اصطلاحي، ولهذا كان من الناس من قال: هو نوع من المتواطئ؛ لأن واضح اللغة لم يضع اللفظ العام بإزاء التفاوت الحاصل لأحدهما، بل بإزاء القدر المشترك"، ثم يقول شيخ الإسلام: "وبالجملة، فالنزاع في هذا لفظي، فالمتواطئة العامة تتناول المشككة، وأما المتواطئة التي تتساوى معانيها فهي قسيم المشككة، وإذا جعلت المتواطئة نوعين: متواطئاً عاماً وخاصاً، كما جعل الإمكان نوعين عاماً وخاصاً زال اللبس"²

والقول بأن هذا التوافق ليس من قبيل المشترك اللفظي هو قول جماهير المسلمين، يقول شيخ الإسلام: "إن مذهب عامة الناس، بل عامة الخلائق من الصفاتية كالأشعرية والكرامية وغيرهم، أن الوجود ليس مقولاً بالاشتراك اللفظي فقط، وكذلك سائر أسماء الله التي سمي بها، وقد يكون لخلقه اسم كذلك، مثل الحي والعليم والقدير؛ فإن هذه ليست مقولة بالاشتراك اللفظي فقط، بل بالتواطئ، وهي أيضاً مشككة؛ فإن معانيها في حق الله تعالى أولى، وهي حقيقة فيهما، ومع

¹ - ينظر : عبد الرحمن بن صالح المحمود - موقف ابن تيمية من الأشاعرة - ص : 1072 /3 .

² - منهاج السنة (586/3) وينظر: ما قبل ذلك (118/2-119) .

ذلك فلا يقولون: إن ما يستحقه الله تعالى من هذه الأسماء إذا سمي بها مثل ما يستحقه غيره، ولا أنه في وجوده وحياته وعلمه وقدرته مماثلاً لخلقه، ولا يقولون أيضاً إن له أو لغيره في الخارج وجوداً غير حقيقتهم الموجودة في الخارج؛ بل اللفظ يدل على قدر مشترك إذا أطلق وجرّد عن الخصائص التي تميز أحدها" ، ثم إن هذا لا يستعمل في أسماء الله فقط ولا في اللغة أيضاً، وإنما يذكر في مواضع تجرّد عن الخصائص لأجل المناظرة فيقدر الأمر تقديراً¹ ومع أن هذا هو قول جماهير الصفاة وغيرهم إلا أن بعض من خاض في الفلسفة والمنطق كالرازي والآمدى والشهرستاني ظنوا - في بعض أقوالهم - أنه يجب أن يكون ما بين أسماء الله وأسماء المخلوقين من توافق مقولاً بالاشتراك اللفظيين ، وقد بين أهل التحقيق أنّ الذي دفعهم إلى هذا القول شبهتان:

إحدهما: شبهة الوقوع في التشبيه والتركيب.

والثانية: ظن ثبوت الكليات المشتركة في الخارج.

فالفهم السليم لآية: " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " هو: أنّ ما من اسم يسمى الله تعالى به إلا والظاهر الذي يستحقه المخلوق غير مراد لأنّ أوّل الآية ينفي مماثلة أي شيء من الأعيان وصفاتها التي تظهر لنا وبعد هذا النفي يستقر في العقول أنّ أسماءه وصفاته مرادة بكيفية لا نعلمها ، فلما نحاول تأويلها وصرفها عن ظاهر كيفها الذي لا نعلمه وإنما نعلم معنا بلا كيف .

فقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ، لا الكاف زائدة ولا لفظة " مثل " وعليه يلزم منه نفي المثل، وإذا كان ليس للمثل مثل، صار الموجود واحداً، فلا أبلغ من هذا الكلام في نفي المثلية لمن تمكن من تصوره ، وهذا قد وجد في اللغة العربية، مثل قول أوس بن حجر :

ليس كمثل الفتى زهير... خلق يوازيه في الفضائل

ولذلك قعد أهل العلم في ثنايا تصانيفهم قواعد تعصم من الانحراف والإلحاد والتعطيل والتشبيه والقول بالحلول في ذات الله وأسمائه ولسنا نغفل أن أهل الكلام والفلسفة أصلوا أيضاً قواعد ولعل أكثرها سبب في ضلالهم في العلم الإلهي .

وممن جمع هذه القواعد ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد وابن عثيمين في القواعد المثلى وعلوي بن عبد القادر السقّاف في "صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة" وهذه القواعد

¹ - ينظر : عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود - موقف ابن تيمية من الأشاعرة - ص : 3 / 1074 .

التي سنذكرها نقلا عن السقاف تواتر عليها أهل التنزيه والإثبات الثبت عن الثبت وصولا إلى الصحابة الكرام لا أخذا عن الجهم أو متفلسفة اليونان .

القاعدة الأولى:

إثبات ما أثبتته الله لنفسه في كتابه، أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل¹ .

لأن الله أعلم بنفسه من غيره، ورسوله صلى الله عليه وسلم أعلم بالخلق بريه.

القاعدة الثانية:

نفى ما نفاه الله عن نفسه في كتابه، أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، مع اعتقاد ثبوت كمال ضده لله تعالى² .

لأن الله أعلم بنفسه من خلقه، ورسوله أعلم الناس بريه؛ فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته، ونفي الظلم يتضمن كمال عدله، ونفي النوم يتضمن كمال قيوميته.

القاعدة الثالثة:

صفات الله عزَّ وجلَّ توقيفية؛ فلا يُثبت منها إلا ما أثبتته الله لنفسه، أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يُنفي عن الله عزَّ وجلَّ إلا ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم³ .

لأنه لا أحد أعلم بالله من نفسه تعالى، ولا مخلوق أعلم بخالقه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القاعدة الرابعة:

التوقف في الألفاظ المجملة التي لم يرد إثباتها ولا نفيها، أما معناها؛ فَيُسْتَفْصَلُ عَنْهُ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ بَاطِلٌ يُنَزَّهُ اللَّهُ عَنْهُ؛ رُدٌّ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ حَقٌّ لَا يَمْتَنِعُ عَلَى اللَّهِ؛ قُبُلٌ، مَعَ بَيَانٍ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الصَّوَابِ مِنَ الْأَلْفَافِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالِدَعْوَةُ إِلَى اسْتِعْمَالِهِ مَكَانَ هَذَا اللَّفْظِ الْمَجْمَلِ الْحَادِثِ⁴

¹ - عبد الرحمن بن اسماعيل الصابوني - عقيدة السلف أصحاب الحديث - ت : بدر البدر - الدار السلفية - الكويت - ط : 1 / 1404 . (ص 4) ، مجموع الفتاوى - (3/3 ، 182/4 ، 26/5 ، 38/6 ، 515/6)

² - التدمرية لابن تيمية (ص 58) ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح له أيضاً (139/3) .

³ - مجموع الفتاوى (26/5) .

⁴ - التدمرية - (ص 65) ، مجموع الفتاوى - (299/5 و 36/6) وقد مرَّ معنا مناقشة لفظ الجهة .

مثاله: لفظة (الجهة) : نتوقف في إثباتها ونفيها، ونسأل قائلها: ماذا تعني بالجهة؟ فإن قال: أعني أنه في مكان يحويه. قلنا: هذا معنى باطل يُزَرُّه الله عنه، ورددناه. وإن قال: أعني جهة العلو المطلق؛ قلنا: هذا حق لا يمتنع على الله. وقبلنا منه المعنى، وقلنا له: لكن الأولى أن تقول: هو في السماء، أو في العلو؛ كما وردت به الأدلة الصحيحة، وأما لفظة (جهة) ؛ فهي مجملة حادثة، الأولى تركها.

القاعدة الخامسة:

كل صفة ثبتت بالنقل الصحيح؛ وافقت العقل الصريح، ولا بد.¹

القاعدة السادسة:

قطع الطمع عن إدراك حقيقة الكيفية ؛ لقوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} .²

القاعدة السابعة:

صفات الله عَزَّ وَجَلَّ تُثَبَّتْ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَتَنْفَى عَلَى وَجْهِ الإِجْمَالِ.³

فالإثبات المفصل؛ كإثبات السمع والبصر وسائر الصفات، والنفي المجمل كنفي المثلية في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} السماء، أو في العلو؛ كما وردت به الأدلة الصحيحة، وأما لفظة (جهة) ؛ فهي مجملة حادثة، الأولى تركها.

القاعدة الثامنة:

كل اسم ثبت لله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهو متضمن لصفة، ولا عكس⁴ .

مثاله: اسم الرحمن متضمن صفة الرحمة، والكريم يتضمن صفة الكرم، واللطيف يتضمن صفة اللطف ... وهكذا، لكن صفاته: الإرادة، والإيتان، والاستواء، لا نشق منها أسماء، فنقول: المرید، والآتي، والمستوي، وهكذا .

القاعدة التاسعة:

صفات الله تعالى كلها صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه .⁵

¹ - مختصر الصواعق المرسله - (141/1، 253)

² - منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات - لمحمد الأمين الشنقيطي (ص 26)

³ - مجموع الفتاوى - (37/6 و 515) .

⁴ - بدائع الفوائد لابن القيم - (162/1) . القواعد المثلى لابن عثيمين - (ص 30)

⁵ - مجموع الفتاوى (206/5) ، مختصر الصواعق المرسله - (232/1) ، بدائع الفوائد (168/1) .

القاعدة العاشرة:

صفات الله عَزَّ وَجَلَّ ذاتيةٌ وفعليةٌ، والصفات الفعلية متعلقة بأفعاله، وأفعاله لا تنتهي لها ¹ ،
{وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} .

القاعدة الحادية عشرة:

دلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة: إما التصريح بها، أو تضمن الاسم لها، أو التصريح
بفعلٍ أو وصفٍ دالٌّ عليها ²

مثال الأول: الرحمة، والعزة، والقوة، والوجه، واليدين، والأصابع ... ونحو ذلك.

مثال الثاني: البصير متضمن صفة البصر، والسميع متضمن صفة السمع.. ونحو ذلك.

مثال الثالث: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} : دالٌّ على الاستواء، {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ} :
دالٌّ على الانتقام ... ونحو ذلك.

القاعدة الثانية عشرة:

صفات الله عَزَّ وَجَلَّ يستعاذ بها ويُحلف بها ³

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك.. ⁴، ولذلك
بوب البخاري في كتاب الأيمان والنذور: باب: الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته .

القاعدة الثالثة عشرة:

الكلام في الصفات كالكلام في الذات. ⁵ فكما أن ذاته حقيقية لا تشبه الذوات؛ فهي متصفة
بصفات حقيقية لا تشبه الصفات، وكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، كذلك
إثبات الصفات.

القاعدة الرابعة عشرة: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر. ⁶

¹ - القواعد المثلى (ص30)

² - القواعد المثلى : (ص38) .

³ - مجموع الفتاوى : (143/6، 229) و (273/35) ، وانظر: شرح السنة للبغوي (185/1-187) وقرئ بعضهم بين
الحلف بالصفة الفعلية والصفة الذاتية، وقالوا: لا يجوز الحلف بصفات الفعل .

⁴ - رواه مسلم برقم : 486 .

⁵ - أبو القاسم اسماعيل ابن محمد بن الفضل النيمي الأصبهاني (ت : 535هـ) - الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل
السنة - ت : محمد بن المدخلي - دار الراجعية - 1419هـ 1999م - التدمرية - ص43 مجموع الفتاوى : (330/5، 355/6)

⁶ - التدمرية (ص31) ، مجموع الفتاوى (212/5)

فمن أقر بصفات الله؛ كالسمع، والبصر، والإرادة، يلزمه أن يقر بحبة الله، ورضاه، وغضبه، وكراهيته.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " ومن فرق بين صفة وصفة، مع تساويهما في أسباب الحقيقة والمجاز؛ كان متناقضاً في قوله، متهافتاً في مذهبه، مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض".¹

القاعدة الخامسة عشرة:

ما أضيف إلى الله مما هو غير بائنٍ عنه؛ فهو صفة له غير مخلوقة، وكلُّ شيء أضيف إلى الله بائنٍ عنه؛ فهو مخلوق؛ فليس كل ما أضيف إلى الله يستلزم أن يكون صفةً له.²
مثال الأول: سمعُ الله، وبصرُ الله، ورضاه، وسخطُه ...
ومثال الثاني: بيت الله، وناقة الله ...

القاعدة السادسة عشرة:

صفات الله عزَّ وجلَّ وسائر مسائل الاعتقاد تثبت بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان حديثاً واحداً، وإن كان آحاداً.³
القاعدة السابعة عشرة:

معاني صفات الله عزَّ وجلَّ الثابتة بالكتاب أو السنة معلومة، وتُفسر على الحقيقة، لا مجاز ولا استعارة فيها البتة، أمَّا الكيفية؛ فمجهولة.⁴
القاعدة الثامنة عشرة:

ما جاء في الكتاب أو السنة، وجب على كل مؤمن القول بموجبه والإيمان به، وإن لم يفهم معناه.⁵

¹ - مجموع الفتاوى (212/5)

² - ابن تيمية - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (145/3)، مجموع الفتاوى (290/9) وينظر: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ) - مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان - دار الوطن - دار الثريا - 1413 هـ - ص: (166/1).

³ - مختصر الصواعق المرسله: (332/2 و 412 و 433).

⁴ - التدمرية: (ص 43-44)، مجموع الفتاوى: (36/5-42)، مختصر الصواعق المرسله: (106/2، 238/1) وما بعدها).

⁵ - ابن تيمية - دقائق التفسير - ت: محمد السيد الجليند - مؤسسة علوم القرآن - دمشق - ط: 2/ 1404 - ص: (245/5) التدمرية: (65)، مجموع الفتاوى: (298/5)

القاعدة التاسعة عشرة:

باب الأخبار أوسع من باب الصفات، وما يطلق عليه من الأخبار؛ لا يجب أن يكون توقيفياً؛ كالقديم، والشيء، والموجود...¹

القاعدة العشرون:

صفات الله عزَّ وجلَّ لا يقاس عليها²

فلا يقاس السخاء على الجود، ولا الجَدُّ على القوة، ولا الاستطاعة على القدرة، ولا الرقة على الرحمة والرأفة، ولا المعرفة على العلم... وهكذا؛ لأن صفات الله عزَّ وجلَّ لا يتجاوز فيها التوقيف؛ كما مر في القاعدة الثالثة.

القاعدة الحادية والعشرون:

صفات الله عزَّ وجلَّ لا حصر لها؛ لأن كل اسم يتضمن صفة - كما مرَّ في القاعدة الثامنة وأسماء الله لا حصر لها، فمنها ما استأثر الله به في علم الغيب عنده. فتحصل من جميع هذا المبحث أن الصفات من باب واحد، وأن الحق فيها متركب من أمرين: الأول: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الخلق.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتاً، أو نفيًا، وهذا هو معنى قوله تعالى: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، والسلف الصالح، رضي الله عنهم ما كانوا يشكون في شيء من ذلك، ولا كان يشكل عليهم، ألا ترى إلى قول الفرزدق وهو شاعر فقط، وأما من جهة العلم، فهو عامي [الطويل]: وكيف أخاف الناس والله قابض... على الناس والسبَّعَيْنِ في راحة اليد³

ومراده بالسبعين: سبع سماوات، وسبع أرضين. فمن علم مثل هذا من كون السماوات والأرضين في يده جل وعلا أصغر من حبة خردل، فإنه عالم بعظمة الله وجلاله لا يسبق إلى ذهنه مشابهة صفاته لصفات الخلق، ومن كان كذلك زال عنه كثير من الإشكالات التي أشكلت على كثير من المتأخرين، وهذا الذي ذكرنا من تنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به، والإيمان بما

¹ - أشرنا إلى هذه القاعدة في أول المبحث وينظر كذلك: بدائع الفوائد لابن القيم (162/1).

² - أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: 388هـ) - شأن الدعاء - ت :

أحمد يوسف الدقاق - دار الثقافة العربية - ط : 1 / 1404 هـ - 1984 م (ص 111)

³ - البيت غير موجود في ديوانه لكن ذكره أهل المعاجم وعزوه إليه . ينظر : تهذيب اللغة للأزهري : 70/2 و : أساس البلاغة للزمخشري : 1 / 434 . و لسان العرب لابن منظور : 8 / 147 . و : القاوس المحيط للفيروز أبادي : 1 / 726 .

وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، هو معنى قول الإمام مالك رحمه الله: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة. وبيروى نحو قول مالك هذا عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وأم سلمة رضي الله عنها، والعلم عند الله تعالى.¹

المبحث الثاني : اشتقاق الأسماء والصفات

لقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات كثيرة، تعرّف بها إلى عبادته، وهذه الصفات هي التي تميز الخالق عز وجل عما سواه وتُظهِرُ للعباد كمال الربّ عز وجل وعظمة شأنه، وجلال قدرته، وتزيد العبد معرفة بالله عز وجل، ولا شك أن حاجة الناس إلى معرفة ربهم هي أعظم الحاجات، ولذلك تعرّف الله لعباده بصفاته، ليكون ذكركم له أعظم وأكثر، وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره أشد وأكثر، كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر، وكانت طرق معرفته أكثر وأظهر، وكانت الأسماء المعرّفة له أكثر، وكانت على معانيه أدل .

وهذا الشأن حاصل في باب أسماء الله وصفاته، فالله هو أجل معلوم وأعظمه وأكبره. ولذلك كان العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأشرفها وأعظمها، فمن عرف الله عرف ما سواه ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل، فالعلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلاح به، فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته .

واتفق العلماء على أن حديث : " إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً غَيْرِ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ " ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة. فالمراد

¹ الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - مصدر سابق - ص : [29/2-32] وينظر : أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي - الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان - مكتبة ابن عباس، مصر - ط : 1 / 1426 هـ - 2005 م - ص : 119/1 .

الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء، ولهذا جاء في الحديث الآخر: أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك¹

كما لم يرد حديث صحيح يعتمد عليه في تعداد الأسماء الحسنى التسعة والتسعين وحصرها وهي التي من حفظها دخل الجنة، أو في غيرها من أسمائه الكثيرة التي سمى الله بها نفسه فأنزلها في كتابه أو علمها أحداً من خلقه، ولكن اعتماد أهل العلم في ذلك على الكتاب العزيز مع بعض الآثار التي يشهد لها الكتاب، فأسماءه من كمالاته، وكمالاته لا تدخل تحت الحصر، وقد أطال الكلام بعض أهل العلم في الأسماء الحسنى حتى ذكر ابن العربي في شرح الترمذي

عن بعضهم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله تعالى ألف اسم². وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص - بعد أن ذكر أقوال بعض أهل العلم في تعداد الأسماء الحسنى: "وقد عاودت تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررتها منه تسعة وتسعين اسماً، ولا أعلم من سبقتي إلى تحرير ذلك، فإن ما ذكره ابن حزم لم يقتصر فيه على ما في القرآن الكريم" إلى آخر كلامه.

و حديث أبي هريرة في تعداد الأسماء الحسنى الذي اعتمد عليه كثير من الناس في تعداد الأسماء الحسنى مثل القشيري والرازي والقرطبي والغزالي، ضعيف، وعلته (الوليد بن مسلم) والحديث الثاني الذي صححه (الترمذي) أضعف وعلته (عبد العزيز بن حصين) .

قال الحافظ: متفق على ضعفه، ووهاه البخاري ومسلم³ وقد زلت أقدام كثير من أهل الكلام في هذا المبحث على اختلاف مواقفهم، منهم من أثبت أسماء مجردة عن المعاني والأوصاف كأعلام محضة وزعم أن الله سميع بلا سمع، عليم بلا علم، مثلاً إلى آخر الصفات.

ومنهم من ينفي الصفات والأسماء، ليزعم تصور وجود ذات مجردة عن الأسماء والصفات معاً، وهو من أفسد مزاعمهم، لأنه ضرب من المحال، فلنسمع الحافظ ابن القيم وهو يناقش هذه

¹ - المباركفوري - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي - 9 / 481 .

² - ابن القيم: بدائع الفوائد 1/183. وابن جرير الطبري في تفسيره 1/134 بتصرف. والشوكاني: فتح القدير 2/256، تفسير سورة الأعراف {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا} و أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير- دار الكتب العلمية - ط : 1/1419 هـ. 1989م - ص : 424/4 - 425 . وتحفة الأحوذى 9/490 طبعة المكتبة السلفية.

³ - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير - 4/424 .

المزاعم ويفندها ليكشف عوارهم إذ يقول رحمه الله - وهو يتحدث عن دلالة الأسماء على صفات الكمال :-

إن أسماء الله تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات فهي أسماء وهي صفات، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال ولساغ وقوع الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم، واللهم أعطني، فإنك أن الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها قال تعالى: {وَدَّرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف آية: 180] ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات آية: 58] فعلم أن (القوي) من أسمائه ومعناه الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: {قُلِّلِ الْعِزَّةَ جَمِيعًا} [فاطر آية: 10] وساق أمثلة كثيرة من القرآن والأحاديث الصحيحة إلى أن قال: لو لم تكن أسمائه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنها بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع من ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة، استحال ثبوت حكمها، وأيضاً فلو لم تكن أسمائه ذوات معان وأوصاف لكانت كلها سواء ولم يكن فرق بين مدلولاتها: وهذه مكابرة صريحة، وبهتان بين. فإن من جعل معنى اسم (القدير) هو معنى اسم (السميع البصير) ، ومعنى اسم (التواب) هو معنى اسم (المنتقم) ، ومعنى اسم (المعطي) هو معنى اسم (المانع) ، فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها، والثاني تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة إلى أن قال رحمه الله: وحقيقة الإلحاد فيها العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها وإخراج حقائق معانيها عنها. هذه حقيقة الإلحاد¹.

وقال في موضع آخر من كتابه (مدارج السالكين) : " إن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى، كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة فإنه يدل دلالتين أخريين بالتضمن

¹ - محمد أمان الجامي - الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه : 178 .

واللزوم.¹ فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم (السميع) يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم (الحي) وصفة الحياة بالالتزام وكذلك سائر أسمائه وصفاته، ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن هاهنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم العظيم له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم العلي، واسم الحكيم وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم العلي العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه العلي.

وكذلك اسمه الظاهر من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم " «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء» بل هو سبحانه فوق كل شيء، فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه الظاهر، ولا يصح أن يكون الظاهر هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج؛ لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ " الباطن " وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل الأول الذي ليس قبله شيء، بـ " الآخر " الذي ليس بعده شيء.²

هذا وقد أفاض الحافظ ابن القيم في هذا المبحث في كتابه (مدارج السالكين) بما لعله لا يوجد لغيره مجتمعاً في موضع واحد.

¹ - ينظر في تفصيل أنواع الدلالة : عوض الله جاد حجازي - المرشد السليم إلى المنطق الحديث والقديم - دار الطباعة المحمدية - القاهرة - مصر - ط : 6 ، د ت : 48 - 49 .

² - ابن القيم - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - ت : محمد المعتصم بالله البغدادي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط : 3 / 1416 هـ - 1996م - ص : 54/1 .

وقد أشار الإمام البيهقي من قبل إلى هذا المعنى الذي أفاض فيه الحافظ ابن القيم رحمه الله، حيث يقول: " فله عز اسمه، أسماء وصفات، وأسماءه صفاته، وصفاته أوصافه"¹ وأما الفرق بينهما، فإن الصفات إنما هي من معاني أسمائه الحسنى، والأسماء دالة عليها كما تدل على الذات، إما بالمطابقة أو بالالتزام على ما تقدم بيانه في كلام ابن القيم قريباً. وهذا معنى قول الإمام البيهقي: "وأسماءه صفاته، وصفاته أوصافه".

من هنا يتضح جلياً بطلان مذهب المعتزلة وتناقضهم، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل ، حيث ينفون الصفات مع إثباتهم لأحكامها، لأنه من المعلوم ضرورة إذا عدم الوصف الذي منه الاشتقاق، فلاشتقاق منه مستحيل، فإذا لم يقم العلم والقدرة بذات مثلاً استحال أن نقول: هي عالمة وقادرة، ولست أدري كيف استساغت عقول المعتزلة وهضمت هذا التناقض، حيث يقولون: إن الله تعالى قادر وعالم لكن لا بقدرة ولا بعلم!!

المطلب الأول : اشتقاق اسمه العلم المتضمن لجميع معاني الأسماء والصفات وصفاته الخبرية :

أ - لفظ الجلالة : الله

أشهرُ أسماءِ الربِّ تعالى ، وأغلاها مَحَلًّا في الذِّكْرِ، والدُّعَاءِ؛ وكذلك جُعِلَ أَمَامَ سَائِرِ الأَسْمَاءِ، وَخُصَّتْ بِهِ كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ، وَوَقَعَتْ بِهِ الشَّهَادَةُ؛ فَصَارَ شِعَارَ الإِيْمَانِ وَهُوَ اسْمٌ مَمْنُوعٌ، لَمْ يَتَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ، قَدْ قَبِضَ اللهُ عَنْهُ الأَلْسُنَ؛ فلم يُدْعَ بِهِ شَيْءٌ سِوَاهُ، وَقَدْ كَادَ يَنْعَاطَاهُ المُشْرِكُونَ اسْمًا لِيَبْعُضِ أَصْنَامِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، فَصَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى "اللَّاتِ" صِيَانَةً لِهَذَا الاسْمِ، وَدَبَّأَ عَنْهُ²، حَتَّى فَرَعُونَ أَخْرَصَهُ اللهُ عَن ادْعَائِهِ فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى " وَاخْتَلَفَ النَّاسُ. هَلْ هُوَ اسْمٌ عَلَّمَ مَوْضُوعٌ؟ أَوْ مُشْتَقٌّ؟ فَرُوي فِيهِ عَنِ الخَلِيلِ رَوَائِتانِ. أَحَدُهُما: أَنَّهُ اسْمٌ عَلَّمَ لَيْسَ بِمُشْتَقٍّ، وَلَا يَجُوزُ حَذْفُ الأَلِفِ وَاللَّامِ مِنْهُ، كَمَا يَجُوزُ مِنَ الرَّحْمَنِ،

¹ - البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى 458هـ - الاعتقاد - ت : تحقيق أحمد عصام الطالب - دار الأوقاف الجديدة بيروت - د ت - ص : 70 .

² . هذا على رأي الكسائي لأنه كان يقف على اللات بالهاء ويقول: اللاه ، أما على رأي الخليل : " اللتُّ الفعل من اللتات، وكل شيء يُلتُّ به سويقٌ أو غيره نحو السمن وما إليه " ، فهو بمعنى الفت ، وهذا هو الصحيح في هذا الحرف الذي عليه أكثر أهل العلم . ينظر : تهذيب اللغة للأزهري : 14 / 179 .

و الرحيم. وروى عنه سيبويه أنه اسم مشتق. وكان في الأصل إله، مثال فعال. فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. ¹

أما سيبويه فيرى أنه مشتق، قال في الكتاب: "وكان الاسم والله أعلم إله، فلما أدخل فيه الألف واللام حذفوا الألف وصارت الألف واللام خلفاً منها. فهذا أيضاً مما يقويه أن يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف ومثل ذلك أناس، فإذا أدخلت الألف واللام قلت الناس؛ إلا أن الناس قد تفارقهم الألف واللام ويكون نكرة، واسم الله تبارك وتعالى لا يكون فيه ذلك." ²

وقال غيره: أصله في الكلام "إله" وهو [مشتق من "إله الرجل إلى الرجل يأله إليه": إذا فزع إليه من أمر نزل به فألهه إلهة، أي: أجاره، وأمنه، فسُمي إلهاً، كما يُسمى الرجل إماماً إذا أم الناس فانتُموا به، وكما يُسمى الثوب رداءً .

والدليل الفصل في كونه مشتقاً قوله عز وجل: {وهو الله في السموات وفي الأرض} [الأنعام: 3] "قال الزجاج، وابن الأنباري: هو المعبود في السموات والأرض، كما تقول: هو الخليفة في الشرق والغرب." ³

ولما كان - عند النحاة - لا بد للجار والمجرور من التعلق بفعل أو ما في معناه "وهو الصفة لا شك، فقوله "في السموات وفي الأرض" جار ومجرور متعلق بلفظ الجلالة وهو حينها وصف مشتق ومع "أل" صار علماً على ذات الباري عز وجل .

واختلف في مبدأ اشتقاقه، فقيل: من آله يأله ألوهة وإلهة وألوهية؛ بمعنى: عبد عبادة. قال رؤبة:

لله در الغانيات المده ... سبحن واسترجعن من تألهي ⁴

¹ - الخطابي: شأن الدعاء: 31 - 32 .

² - سيبويه - الكتاب: 131/1 .

³ - أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ) - الوسيط في تفسير القرآن المجيد - تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس - قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط: 1 / 1415 هـ - 1994 م - ص: 252 / 2 .

⁴ - ديوانه: 169 .

وقيل: من آله - بكسر اللام - يألؤه - بفتحها - ألها؛ إذا تحير ، ولا يبعد هذا لأنه تحار فيه العقول ولا تدركه الأبصار ولكنها حيرة ووله لا يمنعان من منتهى الحب والتذلل اللذان هما حقيقة العبادة والتأله اللذان كلّفهما الثقلان .

والصحيح الأوّل، فهو إله؛ بمعنى مألوه؛ أي: معبود، ولا أدل على هذا من قوله عزّ وجل :
وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ " النحل : 51 ، فأشار عز وجل إلى أنه هو الإله الواحد ، وهذا سيأتي تفصيله باستقراء هذه الأسماء في آي القرآن

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: " الله ذو الإلهية والعبودية على خلقه أجمعين".¹

وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفاً في الأصل على وزن " فعال " ولما كان الربّ وحده يستحق الألوهية و العبودية أدخلت الألف واللام وصارت أصلاً للفظ كما أنّ ذاته أصل لتينك الصفتين فلا اللفظ شابهه في البناء لفظ ولا الذات شابهها وكان نظيراً لها في الصفات ذات ، والصفات إذا خصت ذاتا لم تشاركها فيها الذوات صارت أعلاما - إذا أطلقت - على تلك الذوات ، فهذه أوصاف النبي أحمد ومحمد والمصطفى صفات لم ينل منها أحد ما ناله صلى الله عليه وسلم صارت أسماء له ، فلا أحمد لربه منه فهذا اسم تفضيل واسم التفضيل صفة وكذا محمد والمصطفى اسما مفعول واسم المفعول صفة والله أعلم .

و" من خواص اسم الله تعالى أنّ أسماء الله كلها صفات له وهو مخصّوص به غير صفة وأنّ أسماء الله تعالى كلها تنسب إليه ولا تنسب إلى شيء منها لولله الأسماء الحسنی { وأنّ غيره من الأسماء قد يُسمى وإن لم يتسم به أحد وأنه لزمته الألف واللام عوضاً من الهمزة ولم يفعل ذلك لغيره وأنه اختصّ في القسم بخاصّة لا تكون لغيره من أسماء الله تعالى ولا شيء من مخلوقاته كقولهم تالله لأفعلنّ وهو على شرفه دليل وأنه جمع فيه بين يا الّتي للنداء

واللام ولم يجيء ذلك في غيره إلا ما جاء في ضرورة الشعر وأنه حذف منه الألف في الخط تنزيها له أن يشبّه باللات في الوقف والخط إذا كتبت اللات بالهاء والمشهور أنّها حذفت لكثرة الاستعمال ".²

¹ - روى هذا الأثر ابن جرير في تفسير البسمة، وقال الشيخ أحمد شاكر: " إسناد هذا الخبر ضعيف " .

² - الزركشي - معنى لا إله إلا الله - ت : علي محيي الدين علي القرّة راغي - دار الاعتصام - القاهرة - ط : 3 / 1405هـ /

1985م - ص : 121- 122

ب - اشتقاق صفات الله الذاتية الخبرية الواردة في القرآن:

صفات الله الخبرية ك (الوجه، واليدين، والعينين، والساق، وغيرها) تكون كالاختبار الصعب للعباد، فمن آمن بها وصدق بها على وجه يليق بذات الله عزَّ وجلَّ بلا تمثيل ولا تحريف ولا تكييف، وقال: كلُّ من عند ربنا، ولا فرق بين إثبات صفة العلم والحياة والقدرة وبين هذه الصفات، من هذا إيمانه ومعتقدَه؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن قدَّم عقله السقيم على النقل الصحيح، وأول هذه الصفات، وجعلها من المجاز، وحرَّف فيها، وعطلَّها؛ فقد خسر خسراً مبيناً، إذ فرَّق بين صفة وصفة، وكذَّب الله فيما وصف به نفسه، وكذَّب رسوله صلى الله عليه وسلم، فلو لم يكن من ثمرة الإيمان بهذه الصفات إلا أن تُدخل صاحبها في زمرة المؤمنين الموحَّدين؛ لكفى بها ثمرة، ولو لم يكن من ثمراتها إلا أنها تميِّز المؤمن الحق الموحَّد المصدِّق لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبين ذلك الذي تجرَّأ عليهما، وحرَّف نصوصهما، واستدرك عليهما؛ لكفى، فكيف إذا علمت أن هناك ثمراتٍ أخرى عظيمةً للإيمان بهذه الصفات الخبرية؛ منها أنك إذا آمنت أن الله وجهاً يليق بجلاله .

- الوجه :

الوَجْهُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ خَبْرِيَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالِدَّلِيلِ مِنَ الْكِتَابِ:

1- قوله تعالى: {وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ} [البقرة: 272] . وقوله: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد: 22] ، والدليل من السنة:

1- حديث ابن مسعود رضي الله عنه: " لما قَسَمَ النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين، وقال رجل: والله إنَّ هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وَجْهَ اللَّهِ ...¹ .

2 - حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الثلاثة الذين حُيسُوا في الغار، فقال كل واحد منهم: " اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ ففرج عنا ما نحن فيه ...² .

قال إمام الأئمة ابن خزيمة بعد أن أورد جملة من الآيات تثبت صفة الوجه لله تعالى: " فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر؛ مذهبتنا: أنا نثبت لله ما

¹ - صحيح البخاري (3150) ، ومسلم (1062) .

² - صحيح البخاري (2272) ، وصحيح مسلم (2743) .

أثبتته الله لنفسه، نقر بذلك بالسنتنا، ونصدق ذلك بقلوبنا؛ من غير أن نشبه وجهه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عز ربنا أن يشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقالة المعطلين¹.

وقال الحافظ ابن منده: " ومن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي وصف بها نفسه قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} ، وقال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيز بوجهه الله من النار والفتن كلها، ويسأل به .. " ثم سرد أحاديث بسنده، ثم قال: " بيان آخر يدل على أَنَّ العباد ينظرون إلى وَجْهِ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ " ² وسرد بسنده ما يدل على ذلك. وقال قَوَامُ السُّنَّةِ الأصفهاني: " ذكر إثبات وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الذي وصفه بالجلال والإكرام والبقاء في قوله عَزَّ وَجَلَّ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} " ³

- العين :

صفة ذاتيةٌ خيريةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ بالكتاب والسنة، وأهل السنة والجماعة يعتقدون أَنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ له عينان تليقان به؛ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} .

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} [هود: 37] .

2- وقوله: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39]

- وقوله: {وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48] .

الدليل من السنة:

2- حديث أنس رضي الله عنه: " إِنَّ الله لا يخفى عليكم إِنَّ الله ليس بأعور (وأشار إلى عينيه) ، وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية"⁴.

قال ابن خزيمة بعد أن ذكر جملة من الآيات تثبت صفة العين: " فواجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبت الخالق البارئ لنفسه من العين، وغير مؤمن من ينفي عن الله تبارك

¹ - كتاب التوحيد : 25/1 .

² - كتاب التوحيد (36/3)

³ - الحجة في بيان المحجة : 199/1 . وينظر: أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (412/3) ، و تفسير ابن جرير

لقوله تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} ، وتفسير الآية نفسها من " أضواء البيان " ، وانظر كلام البغوي في صفة (الأصابع) ، وكلام

ابن كثير في صفة (السمع)

⁴ - صحيح البخاري (7407) .

وتعالى ما قد تثبته الله في محكم تنزيله ببيان النبي صلى الله عليه الذي جعله الله مبيناً عنه عز وجل في قوله: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عيّن فكان بيانه موافقاً لبيان محكم التنزيل، الذي هو مسطور بين الدفتين، مقروء في المحاريب والكتاتيب¹.

وقال : " نحن نقول: لربنا الخالق عيان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى، وما في السماوات العلى ... "².

وبوّب اللالكائي في " أصول الاعتقاد" بقوله: " سياق ما دل من كتاب الله عز وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على أن صفات الله عز وجلّ الوجه والعيّن واليدين"³.

وقال الشيخ عبد الله الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري: " قوله: (إن الله ليس بأعور) : هذه الجملة هي المقصودة من الحديث في هذا الباب؛ فهذا يدل على أن الله عيّن حقيقة؛ لأن العور فقد أحد العيّن أو ذهاب نورها"⁴.

وقال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - في " عقيدة أهل السنة والجماعة " : " وأجمع أهل السنة على أن العيّن اثنتان، ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم في الدجال: (إنه أعور، وإن ريكم ليس بأعور) "⁵ .

- اليد :

اليدان صفة ذاتية خبرية لله عز وجلّ، نشبتها كما نشبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهي ثابتة بالكتاب والسنة. الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64] .
- 2- وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ} [ص: 75] .

¹ - كتاب التوحيد (97/1)

² - نفسه : (114/1)

³ - أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: 418هـ) - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة - ت : أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي دار طيبة - السعودية - ط: 1423/2 هـ / 2003 م - ص : 457/3 .

⁴ - عبد الله الغنيمان - شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري : (285/1)

⁵ - عقيدة أهل السنة والجماعة - الجامعة الإسلامية المدينة المنورة - ط : 1422 / 4 هـ - ص : 12 .

الدليل من السنة:

1- حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا".¹

2- حديث الشفاعة، وفيه: " ... فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ؛ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ...".²

3- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لِيَبْكِ رَبَّنَا وَسَعْدِيكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ...".³

4

- حديث: " يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ... وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانَ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ " ⁴.
قال ابن القيم: " ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مئة موضع وروداً متنوعاً متصرفاً فيه، مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقية؛ من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط ... وأخذ الصدقة بيمينه ... وأنه يطوي السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ... " ⁵.

قال ابن خزيمة رحمه الله: " باب: ذكر إثبات اليد للخالق الباريء جلَّ وعلا، والبيان أن الله تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله ... " ، وسرد جملة من الآيات تدل على ذلك، ثم قال: " باب ذكر البيان من سنة النبي صلى الله عليه وسلم على إثبات يد الله جلَّ وعلا موافقاً لما تلونا من تنزيل ربنا لا مخالفاً، قد نرَّه الله نبيه وأعلى درجته ورفع قدره عن أن يقول إلا ما هو موافق لما أنزل الله عليه من وحيه ".⁶

¹ - صحيح مسلم (2760) .

² - صحيح البخاري (3340) ، و صحيح مسلم (194) .

³ - صحيح البخاري (7518) ، و صحيح مسلم (2829) .

⁴ - صحيح البخاري (7411) ، ومسلم (993) .

⁵ - مختصر الصواعق المرسلّة : (171/2)

⁶ - أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: 311هـ) - كتاب التوحيد

وإثبات صفات الرب عز وجل ت: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان - مكتبة الرشد - السعودية - الرياض - ط : 1414هـ -

1994م

وقال أبو الحسن الأشعري : " وأجمعوا على أنه عَزَّ وَجَلَّ يسمع ويرى، وأنَّ له تعالى يدين مبسوطتين " ¹.

- السَّاقُ :

صفة من صفات الذات الخبرية، ثابتة لله تعالى بالكتاب وصريح السنة الصحيحة.
الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم: 42].
الدليل من السنة:

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ... فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن " ².
لا شك أنَّ الساق معلوم عند أهل المعاجم وغيرهم ولكنهم أوردوا أقوالا كثيرة متأولين قوله تعالى " يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ" بما هو سائغ عند أهل اللسان ويوردون الأحاديث والآثار التي تبين أنه صفة تليق بالرحمن ثم ليس عندهم ترجيح فرجحان ولعمر الله كثيرا ما هدموا - إلا من سلّمه الله - لأجل بيت أو قاعدة نحو عقيدة في ذات الله أرسخها الحق المبين بالخبر اليقين فاجنبوا العربية والدين .

وهذا قول الأزهري - وقريب منه أقوالهم - : " وَقَالَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ: { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا } (القلم: 42) .

قَالَ الْفَرَّاءُ: عَن سَاقٍ: عَن شِدَّةٍ.

قَالَ: وَأُنشِدُنِي بَعْضَ الْعَرَبِ لَجْدَ أَبِي طَرْفَةَ:

كشفت لهم عن ساقها

وبدا من الشرِّ البراح

وَقَالَ الزَّجَاجُ فِي قَوْلِهِ: {صَادِقِينَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا} : عَن الْأَمْرِ الشَّدِيدِ.

قَالَ: وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ عَنِ أَبِيهِ عَنِ عُنْدِ عَن شُعْبَةَ عَنِ مُغِيرَةَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {صَادِقِينَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا} : إِنَّهُ الْأَمْرُ الشَّدِيدُ.

¹ - أبو الحسن الأشعري : رسالة إلى أهل النخعر : (ص 225)

² - صحيح البخاري (7439) واللفظ له، وصحيح مسلم (183) .

قَالَ: وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: يَوْمَ يَكْشِفُ الرَّحْمَنُ عَن سَاقِهِ.

وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: قِيلَ لِلأَمْرِ الشَّدِيدِ سَاقٌ لِأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا دَهَمَتْهُ شِدَّةٌ شَمَّرَ لَهَا عَن سَاقِيهِ ثُمَّ قِيلَ لِكُلِّ أَمْرٍ شَدِيدٍ يُتَشَمَّرُ لَهُ سَاقٌ.

وَمِنْهُ قَوْلُ دَرِيدٍ:

كَمِيشُ الإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ

أَرَادَ أَنَّهُ مَشَمَّرَ جَادًّا، وَلَمْ يُرِدْ خُرُوجَ السَّاقِ بِعَيْنِهَا.

وَيُقَالُ: قَامَ فُلَانٌ عَلَى سَاقٍ: إِذَا غَنِيَ بِالأَمْرِ وَتَحَزَّمَ لَهُ.¹

قال شيخ الإسلام: " من أين في ظاهر القرآن أن الله ساقاً وليس معه إلا قوله: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} ، والصحابة قد تنازعوا في تفسير الآية؛ هل المراد به الكشف عن الشدة، أو المراد به أنه يكشف الرب عن ساقه؟ ولم تتنازع الصحابة والتابعون فيما يذكر من آيات الصفات إلا في هذه الآية² ؛ بخلاف قوله: {لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} ، {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} ... ونحو ذلك؛ فإنه لم يتنازع فيها الصحابة والتابعون، وذلك أنه ليس في ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله تعالى؛ لأنه قال: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} ، ولم يقل: عن ساق الله، ولا قال: يكشف الرب عن ساقه، وإنما ذكر ساقاً نكرة غير معرفة ولا مضافة، وهذا اللفظ بمجرد لا يدل على أنها ساق الله، والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفسر للقرآن، وهو حديث أبي سعيد الخدري المخرج في (الصحيحين) ، الذي قال فيه (فيكشف الرب عن ساقه) ، وقد يقال: إن ظاهر القرآن يدل على ذلك من جهة أنه أخبر أنه يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود، والسجود لا يصلح إلا لله، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه.

وأيضاً فحمل ذلك على الشدة لا يصح، لأن المستعمل في الشدة أن يقال: كشف الله الشدة، أي: أزالها، كما قال: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} ، وقال: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ} ، وقال: {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} ، وإذا كان المعروف من ذلك في اللغة أن يقال: كشف الشدة؛ أي: أزالها؛ فلفظ الآية: {يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} ، وهذا يراد به الإظهار والإبانة؛ كما قال: {كشفنا عنهم} وأيضاً فهناك

¹ - الأزهري - تهذيب اللغة : 184/9 .

² - ليس المقصود أن الصحابة اختلفوا في إثبات صفة الساق لله عزَّ وجلَّ مع ورودها صراحةً في حديث أبي سعيد المتقدم، بل مقصوده أنهم اختلفوا في تفسير الآية؛ هل المراد بها الكشف عن الشدة، أو المراد الكشف عن ساق الله؟ والله أعلم.

تحدث الشدة لا يزيلها، فلا يكشف الشدة يوم القيامة، لكن هذا الظاهر ليس ظاهراً من مجرد لفظة {ساق} ، بل بالتركيب والسياق وتدبر المعنى المقصود .¹ وتتكرر الساق في الآية للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة؛ جلت عظمتها، وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه.

المطلب الثاني : اشتقاق الأسماء المتضمنة لصفة ذات الله عز وجل

معلوم أن عقيدة السلف تقوم على إثبات جميع الصفات الذاتية منها والفعلية، وأثبتوا أن الله متصف بذلك أولاً، وأن الصفات الناشئة عن الأفعال موصوف بها في القدم، وإن كانت المفعولات محدثة ، فيقال للصفات الثبوتية: صفات الذات إضافة إلى الذات العلية لملازمتها للذات لأنها لا تتجدد تجدد صفات الأفعال، فهي بهذا الاعتبار ذاتية، ومن حيث دلالتها على معنى ثبوتي ووجودي يقال: (ثبوتية، كالعلم والسمع والبصر والعزة والحكمة) وغيرها. وهي بهذا الاعتبار تقابل السلبية وقد تقدم الكلام عليها.

ومن الصفات الذاتية صفات شرعية وعقلية مثل الصفات السلبية الخمس المعروفة عند الأشاعرة وصفات المعاني التي تقدم الكلام فيها، ومنها صفات خبرية محضة وهي الصفات التي الأصل في إثباتها الخبر عن الله عز وجل أو عن رسوله المعصوم مثل الوجه واليد والقدم والساق والأصابع هذه صفات ذاتية ملازمة للذات العلية وثابتة ثبوت الذات، فإذا هي ثبوتية وذاتية وهي معروفة بالصفات الخبرية، وسيأتي تفصيل الكلام فيها وهي تقابل الصفات الفعلية المتجددة كما تقابل الصفات السلبية من حيث الدلالة، والله أعلم.

أما الصفات المتعلقة بالذات، التي تقابل صفات أفعاله فهي :

الحيّ / أحد - واحد - الإله - الحق الربّ / الأول / الآخر / الظاهر / الباطن / الأعلى / الجبار
الصمد / العزيز / العليّ / العظيم / الغنيّ / القادر / القدير / المقتدر / القويّ / الكبير / المتكبر
/ المتين / المجيد / الرحمن / البر / الحميد / اللطيف / النور / السلام .

¹ - ابن تيمية - نقض أساس التقديس : 261 .

1- الحي :

الْحَيَاةُ : صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة، و (الحي) اسم من أسمائه تعالى.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: 2] .

2- وقوله: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: 58] . الدليل من السنة:

حديث ابن عباس رضي الله عنهما: " اللهم لك أسلمت، وبك آمنت ... أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون " ¹.

قال شيخ الإسلام في " دقائق التفسير " : " كلامه وحياته من صفاته كعلمه وقدرته " ².

وقال في "الجواب الصحيح" : " لم يعبر أحد من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله فمن حمل كلامَ أحدٍ من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به حياة الله فقد كذب " ³

وقال الهَرَّاسُ في شرحه لنونية ابن القيم : " ومعنى الحي: الموصوف بالحياة الكاملة الأبدية، التي لا يلحقها موت ولا فناء، لأنها ذاتية له سبحانه، وكما أنَّ قيوميته مستلزمة لسائر صفات الكمال الفعلية؛ فكذاك حياته مستلزمة لسائر صفات الكمال الذاتية من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعزة والكبرياء والعظمة ونحوها " ⁴

3/2- الواحد / الأحد :

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَحْدَانِيَّةِ بدلالة الكتاب والسنة، و (الواحد) من أسمائه تعالى.

الدليل من الكتاب:

- قوله تعالى: {إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [النساء: 171] .

- وقوله: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]

- وقوله: { قل هو الله أحد } [الإخلاص: 1]

الدليل من السنة:

¹ - صحيح مسلم (2717) .

² - دقائق التفسير - ت : محمد السيد الجليند - مؤسسة علوم القرآن - دمشق - ط : 1404 - ص: (102/2)

³ - الجواب الصحيح " (50/4) - دقائق التفسير: (102/2)

⁴ - شرح النونية : (103/2)

قوله صلى الله عليه وسلم: " ... لا إله إلا الله وحده لا شريك ... " وقد تكرر في كثير من الأحاديث الصحيحة.

قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: " ... فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى ... " ¹

الوَاحِدُ : هُوَ الْفَرْدُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَحْدَهُ؛ وَ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ آخَرُ. وَقِيلَ هُوَ الْمُنْقَطِعُ الْقَرِينِ، الْمَعْدُومُ الشَّرِيكَ، وَالنَّظِيرِ، وَلَيْسَ كَسَائِرِ الْآحَادِ مِنَ الْأَجْسَامِ الْمُؤَلَّفَةِ؛ إِذْ كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ يُدْعَى وَاحِدًا فَهُوَ وَاحِدٌ مِنْ جِهَةٍ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ جِهَاتٍ.

وَاللَّهُ -سُبْحَانَهُ- الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَالْوَاحِدُ لَا يُنْتَى مِنْ لَفْظِهِ وَلَا يُقَالُ وَاحِدَانٍ .
ولأجل هذا المعنى يقرن الواحد معرفا بالقهار وإذا نكر يأتي تابعا خبرا أو وصفا لإله ليراد بهما معا الله المألوه وحده بحق

- الْأَحَدُ: قَالَ النَّحْوِيُّونَ: أَصْلُهُ فِي الْكَلَامِ: الْوَحْدُ

يُقَالُ: وَحَدَ الشَّيْءُ يَوْحَدُ فَهُوَ وَحْدٌ. كَمَا يُقَالُ: حَسُنَ الشَّيْءُ يَحْسُنُ فَهُوَ حَسَنٌ. ثُمَّ أُبْدِلُوا عَنِ الْوَاحِدِ الْهَمْزَةَ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْوَاحِدِ، وَالْأَحَدِ أَنْ الْوَاحِدَ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالذَّاتِ لَا يَضَامُهُ آخَرٌ، وَالْأَحَدُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْمَعْنَى لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلْمُنْتَاهِي فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ هُوَ أَحَدُ الْأَحْدِينَ. وَمِمَّا يَفْتَرِقَانِ بِهِ فِي مَعَانِي الْكَلَامِ: أَنْ الْوَاحِدَ فِي جِنْسِ الْمَعْدُودِ، وَقَدْ يُفْتَتَحُ بِهِ الْعَدَدُ. وَالْأَحَدُ يَنْقَطِعُ مَعَهُ الْعَدَدُ.

وَأَنَّ الْأَحَدَ يَصْلُحُ فِي الْكَلَامِ فِي مَوْضِعِ الْجُحُودِ. وَالْوَاحِدُ فِي مَوْضِعِ الْإِثْبَاتِ. تَقُولُ: لَمْ يَأْتِنِي مِنَ الْقَوْمِ أَحَدٌ. وَجَاءَنِي مِنْهُمْ وَاحِدٌ. وَلَا يُقَالُ: جَاءَنِي مِنْهُمْ أَحَدٌ. ²

الوَاحِدُ وَضِعَ الْكَلِمَةَ فِي اللَّغَةِ إِنَّمَا هُوَ لِلشَّيْءِ الَّذِي لَيْسَ بِأَنْثَيْنِ وَلَا أَكْثَرَ مِنْهُمَا وَفَائِدَةُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِي اللَّهِ عَزَّ اسْمُهُ إِنَّمَا هِيَ تَفْرِدُهُ بِصِفَاتِهِ الَّتِي لَا يَشْرِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْوَاحِدُ فِي الْحَقِيقَةِ وَمَنْ سِوَاهُ مِنَ الْخَلْقِ أَحَادٌ تَرَكِبَتْ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي هَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ مِنْ طَرِيقِ الْعَدَدِ أَمْ لَا فَلَيْسَ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِمَا نَحْنُ فِيهِ إِذِ الْعَرَضُ هَا هُنَا ذَكَرَ وَضِعَ الْكَلِمَةَ وَفَائِدَةُ مَقْتَضَاهَا فِي الْإِطْلَاقِ .

¹ - صحيح البخاري (7372) .

² - الخطابي - شأن الدعاء : 83 / 82 .

قال الزجاج : " الأَحَدَ قَالَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ أَصْلُهُ وَحَدَّثَ قَلْبَتِ الْوَاوِ هَمْزَةٌ وَهَذَا فِي الْكَلَامِ عَزِيزٌ جَدًّا أَنْ تَقْلِبَ الْوَاوِ الْمَفْتُوحَةَ هَمْزَةً وَلَمْ نَعْرِفْ لَهُ نَظِيرًا إِلَّا أَحْرَفًا يَسِيرَةً مِنْهَا أَنَاةٌ وَأَحْرَفَ نَظِيرَتَهَا وَيُقَالُ هَذَا وَاحِدٌ وَوَحْدٌ كَمَا قَدَمْنَا مِنْ سَالِمٍ وَسَلَّمَ وَحَاكِمٍ وَحَكَمَ وَقَالَ النَّابِغَةُ :

... على مستأنسٍ وحَدٌ " 1 .

وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْمَعَانِي الْفَرْقَ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْأَحَدِ أَنَّ الْوَاحِدَ يُفِيدُ وَحْدَةَ الدَّاتِ فَقَطَّ وَالْأَحَدُ يَفِيدُهُ بِالدَّاتِ وَالْمَعَانِي وَعَلَى هَذَا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} أَرَادَ الْمُنْفَرِدَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ تَعَالَى اللَّهُ عُلُوًّا كَبِيرًا " 2

4 - الحق :

يُوصَفُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ اسْمٌ لَهُ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ.
الدليل من الكتاب:

- قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الحج: 6] .
 - وقوله تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: 116] .
- الدليل من السنة:

حديث ابن عباس رضي الله عنهما: " ... أنت الحق وقولك الحق " 3 .

ففي لسان العرب : الحقُّ نقيضُ الباطل . تقول : حقَّ الشيءَ يَحِقُّ حَقًّا أَي وَجَبَ وَجُوبًا فَالْحَقُّ صِفَةٌ مَشْبَهَةٌ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ثَابِتَةٌ لِأَزْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحَقُّ شَيْءٌ بِهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ الْحَقُّ : فِي ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، فَهُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ كَامِلُ الصِّفَاتِ وَالنَّعْوَتِ، وَجُودِهِ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَلَا وَجُودَ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِهِ .

فهو الذي لم يزل، ولا يزال بالجلال، والجمال، والكمال، موصوفاً.
ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسوله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء إليه فهو حق {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

1 - ديوانه - ص : 18 . وتمايم البيت : كَأَنَّ رَحْلِي ، وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا ، ** يَوْمَ الْجَلِيلِ ، عَلَى مُسْتَأْنَسٍ وَحِدٍ

2 - الزجاج : تفسير أسماء الله الحسنى : 58 57

3 - صحيح البخاري (7385)

هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} الحج (62) . {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ} الكهف (29) {فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} يونس (32) {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}

- " عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ بِهَذَا اللَّهْمِ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قِيَوْمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ أَنْتَ الْحَقُّ وَقَوْلِكَ الْحَقُّ وَوَعْدِكَ الْحَقُّ وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أُنْبِتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاعْفِرْ لِي مَا قَدِمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ " ¹

والحق: " هُوَ الْمُتَحَقِّقُ كَوْنُهُ وَوُجُودُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ صَحَّ وَجُودُهُ وَكَوْنُهُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -: (الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ) [الحاقة/ 1 - 2] مَعْنَاهُ: -والله أعلم- الْكَائِنَةُ حَقًّا لَا شَكَّ فِي كَوْنِهَا، وَلَا مَدْفَعٍ لَوْفُوعِهَا، وَيُقَالُ: الْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ. يُرَادُ أَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: إِنَّ فُلَانًا رَجُلٌ حَقٌّ الرَّجُلِ. وَالشُّجَاعُ حَقٌّ الشُّجَاعِ، وَحَاقَ الشُّجَاعَ، وَحَاقَةَ الشُّجَاعَ، إِذَا أُتْبِتُوا لَهُ الشُّجَاعَةَ وَحَقِيقَتَهَا. ²

5 - الربّ

الرُّبُوبِيَّةُ: صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذَلِكَ مِنْ اسْمِهِ " الرَّبِّ " الثَّابِتُ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ فِي مَوَاضِعٍ عَدِيدَةٍ؛ تَارَةً وَحْدَهُ " الرَّبِّ " ، وَتَارَةً مُضَافًا؛ مِثْلُ: " رَبِّ الْعَالَمِينَ " ، وَ " رَبِّ الْمَشْرِقِينَ ".
الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: 2] .

2- وقوله: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} [الرحمن: 17] .

? الدليل من السنة:

1- حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: " ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راکعاً وساجداً، فأما الركوع؛ فعظموا فيه الربَّ عزَّ وجلَّ ... " ³.

¹ - أخرجه البخاريّ و أخرجه مسلم و أخرجه أبو داؤد و أخرجه التّسائيّ و أخرجه ابن ماجة و أخرجه الدّارميّ

² - شأن الدعاء : 76

³ - صحيح مسلم برقم (479)

ومعنى الرَّبِّ: المالك والمتصرف والمدبر والسيد والمربي، وهو صفة مشبهة على وزن فعل من رَبَبَ

قال الجوهري: "رب كل شيء: مالكه. والرَّبُّ: اسم من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك. قال الحارث بن حِزَّة: وهو الرَّبُّ والشهيدُ على يَوْ * م الحيارينِ والبلاءُ بلاءُ

والرَّبَّانِيَّ: المُتَّالِهُ العارف بالله تعالى. وقال سبحانه: (كونوا رَبَّانِيَّينَ) : وَرَبَّبْتُ القومَ: سُسْتُهُمُ، أي كُنْتُ فوقهم. قال أبو نصر: وهو من الرُّبُوبِيَّةِ. ومنه قول صفوان " لَأَنْ يَرْبِّيَ رَجُلٌ من قريش أَحَبُّ إِلَيَّ من أن يَرْبِّيَ رَجُلٌ من هَوَازِنَ. وَرَبَّ الضَّيْعَةَ، أي أصلحها وأتمَّها. وَرَبَّ فلان ولده يَرْبِيهِ رَبًّا، وَرَبَّبَهُ، وَتَرَبَّبَهُ، بمعنى أي رَبَّاهُ. والمَرْبُوبُ: المرَبَّى.¹

قال ابن قتيبة في غريب القرآن: " ومن صفاته (الرب) ، والرب المالك، يُقال: هذا رب الدار ورب الضيعة ورب الغلام؛ أي: مالكه، قال الله سبحانه: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ} ؛ أي: إلى سيدك. ولا يُقال لمخلوق: هذا الرَّبُّ؛ معرفاً بالألف واللام؛ كما يُقال لله، إنما يُقال: هذا رب كذا، فيُعرَّفُ بالإضافة؛ لأن الله مالك كل شيء. فإذا قيل: الرَّبُّ؛ دلَّت الألف واللام على معنى العموم، وإذا قيل لمخلوق: ربُّ كذا وربُّ كذا؛ نُسب إلى شيء خاص؛ لأنه لا يملك [شيئاً] غيره)) اهـ.²

" الرَّبُّ: وَمَعْنَاهُ السَّيِّدُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْمَالِكُ، وَقِيلَ: هُوَ الْمُبْلَغُ كُلُّ مَا أَبْدَعَ حَدَّ كَمَالِهِ الَّذِي قَدَّرَهُ لَهُ، فَهُوَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مِنْ صِفَاتِ فِعْلِهِ، وَعَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ " ³

والرَّبُّ ينقسم على ثلاثة أقسام: ⁴

يكون الرب: المالك.

ويكون الرب: السيِّدُ المُطَاع. قال الله عز وجل: {فيسقي رَبَّهُ حَمْرًا} يوسف: 41. معناه: فيسقي سيده. قال الشاعر ⁵ :

وأهلكن يوماً ربَّ كِنْدَةَ وابنه ... وربَّ مَعَدَّ بينَ خبِتٍ وَعَرَعَرِ

¹ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : 131 . لسان العرب : 399 .

² - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى : 276هـ) - غريب الحديث - ت : أحمد صقر - دار الكتب العلمية . ط : 1398 هـ - 1978 م - ص : 9 .

³ - الاعتقاد للبيهقي : 59

⁴ - نقل الأزهري أقوال أبي بكر في التهذيب 15 / 177 والجواليقي في تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة 17.

⁵ - لبيد. ديوانه: 55.

فمعناه: وأهلكن سيّد كندة. وقال عدي بن زيد¹ :
(إنّ ربّي لولا تداركُهُ الملكَ ... بأهلِ العراقِ ساءَ العذيرُ)
يريد بالرب: السيد.

ويكون الرب: المصلح. من قولهم: قد رب الرجل / الشيءَ يربُّه ربّاً، والشيءُ مربوبٌ: إذا أصلحه. قال الشاعر:

يُربُّ الذي يأتي من العُرفِ إنَّه ... إذا سُئِلَ المعروفَ زادَ وتَمَّما
وليسَ كبانٍ حينَ تمَّ بناؤه ... تتبعه بالنقضِ حتى تَهَدَّما²
وقال الفرزدق³:

(كانوا كسائنةٍ حمقاءَ إذا حَقَّنتُ ... سيلاءَها في أديمٍ غيرِ مربوبِ)
معناه: غير مصلح. ويقال: ربُّ، بالتشديد، ورَبُّ، بالتخفيف. قال الفراء: أنشدني المُفضَّلُ:
وقد عَلِمَ الأَقوامُ أنْ ليسَ فوقَهُ ... رَبٌّ غيرَ مَنْ يعطي الحظوظَ ويرزقُ⁴

9/8/7/6 : الأول / الآخر / الظاهر / الباطن

الأوَّلِيَّةُ صفةٌ ذاتيةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك من اسمه (الأوَّل) ، الثابت في الكتاب والسنة، ومعناه:
الذي ليس قبله شيء.
الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: {هُوَ الأوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3] .
الدليل من السنة:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: " ... اللهم أنت الأوَّل؛ فليس قبلك شيء ... " ⁵ .
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَسْأَلُكُمُ النَّاسُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى يَسْأَلُوكُمْ: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ قَالَ سُفْيَانُ قَالَ جَعْفَرٌ:

¹ - ديوانه 92. والعذير: الحال.

² - الأول فقط بلا عزو في تهذيب اللغة 15 / 177 وتكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة 17.

³ - ديوانه 1 / 24 وينظر شرح القصائد السبع: 165 والسائلة التي تصفي السمن، والأديم الجلد.

⁴ - تهذيب اللغة 15 / 128 . أبو بكر الأنباري (المتوفى: 328هـ) - الزاهر في معاني كلمات الناس - ت : حاتم صالح

الضامن - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط : 1 / 1412 هـ - 1992 - ص : 468 .

⁵ - صحيح مسلم برقم (2713) .

فَحَدَّثَنِي رَجُلٌ آخَرُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ جَعَفَرٌ كَانَ يَرْفَعُهُ: " فَإِنْ سُنِّتُمْ فَقُولُوا:
اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ كَائِنٌ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ " ¹

واسمه الأول صيغة تفضيل سواء كانت من جذر وول أو أول دال على منتهى الأولية قال الخليل : " فأما الأوائل من الأوّل فمنهم من يقول: تأسيس بنائه من همزة وواوٍ ولامٍ. ومنهم من يقول: تأسيسه من واوين بعدهما لام، ولكلّ حجةٌ ... فمن قال: إن تأليفها من همزة وواوٍ ولام فكان ينبغي أن يكون أفعال منه: أول، ممدود كما تقول من آب يؤوب: آوب، ولكنهم احتجوا بأن قالوا: أَدْعِمَتِ تلك المدّة في الواو لكثرة ما جرى على الألسن.. ومن قال: إن تأليفها من واوين ولام جعل الهمزة ألفَ أفعالٍ وأدغم إحدى الواوين في الأخرى وشددهما " ² والأول: هُوَ السَّابِقُ لِلأَشْيَاءِ كُلِّهَا، الكَائِنُ الذي لَمْ يَزَلْ قَبْلَ وُجُودِ الخَلْقِ فَاسْتَحَقَّ الأوَّلِيَّةَ إِذْ كَانَ مَوْجُودًا وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ وَلَا مَعَهُ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: "أَنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ".

الآخِرُ: هُوَ البَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ الخَلْقِ، وَلَيْسَ مَعْنَى الآخِرِ مَا لَهُ الاِنتِهَاءُ. كَمَا لَيْسَ مَعْنَى الأوَّلِ مَا لَهُ الاِبْتِدَاءُ؛ فَهُوَ الأوَّلُ وَالاخِرُ وَلَيْسَ لِكُونِهِ أوَّلٌ وَلَا آخِرٌ

وهو بوزن فاعل وإذا أطلق بأل التعريف من دون قرينة مخصصة له أريد به الله عز وجلّ. - الظاهرُ: هُوَ الظَّاهِرُ بِحُجَجِهِ البَاهِرَةِ، وَبِرَاهِينِهِ النَّيِّرَةِ وَيَسْوَهِدِ أَعْلَامِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ثُبُوتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَصِحَّةِ وَحْدَانِيَّتِهِ وَيَكُونُ الظَّاهِرُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ، وَ يَكُونُ الظَّهْوَرُ بِمَعْنَى العُلُوِّ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى العَلْبَةِ.

وكل هذه المعاني حقة في حق الله ، وهو بوزن فاعل وإذا أطلق بأل التعريف من دون قرينة مخصصة لدلالاته أريد به الله عز وجلّ.

وَكَانَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: "أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ"

- البَاطِنُ: هُوَ المُحْتَجِبُ عَنِ أَبْصَارِ الخَلْقِ، وَهُوَ الذي لَا يَسْتَوَلِي عَلَيْهِ تَوْهُمُ الكَيْفِيَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى الظَّهْوَرِ وَالبَطُونِ اِحْتِجَابُهُ عَنِ أَبْصَارِ النَّاظِرِينَ، وَتَجَلِّيهِ لِابْصَارِ المُتَفَكِّرِينَ. وَيَكُونُ مَعْنَاهُ:

¹ - الأسماء والصفات للبيهقي : 37

² - العين - 368/8 .

العالم بما ظهر من الأمور والمطلع على ما بطن من الغيوب. وهو بوزن فاعل وإذا أطلق بأل التعريف من دون قرينة مخصصة لدلالته أريد به الله عز وجل¹.

قال ابن القيم رحمه الله :

" فأوليته الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وأخريته ثابتة بعد آخريته كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وأخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية، ومكانية، فإحاطة أوليته وأخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى أخريته، فأحاطت أوليته وأخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فالأول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه، فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بأخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا توارى منه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في أخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً²

12/11/10 : العلي / الأعلى / المتعالي:

العلو والفوقية : صفة ذاتية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة، ومن أسمائه (العلي) و (الأعلى) و (المتعالي) .

والعلو ثلاثة أقسام:

1- علو شأن

2- علو قهر .

3- علو فوقية (علو ذات) .

¹ - الخطابي . . شأن الدعاء 87 88

² - ابن القيم - طريق الهجرتين - ص 27:

وأهل السنة والجماعة يعتقدون أنّ الله فوق جميع مخلوقاته، مستوٍ على عرشه، في سمائه، عالياً على خلقه، بائناً منهم، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم لا تخفى عليه خافية.

الدليل من الكتاب:

الأدلة من الكتاب كثيرة جداً ومن ذلك:

1- قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255].

وقوله: {سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1].

3- وقوله: {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ} [الرعد: 9]

" فالعُلُوُّ لله سبحانه وتعالى عن كلِّ شيءٍ فهو أعلى وأعظم مما يُتَنَى عليه، لا إله إلا الله وحده لا شريك له. والعلو: أصل البناء. ومنه العلاء والعلو، فالعلاء الرِّفْعَةُ، والعلُوُّ العظمة والتجبر. [يقال]: علا ملكٌ في الأرض [أي: طعى وتعظّم]. قال الله عزّ وجلّ: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ... وَعُلُوُّ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ تَرْفَعُ الْعَيْنَ وَتَخْفِضُ. وذهب في السماء علواً وفي الأرض سفلاً. والعلُوُّ والسُّفْلُ: أعلى كلِّ شيءٍ وأسفله. و [يقال]: سِفْلُ الدَّارِ وَعِلْوُهَا، وَسِفْلُهَا وَعُلْوُهَا.¹ لم يصف الله عز وجل نفسه في كتابه بالعالِي لا مطلقة ولا مضافة ووصفها بالعلي والأعلى والمتعالي .

العلي: هم اسم من أسماء الله تعالى، وهو على وزن (فعليل) مبالغة فاعل، أي العالِي، هو الذي ليس فوقه شيء .

ومن الحكَم اللطيفة أن شرع الله لعباده أن يقولوا في سجودهم: "سبحان ربي الأعلى" شرع لهم ذلك على لسان نبيه، وفي هدي رسوله إشارة إلى علوه الدائم، حتى لا يفهم من سجود العبد على الأرض أن معبوده في أسفل منه - حاشاه - بل كلما يزداد العبد خضوعاً وتذلاً، لمعبوده العلي العظيم ازداد منه قرباً معنوياً ومعية خاصة، تخص خواص عباده المؤمنين، وفي هذا يقول رسول الهدى، ونبي الرحمة محمد عليه الصلاة والسلام: "أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد فأكثرُوا الدعاء"²

¹. الخليل - العين : 2/ 245 . 246

² . صحيح مسلم، باب ما يقال في الركوع والسجود 200/4.

الأعلى : صيغة تفضيل من العلو أو العلاء وهذا الوصف يليق به على الاشتقاقين وإن وصف به خلقه فله عز وجل المثل الأعلى حتى في صفة الأعلى المتعالي: هو اسم من أسماء الله تعالى، على وزن متفاعل وفعله " تفاعل " وسواء كان من "علا" أم "علي" فالتاء للتقرد والتخصيص بالعلو أو العلاء ، لَا تَاءُ التَّعَاطِي والتَّكْلُفِ ، فهو المنتزعة عن صفات المخلوقين، تَعَالَى أَنْ يُوصَفَ بِهَا، وَارْتَفَعَ عَنْ مُسَاوَاتِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْعَالِي فَوْقَ خَلْقِهِ " لأن تفاعل تأتي بمعنى فعل "

13- الجبار

الْجَبْرُوتُ

صفة ذاتية لله عز وجل، من اسمه (الجبار) ، وهي ثابتة بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: {الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} [الحشر: 23] .

الدليل من السنة:

- حديث عوف بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فلما ركع؛ مكث قدر سورة البقرة يقول في ركوعه: " سبحانه ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة" ¹

- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الرؤية: " قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رآوه فيها أول مرة ... " ² .

قال الخليل : الجبر: الاسم، وهو أن تجبر إنساناً على ما لا يريد وتكرهه جبريةً على كذا والجبر: أن تجبر كسراً، وتقول: جبرته فجبر، قال:

قد جبر الدين الإله فجبر ³

وجبرت فلاناً فاجتبر أي نزلت به فاقة فأحسننت إليه. واستجبرته إذا كان ذلك منك بتعاهد حتى تبلغ غاية الجبر، كقولك: لأستصرنك ثم لأجبرنك أي لأديننك ثم لأجبرنك، كقوله:

من عال منا بعدها فلا اجتبر ¹

¹ - حديث حسن. رواه: أبو داود، والنسائي. انظر: (صحيح سنن النسائي: 1004)

² - صحيح البخاري برقم : (7439) .

³ - مطلع أرجوزة (للعجاج) يمدح فيها عمر بن عبد الله بن معمر، الديوان (مجموع أشعار العرب) ص 15

وتقول: أصابت فلاناً مُصيبة لا يَجْتَبِرُها، أي لا مَجَبَرَ لها. والجِبَارَةُ: الخَشْبَةُ تُوضَعُ على الكسْرِ حتى يَنْجَبِرَ العِظْمُ، والجميعُ الجَبَائِرُ.

والله- تَبَارَكَ وتعالى-: الجَبَارُ العزيزُ أي قهر خلقه، فلا يملكون منه أمراً، وله التَّجَبُّرُ وهو التعَظُّمُ. والله الجَبَرِيَّةُ والجَبَرُوتُ. والجَبَرُوتُ لغَةٌ في الجَبَرُوتِ. والجَبَارُ: العاتي على رَبِّه، القتالُ لِرَعِيَّتِهِ. والجَبَارُ من الناس: العظيم في نفسه الذي لا يقبلُ موعِظةَ أحدٍ.

والجَبَارُ من النَّخْلِ: الذي قد بلغ غايةَ الطُّولِ في الفَنَاءِ²

والجبار ينقسم على ستة أقسام³:

يكون الجبار: القهار.

ويكون الجبار: المسلط، قال الله عز وجل: {وما أنت عليهم بجبارٍ} [ق: 45]، معناه: وما أنت عليهم بمسلط.

ويكون الجبار: القوي، العظيم الجسم؛ كقوله عز وجل: {إنَّ فيها قوماً جبارين} [المائدة 22]، معناه: أقوىاء أشداء عظام الأجسام.

ويكون الجبار: المتكبر عن عبادة الله؛ كقوله: {ولم يجعلني جباراً شقياً} [مريم 32] ، أي: لم يجعلني متكبراً عن عبادته.

ويكون الجبار: القتال؛ كقوله تعالى: {وإذا بطشتم بطشتم جبارين} [الشعراء 130] ، معناه: بطشتم قتالين. ومن ذلك قوله: {إنَّ تُرَيْدُ إلاَّ أن تكونَ جباراً في الأرض} [القصص 19]، معناه: إلا أن تكون قتالاً في الأرض.

ويكون الجبار: الطويل من النخل.

ويقال: أجبرت الرجل على كذا، أجبره إجباراً: إذا أكرهته على فعله؛ هذه لغة عامة [العرب]. وتميم تقول (33): جبرت الرجل على كذا، أجبره جَبْرًا وجُبُورًا.

ويقال: جبرت اليتيم والفقير أجبره جَبْرًا وجُبُورًا، فجبر الفقير جبراً. وجُبُورًا، وانجبرَ انجباراً، واجتَبَرَ اجتباراً. ويقال: قد جبر الدينَ الإلهُ جَبْرًا، (178) فجبر الدينَ جبوراً. قال العجاج :

¹ - صدر بيت (العمر بن كلثوم) كما في اللسان وعجزه: ولا سقى الماء ولا راء الشجر

² - معجم العين : 6 / 116 - 117

³ - محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: 328هـ) - الزاهر في معاني كلمات الناس - ت : حاتم

صالح الضامن - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط : 1 / 1412 هـ - 1992

قد جَبَرَ الدينَ الإلهَ فَجَبَّرَ ...

وعَوَّرَ الرحمنُ مَنْ وَلَّى العَوْرَ ...¹

ويقال: جبرت اليد الكسير أجبرها جَبْرًا، وجبوراً، وجِبارة.

وقال ابن القيم في " النونية " :

" وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ فِي أَوْصَافِهِ ... وَالْجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلُّ قَلْبٍ قَدْ عَدَا ... ذَا كَسْرَةٍ فَالْجَبْرُ مِنْهُ دَانٍ

وَالثَّانِي جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِي ... لَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانٍ

وَلَهُ مُسَمَّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُدُّ ... وَفَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانٍ

مِنْ قَوْلِهِمْ جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ الْعُلْيَا ... الَّتِي فَانَتْ لِكُلِّ بَنَانٍ " ²

وعلى المعنيين الأولين يكون من صفات الفعل وعلى الثالث يكون من صفات الذات فقط

ووزن فعّال في أسماء الله وصفاته لا شك للمبالغة في الاتصاف بالفعل فيستحيل إحصاء قهره

وجبره وعلمه ورزقه وفتحته وتوبته على خلقه وغيرها من صفات جماله وجلاله العائدة بالخير

المحض على خلقه .

14 - الصمد :

صفة ذاتية لله عَزَّ وَجَلَّ، وهو اسمٌ له ثابتٌ بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

قوله تعالى في سورة الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ - اللهُ الصَّمَدُ} ، ولم يرد هذا الاسم إلا في

هذه السورة.

الدليل من السنة:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه القدسي: ((كذبني ابن آدم ... وأما شتمه إياي؛ فقوله: اتخذ الله

ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد³ .

¹-ديوانه - ص : 4. وعور أفسد. والعور قبح الأمر وفساده

² - النونية : 209 . وينظر أيضا في هذه المعاني الثلاثة : شأن الدعاء للخطابي : 48 .

³ -صحيح البخاري (4974) .

قال الخليل في معنى الصمد: الصَّمَدُ عن الحَسَنَ: الذي أصمدت إليه الأمور، فلا يعتني فيها أحدٌ غيره. وصَمَدْتُ: قَصَدْتُ. وفي العربية: الصَّمَدُ السَّيِّدُ في قومه، ليس فوقه أحدٌ، ولا يُقضى أمرٌ دونه، قال:

خُذْهَا حُدَيْفَ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ .

ويقال: هو المُصَمَّتُ الذي ليس بأجوف. والصَّمَدَةُ (والصُّمْدَةُ): صخرة راسية في الأرض مستوية بمثنٍ من الأرض، وربما ارتفعت شيئاً. وصَمَدْتُ صَمَدًا كذا أي قَصَدْتُ قَصَدَهُ واعْتَمَدْتُهُ. فهذا الاسم صفة مشبهة باسم الفاعل ولا أدل علغناه وكماله وجلاله وعظمته وقوته ومثانته من وزنه وحركاته، فهو " فَعَلٌ " أثبت في الدلالة على الفاعلية " الصمدية " من " صامد بزنة فاعل ولأجل تفرده بالصمدية الكاملة تصمد إليه الخلائق فهو " فَعَلٌ " بمعنى " مفعول " أي مصمود إليه .

وكذا الشأن في " الأحد " ففيه ثبات وكمال الفاعلية " الواحدية " التي تقتضي المفعولية فهو وحده الموحّد بحق ، فالصمد " يتضمن صفات الكمال واسم " الأحد " يتضمن نفي المثل والند فهو المستحق للكمال وهو السيد الذي كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحكم الذي قد كمل في حكمه والغني الذي قد كمل في غناه والجبار الذي قد كمل في جبروته والعالم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الشريف الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد وهو الله سبحانه وتعالى. وهذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفؤ ولا كمثل شيء. فهو أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء بحمل أو غير حمل بل هو الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد الذي كل ما سواه مفتقر إليه وهو مستغن عن كل ما سواه.

ولمّا كان الصمد هو السَّيِّدُ الذي يُصَمَدُ إليه في الحوائج، أي: يُقَصَدُ ولا يُقَدَّرُ على قضائها إلا هو صار فَعَلًا بمعنى مَفْعُولٍ إليه ، وهذا معنى غير مدفوع .

15- العزيز :

صفة ذاتية ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة، و (العزيز) و (الأعز) من أسماء الله عز وجل. الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: 129] .

2- وقوله: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} [آل عمران: 26] .

3- وقوله: {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء: 139] ، {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [يونس: 65] ، {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10] ، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: 8] .
الدليل من السنة:

1- حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: " قال الله عزَّ وجلَّ: العِزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني؛ عذبتة " ¹.

العزير الذي له العزة كلها عزة القوة، وعزة الغلبة وعزة الامتناع، فممتنع أن يناله أحد من المخلوقات وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليفة وخضعت لعظمته فمعاني العزة الثلاث كلها كاملة لله العظيم عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت، وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضرة فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه بل هو الضار النافع المعطي المانع، وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقصورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به قال الخطابي رحمه الله: " العزيز هُوَ الْمَنِيعُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ. وَالْعَزُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ. أَحَدُهَا: بِمَعْنَى الْغَلْبَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ:

مَنْ عَزَّ بَرٌّ ²، أَي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، يُقَالُ مِنْهُ: عَزَّ يَعُزُّ - بضم العين - مِنْ يَعُزُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) [ص / 23].

والثاني: بِمَعْنَى الشَّدَةِ وَالْقُوَّةِ. يُقَالُ مِنْهُ: عَزَّ يَعُزُّ - بفتح العين - مِنْ "يَعُزُّ" ، كَقَوْلِ الْهَذَلِيِّ يَصِفُ الْعُقَابَ:

حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى فِرَاشِ عَزِيْزَةٍ ... سَوْدَاءَ رُوْتَةٍ أَنْفِهَا كَالْمِخْصَفِ ³
جَعَلَهَا عَزِيْزَةً، لِأَنَّهَا مِنْ أَقْوَى جَوَارِحِ الطَّيْرِ.

¹ - صحيح مسلم برقم : (2620)

² - قالت الخنساء في رثاء أخويها، الديوان ص 86: كأن لم يكونوا حمى يبقى ... إذ الناس إذ ذاك من عزَّ برًّا

³ - وفي مقاييس اللغة 2/ 182 وتهذيب الأزهري 7/ 147 برواية: فتخاء، بدل، سوداء، وفي اللسان والقاموس وشرحه (عزز). وفي الديوان، يريد: أن منسرها حديد دقيق كأنه مخصف. والروثة: طرف الأنف، وفراشها: عشاها.

والبيت استشهد به الزجاج في تفسير الأسماء ص 34 على معنى "العزيز"

وَالْوَجْهَ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى نَفَاسَةِ الْقَدْرِ. يُقَالُ مِنْهُ: عَزَّ الشَّيْءُ يَعِزُّ - بِكسر العين - مِنْ يَعِزُّ، فَيَتَأَوَّلُ مَعْنَى الْعَزِيزِ عَلَى هَذَا، أَنَّهُ الَّذِي لَا يَعَادِلُهُ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فعزيز من عزَّ يعزَّ بمعنى غلب صفة فعلية مفعولاتها ما سواه عزَّ وجلَّ ، وهو هنا فاعيل عوض عن فاعل لأن العرب لم يسمع عنها عازز بمعنى غالب ، وبمعنى الشديد والقوي هو صفة ذاتية أزلية أبدية وهو على قياس نضائره من فعل يفعل صفة مشبهة باسم الفاعل دالة على الثبوت واللزوم ، والكلام ذاته على المعنى الثالث وزيادة فيه أنه يحتمل فاعيلاً بمعنى مفعول والله أعلم .

16- العظيم :

الْعُظْمَةُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْعَظِيمُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ. الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255] .

2- وقوله: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة: 96، الحاقة: 52] .

3- وقوله: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} [الحاقة: 33] .

الدليل من السنة:

1- حديث أنس رضي الله عنه في الشفاعة، وفيه: " فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع ، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله والله أكبر. فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي؛ لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله " ¹.

2- حديث ابن عباس رضي الله عنه في دعاء الكرب: " لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم " ² . قال الأزهري : وَمِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، وَيَسْبَحُ الْعَبْدُ رَبَّهُ فَيَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ.

¹ - صحيح البخاري : 146/9 برقم : (7510) . وصحيح ومسلم (193-326) .

² - صحيح البخاري (7431) ، صحيح مسلم (2730) .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظُمُوا فِيهِ الرَّبُّ) أَي اجْعَلُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ ذَا عَظْمَةٍ وَعَظْمَةُ اللَّهِ لَا تَكْيِيفُ وَلَا تُحَدِّدُ وَلَا تَمْتَلِّ بِشَيْءٍ. وَيَجِبُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ عَظِيمٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ وَفَوْقَ ذَلِكَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ وَلَا تَحْدِيدٍ.

وَأَيْتُهُ لِعَظِيمِ الْمَعَاضِمِ أَي عَظِيمِ الْحُرْمَةِ. وَيُقَالُ: عَظُمَ يَعْظُمُ عِظْمًا فَهُوَ عَظِيمٌ. وَأَمَّا عَظْمُ اللَّحْمِ فَبِتَسْكِينِ الظَّاءِ، يَجْمَعُ عِظَامًا وَعِظَامَةً... ثم ذكر قول الخليل في العظمة وخالفه، قال: وَقَالَ اللَّيْثُ: الْعِظْمَةُ: التَّعَظُّمُ وَالنَّخْوَةُ وَالزَّهْوُ.

قلت: أَمَّا عَظْمَةُ اللَّهِ فَلَا تُوصَفُ بِمَا وَصَفَهَا بِهِ اللَّيْثُ. وَإِذَا وَصِفَ الْعَبْدُ بِالْعِظْمَةِ فَهُوَ ذَمٌّ؛ لِأَنَّ الْعِظْمَةَ فِي الْحَقِيقَةِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا عَظْمَةُ الْعَبْدِ فَهُوَ كِبَرُهُ الْمَذْمُومُ وَتَجْبُرُهُ. وَعُظْمُ الشَّيْءِ وَمُعَظْمُهُ: جُلُّهُ وَأَكْبَرُهُ. وَقَالَ اللَّيْثُ: اسْتَعْظَمْتُ الْأَمْرَ إِذَا أَنْكَرْتَهُ يُقَالُ وَالْعِظْمِيَّةُ: الْمَلِمَةُ إِذَا أَعْضَلَتْ. قَالَ: وَيُقَالُ: لَا يَتَعَاضَمُنِي مَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ مِنْ عَظِيمِ الْعِظِيمَةِ. وَسَمِعْتُ خَبْرًا فَأَعْظَمْتَهُ. قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: يُقَالُ: أَصَابَنَا مَطَرٌ لَا يَتَعَاضَمُهُ شَيْءٌ أَي لَا يَعْظُمُ عِنْدَهُ شَيْءٌ.

وَقَالَ اللَّحْيَانِيُّ: يُقَالُ: أَعْظَمَنِي مَا قَلَّتْ لِي أَي هَالَنِي وَعَظَّمْ عَلَيَّ. وَيُقَالُ: مَا يُعْظَمُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ أَي مَا يَهُولُنِي، وَرَمَاهُ بِمُعْظَمِ أَي بِعَظِيمٍ، وَقَدْ أَعْظَمَ الْأَمْرُ فَهُوَ مُعْظَمٌ " 1

فعظيم صفة مشبهة باسم الفاعل قياسية من عَظُمَ اللَّازِمُ الدَّالُّ عَلَى ثَبُوتِ صِفَةِ الْعِظْمَةِ لِلَّهِ أَزْلًا وَأَبَدًا .

والله تعالى خلق بين الخلق عظمة يعظم بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يعظم لمال، ومنهم من يعظم لفضل، ومنهم من يعظم لعلم، ومنهم من يعظم لسلطان، ومنهم من يعظم لجاه، وكل واحد من الخلق إنما يعظم لمعنى دون معنى، والله عَزَّ وَجَلَّ يَعْظُمُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا ، فلا جرم أن يكون في فِطْرَةِ خَلْقِهِ عَظِيمًا وَمِنْ تَمَّ مَعْضَمًا : فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ .

17 - الْغَنَى

الغنى صفة ذاتية ثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَ (الغني) مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى. الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15] .

2- وقوله: {وَأَنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [التوبة: 28]

3- وقوله: {وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [الضحى: 8] .

1- تهذيب اللغة - 182/2 .

حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك...¹ فالرب تعالى فهو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه وليس به حاجة إلى أحد قال شيخ الإسلام :

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضراتي
وليس لي دونه مولى يدبرني ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما قد جاء في الآياتي
ولست أملك شيئاً دونه أبدا ... ولا شريك أنا في بعض ذراتي
ولا ظهير له كي يستعين به ... كما يكون لأرباب الولاياتي
والفقر لي وصف ذات لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلباً من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي

والحمد لله ملاً الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعد قد يأتي²
فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذوات الناس وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل
وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن
يكون الرب سبحانه إلا غنياً، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً.
فلا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته، فهو الغني بذاته عما سواه، وهو
الأحد الصمد الغني الحميد.

قال الخليل : " غَنِيَ: الغنى، مقصور، في المال. واستغنى الرجل: أصاب غنى. والغنيّة: اسم
من الاستغناء، تَغْنَى على معنى استغنى. والغناء، ممدود، في الصوت. وَغْنَى يُغْنِي أُغْنِيَّة

¹ - مسلم (2985) .

² - ابن تيمية - المستدرک على مجموع فتاوى شيخ الإسلام : 1 / 141 .

وَعِنَاءٌ. وَالْعِنَاءُ: الاستغناء والكفاية، ورجلٌ مُعْنٍ، أي: مجزىء. وقد غَنِيَ عنه فهو غان، قال طرفة:

متى تأتني أصبحك كأسا روية ... وإن كنت عنها ذا غني فاعن وأزدد¹
ويروي: غانياً. والغني: ذو الوفر. وغني القوم في المحلة: طال مقامهم فيها. ونقول للشيء إذا فني: كأن لم يغن بالأمس، أي: كأن لم يكن. والغانية: الشابة المتروجة. يقال: غنيت بزوجه، ويقال: غنيت بجمالها عن الزينة، وجمعها: غوان²

فغني إذن صيغة مبالغة بوزن " فعيل " أدل على وفرة الغنى وطول أباتته من اسم الفاعل " غان " 20/19/18 : - القادر والقدير والمقتدر :

الْقُدْرَةُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: (القادر) و (القدير) و (المقتدر) .

الدليل من الكتاب:

- قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 20] وغيرها.

وقوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا} [الأنعام: 65]

وقوله: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ - فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: 55] .

الدليل من السنة:

- حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه مرفوعاً: " أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر " ³.

- حديث أبي مسعود البديري رضي الله عنه، لما ضرب غلامه؛ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " اعلم أبا مسعود! أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام " ⁴.

قال الخطابي رحمه الله : " هُوَ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ. يُقَالُ: قَدَرَ يَقْدِرُ قُدْرَةً فَهُوَ قَادِرٌ وَقَدِيرٌ، كَقَوْلِهِ [تَعَالَى]: (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) [الأحزاب/27] وَوَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، أَرَادَهُ: لَا يَعْتَرِضُهُ عَجْزٌ وَلَا فَتُورٌ، وَقَدْ يَكُونُ الْقَادِرُ بِمَعْنَى الْمُقَدِّرِ لِلشَّيْءِ، يُقَالُ:

¹ - ديوانه : 25 .

² العين - 4 / 450 - 451

³ - صحيح مسلم (2202) .

⁴ - صحيح مسلم (1659) .

قَدَرْتُ الشَّيْءَ وَقَدَرْتُهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ: (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) [المرسلات/23] أي: نعم المُقَدِّرُونَ. وَعَلَى هَذَا يَتَأَوَّلُ قَوْلُهُ -سُبْحَانَهُ-: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) [الأنبياء/87] أي: لَنْ نَقْدَرَ عَلَيْهِ الْخَطِيئَةَ (4) أَوْ الْعُقُوبَةَ إِذْ لَا يَجْهَرُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ أَنْ يَظُنَّ عَدَمَ قُدْرَةِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَزَّ- عَلَيْهِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

المُقَدِّرُ: هُوَ التَّامُّ الْقُدْرَةَ الَّذِي لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَلَا يَحْتَجِرُ عَنْهُ بِمَنْعَةٍ وَقُوَّةٍ، وَوَزْنُهُ مُفْعَلٌ مِنَ الْقُدْرَةِ إِلَّا أَنْ الْاِقْتِدَارَ أَبْلَغُ وَأَعَمُّ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي الْإِطْلَاقَ. وَالْقُدْرَةُ قَدْ يَدْخُلُهَا نَوْعٌ مِنَ التَّضْمِينِ بِالْمَقْدُورِ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ (1) -: (عِنْدَ مَلِيكَ مُقَدِّرٍ) [القمر/55] أي: قَادِرٍ عَلَى مَا يَشَاءُ.

فالقادر إذن اسم فاعل من اللازم "قدر" ومبالغته قدير كلاهما صفة ذاتية لازال ولم يزل الباري متصفا بها والمقتدر من المزيد "اقتدر" بزيادة تاء الافتعال الدالة على الاختيار نحو انتقى و اصطفى واجتنبى وانتخب ووصفه بالقادر المختار في باب الإخبار اتفق عليه أهل الكلام مع أهل الحديث والآثار ، أما كون القادر بمعنى المُقَدِّرِ لِلشَّيْءِ، نحو: قَدَرْتُ الشَّيْءَ وَقَدَرْتُهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ: (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) فهو من صفات فعله .

21 - القوي

الْقُوَّةُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ. وَ (القوي) من أسماء الله تعالى.

- الدليل:

1- قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [الشورى: 19] .

2- قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 58]

قال البخاري في " صحيحه " في (كتاب التوحيد) : " باب قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} "

قال الشيخ الغنيمان : " وهذه الآية ونظائرها تدل بوضوح على أن الله تعالى موصوف بالصفات العليا، كما أنه مسمى الأسماء الحسنى؛ فالقوة صفتة، والرزاق اسمه، وتقدم أن كل اسم لا بد أن يتضمن الصفة " ¹

¹ - عبد الله بن محمد الغنيمان - شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري - مكتبة الدار، المدينة المنورة - ط: 1 / 1405 هـ .

قال صاحب العين : قوي: القوّة، من تأليف قاف وواو وياء، حملت على فعلة فأدغمت الياء في الواو، كراهية تغيير الضمة. والفعالة: قواية وقواية¹ أيضاً، يقال (ذلك) في الحزم، ولا يقال في البدن، قال: ²

ومال بأعناق الكرى غالباتها ... واني على أمر القواية حازم
جعل مصدر القويّ على فعالة، والشعراء تتكلفه في النعت اللازم. ورجل شديد القويّ، أي: شديد
أسر الخلق ممره، أخذ من قوى الحبل. والقوّة (طاقة من طاقات)³ الحبل، والجميع: القويّ.
وفي الحديث: يذهب الدين سنة سنة، كما يذهب الحبل قوّة قوّة⁴
وبما أن الله تعالى لا يمسه اللغوب والتعب فيكون معنى القوي في حقه : التام القوّة الذي لا
يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ الْعَجْزُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. وَالْمَخْلُوقُ إِنْ وُصِفَ بِالْقُوَّةِ فَإِنَّ قُوَّتَهُ مُتَنَاهِيَةٌ. وَعَنْ
بَعْضِ الْأُمُورِ قَاصِرَةٌ.

فاسم الله " القويّ " فعيل عوض عن فاعل لأنه لم يسمع له " قاوٍ " بمعناه مثله مثل : سعد فهو " سعيد " لم يسمع ساعد بمعناه .

23/22 :- الكبير / المتكبر :

يوصف الله عزّ وجلّ بأنه الكبير، وهو أكبر من كل شيء، وهي صفة ذاتية ثابتة بالكتاب
والسنة، و (الكبير) من أسمائه تعالى.
الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: 9] .

2- وقوله تعالى: {وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [لقمان: 30] .

الدليل من السنة:

¹ - تضبط الأولى بالكسر، أما الثانية فقد ضبطت في (ص) بالفتح، ولعله قياس على وقاية ووقاية. وليس في التهذيب والمحكم واللسان والتاج إلا واحدة مكسورة.

² - البيت في التهذيب 9 / 368، واللسان والتاج (قوا) غير منسوب أيضاً.

³ - من التهذيب 9 / 368. في الأصول: طاق من أطواق الحبل.

⁴ - هذا أثر صحيح عن عبد الله بن الديلمي يرويه أصحاب المسانيد أحمد والدارمي وغيرهما . ينظر : سلسلة الآثار

الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين - جمعها وخرجها وذكر بعض فوائدها: أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي - راجعه وقدم له: فضيلة الشيخ عبد الله بن صالح العبيلان - دار الفاروق للطباعة والنشر والتوزيع - ط : 1 / 1424

هـ - 2003 م - 1 / 79 .

إن الأحاديث الصحيحة والأذكار الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والتي فيها وصف الله عزَّ وجلَّ بالكِبَر، وأنه أكبر من كل شيء كثيرة جداً، منها تكبيرات الأذان والصلاة " الله أكبر " ، ومنها: " الله أكبر كبيراً " ، ومنها: فمن كبر الله وحمد الله ... " ، ومنها: " يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ... " وغيرها كثير.

ومعنى الكبير؛ أي: العظيم الذي كل شيء دونه، وهو أعظم من كل شيء.

قال ابن منظور في " لسان العرب " : " والكبير في صفة الله تعالى: العظيم الجليل " .

وقال الجوهري¹ : " كَبُرَ بالضم يَكْبُرُ، أي عَظُمَ، فهو كَبِيرٌ وكُبَارٌ². فإذا أفرط قيل: كُبَارٌ بالتشديد. والكبر بالكسر: العظمة، وكذلك الكبرياء. وكِبِرَ الشيءُ أيضاً: معظمه. قال الله تعالى:

والذي تَوَلَّى كِبْرَهُ [من الآية : 11 من سورة النور]

وقال قيس بن الخطيم: تنامُّ عن كِبِرِ شأنها فإذا * قامت رويدا تكاد تتغرف

قال أبو هلال العسكري : " وَالْكَبِيرُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْكَبِيرُ الشَّانُ الْمُتَمَتِّعُ مِنْ مُسَاوَاةِ الْأَصْغَرِ لَهُ بِالتَّضْعِيفِ وَالْكَبِيرُ الشَّخْصُ الَّذِي يُمَكِّنُ مَسَاوَاتِهِ لِلْأَصْغَرِ لَهُ بِالتَّضْعِيفِ وَالْكَبِيرُ الشَّخْصُ الَّذِي يُمَكِّنُ مَسَاوَاتِهِ لِلْأَصْغَرِ بِالتَّجْزِئَةِ وَيُمْكِنُ مُسَاوَاةَ الْأَصْغَرِ لَهُ بِالتَّضْعِيفِ وَالصِّفَةُ بِهَذَا لَا تَجُوزُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْكَبِيرُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَعْنَى أَنَّهُ كَبِيرٌ فِي أَنْفُسِ الْعَارِفِينَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَظِيرٌ "³

- المتكبر

الْكِبْرُ وَالْكِبْرِيَاءُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ خَبْرِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَ (الْمُتَكَبِّرُ) مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} [الحشر: 23] .

2- وقوله: {وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الجاثية: 37] .

الدليل من السنة:

¹ - الصحاح : 2 / 801 .

² - وتضعف عينه أيضا لزيادة المبالغة ، قال تعالى : " ومكروا مكرا كَبَارًا " [نوح ك : 22] .

³ - الفروق اللغوية - ت : محمد إبراهيم سليم - دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر. ص : 1 / 181 .

1- حديث عبد الله بن قيس رضي الله عنه مرفوعاً: " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن".¹

ومن المعلوم أن الكبرياء من صفات الله تعالى، ولا يجوز للعباد أن يتصفوا بها؛ فقد توعدهم الله المتكبر بجهنم؛ كما قال تعالى: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} لأنهم لم يذللوا ويصغروا ويخضعوا للعزير الجبار الكبير الواحد القهار لأن الكبر لا يليق بأحد من المخلوقين، وإنما سمة العبيد الخشوع، والتدلل فالتكبر هو إظهار الكبر مثل التشجع إظهار الشجاعة إلا أنه في صفات الله تعالى بمعنى أنه يحق له أن يكون الكبير وهو على معنى قولهم تقدس وتعالى لا على ترفع علينا وتظيم وقيل المتكبر في صفاته بمعنى أنه المتكبر عن ظلم عباده فهو المتعالي عن صفات الخلق، ويقال: هو الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعه العظمة، فيقصمهم .

فالكبير (فعيل) عوض عن كابر (فاعل) في الدلالة على المتصف بالكبر والعظمة والمتكبر (متفعل) اسم فاعل من تفعل بزيادة تاء وتضعيف العين عند الصرفيين يدل على أمر في هذا الموضع واجب في حق الله وهو " الاتخاذ " والمراد به الدلالة على أن الفاعل اتخذ المفعول فيما يدل عليه الفعل نحو : " توسدت يدي - أي : اتخذتها وسادة " قال الراجز:

ياربّ سار بات ما توسداً إلا ذراع العنس أو كفّ اليدا²

ولذلك قال عز وجلّ : " الكبرياء ردائي ... " فقد اتخذها رداءً

والتاء في المتكبر تاء التقرّد والتخصّص بالكبر، لا تاء التّعاطي والتكلف.

أما المتكبر من الناس فالتاء وتضعيف العين فيه للدلالة على:

- طلب الفعل : " وهو هنا : الكبر " ومثلها : تعظم وقريب منها تبيّن وتيقن

- التّعاطي والتكلف : والمراد به الدلالة على أنّ الفاعل يعاني الفعل ليحصل له بالمعاناة أصل

الفعل نحو تكرم وتحلم وتشجع وتصبر وتجلّد ، ولكن في تكبر تعاط وتكلف وطلب دونه قضم

الظهور .

¹ - صحيح البخاري : (7444) ، وصحيح مسلم : (180) .

² - البيت بلا نسبة في الحجة لابن خالويه 204 ، وشرح المفصل لابن يعيش 152/4 ، والهمع للسيوطي 39/1 ، والخزانة للبغدادي 498/7 .

24- المتين:

المتانةُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ بالكتاب، و (المتين) من أسماء الله تعالى.

الدليل:

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 58].

قال الأزهري: ومعنى {ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}: ذو الاقتدار الشديد، والمتين في صفة الله القوي.¹ وقال ابن منظور: ورجل مَتْنٌ قَوِيٌّ صُلْبٌ وَوَتْرٌ مَتِينٌ شَدِيدٌ وَشَيْءٌ مَتِينٌ صُلْبٌ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ مَعْنَاهُ ذُو الْاِقْتِدَارِ وَالشَّدَّةِ الْقِرَاءَةُ بِالرَّفْعِ وَالْمَتِينُ صِفَةٌ لِقَوْلِهِ ذُو الْقُوَّةِ وَهُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَقَدَّسَ وَمَعْنَى ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ذُو الْاِقْتِدَارِ الشَّدِيدِ وَالْمَتِينُ فِي صِفَةِ اللَّهِ الْقَوِيُّ قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ²: "هُوَ الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ فِي أَفْعَالِهِ مَشَقَّةٌ وَلَا كُفْلَةٌ وَلَا تَعَبٌ وَالْمَتَانَةُ الشَّدَّةُ وَالْقُوَّةُ فَهُوَ مَنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَالِغُ الْقُدْرَةِ تَامُّهَا قَوِيٌّ وَمَنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَدِيدُ الْقُوَّةِ مَتِينٌ." قال ابن سيده³: "وَقَرَأَ الْمَتِينُ بِالْخَفْضِ عَلَى النِّعَةِ لِلْقُوَّةِ لِأَنَّ تَأْنِيثَ الْقُوَّةِ كَتَأْنِيثِ الْمَوْعِظَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ أَيْ: وَعَظٌّ وَالْقُوَّةُ: اِقْتِدَارٌ." وَالْمَتِينُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ الْقَوِيُّ وَمَتْنُ الشَّيْءِ بِالضَّمِّ مَتَانَةٌ فَهُوَ مَتِينٌ أَيْ صُلْبٌ"⁴

قال أبو هلال العسكري: "فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ) فَالْمَتِينُ فِي أَسْمَائِهِ مُبَالَغَةٌ فِي الْوَصْفِ بِأَنَّهُ قَوِيٌّ وَهُوَ فِي اللَّهِ تَوْسِعٌ لِأَنَّ الْمَتَانَةَ فِي الْأَصْلِ نَقِيضَةُ الرِّخَاوَةِ فَاسْتَعْمَلَتْ فِي نَقِيضِ الضَّعْفِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي صِفَةِ الْقُوَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ"⁵.

فالمتين إذن صفة مشبهة من متن دال على ثبوت وكمال القوة والعزة وكل صفات الجلال والعظمة

25 : - الحميد

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه الحميد، وهو صفةٌ ذاتيةٌ له، و (الحميد) اسم من أسمائه، ثابتٌ بالكتاب والسنة.

¹ - الأزهري - تهذيب اللغة (306/14)

² - القول في: النهاية في غريب الحديث والأثر - ص: 4 / 293 .

³ - القول في: المحكم والمحيط الأعظم - 9 / 508 . ولكن الموعظة لم تتصل تاء التأنيث الدالة عليها بالفعل للضمير الفاصل لا لأنها تذكرها العرب والله أعلم .

⁴ - ابن منظور - لسان العرب : 13 / 398 .

⁵ - الفروق اللغوية : 107/1 .

الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [البقرة: 267].
- 2- وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15].

الدليل من السنة:

حديث كعب بن عُجرة رضي الله عنه في التشهد: " ... قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد" ¹ .
فالله حميد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها، وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل، والعدل .
فالحمد كثرة الصفات والخيرات، فهو الحميد لكثرة صفاته الحميدة، وهو سبحانه حميد من وجهين:

أحدهما: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهل السماوات والأرض الأولين منهم، والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا، والآخرة، وكل حمد لم يقع منهم بل كان مفروضاً، ومقدراً حيثما تسلسلت الأزمان، واتصلت الأوقات حمداً يملأ الوجود كله العالم العلوي، والسفلي، ويملاً نظير الوجود من غير عد، ولا إحصاء فإن الله تعالى مستحقه من وجوه كثيرة:

منها أن الله هو الذي خلقهم، ورزقهم، وأسدى عليهم النعم الظاهرة، والباطنة الدينية، والدنيوية، وصرف عنهم النقم، والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلا هو، فيستحق منهم أن يحمده في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه، ويشكروه بعدد اللحظات.

الوجه الثاني: أنه يحمد على ماله من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها، وأعظمها فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد، والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين أفعال الفضل، والإحسان، وبين أفعال العدل، والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد على خلقه، وعلى شرعه، وعلى أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، وأحكام الجزاء في الأولى، والآخرة، وتفصيل حمده، وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار، ولا تحصيها الأقلام .

¹ - رواه: البخاري (3370) ، ومسلم (406)

قال حسّان رضي الله عنه :

وَضَمَّ الإِلهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنِ أَشْهَدُ

وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَهُ فَذُو الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ¹

فَقَوْلُهُ " مُحَمَّد " لَيْسَ مِنْ أَسْمَائِهِ بَلْ هُوَ إِخْبَارٌ عَنْهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ لَا زَالَ يُحْمَدُ وَلَا يَزَالُ لِأَنَّهُ الْغَنَى بِنَفْسِهِ الْحَمِيدِ بِنَفْسِهِ وَأَسْمَائِهِ أَزْلًا وَأَبَدًا ، فَحَمِيدٌ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ .

أَمَّا مُحَمَّدٌ فَهُوَ مِنْ حُمِدٍ يُحْمَدُ .

26 : - المجد :

الْمَجْدُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ اسْمِهِ (الْمَجِيد) الثَّابِتُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَلَيْسَ (الْمَاجِد) مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ - ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} [البروج: 15]

2- وقوله: {رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}

[هود: 73] .

الدليل من السنة:

حديث: " قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على

محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد² .

قال ابن فارس : " مجد: المجد: بلوغ نهاية الرجل في الكرم.

وماجد فلان فلاناً: فاخره.

والله - جل ثناؤه - المجد والمجد.

ومجدت الإبل مجوداً: نالت من الخلا قريباً من الشبع.

ويقال أمجدت الدابة، علفتها ما كفاها.

وتقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، يقول: إنهما تناهيا في ذلك حتى

يقبس منهما¹ .

¹ - ديوانه : 42 .

² - صحيح البخاري (4797) و صحيح مسلم (614) .

وقال ابن القيم :

وَهُوَ الْمَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعُ ... ظِيمٍ فَشَأْنُ الْوَصْفِ أَعْظَمُ شَأْنٍ²

وقال ابن قتيبة : " مجد الله " : شرفه، وكرمه".³

وقال ابن منظور : " الْمَجْدُ الْمُرْوَةُ وَالسَخَاءُ وَالْمَجْدُ الْكِرْمُ وَالشَّرْفُ ابْنُ سَيِّدِهِ الْمَجْدُ نَيْلُ الشَّرْفِ وَقِيلَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَبَاءِ وَقِيلَ الْمَجْدُ كَرَمُ الْأَبَاءِ خَاصَةً وَقِيلَ الْمَجْدُ الْأَخْذُ مِنَ الشَّرْفِ وَالسُّؤْدَدُ مَا يَكْفِي وَقَدْ مَجَّدَ يَمْجُدُ مَجْدًا فَهُوَ مَا جَدَ وَمَجَّدَ بِالضَّمِّ مَجَادَةً فَهُوَ مُجِيدٌ وَتَمَجَّدَ وَالْمَجْدُ كَرَمٌ فِعَالُهُ وَأَمَجَّدَهُ وَمَجَّدَهُ كِلَاهُمَا عَظَمَهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ... وَالتَّمَجِيدُ أَنْ يُنْسَبَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَجْدِ وَرَجُلٌ مَا جَدَ مِفْضَالٌ كَثِيرٌ الْخَيْرِ شَرِيفٌ وَالْمَجِيدُ فَعِيلٌ مِنْهُ لِلْمَبَالِغَةِ وَقِيلَ هُوَ الْكَرِيمُ الْمِفْضَالُ وَقِيلَ إِذَا قَارَنَ شَرَفُ الذَّاتِ حُسْنَ الْفِعَالِ سُمِيَ مَجْدًا وَفَعِيلٌ أَبْلَغُ مِنْ فَاعِلٍ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ مَعْنَى الْجَلِيلِ وَالْوَهَّابِ وَالْكَرِيمِ وَالْمَجِيدُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ وَفِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَاجِدُ وَالْمَجْدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الشَّرْفُ الْوَاسِعُ التَّهْذِيبُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَجِيدُ تَمَجَّدَ بِفِعَالِهِ وَمَجَّدَهُ خَلَقَهُ لِعَظَمَتِهِ ".⁴

وقال الخليل : " الْمَجْدُ: نَيْلُ الشَّرْفِ، وَقَدْ مَجَّدَ الرَّجُلَ، وَمَجَّدَ: لَغْتَانٌ، وَأَمَجَّدَهُ كَرَمٌ فِعَالُهُ. قَالَ زَائِدَةٌ: أَحْسَبْنَا وَأَمَجَّدْنَا وَاللَّهُ الْمَجِيدُ. وَتَمَجَّدَ (بِفِعَالِهِ) ، وَمَجَّدَهُ خُلُقُهُ تَمَجِيدًا أَيْ تَعْظِيمًا."⁵

فمجد إذن من مَجَّدَ : مبالغة "ماجد" ومن مَجَّدَ صفة مشبهة باسم الفاعل وكلاهما حق للخالق قبل وبعد خلقه يستحق . وهو الغني . اسم مفعول منهما معاملة له من خلقه .

يأتي فعيل عوضا عن فاعل ويأتي مبالغة له ويأتي صفة مشبهة به ويأتي بمعنى مفعول ويأتي مستحقا لأن يكون بمعنى مفعول في أوصاف الله خاصة نحو العظيم والحמיד والمجيد والكبير فهذه الصفات وما شاكلها لم تنفك ولا تنفك عن الله أزلا وأبدا فاستحق لذلك أن يكون معظما محمودا ممجدا مكبرا وهي أبلغ من المعظم و المَحْمُود والممجد والمكبر، فَإِنَّ فَعِيلًا إِذَا عَدَلَ بِهِ عَنِ مَفْعُولٍ دَلَّ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الصِّفَةَ قَدْ صَارَتْ مِثْلَ السَّجِيَّةِ وَالْغَرِيْزَةِ وَالْخَلْقِ اللَّازِمِ إِذَا قَلَّتْ فَلَانَ

¹ - ابن فارس - مجمل اللغة لابن فارس - ت : زهير عبد المحسن سلطان - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط : 1 / 1986 م .

ص : 1 / 823 . أي أنّ هاتين الشجرتين كانتا أكثر الأشجار جودا وكرما على من أراد ناريهما .

² - النونية: (66/2)

³ - تفسير غريب القرآن : (ص 19)

⁴ - لسان العرب - ص : 3 / 395 .

⁵ - العين : 89/6 .

ظريف وشريف وكريم وَلِهَذَا يَكُون هَذَا الْبِنَاءُ غَالِبًا مِنْ فِعْلٍ بِوَزْنٍ شَرَفٍ هَذَا الْبِنَاءُ مِنْ أَبْنِيَةِ الْغَرَائِزِ وَالسَّجَايَا اللَّازِمَةِ كَكَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَحَسَنٍ وَلَطْفٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ

وَلِهَذَا كَانَ حَبِيبٌ أَبْلَغَ مِنْ مَحْبُوبٍ لِأَنَّ الْحَبِيبَ الَّذِي حَصَلَتْ فِيهِ الصِّفَاتُ وَالْأَفْعَالُ الَّتِي يَحِبُّ لِأَجْلِهَا فَهُوَ حَبِيبٌ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ قَدَرَ أَنْ غَيَّرَهُ لَا يُجِبُهُ لِعَدَمِ شَعُورِهِ بِهِ أَوْ لِمَنْعِ مَنْعِهِ مِنْ حَبِّهِ وَأَمَّا الْمَحْبُوبُ فَهُوَ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ حُبُّ الْمُحِبِّ فَصَارَ مُحْبُوبًا بِحُبِّ الْغَيْرِ لَهُ وَأَمَّا الْحَبِيبُ فَهُوَ حَبِيبٌ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ تَعَلَّقَ بِهِ حُبُّ الْغَيْرِ أَوْ لَمْ يَتَعَلَّقْ وَهَكَذَا الْحَمِيدُ وَالْمَحْمُودُ

فَالْحَمِيدُ هُوَ الَّذِي لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ وَأَسْبَابِ الْحَمْدِ مَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مَحْمُودًا وَإِنْ لَمْ يَحْمَدْهُ غَيْرُهُ فَهُوَ حَمِيدٌ فِي نَفْسِهِ وَالْمَحْمُودُ مَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حَمْدُ الْحَامِدِينَ وَهَكَذَا الْمَجِيدُ وَالْمَمَجَّدُ¹ وَالْكَبِيرُ وَالْمَكْبَرُ وَالْعَظِيمُ وَالْمَعْظَمُ وَالْحَمْدُ وَالْمَجْدُ إِلَيْهِمَا يَرْجِعُ الْكَمَالُ كُلُّهُ فَإِنَّ الْحَمْدَ يَسْتَلْزِمُ الثَّنَاءَ وَالْمَحَبَّةَ لِلْمَحْمُودِ فَمَنْ أَحَبَبْتَهُ وَلَمْ تَتَّحِ عَلَيْهِ لَمْ تَكُنْ حَامِدًا لَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلِيًّا عَلَيْهِ مُحِبًّا لَهُ وَهَذَا الثَّنَاءُ وَالْحُبُّ تَبَعٌ لِلْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ وَهُوَ مَا عَلَيْهِ الْمَحْمُودُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَعَوَاتِ الْجَلَالِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ أَسْبَابُ الْمَحَبَّةِ وَكَلِمَا كَانَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ أَجْمَعُ وَأَكْمَلُ كَانَ الْحَمْدُ وَالْحُبُّ أَتَمَّ وَأَعْظَمَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهِهِ مَا وَالْإِحْسَانُ كُلُّهُ لَهُ وَمِنْهُ فَهُوَ أَحَقُّ بِكُلِّ حَمْدٍ وَبِكُلِّ حُبٍّ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يَحِبُّ لِدَاوَتِهِ وَلِصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ وَإِحْسَانِهِ وَلِكُلِّ مَا صَدَرَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَمَّا الْمَجْدُ فَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْعِظْمَةِ وَالسَّعَةِ وَالْجَلَالِ وَالْحَمْدُ يَدُلُّ عَلَى صِفَاتِ الْإِكْرَامِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْعَبْدِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ فَا لَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَالَ عَلَى أَلُوْهِتِهِ وَتَقَرَّدَهُ فِيهَا فَأَلُوْهِتِهِ تَسْتَلْزِمُ مَحَبَّتَهُ التَّامَّةَ وَاللَّهُ أَكْبَرُ دَالَ عَلَى مَجْدِهِ وَعِظْمَتِهِ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ تَعْظِيمَهُ

¹ - وفي الحديث القدسي في "مصنف عبد الرزاق" (2767)، و أخرجه البخاري في "القراءة خلف الإمام" (75)، ومسلم (395) (40)، وأبو عوانة 127/2، والبيهقي في "القراءة خلف الإمام" (53). والموطأ (114/2): "قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل"، قال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأوا، يقول: فيقول العبد: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: 2]، فيقول الله: حمدني عبدي، ويقول العبد: {الرحمن الرحيم} [الفاتحة: 1]، فيقول الله: أثنى علي عبدي، يقول العبد: {مالك يوم الدين}، فيقول الله: حمدني عبدي، وقال: هذه بيني وبين عبدي، يقول العبد: {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: 5]، قال: آخرها (1) لعبدي، ولعبدي ما سأل، قال: يقول عبدي: {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، ولا الضالين} [الفاتحة: 7]، يقول الله عز وجل: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل " فهو حميد محمود لحمد عباده له ومثلى عليه وممجد لأنه أهل الثناء والحمد والمجد .

وتمجيده وتكبيره وللهذا يقرن سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيرا كقوله {رَحْمَةً اللهُ وَبَرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} هود 73

وقوله تعالى {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا} الإسراء 111، فأمر بحمده وتكبيره ، وسيأتي بيان مزيد من اللطائف في باب الحديث عن اقتران الأسماء والصفات .

27 : - الرحمن :

الرَّحْمَةُ صفةٌ ثابتةٌ بالكتاب والسنة، و (الرحمن) و (الرحيم) من أسماءه تعالى تكررا في الكتاب والسنة مراتٍ عديدة.

الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاحة: 1و2] .
- 2- قوله تعالى: {أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: 218] .

الدليل من السنة:

1- تحية الإسلام: " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " ، وقد وردت في أحاديث صحيحة كثيرة.

2- حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لما خلق الله

الخلق، كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب (أو: غلبت) غضبي " ¹ . فالرحمن اسم دال على صفة الرحمة القائمة بذاته و لهذا لم يجئ الرحمن متعديا في القرآن ولذلك لما كان من أسمائه وصفاته الواسع أخبر عن رحمته أنها وسعت كل شيء وهي من أعظم صفاته ولولاها ما دخل أحد جنة نعيمه ولا التذُّ بالنظر إلى وجهه الكريم وبنية اسم الرحمن عند أهل العربية دالة على الامتلاء من الوصف فلا جرم وسع هذا الامتلاء كل شيء حتى العتاة الطغاة لكنها عاجلة وينالها عباده خالصة في الآجلة .

فاسم الرحمن على هذا عام المعنى خاص اللفظ لأنه لا يطلق على سواه ، لأن معنى الرحمة مقترنا بهذا البناء يصير بمنزلة لا تليق إلا بالله تعالى .

28- النور:

¹ - رواه البخاري (3194) ، ومسلم (2751)

النُّورُ صفةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ ثابتَةٌ بالكتاب والسنة، وقد عدَّ بعضهم (النُّور) من أسماء الله تعالى .
الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} ؟ [النور: 35] .
 - 2- وقوله: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ...} [الزمر: 69] .
- الدليل من السنة

حديث: " اللهم لك الحمد؛ أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد ... " ¹

وقال شيخ الإسلام : " ... النص في كتاب الله وسنة رسوله قد سمي الله نور السماوات والأرض، وقد أخبر النص أن الله نور، وأخبر أيضاً أنه يحتجب بالنور؛ فهذه ثلاثة أنوار في النص، وقد تقدم ذكر الأول، وأمّا الثاني؛ فهو في قوله: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} وفي قوله: {مِثْلُ نُورِهِ} ، وفيما رواه مسلم في " صحيحه " عن عبد الله بن عمرو؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظِلْمَةٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ؛ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَاهُ؛ ضَلَّ " ²

وقال في موضع آخر : " وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها، فإذا كانت تشرق من نوره؛ كيف لا يكون هو نوراً؟! ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء - كقوله: {نَاقَةَ اللَّهِ} - ونحو ذلك لوجوه:

أحدها: أن النور لم يضاف قط إلى الله إذا كان صفة لأعيان قائمة فلا يقال في المصابيح التي في الدنيا؛ إنها نور الله ولا في الشمس والقمر وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود: إن ريكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه وفي الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم {أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة} .

الثاني: أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض في الدنيا وليس من نور إلا وهو خلق من خلق الله وكذلك من قال: منور السموات والأرض لا ينافي أنه نور وكل منور نور فهما متلازمان. ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح وهو في نفسه نور وهو منور لغيره فإذا كان نوره في القلوب هو نور وهو منور فهو في نفسه أحق بذلك وقد علم أن كل ما هو نور فهو منور. وأمّا قول من قال: معناه منور

¹ - صحيح البخاري برقم : (7385، 7442، 7499) ، ومسلم برقم : (769) .

² - مجموع الفتاوى (386/6)

السموات بالكواكب: فهذا إن أراد به قائله: أن ذلك من معنى كونه نور السموات وأنه أراد به ليس لكونه نور السموات والأرض معنى إلا هذا فهو مبطل؛ لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض؛ والكواكب لا يحصل نورها في جميع السموات والأرض. وأيضا فإنه قال: لمثل نوره كمشكاة فيها مصباح { فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين؛ فعلم أن النور الموجود في قلوب المؤمنين نور الإيمان والعلم مراد من الآية؛ لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية والحسن بعد المطالبة بصحة النقل والظن ضعفه عن ابن عباس لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور أما إنهم يقولون قوله: {الله نور السموات والأرض} ليس معناه إلا التنوير بالشمس والقمر والنجوم فهذا باطل قطعاً. وقد قال صلى الله عليه وسلم {أنت نور السموات والأرض ومن فيهن} ومعلوم أن العميان لا حظ لهم في ذلك ومن يكون بينه وبين ذلك حجاب لا حظ له في ذلك والموتى لا نصيب لهم من ذلك وأهل الجنة لا نصيب لهم من ذلك فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر؛ كيف وقد روي أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر.¹

وقال ابن القيم: " والنور يضاف إليه سبحانه على أحد الوجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله؛ فالأول كقوله تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ... } الآية؛ فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء ... " ².

وقال رحمه الله في النونية :

وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضاً وَمِنْ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي البُرْهَانِ ³

فالنور إذن اسم من أسمائه والنور: الضياء، والفعل: نار (وأصلها " نَوَّرَ ") وأنار ونوراً وإنارة. واستنار، أي: أضاء، فهو بزنة فُعِلَ إن كان من " نار " بزنة فَعَلََ وحينها يكون مصدراً جعل وصفاً كعدل ورضا ويقوي هذا كونه تعالى مصدر كل نور وإن كان من أنار فهو فُعِلَ بمعنى مُفَعَّلَ أي منور وكلا الأمرين جائز في حق الله .

29 : - السلام :

¹ - مجموع الفتاوى : (392/6 - 393)

² - اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: 45)

³ - النونية (105/2)

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه السلام، وهو اسم له ثابت بالكتاب والسنة.
الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: {الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ} [الحشر: 23]

الدليل من السنة:

حديث ثوبان رضي الله عنه: " اللهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام"¹.
حقيقة هذه اللفظة البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها
فمن ذلك قولك: "سلمك الله وسلم فلان من الشر ومنه دعاء المؤمنين على الصراط رب سلم
اللهم سلم" ومنه سلم الشيء لفلان أي خلص له وحده فخلص من ضرر الشركة فيه قال تعالى:
{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ} أي خالصا له وحده لا يملكه
معه غيره ومنه السلم ضد الحرب قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} لأن كلا من
المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ولهذا يبني منه على المفاعلة فيقال: المسالمة مثل
المشاركة ومنه القلب السليم وهو النقي من الغل والدغل وحقيقته الذي قد سلم لله تعالى وحده
فخلص من دغل الشرك وغله ودغل الذنوب والمخالفات بل هو المستقيم على صدق حبه
وحسن معاملته فهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته ومنه أخذ الإسلام فإنه
من هذه المادة لأنه الاستسلام والانقياد لله تعالى والتخلص من شوائب الشرك فسلم لربه وخلص
له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون ولهذا ضرب سبحانه هذين المثليين للمسلم
المخلص الخالص لربه والمشارك به ومنه السلم لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضا
للهوي والسقوط طالبا للسلامة راجيا لها سميت الآلة التي يتوصل بها إلى غرضه سلما لتضمنها
سلامته إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعا فصح أن السلم من هذا المعنى
ومنه تسمية الجنة بدار السلام أي دار السلام من كل آفة ونقص وشر فإنها من أكمل أوصافها
المقصودة على الدوام التي لا يتم النعيم فيها إلا به

فإطلاق السلام على الله تعالى اسما من أسمائه هو أولى من هذا كله وأحق بهذا الاسم من كل
مسمى به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجد فهو السلام الحق بكل اعتبار
والمخلوق سلام بالإضافة فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم وسلام
في صفاته من كل عيب ونقص وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع

¹ - صحيح مسلم : (591) .

على غير وجه الحكمة بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزّهه به رسوله فهو السلام من صاحبة والولد والسلام من النظير والكفاء والسمي والممائل والسلام من الشريك ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاما مما يضاد كمالها فحياته سلام من الموت ومن السنة والنوم وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة وكلماته سلام من الكذب والظلم بل تمت كلماته صدقا وعدلا وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما بل كل ما سواه محتاج إليه وهو غني عن كل ما سواه وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه وإلهيته سلام من مشارك له فيها بل هو الله الذي لا إله إلا هو وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذلك أو مصانعة كما يكون من غيره بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلما أو تشفيا أو غلظة أو قسوة بل هو محض حكمته وعدله ووضع الأشياء مواضعها وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء كما يستحقه علي إحسانه وثوابه ونعمه ولكن السلام قد يراد به التحية وقد يراد به اسم الله .

فالسلم الذي هو التحية اسم مصدر من سلم ومصدره الجاري عليه تسليم كعلم تعليما وفهم تفهيمًا وكلم تكليما والسلام من سلم كالكلام من كلم فإن قيل: وما الفرق بين المصدر والاسم قلنا: بينهما فرقان لفظي ومعنوي أما اللفظي فإن المصدر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه كالأفعال من أفعال والتفعيل من فعل والانفعال من انفعال والتفعل من تفعل وبابه وأما السلم والكلام فليسا بجاريين على فعليهما ولو جريا عليه لقل تسليم وتكليم وأما الفرق المعنوي فهو أن المصدر دال على الحدث وفاعله فإذا قلت تكليم وتسليم وتعليم ونحو ذلك دل على الحدث ومن قام به فيدل التسليم على السلام والمسلم وكذلك التكليم والتعليم وأما اسم المصدر فإنما يدل على الحدث وحده فالسلام والكلام لا يدل لفظه على مسلم ولا مكلم بخلاف التكليم والتسليم وسر هذا الفرق أن المصدر في قولك سلم تسليمًا وكلم تكليما بمنزلة تكرار الفعل فكأنك قلت سلم سلم وتكلم تكلم والفعل لا يخلو عن فاعله أبداً وأما اسم المصدر فإنهم جردوه لمجرد الدلالة على الحدث

فإن قيل: فما الحكمة في مجيئه اسم مصدر ولم يجيء على أصل المصدر قيل: هذا السر بديع وهو أن المقصود حصول مسمى السلامة للمسلم عليه على الإطلاق من غير تقييد بفاعل فلما كان المراد مطلق السلامة من غير تعرض لفاعل أتوا باسم المصدر الدال على مجرد الفعل ولم يأتوا بالمصدر الدال على الفعل والفاعل معا وهذه النكتة من أسرار العربية فهذا السلام الذي هو التحية .

وأما السلام الذي هو اسم من أسماء الله ففيه قولان أحدهما: أنه كذلك اسم مصدر وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه والمعنى أنه ذو السلام وذو العدل على حذف المضاف والثاني: أن المصدر بمعنى الفاعل هنا أي السالم كما سميت ليلة القدر سلاما أي سالمة من كل شر بل هي خير لا شر فيها وأحسن من القولين وأقيس في العربية أن يكون نفس السلام من أسمائه تعالى كالعدل وهو من باب إطلاق المصدر على الفاعل لكونه غالبا عليه مكررا منه كقولهم: رجل صوم وعدل وزور وبابه وأما السلام الذي هو بمعنى السلامة فهو مصدر نفسه وهو مثل الجلال والجلالة فإذا حذف التاء كان المراد نفس المصدر وإذا أتيت بالتاء كان فيه إيذان بالتحديد بالمرّة من المصدر كالحب والحبّة فالسلام والجمال والجلال كالجنس العام من حيث لم يكن فيه تاء التحديد والسلامة والجلالة والملاحة والفصاحة كلها تدل على الخصلة الواحدة ألا ترى أن الملاحة خصلة من خصال الكمال والجلالة من خصال الجلال ولهذا لم يقولوا كماله كما قالوا ملاحة وفصاحة لأن الكمال اسم جامع لصفات الشرف والفضل فلو قالوا كماله لنقضوا الغرض المقصود من اسم الكمال فتأمله وعلى هذا جاءت الحلاوة والأصالة والرزانة والرجاحة لأنها خصلة من مطلق الكمال والجمال محدودة فجاؤا فيها بالتاء الدالة على التحديد وعكسه كالحماقة والوقاحة والنذالة والسفاهة فإنها خصال محدودة من مطلق العيب والنقص فجاؤا في الجنس الذي يشمل الأنواع بغير تاء فجاؤا في أنواعه وأفراده بالتاء وقد تقدم تقرير هذا المعنى وأيضا فلا حاجة إلى إعادته فتأمل الآن كيف جاء السلام مجردا عن التاء إيذانا بحصول المسمى التام إذ لا يحصل المقصود إلا به فإنه لو سلم من آفة ووقع في آفة لم يكن قد حصل له السلام .¹

¹ - ينظر : ابن القيم - بدائع الفوائد : (2/130 - 138) بتصرف .

المطلب الثاني : اشتقاق الأسماء المتضمنة لفعل الله عز وجل

اختلف أهل العلم في تعريف الصفات الفعلية ، وفي التفريق بينها وبين الصفات الذاتية. وهي من الصفات الثبوتية التي تقدم ذكرها.

قال (ملا علي القاري) الحنفي المتوفى سنة (1001هـ) رحمه الله في شرحه على (الفقه الأكبر) للإمام أبي حنيفة رحمه الله (المتوفى سنة150هـ) : " الصفات الفعلية: هي التي يتوقف ظهورها على وجود الخلق"، ثم قال: "اعلم أن الحد بين صفات الذات وصفات الفعل مختلف فيه. فعند المعتزلة: ما جرى فيه النفي والإثبات فهو من صفات الفعل¹، كما يقال خَلَقَ لفلان ولدًا، ولم يخلق لفلان، ورزق زيدًا مالاً ولم يرزق عمرًا.

وما لا يجري فيه النفي فهو من صفات الذات، كالعلم والقدرة، فلا يقال: لم يعلم كذا، ولم يقدر على كذا. فالإرادة والكلام مما يجري فيه النفي والإثبات.²

ثم قال : " وأما عند الأشعرية فالفرق بينهما أن ما يلزم من نفيه نقيضه فهو من صفات الذات، فإنك لو نفيت الحياة يلزم الموت، ولو نفيت القدرة يلزم العجز، وكذا العلم مع الجهل وما لا يلزم من نفيه نقيضه فهو من صفات الفعل، فلو نفيت الإحياء أو الإماتة أو الخلق أو الرزق لم يلزم من نفيه نقيضه، كما لا يخفى. فعلى هذا الحد لو نفيت الإرادة لزم منه الجبر والاضطرار، ولو نفيت عنه الكلام لزم منه الخرس والسكوت ، فثبت أنهما من صفات الذات.³

ثم قال القاري: وعندنا - يعني (الماتريدية) - أن كل ما وصف به ولا يجوز أن يوصف بضده فهو من صفات الذات، كالقدرة والعلم والعزة والعظمة، وكل ما يجوز أن يوصف به وبضده فهو من صفات الفعل كالرأفة والرحمة والسخط والغضب "⁴

هذه اصطلاحات وقد لا يختلفون في جوهر المسألة

¹ - قال الشيخ أمان الجامي في " الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه " - ص : 205 .
" المعروف أن المعتزلة لا يثبتون جميع الصفات بل غلاتهم ينفون الصفات والأسماء معاً، هذا هو المعروف عندنا وعند غيرنا - فيما أعلم- وأما ما ذكره (ملا علي القاري) فإنه يفهم منه أن المعتزلة يثبتون الصفات. وهو خلاف المعروف، وإن صح هذا الكلام أو هذا النص فإنه يحمل على أن هذا مذهب طائفة معينة منهم غير مشهورة والله أعلم. " وسيأتي بيان موقف فرق المعتزلة من الأسماء والصفات

² . علي بن سلطان محمد القاري - منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر - دار البشائر - بيروت - لبنان - ط : 1 / 1419 - 1998 . ص : 82 .

³ . نفسه : 83 .

⁴ . نفسه .

فعند إمعان النظر في الأقوال الثلاثة في تحديد صفة الفعل وبيان الفرق بينها وبين صفة الذات، وعند إمعان النظر في تلك الأقوال نجد أن الخلاف لفظي تقريباً، لأن المعتزلة الذين قد يثبتون الأسماء أو أحكامها أحياناً، أو يلزمهم ذلك - يمثلون للصفات الفعلية بالخلق والرزق مثلاً، وكذلك فعلت الأشاعرة أيضاً كما يتفق الفريقان على أن القدرة والعلم والعزة مثلاً من صفات الذات.

وكذلك الماتريدية تتفق مع الفريقين في أمثلة الصفات الذاتية، هذا بالجملة، وأما عند التفصيل فنجد اتفاقاً أحياناً واختلافاً وتداخلاً أحياناً، لأنه أقوال ترجع في غالبها إلى الاصطلاح والاصطلاحات قد تتفق وقد تختلف، كما هو معروف، ولا يمس ذلك جوهر المسألة كما أسلفنا. فالقول الجامع لهذه الأقوال - في فهمنا - أن صفات الأفعال أو الصفات الاختيارية تختلف عن الصفات الذاتية الثبوتية التي تتعلق بها مشيئة الله تعالى لا بأعيانها ولا بأنواعها، كالقدرة والإرادة والعلم والسمع، والبصر والحكمة والعزة والوجه واليد وغيرها، بل هي صفات تتعلق بها مشيئة الله، وتتجدد حسب المشيئة، كالمجيء والاستواء والغضب والفرح والضحك.

أما صفة الكلام فهي من صفات الذات باعتبار أصل الصفة، ومن صفات الأفعال باعتبار أنواع الكلام وأفراده .

وعليه فكل صفات الأفعال لقيامهما بالذات لا بغيرها صفات ذات، حيث إن الذات متصفة بها، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تسمى صفات أفعال ، فكل الصفات الفعلية تعد صفات ذاتية ولا عكس .

هذا ما يدل عليه كلام أهل العلم من أتباع السلف عند التحقيق، وبالله التوفيق.

1 - القيوم :

اشتهر عند أهل العلم أنّ الحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم والعزة والقدرة، والإرادة، والعظمة، والكبرياء، وغيرها من صفات الذات المقدسة.

والقيوم هو كامل القيومية الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقامت به الأرض، والسموات، وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها، وأمدّها، وأعدّها لكل ما فيه بقاؤها، وصلاحتها، وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه، وهي التي افتقرت إليه

من كل وجه، فالحي، والقيوم من له صفة كل كمال، وهو الفعال¹ لما يريد الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وكل الصفات الفعلية، والمجد، والعظمة، والجلال ترجع إلى اسمه القيوم، ومرجع صفات الكمال كلها ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين .

وقد سبق بيان معنى الحي وأن بيان معنى القيوم:

يوصف الله عزَّ وجلَّ بأنه القَيُّومُ والقَيِّمُ والقَيَّامُ، وهو وصفٌ ذاتيٌّ ثابتٌ لله بالكتاب والسنة، و (القَيُّوم) اسم من أسمائه تبارك وتعالى.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: 255، آل عمران: 2].

2- وقوله: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: 111].

الدليل من السنة:

عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [البقرة: 255] فضرب في صدري وقال: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المنذر» وفي رواية أبي داود قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «أبا المنذر أيُّ آية معك من كتاب الله أعظم؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: أبا المنذر أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} ... الحديث¹ .

حديث ابن عباس رضي الله عنهما في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في تهجده: " ... لك الحمد؛ أنت قَيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن ... "².

قال النووي - في شرحه لصحيح مسلم - : (" أنت قَيَّامُ السماوات والأرض " ، وفي الرواية الثانية: " قَيِّمٌ " ؛ قال العلماء: من صفاته القَيَّامُ والقَيِّمُ؛ كما صرح به هذا الحديث، والقَيُّومُ بنص القرآن وقائم، ومنه قوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ} ؛ قال الهروي: ويقال: قَوَّام. قال ابن

¹ - رواه مسلم رقم (810) في صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، وأبو داود رقم (1460) في الصلاة، باب ما جاء في آية الكرسي .

² - رواه البخاري (7385، 7442، 7499) ، ورواه مسلم (769) بلفظ: " قَيَّام " .

عباس: القِيُوم الذي لا يزول. وقال غيره: هو القائم على كل شيء. ومعناه مدبر أمر خلقه، وهما سائغان في تفسير الآية والحديث¹.

فالقِيوم متضمن كمال غناه وكمال قدرته فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته وهذا من كمال قدرته وعزته وهو المبالغ في القيام بكل ما خَلَقَ وَمَا أَرَادَ فَيَعُولُ من القيام على مِثَالِ دَبُورٍ وَعَيُوقٍ² وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ قِيُومٌ فَسَبَقَتْ الْيَاءُ بِسُكُونِ فَقَلَبُوا الْوَاوَ الْمَتَحْرِكَةَ يَاءً وَأَدْغَمُوا هَذِهِ فِيهَا وَلَا يَكُونُ فَعُولًا لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ قَوْمٌ .

3/2 - الخالق والخالق :

الْخَلْقُ صِفَةٌ من صفات الله الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة، وهي مأخوذة أيضاً من اسميه (الخالق) و (الخالق) ، وهي من صفات الذات وصفات الفعل معاً. الدليل من الكتاب:

وردت هذه الصفة في القرآن مرات عديدة، تارة بالفعل (خَلَقَ) ، أو بمصدره، وتارة باسمه (الخالق) أو (الخالق) ، ومن ذلك:

- 1- قوله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: 54] .
 - 2- وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ} [الحجر: 86] .
 - 3- وقوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق: 16] .
 - 4- وقوله: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الحشر: 24]
- الدليل من السنة:

- 1- حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: " قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كَخَلْقِي؛ فليخلقوا ذرّة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة " ³.
- 2- حديث عائشة رضي الله عنها في التصاوير: " ... أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاھون بخلق الله ... " ¹.

¹ - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ) - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - دار إحياء التراث العربي - بيروت - 2/ 1392 - ص : 54/6 .

² - العَيُوقُ كوكب أحمر مضيء بجبال التُّرْبِيَا في ناحية الشَّمَالِ ويطلع قبل الجوزاء سمي بذلك لأنه يَعُوقُ الدَّبْرَانَ عن لقاء التُّرْبِيَا قال أبو ذؤيب : فَوَرَدَنَ وَالْعَيُوقُ مَعْدَ رَبِي الضُّ ضُرْبَاءِ خَلْفَ النَجْمِ لَا يَبْتَلَعُ : ينظر: لسان العرب : 10 / 279 .

³ - صحيح البخاري (5953) ، صحيح مسلم (2111) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : " وصفه تعالى " بالصفات الفعلية " - مثل الخالق والرازق والباعث والوارث والمحيي والمميت - قديم عند أصحابنا وعامة أهل السنة: من المالكية والشافعية والصوفية. ذكره محمد بن إسحاق الكلاباذي حتى الحنفية والسلمية والكرامية. والخلاف فيه مع " المعتزلة " و " الأشعرية ". وكذلك قول ابن عقيل " في الإرشاد " وبسط القول في ذلك وزعم أن أسماءه الفعلية - وإن كانت قديمة - فإنها مجاز قبل وجود الفعل وذكر ذلك عن القاضي في " المعتمد " في مسائل الخلاف مع السلمية؛ والقاضي إنما ذكر للمسألة ثلاثة مآخذ: (أحدها: أنه مثل قولهم: خبز مشبع وماء مروى وسيف قاطع؛ وليس ذلك بمجاز؛ لأن المجاز ما يصح نفيه. كما يقال عن الجد ليس بأب؛ ولا يصح أن يقال عن السيف الذي يقطع ليس بقطوع ولا عن الخبز الكثير والماء الكثير. ليس بمشبع ولا بمروى؛ فعلم أن ذلك حقيقة. هذا تعليل القاضي. قلت: وهذا لأن الوصف بذلك يعتمد كمال الوصف الذي يصدر عنه الفعل لا ذات الفعل الصادر. وعلى هذا فيوصف بكل ما يتصف بالقدرة عليه وإن لم يفعل. ²

وفي معاني الخالق قال الأزهري : " وَمِنْ صِفَاتِ اللَّهِ: الْخَالِقُ وَالْخَالِقُ، وَلَا تَجُوزُ هَذِهِ الصِّفَةُ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ لِغَيْرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ .

وَالْخَلْقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: ابْتِدَاعُ الشَّيْءِ عَلَى مِثَالٍ لَمْ يُسْبِقْ إِلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْأَنْبَارِيِّ: الْخَلْقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى ضَرْبَيْنِ، أَحَدُهُمَا: الْإِنْشَاءُ عَلَى مِثَالِ أْبَدَعَهُ، وَالْآخَرُ: النَّقْدِيرُ.

وَقَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [الْمُؤْمِنُونَ: 14] مَعْنَاهُ: أَحْسَنُ الْمُقَدِّرِينَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَتَخْلُقُونَ إِيَّاهُ} [العنكبوت: 17] أَي: تُقَدِّرُونَ كَذِبًا. قُلْتُ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ: خَلَقْتُ الْأَدِيمَ إِذَا قَدَّرْتَهُ وَقَسَّمْتَهُ، لَتَقَطَّعَ مِنْهُ مَزَادَةً أَوْ قَرِيبَةً أَوْ خُفًّا. وَقَالَ زُهَيْرٌ:

وَلَأَنْتَ تَقْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ ... الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَقْرِي ³

¹ - صحيح البخاري (5954) ، وصحيح مسلم (1668/3) .

² - مجموع الفتاوى : 269/6 .

³ - شرح ديوانه ص 94 من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان مطلعها:

لمن الديار بقنة الحجر ... أقوين من حجج ومن دهر والبيت من شواهد سيبويه 2/ 289 برواية: "وأراك تقري "

يمدح رجلاً فيقول له: أنت إذا قدرت أمراً قطعته وأمضيته، وغيرك يقدر ما لا يقطعه، لأنّه غير ماضي العزم، وأنت مضاءً على ما عزمت عليه " وَقَالَ الْكُمَيْتُ:

أَرَادُوا أَنْ تُزَايِلَ خَالِقَاتٍ ... أَدِيمَهُمْ يَقْسَنَ وَيَفْتَرِينَا

يصف ابني نزار بن معدّ - وهما ربيعة ومضّر - أراد: أن نسبهم وأديمهم واحد.

فإذا أراد خالق الأديم التفريق بين نسبهم تبين لهم أنه أديم واحد لا يجوز خلقه للقطع، وضرب النساء الخالقات للأديم - مثلاً للنسابين الذين أرادوا التفريق بين ابني نزار.¹ وبهذا الاعتبار صح إطلاق خالق على العبد في قوله تعالى: {قَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} أي أحسن المصورين والمقدرين والعرب تقول قدرت الأديم وخلقته إذا قسته لتقطع منه مزادة أو قرينة ونحوها قال مجاهد: "يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين"² وقال الليث: "رجل خالق أي صانع وهن الخالقات للنساء" وقال مقاتل: "يقول تعالى هو أحسن خلقاً من الذين يخلقون التماثيل وغيرها التي لا يتحرك منها شيء"³.

4 - الباري :

وأما الباري فلا يصح إطلاقه إلا عليه سبحانه فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها والعبد لا تتعلق قدرته بذلك إذ غاية مقدوره التصرف في بعض صفات ما أوجده الرب تعالى وبراه وتغييرها من حال إلى حال على وجه مخصوص لا تتعداه قدرته وليس من هذا برئت القلم لأنه معتل لا مهموز ولا برأت من المرض لأنه فعل لازم غير متعد

قال الراغب الأصبهاني في تفسيره: " أصل البرء خلوص الشيء عن غيره إما على سبيل التقصي منه، أو على سبيل الإنشاء عنه فعلى التقصي قولهم: برئ فلان من مرضه، والبايع من عيوب مبيعه، وصاحب الدين من دينه، ومنه: استبراء الجارية، فإنه أراد تقصيتها من " ما " ومن " عسى " أن قد غشيها من قبل، وعلى سبيل الإنشاء: قولهم: أبرأ الله الخلق وقوله تعالى: {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} إشارة إلى أحوال ثلاث، فالخلق: إلى إيجاد البدن، والبرء: إلى إيجاد

¹ - تهذيب اللغة : 16/7 .

² - ابن جرير الطبري - تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) - ص : 19/19 . مصدر سابق .

³ - أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: 150هـ) - تفسير مقاتل بن سليمان - ت - عبد الله محمود شحاته - دار إحياء التراث - بيروت - ط : 1423/1 هـ - ص : 153/3 .

الروح، وهي النسمة التي عناها أمير المؤمنين بقوله: " والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة " ¹ والتصوير إلى الجمع بينهما وإلى ثلاثتها أشار بقوله: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} الآية وإلى ذلك أشار بقوله: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} وأما البرية فكثير من الناس ذهبوا إلى أنها منه، فترك همزة، كالذرية والنبي والخابية " ²

وفي الحديث الصحيح: " إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يبعثه الله إلى جسده يوم يبعثه " ³

قال ابن عبد البر المالكي رحمه الله معلقا على هذا الحديث ⁴: " وأما قوله نسمة المؤمن فالنسمة الروح عند جماعة العلماء على ظاهر الحديث وحجتهم قوله في الحديث حتى يرجعه الله إلى جسده وقد قيل إن النسمة الإنسان لقوله من أعتق نسمة مؤمنة .
وقال علي (رضي الله عنه) لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة
قال ذو الرمة :

بأعظم منه تقى في الحساب إذا النسما ت نقضن الغبارا "

فالبارئ: اسم فاعل للخالق النافع الروح والموجد لها في الحيوان من خلقه فالبريئة على هذا الخليفة التي فيها روح
5 - المصوّر :

يوصف الله عزَّ وجلَّ بأنه المصوّر، وهذا ثابت بالكتاب والسنة، و (المصوّر) من أسمائه تعالى.

الدليل من الكتاب:

¹ - أخرجه البخاري بشرح الفتح برقم 3047: "باب فكاك الأسير"، والنسائي 8/ 23 عن أبي جحيفة -رضي الله عنه- قال. قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن

² - أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ) - تفسير الراغب الأصفهاني - ت: محمد عبد العزيز بسيوني - كلية الآداب - جامعة طنطا - ط: 1/ 1420 هـ - 1999 م - ص: 1/ 192 .

³ - الألباني - صحيح الجامع الصغير وزياداته - المكتب الإسلامي - ص: 468 .

⁴ - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ) - الاستنكار - ت: سالم محمد عطا، محمد علي معوض - دار الكتب العلمية - بيروت - ط: 1/ 1421 - 2000

- 1- قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [الحشر: 24] .
 2- وقوله: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ} [آل عمران: 6]
 الدليل من السُّنَّة:

- حديث أنس رضي الله عنه: " لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ؛ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ ... " ¹
 - حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "... سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ " ²

فالمصور: هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ خَلْقَهُ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ لِيَتَعَارَفُوا بِهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ) [غافر/64]. وَقَالَ تَعَالَى: " يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ " [الانفطار/7]. وَمَعْنَى التَّصَوُّرِ: التَّخْطِيطُ وَالتَّشْكِيلُ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: " أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوَّرُونَ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ " ³.

ويخلق الله جَلَّ وَتَعَالَى الْإِنْسَانَ فِي أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ ثَلَاثَ خَلْقٍ: يَجْعَلُهُ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ يَجْعَلُهَا صُورَةً، وَهُوَ التَّشْكِيلُ الَّذِي بِهِ يَكُونُ ذَا صُورَةٍ وَهَيْئَةٍ يُعْرَفُ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ بِسِمَاتِهَا " فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ " [المؤمنون/14].

فالمصور إذن مفعّل من صور التضعيف فيه زائد ليس مجرد مسموع فيستعمل للقليل والكثير لكن الله لا يحصى خلقه وصور خلقه إلا هو .

6 - اللطيف

اللُّطْفُ صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَ (اللطيف) مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ.
 الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 103] .

¹ - صحيح مسلم : (2611)

² - رواه مسلم (771) .

³ - أخرجه البخاري بشرح الفتح برقم 5951 و 5961 لباس، وطرفه الأخير برقم 7558، ومسلم ج 3 / 1667 كتاب اللباس والزينة برقم (91)، (92)، (96)، (97)، (98). والنسائي 8 / 216 (زينة) والإمام أحمد في المسند 1 / 375، 426، و 2 / 26، 55. وفي المصادر السابقة بعض الاختلاف في الروايات ولكن معناها متقارب، واللفظ هنا عند أحمد 2 / 26.

2- وقوله: {الله لطيف بعبادته} [الشورى: 19] .

3- قوله تعالى: {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير} [الملك: 14]

الدليل من السنة:

حديث عائشة رضي الله عنها في تتبعها للنبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من عندها خفية لزيارة البقيع، وفيه قال صلى الله عليه وسلم: " ما لك يا عائش حشياً رابية ؟ " . قالت: قلت: لا شيء. قال: " لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير " ¹.

قال الخطابي: " اللطيف: هو البر بعبادته، الذي يُلطف لهم من حيث لا يعلمون ويُسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون.

كقوله - سبحانه - : (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز) [الشورى/19]. وحكى أبو عمَرَ عن أبي العباس عن ابن الأعرابي قال: اللطيف، الذي يوصل إليك أربك في رفق، ومن هذا قولهم: لطف الله لك، أي: أوصل إليك ما تحب في رفق. ويُقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية. وقد يكون اللطف بمعنى الرقة، والغموض، ويكون بمعنى الصغر في نعوت الأجسام، وذلك مما لا يليق بصفات الباري سبحانه ².

وفي تاج العروس: " لطف به، وله كنصر يُلطف لطفاً بالضم: إذا رفق به، وأنا أُلطف به: إذا رينته مودةً ورفقاً في معاملة، وهو لطيف بهذا الأمر، رقيق بمداراته، قال شيخنا: قد أغفل المصنّف رحمه الله أداة تعديته، والمشهور تعديته بالباء، كقوله تعالى: الله لطيف بعباده وجاء معدى باللام، كقوله تعالى: إن ربي لطيف لما يشاء إما حقيقة، كما هو رأي ابن فارس، وصرح به في المجمل كظاهر تفسير المصنّف، أو لتضمين معنى الإيصال، وعليه صاحب العمدّة، وصرح به الراغب، وعلى تعديته بالباء اقتصر في المصباح والأساس، وعليه معول الناس. قالت: وهذا الذي ذكره شيخنا من تعديته بالباء واللام، فقد ذكره المصنّف بقوله بعد: والله لك: أوصل وبقوله البر بعباده فتأمل ذلك. وفي حديث الإفك: ولا أرى منه اللطف الذي كنت أعرّفه أي: الرفق والبر، ويروى بفتح الطاء واللام، لغة فيه. وقال ابن عباد: لطف يُلطف: دنا يدنو. قلت: وكأته لحظ إلى قول الفرزدق: والله أدنى من وريدي وألطف وليس كما فهم، بل معناه: وألطف اتصالاً، فتأمل. وقال ابن الأعرابي: لطف فلان لفلان يُلطف: إذا رفق لطفاً، ويُقال:

¹ - صحيح مسلم (974)

² - شأن الدعاء - 62

لَطَفَ اللهُ لَكَ: أَيِ أَوْصَلَ إِلَيْكَ مُرَادَكَ بِلُطْفٍ وَرَفْقٍ وَأَمَّا لَطْفَ الشَّيْءِ، كَكَرَّمَ لُطْفًا بِالضَّمِّ، عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، وَلَطَافَةً عَلَى الْقِيَاسِ، فَمَعْنَاهُ: صَعُرَ وَدَقَّ، فَهُوَ لَطِيفٌ يُقَالُ: عُوِدُ لَطِيفٌ: إِذَا كَانَ غَيْرَ جَافٍ. وَاللَّطِيفُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى، وَاسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَمَعْنَاهُ وَاللهُ أَعْلَمُ: الْبِرُّ بِعِبَادِهِ الْمُحْسِنِينَ إِلَى خَلْقِهِ بِإِيصَالِ الْمَنَافِعِ إِلَيْهِمْ بِرَفْقٍ وَلُطْفٍ.

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: اللَّطِيفُ: الَّذِي يُوَصَلُ إِلَيْكَ أَرْبَكَ فِي رَفْقٍ. أَوْ الْعَالِمُ بِخَفَايَا الْأُمُورِ وَدَقَائِقِهَا قَالَ شَيْخُنَا: حَاصِلُهُ قَوْلَانِ، قِيلَ: الْأَوَّلُ مِنْ لَطَفَ كَنَصَرَ لُطْفًا: إِذَا رَفَقَ، وَالثَّانِي: عَلَى أَنَّهُ مِنْ لَطَفَ كَكَرَّمَ لُطْفًا وَلَطَافَةً بِمَعْنَى دَقَّ، وَقَالَ الْفَيْوُمِيُّ: إِنَّهُمَا مُتَقَارِبَانِ. قُلْتُ: وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي تَفْسِيرِهِ: اللَّطِيفُ: هُوَ الَّذِي اجْتَمَعَ لَهُ الرَّفْقُ فِي الْفِعْلِ، وَالْعِلْمُ بِدَقَائِقِ الْمَصَالِحِ، وَإِيصَالُهَا إِلَى مَنْ قَدَّرَهَا لَهُ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَاللَّطِيفُ مِنَ الْكَلَامِ: مَا عَمُضَ مَعْنَاهُ وَخَفِيَ. وَاللُّطْفُ، بِالضَّمِّ مِنْ اللهِ تَعَالَى: التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ..¹

قال شيخ الإسلام في قوله تعالى: " {وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ {الملك: 13-14} . وهذه الآية تدل على كونه عالماً بالجزئيات من طرق: أحدها: من جهة كون الخلق يستلزم العلم بالمخلوق.

والثاني: من جهة كونه في نفسه لطيفاً خبيراً، وذلك يوجب علمه بدقيق الأشياء وحفيها.² فاللطيف إذن، يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: {وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} ، وهو فعيل عوض عن فاعل الذي لم يتكلم به .

7- البرّ :

صفة فعلية لله عَزَّ وَجَلَّ ثابتةٌ بالكتاب والسنة، و (البرّ) من أسمائه تعالى. الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور: 28]

الدليل من السنة:

¹ - الزبيدي - تاج العروس من جواهر القاموس - 24 / 363 .

² - درة تعارض العقل والنقل : 10 / 117 .

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: " إن من عباد الله تعالى من لو أقسم على الله لأبره " ¹ .
ومعنى " البرّ " :

1- اللطيف بعباده. قاله ابن جرير في تفسير الآية السابقة ، وقد فسر الخطابي اللطيف بأنه البرّ بعباده .

2- العطوف على عباده ببره ولطفه. قاله ابن الأثير ² .

3- وقال ابن القيم :

والبرُّ في أوصافِهِ سُبْحَانَهُ ... هُوَ كَثْرَةُ الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ " ³

وفي " لسان العرب " : " البرُّ: الصادق، وفي التنزيل العزيز: {إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} والبرُّ من صفات الله تعالى وتقدّس: العطوفُ الرحيمُ اللطيفُ الكريمُ، قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى البرُّ دون البارِّ وهو العطوف على عباده ببرّه ولُطْفِهِ "

فالبرُّ: هو العَطُوفُ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، عَمَّ بِبِرِّهِ جَمِيعَ خَلْقِهِ، فَلَمْ يَبْخُلْ عَلَيْهِمْ بِرِزْقِهِ، وَهُوَ الْبَرُّ بِأَوْلِيَانِهِ، إِذْ خَصَّهُمْ بِوِلَايَتِهِ وَأَصْطَفَاهُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَهُوَ الْبَرُّ بِالْمُحْسِنِ فِي مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ لَهُ وَالْبَرُّ بِالْمُسِيءِ فِي الصَّفْحِ، وَالتَّجَاوُزِ عَنْهُ. وَفِي صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ: رَجُلٌ بَرٌّ وَبَارٌّ إِذَا كَانَ ذَا خَيْرٍ وَنَفَعٍ، وَرَجُلٌ بَرٌّ بِأَبْوَيْهِ وَهُوَ ضِدُّ الْعَاقِّ.

ومن الناحية الصرفية هو فَعَلٌ أبلغ من بارّ بزنة فاعل ، فالذي يبرّ بوالديه مرة ويتجبرّ أخرى قد يسمى بارًّا لا برًّا قال تعالى - حكاية عن عيسى - عليه السلام : " [وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا] مريم : 32

8 - السميع :

السَّمْعُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَ (السميع) من أسمائه تعالى.
الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46] .

2- وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11] .

¹ - صحيح البخاري (2703) ، وصحيح مسلم (1675) .

² - مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (المتوفى : 606هـ) - جامع الأصول في أحاديث الرسول - ت : عبد القادر الأرناؤوط - مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان - ص : 173/4 .

³ - النونية: (99/2)

3- وقوله: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: 1] .

الدليل من السنة:

1- حديث عائشة رضي الله عنها في قصة المجادلة وقولها: " الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات " ¹

فالسَمِيعُ: بِمَعْنَى السَّامِعِ، إِلَّا أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الصِّفَةِ، وَبِنَاءِ فَعِيلٍ: بِنَاءُ الْمُبَالَغَةِ. كَقَوْلِهِمْ: عَلِيمٌ: مَنْ عَالِمٌ، وَقَدِيرٌ: مَنْ قَادِرٌ، وَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى. سَوَاءً عِنْدَهُ الْجَهْرُ، وَالخُفْوُ، وَالنُّطْقُ، وَالسُّكُوتُ، فَيَتَعَلَقُ بِالْمَفْعُولِ كَعَلِيمٍ بِمَعْنَى عَالِمٍ وَقَدِيرٍ بِمَعْنَى قَادِرٍ.

وَقَدْ يَكُونُ السَّمَاعُ بِمَعْنَى الْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ.

[29] كَقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَوْلٍ لَا يُسْمَعُ"، أَي: مِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْتَجَابُ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الْمُصَلِّي:

[30] "سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمَدَهُ" مَعْنَاهُ قَبِلَ اللهُ حَمْدَ مَنْ حَمَدَهُ.

وَأَنشَدَ أَبُو زَيْدٍ لِشَتِيرِ بْنِ الْحَارِثِ الضَّبِّيِّ:

دَعَوْتُ اللهُ حَتَّى خِفْتُ أَلَا ... يَكُونُ اللهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ ²
أَي: لَا يُجِيبُ، وَلَا يَقْبَلُ .

9 - البصير :

البصر صفة من صفات الله عز وجل الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

¹ - البخاري (372/13)

² - أنشده الطبري في تفسيره، 5/ 6 - 528، وابن الجوزي في زاد المسير 1/ 144، والقرطبي 2/ 31، وفي الخزانة 2/ 363، مطلع قصيدة من سبعة أبيات في الشاهد السادس والستين بعد الثلاثمائة منسوباً إلى شمير بن الحارث الضبي. وقال: شمير، بضم الشين المعجمة وفتح الميم وآخره راء مهملة، هكذا ضبطه أبو زيد. وقال الأخفش - فيما كتبه عليه - الذي في حفظي سمير - بالسين المهملة وكذا ضبطه الصاغاني في العباب بالمهملة - وقال: هو شاعر جاهلي والله أعلم. اه وفي نوادر أبي زيد ص 124 مع ستة أبيات أخرى. وفي أمالي المرتضى 1/ 603، وفي اللسان (سمع) ولم ينسبه. وأنشده الخطابي في غريب الحديث 1/ 342، والزمخشري في الفائق 1/ 612 كما هنا، إلى شتير. وانظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص 42.

1- قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58] .

2- وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]

الدليل من السنة:

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: " يا أيها الناس! أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، ولكن تدعون سميعاً بصيراً، إنَّ الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " ¹.

قال الخليل: " البَصْرُ: العَيْنُ، مذكَّر، والبَصْرُ: نَفَاذٌ فِي الْقَلْبِ. والبَصَارَةُ مصدر البصير، وقد بَصَرَ، وِابْصَرْتُ الشَّيْءَ وَتَبَصَّرْتُ بِهِ، وَتَبَصَّرْتُهُ: شَبَّهُ رَمَقْتُهُ. وَاسْتَبَصَرَ فِي أَمْرِهِ وَدِينِهِ إِذَا كَانَ ذَا بَصِيرَةٍ. وَالبصيرةُ اسْمٌ لِمَا اعتُقِدَ فِي الْقَلْبِ مِنَ الدِّينِ وَحَقِيقِ الْأَمْرِ " ²

" قَالَ الْأَخْفَشُ فِي قَوْلِهِ: {بَصَّرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ} (طه: 96) ، أَي: عَلِمْتُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا، مِنَ الْبَصِيرَةِ. وَأَبْصَرْتُ بِالْعَيْنِ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: بَصُرَ الرَّجُلُ يَبْصُرُ: إِذَا صَارَ عَلِيمًا بِالشَّيْءِ، وَأَبْصَرْتُ أَبْصِرُ: نَظَرْتُ، فَالتَّأْوِيلُ عَلِمْتُ بِمَا لَمْ تَعْلَمُوا بِهِ. " ³

فبصير سواء كان من بَصُرَ بمعنى علم فهو صفة مشبهة باسم الفاعل تتعدى بحرف الجر أو كان من نعوت المبالغة من أبصر فهو فعيل في معنى مفعول ولا يخفى تعديه هنا وكونه من الصفات الفعلية كَمَا جَاءَ أَلِيمٌ فِي مَعْنَى مَوْلَمٍ مِنَ أَلَمَ وَكَقَوْلِ عَمْرٍو بْنِ مَعَدٍ يَكْرَبُ: أَمِنْ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ ⁴

يُرِيدُ: الْمُسْمِعَ وَإِنَّمَا جَاءَ ذَلِكَ لِأَنَّ مَفْعَلًا اسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ أَفْعَلَ وَمَطْرَدٌ فِيهِ اطراد فاعل في فَعَلَ

10 - الحافظ / الحفيظ :

¹ - صحيح البخاري (6384)

² - العين : 117/7 .

³ - تهذيب اللغة : 12 / 121 . الفروق اللغوية : 82/1 .

⁴ - هذا صدر بيت، عجزه: يورقني وأصحابي هجوع.

وهو مطلع الأسمعية رقم (61)، وأبياتها (37) بيتاً لعمر بن معد يكرب الزبيدي، وفي الكامل 1 / 172، وأمالى ابن الشجري 1 / 64 و 2 / 106، وتفسير الطبري 1 / 123، وتهذيب الأزهرى 2 / 124، وأورده ابن فارس في الصحابي ص 201، شاهداً على السميع بمعنى: مسمع، وضعهم فعيل بمعنى مفعول، وروح المعاني 1 / 150، وانظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج : ص 43.

الحِفْظُ صفةٌ فعليةٌ من صفاته تعالى الثابتة بالكتاب والسنة من اسميه (الحافظ) و (الحفيظ) الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [هود: 57] .

2- وقوله: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 64] .

قال الخليل : " حفظ: الحِفْظُ: نقيض النسيان، وهو التَّعَاهُدُ وَقَلَّةُ الْعَفْلةِ، والحَفِيظُ: المُوَكَّلُ بالشيء يحفظه. والحَفَظَةُ جمع الحافظ، وهم الذين يُحصُونَ أعمال بني آدم من الملائكة." ¹
الحَفِيظُ: هُوَ الحَافِظُ. فَعِيلٌ بِمَعْنَى: فَاعِلٍ. كَالْقَدِيرِ وَالْعَلِيمِ. يَحْفَظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا؛ لِتَبْقَى مَدَّةَ بَقَائِهَا؛ فَلَا تَزُولُ وَلَا تُدْتَرُ. كَقَوْلِهِ -عز وجل-: (وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا) [البقرة/255].
وَقَالَ: (وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ) [الصفات/ 7] أَي: حَفِظْنَاهَا حِفْظًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَهُوَ الَّذِي يَحْفَظُ عَبْدَهُ مِنَ الْمَهَالِكِ وَالْمَعَاظِبِ، وَيَقِيهِ مَصَارِعَ السُّوءِ. كَقَوْلِهِ -سُبْحَانَهُ-: (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) [الرعد/11] أَي: بِأَمْرِهِ وَيَحْفَظُ عَلَى الْخَلْقِ أَعْمَالَهُمْ، وَيُحْصِي عَلَيْهِمْ أَقْوَالَهُمْ، وَيَعْلَمُ نِيَّاتِهِمْ وَمَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ، وَلَا تَغِيْبُ عَنْهُ غَائِبَةٌ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَيَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ، فَيَعْصِمُهُمْ عَنِ مُوَاقَعَةِ الذُّنُوبِ، وَيَحْرُسُهُمْ عَنِ مُكَائِدَةِ الشَّيْطَانِ، لِيَسْلَمُوا مِنْ شَرِّهِ، وَفِتْنَتِهِ.

11 - الحسيب :

يوصف الله عزَّ وجلَّ بأنه الحسيب، وهو اسم له ثابتٌ بالكتاب والسنة.
الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} [النساء: 86] .

- وقوله: {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} [النساء: 6، والأحزاب: 39] .

الدليل من السنة:

1- حديث أبي بكرة رضي الله عنه: " ... إن كان أحدكم مادحاً لا محالة؛ فليقل: أحسب كذا

وكذا - إن كان يرى أنه كذلك -، وحسيبه الله، ولا يُزَكِّي على الله أحد" ²

2- قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " ... فمن أظهر لنا خيراً؛ أمناه وقرَّبناه، وليس لنا

من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته ... " ¹

¹ - العين : 3 / 198 .

² - صحيح البخاري (6162)

قال الخطابي : " الحَسِيبُ: هو المَكَافِيءُ. فَعِيلٌ بِمَعْنَى: مُفْعِلٍ، كَقَوْلِكَ (1): أَلَيْمٌ بِمَعْنَى مُؤَلِمٍ. تَقُولُ العَرَبُ: نَزَلَتْ بِفُلَانٍ فَأَكْرَمَنِي وَأَحْسَبَنِي، أَي: أَعْطَانِي مَا كَفَانِي حَتَّى قُلْتُ: حَسْبِي. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ² :

وَنُفْفِي وَلَيْدَ الحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعًا ... وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعٍ
وَأَخْبَرَنَا ابْنُ الأَعْرَابِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا: العَبَّاسُ الدُّورِيُّ عَنِ يَحْيَى بْنِ مَعِينٍ قَالَ: قَالَ [شُعْبَةَ]:
سَمِعْتُ سِمَاكَ بْنَ حَرْبٍ يَقُولُ فِي كَلَامٍ لَهُ: "مَا أَحْسَبُوا ضَيْفَهُمْ"³. أَي: مَا أَكْرَمُوهُ. قُلْتُ: وَهَذَا
رَاجِعٌ إِلَى المَعْنَى الأُولَى لِأَنَّهُمْ إِذَا كَفَوْهُ المُوَثَّقَةَ وَأَحْسَبُوا القِيَامَ فَقَدَ أَكْرَمُوهُ. وَالحَسِيبُ أَيضاً
بِمَعْنَى المُحَاسِبِ كَقَوْلِهِمْ: وَزِيرٌ، وَنَدِيمٌ: بِمَعْنَى مُوَازِرٍ وَمُنَادِمٍ. وَمِنْهُ قَوْلُ الله سُبْحَانَهُ-: (كَفَى
بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيكَ حَسِيباً) [الإسراء/ 14] أَي: مُحَاسِباً - والله أَعْلَمُ⁴.
فمعنى الحسيب؛ أي: الحفيظ، والكافي، والشهيد، والمحاسب.⁵ وهو لا ينفك صفة فعلية على
أرعتها .

12 - 13 : الرقيب / الشهيد :

يوصف الله عزَّ وجلَّ بأنه الرقيب، والشهيد و هما اسمان
من أسماء الله الثابتة بالكتاب.
الدليل:

1- قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيكُمْ رَقِيباً} [النساء: 1] .

¹ - صحيح البخاري (2641) .

² - البيت مع آخر قبله:

أكلنا الشوى حتى إذا لم نجد شوى ... أشرنا إلى خيراتها بالأصابع

في السمط ص 885، وذيله ص 68 منسوبان إلى أبي يزيد العقيلي، ونسبه في اللسان مادة (حسب)، و (دوا) إلى امرأة من
قشير. وفي الأساس (قفو) بدون نسبة. وإصلاح المنطق ص 263، والعقد الفريد 8/ 4. وفي غريب القرآن ص 17، 510،
أي: نعطيها ما يكفيه حتى يقول: حسبي. وانظر أسماء الله الحسنى للزجاج ص 49.

³ - وحديث سماك في النهاية لابن الأثير 1/ 382، وفي اللسان 1/ 316 (حسب) برواية: "ما حسبوا ضيفهم" أي: ما أكرموه،
وفي النهاية: أحسبته وحسبته - بالتشديد - أعطيته ما يرضيه حتى يقول: حسبي.

⁴ - شأن الدعاء : 68 - 69 .

⁵ - ينظر: تفسير الآية 6 و86 من سورة النساء في " تفسير ابن جرير" وابن الجوزي في " زاد المسير".

2- وقوله تعالى: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ} [المائدة: 117]

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

الرقيب والشهيد من أسماء الحسنى وهما مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجليّة والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحق، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان . والرقيب المطلع على ما أكنته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير .

قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} 1 {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ، ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعداد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة، والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر، وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله وتعبد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه .

قال القرطبي: " رقيب؛ بمعنى: راقب فهو من صفات ذاته، راجعة إلى العلم والسمع والبصر؛ فإن الله تعالى رقيب على الأشياء بعلمه المقدس عن مباشرة النسيان، ورقيب للمبصرات ببصره الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ورقيب للمسموعات بسمعه المُدْرِكِ لكل حركة وكلام؛ فهو سبحانه رقيب عليها بهذه الصفات، تحت رقبته الكليات والجزئيات وجميع الخفيات في الأرضين والسموات، ولا خفي عنده، بل جميع الموجودات كلها على نمطٍ واحدٍ، في أنها تحت رقبته التي هي من صفته" ¹.

وَيُقَالُ مِنْهُ: رَقِبْتُ الشَّيْءَ أَرْقُبُهُ رَقِيبَةً وَكَذَا الشَّأْنَ فِي شَهِيدٍ فَإِنَّهَا مَبَالِغَةٌ شَاهِدٌ مِنْ شَهِدٍ شَهُودًا وَشَهَادَةً ، وَالشَّهِيدُ: هُوَ الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ. يُقَالُ: شَاهَدْتُ وَشَهِدْتُ كَعَالِمٍ، وَعَلِيمٌ. أَي: كَأَنَّهُ الْحَاضِرُ الشَّاهِدُ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ. وَقَدْ قَالَ - سُبْحَانَهُ - : (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) [البقرة/185]. أَي: مَنْ حَضَرَ مِنْكُمْ فِي الشَّهْرِ فَلْيَصُمْهُ، وَيَكُونُ الشَّهِيدُ، بِمَعْنَى: الْعَلِيمِ. كَقَوْلِهِ: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) [آل عمران/18] قِيلَ: مَعْنَاهُ: عَلِمَ اللَّهُ. وَقَالَ أَبُو

¹ - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (401/1)

العباس أحمد بن يحيى معناه: بين الله أنه لا إله إلا هو، وهو أيضاً الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر على الظالم المتعدّي الذي لا مانع له في الدنيا؛ لينتصف له منه

14- الحفي :

يوصف الله عز وجل بأنه حفي، وهذا ثابت بالكتاب العزيز .

الدليل:

قوله تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}

الحفا مَفْصُور: مصدر حَفِيَ حَفًا: إذا اشْتكى رِجْلُهُ من الْحِجَارَةِ وَالْحَفَاءِ مَمْدُود: خُلُو الرجل من النَّعْلِ هَمْزته منقلبة عن ياء وواوٍ لِأَنَّهُ يُقَالُ حَافٍ بَيْنَ الْحِفْوَةِ وَالْحَفِيَّةِ¹ ولم نجد بحثاً جامعاً في اشتقاقات " حفا " ومعانيها مثل ما جاء في التهذيب : " حفا: قَالَ ابْنُ الْمَظْفَرِ: الْحِفْوَةُ وَالْحَفَا مَصْدَرُ الْحَافِي، يُقَالُ حَفِيَ يَحْفِي إِذَا كَانَ بَغِيرُخَفٍ وَلَا نَعْلٍ، وَإِذَا انْسَحَبَتِ الْقَدَمُ أَوْ فِرْسَنُ الْبَعِيرِ أَوْ الْحَافِرُ مِنَ الْمَشْيِ حَتَّى رَقَّتْ قَبْلَ حَفِي يَحْفَى فَهُوَ حَفٍ وَأُنْشِد:

وَهُوَ مِنَ الْأَيْنِ حَفٍ نَحِيثُ

وَأَحْفَى الرَّجُلُ إِذَا حَفِيَتْ دَابَّتُهُ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ الْحَفَا مَقْصُورٌ أَنْ يَكْثُرَ عَلَيْهِ الْمَشْيُ حَتَّى يُؤْلِمَهُ الْمَشْيُ. قَالَ: وَالْحَفَاءُ مَمْدُودٌ أَنْ يَمْشِيَ الرَّجُلُ بَغَيْرِ نَعْلٍ، حَافٍ بَيْنَ الْحَفَاءِ مَمْدُودٌ وَحَفٍ بَيْنَ الْحَفَا مَقْصُورٌ إِذَا رَقَّ حَافِرُهُ.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر بإحفاء الشوارب وإعفاء اللحى.

قال أبو عبيد قال الأصمعي: أَحْفَى شَارِبَهُ وَرَأْسَهُ إِذَا أَلْزَقَ جَزَّهُ. قَالَ. وَيُقَالُ: فِي قَوْلِ فُلَانٍ إِحْفَاءٌ وَذَلِكَ إِذَا أَلْزَقَ بَكَ مَا تَكَرَّهُ وَأَلْحَ فِي مَسَاعَتِكَ كَمَا يُحْفَى الشَّيْءُ أَي يَنْتَقَصُ.

وقال الحارث بن حلزة:

إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَعْطُونَ عَلَيْنَا، فِي قَبْلِهِمْ إِحْفَاءٌ

أَي يَقْعُونَ فِينَا.

وقال الليث: أَحْفَى فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا بَرَّحَ بِهِ فِي الْإِلْحَافِ عَلَيْهِ أَوْ مُسَاءَلَةً فَأَكْثَرَ عَلَيْهِ فِي الطَّلَبِ. قُلْتُ: الْإِحْفَاءُ فِي الْمَسْأَلَةِ مِثْلُ الْإِلْحَافِ سَوَاءٌ وَهُوَ الْإِلْحَاحُ. وَقَالَ الْفَرَاءُ: {أَمْوَالِكُمْ وَإِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَضْعَانِكُمْ} (محمّد: 37) أَي يُجْهِدْكُمْ، وَأَحْفَيْتُ الرَّجُلَ إِذَا أَجْهِدْتَهُ وَكَذَلِكَ قَالَ الزَّجَّاجُ. وَقَالَ الْفَرَاءُ فِي قَوْلِ اللَّهِ {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} (الأعراف:

¹ - المخصص لابن سيده : 433/4 .

187) فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَعْنَاهُ يَسْأَلُونَكَ عَنْهَا كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا. قَالَ وَيُقَالُ فِي التَّفْسِيرِ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِهَا، مَعْنَاهُ حَافٍ عَالِمٌ.

وَيُقَالُ تَحَافَيْنَا إِلَى السُّلْطَانِ فَرَعْنَا إِلَى الْقَاضِي، قَالَ: وَالْقَاضِي يُسَمَّى الْحَافِي. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: الْمَعْنَى يَسْأَلُونَكَ عَن أَمْرِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّكَ فَرِحَ بِسُؤَالِهِمْ، يُقَالُ قَدْ تَحَفَيْتُ بِفُلَانٍ فِي الْمَسْأَلَةِ إِذَا سَأَلْتَ بِهِ سُؤَالَ أَظْهَرْتَ فِيهِ الْمَحَبَّةَ وَالْبِرَّ، قَالَ: وَقِيلَ {كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} كَأَنَّكَ أَكْثَرْتَ الْمَسْأَلَةَ عَنْهَا. وَأَمَّا قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزَّ: {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} (مَرِيَمَ: 47) فَإِنَّ الْفَرَاءَ قَالَ مَعْنَاهُ كَانَ بِي عَالِمًا لَطِيفًا يُجِيبُ دُعَائِي إِذَا دَعَوْتُهُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يُقَالُ تَحَفَى فُلَانٌ بِفُلَانٍ مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَظْهَرَ الْعِنَايَةَ فِي سُؤَالِهِ إِيَّاهُ، يُقَالُ: فُلَانٌ بِي حَفِيٌّ إِذَا كَانَ مَعْنِيًّا، وَأُنْشِدَ:

فَإِنْ تَسَأَلِي عَنِّي فَيَأْرُبْ سَائِلٍ حَفِيٌّ عَنِ الْأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَصْعَدَا
مَعْنَاهُ مَعْنِيٌّ بِالْأَعْشَى وَبِالسُّؤَالِ عَنْهُ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} مَعْنَاهُ كَأَنَّكَ مَعْنِيٌّ بِهَا، وَيُقَالُ: الْمَعْنَى يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ سَائِلٌ عَنْهَا، قَالَ وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} مَعْنَاهُ كَانَ بِي مَعْنِيًّا.

وَأَخْبَرَنِي الْمَنْذِرِيُّ عَنِ أَبِي الْعَبَّاسِ عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: يُقَالُ لَقَيْتُ فُلَانًا فَحَفِيٌّ بِي حَفَاوَةً. وَتَحَفَى بِي تَحَفِيًّا، وَيُقَالُ حَفِيٌّ اللَّهُ بِكَ فِي مَعْنَى أَكْرَمَكَ اللَّهُ. وَالتَّحَفَى الْكَلَامُ وَاللِّقَاءُ الْحَسَنُ. وَحَفِيٌّ مَنْ نَعَلَهُ وَخُفَّهُ حُفْوَةً وَحَفِيَّةً وَحَفَاوَةً، وَمَشَى حَتَّى حَفَى حَفَاً شَدِيدًا، وَأَحْفَاهُ اللَّهُ وَتَوَجَّى مِنَ الْحَفَا وَوَجَّى وَجَى شَدِيدًا.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِهِ: {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} مَعْنَاهُ لَطِيفًا يُقَالُ: حَفَى فُلَانٌ بِفُلَانٍ حُفْوَةً إِذَا بَرَّهَ وَأَلْطَفَهُ.

وَقَالَ اللَّيْثُ: الْحَفِيُّ هُوَ اللَّطِيفُ بِكَ يَبْرُكُ وَيُلْطَفُكَ وَيَحْتَفِي بِكَ.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: حَفَى فُلَانٌ بِفُلَانٍ يَحْفَى بِهِ حَفَاوَةً إِذَا قَامَ فِي حَاجَتِهِ وَأَحْسَنَ مَثْوَاهُ. وَيُقَالُ: حَفَا فُلَانٌ فُلَانًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ يَحْفُوهُ إِذَا مَنَعَهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

ثَعْلَبٌ عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ: قَالَ الْحَفْوُ: الْمَنْعُ، يُقَالُ أَتَانِي فَحَفَوْتُهُ أَيَّ حَرَمْتُهُ. وَعَطَسَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوْقَ ثَلَاثِ ثَلَاثِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ: حَفَوْتَ، يَقُولُ: مَنَعْتَنَا أَنْ نَشْمَتَكَ بَعْدَ

الثلاث...¹

¹ - الأزهري - تهذيب اللغة : 168. 167. 166/5.

فعلى قول الخليل - الذي يعزو كثير من أهل المعاجم أقواله إلى كاتبه : الليث بن المظفر- و الأصمعي وابن الأعرابي والزجاج يكون " حفي " فعيل بمعنى فاعل من " حَفِي بكذا " المقرون بالباء الدال على العناية والبر والإكرام واللفظ والنجدة وإجابة الدعاء وهي معان كريمة حميدة أما " حَفِي اللزوم " في نحو : " حفي زيدٌ " بمعنى أنه منع رجله نعلا أو خفاً فاسم الفاعل " حافٍ " وكذلك "حَفَا فلان فلانا يحفوه " المتعدي بلا واسطة فهو بمعنى المنع والجفاء لا بمعنى المنح والعطاء فهو قريب من اللزوم في معنى المنع وعدم الإكرام فليس بعيدا أن يكون اسم الفاعل منه " حاف " كذلك والله أعلم .

15- الحكيم :

الحكمة صفةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، و (الحكيم) من أسمائه تعالى، وهو ثابتٌ بالكتاب والسنة. الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 18] .

2- وقوله: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 228] .

الدليل من السنة:

1- حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "... وسبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ... " ¹.

الحكيم هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} المائدة (50) .

فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى، والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

والحكيم: الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم، والإطلاع على مبادئ الأمور، وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة عزيز الرحمة، فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه، وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدر في حكمته مقال .

¹ - صحيح مسلم (2696) .

قال ابن القيم :

وهو الحكيمُ وذَاكَ من أوصافِهِ ... نَوْعَانِ أَيْضاً مَا هُمَا عَدَمَانِ

حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلُّ مِنْهُمَا ... نَوْعَانِ أَيْضاً ثَابِتَا الْبُرْهَانِ¹

فإن كان الحكيم من الحكم وهو الفصل والأمر فهو بمعنى حاكم وفعيل هنا أبلغ من فاعل في الدلالة على ديمومة حكمه وخلقه وأمره وفصله وكثرته وتنوعه ، قال تعالى : " أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ " [الأعراف : 54] ، وقال : " يُسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ { الحمن : 29 } : من حكمه وقضائه وتقديره ، وإن كان من الحكمة وهي كمال العلم والإرادة المتضمنين اتساق صنعه وجريانه على أحسن الوجوه وأكملها ووضعها الأشياء مواضعها لقوله تعالى : {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} (النحل آية 88) ، فهو من الإحكام فعيل بمعنى مُفْعِل كبصير وسميع وأليم من الإفعال في كلها

16 - العالم والعلّام والعليم :

العِلْمُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ (العليم) .

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الأنعام: 73، الرعد: 9، التغابن: 18]

2- وقوله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [البقرة: 255]

3- وقوله: {وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المائدة: 97] .

4- وقوله: {إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: 116] .

الدليل من السنة:

1- حديث الاستخارة: " اللهم إني أستخيرك بعلمك ..."².

قال الفيروز أبادي : " عِلْمُهُ يَعْلمُهُ عِلْمًا: عَرَفَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ. وَعَلْمٌ هُوَ فِي نَفْسِهِ. وَرَجُلٌ عَالِمٌ وَعَلِيمٌ مِنْ عُلَمَاءَ. وَعَلْمَهُ الْعِلْمُ وَأَعْلَمَهُ إِيَّاهُ فَتَعَلَّمَهُ. وَالْعَلَامُ وَالْعَلَامَةُ وَالْعُلَامُ: الْعَالِمُ جِدًّا. وَكَذَلِكَ التَّعْلِمَةُ وَالتَّعْلَامَةُ.³ كالتزعية والترعاية للذي يجيد رعي الإبل ورجلٌ تَلْعِبُهُ مِنَ اللَّعِبِ وَرَجُلٌ

¹ - نونية ابن القيم : الكافية الشافية : 151 .

² - صحيح البخاري (6382) .

³ - مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ) - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز -

ت : محمد علي النجار - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة - ص : 88 / 4 .

تَقُولُهُ وَ تَقْوَالُهُ جَيِّدُ الْقَوْلِ وَ تَلْعَابُهُ مِنَ اللَّعْبِ وَ تَبْذَارُهُ لِلَّذِي يُبْذَرُ مَالُهُ وَ يُفْسَدُهُ وَ رَجُلٌ تَكَلَّمَ جَيِّدَ الْكَلَامِ فَصِيحٌ وَ تَرَعَابُهُ لِلرَّجُلِ كَثِيرِ الْفَرْعِ وَ رَجُلٌ تَلْقَاعُهُ: أَي دَاهِيَةٌ، مِثْلُ لِقَاعَةٍ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَلْقَاعُهُ: عَلَى تَفْعَالَةٍ، بِتَشْدِيدِ الْعَيْنِ وَ رَجُلٌ تَلْقَامَةُ: أَي كَبِيرُ اللَّقْمِ¹

ولكن الملاحظ أنّ أسماء الباري وصفاته لم يبالغ فيها بزيادة التاء المربوطة البتة وأكثرها بناؤه " فَعِيلٌ " الدال على المبالغة والثبوت في النعوت اللازمة للذات حتى وإن اشتقت من غير بابها (فَعُلٌ) نحو: فَعَلَ وَ فَعِلَ اللّٰذِينَ لو سمع من أحدهما فَعُلَ لكان فعيل وصفا لله أحقّ به وأولى ، ولئن كانت المبالغة بزيادة التاء مستقرة فثبوت الوصف غير ثابت بها وهو في حق الله كامل حسنا وثبوتا .

فَالْعَالِمُ فِي وَصْفِ اللَّهِ هُوَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ كَمَا قَالَ: لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ [الْحَاقَّةُ/ 18] وَقَدْ يَتَعَلَّقُ عَلِيمٌ بِالْمَفْعُولِ بِحَرْفِ خَفْضٍ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: " عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ " [آل عمران : 119/3] فهذا في التأويل بمنزلة قولك : عالم بذات الصدور أي يعلمها ، وذات الصدور أسرارها ، فعليم وعالم على هذا سواء . وعلى مذهب سيبويه لو قيل : عليم ذات الصدور في الكلام فعدي بغير حرف جر لكان جائزا كما يجيز : " هذا ضريب زيدا " وقد يأتي عليم على تأويل آخر يفارق فيه " عَلِمٌ " ² وهو أن يراد بعليم مدح الذات بالعلم فيراد به أن ذاته عالمة لا يجوز عليه الجهل فيصير من باب ظريف وشريف وكريم ، ألا ترى أنك إذا قلت " زيد ظريف وكريم وشريف " لست تريد أنه فعل ظرافة وكراما وشرفا بنفسه وبغيره إنما تصفه في ذاته بهذه الصفات فيخرج حينئذ عن حدود التعدي ويفارق تأويل " فاعل " ولذلك قال سيبويه : إذا بني فعيل من فعل متعد وأريد به إيقاع الفعل تعدى وجرى مجرى " مفعال " و " فَعَالٌ " وما أشبههما في المبالغة في إيقاع الفعل وإذا بني من فعل غير متعد لم يتعد لأنّ أجلّ أحواله أن يكون بمنزلة الفعل الذي منه بني ، وإذا بني من فعل متعد ولم يرد إيقاع الفعل وصرف إلى وصف الذات والمدح لم يتعد . هذا معنى مذهبه وإن لم يكن بألفاظه³

¹ - ينظر : ابن سيده - المخصص - 197/4 .

² - ويوافق فيه " عَلْمٌ " لو تكلّم بها كما أشرنا إليه قريبا . ولا جرم مثل هذا في خبير وقدير وبصير وسميع ورحيم وحفيظ وحكيم في موافقتها لَفَعُلٌ منها لو سمع من العرب والله أعلم .

³ - أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (ت : 340) - اشتقاق أسماء الله الحسنى - ت : عبد الحسين المبارك - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - ط 2 / 1406 هـ - ص : 52 .

17- الخبير :

صفة ثابتة لله عزَّ وجلَّ بالكتاب والسنة، وذلك من اسمه (الخبير) .

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: { ... قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ } [التحریم: 3]

2- وقوله: {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 73]

الدليل من السنة:

حديث عائشة رضي الله عنها؛ أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لها في قصة تتبعها له إلى البقيع: " ما لك يا عائش حشياً رابية؟ " . قالت: قلت: لا شيء. قال: " لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير " ¹.

" الْخَبِيرُ: مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْعَالِمِ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ. وَخَبَّرْتُ بِالْأَمْرِ. أَيِ عِلْمَتُهُ. وَخَبَّرْتُ الْأَمْرَ أَخْبَرُهُ إِذَا عَرَفْتَهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

فَسئَلْ بِهِ خَبِيرًا ؛ أَيِ اسأَلْ عَنْهُ خَبِيرًا يَخْبُرُ. وَالْخَبْرُ، بِالتَّحْرِيكِ: وَاحِدُ الْأَخْبَارِ. وَالْخَبْرُ: مَا أَتَاكَ مِنْ نَبَأٍ عَمَّنْ تَسْتَخْبِرُ... وَالْخَابِرُ: الْمُخْتَبِرُ الْمُجَرَّبُ وَرَجُلٌ خَابِرٌ وَخَبِيرٌ: عَالِمٌ بِالْخَبَرِ... وَالْخَبْرُ وَالْخَبْرُ وَالْخَبْرَةُ وَالْمَخْبَرَةُ وَالْمَخْبَرَةُ، كُلُّهُ: الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ؛ تَقُولُ: لِي بِهِ خَبْرٌ، وَقَدْ خَبَّرَهُ يَخْبِرُهُ خُبْرًا وَخُبْرَةً [خِبْرَةً] وَخَبْرًا وَخَبَّرَهُ وَتَخَبَّرَهُ؛ يُقَالُ: مَنْ أَيْنَ خَبَّرْتَ هَذَا الْأَمْرَ أَيِ مِنْ أَيْنَ عِلِمْتَ؟ وَقَوْلُهُمْ: لِأَخْبَرَنَّ خُبْرَكَ أَيِ لِأَعْلَمَنَّ عِلْمَكَ؛ يُقَالُ: صَدَّقَ الْخَبْرَ الْخُبْرُ. " ²

قال في الصحاح : " وقولهم: لِأَخْبَرَنَّ خُبْرَكَ، أَيِ لِأَعْلَمَنَّ عِلْمَكَ. تقول منه: خَبَّرْتُهُ أَخْبَرُهُ خُبْرًا بالضم، وَخِبْرَةً بالكسر، إِذَا بَلَوْتَهُ وَاخْتَبَرْتَهُ. " ³

فَالْخَبِيرُ إِذْنٌ هُوَ الْعَالِمُ بِكُنْهِ الشَّيْءِ الْمُطَّلَعُ عَلَى حَقِيقَتِهِ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) [الفرقان/59]. يُقَالُ فُلَانٌ بِهِذَا الْأَمْرِ خَبِيرٌ؛ وَلَهُ بِهِ خَبْرٌ، وَهُوَ أَخْبَرُ بِهِ مِنْ فُلَانٍ؛ أَيِ: أَعْلَمُ. إِلا أَن الْخُبْرَ فِي صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي نَوْعِ الْعِلْمِ الَّذِي يَدْخُلُةِ الْإِخْتِبَارِ، وَبِتَوَصُّلِ إِلَيْهِ بِالِامْتِحَانِ، وَالِاجْتِهَادِ، دُونَ النَّوعِ الْمَعْلُومِ بِبَدَائِهِ الْعُقُولِ.

¹ - صحيح مسلم (974)

² . لسان العرب : 226/4 - 227 .

³ . الجوهري - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : 641/2 .

وَعِلْمُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - سَوَاءٌ فِيمَا غَمَضَ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَ فِيمَا لَطَفَ، وَفِيمَا تَجَلَّى بِهِ مِنْهُ وَظَهَرَ .
وَأَمَّا تَخْتَلَفَ مَدَارِكُ عُلُومِ الْأَدَمِيِّينَ الَّذِينَ يَتَوَصَّلُونَ إِلَيْهَا بِمُقَدِّمَاتٍ مِنْ حَسٍّ، وَبِمُعَانَاةٍ مِنْ نَظَرٍ،
وَفِكْرٍ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ لَهُمْ: لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايِنَةِ، وَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ عُلُوًّا كَبِيرًا .
فكَمَالِ الْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ كَاشِفًا عَنِ الْخَبْرَةِ فَالْخَبْرَةُ بَاطِنُ الْعِلْمِ وَكَمَالِهِ .
فَالْخَبِيرُ بَعْدَ كُلِّ هَذَا مِنْ خَبَرٍ مَبَالِغَةٌ مِنْ خَابِرٍ بَزْنَةٌ فَاعِلٌ وَمِنْ خَبْرٍ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ بِاسْمِ الْفَاعِلِ
وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَعْنَى اخْتَبَرَ فَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْتَعِلٍ .

18- الرزاق :

الرَّزْقُ صِفَةٌ فَعْلِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَ (الرَّزَاقُ) وَ (الرَّازِقُ) مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى .
الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا} [النحل: 114] .
- 2- وقوله تعالى: {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الحج: 58] .
- 3- وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 58] .

الدليل من السنة:

- 1- حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: " لو أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ... " ¹ .
 - 2- حديث أنس رضي الله عنه: " ... إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، وَإِنِّي لِأَرْجُو اللَّهَ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطَالِبُنِي بِمُظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ " ² .
- قال ابن القيم:

وكذلك الرزاق من أسمائه ... والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله ... نوعان أيضا ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان ... والرزق المعدّ لهذه الأبدان

¹ - صحيح البخاري (141) وصحيح مسلم (1434) .

² - رواه أحمد في ((المسند)) (156/3) ، والترمذي (1314) ، وأبو داود (3451) ، وابن ماجه (2200) ، وابن جرير في ((التفسير)) (5623) ، وابن حبان (4935) ، وأبو يعلى (2774 و2861) ، والضياء في ((المختارة)) (1630) والدارمي، والطبراني في ((الكبير)) ، والبيهقي في ((السنن)) وفي ((الأسماء والصفات)) . قال الحافظ في ((التلخيص الحبير)) (1158) : ((إسناده على شرط مسلم)) ، والحديث صححه الألباني في ((غاية المرام)) (323)

هذا هو الرزق الحلال وربنا ... رزاقه والفضل للمنان
والثان سوق القوت للأعضاء في ... تلك المجاري سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو ... ن من الحرام كلاهما رزقان
والله رازقه بهذا الاعتبار ... ر وليس بالإطلاق دون بيان¹

فالرِّزْقُ من أسمائه سبحانه ، وهو مبالغة من (رازق) ؛ للدلالة على الكثرة، مأخوذ من الرِّزْق -
بفتح الراء - الذي هو المصدر، وأما الرِّزْق - بكسرها -؛ فهو لعباده الذين لا تنقطع عنهم
أمداده وفواضله طرفة عين، والرزق كالخلق، اسم لنفس الشيء الذي يرزق الله به العبد؛ فمعنى
الرِّزْق: الكثير الرزق، صفة من صفات الفعل، وهو شأن من شؤون ربوبيته عَزَّ وَجَلَّ، لا يصح
أن ينسب إلى غيره، فلا يسمى غيره رازقاً كما لا يسمى خالقاً، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ
رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} ؛ فالأرزاق كلها بيد الله وحده، فهو خالق الأرزاق والمرتقة،
وموصلها إليهم، وخالق أسباب التمتع بها؛ فالواجب نسبتها إليه وحده وشكره عليها فهو مولاها
وواهبها

19 - الفتح :

الْفَتْحُ صفة فعلية لله عَزَّ وَجَلَّ ثابتة بالكتاب والسنة، و (الفتح) اسم من أسمائه تعالى.
الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سبأ: 26] .
 - 2- وقوله: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الأعراف: 89] .
 - 3- قوله: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا} [فاطر: 2]
- الدليل من السنة:

حديث: " لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه ... " ²

قال ابن القيم :

وكذلك الفتح من أسمائه ... والفتح في أوصافه أمران
فتح بحكم وهو شرع إلهنا ... والفتح بالأقدار فتح ثان

¹ . النونية : 1 / 211 .

² - صحيح مسلم (2405) .

وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كَلِيهِمَا ... عَدْلًا وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ¹
 فالفتَّاحُ: هُوَ الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، يُقَالُ: فَتَحَ الْحَاكِمُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ، إِذَا فَصَلَ بَيْنَهُمَا. وَمِنْهُ قَوْلُ
 اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -: (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) [الأعراف/89]. مَعْنَاهُ
 رَبَّنَا احْكُم بَيْنَنَا. وَيُقَالُ لِلْحَاكِمِ: الْفَاتِحُ. وَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ² :
 أَبْعَدَ الْفَاتِحِ الْوَهَّابِ عَمْرٍو ... حَلِيفَ الْجُودِ وَالْحَسَبِ اللَّبَّابِ
 وَ قَدْ يَكُونُ مَعْنَى الْفَاتِحِ أَيْضًا الَّذِي يَفْتَحُ أَبْوَابَ الرِّزْقِ وَالرَّحْمَةَ لِعِبَادِهِ وَيَفْتَحُ الْمَغْلُوقَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 أُمُورِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ. وَيَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ وَعُيُونََ بَصَائِرِهِمْ لِيُبْصِرُوا الْحَقَّ، وَيَكُونُ الْفَاتِحُ أَيْضًا بِمَعْنَى
 النَّاصِرِ، كَقَوْلِهِ -سُبْحَانَهُ-: (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) [الأنفال/19]. قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ إِنْ
 مَعْنَاهُ: إِنْ تَسْتَنْصِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ النِّصْرُ³

وجاء الفتاح بزنة فعال للدلالة على السعة والكثرة الجمّة في فتحه الذي هو فعله المقتضي
 للكثرة في مخلوقاته الناتجة عن ذلك ، فهو الذي بعنايته يفتح كل مغلق وبهدايته ينكشف كل
 مشكل وهو الذي بيده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، وهو الذي يفتح خزائن رحمته على
 أصناف بريته ، وهو الذي يفتح أبواب الخير على عباده ويسهل عليهم ما كان صعباً وهو الذي
 يفتح قلوب المؤمنين بمعرفته ويفتح على العاصين أبواب مغفرته وهو الذي يعينك على الشدائد
 وينيلك وجوه الزوائد وهو الذي لا يغلق وجوه النعمة بالعصيان ولا يترك إيصال الرحمة إليهم
 بالنسيان.

20- المؤمن :

يوصف الله عزَّ وجلَّ بأنه المؤمن، وهو اسم له ثابتٌ بالكتاب.

الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: {السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ} [الحشر: 23] .

¹ . النونية : 210/1 .

² - في ديوانه ص 403 من زيادة ابن النحاس، وأبي سهل، بعد البيت العاشر من القصيدة رقم 11 ص 99:

أبعد الحارث الملك بن عمرو ... وبعد الخير حجرٍ ذي القباب

وبعد الفاتح الوهاب عمرو ... حليف الجود والحسب اللباب

³ - ينظر: تفسير القرطبي 7/ 386.

قال الجوهري: "الأمان والأمانة بمعنى". وقد أمنتُ فأنا آمنٌ. وأمنتُ غيري، من الامن والامان. والايمان: التصديق. والله تعالى المؤمنُ، لأنه آمنَ عباده من أن يظلمهم. وأصل آمنَ آمنٌ أؤمنُ بهمزتين، لينت الثانية.

ومنه المهيم، وأصله مؤامن، لينت الثانية وقلبت ياء، وقلبت الأولى هاء. والأمنُ: ضدُّ الخوف. والأمنةُ بالتحريك: الأمنُ. ومنه قوله عز وجل: (أمنةً نعباساً). والأمنةُ أيضاً: الذي يثق بكلِّ أحد، وكذلك الأمنةُ مثال الهمزة. وأمنتهُ على كذا وأنتمتهُ بمعنى.¹

فلما كان أصل "أمن" هو الأمن والتصديق فالمؤمن في صفات الله عزَّ وجلَّ على وجهين² : أحدهما: أن يكون من الأمان؛ أي: يؤمن عباده المؤمنين من بأسه وعذابه، فيأمنون ذلك؛ كما تقول: "آمنَ فلانٌ فلاناً" وأصلها "أمنٌ" بزيادة همزة التعدية قبل فائه فهي بزنة "أفعل" وهو الإيمان المذكور في سورة قريش ؛ أي: أعطاه أماناً ليسكنَ إليه ويأمنَ، فكذلك أيضاً يقال: الله المؤمنُ؛ أي: يؤمن عباده المؤمنين، فلا يأمن إلا من آمنه ، قال النابغة :

والمؤمن العائذاتِ الطيرِ يمسحُها ركباًن مكةَ بين الغيْلِ والسندِ³

والوجه الآخر: أن يكون المؤمن من الإيمان "الإيمان" : الإفعال المشتق من آمن "أمن" بزنة فاعل وهو التصديق، فيكون ذلك على ضربين: أحدهما: أن يقال: الله المؤمنُ؛ وأصلها "مؤمنٌ [مثل مخرج من أخرج أصلها "مؤخرج من يُخرج الذي أصله يُؤخرج] أي: مُصدِّق عباده المؤمنين؛ أي: يصدِّقهم على إيمانهم، فيكون تصديقه إياهم قبول صدقهم وإيمانهم وإثابتهم عليه. والآخر: أن يكون الله المؤمنُ؛ أي: مُصدِّق ما وعدَه عباده؛ كما يقال: صدَّقَ فلانٌ في قوله وصدَّقَ؛ إذا كرَّرَ وبالغ، يكون بمنزلةِ ضربٍ وضربٍ؛ فالله عزَّ وجلَّ مُصدِّق ما وعد به عبادهُ ومحققه.

فهذه ثلاثة أوجهٍ في المؤمن، سائغٌ إضافتها إلى الله.

¹ - الجوهري - الصحاح : 5 / 2071 .

² - ينظر : الزجاجي . اشتقاق أسماء الله الحسنى : 221 - 222 . والخطابي : شأن الدعاء : 45 والأنباري : الزاهر في معاني كلمات الناس : 84 .

³ - ديوانه : 20 ، والعائذات : التي تعود بالحرم . والغيل بفتح الغين الماء الجاري ، والسند الجبل ، وفتح الغين رواية الأصمعي . ورواه أبو عبيدة : بين الغيل والسعد بكسر الغين ، والغيل والسعد عنده أجمتان كانتا بين مكة ومنى .

21- المهيمن:

الهِيمَنَةُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ، مِنْ اسْمِهِ (المهيمن) .

الدليل:

قوله تعالى: {الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمِنُ} [الحشر: 23] .

قال ابن جرير في تفسير الآية 48 من سورة المائدة {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ...} الآية . " وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه

وشهده؛ قد هيمن فلان عليه؛ فهو يهيمن هيمنة، وهو عليه مهيمن " ¹

قال في الصحاح : الْمُهِيمِنُ: الشاهد، وهو من آمن غيره من الخوف. وأصله آمن فهو مؤمن، بهمزتين، قلبت الهمزة الثانية ياء كراهة لاجتماعهما، فصار مأيمن، ثم صيرت الاولى هاء، كما قالوا: أراق الماء وهراقه. ²

وقيل الْمُهِيمِنُ: هو الشهيدُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ) [المائدة/48]. فالله - جَلَّ وَعَزَّ - الْمُهِيمِنُ أَي: الشاهدُ عَلَى خَلْقِهِ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، كَقَوْلِهِ: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ، وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ، وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) [يونس / 61].

وَقِيلَ: الْمُهَيِّمِنُ، الْأَمِينُ. وَأَصْلُهُ، مُؤَيِّمِنٌ، فَقَلِبَتِ الْهَمْزَةُ هَاءً لِأَنَّ الْهَاءَ أَخْفُ مِنَ الْهَمْزَةِ. قَالُوا: وَلَمْ يَأْتِ مُفَاعِلٌ فِي غَيْرِ التَّصْغِيرِ إِلَّا فِي ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، مُسَيِّطِرٌ، وَمُبَيِّطِرٌ، وَمُهَيِّمِنٌ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَلَيْسَتْ الْيَاءُ لِلتَّصْغِيرِ إِذْ هِيَ الَّتِي لَحِقَتْ فَعَلٌ فَالْحَقَّتْهُ بِالْأَرْبَعَةِ نَحْوِ نَحْرَجَ وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ قَدْ وَافَقَ اللَّفْظَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. ³

وَقِيلَ: الْمُهِيمِنُ: الرَّقِيبُ عَلَى الشَّيْءِ، وَالْحَافِظُ لَهُ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: الْهَيْمَنَةُ: الْقِيَامُ عَلَى الشَّيْءِ، وَالرَّعَايَةُ لَهُ، وَأَنْشَدَ:

¹ - تفسير الطبري 6 / 266 .

² - الجوهري - الصحاح : 6 / 2217 لكنهم أسقطوا همزة أفعال في المضارع واسم الفاعل قياسا مثلثا فكيف يكون أصل هيمن

: آمن أم أن قياس قلب الهمزة هاء على قلته هو الذي غلب ؟

³ - ينظر : ابن سيده - المخصص : 5 / 229 .

ألا إن خير الناس بعد نبيه ... مهيمته التالیه في العرف والنكر¹
يريد: القائم على الناس بعده وبالرعاية لهم².

22- المبين :

يوصف الله عز وجل بأنه المبين، وهو اسم له ثابت بالكتاب العزيز .
الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} [النور: 25] .
قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: " يقول: ويعلمون يومئذ أن الله هو الحق الذي يبين لهم
حقائق ما كان يعدهم في الدنيا من العذاب، ويزول حينئذ الشك فيه عن أهل النفاق الذين كانوا
فيما كان يعدهم في الدنيا يمترون " ³.

وقال قوام السنة الأصبهاني : " المبين: ومعناه البين أمره، وقيل: البين الربوبية والملكوت، يقال:
أبان الشيء بمعنى تبين، وقيل معناه: أبان للخلق ما احتاجوا إليه " ⁴.
فالمبين اسم فاعل من أبان بزنة " أفعال " فهو " مُفَعَّل " بمعنى واضح بين ملكه وربوبيته هذا إن
كان أبان بمعنى تبين وحينها هو : " مُفَعَّل " بمعنى " مُتَفَعَّل " ، أما على اعتبار " أبان " بمعنى
" بين " وأن الهمزة زيدت للتعدية فيكون معناه الموضح والمبين وكلاهما وارد .

23- المجيب :

الإجابة صفة فعلية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة، والمجيب اسم من أسمائه تعالى.
الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ} [آل عمران: 195] .
- 2- وقوله: {إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود: 61] .
- 3- وقوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ} [البقرة: 186] .

¹ - البيت في زاد المسير لابن الجوزي 8 / 226، وفتح الباري لابن حجر 13 / 366 وغريب الحديث للخطابي 2 / 201.
واللسان والتاج (همن) بدون نسبة لقائل.

² - وينظر في معنى المهيمن : الزجاجي . اشتقاق أسماء الله الحسنى : 227 - 229، والخطابي : شأن الدعاء : 46
والأنباري : الزاهر في معاني كلمات الناس : 85 .

³ - الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن - 141/19 .

⁴ - الحجة في بيان المحجة : (143/1)

الدليل من السنة:

1- حديث: " لا يزال يستجاب للعبد؛ ما لم يدعُ بائثاً أو قطيعة رحم؛ ما لم يستعجل). قيل: يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قال: ((يقول: قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء" ¹.
قال الحافظ ابن القيم: وَهُوَ الْمَجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْ ... هُ أَنَا الْمَجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي وَهُوَ الْمَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ إِذْ ... يَدْعُوهُ فِي سِرِّ وَفِي إِعْلَانٍ ².

وقال الشيخ السعدي: " ومن آثاره الإجابة للداعين والإجابة للعابدين؛ فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وعلى أي حال كانوا؛ كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له، المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاءً وخوفاً " ³

24- المحيط : يوصف الله عزَّ وجلَّ بأنه محيط ، قد أحاط بكل شيء، وهي صفة ذاتية، و (المحيط) اسم من أسمائه تعالى ثابت بالكتاب.

الدليل:- قوله تعالى: {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة: 19] .- وقوله: {وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12] ، وغيرها من الآيات

قال الخليل : حوط: حاط يَحُوطُ حَوَاطًا وَحِيطَةً. والحمارُ يَحُوطُ عَانَتَهُ: يَجْمَعُهَا، والاسم: الحِيطَةُ. يقال: حاطهُ حِيطَةً إِذَا تَعَاهَدَهُ. واحتاطت الخيلُ بفلان وأحاطت [به] ، أي: أحذقت. وكلُّ من أَحْرَزَ شَيْئًا كَلَّهُ، وبلغ عِلْمُهُ أَقْصَاهُ فَقَدْ أَحَاطَ بِهِ يُقَالُ: هَذَا أَمْرٌ مَا أَحَطْتُ بِهِ عِلْمًا. وَسُمِّيَ الْحَائِطُ، لِأَنَّهُ يَحُوطُ مَا فِيهِ. و [تقول]: حَوَّطْتُ حَائِطًا. والحِوَّاطُ: حُضِيرَةٌ تُتَّخَذُ لِلطَّعَامِ، وَالشَّيْءُ يُفْلَعُ عَنْهُ سَرِيعًا. قال:

إِنَّا وَجَدْنَا عُرْسَ الْحَائِطِ ... مَذْمُومَةٌ لثِيْمَةٌ الْحِوَّاطِ ⁴

¹ - صحيح مسلم (2735) .

² . النونية : 1 / 208 .

³ . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (304/5)

⁴ . الرجز في التهذيب 5 / 184، واللسان (حوط) غير منسوب

ويُرْوَى: لئيمة الحَوَاطِ. والحَوَاطُ: هم الذين يحوطونها يمنعون من ذلك. وجماعة الحائِطِ: حيطانٌ.¹

فالمحيط اسم فاعل من أحاط أصله: "مُحِيطٌ" لأنه من "أَحَوطٌ" وهو بمعنى حاط الذي أصله حَوَطٌ ولربّما في زيادة الهمزة زيادة إحاطة وحصر. قال قَوَامُ السُّنَّةِ الأصبهاني: "المحيط: هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً" ².

25- الوارث :

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه الوارث، وهذا ثابت بالكتاب العزيز، وقد عدّه كثيرون من أسماء الله تعالى. الدليل:

1- قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مريم: 40] . وقوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} [الحجر: 23] قال الأزهري: " الوارث: صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو الباقي الدائم " ³. فالوارث في حق الله الباقي: وهو الذي دام وجوده، والبقاء له صفة قائمة بذاته والملك ملكه زلا وأبدا لا أنه ورثه فهو المانح والمستردُّ أَمْلاكَهُمْ وَمَوَارِثَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فَلَمْ يَزَلِ اللهُ بَاقِيًا مَالِكًا لِأَصُولِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ وَيَسْتَخْلِفُ فِيهَا مَنْ أَحَبَّ. قال يَزِيدُ بْنُ حَذَّاقٍ ⁴:

هل للفتى من بنات الدَّهر من واق ... أم هل له من حمام الموت من راق
.....

هَوْنٌ عَلَيْكَ وَلَا تُؤَلِّعُ بِإِسْفَاقٍ فَإِنَّمَا مَالُنَا لِلْوَارِثِ الْبَاقِي .

26- الكفيل :

¹ - العين : 3 / 277 .

² - الحجة (163/1-164) .

³ - تهذيب اللغة: (117/15) .

⁴ - جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) بستان الواعظين ورياض السامعين - ت :

أيمن البحيري - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان - ط : 2 / 1419 - 1998 - ص : 159 .

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه الكفيل، الذي يكفل ويحفظ عباده، وهي صفة ثابتة له بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: {وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} [النحل: 91].

الدليل من السنة:

قصة الرجل من بني إسرائيل، الذي أسلفَ آخَرَ ألفَ دينار، وفيه أنه قال: " ... اللهم إنك تعلم أني كنت تبلغت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك" ¹.
والكفيل بمعنى الوكيل والحفيظ والشهيد والعائل والضامن.

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: {وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} : " وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعياً، يرعى الموفي منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض" ².

قال الراغب الأصفهاني في المفردات : " كفل : الكفالة الضمان ، تقول تكفلت بكذا وكفلته فلانا وقرئ { وكفلها زكريا } أي كفلها الله تعالى ، ومن خفف جعل الفعل لزكريا ، المعنى تضمنها ، قال تعالى : { وقد جعلتم الله عليكم كفيلا } ، والكفيل الحظ الذي فيه الكفاية كأنه تكفل بأمره نحو قوله تعالى : { فقال أكفلنيها } أي اجعلني كفلا لها ، والكفل الكفيل" ³.
فالكفيل فعيل مبالغة من كافل من كَفَل وهو بمعنى متفَعَّل " متكفَّل من تكفَّل بزيادة تاء الاختصاص والانفراد فيما هو حق الله وحده .

27- الوكيل :

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه الوكيل، وهذا ثابت بالكتاب والسنة، وهو اسم من أسمائه.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].

¹ - صحيح البخاري (2291) .

² - الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 281/17 .

³ - أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت : 502 هـ) . المفردات في غريب القرآن - ت : صفوان عدنان الداودي - دار القلم، الدار الشامية - دمشق ببيروت - ط : 1412/1 هـ - ص : 717 .

2- وقوله: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الأنعام: 102] .
? الدليل من السنة:

حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: " حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم ... " ¹ .
قال الخليل : " وكل: تقول: وكَلْتَهُ إِلَيْكَ أَكَلَهُ كَلَةً، أي: فوضته. ورجلٌ وَكَلٌ وَوَكَلَةٌ وهو المُواكِلُ يتكل على غيره فيضيع أمره. وتقول: وَكَلْتُ بِاللَّهِ، وتوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، قال ² :

إِلا وَيَسْمَعُ مَا أَقُولُ ... وَإِنْ وَكَلْتُ بِهِ كَفَانِي
وتقول: وَكَلْتُ فَلاناً إِلَى اللَّهِ، أَكَلَهُ إِلَيْهِ. والوِكَالُ فِي الدَّابَّةِ، أَنْ تَحِبَّ التَّأَخَّرَ خَلْفَ الدَّوَابِّ.
وَالوِكِيلُ فَعْلُهُ التَّوَكَّلُ، وَمَصْدَرُهُ الوِكَالَةُ " .

قال ابن منظور : وفي أسماء الله تعالى الوِكِيلُ: هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقلُّ بأمر التوكل الموكَّل إليه، وفي التَّنْزِيلِ العزير: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا} ... وقال أبو إسحاق: الوِكِيلُ فِي صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي تَوَكَّلَ بِالْقِيَامِ بِجَمِيعِ مَا خَلَقَ " ³ .

وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} : ((كفانا الله؛ يعني: يكفينا الله {وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ، يقول: ونعم المولى لمن وليه وكفله، وإنما وصف الله تعالى نفسه بذلك؛ لأنَّ الوِكِيلَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ: الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامُ بِأَمْرٍ مِنْ أَسْنَدٍ إِلَيْهِ الْقِيَامَ بِأَمْرِهِ، فَلَمَّا كَانَ الْقَوْمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ كَانُوا قَوَّضُوا أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَوَتَقُوا بِهِ، وَأَسْنَدُوا ذَلِكَ إِلَيْهِ؛ وَصَفَ نَفْسَهُ بِقِيَامِهِ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَتَقْوِيضَهُمْ أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ بِالوِكَالَةِ، فَقَالَ: وَنِعْمَ الْوَكِيلُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ " ⁴ .

فالوكيل إذن من وكلت فلانا أو أمرني إلى الله فتوكل به أي تكفل به وتولاه فهو فعيل بمعنى متفعل والتاء أيضا للانفراد والاختصاص لأنَّ هذا الوصف المختص على الحقيقة بالقدرة عليه الله وحده . وليس بعيدا من هذا المعنى كون " وكيل " فعيل بمعنى " مفعَّل " من وكَّلت الله

¹ - صحيح البخاري (4563)

² - لم يعزه الخليل لقائله ولم نهتدى إليه من بعده

³ - لسان العرب : 734/11 .

⁴ - جامع البيان في تأويل القرآن : 405/7 .

على كذا فهو مؤكل عليه ، ولي بعيدا أيضا كون " وكيل " فعيل بمعنى متفعل عليه من توكلت عليه فهو متوكل عليه .

28- الواسع والموسع :

يوصف الله عزَّ وجلَّ بأنه الواسع والموسع، وهذا ثابت بالكتاب والسنة، و (الواسع) من أسمائه تعالى.

الدليل من الكتاب: - قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 115] .

- وقوله: {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الأنعام: 80] .

3- وقوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: 47] .

الدليل من السنة:

1- حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ ... " ¹.

قال ابن قتيبة: " ومن صفاته (الواسع) ، وهو الغني، والسعة: الغنى " ²

وقال قَوَّامُ السُّنَّةِ الْأَصْبَهَانِي: " الواسع: وسعت رحمته الخلق أجمعين، وقيل: وسع رزقه الخلق أجمعين، لا تجد أحداً إلا وهو يأكل رزقه، ولا يقدر أن يأكل غير ما رزق " ³.

وقال البيهقي: " الواسع: هو العالم، فيرجع معناه إلى صفة العلم، وقيل: الغني الذي وسع غناه مفاقر الخلق " ⁴.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: " الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أتى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم " ⁵.

¹ - صحيح مسلم (1905) .

² - تفسير غريب القرآن: ص 15

³ - الحجة في بيان المحجة : 150/1:

⁴ - الاعتقاد : ص 6.

⁵ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : 305 /5

وقال الراغب الأصفهاني المفردات: " وقوله: {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} : وصف له؛ نحو: {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} ، وقوله: {وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} ، {وَوَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا} فعبارة عن سعة قدرته وعلمه ورحمته وأفضاله " ¹

وقال الزجاجي : " الواسع: الغني، يقال: فلان يعطي من سعة؛ أي: من غنى وجدة ... " ²

29- الملك / المالك / المليك :

المُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ من صفات الله الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة، و (المَلِكِ) و (المَلِيكِ) من أسمائه تعالى.

الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ} [آل عمران: 26] .
- 2- قوله تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: 55] .
- 3- قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ} [الحشر: 23] .

الدليل من السنة:

1- حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ " ³ .

المَلِكُ : هُوَ التَّامُّ الْمَلِكِ، الْجَامِعُ لِأَصْنَافِ الْمَمْلُوكَاتِ . فَأَمَّا الْمَالِكُ، فَهُوَ الْخَاصُّ الْمَلِكِ. وَالْمَصْدَرُ مِنَ الْمَلِكِ: الْمُلْكُ، مضمومة الميم. وَمِنَ الْمَالِكِ: الْمَلِكُ، مكسورثها.

وقد يُسَمَّى بَعْضُ الْمَخْلُوقِينَ مَلِكًا، إِذَا اتَّسَعَ مُلْكُهُ. إِلَّا أَنْ الَّذِي يَسْتَحِقُّ هَذَا الْإِسْمَ: هُوَ اللَّهُ، - عَزَّ وَجَلَّ - ، لِأَنَّهُ مَالِكُ الْمَلِكِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ، يُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُدُلُّ مَنْ يَشَاءُ بِيَدِهِ الْخَيْرِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ الْمَلِيكُ: هُوَ الْمَالِكُ، وَبِنَاءٍ فَعِيلٍ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ، وَ قَدْ يَكُونُ الْمَلِيكُ بِمَعْنَى الْمَلِكِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : "عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ" [القمر/55] ⁴

¹ - المفردات في غريب القرآن : 870 .

² - اشتقاق أسماء الله: ص 72.

³ - صحيح البخاري (6515) ، و صحيح مسلم (2787) .

⁴ . ينظر : شأن الدعاء : 39 . و: المفردات في غريب القرآن : 775 . و : اشتقاق أسماء الله: 43 و: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 4 / 519 - 524 .

قال في اللسان: "والمَلِكُ والمَلِكُ والمَلِكُ والمَلِكُ: ذُو المُلْكِ. وَمَلِكٌ وَمَلِكٌ، مِثَالُ فَخْذٍ وَفَخْذٍ، كَأَنَّ المَلِكَ مَحْفَفٌ مِنْ مَلِكٍ والمَلِكُ مَقْصُورٌ مِنْ مَالِكٍ أَوْ مَلِيكٍ، وَجَمْعُ المَلِكِ مُلُوكٌ، وَجَمْعُ المَلِكِ أَمْلَاقٌ، وَجَمْعُ المَلِيكِ مُلْكَاءٌ، وَجَمْعُ المَالِكِ مُلْكٌ وَمُلَّاكٌ، والأُمْلُوكُ اسْمٌ لِلْجَمْعِ. وَرَجُلٌ مَلِكٌ وَثَلَاثَةٌ أَمْلَاقٌ إِلَى العَشْرَةِ، وَالكَثِيرُ مُلُوكٌ، وَالإِسْمُ المُلْكُ، وَالْمَوْضِعُ مَمْلَكَةٌ." ¹

30- القريب :

التَّقَرُّبُ وَالفُرْبُ وَالدُّنُو

التقرب أو القرب والدنو من صفات الله الفعلية الاختيارية، ثابتة له بالكتاب والسنة. و (القريب) اسم من أسمائه تعالى.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ} [البقرة: 186].

2- وقوله تعالى: {فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود: 61] ؟
الدليل من السنة:

1- حديث: " ... من تقرب مني شبراً؛ تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً؛ تقربت منه باعاً ... " ².

2- حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: " أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، ولكن تدعون سميعاً قريباً، إنَّ الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته" ³.

3- حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: " ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة" ⁴.

¹ - ابن منظور : لسان العرب : 10 / 492 .

² - صحيح البخاري (7405) ، ومسلم (2675) ؛ من حديث أبي هريرة، ومسلم (2687) من حديث أبي ذر رضي الله عنهما .

³ - صحيح مسلم (2704) .

⁴ - صحيح مسلم (1348) .

وأهل السنة والجماعة من السلف وأهل الحديث يعتقدون أنّ الله عزَّ وجلَّ قريب من عباده حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته، وهو مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، وأنه يتقرب إليهم حقيقة، ويدنو منهم حقيقة، ولكنهم لا يفسرون كلَّ قريبٍ وردَ لفظه في القرآن أو السنة بالقرب الحقيقي؛ فقد يكون القرب قرب الملائكة، وذلك حسب سياق اللفظ.

يقول شيخ الإسلام: " وأما دنوه وتقربه من بعض عباده؛ فهذا يثبت من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر" ¹.

ويقول في موضعٍ آخر: "... ولا يلزم من جواز القرب عليه أن يكون كل موضع ذكر فيه قربه يراد به قربه بنفسه، بل يبقى هذا من الأمور الجائزة، وينظر في النص الوارد، فإن دل على هذا؛ حُمل عليه، وإن دل على هذا؛ حُمل عليه، وهذا كما تقدم في لفظ الإتيان والمجيء، وإن كان في موضعٍ قد دلَّ عندهم على أنه هو يأتي في موضعٍ آخر دلَّ على أنه يأتي بعذابه كما في قوله تعالى {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ} وقوله تعالى {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}. فتدبر هذا فإنه كثيرًا ما يغلط الناس في هذا الموضع إذا تنازع النفاة والمثبتة في صفة ودلالة نصٍّ عليها يريد المرید أن يجعل ذلك اللفظ - حيث ورد - دالًّا على الصفة وظاهرًا فيها. ثم يقول النافي: وهناك لم تدل على الصفة فلا تدل هنا. وقد يقول بعض المثبتة: دلت هنا على الصفة فتكون دالة هناك؛ بل لما رأوا بعض النصوص تدل على الصفة جعلوا كل آية فيها ما يتوهمون أنه يضاف إلى الله تعالى - إضافة صفة - من آيات الصفات. كقوله تعالى: {قَرَّبْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ}. وهذا يقع فيه طوائف من المثبتة والنفاة وهذا من أكبر الغلط فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه. وما يحف به من القران اللفظية والحالية ².

أما من ناحية الاشتقاق فالقريب صفة مشبهة من قرب اللزم الدال على ثبوت القرب ولزومه لله تعالى والقرب صفة ذاتية من هذه الناحية ومن ناحية تعلقها بمن يقترب منهم من أو يبتعد عنهم تبعًا لاختياره وإرادته هي صفة فعلية والله أعلم .

¹ - ابن تيمية - الفتاوى الكبرى: (466/5)

² - الفتاوى الكبرى: (14/6) وقد أطل الكلام رحمه الله على هذه المسألة بما لا مزيد عليه. وانظر إن شئت المواضع التالية (237-232/5، 240-241، 247-248، 459-467، 494-514)، (5/6، 8، 12-14، 19-25، 30-32، 76)، وانظر: القواعد المثلى للشيخ ابن عثيمين: 65.

31- الوهَّاب :

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه الوهَّاب، يهب ما يشاء لمن يشاء كيف شاء، وهذا ثابت بالكتاب والسنة، وهي صفة فعلية، و (الوهَّاب) من أسمائه تعالى.
الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: 8] .

2- وقوله: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْ شَاءَ إِنَّهُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} [الشورى: 49] .
الدليل من السنة:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " ... ثم ذكرت قول أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ... " ¹ .

قال أبو القاسم الزجاجي : " الوهَّاب: الكثير الهبة والعطية، وفَعَّالٌ في كلام العرب للمبالغة؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ وهَّابٌ، يهب لعباده واحداً بعد واحد ويعطيهم، فجاءت الصفة على فَعَّالٍ لكثرة ذلك وتردده، والهبة: الإعطاء تفضلاً وابتداءً من غير استحقاق ولا مكافأة. " ²

وقال ابن منظور : " الهبة: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، فإذا كثرت؛ سَمِّيَ صاحبها وهَّاباً، وهو من أبنية المبالغة ... "، ثم قال: " واسم الله عَزَّ وَجَلَّ الوهَّاب؛ فهو من صفات الله تعالى المنعم على العباد، والله تعالى الوهَّاب الوهَّاب. " ³

فلا شك أن الوهَّاب أنسب وصف للرحمن الرحيم الفتَّاح الرزَّاق التَّوَّاب الغفَّار البرّ الجواد الكريم الغني الرؤوف الودود الكبير العظيم المتعالي الواحد الأحد الصمد الجبَّار القهَّار العزيز الحكيم

32. القاهر والقهَّار:

القَهْرُ صفةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ ثابتةٌ بالكتاب، ويوصف الله بأنه القاهر، والقَهَّار، وهما اسمان لله تعالى.

الدليل:

¹ - صحيح مسلم (541) .

² - اشتقاق أسماء الله (ص 126)

³ - لسان العرب : 803/1.

1- قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: 18، 61] .

2- قوله تعالى: {وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد: 16] .

ولم يرد في القرآن " الْقَهَّار " إلا مسبوqاً بـ " الواحد " وذلك في ستة مواضع سيأتي بيان النكت في ذلك . قال ابن القيم :

وَكذلك الْقَهَّارُ مِنْ أوصَافِهِ ... فَالْخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزًا قَادِرًا ... مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَمِنْ سُلْطَانٍ¹
والقهر بمعنى الغلبة والأخذ من فوق.²

قال ابن جرير عند تفسير قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} : " ... وإنما قال: {فوق عباده} لأنه وصف نفسه تعالى بقهره إياهم، ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه، فمعنى الكلام إذاً: والله الغالب عباده المذل لهم ... " ³ .

والله تَعَالَى قهر المعاندين بِمَا أَقَامَ من الآيات والدلالات على وحدانيته وقهر جبابرة خلقه بعز سُلْطَانِهِ وقهر الخلق كلهم بِالْمَوْتِ .

33- المقيت :

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه مُقِيْت، وهذا ثابت بالكتاب العزيز . والمقيت من أسمائه تعالى .
الدليل:

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيْتًا} [النساء: 85] .

قال الجوهرى : " قات أهله يَفَوْتُهُمْ قَوْتًا وَقِيَاتَةً، والاسم القوت بالضم، وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. يقال: ما عنده قوت ليلة، وقيت ليلة، وقيت ليلة، فلما كسر القاف صارت الواو ياء. وقته فاققات، كما تقول: رزقته فارتزق. وهو في قانت من العيش، أي في كفاية. واستقانت: سأله القوت. وفلان يَفَوْتُ بكذا. واقتت لِنارك قِبْتَةً، أي أطعمها الحطب. قال ذو الرمة:

فقلت له ارفعها إليك وأحيها * بروحك واقتته لها قيته قدرا

¹ - النونية (209/1) .

² - العين : 365/3 .

³ - ابن جرير الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن : 288/11 .

وأقَات على الشئ: اقتدر عليه. قال الشاعر¹ :

وذي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النفس عنه * وكنت على إساءته مُقَيِّتاً

وقال الفرّاء: " المُقَيِّتُ: المقتدر، كالذي يعطي كلَّ رجل قُوتَه." ²

(وكان الله على كل شئ مقيتاً) ويقال المقيت: الحافظ للشئ والشاهد له. وأنشد ثعلب للسموأل بن عادياء :

ليت شعري وأشعُرَنَّ إذا ما * قَرَّبَها منشورَةً ودُعِيتُ

[رب شتم سمعته وتصامم * ت وعى تركته فكفيت]

أَلِيّ الفضلُ أم عَلِيٍّ إذا حو * سَبَبْتُ إِيَّي على الحساب مُقَيِّتُ

أي أعرف ما عملتُ من السوء، لأنَّ الإنسان على نفسه بصيرة.³

قال ابن جرير في تفسير الآية : " اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَيِّتًا} ، قال بعضهم: تأويله: وكان الله على كل شيء حفيظاً وشهيداً - ونقل بإسناده هذا القول عن ابن عباس ومجاهد - ... وقال آخرون: معنى ذلك: القائم على كل شيءٍ بالتدبير ... وقال آخرون: هو القدير - ونقل ذلك بإسناده عن السدي وابن زيد - ... والصواب من هذه الأقوال قول من قال: معنى (المُقَيِّت) : القدير وذلك أن ذلك فيما يذكر، كذلك بلغة قريش، وينشد للزبير بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم:⁴

وذي ضغن كففت النفس عنه ... وكنت على مساءته مقيتاً

أي: قادراً. وقد قيل إن منه قول النبي صلى الله عليه وسلم:- " كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقيت".⁵

¹ - نسبه محقق الصحاح أحمد عبد الغفور عطار مثل الطبري إلى : " الزبير بن عبد المطلب عم الرسول صلوات الله عليه.

² - ينظر : معاني القرآن : ت : أحمد يوسف نجاتي / محمد علي نجار / عبدالفتاح إسماعيل شلبي - طبعة : دارالمصرية للتأليف والترجمة : 280/1 .

³ - الجوهري - الصحاح : 262 /1 .

⁴ - قال المحقق أحمد محمد شاكر في الحاشية : لم أجده للزبير، بل وجدته لأبي قيس بن رفاعة، مرفوع القافية في طبقات فحول الشعراء لابن سلام: 289 بتحقيق أخيه محمود محمد شاكر . ونسبه في الدر المنثور طبعة دار الفكر: 2: 604 إلى أحيحة بن الجلاح الأنصاري.

⁵ - الحديث: 10032- رواه أحمد في مسنده، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رقم: 6495، 6819، 6828،

6842، والحاكم في المستدرک 1: 415، وهو حديث صحيح، وروايته "يقوت"

في رواية من رواها: "يقيت"، يعني: من هو تحت يديه وفي سلطانه من أهله وعياله، فيقدر له قوته. يقال = منه. "أفات فلان الشيء يقنيه إقاة" و"قاة يقوته قياة وقوتا"، و"القوت" الاسم. وأما "المقيت" في بيت اليهودي الذي يقول فيه:

إني على الحساب مقيت، فإن معناه: فإني على الحساب موقوف، وهو من غير هذا المعنى. ¹ فالمقيت الذي يقدر لعباده القوت، ويحفظ عليهم رزقهم: من "أفات" أصلها "أفوت" اشتقاقه: "مُفوت - مفعل" تنقل كسرة الواو استثقالا فتقلب ياء فهو قولك: "مقيت" أما من قات فهو مُفَعِلٌ عوض عن فاعل .

33- الرحيم :

الرَّحْمَةُ سبب واصل بين الله وبين عباده، بها أرسل إليهم رُسُلُه، وأنزل عليهم كُتُبُه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم. وقد مرّ معنا أنّ الرَّحْمَنَ يدل على أنّ الرَّحْمَةَ صفة ذاتية له، والرَّحِيمُ: الرَّاحِمُ لعباده، دال على الصفة الفعلية الاختيارية ولهذا يقول تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} ، {إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ} ، ولم يجيء رحمان بعباده ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم الرَّحْمَانِ الذي هو على زنة فعلان، ألا ترى أنهم يقولون: غضبان للممتلىء غَضَبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئء بذلك، فبناءً فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواؤه على عرشه بهذا الاسم كثيرا، كقوله تعالى: {الرحمان على العرش استوى} ، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} ، فاستوى على عرشه باسم الرَّحْمَانِ؛ لأنَّ العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها / والرَّحْمَةُ محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} وقال : {كَتَبَ رِزْقُكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} ولكنه : {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} .

34- التَّوَابُ :

التَّوَابُ صفة فعلية ثابتة بالكتاب والسنة، و (التَّوَابُ) من أسمائه تعالى.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 37] .

¹ - جامع البيان : (583/8 - 584) . قال محمد شاکر في حاشية الكتاب : هذا المعنى الذي قاله أبو جعفر، هو قول أبي عبيدة، وهو أحسن ما قيل في معنى "المقيت" في هذا البيت. وانظر اعتراض المعترضين على البيت، واختلافهم في تفسيره في مادة (قوت) من لسان العرب .

2- وقوله: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} [النساء: 27].

الدليل من السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها؛ تاب الله عليه" ¹ حديث ابن عباس رضي الله عنهما: " لو أن لابن آدم وادياً من ذهب؛ أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب " ².
في لسان العرب تاب إلى الله تَوْباً، وتوبةً، ومَتَاباً، وتَابَةً، وتَتَوْبَةً: رجع عن المعصية، وهو تائب، وتَوَّاب. وتاب الله عليه: وَفَّقَهُ للتوبة، أو رجع به من التَّشْدِيدِ إلى التَّخْفِيفِ، أو رجع عليه بفضلِهِ، وقبولِهِ. وهو تَوَّابٌ على عبادِهِ. واستتابه: سألَهُ أَنْ يتوبَ.

والتوبة من أفضل مقامات السالكين؛ لأنَّها أوَّلُ المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقها العبد أبداً، ولا يزال فيها إلى الممات. وإن ارتحل السالك منها إلى منزل آخر ارتحل به، ونزل به. فهي بداية العبد، ونهايته. وحاجته إليها في النِّهاية ضروريَّة؛ كما حاجته إليها في البداية كذلك. وقد قال تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّه المؤمنون لعلَّكم تفلحون} وهذه الآية في سورة مدنيَّة، خاطب الله تعالى بها أهل الإيمان، وخيار خَلَقَهُ أَنْ يتوبوا إليه بعد إيمانهم، وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم، ثمَّ علَّق الفلاح بالتوبة تعلُّق المسبَّب بسببِهِ، وأتى بأداة (علل) المشعر بالترجى؛ إيذاناً بأنَّكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يَرْجوا الفلاح إلاَّ التائبون، جعلنا الله منهم.

فالتَّوَّابُ؛ فهو الكثير التَّوْبُ؛ بمعنى: الرَّجَاعُ على عبده بالمغفرة وقبول التوبة

يقول ابن القيم في نونيته:

" وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

إِذْ بِنُوبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُولِهَا ... بَعْدَ الْمَتَابِ بِمِثَّةِ الْمَنَانِ " ³

وتوبته سبحانه على عبده نوعان:

أحدهما: أنه يلهم عبده التوبة إليه، ويوفقه لتحصيل شروطها من الندم والاستغفار والإقلاع عن المعصية والعزم على عدم العود إليها واستبدالها بعمل الصالحات.

والثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها؛ فإنَّ التوبة النصوح تجب ما قبلها.

¹ - صحيح مسلم (2703)

² - صحيح البخاري (6436)، و صحيح مسلم (1049).

³ - النونية: 209/1.

ولمّا كان لا بُدَّ لَ لِأَسْمَائِهِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتٍ، وَلَا بُدَّ مِنْ جِنَائِيَةٍ تُغْفَرُ، وَتَوْبَةٍ تُقْبَلُ، وَضَعْفٍ يَجْبِرُ وَكِبَرٍ يَكْسِرُ وَيَقْهَرُ وَفَقِيرٍ يَرْزُقُ كَانَ الرَّحْمَنُ كُلَّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ مِنْ أَوْصَافِ الْمَبَالِغَةِ وَ الْكَثْرَةِ الْكَثْرَاءِ جُودًا وَعَطَاءً وَكِبْرًا وَاسْتِعْلَاءً فَتَشَاكَلَتْ الْمَعَانِي وَالْأَوْزَانُ فَتَعَرَّفَ إِلَى خَلْقِهِ الرَّحْمَنُ بِأَنَّهُ الْعَلَامُ الْخَلَّاقُ الرَّزَّاقُ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ الْوَهَّابُ التَّوَّابُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْفَتَّاحُ الْجَبَّارُ .

35 - الْحَلِيمُ :

يُوصَفُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحَلِيمِ، وَهِيَ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لَهُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَ (الْحَلِيمِ) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [البقرة: 263].

2- وقوله: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر: 41].

- الدليل من السنة:

1- حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "... لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ... " ¹

قال ابن القيم في " النونية" :

وَهُوَ الْحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

وَهُوَ الْعَفُوفُ فَعَفُوهُ وَسِعَ الْوَرَى ... لَوْلَاهُ غَارَ الْأَرْضِ بِالسُّكَّانِ ²

الحليم الذي له الحلم الكامل، والذي وسع حلمه أهل الكفر، والفسوق، والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلاً، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يمهلهم إذا أصرّوا، واستمروا في طغيانهم، ولم ينبئوا .

¹ - صحيح البخاري (6345) ، وصحيح مسلم (2730) .

² - النونية - 207/1 .

والحليم الذي يدرّ على خلقه النعم الظاهرة، والباطنة مع معاصيهم، وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

فالله تعالى حليم عفوّ، فله الحلم الكامل، وله العفو الشامل، ومتعلق هذين الوصفين العظيمين معصية العاصين، وظلم المجرمين، فإن الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، وحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين، وعدم معاجلتهم ليتوبوا، وعفوه يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب خصوصاً إذا أتوا بأسباب المغفرة من الاستغفار، والتوبة، والإيمان، والأعمال الصالحة، وحلمه وسع السماوات، والأرض، فلولا عفوه ما ترك على ظهرها من دابة، وهو تعالى عفو يحب العفو عن عباده، ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالون بها عفوه من السعي في مرضاته، والإحسان إلى خلقه.

وَلَا يَسْتَحِقُّ الصَّافِحُ مَعَ الْعَجْزِ اسْمَ الْحَلِيمِ؛ إِنَّمَا الْحَلِيمُ هُوَ الصَّفُوحُ مَعَ الْقُدْرَةِ وَالْمَتَانِي الَّذِي لَا يَعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ. وَقَدْ أَنْعَمَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ بَيَّانَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ¹:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا ... حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَزُّوا لِأَقْوَامٍ
وَيُسْتَمْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً ... لَا صَفْحَ ذُلٌّ وَلَكِنْ صَفْحَ أَحْلَامٍ

" ويقال: لم يَصِفِ اللهُ - سُبْحَانَهُ - أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ بِصِفَةِ أَعَزِّ مِنَ الْحَلِمِ، وذلك حينَ وَصَفَ إسماعيلَ به. وَيُقَالُ: إن أَحَدًا لَا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الصَّلَاحِ حَتَّى يَكُونَ مَوْصُوفًا بِالْحَلِمِ، وذلك أن إبراهيمَ - صَلَوَاتُ اللهُ عَلَيْهِ - دَعَا رَبَّهُ فَقَالَ: (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) [الصافات/ 100] فَأَجِيبَ بِقَوْلِهِ: (فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) [الصافات/ 101] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْحَلِمَ أَعْلَى مَآثِرِ الصَّلَاحِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَيُقَالُ: حَلَمَ الرَّجُلُ يَحْلُمُ حُلْمًا، بضم اللامِ في المَاضِي والمستَقْبَلِ، وحَلَمَ في النومِ، بِفَتْحِ اللامِ يَحْلُمُ حُلْمًا، اللامِ في المُسْتَقْبَلِ، والحاءُ في المَصْدَرِ مِنْهُ، مَضْمُومَتَانِ." ²

فحليم صيغة مبالغة دالة على الثبوت واللزوم وحالم اسم فاعل من حلّم في النوم .

36- الرؤوف :

الرِّفْقَةُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذَلِكَ مِنْ اسْمِهِ (الرُّؤُوفِ) ، وَهُوَ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ .

¹ - يذكره أهل العلم بلا عزو .

² - الخطابي - شأن الدعاء : 64 .

الدليل:

1- قوله تعالى: {وَأُولَآ فِضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ} [النور: 20] .

2- قوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10] .
والرأفة أشد وأبلغ من الرحمة.

قال ابن جرير في تفسير الآية 65 من سورة الحج {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ}: " إِنَّ اللَّهَ بجميع عبادِهِ ذُو رَأْفَةٍ، وَالرَأْفَةُ أَعْلَى مَعَانِي الرَّحْمَةِ، وَهِيَ عَامَةٌ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا وَلِبَعْضِهِمْ فِي الْآخِرَةِ " .

وقال أهل اللغة: الرؤوف معناه في كلامهم: الشديد الرحمة.

وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} فيه معنى تقديم وتأخير، وقال: المعنى: إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَحِيمٌ رُؤُوفٌ، أي: لرحيم شديد الرحمة.¹
وفي الرؤوف أربع لغات: الرؤوف، بإثبات الهمزة، مع إثبات واو بعد الهمزة. والرؤُف، بضم الهمزة، من غير إثبات واو. وقد فُرىء بالوجهين² في كتاب الله عز وجل.
قال كعب بن مالك³ :

نَطِيعٌ نَبِيْنًا وَنَطِيعٌ رَبًّا ... هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بَنَى رُؤُوفًا

وقال جرير⁴ في اللغة الثانية:

تَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ حَقًّا ... كَفَعَلَ الْوَالِدِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

واللغة الثالثة: الله رَأْفٌ بعبادِهِ، بتسكين الهمزة. قال الشاعر:

فَأَمَنُوا بِنَبِيِّ لَا أَبَا لَكُمْ ... ذِي خَاتِمٍ صَاعَهُ الرَّحْمَنُ مَخْتَوْمٌ

رَأْفٍ رَحِيمٍ بِأَهْلِ الْبِرِّ يَرْحَمُهُمْ ... مُقَرَّبٍ عِنْدَ ذِي الْكُرْسِيِّ مَرْحُومٍ⁵

وقال الكسائي والفراء: يقال: الله رَيْفٌ [يعبادِهِ] ، بكسر الهمزة.

37: الشاكر/ والشكور :

¹ - مجاز القرآن 1 / 59.

² - تفسير القرطبي : 2 / 158.

³ - ديوانه 236.

⁴ - ديوانه 219

⁵ - أنشده أبو بكر الأنباري في الزاهر في معاني كلمات الناس : 97

الشكرصفة فعلية لله عزَّ وجلَّ، و (الشاكر) و (الشكور) من أسمائه تعالى، وكل ذلك ثابت بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 158].

2- وقوله: {وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} [التغابن: 17].

الدليل من السنة:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة ساقى الكلب ماءً، وفيه: " ... فنزل البئر، فملاً خفه ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له ... " ¹

قال ابن القيم: " وأصل الشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً. يقال: شكرت الدابة تشكر شكراً على وزن سمنت تسمن سمناً: إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف. [قال الأعشى:

ولا بدّ من غزوةٍ في الربيع ... رَهْبٍ تُكَلِّ الوَقَاحَ الشُّكُورَا]

وفي صحيح مسلم حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم أي لتسمن من كثرة ما تأكل منها. وكذلك حقيقته في العبودية. وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً. وعلى قلبه: شهوداً ومحبة. وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. " ² وهذه بعض أقوال أهل الزهد والعبادة ينقلها القشيري في رسالته :

ويقال: الشكر على الشكر أتم من الشكر وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر إلى ما لا يتناهى وقيل: الشكر إضافة النعم إلى موليتها بنعت الاستكانة.

قال القشيري: " وَقَالَ الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة وَقَالَ رويم الشكر استفراغ الطاقة. وقيل: الشاكر الذي شكر على الموجود والشكور الذي يشكر على المفقود ويقال: الشاكر الذي يشكر على الرد والشكور الذي يشكر على الرد ويقال: الشاكر الذي يشكر على

¹ - صحيح البخاري (2363)، وصحيح مسلم (2244).

² - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: 234/2. وقد أخذ هذا وغيره عن ابن القيم الترمذي (ت: 815) في مؤلفه: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 344/3. وبيت الأعشى منه.

النفع والشكور الَّذِي يشكر على المنع ويقال: الشاكر الَّذِي يشكر عَلَى العطاء والشكور الَّذِي يشكر عَلَى البلاء ويقال: الشاكر الَّذِي يشكر عِنْد البذل والشكور الَّذِي يشكر عِنْد المظل. قال القشيري: " سمعت الشيخ أبا عبد الرَّحْمَنِ السلمي يَقُول: سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكي يَقُول: سمعت المرتعش يَقُول: سمعت الجنيد يَقُول كنت بَيْنَ يدي السري أَلعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جَمَاعَة يتكلمون فِي الشكر فَقَالَ لي: يا غلام مَا الشكر فَقُلْتُ: أَن لا تعصي الله بنعمة فَقَالَ: يوشك أَن يَكُون حظك من الله تَعَالَى لسانك.

قَالَ الجنيد: فلا أزال أبكي عَلَى هذه الكلمة الَّتِي قالها السري.¹

فالشاكر فاعل من شكر وأبلغ منه معنى الشكور لأن الفعل واقع منه في أقل تقدير ثلاث مرات ينعم ابتداء وهذا منه تعالى شكر ثم يشكر نعمته التي وهبها لخلقه يجعلهم يشكرون ثم يشكر شكرهم - وهو شكره في الحقيقة - فيتدرج بهم في الشكر المتتالي حتى يجعل منهم الشكور ولولا واسع رحمته وعميم نعمائه لما خرجوا من الكفران والفجور، ولا أدلّ على المبالغة في وزن الشكور من نسبتة الشكر إلى الذي لا حظ له فيه صنعا أو جزاء: " لئن شكرتم لأزيدنكم " فهو الشاكر ابتداء والشكور هبة ومنة وغفرانا ورأفة وعفوا وغنى وإنعاما وإحسانا وجودا وكرما فحقيق أن يكون مشكورا كرسول بمعنى مُرسل، كيف لا وفِعْل الفاعل هو مانحه .

38 : - العفو :

الْعَفْوُ وَالْمُعَافَاةُ صِفَةٌ فَعْلِيَّةٌ لِّلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَابِتَةٌ لَهُ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَمَعْنَاهَا الصَّفْحُ عَنِ الذُّنُوبِ، وَ (الْعَفْوُ) اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى.

الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا} [النساء: 43] .

2- وقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة: 43] .

الدليل من السنة:

حديث الدعاء على الجنازة: " اللهم اغفر له، وارحمه، وعافه واعف عنه ... " ² .

¹ - عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ) - الرسالة القشيرية - ت : عبد الحلیم محمود، الدكتور

محمود بن الشريف - دار المعارف، القاهرة : 313/1 . وقد أخذ عنه هذه الأقوال وغيرها ابن القيم في المدارج : 234/2 .

² - صحيح مسلم (963) .

حديث عائشة رضي الله عنها: " اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك...¹. ولا يستعاذ إلا بالله أو بصفة من صفاته.

العفو: تركك إنساناً استوجب عقوبةً فعفوت عنه تعفو، والله العفو الغفور. والعفو: أحل المال وأطيبه. والعفو: المعروف. والعفاة: طلاب المعروف، وهم المعتفون. واعنفت فلاناً: طلبت معروفه. والعافية من الدواب والطيور: طلاب الرزق، اسم لهم جامع.

وجاء في الحديث: من عرس شجرةً فما أكلت العافية منها كتبت له صدقة².
والعافية: دفاع الله عن العبد المكاره. والإستعفاء: أن تطلب إلى من يكلفك أمراً أن يعفك منه أي يصرفه عنك. والعفاء: التراب. والعفاء: الدروس، قال:
على آثار من ذهب العفاء³

تقول: عفت الديار تعفو عفواً، والريح تعفو الدار عفاً وعفواً وتعفت الدار والأثر تعفياً⁴.
قال الأزهري: " قال أبو بكر بن الأنباري: الأصل في قوله جلّ وعزّ: {عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم} : محا الله عنك؛ مأخوذ من قولهم: عفت الرياح الآثار: إذا درستها ومحتها...⁵.
فلكثر هذا الفعل منه والله الحمد على حلمه بعد علمه وعلى عفوهِ بعد قدرته وصف بفعول لأنه من أحب صفاته إليه ومن ثم إلى خلقه فلا بد تكثر منه ولا سيما وعباده فقراء إلى عفوهِ:

وهو الحيي فليس يفضح عبده... عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره... فهو السنيّر وصاحب الغفران
وهو الحليم فلا يعاجل عبده... بعقوبة ليتوب من عصيان
وهو العفو فعفوه وسع الورى... لولاه غار الأرض بالسكان

¹ - صحيح مسلم (486) .

² - في اللسان: " وفي الحديث: من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة.

وجاء أيضاً في حديث أم مبشر الأنصارية قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في نخل لي فقال: من غرسه أمسلم أم كافر؟ قلت: لا بل مسلم، قال: ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو دابة أو طائر أو سبع إلا كانت له صدقة "

³ - وصدرة: تحمل أهلها عنها فبانوا

والبيت في شرح ديوان زهير ص 58 وفي اللسان: على آثار ما ذهب العفاء.

⁴ - العين : 257/2 - 258 .

⁵ - تهذيب اللغة (222/3)

39: - الغفور والغفار:

الْمَغْفِرَةُ وَالْغُفْرَانُ صِفَةٌ فَعَلِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِّلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ (الْغَفَّارُ) وَ (الْغُفُورُ) .

الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: 285] .
- 2- وقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: 28] .
- 3- وقوله: {أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} [الزمر: 5] .
- وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} [فصلت: 43] .

الدليل من السنة:

- 1- حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " .. بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " ¹ قال ابن قتيبة: " ومن صفاته (الغفور) ، وهو من قولك: غفرت الشيء: إذا غطيته؛ كما يُقال: كَفَرْتُهُ: إذا غطيته. ويقال: كذا أغفر من كذا؛ أي: أستر ... " ² .
- وقال الزجاجي: " ... غفور - كما ذكرت لك - من أبنية المبالغة؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ غفور؛ لأنه يفعل ذلك لعباده مرة بعد مرة إلى ما لا يحصى، فجاءت هذه الصفة على أبنية المبالغة لذلك، وهو متعلق بالمفعول؛ لأنه لا يقع الستر إلا بمستور يُستر ويُغشى، وليست من أوصاف المبالغة في الذات، إنما هي من أوصاف المبالغة في الفعل " ³ .
- وسياتي في باب اللطائف بيان الفوارق بين غافر وغفار وغفور لئلا يجور باب على باب فيحيط بنا العتاب .

40 - الكريم / الأكرم :

¹ - صحيح مسلم (125) .

² - تفسير غريب القرآن (ص 14)

³ - اشتقاق أسماء الله (ص 93)

الكَرْمُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِّلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ: (الكَرِيم) وَ (الْأَكْرَم) .
الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: 6]

2- وقوله: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} [الفجر: 15] .

3- وقوله: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} [العلق: 3] .

الدليل من السنة: حديث عوف بن مالك رضي الله عنه في الدعاء على الجنابة: " ... اللهم اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نُزُلَهُ، ووسع مدخله ... " ¹.

2 - أثر عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ أنهما كانا يقولان في السعي بين الصفا والمروة: " رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم؛ إنك أنت الأعزُّ الأكرم " ² .

وقال الزجاجي : " الكريم: الجواد، والكريم: العزيز، والكريم: الصَّفوح. هذه ثلاثة أوجه للكريم في كلام العرب، كلها جائز وصف الله عزَّ وجلَّ بها، فإذا أريد بالكريم الجواد أو الصفوح؛ تعلق بالمفعول به؛ لأنه لا بدَّ من مُتَكْرَمٍ عليه ومصفوح عنه موجود، وإذا أريد به العزيز؛ كان غير مقتض مفعولاً " ³.

يعني رحمه الله: إذا أريد به الجواد والصفوح؛ من أكرم فهي صفةٌ فعلٍ تقتضي مكرماً ومكرماً فكريم حينها بمعنى مكرم كبصير بمعنى مبصر ونضائرها ، وإذا أريد به العزّة وكرم الذات فهو من كرم صفة مشبهة باسم الفاعل مثل شريف ونبيل ؛ فهي صفةٌ ذاتٍ وعلى كل الأحوال كرم ذاته ينليه عباده وإلا فكيف يوصف به أزلاً وأبداً ، والله أعلم.

41 : - الوليِّ و المولى :

¹ - صحيح مسلم (963)

² - رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (68/4) ، والطبراني في ((الدعاء)) (870) ، والبيهقي في ((السنن)) (95/5) ؛ موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه ابن أبي شيبة (69/4) موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما.

وصحح العراقي في " تخريج إحياء علوم الدين " (321/1) إسناد الموقوف على ابن مسعود رضي الله عنه وقال الحافظ - كما في ((الفتوحات الربانية)) (401/4-402) عن أثر ابن مسعود: ((موقوف صحيح الإسناد)). وقال الألباني - رحمه الله- في ((مناسك الحج والعمرة)) (ص 28) : ((رواه ابن أبي شيبة عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما بإسنادين صحيحين))

³ - اشتقاق أسماء الله (ص 176)

يوصف الله عزَّ وجلَّ بالوَلَايَةِ وَالْمُوَالَاةِ وبأنه وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ومولاهم، و (الْوَلِيُّ) و (المَوْلَى) : اسمان لله تعالى ثابتان بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: 257] .
 - 2- وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد: 11] .
- والآيات في ذلك كثيرة جداً.

الدليل من السنة:

- 1- قول الزبير لابنه عبد الله يوم الجمل: " يا بني! إن عجزت عن شيء منه (يعني: دينه) فاستعن عليه بمولاي. قال: فوالله؛ ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت! من مولاك؟ قال: الله. قال: فوالله؛ ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير! اقض عنه دينه فيقضيه... " ¹
- 2- حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: " ... اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكَّاهَا، أنت وليها ومولاهَا ... " ²

لقد عدد الزبيدي للفظ الولي عن أهل العربية واحدا وعشرين معنى نذكر منها: " و(المولى) له مواضع في كلام العرب وقد تكرر ذكره في الآية والحديث فمن ذلك المولى (المالك) من وليه ولاية إذا ملكه ... قال ابن الاعرابي المولى (الجار والحليف) وهو من انضم اليك فعز بعزك وامتنع بمنعتك قال الجعدى :

موالي حلف لا موالى قرابة * ولكن قطينا يسألون الأتاويا

قال أبو الهيثم المولى (ابن العم) والعصبات كلهم ... وأيضا (الولي) الذى يلى عليك أمرك وهما بمعنى واحد ومنه الحديث " أيما امرأة نكحت بغير إذن مولاهَا - ورواه بعضهم - بغير إذن وليها... " وروى ابن سلام عن يونس أن المولى في الدين هو الولي وذلك قوله تعالى " ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم " [محمد/ 11] أي لا ولي لهم ومنه الحديث: " من كنت مولاه فعلى مولاه " أي من كنت وليه . وقال الشافعي يحمل على ولاء الإسلام . وأيضا (الرب) جل وعلا لتوليه أمور العالم بتدبيره وقدرته . وأيضا (الناصر) نقله

¹ -صحيح البخاري (3129)

² -صحيح مسلم (2722)

الجوهري وبه فسر أيضا حديث " من كنت مولاه " وأيضا : المنعم . وأيضا :المنعم عليه .
وأیضا : المحبُّ من والاه إذا أحبّه . وأيضا " التابع " و أيضا " الصهر " وجد ذلك في بعض
نسخ الصحاح فهذه أحد وعشرون معنى للمولى .¹

وقال الراغب الأصفهاني : " الوَلَاءُ والتَّوَالِي : أن يَحْصُلَ شَيْئَانِ فصاعدا حصولا ليس بينهما ما
ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن
حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والوَلَايَةُ النَّصْرَةُ² ، والوَلَايَةُ: تَوَلَّى الأمر، وقيل: الوَلَايَةُ
والوَلَايَةُ نحو: الدَّلَالَةُ والدَّلَالَةُ، وحقيقته: تَوَلَّى الأمر. والتَّوَالِي والمَوْلَى يستعملان في ذلك كلُّ
واحدٍ منهما يقال في معنى الفاعل. أي: التَّوَالِي، وفي معنى المفعول. أي: المَوْلَى، يقال
للمؤمن: هو وَلِيُّ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ولم يرد مَوْلَاهُ، وقد يقال: الله تعالى وَلِيُّ المؤمنين ومَوْلَاهُمْ، فمن
الأوَّل قال الله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا [البقرة/ 257] ، إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ
[الأعراف/ 196] ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران/ 68] ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا
[محمد/ 11] ، نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ
[الأنفال/ 40] ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعَمَ الْمَوْلَى
[الحج/ 78] ، قال عزَّ وجلَّ: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ
[الجمعة/ 6] ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ
[التحریم/ 4] ، ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ
[الأنعام/ 62] والوالي الذي في قوله: " وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاٍ "

¹ - الزبيدي - تاج العروس من جواهر القاموس - ت : مجموعة من المحققين - ط : دار الهداية : 247/40

² - قال الفراء: وكسر الواو في الولاية أعجب إليّ من فتحها، لأنها إنما تفتح أكثر من ذلك إذا كانت في معنى النصره، وكان
الكسائي يفتحها ويذهب بها إلى النصره ولا أراه ويختارون في وليته ولاية الكسر ، وقد سمعنا هما بالفتح والكسر في معنا هما
جميعا ، وقال الشاعر :

دعيهم فهم ألب علي ولاية وحفرهم أن يعلموا ذاك دائب

انظر: معاني القرآن للفراء - ت : أحمد يوسف نجاتي / محمد على نجار / عبدالفتاح إسماعيل شلبي - دارالمصرية للتأليف
والترجمة : 1 / 418

[الرعد/ 11] بمعنى الوليِّ، ونفى الله تعالى الولايةَ بين المؤمنين والكافرين في غير آية، فقال: " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ " [المائدة/ 51] ¹.

42 : - النصارى :

يوصف الله عزَّ وجلَّ بأنه الناصر والناصر، وأنَّ النصر بيده، وهذا ثابت بالكتاب والسنة
الدليل من الكتاب:

1- قوله تعالى: {بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [آل عمران: 150]

2- وقوله: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ} [الأنفال: 40] .

3- وقوله: {إِنْ تَنصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} [محمد: 7] .

4- وقوله: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: 1] .

الدليل من السنة :

1- حديث أنس رضي الله عنه: " اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أحول وبك أصول
وبك أقاتل " ².

2- حديث: "... صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده " ³.

قال الخليل في " نصر " : " النَّصْرُ: عَوْنُ الْمَظْلُومِ. وفي الحديث: انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ
مَظْلُومًا، وتفسيره: أن يمنعه من الظلم إن وجدَه ظالماً، وإن كان مظلوماً أعانه على ظالمه] .
والأنصار: جماعة الناصر، وأنصار النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أعوانه. وانتصر الرجل:
انتقم من ظالمه. والنصير والناصر واحدٌ، وقال الله جلَّ وعزَّ - : [نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ]
سورة الأنفال، الآية 40. * والنصرة: حُسْنُ الْمَعُونَةِ، وقال الله - جلَّ وعزَّ - : [مَنْ كَانَ يَظُنُّ
أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ
مَا يَغِيظُ] [الحج : 15]. المعنى: من ظنَّ من الكفار أنَّ الله لا يُظهرُ مُحمداً على من خالفه

¹ . ينظر : المفردات في غريب القرآن : 855 . وقد أخذ عنه هذا وزاد فيه ونقص : الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ) صاحب:

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ص: 281/5 وما يليها

² - حديث صحيح. رواه: أبو داود (2632) ، والترمذي (صحيح سنن الترمذي/2836) ، وغيرهما. وصححه الألباني في

(الكلم الطيب) (126) .

³ - صحيح البخاري (6385) و صحيح مسلم (1344) .

فَلْيَخْتَتِقْ غِيظًا حَتَّى يَمُوتَ كَمَدًا فَإِنَّ اللَّهَ يُظْهِرُهُ وَلَا يَنْفَعُهُ مَوْتُهُ خَنْقًا، وَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ: أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ¹

43 : - الهادي :

يُوصَفُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ (الهادي) ، وَهَذَا ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَهُوَ اسْمٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
الدليل من الكتاب:

- 1- قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [الأعراف: 43] .
- 2- وقوله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: 56] . - وقوله: {وَكَفَىٰ بَرِيكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان: 31] .
الدليل من السنة:

- 1- الحديث القدسي المشهور، حديث أبي ذر رضي الله عنه: " ... يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم " ²
- 2- حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "... اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني " ³.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي : " الهادي: أي الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيية إليه منقادة لأمره " ⁴ .

وَهُوَ الَّذِي هَدَى سَائِرَ الْخَلْقِ مِنَ الْحَيَوَانِ إِلَى مَصَالِحِهَا وَأَلْهَمَهَا كَيْفَ تَطْلُبُ الرِّزْقَ، وَكَيْفَ تَنْقِي الْمَضَارَّ، وَالْمَهَالِكَ، كَقَوْلِهِ [تعالى]: (الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه/50].

44 : - الودود :

¹ - العين : 108/7 .

² - صحيح مسلم (2577)

³ - صحيح مسلم (2696) .

⁴ - ناصر السعدي - تفسير أسماء الله الحسنى : 242/1 .

يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه الْوَدُودُ، الذي يُوَدُّ ويحب عباده الصالحين ويودونه، وهذا ثابت بالكتاب العزيز، و (الْوَدُودُ) من أسمائه تعالى.
الدليل:

1- قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [هود: 90] .

2- وقوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: 14] .

الودّ: محبة الشيء، وتمني كونه، ويستعمل في كلّ واحد من المعنيين على أن التمني يتضمن معنى الودّ، لأنّ التمني هو تشهي حصول ما توّده،
فبمعنى التمني قول الشاعر :

وَدِدْتَ وَدَادَةً لَوْ أَنَّ حَظِي ... مِنَ الْخُلَانِ أَنْ لَا يَصْرِمُونِي

ويعن الحب قول العجاج :

إِنَّ بَنِيَّ لِلنَّامِ زَهْدَهُ ...

مالي في صدورهم من مَوَدَدِهِ ...

أراد: من مودّة، فأظهر الدالين لضرورة الشعر.

فأجابه ابنه روبة وكان أصغر بنيه:

إِنَّ بَنِيكَ لِكِرَامٍ زَهْدَهُ ...

ولو دعوت لأتوك حَفَدَهُ ...

عَجَّاجُ مَا أَنْتَ بِأَرْضٍ مَأْسَدَهُ ...

أي: ذات أسد، فيلزموك ولا يفارقوك. فعلم أن سيكون نجيباً¹.

قال أبو القاسم الزجاجي: "الْوَدُودُ: فيه قولان: أحدهما: أنه فعولٌ بمعنى فاعلٍ؛ كقولك: غفورٌ بمعنى غافر، وكما قالوا: رجلٌ صبورٌ بمعنى صابر، وشكورٌ بمعنى شاعر، فيكون الْوَدُودُ في صفات الله تعالى عَزَّ وَجَلَّ على هذا المذهب أنه يودُّ عباده الصالحين ويحبهم، والودُّ والمودةُ والمحبة في المعنى سواء؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ وودُّ لأوليائه والصالحين من عباده، وهو مُحِبٌّ لهم. والقول الآخر: أنه فعولٌ بمعنى مفعولٍ؛ كما يقال: رجلٌ هيوبٌ؛ أي: مهيبٌ، فتقديره: أنه عَزَّ وَجَلَّ مودودٌ؛ أي: يوده عباده ويحبونه وهما وجهان جيدان.

¹ - ينظر: أبو بكر الأنباري - الزاهر في معاني كلمات الناس: 87 .

وقد تأتي الصِّفة بالفعل لله عَزَّ وَجَلَّ ولعبده، فيقال: العبد شكور لله؛ أي: يشكر نعمته، والله عَزَّ وَجَلَّ شكورٌ للعبد؛ أي: يشكر له عمله؛ أي: يجازيه على عمله، والعبد توابٌ إلى الله من ذنبه، والله تَوَّابٌ عليه؛ أي: يقبل توبته ويعفو عنه " ¹.

وقال ابن القيم: " الودود المتودد إلى عباده بنعمه الذي يودُّ من تاب إليه وأقبل عليه وهو الودود أيضاً أي المحبوب قال البخاري في " صحيحه " الودود: الحبيب. والتحقيق أنَّ اللفظ يدل على الأمرين على كونه واداً لأوليائه ومودوداً لهم فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه " ².

فودود فعول بمعنى فاعل وبمعنى مفعول كفرس ركوب بمعنى مركوب ويحتمل معنى متفعل " متودد " إلى عباده بنعمه ويحتمل مفعل " مودد " يُودد من يودّ ويحبّ من خلقه إلى خلقه؛ كقوله - جل وعزّ - : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً " [مريم/96].

¹ - : اشتقاق أسماء الله للزجاجي (ص 152) .

² - ينظر ابن القيم - التبيان في أقسام القرآن - محمد حامد الفقي - دار المعرفة، بيروت، لبنان - ص : 93 .
وينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : ص : 18

الباب الثاني

نطائف البيان في أسماء وصفات الرحمن بين الفراق والقران

مدخل : في الفاصلة القرآنية

لا شك أنّ الناظر في الكلام العربي إما أن يبحث عن المعنى الذي وضع له اللفظ، وهو علم اللغة، وإما أن يبحث عن ذات اللفظ بحسب ما يعتريه، وهو علم التصريف، وإما أن يبحث عن المعنى الذي يفهم من الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم، وهو علم العربية " علم النحو " ، وإما أن يبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوي، وهو علم المعاني، وإما أن يبحث عن طرق دلالة الكلام إيضاحًا وخفاءً بحسب الدلالة العقلية، وهو علم البيان، وإما أن يبحث عن وجوه تحسين الكلام، وهو علم البديع.¹

والقدماء كانوا يطلقون البيان على العلوم الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، يقول الجاحظ عن علم البيان : «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصله، كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري عليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»²

وقد ذكر السيد الشريف في حاشيته على الكشاف أنّ الزمخشري أراد بعلم البيان العلوم الثلاثة: المعاني والبيان والبديع .³ وهم بهذا المعنى يريدون به البلاغة وهي كذلك .

ونحن في بابنا هذا من بحثنا لا نعدم لطائف في ثلاثة هذه الفنون على تقسيم المتأخرين ، ولمّا كان ختم الآيات يعرف عند علماء إعجاز القرآن والبلاغة بالفاصلة القرآنية احتيج في هذا المدخل إلى بيان الفاصلة القرآنية وما تؤدّيه من وظيفة التعليل أو الإنكار، أو التوكيد أو الترغيب، أو زيادة الإيضاح ، أم أنها لمجرد التمكين والتحسين الصوتي فهي بمثابة الأسجاع عند من يمنع في القرآن الأسجاع .

¹ - ينظر : ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراي (المتوفى: 837هـ) - خزنة الأدب

وغاية الأرب - ت : عصام شقيو - دار ومكتبة الهلال - بيروت، دار البحار - بيروت - الطبعة الأخيرة 2004م - ص : 23

² - الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان (المتوفى: 255هـ) - البيان والتبيين - ت : دار

ومكتبة الهلال - ط : بيروت / 1423 هـ - ص : 11 .

³ - ينظر حاشية الكشاف ، ت : محمد الصادق قمحاوي مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر- د ت ، ص : 63/1.

ففي اللغة الفاصلة هي الشيء الذي يفصل بين أمرين، وتطلق على الخرزة بين خرزتين، والفصل القضاء بين الحق والباطل، والتفصيل هو التبيين والتوضيح، وكتاب فصلناه أي بيئناه ووضحناه.¹

واستعملت الفاصلة في القراءات القرآنية كمصطلح دال على الكلمة التي تأتي في آخر الجملة. قال أبو عمرو الداني: الفاصلة: كلمة آخر الجملة، وفرق بين الفواصل ورعوس الآية، فالفاصلة هي الكلام المنفصل مما بعده، سواء كان رأس آية أو نهاية كلام، وتسمى بالاستراحة في مجال الخطاب، حيث يتوقف الكلام.

وقال أبو بكر الباقلاني: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إلهام المعاني.

وقال الزركشي في البرهان: الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقريئة السجع.²

وقد أكد الرماني قديما على الفارق بين الفاصلة والسجع بقوله: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إلهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك لأنّ الفواصل تابعة للمعاني، وأمّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها»³

ومن هنا تميزت الفاصلة القرآنية من قافية الشعر. فقافية الشعر كان يؤتى بها غالبا محسنا لفظيا لإتمام الكلام، حتى وإن أقحمت إقحاما، وخرجت عن سياق الكلام، وكثيرا ما يضطر الشاعر إلى ذلك.

أما الفاصلة القرآنية فهي مرتبطة بسياق الكلام ارتباطا محكما، بل هي مفصحة عن معان زائدة مرادة، يفتقر السياق إليها ويتطلبها. ومن ثمّ لم تكن حلية لفظية فحسب كما هو الحال في الشعر في كثير من الأحيان.

وقد ألف بعض العلماء في الفواصل، من هؤلاء، نجم الدين الطوفي المتوفى سنة 716 هـ الذي نسب إليه كتاب «بغية الواصل إلى معرفة الفواصل» وهو كتاب مفقود، وهناك كتاب آخر

¹ - محمد فاروق النبهان - المدخل إلى علوم القرآن الكريم - دار عالم القرآن - حلب - الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م - ص : 127 .

² - ينظر : البرهان في علوم القرآن : 53/1 و: الإتيان في علوم القرآن : 332/3 .

³ - الرماني - الخطابي - الجرجاني - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . ت : محمد خلف الله - محمد زغلول سلام . دار المعارف - مصر 1976 - ص : 97 .

«القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز» لأبي عبد الله المخلاتي المتوفى سنة 1311 هـ وهو موجود في الخزانة التيمورية¹.

وقال الجعبري² صاحب شرح الشاطبية: لمعرفة الفواصل طريقان: توقيفي وقياسي: أما التوقيفي فما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم وقف عليه دائماً تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة، ووصله أخرى احتمال الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة.

وأما القياسي: فهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب، ولا محذور في ذلك، لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان³.

والملاحظ في القرآن أنّ الفاصلة القرآنية في الآيات الطويلة - سواء أكانت في السور الطوال أو القصار أو المتوسطة الطول والقصر - تأخذ سمة الاستقلال بمعنى أنها تأتي بعد تمام معنى أو معان رئيسية في الآية.

فتكون هي بمثابة تعليق عليها وتؤدي حينئذ وظيفة التعليل أو الإنكار، أو التوكيد أو الترغيب، أو زيادة الإيضاح.

وهي غالباً ما تكون في هذا النوع جملة مستوفية الأركان ، ويغلب عليها أن تكون اسمية. أما في الآيات القصيرة، سواء أكانت في السور الطوال أو القصار، أو المتوسطة الطول والقصر، فتكون كلمة مكملة لمعنى الآية التي هي فيها معمولة من حيث الحكم النحوي لعامل فيها. وليس لها سمة الاستقلال لأنها ليست جملة.

وقد تكون جملة قصيرة خاطفة، فعلية أضمر فيها فاعلها. ويغلب مجئ هذه الفواصل في السور القصار مما يسمونه "قصار الفصل" وما قارب ذلك.

ونذكر الآن بعض الأمثلة لهذين النوعين.

ثم نحاول توجيه هذا الصنيع الأدبي توجيهاً بيانياً، وبالله التوفيق. .

فواصل الآي الطوال:

¹ - محمد فاروق النبهان - المدخل إلى علوم القرآن الكريم - ص : 127 .

² - هو إبراهيم بن عمر الجعبري المتوفى سنة 732 هـ، وهو صاحب كتاب روضة الطرائف في رسم المصاحف.

³ - ينظر: الإتقان للسيوطي : 290 /3.

قال الله تعالى من سورة البقرة: (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْخِزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) .

فهذه خمس فواصل في خمس آيات وقعت الفاصلة فيها كلمة في جملة مستقلة بعد استيفاء المعاني الرئيسية لكل آية إلا فاصلة الآية الخامسة، فقد بنى المعنى الرئيسي عليها ودخلت في أصل الدلالة.

وقال في سورة آل عمران: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبَعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) .

وهاتان آيتان جاءت الفاصلة فيهما كذلك كلمة في جملة أفادت معنى جديداً بعداستيفاء معنى ما تقدمها.

وقال في سورة النساء: (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) .

فأنت ترى في هذه الآيات الثلاث - وقد اختلفت فيما بينهما في الطول - أن فاصلة كل آية امنها مستقلة. فجملة الفاصلة في الأولى: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) لأنها أعقبت تشريعاً خالصاً.

وفي الثانية: (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) لأنها أعقبت تشريعاً في حالات المخالفات التي توجب حداً يُقام على المخالف ، وذلك يُشعر بوقوع الخطأ من بعض المكلفين .

وفي الثالثة كانت الفاصلة: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) متفقة مع الأولى إلا في حكم الإعراب لأنها أعقبت بياناً لما يريدَه الله من التشريع للناس، والغاية العظمى للشارع من فرض الأحكام.
فواصل الآي القصار:

ذلك شأن الفاصلة الغالب عليها في الآيات الطوال ، وفي السور الطوال أو ما قاربها، أما في الآيات القصار أو ما قاربها - وكثيراً ما يقع هذا في السور القصار أو ما قاربها فإن الشأن مختلف.

ف نجد الفاصلة فيها كلمة معمولة لعامل تقدم في بناء الآية قبل استيفاء معناها الرئيسي فهي - إذن - داخله في تأديته. وإذا وردت الفاصلة في هذه الحالات " جملة " فهي جملة قصيرة قد يكتفى فيها بذكر أحد ركنيها.

ويضمّر الثاني إن كانت فعلية وقد تتعلق بكلمة الفاصلة معمولات لها فتحذف تلك معمولات. وتبقى الفاصلة ملحوظاً فيها ما أضرر أو ما حذف متعلقاً بها، وقد ينتظم هذا المنهج سورة كاملة. وقد يقتصر على معظم آياتها.

هذا إجمال لا بدّ له من تفصيل، ودعوى لا بدّ لها من دليل، فلنأخذ في سوق الأمثلة، ولعل خير شاهد على ذلك سورة الواقعة، فهي تكاد آياتها كلها تكون من هذا النوع ونكتفى منها بما يأتي:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (6) وَكُنُثُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ (12) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُنْقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَخْتِירוْنَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٍ عِينٍ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا (25) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (26)

هذه الآيات تمثل مطلع السورة ثم الحديث عن أحد الأزواج الثلاثة حديثاً تفصيلاً بعد الإشارة إليها إجمالاً في صدر السورة.

والمتمأمل يلحظ في فواصل هذه الآيات - كما هو الشأن في آيات السورة كلها تقريباً - أن دلالة الفاصلة جاءت جزءاً من المعنى الأصلي للآية. ومكملة له. وكلمة " الفاصلة " خاضعة في الحكم النحوي لعامل في الآية ، إلا في ثلاثة مواضع بدت فيها الفاصلة ذات دلالة مستقلة وهذه المواضع الثلاثة:

" . . ولا ينزفون " . . ثم " . . يتخيرون " ثم " يشتهون "

وفيما عدا ذلك فإن الفاصلة تختلف، فهي فاعل في الآية الأولى وهي صفة لمحذوف واقع اسماً لـ " ليس " في الآية الثانية، وهي صفة أو خبر بعد خبر في الثالثة. ومفعول مطلق في الرابعة والخامسة، وصفة في السادسة والسابعة.

وهكذا تجد الفاصلة جزءاً أساسياً من الآية ودلالاتها جزءاً من المعنى الأساسي الذي من أجله سيقت الآية.

وقبل سورة الواقعة. فإن " القمر " و " الرحمن " يغلب عليهما هذا الطابع لأن العلة - وهي قصر الآيات - مشتركة في المواضع الثلاثة.¹

ومن هذه الدراسة النفيسة مع ما يضاف إليها من الإمعان في سور الكتاب الكريم يفهم لما كثر ذكر أسمائه في السور الطوال والمفصل وندرته في القصار.

فالفاصلة إذا كانت جملة تضم اسماً أو اسمين وكذا وصفاً أو وصفين من أسمائه أو أوصافه تعلقت بما سبقها من جمل في الآية الواحدة أو أكثر بوحدة من العلاقات التالية :

1/ التذييل : وقد أطلقناه في هذا الباب وأردنا به مجرد التعقيب وهو الفاصلة ذاتها وليس قسماً أو علاقة من علاقاتها وهنا لا شك أغراضه شتى وسلفنا في هذا أهل العلم : أبو السعود والألوسي وابن عاشور من أهل التفسير البياني رحمهم الله ، كما استعملناه بمعناه البلاغي وهو كما ضبطه أهل علوم القرآن وعلوم البيان : " مصدر [دَيْلٌ] لِلْمُبَالِغَةِ وَهِيَ لُغَةٌ جَعَلَ الشَّيْءَ دَيْلاً لِلْآخِرِ . وَاصْطِلَاحًا وَهُوَ أَنْ يُوْتَى بِجُمْلَةٍ عَقِبَ جُمْلَةٍ ، وَالثَّانِيَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَى الْأُولَى ، لِتَأْكِيدِ

¹ - عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (المتوفى: 1429هـ) - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية - (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى) - مكتبة وهبة - الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1992 م - ص : 235 / 239 .

منطوقه أو مفهومه، ليظهر المعنى لمن لا يفهمه، ويتقرر عند من فهمه، نحو: (ذَلِكَ جَرَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) .

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) .

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (34) .

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) .¹

وقد جعل ذا ضربين عند أهل البلاغة : " وهو أن يذيل المتكلم كلامه بعد تمام معناه بجملة تحقق ما قبلها وتلك الزيادة على ضربين: أ- ضرب لا يزيد على المعنى الأول، وإنما يؤكد ويحققه.

ب- وضرب يخرج المتكلم مخرج المثل السائر، ليشتهر المعنى، لكثرة دورانه على الألسنة، وقد جاء في هذه الآية الكريمة الضريان:

أ- قوله تعالى «وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا» فإن الكلام قد تم وكمل قبل ذلك، ثم أتت جملة التذييل لتحقيق ما قبلها وتؤكد.

ب- قوله: «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ» مخرجا ذلك مخرج المثل فسبحان المتكلم بمثل هذا الكلام.²

وعدّ ابن عاشور من الذي خرج مخرج المثل قوله : " وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ " وغيرها من فواصل الآي التي ذكر فيها أسمائه وصفاته كما سيأتي بيانه .

قال الزركشي في ائتلاف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام :

" اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره وإيقاع الشيء فيها

بما يشاكله فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولا وإلا خرج بعض الكلام عن بعض.

وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك لكن منه ما يظهر ومنه ما يستخرج بالتأمل لليبس.

وهي منحصرة في أربعة أشياء: التمكين والتوشيح والإيغال والتصدير .

¹ - ينظر : البرهان في علوم القرآن : 68/3 - 70 . و : الإتيان في علوم القرآن : 250/3 . و : معترك الأقران في إعجاز القرآن : 279/1 .

² - محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: 1376هـ) - الجدول في إعراب القرآن الكريم - دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت - ط : 4 / 1418 هـ - ص : 41/11 .

والفرق بينها أنه إن كان تقدم لفظها بعينه في أول الآية سمي تصديراً وإن كان في أثناء الصدر سمي توشيحاً وإن أفادت معنى زائداً بعد تمام معنى الكلام سمي إيغالاً وربما اختلط التوشيح بالتصدير لكون كل منهما صدره يدل على عجزه والفرق بينهما أن دلالة التصدير لفظية ودلالة التوشيح معنوية.¹

2/ التمكين - ويسمى ائتلاف القافية: أن يمهّد النائر للقرينة أو الشاعر للقافية تمهيداً تأتي به القافية أو القرينة متمكنة في أماكنها مستقرة في قرارها، مطمئنة في مواضعها، غير نافرة ولا قلقة، ومتعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً، بحيث لو طُرِحَتْ لاختل المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سكت عنها كمله السامع بطبعه.

ومن أمثلة ذلك قوله: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)) هود : 87 .

لما تقدم في الآية ذكر العبادة وتلاه ذكر التصرف في الأموال اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب، لأن الحلم يناسب العبادات، والرشد يناسب الأموال.

وقوله: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ) ... إلى قوله: (أَفَلَا يُبْصِرُونَ) السجدة: 26، 27) .

فأتى في الآية الأولى بـ يَهْدِ لَهُمْ، وختمها بـ "يَسْمَعُونَ"، لأن الموعظة فيها مسموعة وهي أخبار القرون.

وفي الثانية بـ يروا، وختمها بـ "يبصرون" لأنها مرئية.

وقوله: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) .

فإن اللطيف يناسب ما لا يدرك بالبصر، والخبير يناسب ما يدركه.

وقوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ...

إلى قوله: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ، فإن في هذه الفاصلة التمكين التام المناسب لما قبلها.

وقد بادر بعض الصحابة حين نزل أول الآية إلى ختمها بها قبل أن يسمع آخرها، فأخرج ابن

أبي حاتم من طريق الشعبي عن زيد بن ثابت، قال: أملى عليّ رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - هذه الآية: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ... إلى قوله: خَلَقاً آخِر -

¹ - البرهان في علوم القرآن : 78 .

قال معاذ بن جبل: فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال له معاذ: مِمَّ ضَحَكْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال: بها حُتِمَتْ .
وحكي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: " فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فاعلموا أن الله غفور رحيم " .

ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن هذا ليس بكلام الله، لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه.¹

كما سنحاول في هذا الباب التطبيقي تحليل مشكلات الفواصل التي أكثر أغراضها التمكين بنحو ما عالجه به السيوطي ، قال : " ومن مشكلات الفواصل قوله تعالى إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم فإن قوله وإن تغفر لهم يقتضي أن تكون الفاصلة الغفور الرحيم وكذا نقلت عن مصحف أبي وبها قرأ ابن شنبوذ وذكر في حكمته أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو العزيز أي الغالب والحكيم هو الذي يضع الشيء في محله ، وقد يخفي وجه الحكمة على بعض الضعفاء في بعض الأفعال فيتوهم أنه خارج عنها وليس كذلك فكان في الوصف بالحكيم إحتراس حسن أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك والحكمة فيما فعلته .

ونظير ذلك قوله في سورة التوبة أولئك سيرحهم الله إن الله عزيز حكيم وفي سورة الممتحنة واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم وفي غافر ربنا وأدخلهم جنات عدن إلى قوله إنك أنت العزيز الحكيم وفي النور ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم فإن بادئ الرأي يقتضي تواب رحيم لأن الرحمة مناسبة للتوبة لكن عبر به إشارة إلى فائدة مشروعية اللعان وحكمته وهي الستر عن هذه الفاحشة العظيمة .

ومن خفي ذلك أيضا قوله في سورة البقرة هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم وفي آل عمران قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بالقدرة وفي آية آل عمران الختم بالعلم .

¹ - السيوطي - معترك الأقران في إعجاز القرآن - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط : 1408/1 هـ - 1988 م ص :

والجواب أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم وخلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله كليا وجزئيا مجملا ومفصلا ناسب ختمها بصفة العلم

وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالة الكفار وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ناسب ختمها بصفة القدرة . ومن ذلك قوله وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا فالختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء غير ظاهر في بادي الرأي .

وذكر في حكمته أنه لما كانت الأشياء كلها تسبح ولا عصيان في حقها وأنتم تعصون ختم به مراعاة للمقدر في الآية وهو العصيان ، وقيل التقدير حليما عن تفريط المسبحين غفورا لذنوبهم وقيل حليما عن المخاطبين الذين لا يفقهون التسبيح بأهمالهم النظر في الآيات والعبر ليعرفوا حقه بالتأمل فيما أودع في مخلوقاته مما يوجب تنزيهه ¹.

3/ التصدير : وأما التصدير فهو أن تكون تلك اللفظة بعينها تقدمت في أول الآية وتسمى أيضا رد العجز على الصدر ، وقال ابن المعتز هو ثلاثة أقسام : الأول أن يوافق آخر الفاصلة آخر كلمة في الصدر نحو: " أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا "

والثاني أن يوافق أول كلمة منه نحو " وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب" الثالث أن يوافق بعض كلماته نحو: " ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون" ، " انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا " ، " فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا " ². وهذا اللون البياني وارد في فواصل أي الأسماء والصفات .

4/ التوشيح : ويسمى به لكون نفس الكلام يدل على آخره نزل المعنى منزلة الوشاح ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح ولهذا قيل فيه إن الفاصلة تعلم قبل ذكرها.

¹ - الإتيان في علوم القرآن : 269/2 - 270 . وينظر : البرهان في علوم القرآن : 89/1 - 93 .

² - ينظر : الإتيان في علوم القرآن : 269/2 - 270 .

وسماه ابن وكيع المطمع لأن صدره مطمع في عجزه كقوله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} فإن معنى اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة إذ المذكورون نوع من جنس العالمين .
وقوله: {أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} .

وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ، ويوجد بكثرة في فواصل الآي المختومة بالأسماء والصفات .

5/ الإيغال : وسمى به لأن المتكلم قد تجاوز المعنى الذي هو آخذ فيه وبلغ إلى زيادة على الحد يقال أوغل في الأرض الفلانية إذا بلغ منتهاها فهكذا المتكلم إذا تم معناه ثم تعداه بزيادة فيه فقد أوغل كقوله تعالى أفحك الجاهلية يبيغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون فإن الكلام تم بقوله: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا} ثم احتاج¹ إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى فلما أتى بها أفاد معنى زائدا.

وكقوله تعالى: {وَلَا تُسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} فإن المعنى قد تم بقوله: {وَلَا تُسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ} ثم أراد أن يعلم تمام الكلام بالفاصلة فقال: {إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} ومنه قوله تعالى: {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} فإن المعنى تم بقوله: {أَجْرًا} ثم زاد الفاصلة لمناسبة رعوس الآي فأوغل بها كما ترى حتى أتى بها تفيد معنى زائدا على معنى الكلام².

كما سنعالج في هذا الباب اختلاف الفواصل في آيات متماثلة:

وهو ما أسماه الزركشي: «اختلاف الفاصلتين في موضع، والمحدث عنه واحد»: قال : من بديع هذا النوع اختلاف الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد لنكتة لطيفة وذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: " وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

¹ . إذا أراد بالحاجة العوز والاضطرار فهذا كلام الله منزه عنه لأن كلامه غير سابق لعلمه فلا تعتريه الحاجة ، وإما الله قاصد لذا وذلك .

² . ينظر : البرهان في علوم القرآن : 94 .

[سورة إبراهيم، الآية 34]. ثم قال تعالى: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) [سورة النحل، الآية 18].

قال ابن المنير المالكي: «كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها، وأنا معطيها؛ فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلوماً، وكونك كفّاراً. ولي عند إعطائها وصفان، وهما أنني غفور رحيم؛ أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك برحمتي، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء».

وهذا حسن، كما قال الزركشي، ولكن السؤال محل البحث: لماذا خصت آية سورة النحل بوصف المنعم، وآية سورة إبراهيم بوصف المنعم عليه؟ قال الزركشي: «والجواب أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه؛ فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه. قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) [سورة إبراهيم، الآية 32 - 34].

وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى، وإثبات ألوهيته؛ وتحقيق صفاته؛ فناسب ذكر وصفه سبحانه فتأمل هذه التراكيب ما أرقاها في درجة البلاغة¹.

وعكس هذا اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف كقوله في سورة النور يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم إلى قوله كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (58) ثم قال وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم (59).

ولعل من أماط اللثام عن كثير من هذا الفن (باب اختلاف الفواصل في آيات متماثلة و اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف) هو ابن الزبير الغرناطي (المتوفى: 708هـ) في مصنفه: " ملاك التأويل القاطع بزوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل وستعرض لنكته ولطائفه في بابنا هذا في حينه .

¹ - ينظر : الزركشي - البرهان في علوم القرآن - ت: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه - ط : 1376 هـ - 1957 م - ص : 86/1 .

غير أنه لا الزركشي ولا السيوطي ولا ابن الزبير الغرناطي ولا غيرهم من علماء علوم القرآن علّوا كل فواصل الأسماء والصفات وبينوا مناسباتها لما قبلها وإنما اعتنى بذلك أهل التفسير البياني كالزمخشري - وهو سيد البيانين - ولم نعتمده في هذا الباب لعقيدته الاعتزالية في الأسماء والصفات ولأهل السنة في التفسير البياني ابن عطية في محرره الوجيز وإن لم يكن ندا للزمخشري ، وممن اعتنى بها : أبو السعود والألوسي وشيخ البيان ابن عاشور الذي غرف من بحار من سبقه فلا جرم عدنا إليهم كثيرا وإن لم نحل عليهم أحيانا .

بحث في فواصل الأسماء والصفات المصدرة بقوله : فإن الله / فاتك / فإنه / فإني

لقد تتبعنا في كتاب الله العزيز آي الأسماء والصفات المقرونة بمن الشرطية التي تتصدر الفاء جوابها فوجدناها بعد التفتيش والتنقيب تتضمن الأمر أو النهي ووجدنا إن المقرونة في جوابها بالفاء تأتي بمعنى لأن ، فيجعل المعنى في أسمائه وصفاته علة للأمر أو النهي المستفاد من من جملة الشرط بعدها وهذه شواهد ذلك والله الفضل والمنة والله أعلى وأعلم .

البقرة :

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) فالأمر المضمن فيها لا تكونوا كفارا بالله أعداء له ولملائكته ورسله وجبريل وميكال لأن الله عدو لمن عاداه .
 إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمُرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158) الأمر المضمن فيها : افعلوا الخيرات كلها من فرائض ونوافل أو نوافل فقط فليس المقصود من {خَيْرًا} خصوص السعي لأن خيرا نكرة في سياق الشرط فهي عامة ولهذا عطفت الجملة بالواو دون الفاء لئلا يكون الخير قاصرا على الطواف بين الصفا والمروة لأن الله يشكر قليلها ويعلم نقيرها وقطميرها وخالصها وشركها .

" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) ففي طيها : اسألوني دون وسائط لأنني قريب وأجيب دعاءكم .

" وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ تَقَاتِلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) " فَإِنْ انْتَهَوْا عَنْ قِتَالِكُمْ وَوَحَدُوا رَبَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لَشُرْكَكُمْ رَحِيمٌ بِهِمْ فِي

الإسلام ففي طيها أمر لهم بالانتهاء عن الكفر وقتال المسلمين وأمر لهم بالتوحيد لأن الله غفور لشركهم رحيم يقبل توحيدهم .

" سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211)" فلا تبدلوا نعم الله كفرانا وخافوا عقوبته لأن الله شديد العقاب .

" يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215) " فأنفقوا لأنه عليم بنفقتكم يحصيها لكم .

" لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226) " أي عودوا لنسائكم لأن الله غفور لهذه اليمين رحيم بكم إذ جعل الله - عَزَّ وَجَلَّ - الكفارة فيها لأنه لم يكن أنزل الكفارة في المائدة .

" وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227) " يعني : فَإِنْ حَقَّقْتُمْ «الطلاق» يعني أنفدوا في السراح لأنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لَتَطْلِيكُمْ عَلِيمٌ بما في صدوركم .

" وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (270) " فأنفقوا وانذروا نذر حق لأن الله يعلمه ويحصيه .

" لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) " لا يخفى الأمر فيها بالإنفاق لأن العليم لا يضيع أجر المحسنين .

آل عمران :

" إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) " فلا تكفروا بآياته لأنه سريع الحساب فخافوه .

" قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32) " : لا تتولوا بعد الإسلام كفارا لأن الله لا يحب الكافرين .

" فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63) " فلا تتولوا لأنه يعلم إفسادكم بتوليكم ، فاحذروا لعلمه بكم .

" بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) " : فاتقوه ليحبكم

" إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89) " : فتوبوا من كفركم لأن الله يغفره وأصلحوا بإسلامكم وفي إسلامكم لأن الله رحيم بالؤمنين .

" لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92) " لا يخفى فيها الأمر بالإنفاق مما نحب لتعليقه بعلمه به .

" فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) " لا تكفروا بنعم الله وشعائره لأنكم الفقراء إليه وهو غني عن عبادتكم فلا تضروه بكفركم ولكن تنفعكم عبادتكم أياه .

النساء :

" وَبَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127) : أي آتوا النساء ما كتب لهن وقوموا لليتامى بالقسط وافعلوا أي خير كان لأن الله يعلمه ويثيبكم عليه .

" وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) فأصلحوا وأحسنوا واتقوا لأنه بما تعملون خبير .

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129) فاعدلوا وأصلحوا واتقوا ولا تميلوا كل الميل لأنه يغفر بعض ميلكم ويرحم ضعفكم . ولذلك لما لم تحمل الآية بعدهما : " وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130) " أمرا أو نهيا لم يصدر فاصلة اسميه : " وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا " بقوله : " فَإِنَّ " التي بمعنى " لأن " ، وجاء باسمين يشعران بالفسحة والإباحة .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135) تضمنت التحذير والنهي فهي في قوة : لا تتبعوا الهوى ولا تلوا ولا تعرضوا لأن الله كان أزلا ولا يزال أبدا بما تعملون خبيرا .

" إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا (149) الأمر المتضمن فيها : اعفوا عن سوء فعل بكم لأن الله أقدر على عفو ذنوبكم منكم على العفو عن بعضكم بعضا أو لأن الله يعفو عنكم مع قدرته عليكم .

المائدة :

" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3) ، ففي الآية أمر لهم أن خذوا بالرخصة اضطرارا في المخمصة غير متجانفين لإثم لأنه يغفر ذلك ويرحم ضعف عباده المؤمنين .

" فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39) : توبوا إلى الله وأصلحوا لأن الله يتوب عليكم .

" قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) : أي لا تكفروا بعد إنزال المائدة عليكم لأنني أعذب من كفر عذابا لا أعذب أحدا من العالمين .

" إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118): قال السمين الحلبي : " وهي في قراءة الناس ومصاحفهم « العزيز الحكيم » وفي مصحف ابن مسعود - وقرأ بها جماعة - : « الغفور الرحيم » ، وقد عبت بعض من لا يفهم كلام العرب بهذه الآية ، وقال : « إنما كان المناسب ما في مصحف ابن مسعود » وخفي عليه أن المعنى متعلق بالشرطين جميعاً ، وبوضوح هذا ما قاله أبو بكر بن الأنباري ، فإنه نقل هذه القراءة عن بعض الطاعنين ثم قال : « ومتى نُقِلَ ما قاله هذا الطاعن ضَعُفَ معناه ، فإنه ينفرد "الغفور الرحيم" بالشرط الثاني ولا يكون له بالشرط الأول تعلقٌ ، وهو على ما أنزل الله وعلى ما أجمع على قراءته المسلمون معروف بالشرطين كليهما : أولهما وآخرهما ، إذ تلخيصه : إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّكَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وإن تغفر لهم فأنت العزيز الحكيم في الأمرين كليهما من التعذيب والغفران ، فكأن « العزيز الحكيم » أليق بهذا المكان لعمومه وأنه يجمع الشرطين ، ولم يصلح " الغفور الرحيم " أن يحتل من العموم ما احتمله " العزيز الحكيم " قلت : " وكلامه فيه دقة ، وذلك أنه لا يريد

بقوله " إنه معروف بالشرطين إلى آخره " أنه جوابٌ لهما صناعةً ، لأنَّ ذلك فاسدٌ من حيث الصناعة العربية؛ فإنَّ الأول قد أخذ جوابه وهو « فإنهم عبادك » وهو جوابٌ مطابقٌ فإنَّ العبدَ قابل ليصرفه سيده كيف شاء ، وإنما يريد بذلك أنه متعلق بهما من جهة المعنى .¹

الأنعام :

" وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) المعنى توبوا بعد إساءتكم وأصلحوا لأنَّ الله غفورٌ يستر إساءتكم ومن ثمَّ يرحمكم .

الأنفال :

" ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) : ففي طيِّها لا تشاقوا الله ورسوله لأنَّ عقابه لكم إذا فعلتم شديد ففيها ما فيها من الترهيب .
" وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) إن انتهوا عن الشرك بأن وحدوا ربهم كفوا عن قتالهم فهو الذي أمركم بقتالهم أمركم بالانتهاء لأن الله بصير بما يعملون .

" إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49) : توكلوا على الله لأنه عزيز يكفيكم بقدرته وحكمته .

هود :

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) : الأمر فيها صريح لما سبق من أوامر وهي شاهدة للأمر في سورة يوسف ، أية : " قَالُوا أَلَيْكَ لَأَنَّتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) ففي طيِّها اتقوا واصبروا .

إبراهيم :

وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) : المعنى فلا تكفروا لأنكم لن تضروا بكفركم إلا أنفسكم لأنه غني لا يحتاج شكركم حميد في نفسه .

¹ - أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756هـ) - الدر المصون في

علوم الكتاب المكنون - ت : أحمد محمد الخراط - دار القلم، دمشق - 519/4 .

" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36)" وهذا تأدب في مقام الدعاء ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه. والمعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى. وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم - عليه السلام - وخشية من استئصال عصاة ذريته. فقد يكون المعنى تب على عصاة أمتي يا رب واغفر لهم لأنك غفور رحيم لمن تاب، والله أعلم.

أو يكون المعنى: فَمَنْ تَبِعَنِي عَلَى دِينِي فَإِنَّهُ مِنِّي عَلَى مِلَّتِي وَمَنْ عَصَانِي فَكُفْرٌ فَتَبَّ عَلَيْهِ وَاهْدِهِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَاغْفِرْ لَهُ لِأَنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

النحل :

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) : القول فيها كالقول في آية المائدة : حرمت عليكم الميتة... (3)

الإسراء :

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) : المعنى : فكونوا صالحين أوابين لأنه كان ويكون لمن كان كذلك غفورا.

النور :

" وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) فتوبوا لأنه يغفر ما أذنبتم وأصلحوا يرحمكم .

" وَلِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْزِبَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) : قال ابن عاشور : هذا صريح في أنه حكم متعلق بالمستقبل لأنه مضارع في حيز الشرط، وهو صريح في أنه عفو عن إكراه.

والذي يشتمل عليه هذا الخبر جانبان: جانب المكرهين وجانب المكرهات بفتح الراء، فأما جانب المكرهين فلا يخطر بالبال أن الله غفور رحيم لهم بعد أن نهاهم عن الإكراه إذ ليس لمثل هذا التبشير نظير في القرآن.

وأما الإماء المكروهات فإن الله غفور رحيم لهن. وقد قرأ بهذا المقدر عبد الله بن مسعود وابن عباس فيما يروى عنهما وعن الحسن أنه كان يقول غفور رحيم لهن والله. وجعلوا فائدة هذا الخبر أن الله عذر المكروهات لأجل الإكراه، وأنه من قبيل قوله: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. وعلى هذا فهو تعريض بالوعيد للذين يكرهون الإماء على البغاء.

ومن المفسرين من قدر المحذوف ضمير من الشرطية، أي غفور رحيم له، وتأولوا ذلك بأنه بعد أن يقلع ويتوب وهو تأويل بعيد.

وقوله: {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} دليل جواب الشرط إذ حذف الجواب إيجازاً واستغنى عن ذكره بذكر علته التي تشمله وغيره. والتقدير: فلا إثم عليهن فإن الله غفور رحيم لأمثالهن ممن أكره على فعل جريمة، والفاء رابطة الجواب، وحرف إن في هذا المقام يفيد التعليل ويغني غناء لام التعلل.¹

النمل :

" وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) : فأحسنوا بعد ظلمكم لأنني أغفر الظلم وأستره بعد الإحسان وأرحم المحسنين .

لقمان :

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) أي اشكروا نفعا لأنفسكم ولا تكفروا جنانية عليها لأن الله غني حميد لا ينفعه شكركم ولا يضره كفركم .

فاطر :

" وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45) التقدير: فإذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيرا، أي عليما في حالي التأخير ومجيء الأجل، ولهذا فقوله: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} دليل جواب "إذا" وليس هو جوابها، ولذلك كان حقيقا بقرنه بفاء التسبب ففيها نهي عن الإفساد في الأرض بالمعاصي والذنوب وأمر بالإصلاح فيها بالامتثال والطاعة .

¹ - التحرير والتتوير : 182/18 .

الزمر :

" إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7) هذه الآية بينت تمام البيان النهي عن الكفر وعلته والأمر بالشكر وعلته .

الحديد :

" الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) : أي لا تبخلوا ولا تدبروا معرضين عن عظة الله فإن الله هو الغني عن مالكم ونفقتكم، وعن غيركم من سائر خلقه، الحميد إلى خلقه بما أنعم به عليهم من نعمه.

الممتحنة :

" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) : قال ابن عاشور : هذا تحذير من العود لما نهوا عنه ، ففعل {يتول} مضارع تولّى، فيجوز أن يكون ماضيه بمعنى إعراض، أي من لا يرجو الله واليوم الآخر ويعرض عن نهى الله فإن الله غني عن امتثاله. ويجوز عندي أن يكون ماضيه من التولي بمعنى اتخاذ الولي، أي من يتخذ عدو الله أولياء فإن الله غني عن ولايته كما في قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} في سورة العقود[51].

وضمير الفصل في قوله: {هُوَ الْغَنِيُّ} توكيد للحصر الذي أفاده تعريف الجزأين، وهو حصر ادعائي لعدم الاعتداد بغنى غيره ولا بحمده، أي هو الغني عن المتولين لأن النهي عما نهوا عنه إنما لفائدتهم لا يفيد الله شيئاً فهو الغني عن كل شيء.

وإتباع {الغني} بوصف {الحميد} تتميم، أي الحميد لمن يمتثل أمره ولا يعرض عنه أو الحميد لمن لا يتخذ عدوه ولياً على نحو قوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: 7].¹

المجادلة :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) : فيها أمر بأخذ رخصة مناجاة الرسول دون تقديم الصدقة بين يدي المناجاة لأن الله يغفر ويرحم .

¹ - التحرير والتنوير : 133/28 .

الحشر :

" ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4) : فلا تشاقوا الله ورسوله لئلا يلحقكم العقاب .

التغابن :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) : أي اصفوا واصفحوا واغفروا لأن الله يحب ذلك منكم لأن الله غفور رحيم، أي للذين يغفرون ويرحمون، وجمع وصف رحيم الخصال الثلاث.

التحريم :

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) أي : لا تظاهرا عليه لأن الله يتولاه وينصره .

وقبل ولوج هذا الباب حري بنا أن ننبه على أن تكلف الفاصلة وتمحل محظورات عقدية لأجلها لا يستقيم مع إعجاز القرآن ، ومع أوضح وجه من وجوه إعجازه ، وهو النظم .
فهذا النظم لكي يكون معجزا ينبغي أن يعلو عن حكم الضرورات ، التي تتحكم في أعال البشر مهما كمل بيانهم لأنها الحاجة والنقص البشريين ، فتعالى كلام من له الكمال عن جهالة تسبق الفكر والمقال تكدح في نسج كلم على المنوال ، ففواصل كلامه تقدست عن التعسف وله الخلق والأمر فيه ومنه تترصف ، فلا يظن أن يحلّ الخبير محلّ العليم لأجل " رائه" ليلائتم ما قدمه من نضرائه أو يمهد لما يأتي من ورائه ، بل الخبير أحاط بكل شيء علما يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فواصله مرادة مقصودة موصوفة بالحكمة التي لا تفارق أفعاله والتي في انعدامها نقصان كماله واضطراره وافتقاره ، ولا يردّ هذا بورود اسميه : " عليك ومقتدر " فقط في سورة القمر عوضا عن الملك والقدير في قوله تعالى : " وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَحَدًا عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42) وما يقابلها في جزاء المتقين : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55) لنتمة إيقاع الفواصل المنتظر ، ففي اختلاف معنيها اللّازم عن اختلاف وزنيهما عن مثل هذا القول مزدجر .

فمن وفق لمعفة كونه عزيزا حكيما قدّوسا سلاما تيّقن خطأ من انتظر من كلام الله في بعض
فواصل آيه غير ما جاء فيها فراح يعلّل بطلب الفواصل ما وافق الفواصل ، وكذا خطأ من
صنع العكس فارتقب ما يوافقها فقال العليم الحكيم اللطيف الخبير ما يخالفها .

الفصل الأول :

حِكم المنان في إفراد الأسماء والصفات في تعقيب الآيات

تمهيد :

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويبغض البؤس والتبؤس » .

وقال : « إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها »

وقال : « إن الله تعالى جواد يحب الجود ويحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها ».¹

وهو لا شك أهل الجلال والإكرام قال تعالى : " تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام " قال الطبري رحمه الله: (ذِي الْجَلَالِ) : يعني ذي العظمة، (وَالْإِكْرَامِ) يعني: ومن له الإكرام من جميع خلقه.

كما حدثني عليّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس قوله: (ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) يقول: ذو العظمة والكبرياء². وقال السمعاني في تفسيره: قَوْلُهُ تَعَالَى: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} وقرئ: " ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ " مَعْنَاهُ: ذُو الْعِظْمَةِ وَالْمَهَابَةِ. وَيُقَالُ: ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أَي: يَجْلُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَكْرِمُهُمْ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى؛ لِأَنَّهُ يَنْصَرَفُ إِلَى عِظْمَةِ اللَّهِ وَعَلُو شَأْنِهِ.³

وقال عز وجلّ : " ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " ⁴... وهل تتم حقيقة التوحيد في قلبه إلا بأن يدعو إلى حق الله الأعظم، ألا وهو إفراده - جل وعلا - بالعبادة وبما يستحقه - سبحانه وتعالى - من نعوت الجلال، وأوصاف الجمال!؟! .

" ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه. وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه، تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

¹ الألباني أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين - صحيح الجامع الصغير - المكتب الإسلامي - د.ت. ص : [359/1]

² الطبري أبو جعفر محمد بن جرير - جامع البيان في تأويل القرآن - ت : أحمد محمد شاكر : مؤسسة الرسالة - ط : 1 / 1420 هـ - 2000 م - ص : [86/23] .

³ السمعاني أبو المظفر منصور بن محمد - تفسير القرآن ، ت : ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم - دار الوطن، الرياض - السعودية ، ط : 1 / 1418 هـ - 1997 م ، ص : [339/5] .

⁴ قرئ فيها ب " ذي " مكان " ذو "

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية. فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها " 1
وعليه قسّمنا الأسماء والصفات بحسب معانيها إلى :

1 - أسماء وصفات دالة على معاني الألوهية : الله - أحد - واحد - الإله - الحق

2 - أسماء وصفات دالة على معاني الربوبية : الربّ / الأول / الآخر / الظاهر / الباطن / البارئ / البصير / الحافظ / الحسيب / الحفي / الحكيم / الحيّ / الخبير / الخالق والخالق / الرزاق / الرقيب / السميع / العالم والعلّم والعليم / الفتاح / المؤمن / المجيب / المحيط / المصوّر / الوارث / الوكيل / الواسع / الملك / القريب / الوهّاب / المقيت / المهيمن

3 - أسماء وصفات دالة على معاني الجلال : القيّوم / الأعلى / الجبّار / السلام / الصمد / العزيز / العليّ / العظيم / الغنيّ / القادر والقدير والمقتدر / القاهر والقهار / القدوس / القويّ / الكبير / المتكبر / المتين / المجيد

4 - أسماء وصفات دالة على معاني الجمال : الرحمن / الرحيم / البرّ / التوّاب / الحلیم / الحميد / الرؤوف / الشاكر والشكور / العفوّ / الغفور والغفّار / اللطيف / الكريم / المولى / النصير / الوليّ / الودود / الهادي / النور

1 - ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر - مفتاح دار السعادة ومنتشور ولاية العلم والإرادة . طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان - د ت ، ص : [90/2]

المبحث الأول : انفراد الأسماء والصفات الدالة على معاني الألوهية

المطلب الأول : اسمه الأعظم العلم الله / إله

لهذا الاسم خصائص كثيرة وفي انفراده واقتترانه نكت ولطائف غزيرة بعِيّ الإنس والجنّ عن إحصائها جديرة :

يقوم مقامَ جملةِ أسماءِ الحقّ - تعالى - وصفاته فجملة الأسماءِ فى المعنى راجعة إليه لذلك يُلجأ إليه ويستعاذ به لدفع عدوان العدو المبين الذي لا منجى منه إلا إلى الله وهذه نكتة الاستعاذة " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " فكل صفة شرّ يحاول أذيتك بها الشيطان يدفعها عنك بما يقهرها من صفات الكمال والجمال وأفعال العظمة والجلال المتكبر المتعال ولا يردّ هذا باستعاذة الصديقة بالرحمن " قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا " [مريم : 18] لأنه عَلم لا يطلق كالله على غير المَنان فهما في اشتمال الأسماء والصفات سِيان { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الإسراء:110] .

وهذه الاستعاذة دلّ عليها القرآن شرعة قبل تلاوته طهارة للنفس من وساوسه مشاكلة لطهارة الأبدان ومخافة طائف يمس من الشيطان في سائر الأماكن والأزمان : " فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " [النحل : 98] ، " وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ (202) " الأعراف الآيات .

ولا بد لأجل ما تضمنه لفظ الجلالة الابتداء به فى جميع الأمور بمثل قولك: " بسم الله " وألوا الفهم يستحضرون - ما استطاعوا بمنه وكرمه عند البسمة - ما تضمنه من معاني الألوهية والعبودية وماحوت من معاني الربوبية والجمال والجلال فتأتي معاني أسماء الله وصفاته على قلب المبسمل تنترى فيكون معنى " بسم الله " أستعين في فعلي هذا بكل أسماء الله فإضافة اسم إلى الله إضافة عموم .

ثم استفتاح الكتاب به مسبقا بلفظ الحمد المقترن بأل الاستغراق يؤيد تضمّنه لكل الأسماء والصفات اللازمة كالكبير والعليّ والمتعدية كالغفور والشكور والتواب والرزاق لأن الحمد على

الصحيح هو ذكر محاسن المحمود مع المحبة والتعظيم والإجلال ولا شك عند إنعام التأمل أن أيّ حمد لأيّ محمود راجع إلى أسماء الله وصفاته وهي راجعة إلى ذاته واسمه الدال على ذاته - الذي فيه معنى الألوهية التي يستحق لأجلها من خلقه صفات العبودية والحمد واقع من العباد لأجل الإله - هو " الله " فالحمد لله أولاً {وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ} .

ولا شئ من الأسماء يتكرر في القرآن المجيد وفي جميع الكتب تكررّه. أمّا في نصّ القرآن فمذكور في ألفين وخمسمائة وبضع وستين موضعاً. وأكثر الأسماء. والصفات، والأفعال الإلهية، وأحوال الخلق مرتبطة به.

وإذا أتى في أي القرآن مقترنا ببعض الصفات إخباراً أو وصفاً له أو غير ذلك من الوظائف التي يعرب عنها النحاة فيراد به الذات دون إشارة إلى جميع ماتحتها من صفات اللطيفة إبراز ما أخبر به عنه أو وُصف به نحو : وكان الله غفورا رحيمًا ، والله عزيز حكيم وغيرها ، أمّا إذا أتى منفرداً عن الأسماء والصفات فإمّا يقترن بالأفعال التي تشتق منها الأسماء الحسنى والصفات العلى وإما بأفعال يخبر عنه بها وبالوصف منها بقرائنها لأنها ليست حسنى عند إطلاقها دون قيود ذلك لأن باب الإخبار أوسع من باب التسمية والوصف المطلقان .

فقد اقترن به في القرآن الكريم مئات من الأفعال والصفات بعضها في صفات الربوبية، وبعضها في خصال العبودية، وبعضها قهر أهل الضلال، وبعضها ملاطفة أهل الكمال، وبعضها تفصيل الأحوال المنسوبة إلى حضرة الجلال، لا جرم وفيه فصل كل حال ومقال .

وأعظم ما ذكر لأجله لفظ الجلالة هو تعليق توحيد الحقّ - تعالى - به في قول لا إله إلا الله شاهدا بنفسه مشهدا أعلم خلقه في أوكد أسلوب معلقاً به وصف الخلق الذي لولاه ما وجد شيء سواه ولا أصطفي أنبياء للرسالة ولا تعجبت العرب أيّما عجاب من معبود واحد في السموات والأرض ولفست السموات والأرض من معبود ثان ، وهو قوله في أي من الفرقان : {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18 " الله لا إله إلا هو " [البقرة 255] " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ " الذاريات : الآيات ، " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ " النحل : (36) " وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ "

[ص: 4 - 5] [وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } الْأَنْعَامُ 3 ، " أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (23) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) [الأنبياء : الآيات .] ومن تدبر هذه الآي علم أن لفظ " الله " هو اسم الإله الذي لا إله إلا هو المعبود بحق الواحد القهار المستوي على عرشه البائن من خلقه ولا ينقض هذا قوله عز وجل : {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} {ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون} فأهل السنة قاطبة جعلوا هذا قرب علم لا قرب ذات ولا بقوله تعالى : " وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) فَهُوَ بِاتِّفَاقِ الْمُفَسِّرِينَ بِمَعْنَى مَأْلُوهِ أَي مَعْبُودٍ فَإِنَّهُ مَعْبُودٌ فِيهِمَا وَكَذَلِكَ { وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } فَإِنَّ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ مُتَعَلِّقٌ بِاللَّهِ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى مَأْلُوهِ أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِمَا بَعْدَهُ وَلَوْلَا ذَلِكَ لِلزَّمِّ عَلَيْهِ الظَّرْفِيَّةُ تَعَالَى اللهُ عَنْهَا .

قال صاحب أقاويل الثقة في تأويل الأسماء والصفات : " وَعِنْدِي مَعْنَى آخِرٍ لَمْ أَرِ مِنْ قَالِهِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَعْنَى هُوَ الْمُسَمَّى فِيهِمَا بِهِذَا الْإِسْمِ فَهُوَ كَمَا أَنَّهُ هُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ اللهُ فِي الْأَرْضِ كَقَوْلِكَ مُوسَى أَخُو هَارُونَ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا وَالْكَعْبَةِ هِيَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكَقَوْلِهِمْ فَلَانَ أَمِيرٍ فِي خُرَّاسَانَ وَأَمِيرٍ فِي بَلْخِ وَسَمَرْقَنْدٍ وَهُوَ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي اللُّغَةِ ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ إِنَّهُ تَعَالَى فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَا إِنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُتَّصِلًا بِهِ وَلَا مُنْفَصِلًا عَنْهُ . " ¹ قال تعالى : " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ " القصص (38) . حتى فرعون يعلم أن الإله لا يكون إلا واحدا عليا قهّارا فنفاها عن الواحد الجبار وادعاها كبيرا واستعلاء لنفسه لا تيقنا وإقرارا ، حكم بهذا الحكيم العليم : " الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا

¹ - مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (المتوفى: 1033هـ) - أقاويل الثقات في تأويل الأسماء

والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات - ت : شعيب الأرنؤوط

مؤسسة الرسالة - بيروت - ط : 1 / 1406 : 152 - 153 .

لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) "غافر. أما قوله : " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا... " فمقصود القرآن توحيد الإلهية، وهو مستلزم لتوحيد الربوبية والخلق والرزق من غير عكس لأن آلهة جمع إله بمعنى مألوه أي معبود كما مرّ بيانه وهذا مثل فراش وبساط بمعنى مفروش ومبسوط وجمعها أفرشة وأبسطة ، وذلك لأنه هو الإله المعبود الحق الذي كل ما سواه مفتقر إليه من جهة أنه ربّه ليس له شيء إلا منه ومن جهة أنه إله لا منتهى لإرادته دونه فلو لم يكن هو المعبود لفسد العالم إذ لو كانت الإرادات ليس لها مراد لذاته والمراد إما لنفسه وإما لغيره والمراد لغيره لا بد أن يكون ذلك الغير مرادا حتى ينتهي الأمر إلى مراد لنفسه الواجب إثبات الأمرين: أنه سبحانه رب كل شيء وإله كل شيء فإذا كانت الحركات الإرادية لا تقوم إلا بمراد لذاته وبدون ذلك يفسد ولا يجوز أن يكون مرادا لذاته إلا الله كما لا يكون موجودا بذاته إلا الله علم أنه {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} (22) وهذه الآية فيها بيان أنه لا إله إلا الله وأنه لو كان فيهما آلهة غيره لفسدتا وتلك الآية قال فيها: { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَنَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) } [المؤمنون : الآيات] ووجه بيان لزوم الفساد أنه إذا قدر مدبران يمتنع أن يكونا غير متكافئين لكون المقهور مريوبا لا ربا وإذا كانا متكافئين امتنع التدبير منهما لا على سبيل الاتفاق ولا على سبيل الاختلاف فيفسد العالم بعدم التدبير لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك وهذا من جهة امتناع الربوبية لاثنين ويلزم من امتناعها امتناع الإلهية فإن ما لايفعل شيئا لا يصلح أن يكون ربا يعبد ولم يأمر الله أن يعبد ولهذا بين الله امتناع الإلهية لغيره تارة ببيان أنه ليس بخالق وتارة أنه لم يأمر بذلك لنا كقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ انْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأحقاف : 04] وذلك لأن عبادة ما سوى الله تعالى قد يقال إن الله أذن فيه لما فيه من المنفعة فبين سبحانه أنه لم يشرعه كما قال تعالى: {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: من الآية 45]

ففي آية : {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} بيان امتناع الألوهية من جهة الفساد الناشء عن عبادة ما سوى الله تعالى لأنه لا صلاح للخلق إلا بالمعبود المراد لذاته من جهة غاية

أفعالهم ونهاية حركاتهم وما سوى اللها يصلح فلو كان فيهما معبود غيره لفسدنا من هذه الجهة فإنه سبحانه هوالمعبود المحبوب لذاته كما أنه هو الرب خالق بمشيئته وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل ولهذا قال الله في فاتحة الكتاب إياك نعبد وإياك نستعين وقدم اسم الله على اسم الرب في أولها حيث قال الحمد لله رب العالمين فالمعبود هو المقصود المطلوب المحبوب لذاته وهو الغاية والمعين وهو البارئ المبدع الخالق ومنه ابتداء كل شيء والغايات تحصل بالبدايات والبدايات بطلب الغايات فالإلهية هي الغاية وبها تتعلق حكمته وهو الذي يستحق لذاته أن يعبد ويحب ويحمد ويمجد وهو سبحانه يحمد نفسه ويثني على نفسه ويمجد نفسه ولا أحد أحق بذلك منه حامدا ومحمودا .

فلعمر الله {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصُّ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران : 62] .

المبحث الثاني : انفراد الأسماء والصفات الدالة على معاني الربوبية

المطلب الأول : الربّ

ورد اسم " الربّ " في القرآن الكريم : إثنان وأربعون وثمانية مئة مرة ومن معانيه التي نعتقدها جمعا من كتب أهل العلم : الأول والآخر والظاهر والباطن والباري والبصير والحافظ والحسيب والحفيّ والحكيم والحَيّ الخبير والخالق والخالق والرزاق والرقيب والسميع والعالم والعلّام والعليم والفتاح والمؤمن والمهيمن والمجيب والمحيط والمصوّر والوارث والوكيل والواسع والملك والقريب والوهّاب وإن كان بعض صفات الجلال ليست بعيدة من معاني الرب كالصمد والجبار والعلي والقهار وكذا صفات الجمال كالرحيم والرؤوف ولا أدل على هذا من كثرة وروده بعد لفظ الجلالة " الله " وكثيرا ما يذكر إلزاما لمن أقرّ به وأشرك بالله ويذكر كثيرا ويردّف بأفعال الربوبية من خلق ورزق وتدبير فيراد به حينها ذات الرحمن من جهة ربوبيتها ، فهو ولفظ الجلالة إذا اجتمعا لا شكّ يفترقان وكثيرا ما يراد بأحدهما الآخر إذا افترقا والظابط في ذلك ما اقترن بهما من أفعال الألوهية أو الربوبية ، وفي إقترانه بصفات الألوهية والربوبية والجلال والجمال نكت جمّة نذكرها في حينها.

المطلب الثاني : الملك / المالك / المليك

" مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) " الفاتحة .. " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) " آل عمران . " مَلِكِ النَّاسِ (2) " الناس .

قوله تعالى: "ملك يوم الدين " في الفاتحة وفي قراءة عاصم والكسائي "مالك يوم الدين " وفي سورة آل عمران: "قل اللهم مالك الملك " ولم يقرأ بغيره، وفي سورة الناس "ملك الناس " ولم يقرأ أيضاً بغيره.

ومدار الآيات الثلاث على تعريف العباد بأنه سبحانه الملك المالك ثم ورد فيها من الاختلاف ما ذكر.

فللسائل أن يسأل فيقول: ما وجه هذا الاختلاف؟

وهل اختصاص آية أم القرآن بالقراءتين لموجب يخصها مع اتحاد المقصود في الآيات الثلاث من أنه سبحانه المنفرد بملك الكل وإيجادهم وأنه الملك المالك؟ أم ذلك لاختلاف المقاصد؟ والجواب: إن الآيات الثلاث حاصل منها ما ذكر أنه مقصود من أنه سبحانه ملك مالك أما آية الفاتحة فبإفصاح القراءتين، وأما آية آل عمران فلفظ الملك المضاف إليه مالك في قوله تعالى: "مالك الملك " يفهم أنه الملك لأن الملك من له الملك فأفهم لفظ الملك المضاف إليه مالك أنه ملك فحصل الاكتفاء بهذا وأفهمت الآية الأمرين.

وأما آية الناس فقوله تعالى: "برب الناس " مغن عن الإفصاح بمالك الناس لأن الرب المالك فكأن قد قيل: قل أعوذ بمالك الناس ملك الناس فاقتضى الإيجاز الاتصال ووحدة الكلام من حيث المعنى ، أما آية الفاتحة فقوله فيها: "ملك يوم الدين " آية انفردت عما قبلها بالتعريف بما لم تعرف به الآية التي قبلها من التنصيص على أنه ملك يوم الحساب فمصرف الكلامين في الآيتين إلى مقصودين وذلك أن قوله تعالى: "الحمد لله رب العالمين " كلام مصرفه بحسب التفصيل الوارد هنا إلى حال الدنيا مع انسحاب معناه على الدارين ولكن ورد الكلام مفصلاً فقال: "الحمد لله رب العالمين " فمصرف هذا بسبقية المفهوم وتقيد ما بعده وما يقتضيه التناظر والتقابل إلى حال الدنيا ثم قال: "ملك يوم الدين " فمصرف هذا إلى الآخرة فهذا في التفصيل كقوله تعالى: "له الحمد في الأولى والآخرة " فلم يكن ما مصرفه إلى حال الدنيا ليقع به

الاستغناء عما مصرفه إلى حال الآخرة فلم يكن بد من الإفصاح بالصفتين فورد ذلك في القراءتين بخلاف ما في آية آل عمران وآية الناس فإن الآيتين من حيث الاتصال في المعنى في قوة آية واحده والكلام فيهما مطلق غير مقيد فيتناول بحسب إطلاقه الحكم في الدارين مع أنه كلام واحد.

فإن قلت: إذا كان قوله "ملك يوم الدين" بحسب المصرف كما تقدم آية انفردت وأين مقصدها الآية قبلها على ما تمهد فقد صارت آيتا أم القرآن بحسب مصرف كل آية منهما كآية آل عمران وآية الناس فيحتاج في كل واحدة منهما على ما تمهد إلى ما يفهم أنه سبحانه ملك مالك وقد حصل ذلك من الآيات الثلاث فما المفهوم لذلك من قوله تعالى: "رب العالمين" فالجواب أنه مفهوم من عموم قوله تعالى: "رب العالمين" إذ لم يقع مثل هذا العموم والاستيفاء من هذه الآي في غير هذه فإن لفظ العالمين يشمل كل مخلوق وإذا كان رب الكل ومالكهم فإن جميعهم تحت قهره وملكه فلا ملك لغيره سبحانه.

فقد حصل من كل واحدة من هذه الآي الأربع أنه سبحانه الملك المالك وتبين أنه لا يلائم الآية من أم القرآن إلا ما ورد فيها من القراءتين وأن الآيات الأخر لو قرئت بالوجهين لكان تكرارا فورد كل على ما يجب ولا يناسب خلافه والله أعلم.¹

والذي من الله به عند النظر في الآيات التي ورد فيها اسمه الملك أو المالك أو المليك أو ذكر بأن له الملك ، ففي الجملة يذكر تسليية لعباده المؤمنين الذين قهروا لأنهم آمنوا بأن الملك لله وحده ينصرهم بقدرته ويرزقهم بوسع علمه وفضله ويذكر قبل هذه الآيات أن لا حظ للكفرة المكذبين في نعيمه وملكه يوم ظهور وتيقن صاحب الملك الحقّ وقد قرن الملك بالحق في موضعين وكثيرا ما يقرن بذكر القدير صراحة أو بأفعال تدل على عظيم قدرته ويحث الله على دعائه بالرحمة وزيادة العلم وهذا أوان ذكر الآي وبيان ما قلناه والله أعلم .

أما قوله تعالى : " مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) " [الفاتحة] في هذا الاسم في هذه السورة إشارة إلى إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وفي ضمن هذا إشارة إلى قدرته وقهره فيومها يقول البارئ تعالى : " لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " ، وهنا أضيف " ملك " إلى يوم الدين فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب

¹ - ابن الزبير الغرناطي - ملك التأويل : 21/1 .

أحدا قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه، وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

أما قوله : " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) " [آل عمران] فقد سبقت الآية بآيات يذكر فيها أهل الصبر والإيمان الذين يؤمنون بأن الملك لله وحده ويسألونه : " رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ (9) وتمتع أهل الكفر بملك الأموال والأولاد " قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ بَلْ يَرَوْنَ كَثْرَةً فِي أَمْوَالِهِمْ فَأُولَئِكَ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12) ثم ذكر ما زين للناس امتلاكه مؤمنهم وكافرهم ثم نبأهم بملك ونعيم مقيم ثم ذكر شنيع عمل من يكفر بيوم الدين ثم ذكر يوم تيقن كون الملك له وحده وذكر قدرته على نصره عباده المؤمنين ورزقهم : " فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) وهنا أتى بأبلغ وصف في الملك " مالك الملك " ثم تلى بذكر مطلق مشيئته في خلقه وتمليكه إياهم وإعزازهم أو حرمانهم بعدله من الملك والعزة ثم صرح كما أشرنا بصفة دالة على ملكه الحق المطلق : " إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ثُمَّ لَمْ يَلَمْكَ لَيْلٌ بِمَا نَزَلْنَا فِي الْغَيْثِ وَتَرَىٰ الْجِبَالَ كَاسِيًا وَالرِّجَالَ سَطْوًا بِإِذْنِ رَبِّكَ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (27) .

أما قوله : " فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) " [طه] لما كان الملك الحق لله وحده لا يخفى على أحد يوم الدين إذا وصف الله بالملك الحق ذكر بعد ذكر الآخرة والجزاء والثواب حتى أنه أقحم " يوم الدين " طرفا بين مبتدأ موصوف وصفته في قوله : الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ¹ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا " [الفرقان : 26] ، ثم لما وصف الملك بالحق نبه المؤمنين من بعده بدعائه بالرحمة والعلم لأنه هو الملك فحقيق أن يجيب أوليائه أما في سؤاله الرحمة والعلم فلأنهما أعظم مسؤولين وصدّر وصفه بالملك الحق بقوله " تعالى " أي ترفع وتنزّه عن عبث ملوك الباطل من

¹ - ووصف الملك في هذه الآية بالحق مطية لجعل لفظة " الحق " في قوله : " فتعالى الله الملك الحق " في طه والمؤمنون وصفا " للملك " والملك خبر لمبتدأ محذوف تقديره : " هو " يعود إلى الله ، وإن كان النحاة يجعلانها صفتين لله ، والله أعلم

ظلم وجور وإهمال لأهل الوعيد وإغفال لأهل الوعد وهذه نكتة إقتران الملك بالحق لأنه من كان ملكاً حقاً لا يعبت بل يكون على صراط مستقيم وفي آية المؤمنين " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) " تصريح بعدم العبث ، وهذا بيان ما اقترن بآية " طه " قال تعالى: " يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) وَيَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا: 114 [طه]

أما آية : " فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) " [المؤمنين] فهذا ذكر ما اقترن بها والقول فيها قد مضى : " فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخَرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)

ويؤكد ما قلناه ما سبق آية القمر: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ (55) [القمر] أمّا نكتة ذكر الملك هنا ، فقد قال بعض أهل العلم أنّ الملك أبلغ من الملك والمالك لأن فعلا أبلغ من هذين أو أنها جاءت على فعيل الذي هو للزوم الصفة وثبوتها لأنّه باب الصفة المشبهة باسم الفاعل ويدلك على هذا أنّ الدار الآخرة الملك فيها لمن أطاع الملك لا غير فهو مقعد صدق حقا وعدلا وفضلا ولما كانت النعم الدائمة عليهم يومها لا بد لها من منعم في منتهى القدرة أتى بوصف المقتدر الذي يدل على أنّه لا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته لأنه من " اقتدر " الذي زيدت فيه التاء للدلالة على الاختيار ، فهذا الملك الذي هم عنده قادر على كل شيء مختار لأي شيء يريد ، وهذا أتمّ لنعيمهم الدائم الذي يؤتى به متشابها وليس بمتشابه .

أمّا آية سورة الناس : " مَلِكِ النَّاسِ (2) " فقد وسطها بين قوله : " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " (1) وقوله : " إِلَهِ النَّاسِ " (3) وكل هذا لأجل الاستعاذة : " مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6) .

فذكر ربوبيته للناس ، وملكه إياهم ، وإلهيته لهم ، وهذا يسميه البيانون التعديد وهو ذكر الصفات المتتالية للشيء الواحد ، ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان ، كما تقدم . ففي الآية الأولى : إضافة الربوبية المتضمنة لحقهم وتدبيرهم ، وتربيتهم ، وإصلاحهم ، وجلب مصالحهم ، وما يحتاجون إليه ، ودفع الشر عنهم ، وحفظهم مما يفسدهم . هذا معنى ربوبيته لهم . وذلك يتضمن قدرته التامة . ورحمته الواسعة ، وإحسانه ، وعلمه بتفاصيل أحوالهم ، وإجابة دعواتهم ، وكشف كرياتهم .

وفي الثانية: إضافة الملك: فهو ملكهم المتصرف فيهم: وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق: الذي إليه مفرعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم. فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به ويتدبيره فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

وفي الثالثة: إضافة الإلهية. فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم. فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكا في إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة. وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفرغ لنا في الشدائد سواه. ولا ملجأ لنا منه إلا إليه. ولا معبود لنا غيره. فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى، ولا يحب سواه، ولا يذلّ لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكّل إلا عليه، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه: إما أن يكون مربّبك والقيم بأمورك، ومتولي شأنك وهو ربك، فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقا، وكلهم عبيده ومماليكه، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك، وهو الإله الحق إله الناس الذي لا إله لهم سواه، فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيزوا بغيره، ولا يستتصروا بسواه ولا يلجئوا إلى غير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم، ومتولي أمورهم جميعا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكة وإلهه؟.

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة: من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة، وأشدّهم ضررا، وأبلغهم كيدا. ثم إنه سبحانه كرر الإسم الظاهر، ولم يوقع المضر موقعه. فيقول: رب الناس وملكهم وإلههم: تحقيقا لهذا المعنى، وتقوية له. فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة، وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب وآخر الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده واتخذة دون غيره إلهها. فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه. وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن المشرك ترك إلهه الحق واتخذ إلهها غيره باطلا، ووسّط صفة الملك بين الربوبية والإلهية لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره. فهو المطاع إذا أمر. وملكه لهم تابع لخلقه إياهم. فملكه من كمال ربوبيته. وكونه إلههم الحق من كمال ملكه. فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه

يستلزم إلهيته: يقتضيها، فهو الرب الحق، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه. واستعبدهم بإلهيته .

فتأمل هذه الجلالة، وهذه العظمة، التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبداع نظام، وأحسن سياق «رب الناس، ملك الناس، إله الناس»¹

أما آيتا: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) [الحشر] و: " يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) [الجمعة] ، فسنترك لضرورة المنهج التعليق عليهما إلى حين مباحث الاقتران .

وهذه آي القرآن التي ذكر فيها أن الملك لله وكيف اقترنت بالقدرة ظاهرة أو لطيفة : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) البقرة ، فالله هو المولى والنصير والنصر لا بد له قدرة وقوة على العدو .

" وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)" البقرة : في الواسع إشارة لطيفة إلى القدرة .

" وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189) " آل عمران

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18) المائدة

¹ - ينظر: ابن القيم - التفسير القيم - ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان - دار مكتبة الهلال - بيروت - ط: 1- 1410 هـ - ص: 661 .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (40) المائدة

" قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) " الأعراف : لا أدل على قدرته من الإحياء والإماتة .

" الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (2) " الفرقان .

" وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُلْزِمُ سَحَابًا نَمًّا يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (55) النور .

" الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَنَاتِ النَّعِيمِ (56) " الحج :
ومن ذا يحكم بين المجرمين والمؤمنين بغير قدرة .

" وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) " الزخرف ، ولا تخفى الإشارة إلى قدرته في طَيِّ الآيتين

" وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) " الجاثية ، ولا يجازي كل الأمم إلا الملك القدير .

" وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْرِضُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (14) " الفتح ، تمام المشيئة من تمام الملك والقدرة .

" يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) " ، فاطر : دل على نفسه فقال- جل وعز ذلكم الله ربكم له الملك فاعرفوا توحيدَه بصنعه وقدرته ثم عاب

الآلهة فقال: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ الْأَوْثَانُ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ، ما يملكون من قدرة على شيء فوحده الملك القدير .

" تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) " الملك

" وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) " البروج : أي مهيمن قادر على كل شيء .

المطلب الثالث : المحيط

هو اسم من أسماء الله تعالى، ورد في القرآن الكريم ثماني مرات غير مقترن باسم آخركونه جامعا متضمنا لمعان أخرى بلفظه كالعلم والقدرة والقوة والعلو والكبر والعظمة و الإرادة النافذة والهيمنة والسيطرة والبطش والجبروت والعزة والقهر والغلبة وكل صفات الجلال والريوية وجاء في معرض توعده الكافرين ست مرات بلفظ (محيط) بالرفع خبرا عن الله أو الرب مضافا أو ضميره مقرونا به المحاط به بالباء أو مطلقا عنه فيما يأتي: " أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) [البقرة] ، هنا قرن بالكافرين مجرورا بالباء وهو شامل لهم ولكفرهم الذي هو عملهم ، ولو قيل قدم على الجار والمجرور لفاصلة النون ، ماذا يقال في قوله : " إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120) [آل عمران] ، وفي هذه قرن محيط بما يعمل المشركين وهو كيدهم الذي ذكر قبلها بشرى للمؤمنين ووعيدا للمشركين وورد مؤخرا على ما اقترن به لأتم الدلالة على الإحاطة فقد حسر عمله وشرهم بلفظ الجلالة واسمه وخبره محيط وأكد جملتهما بإن . والقول سواء في قوله : " وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) [الأنفال] ، أما قوله : " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) [هود] ، فقد قال الله على لسان نبيه شعيب مخاطبا قومه لذلك أتى بأسلوب الخطاب إن ربي بما تعملون محيط مؤكدا بإن جاعلا اسمها ربي مضافا إليه لما في ذلك من نصرته وتدبير أمره وعدم خذلانه وفيه إنذار لهم ووعيد بأن لا رب لهم فقد اتخذه وراءهم ظهريا وكان قد دعاهم للتوبة : وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) فأعرضوا قالوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) فتوعدهم " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) ويا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) فتحقق فيهم إن ربي بما تعملون محيط : " وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (95) .

وفي قوله : " أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54) " [فصلت] ، جعل المحاط به كل شيء لآته ختم بها سورة فصلت التي اسمها ينبي عن تفصيل كل شيء وقد قال فيها : " كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) ثم ذكر تفصيله للخلق وفي التفصيل إحاطة : " قُلْ أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَفَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) ثم ذكر إعراض الأمم وتكذيبها وهذا تفصيل لكفر من صخره الخلق غيره ثم أشار إلى إحاطة علمه وملكه وقدرته : " إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا آذْنَاكَ مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48) ثم ذكر حال الإنسان مع ربه وختم بأفعال دالة على إحاطة شهوده على كل شيء وما ذاك إلا لإحاطة علمه وقدرته : " سَتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) فحسن بعد هذا الاستفتاح للسورة وهذا التفصيل ختمها بالوعيد لكل مكذب بيوم الدين بما يقابله من الإحاطة بالدنيا والآخرة الداخلتين تحت " كل شيء " فقال : " أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54) .

وفي قوله : " وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) " [البروج] ، أي وعذاب الله ونقمته، كقوله : عَذَابٌ يَوْمَ مُحِيطٍ " [هود : 84] وقوله : مِنْ وَرَائِهِمْ ، معناه : ما يأتي بعد كفرهم وعصيانهم في الدنيا وفي اليوم الموعود الذي أقسم به في مستهل السورة : " واليوم الموعود " وجعل الله أولاً والمحيط آخراً لأنهم حقا محاط بهم أولاً وآخر ، والله أعلم .

ومنها مرتان بلفظ (محيطاً) بالنصب، في سورة النساء :

" يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) " الملاحظ في سورة النساء أن أغلب ما ورد فيها من أسمائه تعالى جعل خبراً لكان ، ولعل اللطيف الخبير يمن علينا بسرها الخطير فيما يستقبل من تحبير

وجعل هنا المحيط خبرا لكان بمعنى أنه كان محيطا بما يعملون أزلا ولا يزال محيطا أبدا وهكذا كل وصف لم يزل له أزلا لا يزال له أبدا لأن صفاته تبع لذاته ولازم كونه الأول الذي ليس قبله شيء أن يكون الآخر الذي ليس بعد شيء والكلام في الصفات كالكلام في الذات أما نكتة تصدير الجملة بكان هنا ، هو ما سبقها من ذكر " كان " في الآيتين قبلها غير مراد بها الماضي الذي مضى وانتهى وحلّ محلّه خبر آخر : " وَاسْتَعْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) فهنا أمره بالاستغفار المستقبل ينقض كون مغفرة الله قد كانت ومضت وانتهت بل الشأن توكيدهما لأن من كان غفورا رحيمًا أزلا يبقى كذلك أبدا ، وأما قوله : " وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا (107) فقريئة " لا يحب " تبين أنه أريد بكان الدوام على الخيانة والإثم لا الاتصاف بهما في الماضي ثم التوبة منهما ، فالمراد من كان عند الله في علمه الأزلي خوانا أثيما يلقاه على ذلك . قال الإمام الطبري في سبب نزولهما وثالثة قبلهما " إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105) : حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله"، يقول: بما أنزل الله عليك وبين لك="ولا تكن للخائنين خصيمًا"، فقرأ إلى قوله: "إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيما". ذكر لنا أن هؤلاء الآيات أنزلت في شأن طُعْمَةَ بن أبيرق، وفيما همّ به نبي الله صلى الله عليه وسلم من عذره، وبين الله شأن طُعْمَةَ بن أبيرق، ووعظ نبيّه وحذّره أن يكون للخائنين خصيمًا.

وكان طُعْمَةَ بن أبيرق رجلا من الأنصار، ثم أحد بني ظفر، سرق درعا لعمّه كانت وديعة عنده، ثم قذفها على يهودي كان يغشاهم، يقال له: "زيد بن السمين". فجاء اليهودي إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم يهنّف، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر، جاؤوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم ليعذروا صاحبهم، وكان نبي الله عليه السلام قد همّ بعذره، حتى أنزل الله في شأنه ما أنزل، فقال: "ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم" إلى قوله: "ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة"، يعني بذلك قومه="ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا"، وكان طُعْمَةَ قذّف بها بريئا. فلما بين الله شأن طُعْمَةَ، نافق ولحق بالمشركين بمكة، فأنزل الله في شأنه:

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) ¹ الآية : 115 من السورة نفسها. ويذكر سبب النزول هذا يتأكد ما قلناه في شأن كان وخبرها " محيطا " ، والله أعلم .

وأما قوله : " وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126) [النساء] فقد ذكر قبلها اطلاعه على المشركين والمؤمنين وعلمه التام بما صنعوا وعليه ترتيب الجزاء فحسن أن يعقب بقوله " وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126) " ليعلم الفريقان أن كل شيء بيد الله وتحت إحاطته وهذا يفهم مما ذكر قبلها : " لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125) .

فإحاطة الله تعالى بالشيء معناها: حصره إياه من جميع جوانبه، مع العلم المطلق بكل دقائقه، بحيث لا يتصور أن تفلت منه ذرة، أو ما فوقها، أو ما دونها، علما أو إيجادا، أو إعداما. أو سبقا أو تأخرا .

¹ - الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 182/9 .

المطلب الرابع : الباري

ورد اسم الباري في الكتاب العزيز كله ثلاث مرات مرتين في هذه الآية : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) [البقرة] ومرة في الحشر : " هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِي الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24) " وستترك التعليق على هذه الآية إلى حين مبحث اقتران العزيز بالحكيم .

وبالنظر في الآيتين واستنادا إلى ما ذكر في مباحث الاشتقاق تعنّ لنا لطيفة ذكر قول موسى بوحى الله لأصحاب العجل : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " لأنهم اتخذوا عجلا جسدا بلا روح وسوّلت لرأسهم السامري نفسه أن يقبض قبضة من أثر الرسول جبريل عليه السلام ويلقيها على الحليّ التي جمعها بنو إسرائيل ليبريه - زاعما بالله وحده - فيصير ذا روح ، والباري وحده الله ، فصار عجلا جسدا له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره فتنة لهم ، فقال : هذا إلهكم وإله موسى ¹ ، فحسن جزاء وفاقا لشنيع فعلهم أن يقتلوا أنفسهم لتذهب أرواحهم التي براها الله في أجسادهم بعد خلقها فقرن توبتهم باسمه " الباري " لأن ذنبهم محاولة مشاركته في هذا الاسم الذي هو بمعنى المحيي ولذلك توبتهم قتل أنفسهم ثم هو وحده يبيري الروح فيها فتحيا في جنته وقد رحمها فلا ذنب عليها بتوبتها ، وجاء بالماضي " فتاب عليكم " مقترنا بفاء جواب أمره لهم بقتل أنفسهم إنزال للمستقبل منزلة الماضي تأكيدا له وتثبيتا لهم ، ثم زاد ذلك تأكيدا بقوله : " إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " فجعل التوّاب والرحيم خبرين عن الباري وحده مؤكّدا الجملة بأنّ وضمير الفصل هو فذكر الباري مرتين وأضمر عنه مرتين ووصفه ببليغ اسم الفاعل من التوبة والرحمة لغرض بياني وهو تكميل المعنى وتعليل جواب الأمر ، والله أعلم .

وهذا ذكر أحد أخبار بن جرير في توبتهم : " حدثنا المثنى قال ، حدثنا أبو صالح قال ، حدثني الليث قال ، حدثني عقيل ، عن ابن شهاب قال ، لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها ، برزوا ومعهم موسى ، فاضطربوا بالسيوف ، وتطاعنوا بالخناجر ، وموسى رافع يديه . حتى إذا فتر ، أتاه بعضهم فقالوا : يا نبي الله ادع الله لنا . وأخذوا بعضديه يسندون يديه ، فلم يزل أمرهم على ذلك ، حتى

¹ - الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 361/18 .

إذا قبل الله توبتهم قبض أيدي بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح. وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ما يحزنك؟، أما من قتل منكم، فحي عندي يرزق؛ وأما من بقي، فقد قبلت توبته! فبشر بذلك موسى بني إسرائيل.¹

وقال الزمخشري في كشّافه: " فإن قلت: من أين اختص هذا الموضوع بذكر البارئ؟ قلت: البارئ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر، إلى عباد البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة. - في أمثال العرب: أبلد من ثور- حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها.²

المطلب الخامس : الخالق

ورد اسم " الخالق " غير مقترن بما سوى الله والربّ في ثلاث آيات : أما في آية فاطر: " يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4) " : النكتة في قران الخالق مع الله حمل المقربين بلا خالق إلا الله على الإقرار بلا إله إلا هو ولأجل ذلك كثيرا ما يخاطبهم الرحمن بخطاب الوداد والمحبة والتلطف كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 21- 22] ، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ} [فاطر: 5] ، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} [الانفطار: 6- 7]

وبعد ذلك يخاطبهم : اذكروا ما بسطه لكم من العيش و فكروا فانظروا هل من خالق سوى فاطر السماوات والأرض الذي بيده مفاتيح أرزاقكم ومغالقها، وقال يرزقكم بلفظ الفعل ليفيد أنه تعالى يرزقهم حالا فحالا وساعة فساعة، على خلاف قوله عزّ شأنه : " وَكَأَنَّهُمْ بِاسِطِّ ذِرَاعِيهِ

¹ - الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 72/2 .

² - الكشّاف : 140/1 - 141 .

بِالْوَصِيدِ [الكهف: 18] قد ذكر فيه الاسم ليفيد البقاء على تلك الحالة، ثم قال: «هَلْ مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» غيثاً ونباتاً لكم ولأنعامكم. وهذا استفهام إنكاري لإنكار التصديق وإنكار الحكم ، والمعنى هل خالق مغاير له تعالى موجود لكم أو لغيركم؟ كلا، لا خالق سواه البتة «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» أي من أين يأتيكم البهت والافتراء والاختلاق بإنكار البعث والتوحيد مع أن الله يأمركم بهما ومع اعترافكم بأنه خالقكم ورازقكم، فكيف يتوقع منكم التكذيب والإنكار، وما سبب صدوره منكم؟ وفي آية غافر: " ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) " ذكرت الأسماء الثلاثة الله والربّ والخالق بعد آية قبلها ذكر فيها أنّ الفضل بيده والتدبير والخلق : " اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ " (61) ليخاطبهم باسم الإشارة مبتدأ مراداً به من ذكر فضله على الناس و " الله " خبر عنه أول و " ربكم " خبر عنه ثان تقرّون به و "خالق كل شيء " خبر ثالث تقرّون به وجملة " لا إله إلا هو " في محل رفع خبر رابع تتكرونه ، فأنى تصرفون .

أمّا في آية " ص " : " إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) " : في هذه الآية لما نبّه تعالى على منتهى الخلق وهو الحشر يوم القيامة إلى ما يستقرّون فيه : " وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) ، نبههم على مبدأ أصلهم آدم ، وما جرى لعدوه إبليس من المحاورّة مع الله تعالى. وتقدم شيء من هذه القصة في أوائل البقرة عقب ذكر الإمامة والإحياء والرجوع إليه تعالى : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ... " 30 وعبر عن الخلق بالجعل وليس كل جعل خلق لقوله : إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [الزخرف : 3] . وفي الأعراف بعد ذكر يوم القيامة ، وذكر الموازين فيه. وفي الكهف بعد ذكر الحشر ، وكذا في سورة ص بعد ذكر ما أعد من الجنة والنار لخلقه. فحيث ذكر منتهى هذا الخلق ذكر مبدأهم وقصته مع عدوه إبليس ليحذرهم من كيده ، ولينظروا ما جرى له معه حتى أخرجهم من الجنة مقرّ السعادة والراحة إلى الأرض مقرّ التكليف والتعب ، فيتحرّزوا من كيده . ولو مثلنا لذلك في كل تارة لأطلنا فحسبنا الإشارة .

المطلب السادس : السميع

ورد في القرآن الكريم خمسا وأربعين مرة منها اثنتان وأربعون بصيغة (سميع) و (السميع) بالرفع ومنها ثلاث مرات بصيغة (سميعاً) بالنصب .

ويلاحظ أن اسم (السميع) سبحانه ورد مقترنا باسم (العليم) اثنتين وثلاثين مرة وعشر مرات مقترنا باسم (البصير) . ومرة واحدة باسم (القريب) ، سنتحدث عنها في مبحث إقترانه بغيره . وورد مرتين فقط غير مضاف إلى (الدعاء) غير مقترن باسم آخر في قوله: {رَبِّي هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذَرِيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} (آل عمران آية 38) ، وقوله: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} (إبراهيم آية 39) .

قال أهل التأويل : " سميع في الآيتين بمعنى مجيب " وذلك لما أحاط بها من قرائن ، ففي آية إبراهيم سبقها قوله : " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء " فحمد على الإجابة وفي حمده دعاء يحتاج إجابة وقبول لقوله تعالى في غافر: " هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) فقوله تمكين وتأكيد لمعنى الهبة لأنه أعطاه ووهبه ، وتعليل لأجل التكميل على معنى قبول حمده وإجابته ، وفي آية آل عمران قوله : " إنك سميع الدعاء " هو بمعنى مجيبه فهو تعليل لتكميل الدعاء ولا يخفى يقين الأنبياء بإجابة ربهم وإيمانهم بقدرته على ذلك وحبّه له : " وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: 60] " وغفتران السميع بمعنى المجيب بالربّ في الدعاء لما في لفظ الربّ من معاني القدرة والتدبير والرزق وشواهد كون السماع يأتي بمعنى الإجابة كثيرة نذكر منها : كقول النبي - صلى الله عليه وسلم-: "اللهم إني أعوذُ بكَ مِنْ قَوْلٍ لَا يُسْمَعُ" ¹، أي: مِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْتَجَابُ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الْمُصَلِّي: "سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ" ² مَعْنَاهُ قَبِلَ اللَّهُ حَمْدَ مَنْ حَمَدَهُ. وأنشد أبو زيدٍ لِشُتَيْرِ بْنِ الْحَارِثِ الضَّبِّيِّ:

¹ - هذا طرف حديث رواه ابن حبان في صحيحه برقم 2440 موارد، والنسائي 8 / 264، والإمام أحمد 3 / 192، 255،

383، والخطابي في غريب الحديث 1 / 342 من حديث أنس

² - أخرجه البخاري بشرح الفتح برقم 690 ومسلم باب الصلاة برقم (25)، (28)، (54)، (62)، (63)، (71)، (77)، (86)،

(88)، (89)، (196)، (198)، (199)، (202)، وفيه: "اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت

من شيء بعده". وكذلك روايته برقم (203)

دَعَوْتُ اللَّهَ حَتَّى خِفْتُ أَلَا ... يَكُونُ اللَّهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ¹
أَي: لَا يُجِيبُ، وَلَا يَقْبَلُ .

قال البقاعي في دعاء زكريا : {رَبِّي هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذَرِيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} : " ثم علل إِدلاله على المقام الأعظم بالسؤال بقوله: {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} أي مريده ومجيبه لأن من شأن من يسمع - ولم يمنع - أن يجب إذا كان قادراً كاملاً، وقد ثبتت القدرة بالربوبية الكاملة التي لا تحصل إلا من الحي القيوم، بخلاف الأصنام ونحوها مما عبد فإنها لا تسمع، ولو سمعت لم تقدر على الإجابة إلى ما تسأل فيه لأنها مريوبة. قال الحرالي: أعلم الداعي بما لله سبحانه وتعالى من الإجابة، والقرب «وسيلة في قبول» دعائه " ²

المطلب السابع : البصير

ورد مقترنا ثانيا بعد السميع في عشر آيات في ست منها نكرتين رفعا في أربع ونصبا في ثنتين وفي أربع معرفتين رفعا، وسنعلق عليها في مبحث اقتران السميع بغيره من الأسماء ، وورد مقترنا بالخبير ثانيا في خمس آيات في ثلاث نكرة نصبا وفي ثنتين نكرة رفعا نعلق عليها عند ذكر الخبير وما اقترن به .

وورد منفردا عن الأسماء الأخرى في إحدى وعشرين آية : في أكثرها مقترنا بقوله : " بما يعملون " أو " بما تعملون " وقد يقرأ بهما ، وقد يؤخر بصير وقد يقدم تمكينا لرؤوس الآي والفواصل في أكثر المواضع بعد ذكر المحسنين والمذنبين والمكذبين واللطيفة الشاملة المستنبطة من كل هذا أنه يأتي تذييلا في الآيات يراد به ترغيب المحسنين في زيادة إحسانهم وتحذيرهم من الإساءة تعويلا على بصر الله وعلمه النافذين في كل شيء وتخويفا للمذنبين بأن أعمالهم لا تخفى منها خافية لردعهم وإنابتهم .

البقرة : " وَلَتَجِدَنَّهِنَّ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْحَزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ " (96) : التذييل بقوله وَاللَّهُ

¹ - أنشده الطبري في تفسيره، 6/5 - 528، وابن الجوزي في زاد المسير 1/144، والقرطبي 2/31

² - البقاعي . نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . ص : 364/4 .

بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ وعيد، والجمهور على قراءة «يعملون» بالياء من أسفل، وقرأ قتادة والأعرج ويعقوب «تعملون» بالتاء من فوق، وهذا على الرجوع إلى خطاب المتوعدين من بني إسرائيل. في قوله : وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) ولقد كثر الالتفات في خطابهم من قبل فلا جرم يأتي في يعلمون قراءتان .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) : أي لا يخفى عليه شيء من قليل الأعمال، وكثيرها ففيه ترغيب في الطاعات، وأعمال البر وزجر عن المعاصي ، وتذليله بقوله " إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " لتعليل جواب أمره لهم وأخر بصير ليوافق قدير في الآية قبله لأنّ علة التذليل هنا كعلته هناك ، فاللطيفة البيانية في تأخير بصير وانفراده هي التعليل معنى والتمكين شكلا ، والله أعلم .

" وقرئ- «يعلمون» - بالياء والضمير حينئذ كناية عن كثير، أو عن أهل الكتاب فيكون تذييلا لقوله تعالى : ... فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) مؤكدا لمضمون الغاية، والمناسب أن يكون وعيدا لأولئك ليكون تسلية، وتوطينا للمؤمنين بالعفو والصفح، وإزالة لاستبطاء إتيان الأمر، وجوز أن يكون كناية عن المؤمنين المخاطبين بالخطابات المتقدمة " ¹

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233) : أي : اتَّقُوا اللَّهَ في شأن مراعاة هذه الأحكام واعلموا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم عليها، وفي إظهار الاسم الجليل تربية للمهابة، و قوله : " و اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " تذييل للتهديد والتحذير .

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

¹ - الألوسي - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : 375/1 .

بَصِيرٌ (237) ذَيْلٌ بِالْجَمَلَةِ الْاسْمِيَةِ مُؤَكَّدَةٌ بِإِنَّ لِلتَّحْرِيزِ عَلَى الْعَفْوِ وَالتَّرْغِيبِ فِي كُلِّ فَضْلٍ
وَأَخْرَجَ بَصِيرٌ تَمْكِينًا لِفَاصِلَةِ الرَّاءِ الَّتِي فِي بَصِيرٍ وَخَبِيرٍ فِي الْآيَتَيْنِ : 34/33 وَكُلُّهَا لِمَعْنَى
التَّرْغِيبِ فِي الْخَيْرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّرِّ وَالتَّعْسِيرِ .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَأَتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) : " هذا مثل الذي
مصدر نفقته الإخلاص والصدق، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص، والتثبيت من
النفس هو الصدق في البذل، فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثله ما
ذكره في هذه الآية، إحداهما: طلبه بنفقته محمداً أو ثناءً أو غرضاً من أغراضه الدنيوية، وهذا
حال أكثر المنفقين والآفة الثانية: ضعف نفسه [بالبذل وتقاوعها] وتردها، هل يفعل أم لا؟
فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت فإن تثبت النفس تشجيعها
وتقويتها والإقدام بها على البذل. وهذا هو صدقها، وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا
إخلاصها، فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة- وهي البستان الكثير الأشجار-
فهو مجتنبٌ بها أي مستتر ليس قاعاً فارغاً. والجنة برية- وهو المكان المرتفع- [لأنها] أكمل من
الجنة التي بالوهاد والحضيض، لأنها إذا ارتفعت كانت بمدرجة [الأهوية] والرياح، وكانت
ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها، فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره، فإن
الثمار تزداد طيباً وزكاءً بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تتشأ في الظلال، وإذا كانت
الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها إلا من قلة [الشرب] فقال تعالى: {أَصَابَهَا وَابِلٌ} [البقرة:
265] ، وهو المطر الشديد العظيم القدر فأدت ثمرتها وأعطت بركتها فأخرجت [ثمرتها] ضعفي
ما يثمر غيرها أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل، فهذا حال السابقين المقربين: {فَإِنْ
لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ} [البقرة: 265] ، فهو دون الوابل، فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها
فتكتفى في إخراج بركتها بالطل، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة وهم درجات عند الله،
فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية، ويؤثرون
على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأصحاب الطل مقتصدوهم فمثل حال القسامين وأعمالهم
بالجنة على البروة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يوجب
زكاءً أو ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف، فكذلك نفقتهم كثيرة أو قليلة بعد أن صدرت عن ابتغاء

مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة ¹ "أما قوله : " وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " فهو تذييل على الآية والتي قبلها حيث ذكر المنفق رياء فيه ترغيب للمخلص، وترهيب للمرائي ، " مع ما فيها من الإشارة إلى الحط على الأخير حيث قصد بعمله رؤية من لا تغنى رؤيته من لا تغنى رؤيته شيئاً وترك وجه البصير الحقيقي الذي تغني وتفقر رؤيته عز شأنه." ²

آل عمران : " قُلْ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15) / جملة : " وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " تعني والله ذو بصر بالذي يتقيه من عباده فيخافه فيطيعه، ويؤثر ما عنده مما ذكر أنه أعدّه للذين اتقوه على حبّ ما زُينَ له في عاجل الدنيا من شهوات النساء والبنين وسائر ما عدّد منها . تعالى ذكر- وبالذي لا يتقيه فيخافه، ولكنه يعصيه ويطيع الشيطان ويؤثر ما زُينَ له في الدنيا من حب شهوة النساء والبنين والأموال، على ما عنده من النعيم المقيم = عالمٌ تعالى ذكره بكلّ فريق منهم، حتى يجازي كلّهم عند معادهم إليه جزاءهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ، و إذا علم أنّ هذه الآية نزلت تعزية للمهاجرين الذين أخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم فأعلمهم الله أن خيراً مما تركوا من الدنيا الجنة للذين اتقوا " ، يتضح سبب التذييل هنا ألا وهو التسلية والطمأننة لهم بنيل ثواب جهادهم وهجرتهم

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20) / هذه الآية مسوقة لتسلية حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ليخفف عن نفسه من شدة حرصه على إسلامهم ويهون من تألمه على إعراضهم فالتذييل فيها لتكميل ذلك المعنى وتأكيده .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) / تذييل فيه ترغيب في الطاعة وترهيب عن المعصية أو تهديد للمؤمنين على أن يماثلوا الكفار لأن رؤية الله تعالى كعلمه تستعمل في القرآن للمجازاة على المرئي

¹ - ابن القيم : طريق الهجرتين وباب السعادتين : 369/1 .

² - الألوسي - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : 36/2 .

كالمعلوم، والمؤمنون وإن لم يماثلوهم فيما ذكر لكن ندمهم على الخروج من المدينة يقتضيه، وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة- غير عاصم- يعملون بالياء، وضمير الجمع حينئذ للكفار، والعمل عام متناول للقول المذكور ولمنشئه الذي هو الاعتقاد الفاسد ولما ترتب على ذلك من الأعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع وإظهار الاسم الجليل لما مرّ غير مرة وكذا تقديم الظرف.¹

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (163) : أَي وَسَيُوفِيهِمْ إِيَّاهَا، لَا يَظْلِمُهُمْ حَيْرًا وَلَا يَزِيدُهُمْ شَرًّا، بَلْ يَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، فِي التَّنْذِيلِ تَكْمِيلٌ لِّلْمَعْنَى وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ مَرَادُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، كَمَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا : أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (162) وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

المائدة : " وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِئْتَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (71) : أَي بِمَا عَمَلُوا وَصِيغَةُ الْمَضَارِعِ لِحَاكِيَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ اسْتِحْضَارًا لِّصَوْرَتِهَا الْفِطْرِيَّةِ وَرِعَايَةً لِلْفَوَاصِلِ وَالْجُمْلَةِ تَنْذِيلًا أَشِيرَ بِهِ إِلَى بَطْلَانِ حُسْبَانِهِمُ الْمَذْكُورِ وَوُقُوعِ الْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا إِشَارَةً إِجْمَالِيَّةً اِكْتَفَى بِهَا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فُصِّلَ نَوْعَ تَفْصِيلٍ فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْمَعْنَى حَسَبُوا أَنْ لَا يَصِيبُهُمْ عَذَابٌ فَعَمَلُوا مَا فَعَلُوا مِنَ الْجَنَائِثِ الْعَظِيمَةِ الْمَسْتَوْجِبَةِ لِأَشَدِّ الْعُقُوبَاتِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِتَفَاصِيلِهَا فَكَيْفَ لَا يُؤَاخِذُهُمْ بِهَا وَمَنْ أَيْنَ لَهُمْ ذَلِكَ الْحِسَابُ الْبَاطِلُ"²

الأنفال : " وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ (39) : الْمَعْنَى : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةً إِلَى أَنْ لَا يَوْجَدَ فِيهِمْ شَرِكٌ قَطُّ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَيُضْمَلُ عَنْهُمْ كُلُّ دِينٍ بَاطِلٍ، وَيَبْقَى فِيهِمْ دِينُ الْإِسْلَامِ وَحْدَهُ فَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ الْكُفْرِ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ يَثْبِيهِمْ عَلَى تَوْبَتِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ، فَالتَّنْذِيلُ هُنَا لِلتَّرْغِيبِ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ: تَعْمَلُونَ، بِالنَّاءِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى

¹ - الألويسي - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : 314/2 .

² - أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ) - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - دار

إحياء التراث العربي - بيروت : 65/3 .

دينه والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام بصير يجازيكم عليه أحسن الجزاء وإن تولّوا ولم ينتهوا فاعلموا أن الله مولاكم أي ناصركم ومعينكم، فنقوا بولايته ونصرته، وعلى هذه القراءة أيضا هو للترغيب والتهنئة والتثبيت ، والله أعلم .

- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72). أي : فلا تخالفوا أمره ولا تتجاوزوا ما حده لكم كي لا يحل عليكم عقابه ففي ذيل الآية تحذير عن تعدي حد الشرع، ونهي عن تجاوز حدود الله، وأمر بمحافظه العهود، ولزوم مراقبة أوامر الله، لأن البصير هو المطلع على خفايا الأمور ووقائعها المحيط علمه بكل شيء.

هود : " فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) قال الألوسي في معنى " إنه بما تعملون بصير " : فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهي السابقين كأنه قيل: استقيموا ولا تطغوا لأن الله تعالى ناظر لأعمالكم فيجازيكم عليها، وقيل: إنه تتميم للأمر بالاستقامة، والأول أحسن وأتم فائدة، وقرأ الحسن، والأعمش - يعملون - بياء الغيبة، وروي ذلك عن عيسى الثقفي أيضا، وفي الآية - على ما قال غير واحد - دليل على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد التشهي وإعمال العقل الصرف فإن ذلك طغيان وضلال، وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الأمرة بالاجتهاد¹.

سبا : " أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) : فأجازيكم به وهو تذييل فيه تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به على وجه الترغيب والترهيب .
غافر : " فَسْتَنْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوْضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) تذييل فيه تعليل لتهديده لهم لتوكله على الله ، ففي تنمة معنى الآية : فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ بِالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ الصَّادِقَ عَلَى اللَّهِ، وَتَفْوِضَ الْأُمُورِ إِلَيْهِ سَبَبٌ لِلْحِفْظِ وَالْوَقَايَةِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ أَنَّ الْفَاءَ مِنْ حُرُوفِ التَّعْلِيلِ، كَقَوْلِهِمْ: سَهَا فَسَجَدَ، أَي: سَجَدَ لِعَلَّةِ سَهْوِهِ، وَسَرَقَ فَقَطَعَتْ يَدُهُ، أَي: لِعَلَّةِ سَرِقَتِهِ

¹ - الألوسي - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : 347/6 .

فصّلت : " إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي
أَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40) : هذا تهديد لأولئك الضالين الذي
يهجرون القرآن العظيم، أي يتركون الحق إلى غيره، ويميلون عن الاستقامة على منهج آيات
القرآن بالطعن فيها وتحريفها، وتأويلها تأويلاً باطلاً، لاغين عند سماعها، إنهم لا يخفون على
الله، وإنما يعلم بهم وسيجازيهم أشد الجزاء.

وهل أدرك هؤلاء هذا المصير، وهل غفلوا عن الفرق الشاسع بين المؤمن المستقر الآمن في
الدنيا والآخرة، وبين الكافر الجبار المتكبر في الدنيا، والذي يلقي به في الآخرة في دركات
النار؟ فالمؤمن يدخل الجنة، ويطمئن لما فيها من خيرات، والكافر يزجّ به في نيران جهنم،
فيبقى في عذابها على الدوام، لا يقول عاقل بالتسوية بين الحالين أو الفريقين. ثم أكد الله
التهديد والوعيد بقوله: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ أي اعملوا أيها الضالون المكذبون ما شئتم من الأعمال،
فإن الله عالم بكم، وبصير بأعمالكم، ومجازيكم بحسب ما قدمتم من أعمال، خيرها وشرها،
وقوله تعالى: لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا معناه: فنحن بالمرصاد لهم وسنُعذبهم، وقوله تعالى: إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ دليل الوعيد والتهديد.

قال مقاتل: نزلت هذه في أبي جهل، وفي عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقيل: في عمار بن
ياسر رضي الله عنه. قال بشير بن فتح فيما أخرجه ابن المنذر: نزلت هذه الآية في أبي جهل
وعمار بن ياسر¹.

الحجرات : " إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) : قرأ ابن
كثير، والأعمش، وطلحة، وعيسى (بالياء) بالغيبة نظراً لقوله: « يَمُتُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا »،
والباقون بالخطاب نظراً إلى قوله: {قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ
لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17) } فالمعنى الذي يستفاد من الآية : إن الله أيها الأعراب لا
يخفي عليه الصادق منكم من الكاذب، ومن الداخل منكم في ملة الإسلام رغبة فيه، ومن
الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده، فلا تعلمونا دينكم وضماير صدوركم، فإن الله لا يخفي
عليه شيء في خبايا السموات والأرض.

¹ - وهبة بن مصطفى الزحيلي - التفسير الوسيط للزحيلي - دار الفكر - دمشق - ط : 1422/1 - ص : 2812/3 .

الحديد : " هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) وليس معنى قوله: {وهو معكم} أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق؛ بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته هو موضوع في السماء؛ وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان؛ وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيم عليهم مطلع إليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه - من أنه فوق العرش وأنه معنا - حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ولكن يصاب عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: {في السماء} أن السماء ثقله أو تظله؛ وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان؛ فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. {ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} الروم : (25)، وما ذكر في الكتاب والسنة - من قربه ومعيته - لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو علي في دنوه قريب في علوه .

قال صاحب التحرير والتنوير فأحسن البيان والتقدير: يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها: استئناف لتقرير عموم علمه تعالى بكل شيء فكان بيان جملة وهو على كل شيء قدير [الحديد: 2] وجملة وهو بكل شيء عليم [الحديد: 3] جاريا على طريقة النشر للفتى على الترتيب، وتقدم نظير هذه الآية في سورة سبأ. فانظر ذلك.

وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير: عطف معنى خاص على معنى شمله وغيره لقصد الاهتمام بالمعطوف ، والمعية تمثيل كنائي عن العلم بجميع أحوالهم.

وأين ما ظرف مركب من (أين) وهي اسم للمكان، و (ما) الزائدة للدلالة على تعميم الأمكنة. وجملة والله بما تعملون بصير تكملة لمضمون وهو معكم أين ما كنتم، وكان حقها أن لا تعطف وإنما عطف ترحيحا لجانب ما تحتوي عليه من الخبر عن هذه الصفة.¹

الممتحنة : " لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) : تذييل فيه وعد ووعد .

¹ - الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير : 364/27 .

التغابن : " يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) : قوله: والله بما تعملون بصير تتميم واحتراس واستطراد، فهو تتميم لما يكمل المقصود من تقسيمهم إلى فريقين لإبداء الفرق بين الفريقين في الخير والشر وهو عليم بذلك وعلیم بأنه يقع وليس الله مغلوبا على وقوعه ولكن حكمته وعلمه اقتضيا ذلك... وقوله: والله بما تعملون بصير أي هو بصير به من قبل أن تعملوه، وبعد أن عملتموه.

فالبصير: أريد به العالم علم انكشاف لا يقبل الخفاء فهو كعلم المشاهدة وهذا إطلاق شائع في القرآن لا سيما إذا أفردت صفة بصير بالذكر ولم تذكر معها صفة «سميع»... وهو احتراس من أن يتوهم من تقسيمهم إلى فريقين أن ذلك رضى بالحالين كما حكي عن المشركين وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم [الزخرف: 20] ، وهو استطراد بطريق الكناية به عن الوعد والوعيد. وشمل قوله: بما تعملون أعمال القلوب كالإيمان وهي المقصود ابتداء هنا.¹

الملك : " أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَاقَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) ولم يأت في القرآن كله تفيد البصير بكل شيء إلا في سورة الملك وحقيق على الملك أن يبصر كل شيء في ملكوته وبصير هنا اقترنت بما يقترن به عليم فليس بعيدا كونها بمعناه ولا سيما واللسان يعرف ذلك ولنكتة اقترانه بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء وهو مستو على عرشه أوسع من كل مخلوق وهو تعالى عال على كل شيء يبصر كل شيء تحته ويعلم كل شهادة وغيب .

قال ابن عاشور : " فمن جملة عنادهم إنكارهم اسم الرحمن فلما لم يراعوا عما هم عليه ذكر وصف الرحمن في هذه السورة أربع مرات.

وجملة إنه بكل شيء بصير تعليل لمضمون ما يمسهن إلا الرحمن أي أمسهن الرحمان لعموم علمه وحكمته ولا يمسهن غيره لقصور علمهم أو انتقائه. والبصير: العليم، مشتق من البصيرة، فهو هنا غير الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى في نحو: السميع البصير، وإنما هو هنا من باب قولهم: فلان بصير بالأمر.

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 262/28 - 263 .

وقوله تعالى: إن الله بصير بالعباد [غافر: 44] ، فهو خبر لا وصف ولا منزل منزلة الاسم. وتقديم بكل شيء على متعلقه لإفادة القصر الإضافي وهو قصر قلب ردا على من يزعمون أنه لا يعلم كل شيء كالذين قيل لهم وأسروا قولكم أو اجهروا به [الملك: 13].¹

المطلب الثامن : الخبير

ورد اسم الخبير نكرة منفردا في ثلاث وعشرين آية مرفوعا في عشرين ومنصوبا في اثنتين ومجرورا في واحدة كما يلي وليست لطائف التذييل به ببعيدة عن التعقيب بالبصير وهذا بيان ذلك :

البقرة : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234) ، قوله : " وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " تعقيب فيه وَعِيدٌ يَتَضَمَّنُ التَّحْذِيرَ ، وَخَبِيرٌ لِلْمُبَالِغَةِ ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِمَا لَطَفَ وَالنَّقْصِيُّ لَهُ ، والنكته في تعقيبها بقوله تعالى "والله بما تعملون خبير " مناسب لما قبله من تأمينهن على أنفسهن فيما يلزمهن في مدة العدة المذكورة من إحداد وما يتعلق به وفيما يفعلن بعده فإن أضمن أو كتمن شيئا لا يجوز فعلم الله سبحانه محيط بذلك وهو الخبير به على خلاف آية : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240) فلما وقع فيها بعد قوله "فإن خرجن " وقام فيه احتمال أن يخرجن غير طائعات فيستعجلن أو يتعدين ناسبه ذكر قدرته سبحانه عليهن بالمعاقبة بما شاء أو العفو عن مرتكبهن فهو العزيز الذي لا مغالب له والذي لا يفوته هارب ولا يغيب عنه شيء². أما أبو حيان فعلق على اللطيفة في التذييل فيها بالخبير والبصير في آية : " وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْتُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237) ، قال : " إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، ختم هذه الآية بهذه الصفة الدالة على المبصرات ، لأن ما تقدمه من العفو من

¹ - الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير : 40/29 .

² ابن الزبير الغرناطي - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من أي التنزيل : 69/1 .

المطلقات والمطلقين ، وهو أن يدفع شطر ما قبضن أو يكملون لهنّ الصداق ، هو مشاهد مرئي ، فناسب ذلك المجيء بالصفة المتعلقة بالمبصرات.

ولما كان آخر قوله : **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ بِالْآيَةِ قَوْلِهِ : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا** مما يدرك بلطف وخفاء ، ختم ذلك بقوله : **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** وفي ختم هذه الآية بقوله : **إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** وعد جميل للمحسن وحرمان لغير المحسن.¹

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271) : أخبر أن إعطاءها للفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها..

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لم يكن إخفاؤه كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر أو غير ذلك، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس، وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له فيزهدون في معاملته ومعاوضته. وهذا قدر زائد عن الإحسان إليه بمجرد الصدقة، مع تضمنه الإخلاص، وعدم المراعاة وطلب المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير خيرا من إظهارها بين الناس، ومن هذا مدح النبي صلى الله عليه وسلم صدقة السر وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة. ولهذا جعله سبحانه خيرا للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته. ولا يخفي عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم. . ولما كان زكاء الأعمال انما هو بالنيات وكان التفضيل مناط العلم قال مرغبا في حسن النيات مرهبا من التقصير فيها والله بما تعملون اى تجددون عمله على ممر الأوقات خبير أي عالم بباطنه وظاهره علما لا مزيد عليه بوجه فهو يجعل جزاء الأعمال على قدر النيات التي هي أرواح صورها ، وهو يخبركم بما فيه نفع لأنفسكم ففي التعقيب لطيفة التعليل زيادة على الترغيب والترهيب، والله أعلم

آل عمران : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لَكَيْلًا تَحَزَبُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153) ، قال إمام المفسرين : " أما قوله:"والله خبير بما تعملون"، فإنه يعني جل ثناؤه: والله بالذي تعملون، أيها المؤمنون - من

¹ - أبو حيان الأندلسي - البحر المحيط : 541/2 .

إصعادكم في الوادي هرباً من عدوكم، وانهزامكم منهم، وترككم نبيكم وهو يدعوكم في أخراكم، وحرزكم على ما فاتكم من عدوكم وما أصابكم في أنفسكم = ذو خبرة وعلم، وهو محص ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به: المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، أو يعفو عنه¹.

وقد أكد هذا المعنى الشيخ ناص السعدي رحمه الله ، قال شارحاً: " يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال: {إذ تصعدون} أي: تجدون في الهرب {ولا تلوون على أحد} أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن القتال.

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، وبياشر الهيجاء، بل {الرسول يدعوكم في أخراكم} أي: مما يلي القوم يقول: "إليّ عباد الله" فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس، أعظم لومًا بتخلفكم عنها، {فأثابكم} أي: جازاكم على فعلكم {غما بغم} أي: غما يتبع غما، غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل.

ولكن الله - بلطفه وحسن نظره لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال: {لكيلا تحزنوا على ما فاتكم} من النصر والظفر، {ولا ما أصابكم} من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبظتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: {والله خبير بما تعملون} " فيكون تذييلاً لتمكين المعنى وتعليل فعله بهم عز وجل ، والله أعلم

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180) : قال ابن عطية : " وقوله تعالى: وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ خُطَابٌ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ الْبَشَرُ دَالٌ عَلَى فَنَاءِ الْجَمِيعِ وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى مَالٌ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ مَلِكُهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَزَلْ، وَقَرَأَ ابْنُ

¹ - ابن جرير الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 313/7 - 314 .

² - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : 151/1 .

كثير وأبو عمرو «والله بما يعملون» بالياء من أسفل على ذكر الذين يبخلون ويطوقون، وقرأ الباقون بالتاء من فوق، وذلك على الرجوع من الغيبة إلى المخاطبة لأنه قد تقدم وإن تُؤمُّوا وَتَتَّقُوا [آل عمران: 179] " والتذليل للوعيد والتخويف ، ولما كان الخبير: هُوَ الْعَالَمُ بِكُنْهِ الشَّيْءِ. الْمُطَّلَعُ عَلَى حَقِيقَتِهِ حَسَنٌ أَنْ يَخْتَمَ بِهِ لِيَتَّقِنُوا أَنَّهُ أَخْبَرَ مِنْهُمْ بِكُنْهِ الْأَشْيَاءِ وَأَنَّهُمْ غَابَ عَنْ عِلْمِهِمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِيرَاثٌ لِلَّهِ .

المائدة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8) : لأن ما بين الزوجين ربما دق علمه عن إدراك غير العليم الخبير، وأيضا لما كان الشنان محله القلب وهو الحامل على ترك العدل أمر بالتقوى ، وأتى بصفة خبير ومعناها عليم ، ولكنها تختص بما لطف إدراكه ، فناسب هذه الصفة أن ينبه بها على الصفة القلبية.¹

التوبة : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16) ، وجملة والله خبير بما تعملون تذييل لإنكار ذلك الحساب، أي: لا تحسبوا ذلك مع علمكم بأن الله خبير بكل ما تعملونه.

النساء : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94) ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا أَيَّ خَبِيرًا بِنِّيَاتِكُمْ وَطَلَبَاتِكُمْ، فَكُونُوا مُحْتَاطِينَ فِيمَا تَقْصِدُونَهُ، مُتَوَحِّينَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَىٰ. وَهَذَا تَعْقِيبٌ فِيهِ تَحْذِيرٌ، مفهومه: فَاحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ مَوَارِدِ الزَّلَلِ .

وَأَنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) نكتة التعقيب بالخبير هنا تدرك بمقارنة هذه بالآية التي تليها : " ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيفا (129) ، فيهما سؤالان:

¹ - البحر المحيط: 196/4 . وقد نقلها عنه البقاعي في نظم الدرر : 43/6 .

قوله فى الأولى "وإن تحسنوا وتتقوا" وفى الثانية "وإن تصلحوا" والختامان "خبيرا" فى الأولى و"غفورا" فى الثانية.

والجواب والله أعلم: أن الآية الأولى فيما بين المرأة وزوجها فإذا خافت منه وأرادت تآلفه ويقاءه وكيونتها فى عصمته فلا جناح عليهما أن تعطى شيئا من نفسها وتترك بعض حقها كأن تؤثر ضررتها فى القسمة أو تترك هى حظها كما فعلت سودة رضى الله عنها أو تهب له من حالها لا جناح عليهما فى هذا ولا على زوجها فى قبول ذلك منها وإن كان الطبع يأبى من إسقاط حق أو تنقصه لما جبلت عليه النفوس وإليه الإشارة بقوله تعالى: "وأحضرت الأنفس الشح" ثم قال تعالى: "وإن تحسنوا وتتقوا" فندب كلا منهما إلى الإحسان والتقوى والزوج أخص بذلك وأولى وأن يحتمل كل منهما من صاحبه ويصبر فإن الله مطلع عليه خبير بما يكنه ويخفيه،

ثم قال: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بيم النساء ولو حرصتم" لأن القلوب لا تملك ولا بيد الإنسان فسادها ولا صلاحها فإن عدل فى القسمة والمحادثة والإنفاق والنظر وبشاشة الوجه وجميل الملاقاة وفرضنا اجتهاده فى هذا كله حتى تحصل المساواة لم يقدر أن يميل بقلبه إلى كلهن على حال سواء: "فلا تميلوا كل الميل" بل على الإنسان أن يجتهد وفى الحديث عنه عليه السلام: "اللهم هذه قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك"، "فتذروها كالمعلقة" لا ممسكة ولا مطلقة ثم قال تعالى: "وإن تصلحوا وتتقوا" والمراد ما استطعتم وكان فى إمكانكم فإن الله يغفر لكم ما سوى ذلك.

والآية الأولى مقصودها يستدعى ما ختمت به من أنه تعالى خبير بأفعال عباده وأعمالهم الظاهرة والباطنة ومساق هذه الأخرى يستدعى مغفرته تعالى إذ قد عرفت الآية أن العدل لا يستطاع فإن لم تكن المغفرة هلك المكلف فورد أعقاب كل آية بما يناسب وأما ورود "وإن تحسنوا" فى الآية الأولى وورود "وإن تصلحوا" هنا فمفهوم مما تمهد وأنسب شيء والله أعلم.¹

"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا" (135) تعقيب فيه وعيد لمن لوى عن الشهادة أو عرض عنها ولا أصلح

¹ - ينظر : ابن الزبير الغرناطي - ملك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل : 149.

للوعد والتحذير من قوله : فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ومن كان فيما مضى خبيرا فبذلك أبدا جديرا على كل شيء قديرا .

هود : وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لِيُؤْفَيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ تَوْفِيَةِ الْأَجْزِيَةِ عَلَى الْمُسْتَحَقِّينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ فِيهَا سَبْعَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ التَّوَكِيدَاتِ ، أُولَاهَا : كَلِمَةٌ (إِنَّ) وَهِيَ لِلتَّأْكِيدِ ، وَثَانِيهَا (كَلَّ) وَهِيَ أَيْضاً لِلتَّأْكِيدِ ، وَثَالِثُهَا اللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى خَبَرَ (إِنَّ) ، وَرَابِعُهَا حَرْفُ (مَا) إِذَا جَعَلْنَاهُ مَوْصُولاً عَلَى قَوْلِ الْفَرَاءِ ، وَخَامِسُهَا الْقِسْمُ الْمَضْمَرُ ، وَسَادِسُهَا اللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى جَوَابِ الْقِسْمِ ، وَسَابِعُهَا النُّونُ الْمُؤَكَّدَةُ فِي قَوْلِهِ : { لِيُؤْفَيْنَهُمْ } . وَتَوْفِيَةُ أَعْمَالِهِمْ بِمَعْنَى تَوْفِيَةِ جِزَاءِ الْأَعْمَالِ ، أَيِ إِعْطَاءِ الْجِزَاءِ وَافِيّاً مِنَ الْخَيْرِ عَلَى عَمَلِ الْخَيْرِ وَمِنَ السُّوءِ عَلَى عَمَلِ السُّوءِ .

وجملة { إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } استئناف وتعليل للتوفية لأن إحاطة العلم بأعمالهم مع آرادة جزائهم توجب أن يكون الجزاء مطابقاً للعمل تمام المطابقة . وذلك محقق التوفية .¹ قال الرازي رحمه الله : " المعنى أن من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة فجمعت الآية الوعد والوعيد فإن توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم وقوله تعالى إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ تأكيد الوعد والوعيد فإنه لما كان عالماً بجميع المعلومات كان عالماً بمقادير الطاعات والمعاصي فكان عالماً بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء فحينئذ لا يضيع شيء من الحقوق والأجزية وذلك نهاية البيان.²

وقرأ ابن هرمز «تعملون» على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب³ ، ولأجل هذا خاطب رسوله ومن آمن معه بعدها : فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112).

النور : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) : لما كان غض البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من

¹ - التحرير والتنوير : 3658/7 .

² - مفاتيح الغيب : 56/18 .

³ - روح المعاني : 345/6 .

تلك المفسدة لم يأمر سبحانه بغضه مطلقاً بل أمر بالغض منه وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال لا يباح إلا بحقه فلذلك عم الأمر بحفظه وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته ، ويدللك على هذا ما عقّب به : **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** " تحذير لهم عن صنع الفساد بأبصارهم وفروجهم وليس لهذه الفاصلة نظير في القرآن .

وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُنْ أَمْرَتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلٌّ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) : أَي مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِكُمْ فَفَاضِحُكُمْ. وَالتَّقَتَّ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي تَبْكِيتِهِمْ وَلأن الخبير الغائب والشاهد عنده سواء ، والله أعلم .

النمل : وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَّنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) : جعل بعض المحققين قوله " إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ" تعليلاً لكون ما ذكر من النفخ في الصور: وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87) وما بعده صنعا محكما له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يستدعي إظهارها وبيان كیفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وتسيير الجبال حسب ما نطق به التنزيل. وقوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا بَيَانًا لَمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ بِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِأَفْعَالِهِمْ مِنْ تَرْتِيبِ أَجْزِيَّتِهَا عَلَيْهَا. وقال العلامة الطيبي قوله تعالى إن الله إلخ استئناف وقع جواباً لقول من يسأل فماذا يكون بعد هذه القوارع فقل إن الله خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصل ذلك بقوله سبحانه من جاء إلخ. والخطاب في تَفْعَلُونَ لجميع المكلفين وقرأ العربيان وابن كثير «يفعلون» بياء الغيبة¹.

الأحزاب : وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) : نذكر الآية قبلها لتتضح نكتة التنزيل : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) قيل الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم وقيل له صلى الله عليه

¹ - ينظر : روح المعاني : 246 / 10 . و: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 305/6 .

وسلم وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات ولا يخفى بعده نعم يجوز أن يكون للكَلِّ على ضربٍ من التَّغْلِيْبِ وأياً ما كان فالجملة تعليلٌ للأمرٍ وتأكيْدٌ لموجبه أمَّا على الوجهين الأولين فبطريق الترغيب والترهيب كأنه قيل إنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَهُ مِنَ الْاِمْتِثَالِ وتركه فيرتب على كلِّ منهما جزاءه ثواباً وعقاباً وأمَّا على الوجه الأخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل إنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ فيرشدك إلى ما فيه صلاحُ حالِكِ وانتظامُ أمرِكِ ويُطلعك على ما يعملونه من المكايِدِ والمفاسدِ ويأمرُك بما ينبغي لك أنْ تَعْمَلَهُ في دفعِها وردِّها فلا بُدَّ من اتباعِ الوحي والعمل بمقتضاه حتماً¹.

لقمان : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ، يقول: وإن الله بأعمالكم أيها الناس من خير أو شرّ ذو خبرة وعلم، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم على جميع ذلك، وخرج هذا الكلام خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعنيّ به المشركون، وذلك أنه تعالى ذكره: نبه بقوله: (أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) على موضع حجته من جهل عظمته، وأشرك في عبادته معه غيره، يدلّ على ذلك قوله: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) في الآية بعدها، ويؤيده قراءة السُّلَمِيِّ وَنَصْرُ بِنِ عَاصِمٍ وَالدُّورِيُّ عَنِ أَبِي عَمْرٍو بِالْيَاءِ عَلَى الْخَبْرِ " .²

فاطر : " إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) ، قال شيخ البيان : وَقَوْلُهُ: وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ تَذْيِيلٌ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ بِأَنَّ الْمَخْبِرَ بِهَا هُوَ الْخَبِيرُ بِهَا وَبِغَيْرِهَا وَلَا يَخْبِرُكَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا يَخْبِرُكَ هُوَ . وَعُبِّرَ بِفَعْلِ الْإِنْبَاءِ لِأَنَّ النَّبَأَ هُوَ الْخَبْرُ عَنْ حَدَثٍ خَطِيرٍ مَهْمٌ . وَالخَطَابُ فِي قَوْلِهِ : { يَنْبِئُكَ } لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ مِنْهُ سَمَاعُ هَذَا الْكَلَامِ لِأَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ أُرْسِلَتْ مُرْسَلِ الْأَمْثَالِ فَلَا يَنْبَغِي تَخْصِيصَ مَضْمُونِهَا بِمَخَاطَبٍ مُعَيَّنٍ .

و { خَبِيرٌ } صفة مشبهة مشتقة من خَبَرَ - بضم الباء - فلان الأمر ، إذا علمه علماً لا شك فيه والمراد ب { خَبِيرٌ } جنس الخبير ، فلما أرسل هذا القول مثلاً وكان شأن الأمثال أن تكون موجزة صيغ على أسلوب الإيجاز فحذف منه متعلق فعل (يُنَبِّئُ) ومتعلق وصف { خَبِيرٌ } ،

¹ - ينظر : أبو السعود - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 89/7 .

² - ينظر : تفسير الطبري : 154/20 . والقرطبي : 78/14 .

ولم يذكر وجه المماثلة لعلمه من المقام . وجعل { خبير } نكرة مع أن المراد به خبير معين وهو المتكلم فكان حقه التعريف ، فعدل إلى تكثيره لقصد التعميم في سياق النفي لأن إضافة كلمة { مثل } إلى خبير لا تفيده تعريفاً . وجعل نفي فعل الإنباء كناية عن نفي المنبئ . ولعل التركيب : ولا يوجد أحد ينبئك بهذا الخبر يماثل هذا الخبر الذي أنبأك به ، فإذا أردف مخبر خبره بهذا المثل كان ذلك كناية عن كون المخبر بالخبر المخصوص يريد ب { خبير } نفسه للتلازم بين معنى هذا المثل وبين تمثّل المتكلم منه . فالمعنى : ولا ينبئك بهذا الخبر مثلي لأنني خَبَرْتُه ، فهذا تأويل هذا التركيب وقد أغفل المفسرون بيان هذا التركيب .¹

الفتح : سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) : من خيرة من أماط اللثام عن نكتة التعقيب هنا الشوكاني رحمه الله حيث يقول في تفسير هذه الآية : " تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه ، والمخلف : المتروك { شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا } أي : منعنا عن الخروج معك ما لنا من الأموال ، والنساء ، والذراري ، وليس لنا من يقوم بهم ، ويخلفنا عليهم { فاستغفر لنا } ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب ، ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء ، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم ، فضحهم الله سبحانه بقوله : { يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } وهذا هو صنيع المنافقين ، والجملة مستأنفة لبيان ما تتطوي عليه بواطنهم ، ويجوز أن تكون بدلاً من الجملة الأولى . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عنهم ، فقال : { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } أي : فمن يمنعكم مما أَرَادَهُ اللهُ بِكُمْ من خير وشر ، ثم بين ذلك ، فقال : { إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا } أي : إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل . قرأ الجمهور { ضَرًّا } بفتح الضاد ، وهو مصدر ضررته ضَرًّا . وقرأ حمزة ، والكسائي بضمها وهو اسم ما يضر ، وقيل : هما لغتان { أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً } أي : نصراً وغبيمة ، وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عنه الضر ، ويجلب لهم النفع . ثم أضرب سبحانه عن ذلك ، وقال : { بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } أي : إن تخلفكم ليس لما زعمتم ، بل كان الله خبيراً بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها

¹ . الطاهر بن عاشور - التحرير والتوير : 284/22 .

تخلفكم ، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك ، بل للشك والنفاق ، وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله ، ولهذا قال : { بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا } وهذه الجملة مفسرة لقوله : { بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } لما فيها من الإبهام ، أي : بل ظننتم أن العدو يستأصل المؤمنين بالمرة ، فلا يرجع منهم أحد إلى أهله ، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة .¹

وعليه يتضح أنّ { بل } في قوله : { بل كان الله بما تعملون خبيراً } إضراب لإبطال قولهم { شغلنا أموالنا وأهلونا } . وبه يزداد مضمون قوله : { يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم } تقريراً لأنه يتضمن إبطالاً لعذرهم ، ومن معنى الإبطال يحصل بيان الإجمال الذي في قوله : { كان الله بما تعملون خبيراً } إذ يفيد أنه خبير بكذبهم في الاعتذار فلذلك أبطل اعتذارهم بحرف الإبطال .

وتقديم { بما تعملون } على متعلقه لقصد الاهتمام بذكر عملهم هذا . و { ما تعملون } ما اعتقدوه وما صنعوا من أسباب تخلفهم عن نفي الرسول وكثيراً ما سمى القرآن الاعتقاد عملاً . وفي قوله : { وكان بما تعملون خبيراً } تهديد ووعيد .

الحديد : " وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) : قال ابن كثير : " وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ أَي فَلَخْبِرْتَهُ فَأَوْتَبَ بَيْنَ ثَوَابِ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِقَصْدِ الْأَوَّلِ وَإِخْلَاصِهِ النَّامِ وَإِنْفَاقِهِ فِي حَالِ الْجُهْدِ وَالْقَلَّةِ وَالضِّيْقِ، وَفِي الْحَدِيثِ «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ»² وَلَا شَكَّ عِنْدَ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنَّ الصَّدِيقَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ الْحِظُّ الْأَوْفَرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ سَيِّدٌ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ سَائِرِ أُمَّ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُ أَنْفَقَ مَالَهُ كُلَّهُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ

¹ - فتح القدير : 55/5 - 56 .

² - عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبق درهم مائة ألف درهم فقال رجل وكيف ذلك يا رسول الله قال : رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به " . رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه الألباني في : صحيح الترغيب والترهيب : 215/1 .

وَجَلَّ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ يَجْزِيهِ بِهَا"¹. فالتعقيب هنا فيه تعليل وترغيب لأن قبله معنيان كملا بهذين المعنيين .

المجادلة : " وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) : ذَلِكَ تُوعَطُونَ بِهِ أَيُّ تُزَجَّرُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ أَيُّ خَبِيرٌ بِمَا يُصَلِّحُكُمْ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ ، ففي التعقيب تكميل للزجر وتعليل للحكم .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) : فهم ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه ترغيب الخبير بأعمال خلقه للمؤمنين في العلم ، قال ابن الجوزي : " وكان ابن مسعود يقول: أيها الناس: افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق من لا يعلم درجات"² وختمها بالخبير دون البصير أو العليم لنكتة نفوذ علم الخبير وبصره إلى كنه الأشياء ففيه زيادة ترغيب ، ولا ينبئك مثل خبير .

أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13) : وَجُمْلَةُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ تَدْبِيلٌ لَجُمْلَةِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّحْذِيرِ مِنَ التَّقْرِيطِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

الحشر : " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْتَظِرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) : لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ { أي في كل ما تأتون وما تدرُونَ } وَلْتَنْتَظِرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ { أي شئ قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتتكبره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغد لا يعرف كنهه لغاية عظمه وأما تتكبر نفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنتظر نفس واحدة ذلك } واتقوا الله { تكرر للتأكيد أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى { أَنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } أي من المعاصي³ ، ففي هذا التعقيب تعليل لأمره المؤكد بالتركرار ففيه تكميل التوكيد ليثبت الوعيد والخوف الشديد .

¹ - تفسير ابن كثير : 47/8 .

² - ابن الجوزي - زاد المسير في علم التفسير : 247/4 .

³ - ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 232/8 .

المنافقون : " وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11) : وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ : عطف على جملة { لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم } [المنافقون : 9] . أو تذييل والواو اعتراضية .

ويفيد بناء الخبر على الجملة الاسمية تحقيقَ علم الله بما يعمله المؤمنون . ولما كان المؤمنون لا يخامرهم شك في ذلك كان التحقيق والتقوي راجعاً إلى لازم الخبر وهو الوعد والوعيد والمقام هنا مقامهما لأن الإنفاق المأمور به منه الواجب المندوب . وفعلهما يستحق الوعد . وترك أولهما يستحق الوعيد .

وإيثار وصف { خبير } دون : عليم ، لما تؤذن به مادة { خبير } من العلم بالأمور الخفية ليفيد أنه تعالى عليم بما ظهر من الأعمال وما بطن مثل أعمال القلب التي هي العزائم والنيات وإيقاع هذه الجملة بعد ذكر ما يقطع الموت من ازدياد الأعمال الصالحة إيماء إلى أن ما عسى أن يقطع الموت من العزم على العمل إذا كان وقته المعين له شرعاً ممتداً كالعمر للحج على المستطيع لمن لم يتوقع طرؤ مانع . وكالوقت المختار للصلوات ، أن حيلولة الموت دون إتمامه لا يُرزىء المؤمن ثوابه لأن المؤمن إذا اعتاد حزياً أو عزم على عمل صالح ثم عرض له ما منعه منه أن الله يعطيه أجره .

ومن هذا القبيل : أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة كما في الحديث الصحيح .

وقرأ الجمهور { بما تعملون } بالمتثناة الفوقية . وقرأه أبو بكر عن عاصم بالمتثناة التحتية فيكون ضمير الغيبة عائداً إلى { نفساً } الواقع في سياق النفي لأنه عام فله حكم الجمع في المعنى¹ .
التغابن : " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6) رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) سقنا كل هذه الآيات ليفهم تعليق الألووسي رحمه الله عليها بيانياً ، قال : " وقوله سبحانه: فَآمَنُوا إِلَى خَبِيرٍ من الاعتراض ، فالأول يحقق

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 28 / 255 - 256 .

القدرة على البعث، والثاني يؤكد ما سيق له الكلام من الحث على الإيمان به وبما تضمنه من الكتاب وبمن جاء به، وبالْحَقِيقَةُ هو نتيجة قوله تعالى: **لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَّبَّؤُنَّ** قدم على معموله للاهتمام فجرى مجرى الاعتراض، وقوله سبحانه: **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** اعتراض في اعتراض لأنه من تنمة الحث على الإيمان كما نقول: **اعمل إني غير غافر عنك**، وقال الحوفي: **ظرف- لخبير- وهو عند غير واحد من الأجلة بمعنى مجازيكم فيتضمن الوعد والوعيد.**

وجعله الزمخشري بمعنى معاقبكم، ثم جوز هذا الوجه، وتعقب بأنه يرد عليه أنه ليس لمجرد الوعيد بل للحث كيف لا والوعيد قد تم بقوله تعالى: **لَتُنَّبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ** فلم يحسن جعله بمعنى معاقبكم فتدبر¹

العاديات : " **إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11) : {إِنَّ رَبَّهُمْ} أي المبعوثين كَنَى عَنْهُمْ** بعد الإحياء الثاني بضمير العقلاء بعدما عبر عنهم قبل ذلك بما بناءً على تفاوتهم في الحالين كما فعل نظيره بعد الإحياء الأول حيث التفت إلى الخطاب في قوله تعالى **{وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ}** الآية بعد قوله **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ** إيداناً بصلاحياتهم للخطاب بعد نفخ الروح وبعدها قبله كما أشير إليه هناك **{بِهِمْ}** بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها **{يَوْمَئِذٍ}** يوم إذ يكون ما ذكر من بعث ما في القبور وتحصيل ما في الصدور **{الْخَبِيرُ}** أي عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه علماً موجياً للجزاء متصلاً به كما ينبىء عنه تقييده بذلك اليوم وإلا فمطلق علمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون وقوله تعالى بهم ويومئذ متعلقان بخبير قدما عليه لمراعاة الفواصل واللام غير مانعة من ذلك.²

المطلب التاسع : العليم : عليم / عالم / عالم

عند إتمام النظر وإمعانه في ما عقبت به الآيات بثلاث الصفات : بصير وخبير وعلیم كلها نكرات منفردات عن غيرها من الأسماء والصفات في كل أحوالها مقترنات مقيدات ، الثنتان الأوليان في أغلب الأحيان بظرف : " **بما تعملون** " مقدمتان أو مؤخرتان بحسب فواصل القرآن ونكت البيان وعلیم شرطه مع أظرفة القرآن دلالتها على الجمع ليفيد الإحاطة بها أيما بيان ، فلا جرم تقارب هذه الصفات في المعاني والقلوب لابد تتفكر في إدراك لطائفها وتعاني .

¹ روح المعاني : 380/14 .

² ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 191/9 - 192 .

عليم صيغة مبالغة على وزن فعيل، علام أيضاً صيغة مبالغة على وزن فعّال، عالم إسم فاعل. مبالغة تعني كثرة في الأشياء، القرآن له تخصيصات في الإستعمال أحياناً يخصص بعض المفردات بمعنى معين وإستعمال معين ودلالة معينة بما يدل على القصد في الإستعمال

كلمة عالم في القرآن لم ترد إلا في عالم الغيب مفرداً أو الغيب والشهادة، إما الغيب وإما الغيب والشهادة في القرآن كله لم ترد كلمة عالم في 14 موضعاً لم ترد بمعنى آخر. مقترنة بالغيب (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) الجن) أو بالغيب والشهادة (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73) الأنعام) أو لم تقترن (عالم) إسم فاعل لا يدل على الكثير عادة فاستعملها بالمفرد الذي لا يدل على التكرير. (علام) خصصها للغيوب (وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) التوبة) لا تجد كلمة علام في القرآن في غير علام الغيوب ولم ترد إلا مع الغيوب جمع الغيب ، فالعلام كثرة والغيوب كثرة مثل سماع وسميع في القرآن: سماع استعملها في الذم (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ (41) المائدة) (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ (47) التوبة) وسميع إستعملها تعالى لنفسه (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) واستعملها في الثناء على الإنسان (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) الإنسان) وسماع لم يستعملها إلا في الذم. إذن القرآن يخصص في الاستعمال. عليم مطلقة ويستعملها في كل المعلومات على سبيل الإطلاق (بكل شيء عليم) يستعملها إما للإطلاق على الكثير أو يطلقها بدون تقييد (واسع عليم) وحينها تردف بصفة أخرى كما سيأتي بيانه في مباحث الاقتران ، أو يستعملها مع الجمع أو فعل الجمع. مثلاً لما يقول (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) يونس) هذه مطلقة (كل) تدل على العموم، (بكل شيء عليم) هذا إطلاق، أو على العموم. قلنا إذن يستعملها مطلقة (إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)، أو عامة (بكل شيء عليم) أو مع الجمع أو مع فعل الجمع. مع الجمع (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) جمع، (فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ) جمع، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) جمع، (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) جمع. إما أن تستعمل عامة مع لكل الخلق، كل شيء أو مطلقة (واسع عليم) (سميع عليم) ليست مقيدة بشيء أو بالجمع (المتقين، المفسدين، الظالمين، بذات الصدور) أو بفعل الجمع (وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215) البقرة) لم يقل وما تفعل من خير، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) يوسف) (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) النور) للجمع أو فعل الجمع. إذن كلمة عليم لم تحدد بشيء معين إما للعموم أو كونها مطلقة من كل شيء أو مع الجمع أو مع فعل الجمع لم تأت مع متعلق مفرد

مطلقاً في القرآن لا تجد عليم بفلان أو بفعل فلان. علام محددة، عالم محددة، عليم هذه استعمالاتها:

الآيات التي ذكر فيها مرفوعاً :

البقرة : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) فمن ثم خلقهن خلقاً مستويا محكما من غير تفاوت مع خلق ما في الأرض على حسب الحاجات وكفاء المصالح، ومقتضى الحكمة والتدبير. وهذا عام لم يدخله التخصيص قط، وبه يهدم بناء من زعم أنه غير عالم بالجزئيات، لأنه تعالى لو لم يعرف تفاصيلها لم تكن مخلوقاته على غاية الإتيان والإحكام، فسبحانه من خبير يعلم الذرة في الأجواف، والدرة في الأصداف، والقطرة في البحر، والخطرة في النحر، وعلى هذا يدور نظام العالم وبه يحصل قوام مناهج بني آدم. قال البقاعي : حذف أولاً كون الأراضي سبعا لدلالة الثاني عليه، وثانياً كون ما في السماء لنا لدلالة الأول عليه؛ وهو فن عزيز نفيس يعرف بالاحتباك .

ولما كان الخلق على هذه الكيفية دالاً بالبديهة على أتم قدرة لسانعه وكان العلم بأن مبنى ذلك على العلم محتاجاً إلى تأمل اغتنى في مقطع الآية بقوله: {وهو بكل شيء عليم} أي فهو على كل شيء قدير. فجملة : " وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله من خلق السموات والأرض وما فيها على هذا النمط البديع المنطوي على الحكمة الفائقة والمصالح اللاتقة فإن علمه عز وجل بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعي أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق .

وقد يسأل عن اللطيفة في قوله تعالى في سورة البقرة: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) . وفي آل عمران: (قُلْ إِنْ تُحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29) .

فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بالقدرة، وفي آل عمران الختم بالعلم. والجواب أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها على

حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، وخلق السماوات خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، والخالقُ على الوصف المذكور يجب أن يكون عالماً بما فعله كلياً وجزئياً، جملاً ومفصلاً - ناسب ختمها بصفة العلم.

آية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار، وكان التعبير بالعلم فيها كناية

عن المجازاة بالثواب والعقاب ناسب ختمها بصفة القدرة.¹

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) : هذا التعقيب حذف فيه الْمُوصُوفِ وأتى بالصفة " الضالمين " " فَإِنَّ الْإِعْتِمَادَ فِي سِيَاقِ الْقَوْلِ عَلَى مُجَرِّدِ الصِّفَةِ لِتَعْلُقِ غَرَضِ الْقَوْلِ مِنَ الْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ بِهَا.

وقد يحذف الموصوف شرط كون الصِّفَةِ خَاصَّةً بِالْمَوْصُوفِ حَتَّى يَحْصُلَ الْعِلْمُ بِالْمَوْصُوفِ فَمَتَى كَانَتِ الصِّفَةُ عَامَّةً اِمْتَنَعَ حَذْفُ الْمَوْصُوفِ نَصَّ عَلَيْهِ سَبِيؤِيهِ فِي آخِرِ بَابِ تَرْجَمَةِ [هَذَا بَابُ مَجَارِي أَوْ آخِرِ الْكَلِمِ الْعَرَبِيَّةِ] وَكَذَلِكَ نَصَّ عَلَيْهِ أَرْسَطَاطَا لَيْسَ فِي كِتَابِهِ الْخَطَابَةُ².

وحذف الموصوف في هذا التعقيب للطيفة خفية وهي تهديدهم والتنبيه على أنهم ظالمون في ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم، والمراد - بالعلم - إما ظاهر معناه، أو أنه كني به عن المجازاة - وأل - إما للعهد وإيثار الإظهار على الإضمار للذم، وإما للجنس فيدخل المعهودون فيه على طرز ما تقدم. ولطيفة أخرى قالها شيخ البيان : " قوله : { والله عليم بالظالمين } خبر مستعمل في التهديد لأن القدير إذا علم بظلم الظالم لم يتأخر عن معاقبته فهذا كقول زهير :

فمهما يكتم الله يعلم ... وقد عدت هذه الآية في دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنها نفت صدور تمني الموت مع حرصهم على أن يظهروا تكذيب هذه الآية . ولا يقال لعلهم تمنوا الموت بقلوبهم لأن التمني بالقلب لو وقع لنتقوا به بألسنتهم لقصد الإعلان بإبطال هذه الوصمة فسكوتهم يدل على عدم وقوعه وإن كان التمني موضعه القلب لأنه طلب قلبي إذ هو محبة حصول الشيء وتقدم في قوله : { إلا أمانى } [البقرة : 78] أن الأمنية ما يقدر في

¹ - جلال الدين السيوطي - معترك الأقران في إعجاز القرآن - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - 1/ 1408 هـ - 1988 م - ص : 37/1 .

² - أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ) - البرهان في علوم القرآن - ت - محمد أبو الفضل إبراهيم - ط : 1/ 1376 هـ - 1957 م - دار المعرفة، بيروت، لبنان - ص : 154/3 .

القلب . وهذا بالنسبة إلى اليهود المخاطبين زمن النزول ظاهر إذ لم ينقل عن أحد منهم أنه تمنى الموت كما أخبرت الآية . وهي أيضاً من أعظم الدلائل عند أولئك اليهود على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فإنهم قد أيقن كل واحد منهم أنه لا يتمنى الموت وأيقن أن بقية قومه لا يتمنونه لأنه لو تمناه أحد لأعلن بذلك لعلمهم بحرص كل واحد منهم على إبطال حكم هذه الآية ، ويفيد بذلك إعجازاً عاماً على تعاقب الأجيال كما أفاد عجز العرب عن المعارضة علم جميع الباحثين بأن القرآن معجز وأنه من عند الله . على أن الظاهر أن الآية تشمل اليهود الذين يأتون بعد يهود عصر النزول إذ لا يعرف أن يهودياً تمنى الموت إلى اليوم فهذا ارتقاء في دلائل النبوة . وجملة { والله عليم بالظالمين } في موضع الحال من ضمير الرفع في { يتمنوه } أي علم الله ما في نفوسهم فأخبر رسوله بأن يتحداهم وهذا زيادة في تسجيل امتناعهم من تمنى الموت " ¹ .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215) جملة : " إِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ " تعلقت بفاء الجواب فهي تعقيب يفيد الترغيب في جزاء العليم الذي لا تخفى عليه الأعمال .

" أخرج ابن أبي حاتم بسنده الصحيح عن قتادة قوله (فإن الله به عليم) قال: محفوظ ذلك عند الله عالم به شاكر له وإنه لا شيء أشكر من الله ولا أجراً بخير من الله" ² .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوماً وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231) تذييل فيه تأكيد وتهديد لأن في قوله : { واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم } تذكير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأن الله عليم بكل شيء تنزيلاً لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد

¹ . الطاهر بن عاشور - التحرير والتنوير : 616/1 .

² - حكمت بن بشير بن ياسين - موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور - دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة -

المدينة النبوية ط : 1 / 1420 هـ - 1999 م - 327/1 .

الشريعة ، منزلة من يجهل أن الله عليم ، فإن العليم لا يخفى عليه شيء ، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء ، لأن هذا العليم قدير .

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) ، جملة : " وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ " فيها وعيد وتهديد لمن تقاعد عن القتال بعد أن فرض عليه بسؤاله ورغبته ، وأي وعيد أبلغ من أن وضع الظالمين موضع الضمير العائد إليهم . قال الراجز :

مَنْ قَالَ لَا فِي حَاجَةٍ ... مَسْئُولَةٌ فَمَا ظَلَمَ
وَإِنَّمَا الظَّالِمُ مِنْ ... يَقُولُ لَا بَعْدَ نَعَمَ .

- لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْأَفًا وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) قوله تعالى : { فإن الله به عليم } كناية عن الجزاء عليه لأن العلم يكتى به عن أثره كثيراً ، فلما كان الإنفاق مرغباً فيه من الله ، وكان علم الله بذلك معروفاً للمسلمين ، تعين أن يكون الإخبار بأنه عليم به أنه عليم بامتثال المنفق ، أي فهو لا يضيع أجره إذ لا يمنعه منه مانع بعد كونه عليمًا به ، لأنه قدير عليه ، فالتعقيب للترغيب .

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلََّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَؤُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَفْطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282) : إن قيل: كيف

قال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وكرر لفظ (الله) ثلاث متواليات ولم يعدل إلى الكناية، وهل ذلك في استقباح خط الإعادة لولا شرف لفظ (الله).

كقول الشاعر: " فما للنوى جد النوى قطع النوى "

حتى قيل: " سلط الله على هذا البيت شاة ترعى منه النوى "، وكقول ابن الرومي:

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى ... وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

فاستردل البيت لإعادة لفظ " السيف " مراراً...¹

قيل: إن ذلك بعيد عن الآية، فإن البيت الأولى استقبح لا لإعادة النوى فقط، بل له، ولأن قول " جذ النوى قطع النوى " بمنزلة واحدة، ولهذا الباب قانون يعرف به المستقبح من المستحسن، وهو أن كل تكرير على طريق تعظيم الأمر وتحقيره في جمل مواليات كل جملة، ومنها مستقلة بنفسها، فذلك غير مستقبح، وإذا كان ذلك في جملة واحدة أو في جمل في معنى واحد، أو لم يكن فيه التعظيم أو التحقير، فذلك مستقبح، وهذا ظاهر في الآية والأبيات المذكورة، فإنما قوله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} حمل في معان مفترقة، فإن الأول: حث على تقوى الله، والثاني: تذكير بنعمه، والثالث: تعظيم له متضمن لوعده ووعيد شديد وفصد عظيم كل واحد من هذه الأحكام، فأعيد لفظ (الله) فيها ..

فأما البيت الثاني: فهو جملة واحدة، لأن قوله: كجهل السيف في موضع لقوله: يجهل، وكذلك قوله: " والسيد مغمد " جاء لقوله: اللحم للسيف، وعلى قول الآخر: " لا أرى الموت يسبق والموت شيء " فإن قوله: (يسبق الموت) " مفعول ثان " لقوله: (لا أرى)، والكلام كله جملة واحدة، وهذا ظاهر...² ثم هذه الآية أطول آية في القرآن وأبسطها شرحاً وأبينها وأبلغها وجوهاً يعلم بذلك أن مراعاة حقوق الخلق واجبة والاحتياط على الأموال التي بها أمور الدين والدنيا لازم فمن سعى بالحق فقد نجا والا فقد غوى فلا يخلو قوله: " والله بكل شيء عليم " من التعليل لكل هذه الأحكام فيها . والله أعلم .

¹ - أما صاحب بن عبّاد فيراه خير بيت في قصيدة ابن الرومي : لَوْ لَمْ يُعِدْهُ لَفَسَدَ الْبَيْتُ، قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ: وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ الصَّاحِبُ- ثُمَّ قَالَ- قَالَهُ أَبُو يَعْقُوبَ: إِنَّ الْكِنَايَةَ وَالْتَعْرِيزَ لَا يَعْمَلَانِ فِي الْعُقُولِ عَمَلَ الْإِفْصَاحِ وَالْكَشْفِ لِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ لِإِعَادَةِ اللَّفْظِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ [الإِسْرَاءُ: 105] وَقَوْلِهِ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ [الصَّمَدُ: 1، 2]

عَمَلٌ لَوْلَا لَمْ يَكُنْ. ينظر : التحرير والتنوير : 118/3 .

² - ينظر : الراغب الأصفهاني : تفسيرالقرآن : 591/1 .

- وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)

التذليل في آيتين متتاليتين بصفة عليم وظرفها مرة " كل شيء " ومرة " ما تعملون " يومئ إلى تحذير من يكتم الشهادة ولم يؤد ما ائتمن عليه، وأن المراد بإثم القلب مسخه والعياذ بالله، ومن هنا قيل: ما أوعد الله على شيء كإيعاده على كتم الشهادة، فما أعجب نظم هذه الآيات في تنظيم الإدارة الإنسانية، لأن عدم المضارّة المذكورة من الطرفين والكتاب والشهود جزء من أجزاء الإدارة اللازمة للبشر، ومع هذا فإن الله جل جلاله قد بالغ في التأكيد على القيام بها بالعدل والتشديد على من يخرم شيئاً منها، وقد كرر لفظ التقوى فيها لأنها تقي الإنسان من الوقوع فيما لا يرضي الله، لأنه قد يفرط في أمور يظنها من التقوى وليست منها، وقد يتسامح في أمور يظنها من التقوى وليست منها أيضاً، بل قد تؤدي لما يحذر منه كمن يعطي ماله لسفيه أو يدين غيره بلا سند ولا شهود مع القدرة عليها، إذ ليس من الدين تقريط المرء في حفظ ماله إذ يعرضه لضياعه ومن ترك أمراً من أمور الدين أحوجه الله إليه، ولهذا أوجب الشارع الحجر على الإنسان في الأحوال المارة الذكر في الآية السابقة، لأن الدين يأمر باتخاذ الوسائل لصيانة المال كما يأمره باتخاذها لصيانة النفس، ولهذا وضع الله تعالى أسساً للتعامل لانتظام معاملة الناس فالتوثق بها خير ضمان لمصلحة العامة.¹

آل عمران : فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63) : أي بهم، أو بكم، والجملة جواب الشرط في الظاهر لكن المعنى على ما يترتب على علمه بالمُفْسِدِينَ من معاقبته لهم، فالكلام للوعيد² ووضع الظاهر موضع الضمير تنبيهاً على العلة المقتضية للجزاء والعقاب وهي الإفساد، وقيل: المعنى على أن الله عَلِيمٌ بهؤلاء المجادلين بغير حق وبأنهم لا يقدمون على مباحثتك لمعرفةهم نبوتك وثبوت رسالتك، والجملة على هذا أيضاً عند التحقيق قائمة مقام الجواب إلا أنه ليس الجزاء والعقاب، والكلام منساق لتسليته صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يخفى ما فيه.³

¹ - ينظر : عبد القادر بن ملاً حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: 1398هـ) - بيان المعاني - مطبعة الترقى -

دمشق - ط : 1 / 1382 هـ - 1965 م - ص : 264 / 5 .

² - ينظر : إرشاد العقل السليم : 47/2

³ - ينظر : روح المعاني : 183/2 .

- وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115) : بيان اللطيفة يحتاج إلى وضع هذه الآية في سياقها من الآي قبلها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ (111) ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115) { وما يفعلوا من خير فلن يكفروه } قرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو بكر بالتاء فيهما على الخطاب ، واختلفوا في المخاطب . فقال أبو حاتم : هو مردود إلى قوله : { كنتم خير أمة } فيكون من تلوين الخطاب ومعدوله . وقال مكي : التاء فيها عموم لجميع الأمة . والذي يظهر أنها التقات إلى قوله : أمة قائمة ، لما وصفهم بأوصاف جليلة اقبل عليهم تأنيساً لهم واستعطافاً عليهم ، فخاطبهم بأن ما تفعلون من الخير فلا تمنعون ثوابه . ولذلك اقتصر على قوله : من خير ، لأنه موضع عطف عليهم وترحم ، ولم يتعرض لذكر الشر . ومعلوم أن كل ما يفعل من خير وشر يترتب عليه موعوده . ويؤيد هذا الالتفات وأنه راجع إلى أمة قائمة قراءة الياء ، وهي قراءة : ابن عباس ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، وعبد الوارث عن أبي عمرو ، واختيار أبي عبيد ، وباقي رواة أبي عمرو خير بين التاء والياء ، ومعلوم في هذه القراءة ، ومعلوم في هذه القراءة ، أن الضمير عائد على أمة قائمة ، كما عاد في قوله تعالى : يتلون وما بعده . وكفر : يتعدى إلى واحد ، يقال : كفر النعمة ، وهنا ضمن معنى حرم ، أي : فلن تحرموا ثوابه ولما جاء وصفه تعالى بأنه شكور في معنى توفية الثواب ، نفى عنه تعالى نقيض الشكر وهو كفر الثواب ، أي حرمانه أما التعقيب بقوله : { والله عليم بالمتقين } لأن الآية لما كانت واردة فيمن اتصف بالأوصاف الجميلة ، وأخبر تعالى أنه يثيب على فعل الخير ناسب ختم الآية بذكر علمه بالمتقين ، وإن كان عالماً بالمتقين وبضدهم ومعنى عليم بهم : أنه مجازيهم على تقواهم ، وفي ذلك وعد للمتقين ، ووعيد للمفرتين ¹ .

¹ - ينظر : أبو حيان الأندلسي - البحر المحيط : 313/3 . وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 91/2 .

ولما كان بين الشاهدين آيات قليلة نوردتها كلها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) :

لعل من أفضل من وقف على نكتة التذليل في هذه الآية وهجم على دقيق معناها في أوجز عباه هو الألوسي رحمه الله ، قال : أي بما خفي فيها، وهذا يحتمل أن يكون من تنمة المقول أي قل لهم إن الله تعالى عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل إذا خلوتم فيجازى به وهنا يعد تعقيب وعيد ، وأن يكون خارجا عنه أي قل لهم ما تقدم ولا تتعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم، والنهي عن التعجب حينئذ إما خارج مخرج العادة مجازا بناء على أن المخاطب عالم بمضمون هذه الجملة، وإما باق على حقيقته إن كان المخاطب غير ذلك ممن يقف على هذا الخطاب فلا إشكال على التقديرين ¹.

النساء : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَدٌّ وَرَأْسُهَا فَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَدٌّ فَإِنْ كَانَتْ أَنْثَى فَلَهَا النَّسَاءُ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176) اللطيفة في ختم السورة بقوله : " يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " تستنبط بالنظر في السورة من أولها إلى آخرها فهي ملأى بالأحكام التي تحتاج إلى علم به يتقى المولى فأمر في أولها بالنقوى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ". ليشرع في تعليم الأحكام :

فأعلم تعالى بكيفية النكاح المجمعول سببا في التنازل وما يتعلق به، وبين حكم الأرحام والمواريث، وتضمنت السورة ابتداء الأمر وانهاؤه فاعلمنا بكيفية النكاح، وصورة الاعتصام واحترام بعضنا لبعض كيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق، وبين لنا

¹ . ينظر : روح البيان : 256/2 .

ما ينكح وما لا ينكح وما أبيح من العدد، وحكم من لم يجد الطول وما يتعلق بهذا إلى المواريث فصل ذلك كله، إلا الطلاق لأن أحكامه قد تقدمت، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والاتلاف ورعي حقوق ذوي الأرحام) وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت المكتوب علينا وناسب هذا المقصود (من) التواصل والألفة ما افتتحت به

السورة من قوله (تعالى) : "اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا" بالالتئام والوصلة، ولهذا خصت حكم تشاجر الزوجين بالإعلام بصورة الإصلاح والعدل إبقاء لذلك التواصل، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع له هنا ذكر ولا إيماء "وإن ينفرقا يغن الله كلا من سعته " ولكنة ما يعرض من رعى حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة وبدق ذلك ويغمض، لذلك ما تكرر كثيرا في هذه السورة الأمر بالاتقاء، وبه افتتحت "اتَّقُوا رَبَّكُمْ" " واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ" "وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ" ثم حذروا من حال من صمم على الكفر، وحال اليهود والنصارى والمنافقين وذوى التقلب في الأديان بعدا عن اليقين، "وكل ذلك تأكيد لما أمروا به من الاتقاء، والتحمت الآيات إلى الختم بالكلالة من المواريث المتقدمة، ثم ذيلت بما هو بمثابة تعليل لما بينه فيها من أحكام وأنها من لدن رب أحاط بكل شيء علما ، فاتقاءه فيما حكم به وأمر فلاح ونجاح ونجاة من الضلالة والله أعلم .

المائدة : واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واتقكم به إذ قلنتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور (7) قوله : {إن الله عليم بذات الصدور} أي بخفياتها الملايسة لها ملايسة تامة مصححة لإطلاق صاحب عليها فيجازيكم عليها فما ظنكم بحليات الأعمال والجملنة اعتراض تذييلي وتعليل الأمر بالاتقاء وإظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار لتريه المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة ¹.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) : هذه الآية استئناف بياني لأنه يحصل به جواب عما يخطر في نفس السامع من البحث عن حكمة تحريم الصيد في الحرم وفي حال الإحرام، بأن ذلك من تعظيم شأن الكعبة التي حرمت أرض الحرم لأجل تعظيمها، وتذكير بنعمة الله على سكانه بما جعل لهم من الأمن في علائقها وشعائرها. وقوله:

¹ - ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 12/3 .

(الْبَيْتَ الْحَرَامَ) يصح أن يكون بدلاً من قوله: (الْكَعْبَةَ)، وقوله: (قِيَامًا) في موضع الحال، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، ويصح أن يجعل (الْبَيْتَ الْحَرَامَ) مفعولاً ثانياً، ويجعل (قِيَامًا) حالاً، والقوام ما يُقوم به الأمر في معاشهم وصلاح أبدانهم، ونقاء نفوسهم، ونبه تعالى أن الإنسان إذا تفكر فيها بين الله لهم من يعظم الكعبة، والشهر الحرام والهدي والقلائد. فنبه بذلك أن الله تعالى لإحاطة علمه بالأشياء قبل كونها ومعرفته لمصالح العباد جعل ذلك سبباً لعبادتهم لله تعالى، قال الأصم: (قِيَامًا لِلنَّاسِ) أي: دائماً لهم لا يُنسخ حكمه، وقال الحسن: يعني بالشهر الحرام: الأشهر الحرم فأخرج اللفظ مخرج الواحد، فإن قيل ما فائدة قوله: (وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) بعد قوله: (مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)؟ قيل: إن لفظ قوله: يعلم إخبار عن المستقبل (وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أن ليس علمه مقصور على ما تقدم، بل هو عالم الغيب والشهادة، إن قيل: كيف جعل قِيَامًا علة لعلمنا أن الله يعلم ما في السموات والأرض؟ قيل: ليس هذا متعلق بل هو متعلق به وبما قبله.

ونبه أنه تعالى قِيَضَ إما باعث من خارج أو باعث من داخل على تحريم القتال في الشهر الحرام، ولتعظيم الكعبة ليكون ذلك سبباً لمصالح الناس التي من تفكر فيها علم أن الله فعله لعلمه بالخفيات.¹ وعليه فقوله: " {لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} فَإِنْ تَشْرِيْعُ هَذِهِ الشَّرَائِعِ الْمَسْتَتْبِعَةِ لِدَفْعِ الْمَضَارِّ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ قَبْلَ وَقُوعِهَا وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ الْأَوْلَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ مِنْ أَوْضَحِ الدَّلَائِلِ عَلَى حِكْمَةِ الشَّرَاعِ وَعَدَمِ خُرُوجِ شَيْءٍ عَنْ عِلْمِهِ الْمَحِيْطِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى {وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} تَعْمِيمٌ يُثَرِّتُ تَخْصِيصِ التَّوَكُّيدِ وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْأَعْيَانُ الْمَوْجُودَةُ فِيهِمَا وَبِكُلِّ شَيْءٍ الْأُمُورُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِتِلْكَ الْمَوْجُودَاتِ مِنَ الْعَوَارِضِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمَعَانِي .

الأنعام : بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) : أي مبدعهما كما ذكر مثل ذلك في البقرة وليس المراد أنَّهُمَا بديعة سماواته وأرضه كما تحتمله العربية لولا السياق لأن المقصود نفي ما زعموه من خرق البنين والبنات له ومن كونه اتخذ ولدا

¹ - ينظر : تفسير الراغب الأصفهاني : 456/5 - 457 .

وَهَذَا يَنْتَفِي بِضَدِّهِ كَوْنَهُ أَبَدُ عِ السَّمَوَاتِ ثُمَّ قَالَ {أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ} وَذَكَرَ ثَلَاثَةَ أَدِلَّةٍ عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ : أَحَدَهَا كَوْنَهُ لَيْسَ لَهُ صَاحِبَةٌ فَهَذَا نَفْيُ الْوِلَادَةِ الْمَعْهُودَةِ وَقَوْلُهُ {وَوَخَّلِقْ كُلَّ شَيْءٍ} نَفْيُ الْوِلَادَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَهِيَ التَّوَلَّدُ لِأَنَّ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ يُنَافِي تَوْلَادَهَا عَنْهُ وَقَوْلُهُ {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} يَشْبَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ يَكُونُ لَهَا إِدْعَى النَّصَارَى أَنَّ الْمُتَّحِدَ بِهِ هُوَ الْكَلِمَةُ الَّتِي يَفْسِرُونَهَا بِالْعِلْمِ وَالصَّائِبَةِ الْفَائِلُونَ بِالتَّوَلَّدِ وَالْعَلَّةُ لَا يَجْعَلُونَهُ عَالِمًا بِكُلِّ شَيْءٍ ذَكَرَ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لِإِثْبَاتِ هَذِهِ الصِّفَةِ لَهُ رَدًا عَلَى الصَّائِبَةِ وَنَفْيًا عَنْ غَيْرِهِ رَدًا عَلَى النَّصَارَى .¹ وَقَوْلُهُ : {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} تَذْيِيلٌ فِيهِ تَوْكِيدٌ وَتَتْمِيمٌ لِقَوْلِهِ : {وَوَخَّلِقْ كُلَّ شَيْءٍ} الَّذِي يَدْفَعُ وَجُودَ الْوَلَدِ لِأَنَّ الْوَلَدَ غَيْرَ الْوَالِدِ وَكُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِ قَدْ أَعْلَمْنَا اللَّهُ بِعِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ ، فَلَا وَجُودَ لِلْوَلَدِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

الأنفال : إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَسَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) : وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ مِنَ الْفَسْلِ وَالتَّنَازَعِ بِتَأْيِيدِهِ وَعِصْمَتِهِ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَحْصُلُ فِيهَا مِنَ الْجَرَاءِ وَالْجَبْنِ وَالصَّبْرِ وَالْجَزَعِ ، وَمَنْ يَمِيلُ إِلَى الْإِقْدَامِ وَمَنْ يَجْنَحُ إِلَى الْإِحْجَامِ ، فَالتَّعْقِيبُ لِلتَّعْلِيلِ .

- وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75) هَذِهِ السُّورَةُ أَيْضًا خَتَمَتْ بِكَوْنِهِ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ كَمَا خَتَمَتْ النِّسَاءُ وَزَيْدٌ عَلَى مَا تَذْيِيلُ سُورَةِ النِّسَاءِ " إِنَّ " لِتَوْكِيدِ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ وَفِي هَذِهِ بَيَانٌ مَا فَصَّلَهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أُمُورٍ بَيْنَ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، " فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقُرَابَةَ أَوْلَى مِنَ الْحَلْفِ ، فَتَرَكْتَ الْمُوَارِثَةَ بِالْحَلْفِ ، وَوَرِثُوا بِالْقُرَابَةِ " ² وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

التوبة : لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

¹ - ينظر : دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية : 123/2 .

² - القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشيلي المالكي (المتوفى: 543هـ) - أحكام القرآن - ت : محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط : 3 / 1424 هـ - 2003 م - ص : 543/3 .

سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) تقييد عليم بالضالمين وصفا لموصوف محذوف وهم المنافقون مقابلة للآية (44) التي قيد فيها بالأسلوب نفسه بالمتقين وصفا للمؤمنين المجاهدين فيه بليغ ذم ووعيد يقابله تسلية وترغيب .

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) لا بد لبيان نكتة التذليل من إكمال السياق بالسباق واللاحق ، قال العليم الخلاق : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116) : قال شيخ البيان : " قوله: وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم (115) عطف على جملة : { وما كان استغفار إبراهيم } [التوبة : 114] لاعتذار عن النبي وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام في استغفارهما لمن استغفرا لهما من أولي القربى كأبي طالب وأزر ومن الأمة كعبد الله بن أبي بن سلول بأن فعلهما ذلك ما كان إلا رجاءً منهما هدى من استغفرا له ، وإعانة له إن كان الله يريد ، فلما تبين لهما الثابت على كفره إما بموته عليه أو باليأس من إيمانه تركا الاستغفار له ، وذلك كله بعد أن أبلغا الرسالة ونصحا لمن استغفرا له . ولأجل هذا المعنى مهد الله لهما الاعتذار من قبل بقوله : { من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم } [التوبة : 113] وقوله : { فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه } [التوبة : 114] . وفي ذلك معذرة للمؤمنين المستغفرين للمشركين من أولي قرابتهم قبل هذا النهي . فهذا من باب { عفا الله عنك لم أذنت لهم } [التوبة : 43] .

وفيه تسجيل أيضاً لكون أولئك المشركين أحرىء بقطع الاستغفار لهم لأن أنبياء الله ما قطعوه عنهم إلا بعد أن أمهلهم ووعدهم وبيّنوا لهم وأعانهم بالدعاء لهم فما زادهم ذلك إلا طغياناً . ومعنى : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا } أن ليس من شأنه وعادة جلاله أن يكتب الضلال لقوم بعد إذ هداهم بإرسال الرسل إليهم وإرشادهم إلى الحق حتى يبين لهم الأشياء التي يريد منهم أن يتقوها ، أي يتجنبوها . فهناك يُبلغ رسله أن أولئك من أهل الضلال حتى يتركوا طلب المغفرة

لهم كما قال لنوح عليه السّلام : { فلا تسألنّ ما ليس لك به علم } [هود : 46] ولا كان من شأنه تعالى أن يكتب الضلال لقوم بعد إذ هداهم للإيمان واهتدوا إليه لعمل عملوه حتى يبين لهم أنه لا يرضى بذلك العمل .

ثم إن لفظ الآية صالح لإفادة معنى أن الله لا يؤاخذ النبي صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم عليه السلام ولا المسلمين باستغفارهم لمن استغفروا له من قبل ورود النهي وظهور دليل اليأس من المغفرة ، لأن الله لا يؤاخذ قوماً هداهم إلى الحق فيكتبهم ضلالاً بالمعاصي حتى يبين لهم أن ما عملوه معصية ، فموقع هذه الآية بعد جميع الكلام المتقدم صيرها كلاماً جامعاً تذيلاً .
وجملة { إن الله بكل شيء عليم } تذييل مناسب للجملة السابقة ، ووقوع { إن } في أولها يفيد معنى التفريع . والتعليل مضمون للجملة السابقة ، وهو أن الله لا يضل قوماً بعد أن هداهم حتى يبين لهم الحق .

وقوله : **إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)** ، تذييل ثان في قوة التأكيد لقوله : { إن الله بكل شيء عليم } [التوبة : 115] ، ولذلك فصل بدون عطف لأن ثبوت ملك السماوات والأرض لله تعالى يقتضي أن يكون عليماً بكل شيء لأن تخلف العلم عن التعلق ببعض الممتلكات يفضى إلى إضاعة شؤونها .
فافتتاح الجملة ب (إن) مع عدم الشك في مضمون الخبر يعين أن (إن) لمجرد الاهتمام فتكون مفيدة معنى التفريع بالفاء والتعليل .

ومعنى الملك : التصرف والتدبير . وقد تقدم عند قوله تعالى : { مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ } [الفاتحة : 4] .

وزيادة جمليتي : { يحيي ويميت } لتصوير معنى الملك في أتم مظاهره المحسوسة للناس المسلم بينهم أن ذلك من تصرف الله تعالى لا يستطيع أحد دفع ذلك ولا تأخيره .
وعطف جملة : { وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير } لتأييد المسلمين بأنهم منصورون في سائر الأحوال لأن الله وليهم فهو نصير لهم ، وإعلامهم بأنهم لا يخشون الكفار لأن الكافرين لا مولى لهم لأن الله غاضب عليهم فهو لا ينصرهم . وذلك مناسب لغرض الكلام المتعلق باستغفارهم للمشركين بأنه لا يفيدهم¹ .

¹ - التحرير والتنوير : 394/6 .

والحمد لله وحده في لطيفة يمنّ بها حين تدبّر الآيات الأربع كيف ابتدئت الثلاث الأولى بالنفي " ما كان " وخمت الأولى بـ " أولئك أصحاب الجحيم " حكما من الله على كل الكفار المشركين ومنهم أبو الخليل إبراهيم والثانية بتنزيه وإعذار إبراهيم : " إنّ إبراهيم لأواه حلیم " والثالثة في حكم ربّ العالمين بعلمه بين أوليائه وأصحاب الجحيم : " إنّ الله بكلّ شيء عليم " ثم الرابعة في توكيد كلّ ما نفي وأثبت من الملك الذي : " ما لكم من دون الله من وليٍّ ولا نصيرٍ " لتبرُّأ أولياء الله من أصحاب السعير ، فالحمد لله الطيف الخبير العلي القدير .

يونس : وما يتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) : إن الله ذو علم بما يفعل هؤلاء المشركون، من اتباعهم الظن، وتكذيبهم الحق اليقين، وهو لهم بالمرصاد، حيث لا يُغني عنهم ظنّهم من الله شيئا، فتوكيد جملة التعقيب لإيصال التهديد والوعيد .

هود : أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينٍ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5) قال أبو حيان : " نزلت في الأحنس بن شريق ، كان يجالس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحلف أنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر قاله ابن عباس. وعنه أيضا : في ناس كانوا يستحيون أن يفضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء. وقيل : في بعض المنافقين ، كان إذا مر بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثنى صدره وظهره وطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يرى الرسول قاله : عبد الله بن شدّاد. وقيل : في طائفة قالوا إذا أغلقنا أبوابنا ، وأرخينا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا ، وثنينا صدورنا ، على عداوته كيف يعلم بنا؟ ذكره الزجاج. وقيل : فعلوا ذلك ليبعد عليهم صوت الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا يدخل أسماعهم القرآن ذكره ابن الأنباري.¹ ، والتعقيب تعليلٌ لما سبق وتقريرٌ له واقع موقع الكبرى من القياس وفي صيغة الفعلِ وتحلية الصدورِ بلام الاستغراقِ والتعبيرِ عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة ما لا يصفه الواصفون كأنه قيل إنه مبالغٌ في الإحاطة بمضمرة جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ويجوزُ أن يُراد بذاتِ الصدورِ القلوبُ من قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التي في الصدور والمعنى أنه عليمٌ بالقلوبِ وأحوالها فلا يخفى عليه سرٌّ من أسرارها، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ زُهَيْرٌ بِنُ أَبِي سُلْمَى فِي مُعَلَّقَتِهِ الْمَشْهُورَةِ: [البسيط]

¹ - البحر المحيط : 121 / 120/6 .

فلا تكتمن الله ما في قلوبكم ... ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم

يُوخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرُ ... لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ يُعْجَلَ فَيُنْقَمَ¹

يوسف : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) : يقول تعالى ذكره: والله ذو علم بما يعمل به باعة يوسف ومشتروه في أمره، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولكنه ترك تغيير ذلك ليمضي فيه وفيهم حكمه السابق في علمه، وليري إخوة يوسف ويوسف وأباه قدرته فيه.

وصرح غير واحد من المفسرين أن هذا وعيد لإخوة يوسف عليه السلام على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم وجعلهم إياه، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم عرضة للابتذال بالبيع والشراء وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) : قال الألوسي في نكت هذا التعقيب : هو : مجاملة معهن واحترازا عن سوء مقالتهن وانتصابهن عند رفعهن إلى الملك للخصومة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن إلى الفساد، وفي الكشف أنه عليه السلام أراد بهذا أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله تعالى، أو استشهد بعلم الله تعالى على أنهم كدنه وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهن - أي عليم بكيدهن - فمجازيهن عليه انتهى.

وكان الحصر على الأول من قريه من زيد يعلم وصلوحه لإفادته عنده (1) أو من اقتضاء المقام لأنه إذا حمل على السؤال ثم أضاف علمه إلى الله تعالى دلّ به على عظمته، وأن الكنه غير مأمول الوصول لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، وهذا هو الوجه، وفيه زيادة تشويق وبعث إلى تعرف الأمر، فالجملة عليه تتميم لقوله: فَسَأَلَهُ الْخ والكيد اسم لما كدنه به، وعلى الوجه الثاني تكون تذييلا كأنه قيل: احمله على التعرف يتبين له براءة ساحتي فإن الله سبحانه يعلم أن ذلك كان كيدا منهم وإذا كان كيدا يكون لا محالة بريئا، والكيد هو الحدث وعلى الثالث تحتملها والمعنى بعث الملك على الغضب له والانتقام له والانتقام منهم، وإلا لم يتلاءم الكلام ولا يطابق كرم يوسف عليه السلام الذي عجب منه نبينا عليه الصلاة والسلام²

¹ - ديوان زهير بن أبي سلمى : 18 .

² - روح المعاني : 447 / 6 .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت أنا، لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر.¹

- فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) :

قال شيخ المفسرين : وقوله: (فوق كل ذي علم عليم) ، يقول تعالى ذكره: وفوق كل عالم من هو أعلم منه، حتى ينتهي ذلك إلى الله. وإنما عنى بذلك أن يوسف أعلم إخوته، وأن فوق يوسف من هو أعلم من يوسف، حتى ينتهي ذلك إلى الله. ثم قال : وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ثم أورد أربعة عشر أثرا بسنده أكثرها عن ابن عباس ثم الحسن ثم علي وعكرمة وقتادة تدور في المعنى الذي فسّر به التعقيب.² وقال أبو السعود رحمه الله : " فقلوه نَرْفَعُ درجاتٍ مَنْ نَشَاءُ توضيحٌ لقوله كدنا وبيانٌ لأن ذلك من باب الرفع إلى الدرجات العالية من العلم ومدحٌ ليوسف برفعه إليها وقوله وفوق كل ذي علمٍ عليمٌ تذييلٌ له أي نرفع درجاتٍ عاليةً من العلم من نشاء رفعه وفوق كلٍ منهم عليمٌ هو أعلى درجةً قال ابن عباس رضي الله عنهما فوق كل عالمٍ عالمٌ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى والمعنى إن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء إلا أن يوسف عليه السلام أفضلٌ منهم وقرىء درجاتٍ مَنْ نشاء بالإضافة والأولُ أنسبٌ بالتذييل حيث نُسب فيه الرفع إلى من نسب إليه الفوقية لا إلى درجته ويجوز أن يكون العليم في هذا التفسير أيضاً عبارةً عن الله عزَّ وجلَّ أي وفوق كل من أولئك المرفوعين عليمٌ يرفع كلاً منهم إلى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم "³.

النحل : الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) أكثر أهل التفسير على أن التذييل هنا من كلام الملائكة ، قال صاحب التحرير والتنوير : " جملة { بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون } جواب الملائكة لهم ، ولذلك افتتحت بالحرف الذي يبطل به النفي وهو { بلى } . وقد جعلوا علم الله بما كانوا يعملون كناية عن تكذيبهم في قولهم : { ما كنا نعمل من سوء } ، وكناية على أنهم ما عاملوهم بالعذاب إلا بأمر من الله تعالى العالم بهم .

¹ - رواه أحمد في مسنده : ت : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون - إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي -

مؤسسة الرسالة - ط : 1 / 1421 هـ - 2001 م - ص : 288 / 14 .

² - ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن : 191/16 - 192 - 193 .

³ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 298/4 .

وأَسَدُوا الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ دُونَ أَنْ يَقُولُوا : إِنَّا نَعْلَمُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، أَدْبَاباً مَعَ اللَّهِ وَإِشْعَاراً بِأَنْهُمْ مَا عِلِمُوا ذَلِكَ إِلَّا بِتَعْلِيمٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . " 1 .

المؤمنون : يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) : قوله : { إني بما تعملون عليم } تحريض على الاستزادة من الأعمال الصالحة لأن ذلك يتضمن الوعد بالجزاء عنها وأنه لا يضيع منه شيء ، فالخبر مستعمل في التحريض ، وقاله هنا بلفظ " عليم " وفي سبأ بلفظ " بصير " مناسبة لما قبلهما ، إذ ما هنا تقدّمه آية الكتاب : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وجعل " مريم " وابنها آية : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50) ، والعلمُ بهما أنسبُ من بصرهما ، وقوله في سبأ : أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) تقدّمه الكلام عن الرؤية وكذا إلانة الحديد : أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأاً نُخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَافاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ (10) ، والبصرُ بِالْإِلَانَةِ الحديد أنسب من العلم بها ، والله أعلم .

النور : فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) : قوله : { والله بما تعملون عليم } تذييل لهذه الوصايا بتذكيرهم بأن الله عليم بأعمالهم ليزدجر أهل الإلحاح عن إلحاحهم بالثقل ، وليزدجر أهل الحيل أو التطلع من الشقوق ونحوها . وهذا تعريض بالوعيد لأن في ذلك عصياناً لما أمر الله به . فعلمه به كناية عن مجازاته فاعليه بما يستحقون ..

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64) نكتة ختام السورة بأنه بكل شيء عليم لتوكيد أن ما شرعه فيها من أحكام وحدود للمؤمنين هو عن علم محيط بكل شيء ولبیان أن هذه التشريعات تثبت الإيمان الذي هو نور في قلب المؤمن وعلم .

العنكبوت : اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) : قوله إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ تعقيب لإفادة أَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ جَارٍ عَلَى حِكْمَةٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ ،

1 . الطاهر بن عاشور - التحرير والتنوير : 140 / 14 . وينظر : الشنقيطي محمد الأمين : أضواء البيان : 39 / 6 .

وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ صَبْرَ الصَّابِرِينَ وَجَزَعَ الْجَارِعِينَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت: 3]

لقمان : وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) : جملة { إن الله عليم بذات الصدور } تعليل لجملة { فننبئهم بما عملوا ، } فموقع حرف { إن } هنا مغنٍ عن فاء التسبب كما في قول بشار :

بكرًا صاحبي قبل الهجير إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

قال الجرجاني : " واعلم أن من شأن " إن " : إذا جاءت على هذا الوجه أن تُغنيَ غناءَ الفاءِ العاطفةِ مثلاً وأن تُقيدَ من ربطِ الجملةِ بما قبلها أمراً عجبياً . فأنت ترى الكلامَ بها مُستأنفاً غيرَ مُستأنفٍ مقطوعاً موصولاً معاً . أفلا ترى أنك لو أسقطت " إن " من قوله : إنَّ ذاك النجاح في التبكير لم ترَ الكلامَ يلتئم ولرأيتَ الجملةَ الثانيةَ لا تتصلُّ بالأولى ولا تكونُ منها بسبيلٍ حتى تجيءَ بالفاءِ فتقولَ : بكرًا صاحبيَّ قبلَ الهجيرِ فذاك النجاحُ في التبكيرِ ومثله قولُ بعضِ العربِ - الرجز - :

(فغَنَّا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ ... إِنَّ غِنَاءَ الْإِبْلِ الْهُدَاءُ)

فانظرُ إلى قوله : إنَّ غِنَاءَ الْإِبْلِ الْهُدَاءُ وإلى ملاءمتهِ الكلامَ قبله وحُسنِ تشبُّثه به وإلى حُسنِ تعطفِ الكلامِ الأوَّلِ عليه . ثم انظرُ إذا تركتَ " إن " فقلتَ : فغَنَّا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ غِنَاءُ الْإِبْلِ الْهُدَاءُ كيفَ تكونُ الصورةُ وكيفَ ينبو أحدُ الكلامينِ عن الآخرِ وكيفَ يُشتمُّ هذا ويُعرقُ ذاكَ حتى لا تجدَ حيلةً في ائتلافهما حتى تجتلبَ لهما الفاءَ فتقولَ : فغَنَّا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ فغِنَاءُ الْإِبْلِ الْهُدَاءُ ثم تَعَلَّمْ أَنْ لَيْسَتْ الْأَلْفَةُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِنْسٍ مَا كَانَ وَأَنْ قَدْ ذَهَبَتِ الْأَنْسَاءُ الَّتِي كُنْتَ تَجِدُ وَالْحَسَنُ الَّذِي كُنْتَ تَرَى ¹ .

وبذاتِ الصُّدُورِ : هِيَ النَّوَايَا وَأَعْرَاضُ النَّفْسِ مِنْ نَحْوِ الْحِقْدِ وَتَدْبِيرِ الْمَكْرِ وَالْكَفْرِ . وَمُنَاسِبَتُهُ هُنَا أَنَّ كُفْرَ الْمُشْرِكِينَ بَعْضُهُ إِعْلَانٌ وَبَعْضُهُ إِسْرَارٌ قَالَ تَعَالَى : وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [المك: 13]

¹ - عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ت : محمد التنجي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط : 1 / 1995 - ص :

فاطر : أَقَمَنَ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8) : لعلَّ أبا السعود شفى الغليل في بيان الآية وتعقيبها حين قال : " إِمَّا تَقْرِيرٌ لِمَا سَبَقَ مِنَ التَّبَايُنِ الْبَيِّنِ بَيْنَ عَاقِبَتَيْ الْفَرِيقَيْنِ بَيَانِ تَبَايُنِ حَالِيهِمَا الْمُؤَدِّيَيْنِ إِلَى تَبَيُّنِ الْعَاقِبَتَيْنِ : " الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7) " ، والفاءُ لِإِنْكَارِ تَرْتِيبِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا أَيْ أَبْعَدَ كَوْنِ حَالِيهِمَا كَمَا ذُكِرَ يَكُونُ مِنْ زُيِّنَ لَهُ الْكُفْرُ مِنْ جِهَةِ الشَّيْطَانِ فَانْهَمَكَ فِيهِ كَمَنْ اسْتَقْبَحَهُ وَاجْتَنَبَهُ وَاخْتَارَ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَتَّى لَا تَكُونَ عَاقِبَتَاهُمَا كَمَا ذُكِرَ فَحُذِفَ مَا حُذِفَ لِدَلَالَةِ مَا سَبَقَ عَلَيْهِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى {فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ} الْخِ تَقْرِيرٌ لَهُ وَتَحْقِيقٌ لِلْحَقِّ بَيَانٌ أَنَّ الْكُلَّ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى أَيْ فَإِنَّهُ تَعَالَى يُضِلُّ {مَنْ يَشَاءُ} أَنْ يَضِلَّهُ لِاسْتِحْسَانِهِ وَاسْتِحْبَابِهِ الضَّلَالَ وَصَرَفِ اخْتِيَارِهِ إِلَيْهِ فِيرَدَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ {وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} أَنْ يَهْدِيَهُ بِصَرَفِ اخْتِيَارِهِ إِلَى الْهُدَى فِيرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى عَلِيَيْنِ وَإِمَّا تَمْهِيدٌ لِمَا يَعْقُبُهُ مِنْ نَهْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ التَّحَسُّرِ وَالتَّحْزَنِ عَلَيْهِمْ لِعَدَمِ إِسْلَامِهِمْ بَيَانٌ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ لِذَلِكَ بَلْ لِأَنَّ يُضْرَبَ عَنْهُمْ صَفْحًا وَلَا يُبَالِي بِهِمْ قَطْعًا أَيْ أَبْعَدَ كَوْنِ حَالِهِمْ كَمَا ذُكِرَ تَتَحَسَّرَ عَلَيْهِمْ فَحُذِفَ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ} دَلَالَةِ بَيِّنَةٍ وَإِمَّا تَمْهِيدٌ لَصَرْفِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَرَصِ الشَّدِيدِ عَلَى إِسْلَامِهِمْ وَالْمُبَالَغَةِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَيْهِ بَيَانِ اسْتِحَالَةِ تَحْوُلِهِمْ عَنِ الْكُفْرِ لِكُونِهِ فِي غَايَةِ الْحَسَنِ عِنْدَهُمْ أَيْ أَبْعَدَ مَا ذُكِرَ مِنْ زُيِّنَ لَهُ الْكُفْرُ مِنْ قَبْلِ الشَّيْطَانِ فَرَآهُ فَانْهَمَكَ فِيهِ يَقْبَلُ الْهُدَايَةَ حَتَّى تَطْمَعَ فِي إِسْلَامِهِ وَتُتَعَبَ نَفْسُكَ فِي دَعْوَتِهِ فَحُذِفَ مَا حُذِفَ لِدَلَالَةِ مَا مَرَّ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ الْخِ عَلَى أَنَّهُ مِمَّنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضِلَّهُ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَقَرَأْ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى حَسْرَاتٍ إِمَّا مَفْعُولٌ لَهُ أَيْ فَلَا تَهْلِكْ نَفْسُكَ لِلْحَسْرَاتِ وَالْجَمْعُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَضَاعُفِ اغْتِمَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ أَوْ عَلَى كَثْرَةِ قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ الْمَوْجِبَةِ لِلنَّاسُفِ وَالتَّحَسُّرِ وَعَلَيْهِمْ صَلَوةٌ تَذْهَبُ كَمَا يُقَالُ هَلَكَ عَلَيْهِ حَبًّا وَمَاتَ عَلَيْهِ حُزْنًا أَوْ هُوَ بَيَانٌ لِلْمَتَحَسَّرِ عَلَيْهِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِحَسْرَاتٍ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ لَا تَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ صَلَواتُهُ وَإِمَّا حَالٌ كَأَنَّ كُلَّهَا صَارَتْ حَسْرَاتٍ وَقَوْلُهُ تَعَالَى {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} أَيْ مِنَ الْقَبَائِحِ تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ عَلَى الْوَجْهِ الثَّلَاثَةِ مَعَ مَا فِيهِ فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ وَمُشْرِكِي مَكَّةَ " ¹

¹ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 7 / 146 .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38) : {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} بالإضافة وقُرىء بالتَّوْنِ وَنَصِبِ غَيْبٍ عَلَى الْمَفْعُولِيَةِ أَي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِيهِمَا فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} قِيلَ إِنَّهُ تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ مَضْمَرَاتِ الصُّدُورِ وَهِيَ أَخْفَى مَا يَكُونُ كَانَ أَعْلَمَ بِغَيْرِهَا ، قَالَ صَاحِبُ التَّحْرِيرِ وَالتَّوْبِيرِ : " جَمَلَةٌ {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} اسْتِثْنَاءٌ وَاصِلٌ بَيْنَ جَمَلَةٍ {إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} [فَاطِرُ : 31] وَبَيْنَ جَمَلَةٍ {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ} [فَاطِرُ : 40] الْآيَةِ ، فَتَسْلَسَلَتْ مَعَانِيهِ فَعَادَ إِلَى فَذَلِكَ الْغَرَضُ السَّالِفُ الْمُنْتَقَلُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ : {وَإِنْ يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} إِلَى قَوْلِهِ : {إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} [فَاطِرُ : 25 - 31] ، فَكَانَتْ جَمَلَةٌ {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} كَالْتَذْيِيلِ لَجَمَلَةٍ {إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} .

وفي هذا إيماء إلى أن الله يجازي كل ذي نية على حسب ما أضمره ليزداد النبيء صلى الله عليه وسلم يقينا بأن الله غير عالم بما يكنه المشركون.

وجملة {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} مستأنفة هي كالنتيجة لجملة {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} لأن ما في الصدور من الأمور المغيبة فيلزم من علم الله بغيب السماوات والأرض علمه بما في صدور الناس.

و"ذَاتِ الصُّدُورِ" ضمائر الناس ونياتهم، وتقدم عند قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} في سورة الأنفال [43].

وجيء في الإخبار بعلم الله بالغيب بصيغة اسم الفاعل، وفي الإخبار بعلمه بذات الصدور بصيغة المبالغة لأن المقصود من إخبار المخاطبين تنبيههم على أنه كناية عن انتفاء أن يفوت علمه تعالى شيء. وذلك كناية عن الجزاء عليه فهي كناية رمزية¹.

أما الألوسي فقد قال في نكت هذه الآية : قوله : " إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ " قِيلَ إِنَّهُ تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ لِأَنَّهُ تَعَالَى إِذَا عَلِمَ مَضْمَرَاتِ الصُّدُورِ وَهِيَ أَخْفَى مَا يَكُونُ كَانَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمَ بِغَيْرِهَا ، وَفِيهِ نَوْعٌ خَفَاءٌ ، وَقَالَ الْإِمَامُ : إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ

¹ - الطاهر بن عاشور : التحرير والتوير - 22 / 321 - 322 .

إلخ تقرير لدوامهم في العذاب مع أنهم ما كفروا إلا أياما معدودة فكأن سائلا يسأل عن وجه ذلك فقيل: إن الله تعالى لا يخفى عليه غيب السماوات والأرض فلا يخفى عليه ما في الصدور فكان يعلم سبحانه من الكافر أن الكفر قد تمكن في قلبه بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله تعالى ولا عبده انتهى، وظاهره أن الجملة الأولى تعليل للثانية على عكس ما قيل، ويمكن أن يقال: إن قوله تعالى: **فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** متضمن نفي أن يكون لهم نصير على سبيل الاستمرار ومستند خلودهم في العذاب فكان مظنة أن يقال: كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار والعادة في الشاهد قاضية بوجود نصير لمن تطول أيام عذابه فأجيب بأن الله عالم غيب السماوات والأرض على معنى أنه تعالى محيط بالأشياء علما فلو كان لهم نصير في وقت من الأوقات لعلمه ولما نفي ذلك على سبيل الاستمرار، وكذا مظنة أن يقال: كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظلموا في أيام معدودة؟ فأجيب بأنه عليهم بذات الصدور على معنى أنه تعالى يعلم ما انطوت عليه ضمائرهم فيعلم أنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد فكل من الجملتين مستأنف استئنافا بيانيا .¹

يس : **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)** : **يَخْتَجُّ سُبْحَانَهُ بِالْمَبْدَأِ عَلَى الْمَعَادِ كَثِيرًا : قَالَ تَعَالَى {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} 29** ، **وَقَالَ تَعَالَى {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ} 104** الأنبياء يقول: وهو بجميع خلقه ذو علم كيف يميت، وكيف يحيي، وكيف يبديء، وكيف يعيد، لا يخفي عليه شيء من أمر خلقه. ففي الآية (79) والتي تليها : **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (80)** **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)** **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)** **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)** " قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر وقد ورد أن أبي بن خلف لما جاء بعظام بالية ففتها وذرها في الهواء وقال: يا محمد من يحي العظام وهي رميم! فأنزل الله تعالى: **{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}**.

¹ - الألويسي - روح المعاني : 374/11 .

فعلم سبحانه كيفية الاستدلال برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلّة الحدوث ثم زاد في الحجاج بقوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا} ¹.

ولم يأت " وهو بكل خلق عليم " في غير هذا الموضع وذكر الخلاق العليم في هذه السورة فقط خير دليل على قدرته على الخلق الكثير وكل ذلك عليه يسير .

الشورى : لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)
يقول: إن الله تبارك وتعالى بكل ما يفعل من توسيعه على من يوسع، وتقديره على من يقتر، ومن الذي يصلحه البسط عليه في الرزق، ويفسده من خلقه، والذي يصلحه التقدير عليه ويفسده، وغير ذلك من الأمور، ذو علم لا يخفى عليه موضع البسط والتقدير وغيره، من صلاح تدبير خلقه.

يقول تعالى ذكره: فإلى من له مقاليد السموات والأرض الذي صفته ما وصفت لكم في هذه الآيات أيها الناس فارغبوا، وإياه فاعبدوا مخلصين له الدين لا الأوثان والآلهة والأصنام، التي لا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

للسائل أن يقول: إن هذه الآية ذكر فيها ما ذكر في أربع غيرها : (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الرعد: 26)، وفي سورة القصص: (وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا) (القصص: 82)، وفي سورة العنكبوت: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (العنكبوت: 62)، وفي سورة سبأ: (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) (سبأ: 39)

فقد انطوت مطابقة على معنى واحد هو إخباره سبحانه بأنه المنفرد بالقبض والبسط، كما أنفرد بالخلق والأمر، فإذا اجتمعت في هذا المعنى فما وجه انفراد آية القصص وآية سبأ بزيادة ما ورد فيهما من التخصيص في قوله: (مِنْ عِبَادِهِ) وقوله: (له)؟ ولم لم يرد ذلك في السورة الأخرى؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية العنكبوت لما تقدم قبلها في قصة إبراهيم، عليه السلام، قوله لقومه: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

¹ - الزركشي - البرهان في علوم القرآن - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه -

ط : 1 / 1376 هـ - 1957 م - ص : 26/2 .

لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) (العنكبوت: 17)، ثم ضرب سبحانه مثلاً لما عبد من دونه فقال: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: 41)، ثم أنس عباده المؤمنين بقوله: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) (العنكبوت: 56)، ثم قال: (وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (العنكبوت: 60) فأخبر سبحانه أنه المنفرد برزق الكل كما انفرد بخلقهم، وذيل بالسميع العليم تعليلاً لرزقه وترغيباً في دعاء المؤمنين من خلقه فناسب هذا قوله تعالى: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) (العنكبوت: 62)، فخص بعد أن عم بقوله: (اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) (العنكبوت: 60) تشريفاً للمؤمنين ليستأنسوا بما يجري لهم من الضربين ويذكروه في حال القبض والبسط بالإضافة إضافة تشريف، ولما لم يتقدم في السور الأخرى مثل ما تقدم هنا بل فيها ما يفهم منه أن المؤمنين لم يقصد تخصيصهم بذلك الخطاب بوجه، ألا ترى قوله في (آية) الرعد: (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الرعد: 26)، وليس (هذا) من شأن المؤمن، فإن الدنيا سجنه وإنما فرحه بربه وبما يرجوه منه في آخرته. وأما آية القصص (فمنصوص) فيها أن الذين تمنوا حال قارون ومكانه هم القائلون: (وَيَكَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ) (القصص: 82)، فإنما قالوه عالمين بأن الله سبحانه بسط (لقارون ما بسط) فعلموا أنه القابض والباسط وأنه لا يمنع عن أحد ما بسط له. وأما آية الشورى فقد تقدمها ما هو أبين (شيء) في تعميم المؤمن والكافر وذلك قوله تعالى: (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الشورى: 12)، (فإذا كانت له مقاليد السماوات والأرض) فمن أين يُرزق المؤمن والكافر؟ ليس إلا من عنده، فلم يقصد في هذه الآية تخصيص المؤمن وتشريفه كما قصد في تلك، فلما اختلف القصد اختلف الورد، وإضهار لفظ الجلالة في العنكبوت: " إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (العنكبوت: 62)، لكونه ذكر في صدر الآية وجاء بالضمير في آية الشورى ردّاً على مثله في أولها: (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فجاءت كل آية على ما يجب، ولا يمكن خلافه، والله أعلم.

- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) : جملة {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} تعليل لمجموع جملتي {فإن يشأ الله} إلى قوله {بكلماته} ، أي لأنه لا يخفى عليه افتراء مفتر ولا صدق محق.

الحجرات : قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) : أعيد فعل {قل} ليدل على أن المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أمر أن يقول لهم {لم تؤمنوا} إلى آخره، فأعيد لما طال الفصل بين القولين بالجمل المتتابعة، فهذا متصل بقوله {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} اتصال البيان بالمبين، ولذلك لم تعطف جملة الاستفهام. وجملة {قل} معترضة بين الجملتين المبينة والمبينة.

قيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا} الآية جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحلفوا أنهم مؤمنون فنزل قوله {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} ولم يرو بسند معروف وإنما ذكره البغوي تفسيراً ولو كان كذلك لوبخهم الله على الإيمان الكاذبة كما وبخ المنافقين في سورة براءة {وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ} الآية. ولم أر ذلك بسند مقبول، فهذه الآية مما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم.

والتعليم مبالغة في إيصال العلم إلى المعلم لأن صيغة التفعيل تقتضي قوة في حصول الفعل كالترقيق والتفسير، يقال: أعلمه وعلمه كما يقال: أنباه ونباه. وهذا يفيد أنهم تكلفوا وتعسفوا في الاستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أبلغهم أن الله نفي عنهم رسوخ الإيمان بمحاولة إقناعه تدل إلى محاولة إقناع الله بما يعلم خلافه.

وباء {بدينكم} زائدة لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله كقوله تعالى {وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ} وقول النابغة: لك الخير إن وارت بك الأرض واحداً وأصبح جدّ الناس يظلع عاثراً.¹ والاستفهام في {أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} مستعمل في التوبيخ وقد أيد التوبيخ بجملة الحال في قوله {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} وفي هذا تجهيل إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطلع على كل شيء.

وجملة {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} تذييل لأن {كُلُّ شَيْءٍ} أعم من {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} فإن الله يعلم صفاته ويعلم الموجودات التي هي أعلى من السماوات كالعرش.²

الحديد : يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6) : لَمَّا ذَكَرَ تَصَرَّفُ اللَّهِ فِي اللَّيْلِ وَكَانَ اللَّيْلُ وَقْتَ إِخْفَاءِ الْأَشْيَاءِ أَعْقَبَ ذِكْرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَخْفَى الْخَفَايَا وَهِيَ النَّوَايَا، فَإِنَّهَا مَعَ كَوْنِهَا مَعَانِي غَائِبَةٌ عَنِ الْحَوَاسِّ كَانَتْ مَكْنُونَةً فِي ظُلْمَةِ بَاطِنِ الْإِنْسَانِ

¹ - انظر البيت في : أساس البلاغة للزمخشري : 409 .

² - ينظر : التحرير والتنوير : 268/26 .

فَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا عَالِمٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ [الأنعام: 59] ، وَقَوْلِهِ: أَلَا حِينٌ يَسْتَعْتَشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [هود: 5] .

نورد سياق هذه الآية ليفهم لطيف مافيهما من معان . : سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6) .

قال : هذه الآية مرتبطة بما بعدها: الأول مرتبط بقوله (هو الذي خلق السموات والأرض) الذي خلق السموات والأرض هو الأول، الآخر مرتبط بقوله (والى الله ترجع الأمور)، الظاهر قلنا لها معنيان إذا كان بمعنى الغالب يقول بعدها (له ملك السموات والأرض) فالذي له الملك غالب، وإذا كان بمعنى المتجلي للعباد (الذي خلق السموات والأرض) لأن السموات والأرض آيات دالة على وجوده، الباطن إذا كانت بمعنى المحتجب يرتبط بقوله (وهو معكم أينما كنتم) وإذا كان بمعنى الذي يعلم بواطن الأمور وخفاياها فيرتبط بقوله (وهو عليم بذات الصدور) (وهو بكل شيء عليم). إذن الآية مرتبطة ارتباطاً بما قبلها وهذه سمة في القرآن الكريم كل كلماته مرتبطة فقوله تعالى (الذي خلق السموات والأرض) يدل على أنه المالك لهما هو خلقهما إذن هو المالك إضافة إلى أنه الأول هو الخالق إذن هو المالك. دل قوله في قوله (له ملك السموات والأرض) قبلها وبعدها على أنه هو المالك إذن هو المالك وقبلها وبعدها هو الملك لأن الملك من الحكم هو ملك مالك إذن هو مالك الملك كما قال تعالى في آية أخرى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ (26) آل عمران). المُلْكُ من الحُكْمِ (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ (51) الزخرف) صاحبه مَلِكٌ، المَلِكُ بكسر الميم من التملك البيع والشراء صاحبه مالك. المُلْكُ بضم الميم صاحبه مَلِكٌ والمَلِكُ بكسر الميم صاحبه مَالِكٌ. (له ملك السموات والأرض) إذن هو المَلِكُ. كل من المَلِكِ والمَالِكِ له تصرف يختلف عن الآخر. لما قال له مُلْكٌ يعني هو مَلِكٌ، فرعون مَلِكٌ مصر لكنه ليس مالِكاً لها، هو يحكم ولا يملك أما الله سبحانه وتعالى ذكر أمرين: له ملك إذن هو مَلِكٌ وقال

خلق السموات والأرض إذن هو مالك إذن هو مالك الملك السموات والأرض هو خلقهما فهي ملكه وهو الملك المالك كما قال في آية أخرى (مالك الملك). المُلْك هو ملكه كما يملك المالك أي شيء ولذلك في سورة الفاتحة نزلت الآية مرتين (مالك يوم الدين) ونزلت (ملك يوم الدين) قراءتين متواترتين وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما حتى يجمع معنى مالك الملك ينبغي أن تنزل مرتين: مالك تدل على معنى ومالك تدل على معنى وهو مالك وملك فأنزلها ربنا تعالى مرتين مرة مالك ومرة ملك. إذن الذي خلق السموات والأرض هو يملكهما وقال قبلها وبعدها (له ما في السموات والأرض) إذن هو الملك إذن هو مالك المُلْك. لما كان كل من الملك والمالك كلاهما ينبغي أن لا يغيب عنه في ملكه شيء. المالك ينبغي أن يعلم كل شيء عما يملكه. المالك ينبغي أن يعلم ماذا يملك والملك ينبغي أن يعلم ماذا يملك، إذن كلاهما المالك والملك ينبغي أن يعلموا عن ملكه أو عن ما يملك إذا كان مالكا ولما كان ربنا سبحانه وتعالى مالك الملك إذن ينبغي أن يعلم كل شيء في ملكه فقال (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) لأنه لا يصح لملك أو مالك أن لا يعلم شيئاً فيما يملك ولذلك لا يخفى عنه في ملكوته شيء لا المسكن ولا الساكن في الأرض ولا في السماء كلها. وليس ذلك فقط، ليس يعلم فقط وإنما أول مرة ذكر العلم المطلق (يعلم ما يلج) ليس ذلك فقط وإنما هو يُبصر ما فيهما (بما تعملون بصير) ليس العلم فقط لأن العلم قد يأتي عن طريق الإخبار. الفرق بين العليم والبصير أن العليم قد يأتي عن طريق الخبر وليس بالضرورة أن يرى فالملك قد تأتيه الأخبار دون أن يبصر. هذه مرحلة أخرى ليس فقط يعلم وإنما هو يُبصر أيضاً (والله بما تعملون بصير) وأيضاً له مرتبة فوق الإبصار وهي المعية والمصاحبة (وهو معكم) لأن البصير قد يبصر عن بعيد، معكم تفيد أنه معنا (وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) ق) (والله معكم أينما كنتم) فهذه مرحلة فوق الإبصار، وله مرتبة فوق ذلك في الآية وليس فقط المعية والمصاحبة وإنما هو يعلم ماذا نفعل والسبب ظاهراً وباطناً ويعلم عمل كل عامل لم عمله؟ لأنه أحياناً أنت ترى الإنسان يعمل عملاً وأنت لا تعلم لم فعل ذلك؟ الله تعالى ليس فقط يعلم العمل و يبصره ويكون مع عامله معية تليق بجلاله لا تنفى ولا تكيف وإنما يعلم لم فعله. (بما تعملون بصير) بصير لها معنيان: البصر الروية هو سبحانه يرى لأنه قال (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) طه) ولكن ليس كرويتنا لأنه

كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك. تأتي البصر بمعنى الرؤية وتأتي بمعنى علم دواخل النفوس بصير بما يعمل العاملون. بصير ليست بمعنى واحد (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ (96) طه) هذا بَصُرٌ وبصير بالشيء أي بدواخل الأمور.

هذه الآية ذكرت كل مراتب العلم:

عليم (يعلم ما يلج) إذن هو يعلم الداخل والخارج والصاعد والنازل، هذا العلم. مصاحب لنا أينما كنا (وهو معكم أينما كنتم) مبصر لأعمالنا (والله بما تعملون بصير) ويعلم لم فعلنا ذلك، إذن استوفى كل مراتب العلم وهذا يتناسب مع الآية السابقة (وهو بكل شيء عليم) وارتبطت بها ارتباطاً. في الآية السابقة قال تعالى (وهو بكل شيء عليم) وهذه الآية (والله بما تعملون بصير) لم يقل وهو بما تعملون بصير مع أنه استعمل (هو) في الآية لأنه تكرر الضمير (هو) فأراد أن يغير.

عرفنا ترتيب الآية وهيكلها لكن ننظر الآن كيف استعملها؟ لو لاحظنا قال (يعلم ما يلج في الأرض) لم يقل يعلم ما يولج في الأرض (يلج بمعنى يدخل) أي يعلم ما يولجه هو، الله تعالى من قدرته أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل إنما قال (يلج) أي يدخل، من حيث العلم عادة الشخص الفرد يعلم ما يفعله هو ولو قال يولج لكان طبيعياً أنه يعلم ما يفعله هو وما يولجه هو، هذه قدرة (يولج) وتلك علم (يلج) لكن لما قال (يلج) فهذا يدل على العلم، هو ما قال يعلم ما يولج لأنه قطعاً هو يولج فهو يعلم لكنه قال (يلج) هذا يدل على العلم. وقال (وما يخرج) وما قال وما يُخرج وقال وما ينزل ما قال وما يُنزل وقال وما يعرج ولم يقل وما يُعرج وهذا يدل على العلم فقال ما يدل على العلم هذا أمر. والأمر الآخر قدّم تعالى ما يتعلق بالأرض على ما يتعلق بالسماء (يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) لأن الكلام على أهل الأرض (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) إذن لما كان الكلام على أهل الأرض يتكلم عن مسكنهم لما قال (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) يتكلم عن الأرض فيبدأ بأهل الأرض. مع أنه قال (خلق السموات والأرض) قدّم السموات هنا لأن خلق السموات أسبق. لكن هنا يتكلم عن العلم فقدّم الأرض.

الأمر الآخر من الناحية الفنية ناسب بين صورتين فيما يتعلق بالأرض والسماء، صورة فنية: بالنسبة للأرض قال (يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) وفي السماء قال (وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) وفي الأرض قال (ما يلج) وفي السماء (وما ينزل) وكلاهما نزول إلى

أسفل (ما يلج في الأرض) إنزال ودخول. هذه ما يلج في الأرض ينزل فيها وكثير مما ينزل من السماء هو يلج في الأرض من مطر وغيره. ثم قال (وما يخرج منها) و (وما يعرج فيها) وكلاهما إرتفاع وعلو. إذن من الناحية الفنية ناسب وليس فقط إختيار مفردات لكن يناسب بين الصور: ما يلج وما ينزل، وما يخرج وما يعرج وكما قلنا أن كثيراً مما ينزل قد يلج في الأرض وكثيراً مما يخرج يعرج إلى السماء: (وما يخرج منها) فيها احتمالين ما يخرج منها من الحشرات والنبات أو ما يخرج من محيطها. هذه الفكرة العامة عن الآية.

المجادلة : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7) : وَأَمَّا قَوْلُهُ (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ) فَلَفْظُ (مَعَ) لَا تَقْتَضِي فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مُخْتَلِطًا بِالْآخَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} . وَلَفْظُ (مَعَ) جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ عَامَّةً وَخَاصَّةً فَالْعَامَّةُ فِي آيَةٍ : {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

افْتَتَحَ الْكَلَامَ بِالْعِلْمِ وَخَتَمَهُ بِالْعِلْمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: هُوَ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ. وَأَمَّا " الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ " ففِي قَوْلِهِ تَعَالَى {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} وَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى: {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} وَقَالَ تَعَالَى: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ دُونَ فِرْعَوْنَ وَمَعَ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ دُونَ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ وَمَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ دُونَ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ. فَلَوْ كَانَ مَعْنَى " الْمَعِيَّةُ " أَنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَنَاقَضَ الْخَبَرُ الْخَاصُّ وَالْخَبَرُ الْعَامُّ؛ بَلْ الْمَعْنَى أَنَّهُ مَعَ هَوْلَاءِ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ دُونَ أَوْلِيائِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} أَيُّ هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

وَكَذَلِكَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} كَمَا فَسَّرَهُ أئِمَّةُ الْعِلْمِ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ: أَنَّهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَهُوَ مَعَكُمْ} فَلَفْظُ {مَع} لَا تَقْتَضِي فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مَخْتَلِطًا بِالْآخَرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} ، وَلَفْظُ {مَع} جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ عَامَةً وَخَاصَّةً، فَالْعَامَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي آيَةِ الْمَجَادَلَةِ: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ، فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِالْعِلْمِ، وَخَتَمَهُ بِالْعِلْمِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَسَفِيانُ الثَّورِيِّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: هُوَ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ.

وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى لِمُوسَى: {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} ، وَقَالَ تَعَالَى: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَهُوَ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ دُونَ فِرْعَوْنَ، وَمَعَ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ دُونَ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَمَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ دُونَ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ، فَلَوْ كَانَ مَعْنَى الْمَعِيَّةِ أَنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، تَنَاقَضَ الْخَبِيرُ الْخَاصُّ وَالْخَبِيرُ الْعَامُّ، بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُ مَعَ هَؤُلَاءِ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ دُونَ أَوْلَئِكَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ} أَيُّ هُوَ إِلَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَإِلَهُ مِنْ فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَوْ لَمْ يَلِكْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} ، كَمَا فَسَّرَهُ أئِمَّةُ الْعِلْمِ، كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ: أَنَّهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَتَمَّتْهَا عَلَى أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى بَائِنٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ يُوصَفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ .

الجمعة : وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) أَيُّ لَا يَتَمَنُّوا الْمَوْتَ أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَالْبَاءِ فِي مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ سَبَبِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِفَعْلٍ يَتَمَنُّونَهُ الْمَنْفِي فَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ هُوَ سَبَبُ انْتِفَاءِ تَمَنِّيهِمُ الْمَوْتَ أَلْقَى فِي نَفْسِهِمُ الْخَوْفَ مِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَكَانَ سَبَبُ صَرْفِهِمْ عَنْ تَمَنِّيِ الْمَوْتَ لِنَقْدِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، لَكِنَّهُمْ يَتَمَنُّونَهُ فِي الْآخِرَةِ فِي النَّارِ : " وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ (77) الزخرف . وجملة والله عليم بالظالمين، أي عليم بأحوالهم وبأحوال أمثالهم من الظالمين فشمّل لفظ الظالمين اليهود فإنهم من الظالمين. وقد تقدم معنى ظلمهم في الآية قبلها.

وقد وصف اليهود بالظالمين في آيات كثيرة، وتقدم عند قوله تعالى: ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله [البقرة: 140] والمقصود أن إجحامهم عن تمني الموت لما في نفوسهم من خوف العقاب على ما فعلوه في الدنيا، فكني بعلم الله بأحوالهم عن عدم انفلاتهم من الجزاء عليها ففي هذا وعيد لهم.

التغابن : يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4) : الآية الوحيدة على قلة ألفاظها ذكر علم الله فيها في ثلاث جملها المتتالية تدرّجا من العام إلى الخاص : فقوله : {يعلم ما في السماوات والأرض} من الأمور الكلية والجزئية والأحوال الجلية والخفية ، وقوله : {ويعلم ما تُسرون وما تعلنون} أي ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الأمور والتصريح به مع اندراجها فيما قبله لأنه الذي يدور عليه الجزاء ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما وقوله تعالى {والله عليم بذات الصدور} اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلمهم أي هو محيط بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس بحيث لا تفارقها أصلاً فكيف يخفى عليه ما يسرونه وما يعلنونه وإظهار الجلالة للإشعار بعلّة الحكم وتأكيدا استقلال الجملة قيل وتقديم تقرير القدرة على تقرير العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى علمه بما فيه من الإتيان والاختصاص ببعض الأنحاء .

— ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم (11) سورة التغابن هذه كثر ذكر العلم فيها بخلقه مكلفهم وغير مكلفهم وقد مرّت الآية قبل وتبين كيف أجمل فيها كل أنواع علمه وقد ذيل الثانية بقوله : وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) وقال في الخامسة : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5) وفي السادسة : ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6) ثم قال في السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرية : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبَلِيٍّ وَلَا لَنْ يَنْزِلَهُمْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (7) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10) ثم بعد كل هذا الذكر لعلمه قيده بلفظ عام لا يدخله التخصيص البتة : " مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11) ففي هذه الآية تتميم و تأكيد لعلمه المحيط وتسليية للمؤمنين ولذلك أمرهم بما يفلحون به يوم التغابن فخص كل الآيات بعد هذه لتعليم وتبين طريق النجاة التي لا محالة يغبن من لم يسلكها .

الملك : وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) : تعليل لما قبله وتقدير له وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر بصاحبيتها من الجزالة ما لا غاية وراءه كأنه قيل إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها أصلاً فكيف يخفى عليه ما تُسرونه وتجهرون به ويجوز أن يُراد بذات الصدور القلوب التي في الصدر والمعنى أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها وقوله تعالى إنكار ونفي لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر أي ألا يعلم السر والجهر من أوجد بموجب حكمته جميع الأشياء التي هُما من جملتها وقوله تعالى {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} حال من فاعل يعلم مؤكدة للإنكار والنفي أي ألا يعلم ذلك والحال أنه المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن ويجوز أن يكون من خلق منصوباً والمعنى ألا يعلم الله من خلقه والحال أنه بهذه المثابة من شمول العلم ولا مساع لإخلاء العلم عن المفعول بإجرائه مجرى يُعطي ويمنع على معنى ألا يكون عالماً من خلق لأن الخلق لا يتأتى بدون العلم لخلو الحال حينئذ من الإفادة لأن نظم الكلام حينئذ ألا يكون عالماً وهو مبالغ في العلم .

آيات ذكره منصوباً : " عليما " ذكر في هذه الصور الثلاث منصوباً لكون فواصلها منصوبة في النساء أغلبها وفي الأحزاب والفتح كلها .

النساء : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (32) : وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ بَأَن يَفِيضَ عَلَيْكُمْ مَا تَقْتَضِيهِ قَابِلِيَاتِكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا وَمِنْ جَمَلَةِ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْاسْتِعْدَادِ فَيُعْطِيكُمْ مَا يَلِيقُ بِكُمْ ، " قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا يَصْلَحُ عِبَادَهُ - فيما قسم لهم من خير، ورفع بعضهم فوق بعض في الدين والدنيا،

وبغير ذلك من قضاائه وأحكامه فيهم = "عليما"، يقول: ذا علم. فلا تتمنوا غير الذي قضى لكم، ولكن عليكم بطاعته، والتسليم لأمره، والرضى بقضائه، ومسألته من فضله.¹

- وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39) :
يعني بذلك جل ثناؤه: وأي شيء على هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر لو آمنوا بالله واليوم الآخر، لو صدّقوا بأن الله واحد لا شريك له، وأخلصوا له التوحيد، وأيقنوا بالبعث بعد الممات، وصدّقوا بأن الله مجازيهم بأعمالهم يوم القيامة = "وأنفقوا مما رزقهم الله"، يقول: وأدّوا زكاة أموالهم التي رزقهم الله وأعطاهموها، طيبة بها أنفسهم، ولم ينفقوها رياء الناس، التماس الذكر والفخر عند أهل الكفر بالله، والمحمدة بالباطل عند الناس - وكان الله، بهؤلاء الذين وصف صفتهم أنهم ينفقون أموالهم رياء الناس نفاقاً، وهم بالله واليوم الآخر مكذّبون - عليماً"، يقول: ذا علم بهم وبأعمالهم، وما يقصدون ويريدون بإنفاقهم ما ينفقون من أموالهم، وأنهم يريدون بذلك الرياء والسُّمعة والمحمدة في الناس، وهو حافظ عليهم أعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها، حتى يجازيهم بها جزاءهم عند معادهم إليه فجملة التعقيب هنا :
إخبار يتضمن وعيدا، وينبه على سوء تواطئهم، أي: لا ينفعموكم مع علم الله تعالى بهم .

- ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (70) : أما قوله: "ذلك الفضل من الله"، فإنه يقول: كون من أطاع الله والرسول مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - "الفضل من الله"، يقول: ذلك عطاء الله إياهم وفضله عليهم، لا باستيجابهم ذلك لسابقة سبقت لهم، فإن قال قائل: أو ليس بالطاعة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من فضله؟ قيل له: إنهم لم يطيعوه في الدنيا إلا بفضله الذي تفضل به عليهم، فهداهم به لطاعته، فكل ذلك فضل منه تعالى ذكره.

وقوله: "وكفى بالله عليما" أي يعلم أين يضع فضله ومن يصلح له ممن لا يصلح بل يمنعه غير أهله ولا يضعه عند غير أهله وهذا كثير في القرآن يذكر أن تخصيصه هو فضله ورحمته فلو ساوى بين الخلائق لم يعرف قدر فضله ونعمته ورحمته فهذا بعض ما في تخصيصه من الحكمة وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: "أن موسى قال يا رب هلا سويت بين عبادك قال إني أحببت أن أشكر" فمواضع التحصل ومواقع الفصل التي يقدر بها نفاة الحكمة هي من أدل

¹ - الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 269 / 8 .

شيء على كمال حكمته سبحانه ووضعه للفضل مواضعه وجعله عند أهله الذين هم أحق به وأولى من غيرهم وهو الذي جعلهم كذلك بحكمته وعلمه وعزته وملكه فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ولا يجب بل لا يمكن المشاركة في حكمته بل ما حصل للخلائق كلهم من العلم بها كنقرة عصفور في البحر المحيط .

- وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127) : لم يزل عالماً بما هو كائن منكم، وهو محصٍ ذلك كله عليكم، حافظ له، حتى يجازيكم به جزاءكم يوم القيامة.

الأحزاب : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40) : لما تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله عز وجل: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ} ، يعني: زيد بن حارثة، أي: ليس أبا أحد من رجالكم الذين لم يلداهم فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها. وقوله: " وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ " غير داخل في حيز الاستدراك لما علمت من أنه تكميل واستطراد بمناسبة إجراء وصف الرسالة عليه. وبيان هذه الحكمة يظهر حسن موقع التذييل بجملة وكان الله بكل شيء عليماً إذ أظهر مقتضى حكمته فيما قدره من الأقدار كما في قوله تعالى: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس إلى قوله: ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم [المائدة: 97].

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54) : قوله تعالى: إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا توبيخ ووعيد لمن تقدم به التعريض في الآية قبلها ممن أشير إليه بقوله ذَلِكَ لَكُمْ أَطَهَرُ لِقُلُوبِكُمْ [الأحزاب: 53] ومن أشير إليه في قوله وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ [الأحزاب: 53] فليل لهم في هذه إن الله يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها، قال شيخ البيان : " كَلَامٌ جَامِعٌ تَحْرِيسًا وَتَحْذِيرًا وَمَنْبِئًا عَنْ وَعْدٍ وَوَعِيدٍ، فَإِنْ مَا قَبْلَهُ قَدْ حَوَى أَمْرًا وَنَهْيًا، وَإِذَا كَانَ الْأَمْتَالُ مَتَفَاوِتًا فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَبِخَاصَّةٍ فِي النِّوَايَا وَالْمُضْمَرَاتِ كَانَ الْمَقَامُ مَنَاسِبًا لِتَنْبِيهِهِمْ وَتَذَكِيرِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَالْمُرَادُ مِنْ شَيْئًا الْأَوَّلُ شَيْءٌ مِمَّا يَبْدُونَهُ أَوْ يَخْفَوْنَهُ وَهُوَ يَعْمُ كُلُّ مَا يَبْدُو وَمَا يَخْفَى لِأَنَّ النِّكْرَةَ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ تَعْمُ. وَالجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ لِمَا اشْتَمَلَتْ

عليه من العموم في قوله: بكل شيء. وإظهار لفظ شيء هنا دون إضمار لأن الإضمار لا يستقيم لأن الشيء المذكور ثانيا هو غير المذكور أولاً، إذ المراد بالثاني جميع الموجودات، والمراد بالأول خصوص أحوال الناس الظاهرة والباطنة، فالله عليم بكل كائن ومن جملة ذلك ما يبدونه ويخفونه من أحوالهم.¹

الفتح : إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) :

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينته تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ، المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم؛ فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندا من جند الله أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمره هذه السكينة الطمأنينة للخير تصديقا وإيقانا وللأمر تسليما وإذعانا، فلا تدع شبهة تعارض الخير ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوسوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

ولذلك عقب الآية بأنه يعلم حق كل شيء واستئحاله لما يستأهله فيسوق عز وجل الحق إلى مستحقه والمستأهل إلى مستأهله أو فيعلم هذا ويعلم ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إنزال السكينة والرضا بالصلح فيكون تذييلا لجميع ما تقدم .

عالم الغيب والشهادة

وهو سبحانه الذي يعلم ما غاب عن حواس الناس وما يشاهدونه فلا تخفى عليه بواطن الأمور وظواهرها .

الآيات:

- لِيَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَّا تَعْتَذِرُونَ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ { [التوبة : 94]

¹ . الطاهر بن عاشور - التحرير والتنوير : 95/22 .

قوله : " ثُمَّ تُرْدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ " تخويف شديد ، لما هي مشتملة عليه من التهديد ، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمرة ، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتُمونه ويتظاهرون به ، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه ، والإنباء : الإخبار . وما كنتم تعملون : علم كل عمل عملوه .

واستعمل فينبئكم بما كنتم تعملون في لازم معناه ، وهو المجازاة على كل ما عملوه ، أي فتجدونه عالماً بكل ما عملتموه . وهو كناية لأن ذكر المجازاة في مقام الإجمام والجنائية لازم لعموم علم ملك يوم الدين بكل ما عملوه .

- ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : 105] ولسائل أن يسأل عن الفوارق بين هذه الآية والتي قبلها : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : 94] فله در زكريا بن محمد الأنصاري في ذكر هذه اللطائف بينهما ، قال : " قوله تعالى : (وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) قاله هنا بـ " ثُمَّ " بحذف " والمؤمنون " . وقاله بعدها بالواو ، وبذكر " والمؤمنون " لأنَّ الأول في المنافقين ، ولا يطلع على ضمائرهم إلا الله ، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليها . والثاني في المؤمنين ، وطاعاتهم وعباداتهم ظاهرة لله ورسوله وللمؤمنين ، وختم الأول بقوله " ثُمَّ تُرَدُّونَ " ليفيد قطعه عمَّا قبله ، لأنه وعيد . وختم الثاني بقوله " وستردون " ليفيد وصله بما قبله لأنه وعد ، فناسب في الأول " ثُمَّ " وحذف " والمؤمنون " وفي الثاني " الواو " وذكر " والمؤمنون " .

فإن قلت: السَّيْنُ في " سَيَرَى اللَّهُ " للاستقبال ، والرؤية بمعنى العلم ، والله تعالى عالمٌ بعملهم حالاً ومالاً ، فكيف جمع بينهما؟!

قلت: معناه في حق الله ، أنه سيعلمه واقعاً مالاً ، كما علمه غير واقع حالاً ، لأن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه ، فيعلم الواقع واقعاً ، وغير الواقع غير واقع ، أمَّا في حق الرسول فهو على ظاهره.¹

¹ - زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري ، زين الدين أبو يحيى السنكي (المتوفى: 926هـ) - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن - ت : محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم ، بيروت - لبنان - ط : 1 / 1403 هـ - 1983 م : 239 .

المؤمنون : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (91) {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} 92 :

قال إمام المفسرين : " وقوله: (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) يقول تعالى ذكره: هو عالم ما غاب عن خلقه من الأشياء، فلم يَرَوْه ولم يشاهدوه، وما رآوه وشاهدوه، إنما هذا من الله خبر عن هؤلاء الذين قالوا من المشركين: اتخذ الله ولداً وعبدوا من دونه آلهة، أنهم فيما يقولون ويفعلون مبطلون مخطئون، فإنهم يقولون ما يقولون من قول في ذلك عن غير علم، بل عن جهل منهم به، وإن العالم بقديم الأمور وبحديثها، وشاهدها وغائبها عنهم الله الذي لا يخفى عليه شيء، فخبيره هو الحق دون خبرهم وقال: (عَالِمِ الْغَيْبِ) فرفع على الابتداء، بمعنى: هو عالم الغيب، ولذلك دخلت الفاء في قوله: (فَتَعَالَى) كما يقال: مررت بأخيك المحسن فأحسنت إليه، فترفع المحسن إذا جعلت فأحسنت إليه بالفاء؛ لأن معنى الكلام إذا كان كذلك: مررت بأخيك هو المحسن، فأحسنت إليه. ولو جعل الكلام بالواو فقليل: وأحسنت إليه، لم يكن وجه الكلام في المحسن إلا الخفض على النعت للأخ، ولذلك لو جاء (فَتَعَالَى) بالواو كان وجه الكلام في (عَالِمِ الْغَيْبِ) الخفض على الاتباع لإعراب اسم الله، وكان يكون معنى الكلام: سبحان الله عالم الغيب والشهادة وتعالى! فيكون قوله (وَتَعَالَى) حينئذ معطوفاً على سبحان الله، وقد يجوز الخفض مع الفاء؛ لأن العرب قد تبدأ الكلام بالفاء، كابتهائها بالواو، وبالخفض كأن يقرأ: (عَالِمِ الْغَيْبِ) في هذا الموضع أبو عمرو، وعلى خلافه في ذلك قراءة الأمصار.

والصواب من القراءة في ذلك عندنا الرفع لمعنيين: أحدهما: إجماع الحجة من القراءة عليه، والثاني: صحته في العربية.

وقوله: (فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) يقول تعالى ذكره: فارتفع الله وعلا عن شرك هؤلاء المشركين، ووصفهم إياه بما يصفون.¹

- {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} الزمر: 46 : لما كان أكثر ما تقدم من السورة مشعرا بالاختلاف بين المشركين والمؤمنين، وبأن المشركين مصممون على باطلهم على ما غمرهم من حجج الحق دون إغناء الآيات والتدبر عنهم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم عقب ذلك بأن يقول هذا

¹ - ابن جرير الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 19 / 65 - 66 .

القول تنفيذا عنه من كدر الأسى على قومه، وإعذارا لهم بالندارة، وإشعارا لهم بأن الحق في جانبهم مضاع، وأن الأجر بالرسول صلى الله عليه وسلم متاركتهم وأن يفوض الحكم في خلافهم إلى الله. وفي هذا التفويض إشارة إلى أن الذي فوض أمره إلى الله هو الواثق بحقية دينه المطمئن بأن التحكيم يظهر حقه وباطل خصمه.

وابتدئ خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه بالنداء لأن المقام مقام توجيه وتحاكم. وإجراء الوصفين على اسم الجلالة لما فيهما من المناسبة بخضوع الخلق كلهم لحكمه وشمول علمه لدخائلهم من محق ومبطل.

والفاطر: الخالق، وفاطر السماوات والأرض فاطر لما تحتوي عليه. ووصف فاطر السماوات والأرض مشعر بصفة القدرة، وتقديمه قبل وصف العلم لأن شعور الناس بقدرته سابق على شعورهم بعلمه، ولأن القدرة أشد مناسبة لطلب الحكم لأن الحكم إلزام وقهر فهو من آثار القدرة مباشرة.

والغيب: ما خفي وغاب عن علم الناس، والشهادة: ما يعلمه الناس مما يدخل تحت الإحساس الذي هو أصل العلوم.

والعدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر في قوله: بين عبادك دون أن يقول: بيننا، لما في عبادك من العموم لأنه جمع مضاف فيشمل الحكم بينهم في قضيتهم هذه والحكم بين كل مختلفين لأن التعميم أنسب بالدعاء والمباهلة.

وجملة أنت تحكم بين عبادك خبر مستعمل في الدعاء. والمعنى: احكم بيننا.

وفي تلقين هذا الدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنه الفاعل الحق. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: أنت تحكم لإفادة الاختصاص، أي أنت لا غيرك. وإذ لم يكن في الفريقين من يعتقد أن غير الله يحكم بين الناس في مثل هذا الاختلاف فيكون الرد عليه بمفاد القصر، تعين أن القصر مستعمل كناية تلويحية عن شدة شكيمتهم في العناد وعدم

الإنصاف والانصياع إلى قواطع الحجج، بحيث إن من يتطلب حاكما فيهم لا يجد حاكما فيهم إلا الله تعالى. وهذا أيضا يؤمىء إلى العذر للرسول صلى الله عليه وسلم في قيامه بأقصى ما كلف به لأن هذا القول إنما يصدر عن بذل وسعه فيما وجب عليه، فلما لفته ربه أن يقوله كان ذلك في معنى: أنك أبلغت وأديت الرسالة فلم يبق إلا ما يدخل تحت قدرة الله تعالى التي لا يعجزها الألداء أمثال قومك، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وفيه وعيد للمعاندين.

والحكم يصدق بحكم الآخرة وهو المحقق الذي لا يخلف، ويشمل حكم الدنيا بنصر المحق على المبطل إذا شاء الله أن يعجل بعض حكمه بأن يعجل لهم العذاب في الدنيا.

والإتيان بفعل الكون صلة ل ما الموصولة ليدل على تحقق الاختلاف، وكون خبر (كان) مضارعا تعريض بأنه اختلاف متجدد إذ لا طماعية في ارعواء المشركين عن باطلهم.

وتقديم فيه على يختلفون للرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بالأمر المختلف فيه.¹

- {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة : 8] ، تصريح بما اقتضاه التذييل من الوعيد وعدم الانفلات من الجزاء عن أعمالهم ولو بعد زمان وقوعها لأن طول الزمان لا يؤثر في علم الله نسيانا، إذ هو عالم الغيب والشهادة. وموقع هذه الجملة موقع بدل الاشتمال من جملة فتمنوا الموت إن كنتم صادقين [الجمعة: 6] ، وإعادة فعل قل من قبيل إعادة العامل في المبدل منه كقوله تعالى: تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا في سورة العقود [114] .

ووصف الموت ب الذي تفرون منه للتنبية على أن هلعهم من الموت خطأ كقول علقمة:

إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا
وأطلق الفرار على شدة الحذر على وجه الاستعارة.

واقتران خبر (إن) بالفاء في قوله: فإنه ملاقيكم لأن اسم (إن) نعت باسم الموصول والموصول كثيرا ما يعامل معاملة الشرط فعومل اسم (إن) المنعوت بالموصول معاملة نعته.

وإعادة (إن) الأولى لزيادة التأكيد كقول جرير:

إن الخليفة إن الله سربله ... سربال ملك به ترجى الخواتيم

وتقدم عند قوله تعالى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا في سورة الكهف [30] . وفي سورة الحج أيضا.

والإنباء بما كانوا يعملون كناية عن الحساب عليه، وهو تعريض بالوعيد.²

واللطيفة الجامعة في ورود : " عالم الغيب والشهادة " في القرآن هي لبيان حكم الله بين العباد في دار الدنيا ودار المعاد ، وذلك لأنّ الحكم لا بد له من إحاطة علم لأن من غاب عنه شيء يظلم إذا حكم ، ولذلك كان يدعو صلى الله عليه وسلم في افتتاح صلاة الليل : " اللهم رب

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 24 / 30 .

² - ينظر : التحرير والتنوير : 28 / 217 - 218 . بتصرف .

جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»¹.

علام الغيوب :

العلام : هو اسم من أسماء الله تعالى على وزن (فَعَّال) ، وهو صيغة مبالغة، يدل على سعة العلم وعظمته، وقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات، في قوله تعالى: {قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (المائدة آية 109) : وهذا هو الأدب المطابق للحق في نفس الأمر فإن علومهم وعلوم الخلائق تضمحل وتتلاشى في علمه سبحانه كما يضمحل ضوء السراج الضعيف في عين الشمس ، فأديان جميع المرسلين وكتب الله المنزلة وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم مملوءة بإثبات عموم علمه الذي لا يشاركه فيه خلقه ولا يحيطون بشيء منه إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ويعلمهم به وما أخفاه عنهم ولم يطلعهم عليه لا نسبة لما عرفوه إليه إلا دون نسبة قطرة واحدة إلى البحار كلها كما قال الخضر لموسى وهما أعلم أهل الأرض حينئذ ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر ويكفي أن ما يتكلم به من علمه لو قدر أن البحر يمدده من بعده سبعة أبحر مداد وأشجار الأرض كلها من أول الدهر إلى آخره أقلام يكتب به ما يتكلم به مما يعلمه لنفدت البحار وفنيت الأقلام ولم تنفذ كلماته فنسبة علوم الخلائق إلى علمه سبحانه كنسبة قدرتهم إلى قدرته وغناهم إلى غناه وحكمتهم إلى حكمته وإذا كان أعلم الخلق به على الإطلاق يقول: " لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" ويقول في دعاء الاستخارة: "فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب" ويقول سبحانه للملائكة: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ويقول سبحانه لأعلم الأمم وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ويقول لأهل الكتاب: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} فهل بعد هذا من مدع للعلم .

¹ - رواه البخاري، ومسلم.

وقوله: {تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (المائدة آية 116) :
 والتحقيق أن الآية من المشاكلة إلا أنها ليست في إطلاق النفس بل في لفظ " في " فإن مفادها
 بالنظر إلى ما في نفس عيسى عليه السلام والارتسام والانتقاش ولا يمكن ذلك نظرا إلى الله
 تعالى. وإلى هذا يشير كلام بعض المحققين ومنه يعلم ما في كتب الأصول من الخطب في هذا
 المقام، وقال الراغب: يجوز أن يكون القصد إلى نفي النفس عنه تعالى فكأنه قال: تعلم ما في
 نفسي ولا نفس لك فأعلم ما فيها كقول ابن أحمر في وصف مفازة :
 ولا ترى الضب بها ينجر.¹

وهو على بعده مما لا يحتاج إليه. ومثله ما ذكره بعض الفضلاء من أن النفس الثانية هي نفس
 عيسى عليه السلام أيضا، وإنما أضافها إلى ضمير الله تعالى باعتبار كونها مخلوقة له سبحانه
 كأنه قال: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما فيها² وقوله : إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ تقرير لمضمون
 الجملتين منطوقا ومفهوما لما فيه من الحصر ومدلوله الإثبات فيقرر تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي لأن ما
 انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ويلزمه النفي فيقرر لا أعلم ما في نفسك لأنه غيب
 أيضا، ومدلول النفي أنه لا يعلم الغيب غيره تعالى شأنه.³ فالتذييل عِلَّةٌ لِقَوْلِهِ: تَعَلَّمَ مَا فِي
 نَفْسِي وَلِذَلِكَ جِيءَ بِ (إِنَّ) الْمُفِيدَةَ التَّعْلِيلِ. وَقَدْ جُمِعَ فِيهِ أَرْبَعُ مُؤَكِّدَاتٍ وَطَرِيقَةٌ حَصْرٍ، فَضَمِيرُ
 الْفَصْلِ أَفَادَ الْحَصْرَ، وَإِنَّ وَصِيغَةَ الْحَصْرِ، وَجَمْعُ الْغُيُوبِ، وَأَدَاةُ الْإِسْتِغْرَابِ.

¹ - قال ابن الأثير في المثل السائر وقد أورد هذا البيت : لا تفرغ الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجر

قال : وهذا من أعرب ما توسعت فيه اللغة العربية فإن ظاهر المعنى من هذا البيت أنه كان هناك ضب، ولكنه غير منجر،
 وليس كذلك، بل المعنى أنه لم يكن هناك ضب أصلا.

وهذا النوع من الكلام قليل الاستعمال، وسبب ذلك أن الفهم يكاد يأباه، ولا يقبله إلا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه،
 وما كان عاريا عن قرينة، فإنه لا يفهم منه ما أراد قائله. ينظر : المثل السائر : 203/2 .

فالمُنْفِي فِي الْبَيْتِ الضَّبُّ وَالانْجِحَارُ جَمِيعًا لَا الْانْجِحَارُ فَقَطْ إِذِ الْمُرَادُ وَصْفُ هَذِهِ الْمَفَازَةِ بِكَثْرَةِ الْأَهْوَالِ بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
 يسكنها حيوان .

² - ولا يخفى بعد هذا القول ، وليت شعري ما ذا يصنع نفاة النفس لله بقوله تعالى: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ فِي سُورَةِ
 الْأَنْعَامِ [54] ، وَتَكَرَّرَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْقُرْآنِ وَكَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ فَإِنَّ ذِكْرِي فِي نَفْسِهِ
 ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي.

³ - روح المعاني : 64/4 .

- وقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (التوبة آية 78) : وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ فلا يخفى عليه سبحانه شيء من الأشياء. والهمزة إما للإنكار والتوبيخ والتهديد أي ألم يعلموا ذلك حتى اجترعوا على ما اجترعوا عليه من العظائم أو للتقرير والتنبيه على أن الله سبحانه مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم، وإظهار الاسم الجليل لإلقاء الروعة وتربية المهابة أو لتعظيم أمر المؤاخذة والمجازاة، وفي إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم الحادثين شيئاً فشيئاً بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب

الكثيرة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى .

وقوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (سبأ آية 48) : وقوله يَقْذِفُ بِالْحَقِّ يريد بالوحي وآيات القرآن واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكمه، وقرأ جمهور القراء «عَلَّام» بالرفع أي هو علام، وقرأ عيسى بن عمرو ابن أبي إسحاق «عَلَّام» بالنصب إما على البدل من اسم إنَّ وإما على المدح، وقرأ الأعمش «بالحق وهو علام الغيوب» ، وقرأ عاصم «الغيوب» بكسر الغين¹

قال شيخ البيان : " وأعيد فعل قل للاهتمام بالمقول ، والتأكيد لتحقيق هذا الخبر .

والتعبير عن اسم الله بلفظ الرب وإضافته إلى ضمير المتكلم للإشارة أن الحق في جانبه وأنه تأييد من ربه فإن الرب ينصر مريوبه ويؤيده. فالمراد بالربوبية هنا ربوبية الولاء والاختصاص لا مطلق الربوبية لأنها تعم الناس كلهم.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للدلالة على الاختصاص دون التقوي لأن تقوي الجملة حصل بحرف التأكيد. وهذا الاختصاص باعتبار ما في يقذف بالحق من معنى: الناصر لي دونكم فماذا ينفعكم اعتزازكم بأموالكم وأولادكم وقوتكم.

والقذف: إلقاء شيء من اليد، وأطلق على إظهار الحق قذف على سبيل الاستعارة، شبه إعلان الحق بإلقاء الحجر ونحوه. والمعنى: أن ربي يقذفكم بالحق.

أو هو إشارة إلى قوله: بل نقذف بالحق على الباطل [الأنبياء: 18] وعلى كل فهو تعريض بالتهديد والتخويف من نصر الله المؤمنين على المشركين.

¹ - ينظر : ابن عطية - المحرر الوجيز : 425/4 .

وتخصيص وصف علام الغيوب من بين الأوصاف الإلهية للإشارة إلى أنه عالم بالنوايا، وأن القائل يعلم ذلك فالذي يعلم هذا لا يجترىء على الله بادعائه باطلاً أنه أرسله إليكم، فالإعلام بهذه الصفة هنا يشبه استعمال الخبر في لازم فائدته وهو العلم بالحكم الخبري.

ويجوز أن يكون معنى: يقذف بالحق يرسل الوحي، أي على من يشاء من عباده كقوله تعالى: يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده [غافر: 15] ويكون قوله علام الغيوب إشارة إلى أنه أعلم حيث يجعل رسالاته لأن المشركين كانوا يقولون: لولا أنزلت علينا الملائكة دون محمد. وارتفع علام على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هو علام الغيوب، أو على أنه نعت لاسم إن إما مقطوع، وإما لمراعاة محل اسم إن حيث إنها استوفت خبرها لأن حكم الصفة حكم عطف النسق عند أكثر النحاة وهو الحق. وقال الفراء: رفع الاسم في مثل هذا هو غالب كلام العرب. ومثله بالبدل في قوله تعالى: إن ذلك لحق تخاصم أهل النار [ص: 64].
وقرأ الجمهور الغيوب بضم الغين. وقرأه أبو بكر وحمزة والكسائي بكسر الغين.¹

المطلب العاشر : الحافظ / الحفيظ

الملاحظ في الحفيظ أنه يثبتته الله لنفسه لأنه عليم بصير خبير بكل شيء فهو وحده يَحْفَظُ عَلَى الخَلْقِ أَعْمَالَهُمْ، وَيُحْصِي عَلَيْهِمْ أَقْوَالَهُمْ، وَيَعْلَمُ نِيَّاتِهِمْ وَمَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ، وَلَا تَغِيبُ عَنْهُ غَائِبَةٌ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَيَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ، فَيَعَصِمُهُمْ عَنِ مُوَاقِعَةِ الذُّنُوبِ، وَيَحْرُسُهُمْ عَنِ مُكَائِدَةِ الشَّيْطَانِ، لِيَسْلَمُوا مِنْ شَرِّهِ، وَفِتْنَتِهِ. ولذلك نفى هذا الوصف عن نبيه وكلفه فقط بالبلاغ المبين

هود : فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) أي: إن ربي على جميع خلقه ذو حفظ وعلم. ففيه إشارة إلى تهديدهم ووعيدهم بهلاكهم وتيقن منه بنجاته وحفظ ربه له ، أي : هو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء. وَجُمْلَةٌ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ تَعْلِيلٌ لِجُمْلَةِ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا، فَمَوْقِعٌ إِنَّ فِيهَا مَوْقِعٌ فَأَيْ التَّفْرِيعِ.

وليس بعيدا أن يكون الحفيظ هنا بمعنى رقيب مهيمٌ فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظٌ مستولٍ على كل شيء فكيف يضُرُّه شيءٌ وهو الحافظُ للكل ويدلك على هذا الآية

¹ . الطاهر بن عاشور - التحرير والتنوير : 236/22 - 237 .

قَبْلُ: إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) وبعد : وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيتَنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) .

سبأ : وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21) : يقول تعالى ذكره: وما كان لإبليس على هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم من حجة يضلهم بها إلا بتسليطناه عليهم؛ ليعلم حزننا وأوليائنا (مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ) يقول: من يصدق بالبعث والثواب والعقاب (مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ) فلا يوقن بالمعاد، ولا يصدق بثواب ولا عقاب. " وَقَوْلُهُ: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ مِنْ حُجَّةٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَاللَّهِ مَا ضَرَبَهُمْ بِعَصَا وَلَا أَكْرَهُهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَمَا كَانَ إِلَّا غُرُورًا وَأَمَانِيَّ دَعَاهُمْ إِلَيْهَا فَأَجَابُوهُ¹ وَجَمَلَةٌ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ تَذْيِيلٌ ، وحفيظ على الشيء أي محافظ عليه فإنَّ فَعِيلًا وَمُفَاعِلًا صَيغَتَانِ مَتَأَخِيَتَانِ. والحفيظ: الذي لا يخرج عن مقدرته ما هو في حفظه، وهو يقتضي العلم والقدرة إذ بمجموعهما تتقوم ماهية الحفظ ولذلك يتبع الحفظ بالعلم كثيرا كقوله تعالى: إني حفيظ عليم [يوسف: 55] . وصيغة فعيل تدل على قوة الفعل وأفاد عموم كل شيء أنه لا يخرج عن علمه شيء من الكائنات فتتزل هذا التذييل منزلة الاحتراس عن غير المعنى الكنائي من قوله: لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، أي ليظهر ذلك لكل أحد فتقوم الحجة لهم وعليهم.

الشورى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6) : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا) يا محمد من مشركي قومك (مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) آلهة يتولونها ويعبدونها (اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ) يحصي عليهم أفعالهم، ويحفظ أعمالهم، ليجازيهم بها يوم القيامة جزاءهم. (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) يقول: ولست أنت يا محمد بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم، إنما أنت منذر، فبلغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب هذه آية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار وإزالة عن النبي صلى

¹ - ابن كثير - تفسير القرآن العظيم : 513/6 .

الله عليه وسلم جميع الكلف سوى التبليغ فقط ، وما في هذا اللفظ من موادة فهو منسوخ بآية السيف¹.

الحجر : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) : وقوله: إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قالت فرقة: الضمير في له عائذ على محمد صلى الله عليه وسلم، أي يحفظه من أذاكم ويحوطه من مكرهم وغيره، ذكر الطبري هذا القول ولم ينسبه وفي ضمن هذه العدة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أظهر الله به الشرع وحان أجله. وقالت فرقة- وهي الأكثر- الضمير في له عائذ على القرآن وقاله مجاهد وقتادة، والمعنى: لَحَافِظُونَ من أن يبذل أو يغير، كما جرى في سائر الكتب المنزلة، وفي آخر ورقة من البخاري عن ابن عباس: أن التبديل فيها إنما كان في التأويل وأما في اللفظ فلا وظاهر آيات القرآن أنهم بدلوا اللفظ، ووضع اليد في آية الرجم هو في معنى تبديل الألفاظ. وقيل: لَحَافِظُونَ باختزانة في صدور الرجال. قال القاضي أبو محمد: والمعنى متقارب، فالآية : استئناف ابتدائي لإبطال جزء من كلامهم المستهزئين به، إذ قالوا: يا أيها الذي نزل عليه الذكر [سورة الحجر: 6] ، بعد أن عجل كشف شبهتهم في قولهم: لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين [سورة الحجر: 7] .

جاء نشر الجوابين على عكس لف المقالين اهتماما بالابتداء برد المقال الثاني بما فيه من الشبهة بالتعجيز والإفحام، ثم ثني العنان إلى رد تعريضهم بالاستهزاء وسؤال رؤية الملائكة. وكان هذا الجواب من نوع القول بالموجب بتقرير إنزال الذكر على الرسول صلى الله عليه وسلم مجارة لظاهر كلامهم. والمقصود الرد عليهم في استهزائهم، فأكد الخبر ب إنا وضمير الفصل مع موافقته لما في الواقع كقوله: قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون [سورة المنافقون: 1] .

ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم بأن منزل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء فجملة وإنا له لحافظون معترضة، والواو اعتراضية. والضمير المجرور باللام عائذ إلى الذكر، واللام لتقوية عمل العامل لضعفه بالتأخير عن معموله.

¹ - ينظر : ابن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : 26/5 ، وأبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: 489هـ) - تفسير القرآن - ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم - دار الوطن، الرياض - السعودية - ط : 1 / 1418هـ - 1997م - ص : 64/5 .

وشمل حفظه الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسر تواتره وأسباب ذلك، وسلمه من التبديل والتغيير حتى حفظته الأمة عن ظهور قلوبها من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وصار حفاظه بالغبين عدد التواتر في كل مصر.

وقد حكى عياض في «المدارك»: أن القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البصري (1) سئل عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من طرق التغيير له. فأجاب بأن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال: بما استحفظوا من كتاب الله [سورة المائدة: 44] وتولى حفظ القرآن بذاته تعالى فقال: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

قال أبو الحسن بن المنتاب ذكرت هذا الكلام للمحاملي فقال لي: لا أحسن من هذا الكلام.¹

وروده منصوباً : في وروده منصوباً جاء وصفا منفياً عن رسوله كما أشرنا وحسبك بتلاوة الآيات ليتضح المعنى :

النساء : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) الأنعام : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107) الشورى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48)

المطلب الحادي عشر : الحسيب

النساء : وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (6) : وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا أي شهيدا قاله السدي، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر أن معنى وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا أنه لا شاهد أفضل من الله تعالى فيما بينكم وبينهم وقيل: إن المعنى وَكَفَىٰ به تعالى محاسباً لكم فلا تخالفوا ما أمرتم به ولا تجاوزوا ما حدّ لكم، ولا يخفى موقع المحاسب هنا لأن الوصي يحاسب على ما في يده، وفي فاعل كَفَىٰ كما قال أبو البقاء: وجهان، أحدهما أنه الاسم الجليل، والباء زائدة

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 20/14 - 21 .

دخلت لتدل على معنى الأمر، فالتقدير اکتفوا بالله تعالى، والثاني أن الفاعل مضمرة والتقدير كفى الاکتفاء بالله تعالى، فبالله على هذا في موضع نصب على أنه مفعول به، وحسبياً حال، وقيل: تمييز، وكفى متعدية إلى مفعول واحد عند السمين، والتقدير وكفاكم الله حسبياً، وإلى مفعولين عند أبي البقاء والتقدير، وكفاكم الله شركم، ونحو ذلك.¹

وَإِذَا حُبِّئْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (86) : وأصل "الحسب" في هذا الموضع "فعل" من "الحساب" الذي هو في معنى الإحصاء، (1) يقال منه: "حاسبت فلاناً على كذا وكذا"، و"فلان حاسبه على كذا"، و"هو حسبه"، وذلك إذا كان صاحب حساب، قال الراغب الأصفهاني: "أي يحاسبكم على كل شيء قل أو كثر، فلا تتغافلوا عن صغيرة وكبيرة. وقول عطاء: حفيظاً، وقول ابن جبير: شهيداً فإشارة إلى هذا المعنى"² ففي التذييل ترغيب في الحرس على كل عمل صالح وإن كان صغيراً دقيقاً .

الإسراء : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسبياً (14) : قال ابن جرير رحمه الله : " حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) قال: هو شاهد على نفسه، وقرأ: (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسبياً) ومن قال هذه المقالة يقول: أدخلت الهاء في قوله (بصيرة) وهي خبر للإنسان، كما يقال للرجل: أنت حجة على نفسك، وهذا قول بعض نحويي البصرة. وكان بعضهم يقول: أدخلت هذه الهاء في بصيرة وهي صفة للذكر، كما أدخلت في راوية وعلامة." ³ ونظيره خليف وخليفة وربيعة للمعتدل .

الأحزاب : الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (39) : أي كافياً للمخاوف أو محاسباً على الكبار والصغائر من أفعال القلب والجوارح فلا ينبغي أن يخشى غيره، والإظهار في مقام الإضمار لما في هذا الاسم الجليل ما ليس في الضمير.

¹ - ينظر : الألويسي - روح البيان : 419/2 .

² - تفسير الراغب الأصفهاني : 1371/3 .

³ - جامع البيان في تأويل القرآن : 63/24 .

المطلب الثاني عشر : الحفي

مريم : قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) : قوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لطيفاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، والزجاج. والثاني: رحيماً، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: باراً عودني منه الإجابة إذا دعوته، قاله ابن قتيبة.¹ وهذه الثلاثة لا تتعارض فهو برحمته ولطفه بليغ في البر والإكرام يقال حفي به إذا اعتنى بإكرامه، والجملة تعليل لمضمون ما قبلها، وتقديم الظرف لرعاية الفواصل مع الاهتمام .

المطلب الثالث عشر : الرزاق / خير الرازقين

لم يرد الرزاق إلا مرة واحدة قد اقترن فيها بذوي القوة المتين سيأتي بيانها

المائدة : قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) : تذييل جار مجرى التعليل أي خير من يرزق لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا ملاحظة عوض.

الحج : وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) : وقعت جملة وإن الله لهو خير الرازقين معترضة بين البديل والمبدل منه، وصريحها الثناء على الله. وكنائتها التعريض بأن الرزق الذي يرزقهم الله هو خير الأرزاق لصدوره من خير الرازقين.

وأكدت الجملة بحرف التوكيد ولامه وضمير الفصل تصويراً لعظمة رزق الله تعالى. وقد وقعت في مكان فيه توكيدات مترادفة في ستة مواضع، وهي: قوله: (... لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا...) فاللام والنون مؤكدتان، وبعده: (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58)) ، واللام مع "هو" مؤكدتان، وبعده: (لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ) ، واللام والنون سبيلهما تلك السبيل، وبعده: (وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59)) ، واللام التي في خبر "إن" كذلك. وبعده (لَيُنصِرَنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)) فلما ترادفت التوكيدات في هذا الموضع، وجاء بعده خبر بين خبرين أكداً، وهو: (ذَلِكَ

¹ - ابن الجوزي - زاد المسير في علم التفسير : 134/3 .

بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) وقوله: (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) اقتضت إشباهه مثله فجاء الخبر الثاني الواقع بين الخبرين، وبعد الأخبار المؤكدة مؤكداً بقوله: "هو" فقال: (وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) وليس كذلك ما جاء في سورة لقمان: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) لأنه لم يتقدمه التوكيدات التي تستتبع أمثالها كما تقدمت في الأولى.

فيدلك هذا على عظم ما سيناله المجاهدون في سبيله كعظم المائدة التي أنزلها الله على النصارى في الآية قبل .

المؤمنون : أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) : يقول تعالى ذكره: أم تسأل هؤلاء المشركين يا محمد من قومك خراجاً، يعني أجراً على ما جنتهم به من عند الله من النصيحة والحق؛ (فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ) فأجر ربك على نفاذك لأمره، وابتغاء مرضاته خير لك من ذلك، ولم يسألهم صلى الله عليه وسلم على ما أتاهم به من عند الله أجراً، قال لهم كما قال الله له، وأمره بقبله لهم: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) وإنما معنى الكلام: أم تسألهم على ما جنتهم به أجراً، فنكصوا على أعقابهم إذا تلوته عليهم، مستكبرين بالحرم، فخراج ربك خير.¹ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ أى خير من اعطى عوضاً على عمل لان ما يعطيه لا ينقطع ولا يتكدر وهو تقدير لخيرية خراجه تعالى ففيه اشارة إلى أن العلماء بالله الراسخين فى العلم لا يدنسون وجوه قلوبهم الناضرة بدنس الأطماع الفاسدة والصالحة الدنيوية والاخروية فيما يعاملون الله فى دعوة الخلق الى الله بالله الله .

سبأ : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39) : وقوله (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) يقول: وهو خير من قيل إنه يرزق ووصف به، وذلك أنه قد يوصف بذلك من دونه فيقال: فلان يرزق أهله وعياله ويوصف خلقه أيضاً بالحكم والخلق والرحمة وله الحمد والمنة والفضل وحده في كل هذا فهو أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين وأرحم الراحمين لأنه وحده رب العالمين .

الجمعة : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11) فى التذليل تنبيه وتحذير لطالب اللهو وطالب الرزق بالتجارة

¹ - ابن جرير الطبري - جامع البيان فى تأويل القرآن : 58/19 .

وقت إقامة الجمعة ، والتوجيه الذي وجهه الشينقيطي - رحمة الله تعالى عليه - لعود الضمير على التجارة، فإنه في السياق ما يدل عليه، وذلك في قوله تعالى بعدها: قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة [62 \ 11] ، فذكر السبيين المتقدمين ؛ لانفضاضهم عنه - صلى الله عليه وسلم - ثم عقبه بقوله تعالى، بالتذييل المشعر بأن التجارة هي الأصل بقوله: والله خير الرازقين [62 \ 11] ، والرزق ثمرة التجارة، فكان هذا بيانا قرآنيا لعود الضمير هنا على التجارة دون اللهو، والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

قال أبو حيان عن ابن عطية: تأمل إن قدمت التجارة على اللهو في الرؤية ؛ لأنها أهم وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولا على الأبين. اهـ.

يريد بقوله: في الرؤية: (وإذا رأوا) ، ويقوله: مع التفضيل: قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، أي: لأن اللهو أبين في الظهور، والذي يظهر والعلم عند الله تعالى، أنه عند التفضيل ذكر اللهو للواقع فقط ، لأن اللهو لا خير فيه مطلقا فليس محلا للمفاضلة، وآخر ذكر التجارة ، لتكون أقرب لذكر الرزق لارتباطهما معا، فلو قدمت التجارة هنا أيضا لكان ذكر اللهو فاصلا بينها وبين قوله تعالى: والله خير الرازقين، وهو لا يتناسق مع حقيقة المفاضلة. " 1

المطلب الرابع عشر: الوارث

الأنبياء : وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) : يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا، حِينَ طَلَبَ أَنْ يَهَبَهُ اللَّهُ وَلَدًا، يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا. وَقَدْ تَقَدَّمتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ سُورَةِ "مَزِيم" وَفِي سُورَةِ "آلِ عِمْرَانَ" أَيْضًا، وَهَاهُنَا أَخْصَرُ مِنْهُمَا؛ {إِذْ نَادَى رَبَّهُ} أَي: خُفِيَّةً عَنْ قَوْمِهِ: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا} أَي: لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَاثَرَ يَقُومُ بَعْدِي فِي النَّاسِ، {وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} دُعَاءٌ وَثَنَاءٌ مُنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ.

ولذلك قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَهَا: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} أَي: امْرَأَتَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَتْ عَاقِرًا لَا تَلِدُ، فَوَلَدَتْ.

1 - أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن : 187/8 .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ (1) ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَطَاءٍ: كَانَ فِي لِسَانِهَا طُولٌ فَأَصْلَحَهَا اللَّهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَ فِي خَلْقِهَا شَيْءٌ فَأَصْلَحَهَا اللَّهُ. وَهَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالسُّدِّيُّ. وَالْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ الْأَوَّلِ.¹ وَفِي التَّنْذِيلِ مَعْنَى : فَحَسْبِي أَنْتَ إِنْ لَمْ تَرْزُقْنِي وَارثًا الْقِصَصُ : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرْتُمْ مَعِيشَتَهَا فَنَلَّكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) : وَقَوْلُهُ: (وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) يَقُولُ: وَلَمْ يَكُنْ لِمَا خَرَبْنَا مِنْ مَسَاكِينِهِمْ مِنْهُمْ وَارثٌ، وَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ قَبْلَ سُكْنَاهُمْ فِيهَا، لَا مَالِكَ لَهَا إِلَّا اللَّهُ، الَّذِي لَهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجُمْلَةُ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةٍ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهُوَ يُفِيدُ أَنَّهَا لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ فَلَا يَحِلُّ فِيهَا قَوْمٌ آخَرُونَ بَعْدَهُمْ فَعَبَّرَ عَنْ تَدَاوُلِ السُّكْنَى بِالْإِزْثِ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْتِعَارَةِ.

وَقَصُرُ إِزْثِ تِلْكَ الْمَسَاكِينِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقِيًّا، أَيَّ لَا يَرِثُهَا غَيْرُنَا.

ووصف بها مؤمني بي إسرائيل : القصص : وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) .

المطلب الخامس عشر : الوكيل

قال البغدادي : " لقد حرم هشام بن عمر الفوطي - أحد رؤوس المعتزلة - على الناس أن يقولوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ مِنْ جِهَةِ تَسْمِيَّتِهِ بِالْوَكِيلِ وَقَدْ نَطَقَ الْقُرْآنُ بِهَذَا الْإِسْمِ اللَّهُ تَعَالَى ، فَإِذَا لَمْ يَجْزِ إِطْلَاقُ هَذَا الْإِسْمِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَ نَزُولِ الْقُرْآنِ بِهِ وَمَعَ وُرُودِ السَّنَةِ الصَّحِيحَةِ بِهِ فَأَيُّ اسْمٍ بَعْدَهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُنَا يَتَعَجَّبُونَ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ الْبَصْرِيَّةِ فِي إِطْلَاقِهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا لَمْ يَذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ إِذَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقِيَاسُ وَزَادَ هَذَا التَّعَجُّبُ بِمَنْعِ الْفُوطِيِّ عَنِ إِطْلَاقِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا قَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالسَّنَةُ وَاعْتَذَرَ الْخِيَاطُ عَنِ الْفُوطِيِّ بِأَنَّهُ قَالَ إِنْ هَشَامًا كَانَ يَقُولُ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْمَتَوَكَّلُ بَدَلًا مِنَ الْوَكِيلِ وَزَعَمَ أَنَّ وَكَيْلًا يَقْتَضِي مَوْكَلًا فَوَقَّهَ وَهَذَا مِنْ عِلْمَاتِ جَهْلِ هِشَامٍ وَالْمُعْتَزَلِ عَنْهُ بِمَعْنَى الْأَسْمَاءِ فِي اللُّغَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْوَكِيلَ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْكَافِي لِأَنَّهُ يَكْفِي مَوْكَلَهُ أَمْرًا مَا وَكَلَهُ فِيهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ وَمَعْنَى حَسْبُنَا كَافِينَا وَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ نَعْمٍ مُوَافِقًا لِمَا قَبْلَهُ كَقَوْلِ الْقَائِلِ " اللَّهُ رَازِقُنَا وَنَعْمَ الرَّازِقُ " وَلَا يُقَالُ اللَّهُ رَازِقُنَا وَنَعْمَ الْغَافِرُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: " وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ "

¹ - ينظر : ابن كثير - تفسيره : 370/5 .

أي كافيهِ وَقَدْ يَكُونُ الْوَكِيلُ أَيضاً بِمَعْنَى الْحَفِيزِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} أَي حَفِيزٌ وَيُقَالُ فِي نَقِيضِ الْحَفِيزِ رَجُلٌ وَكُلٌّ وَوَكَلْتُ أَي بَلِيْدٌ وَالْوَكَالُ الْبِلَادَةُ وَإِذَا كَانَ الْوَكِيلُ بِمَعْنَى الْحَفِيزِ وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَافِيًا وَحَفِيزًا لَمْ يَكُنْ لِلْمَنْعِ مِنْ إِطْلَاقِ الْوَكِيلِ فِي أَسْمَائِهِ مَعْنَى وَالْعَجَبُ مِنْ هِشَامٍ فِي أَنَّهُ أَجَازَ أَنْ يَكْتُبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْإِسْمَ وَإِنْ يَفْرَأُ بِهِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَجْزِ أَنْ يَدْعَى بِهِ فِي غَيْرِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ¹

وهذه مواطن ذكره في القرآن :

آل عمران : الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) : يعني بقوله: "حسبنا الله"، كفانا الله، يعني: يكفينا الله "ونعم الوكيل"، يقول: ونعم المولى لمن وليه وكفله " قال أبو تراب النخشي: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية. فإن أعطي شكر. وإن منع صبر. فجعله مركبا من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلى قضائه وقدره، وطمأنينته وكفايته له، وشكره إذا أعطى، وصبره إذا منع.²

النساء : وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81)

الأحزاب : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3)

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48)

أوردنا هذه الآيات معا وأقحمناها قبل تمام شواهد سورة النساء لما ورد فيها من أمر واحد لرسوله: وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا بعد ذكر الكافرين والمنافقين وأمره بتركهم والإعراض عنهم وعدم طاعتهم فإنهم لا يضررونك ولا ينفعونك وقد بلغتهم وأمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه محبة له وخشية ورجاء فإن التقوى لا تتم إلا بذلك واتباع ما أوحى إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزل خاصة وبالتوكل عليه وهو يتضمن اعتماد القلب

¹ - البغدادي - الفرق بين الفرق : 145/1 - 146 .

² - ابن القيم - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : 114/2 .

عليه وحده وثقته به وسكونه إليه دون غيره ثم أتبع ذلك بقوله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره بل ليس إلا قلب واحد فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلا انصرف ذلك إلى غيره .

- النساء : وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) : يعني بذلك جل ثناؤه: والله ملك جميع ما حوته السموات والأرض، وهو القيم بجمعيه، والحافظ لذلك كله، لا يعزب عنه علم شيء منه، ولا يؤوده حفظه وتدبيره، كما حدثني المثنى قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا هشام، عن عمرو، عن سعيد، عن قتادة: "وكفى بالله وكيلا"، قال: حفيظًا.

فإن قال قائل: وما وجه تكرار قوله: "والله ما في السموات وما في الأرض" في آيتين، إحداهما في إثر الأخرى؟ فقال في التي قبل هذه : وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131)

قيل: كرر ذلك، لاختلاف معنى الخبرين عما في السموات والأرض في الآيتين. وذلك أن الخبر عنه في إحدى الآيتين: ذكر حاجته إلى بارئه، وغنى بارئه عنه - وفي الأخرى: حفظ بارئه إياه، وعلمه به وتدبيره.

فإن قال: أفلا قيل: "وكان الله غنيًا حميدًا"، وكفى بالله وكيلا؟

قيل: إن الذي في الآية التي قال فيها: "وكان الله غنيًا حميدًا"، مما صلح أن يختم ما ختم به من وصف الله بالغنى وأنه محمود، ولم يذكر فيها ما يصلح أن يختم بوصفه معه بالحفظ والتدبير. فلذلك كرر قوله: "والله ما في السموات وما في الأرض".¹

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) : له ما في السموات وما في الأرض جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه، وبيان ذلك أنه سبحانه مالك لجميع الموجودات علويها وسفليها لا يخرج من ملكوته شيء منها، ولو كان له ولد لكان مثله في المالكية فلا يكون مالكا لجميعها، وقوله تعالى: وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا إشارة

¹ - ينظر : ابن جرير الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 297/9 .

إلى دليل آخر لأن الوكيل بمعنى الحافظ فإذا استقل سبحانه وتعالى في الحفظ لم يحتج إلى الولد فإن الولد يعين أباه في حياته ويقوم مقامه بعد وفاته والله تعالى منزّه عن كل هذا فلا يتصور له ولد عقلا ويكون افتراؤه حمقا وجهلا.

المطلب السادس عشر: القريب :

البقرة : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) : قال ابن جرير : نزلت جواباً لمسألة قوم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: أي ساعة يدعون الله فيها؟

ومعنى متأولي هذا التأويل: وإذا سألك عبادي عني: أي ساعة يدعونني؟ فإني منهم قريب في كل وقت، أجب دعوة الداع إذا دعان.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قريبا عاما من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده،

و «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»¹

وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما

قال النبي صلى الله عليه وسلم راويا عن ربه تبارك وتعالى: «من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا»

فهذا قربه من عابده. وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.

وقوله: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً فِيهِ الْإِشَارَةُ وَالْإِعْلَامُ بهذا القرب. وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر وبناء آخر، وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب التحفة المكية. على أن العبارة تنبو عنه ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبداً، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب. وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير هذه العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها فتزل بك قدم بعد ثبوتها وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم

¹ - أخرجه الترمذي برقم 3579 .

فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح، وقابلهم من غلظ حجابهم، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وأما قوله: "فليستجيبوا لي"، فإنه يعني: فليستجيبوا لي بالطاعة. يقال منه: "استجبت له، واستجبتة"، بمعنى أجبته، كما قال كعب بن سعد الغنوي:

وَدَاعِ دَعَا يَأْمَنُ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ¹

المطلب السابع عشر : الوهَّاب

آل عمران : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)

ص : أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9)

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)

بعد إنعام النظر في سباق ولحاق هذه الآيات الثلاث عنت لطيفة موجودة من وراء ذكر الوهَّاب "الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من غير استئابة، لأن معنى الهبة: التملك بغير عوض يأخذه الواهب من الموهوب له، فكل من وهب شيئاً من عرض الدنيا لصاحبه، فهو واهب، ولا يستحق أن يسمى وهَّاباً إلا من تصرف موهبه في أنواع العطايا فكثرت نوافله ودامت. والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالا، أو نوالاً في حال دون حال، ولا يملكون أن يهبوا شفاءً لسقيم، ولا ولداً لعقيم، ولا هدى لضلَّال، ولا عافية لذي بلاء، والله الوهَّاب - سبحانه - يملك جميع ذلك، وسع الخلق جوده، ورحمته، فدامت موهبه واتصلت منه وعوائده." ² أنه وحده من يهب أعظم الملك والرحمة ألا وهو النبوة، فلذلك ورد ذكره بصفة المبالغة "الوهَّاب" معرِّفاً مقترناً بالنبوة في آل عمران : الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (4)

¹ - ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن للطبري : 482/3 - 483 ، و التفسير القيم لابن القيم : 256/1 .

² - الخطابي - شأن الدعاء : 53

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) فقولته : " فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يعني ميل عن الهدى وَهُوَ الشك فهم اليهود فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ يعني ابتغاء الكفر وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ يعني منتهى ما يَكُونُ وَكَمْ يَكُونُ يريد بِذَلِكَ الملك. يَقُولُ اللَّهُ- عَزَّ وَجَلَّ-: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ كَمْ يَمْلِكُونَ مِنَ السنين يعني أمة محمد يملكون إلى يوم الْقِيَامَةِ إِلَّا أَيَّامًا يَبْتَلِيهِمُ اللَّهُ- عَزَّ وَجَلَّ- بِالذَّجَالِ. ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يعني المتدارسون علم التوراة فهم عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَأَصْحَابُهُ [مِنْ] مُؤْمِنِي أَهْلِ التَّوْرَةِ ¹ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا يعني قليله وكثيره مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ- 7- فما يسمع إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ يعني من كان لَهُ لُبٌ وَعَقْلٌ يعني ابْنُ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ: فَيَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ ابْنُ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا لَا تَمَلْ قُلُوبَنَا يعني لا تحول قلوبنا عن الهدى بعد ما هديتنا كَمَا أَرَاغَتِ الْيَهُودُ عَنِ الْهُدَى وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً يعني من عندك رحمة إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ- 8- للرحمة.

أما وروده في موضعين في سورة " ص " ففي الأول لدحض شبهة المكذبين المشركين الحاسدين ما وهبه العزيز ذو الغلبة الوهاب الملك والنبوة أعظم الرحمات والنعم ، فهي سورة خصومة المشركين والكفار لأنبيائهم ورسولهم ، فقد سبقهما قوله : " ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحْمِلْ بَعْدَ ظَهْرِنَا وَتَكُنْ مِنَ الْغَابِرِينَ (3) وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4)

أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (5) وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) يقولون: ما سَمِعْنَا بِهَذَا الْأَمْرِ الَّذِي يَقُولُ مُحَمَّدٌ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ يعني ملة النصرانية، وهي آخر الملل لأن النصارى يزعمون أن مع الله عيسى بن مريم، ثم قال الوليد: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ إِلَّا اخْتِلَاقٌ- 7- من محمد تقوله من تلقاء نفسه، ثم قال الوليد: أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ يعني النبي- صلى الله

¹ - وهي عامة في كل راسخ في العلم ومنهم ابن عباس حبر أمة محمد

عليه وسلم- مِنْ بَيْنِنَا وَنَحْنُ أَكْبَرُ سَنَا وَأَعْظَمُ شَرَفًا، يَقُولُ اللهُ- عز وجل- لقول الوليد: «إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ» يقول الله- تعالى-: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي يَعْنِي الْقُرْآنَ بَلْ لَمَّا يَعْنِي لَمْ يَدُوقُوا عَذَابٍ وَسِيدُوقُونَهُ بَعْدَ- 8-، مثل قوله «... وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ [سورة الحجرات: 14] ولكن سيدخل فهو غير منتف إلى الأبد، " أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَحْمَةِ رَبِّكَ " يعني نعمة ربك وهي النبوة، نظيرها في الزخرف «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ... [سورة الزخرف: 32] يعني النبوة يقول أبأيديهم مفاتيح النبوة والرسالة فيضعونها حيث شاءوا، فإنها ليست بأيديهم ولكنها بيد العَزِيزِ في ملكه الذي لا يغلبه أحد فيمنحة الملك والنبوه الوَهَّابِ- 9- الرسالة والنبوة فضلا منه ومنة ورحمة لمحمد- صلى الله عليه وسلم-، ثم قال: أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يعني كفار قريش يقول ألهم ملكهما وأمرهما، بل الله يوحى الرسالة إلى من يشاء¹.

وفي الموضع الثاني من السورة قال حاكيا عن سليمان: " قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) وما أعظم هذا اليقين من سليمان الأواب التواب عليه الصلاة والسلام ينسى غير متعمد صلاة العصر حتى غيَّاب الشمس لشغل الخيول له: " ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (30) إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد (31) فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب (32) فتاب وآب وضرب منها السوق والرقاب غضبا لله وخوفا من العقاب ، هذه فتنة أذهبت الصافنات الجياد وأخرى سلب لملكه وسلطانه " ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب (34) أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، {وألقينا على كرسيه جسدا} قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم: يعني شيطاننا. {ثم أناب} أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته². ولكنه لما آب وتاب وأناب أخلص الدعاء: " قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب (35) فطلب أولا المغفرة من ربه الذي يربي حتى إذا ما غفر وغطى ذنبه طلب الهبة منه لأنه يرزق ويهب ووكد في ختام دعائه بقوله " إنك أنت الوهاب " فذيل دعائه بهذا الحشو الذي فيه توحيد وإخلاص للمدعو تعالى فهذا التذييل هو الذي أتم الدعاء وبرء صاحبه من الحول والقوة وأنبأ عن فقره وفاقتة ، لذلك استجاب له ربه الغني الوهاب ، قال: " فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب (36) عوضه الله تعالى ما هو خير منها وهي الريح

¹ - ينظر : تفسير مقاتل بن سليمان : 3 / 627 .

² - ابن كثير . تفسير ابن كثير : 66/7 .

التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر فهذا أسرع وخير من الخيل (4) "والشياطين كل بناء وغواص (37) وآخرين مقرنين في الأصفاد (38) هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (39) وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب (40) .

فالوهاب وصف عظيم ناسب أن يقترن بهبة عظيمة هي الرسالة والنبوة ، أما فيما دونها فاكتفي بذكر الفعل من هذه الصفة ، قال تعالى : " لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) [الشورى] ، والله أعلم .

المطلب الثامن عشر : المقيت

النساء : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَبِّلاً (85) ماورد إلا في هذه ، وجملة : (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَبِّلاً) : تَدْبِيلٌ لِحُجْمَةٍ مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً لِآيَةٍ، لِإِفَادَةِ أَنَّ اللَّهَ يُجَازِي عَلَى كُلِّ عَمَلٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ حُسْنٍ أَوْ سُوءٍ. قال السدي: المقيت: المقتدر، وأنشد الكسائي فيه: وذو ضغن كفت النفس عنه وكنت على مساءته مقبلاً

وقال ابن عباس: الحفيظ، وقواه الرجّاج ، وقال مجاهد: الشهيد، ورؤي عنه: الحسيب، وقال الضحاك: الرازق ،وقال غيرهم: المجازي، وحقيقته الذي يجعل للإنسان قوتاً ، وفي الحديث: "كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت -" وبقيت - كأن الله تعالى يجعل لكل إنسان قوتا من الجزاء بقدر فعله، ويجعل له في الدنيا والآخرة قدر ما يستوجبه ، وما قالوه فصحيح من حيث المقصد، لأن ما قدره الله تعالى للعبد فقد حفظه وشهده. ورؤي أن رجلاً سأل عبد الله بن رواحة عن المقيت؟ فقال: بقيت كل إنسان بقدر علمه. كأنه إشارة إلى ما قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله يحاسب عباده بقدر عقولهم " ¹.

المطلب التاسع عشر : الحي

قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} (الفرقان آية 58) ، ولم يقل (وتوكل على الحي) فقط، لأن المخلوقين أحياء ولكنهم سيموتون، فإذا توكل بعضهم على بعض، تبددت

¹ - ينظر : تفسير الراغب الأصفهاني : 1363/3 .

مصالح المتوكلين بموت المتوكل عليهم، لذا علمنا عز وجل أن يكون توكلنا على {الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} وهو الله وحده سبحانه وتعالى ، فمن ليس بوكيل على حياته كيف نوكل إليه أمورنا ؟ وقد ذكر الإمام الشوكاني - رحمه الله - أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه في دفع المضار وجلب المنافع فقال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} ، وخص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة على الدوام إلا الله سبحانه، دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم. والتوكل هو اعتماد القلب على الله في كل الأمور¹

وفي قوله تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر آية 56) .

وقد ورد اسم (الحي) في هذه الآية مع إقرار تجريد توحيد الألوهية لله تعالى سبحانه، مع أمرنا أن ندعوه وحده مخلصين له قلوبنا في كل دعائنا.

وقد ذكر الإمام ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: هو الأول والآخِر والظاهر والباطن، الذي لا معبود إلا هو سبحانه.

وذكر في قوله تعالى: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي: موحدين له مقربين بألوهيته وربوبيته، كما ذكر أنه روي عن ابن عباس قوله: من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله تعالى: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}².

وذكر الإمام الشوكاني في قوله تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي الباقي الذي لا يفنى، المنفرد بالألوهية، وفي قوله تعالى: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي الطاعة والعبادة.

وذكر أنه أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: من قال: لا إله إلا الله فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}³.

والنكتة في اسميه الحي والقيوم أنهما يقترنان بلفظيهما للاستدلال على ألوهية الله وحده أو إثبات الرسالة أو إثبات يوم الحساب كما سيأتي بيانه ، أمّا هنا لما انفرد الحي عن القيوم لفظاً

¹ - الشوكاني - فتح القدير : 83 / 4 ، 84 .

² - تيسير العلي القدير : 3 / 539 .

³ - فتح القدير : 4 / 499 .

اقترن بأفعال القيومية من خلق وتدبير وتسخير وأنيط بهما بيان استتاق الله وحده للعبادة ، فأية " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) عقبا بيان قيوميته بشبهه ما في آية الكرسي : " الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا (59) وسبقت ببيان كونه الحي أزلا الخالق المدبر القيوم على سمواته وأرضه وما بينهما وأردف ذلك بإنكار عبادة غيره فناسب مع كل هذا أن يأمر رسوله بصرف أعظم عبادة : التوكل عليه وحده : " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَاً وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58)

والشأن يكاد يكون ذاته في آية : " هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (غافر آية 56) وهذه الوحيدة التي جعل فيها " الحي " مبتدأ خبره " لا إله إلا هو " فشغل موضع لفظ الجلالة " الله " وما ذاك إلا لتوقف كل موجود على صفة الحياة وكان الله حيا قيوما بذاته أزلا وأبدا ، وهذا ذكر ما سبق الآية وما تلاها : إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59) .

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ

يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
 وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64)
 هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ
 أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ
 (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ
 لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي
 يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
 اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (69) .

المبحث الثالث : انفراد أسماء وصفات الجلال

المطلب الأول : القادر/ القدير

من اللطائف أن الحافظ والعالم والقادر لم تفتن بغيرها من الأسماء الحسنى على عكس الحفيظ
 والعليم والقدير وردت بكثرة مقترنة بغيرها من الأسماء والصفات وغير مقترنة وحين انفرادها
 نكرت وقرنت حفيظ وقدير بالظرف : "على كل شيء" وعليم بالظرف : "بكل شيء"

القدير : ورد في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة ، منها أربع مرات (3) (قادر) : بالرفع، في قوله
 تعالى: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً} (الأنعام آية 37) ، وقوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ
 يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا} (الأنعام آية 65) ، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
 قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} (الإسراء آية 99) ، وقوله: {إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} (الطارق آية 8)
 وفي أربعتها استعمل في إثبات وتأكيد قدرته على إنزال آياته القرآنية والكونية وخلق غير الخلق
 وإعادة الخلق والبعث والنشور ولما كان القادر على الشيء أعلى منه عدي إلى المقدور بحرف
 الجرّ على للدلالة على الاستعلاء والقهر والغلبة .

ومنها ثلاث مرات بالجر بلفظ (قادر) في قوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
 بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} (يس آية 81) ، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} (الأحقاف آية 33) ، وقوله: {أَلَيْسَ

ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} (القيامة آية 40). وفي وروده مجرورا بباء التوكيد المسبوقة بالاستفهام والنفي لزيادة تقرير وإثبات لما بعد الباء جاء لإبطال دعاوى نفاة البعث والحساب . ومنها أربع مرات بصيغة الجمع بلفظ (قادرين) بالرفع في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} (18) { (المؤمنون آية 18) ، وقوله: {وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ} (المؤمنون آية 95) ، وقوله: {قَلَّا أَفَسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لِقَادِرُونَ} (المعارج آية 40) ، وقوله: {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} (المرسلات آية 23) وفي وروده بصيغة الجمع المرفوع المؤكّد لبعث الخلائق بعد موتها : ففي تفسير الأولى : " وروى مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله عز وجل أنزل من الجنة خمسة أنهار جيحون وسيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل استودعها الله الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس، فذلك قوله عز وجل: وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض، فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فرفع من الأرض القرآن، والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت، ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء، فذلك قوله تعالى: وإنا على ذهاب به لقادرون » فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا»¹ والتذييل فيه إشارة إلى البعث .

أما قوله في الثانية : {وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ} فمعناه: وإنا يا محمد على أن نريك في هؤلاء المشركين ما نعدهم من تعجيل العذاب لهم، لقادرون، فلا يحزننك تكذيبهم إياك بما

¹ - البغوي - معالم التنزيل في تفسير القرآن : 363/3 . وهذا الأثر باطل. أخرجه الخطيب 1/ 57 وابن حبان في «المجروحين» 3/ 34 والنحاس كما في «تفسير القرطبي» 12/ 112-113 وابن عدي في «الكامل» 6/ 315 والواحد في «الوسيط» 31/ 286-287 من طريق مسلمة بن علي الخشني عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس به مرفوعا، والمتن باطل بهذا التمام.

- وإسناده ساقط، مسلمة متروك الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث، وبه أعله ابن عدي وابن حبان، وقال: كان ممن يقلب الأسانيد ويروي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم.

- ومقاتل بن حيان غير حجة، وقد روى مناكير كثيرة، وبخاصة في التفسير.

نعدم به، وإنما نؤخر ذلك ليلبغ الكتاب أجله ففي التذييل تسلية لنبيه ووعده بإجابة دعائه الذي علمه إياه : {قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94)} فكيف يأمره بالدعاء ويعلمه إياه ثم لا يجيبه ؟

أما الثالثة فكفى بالآيات بعدها شارحا لتأكيد بعثهم بعد موتهم ونشرهم ثم حشرهم لحسابهم : فلا أُفْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرَهُمْ يَحُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44) وفيه من الوعيد ما لا يخفى .

وكذى الرابعة يفسرها ما سبقها وما لحقها : أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَفَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) ومنها مرة واحدة بصيغة الجمع بلفظ (قادرين) بالنصب في قوله تعالى :

{بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} ، وحتى وروده مجرورا للغرض ذاته ألا وهو إثبات البعث . والمقتدر انفراد مرة واحدة بلفظ (مقتدرا) بالنصب في قوله تعالى : {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} (الكهف آية 45) : قال المفسرون : وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنشَاءِ وَالْإِنفَاءِ مُقْتَدِرًا وَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ فِي آخِرِ الْكَلَامِ . مَوْقِعُهَا التَّذْكِيرُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ وَأَضْدَادِهَا، وَجَعَلَ أَوَائِلَهَا مُفْضِيَةً إِلَى أَوَاخِرِهَا، وَتَرْتِيبُهُ أَسْبَابَ الْفَنَاءِ عَلَى أَسْبَابِ الْبَقَاءِ، وَذَلِكَ اقْتِدَارٌ عَجِيبٌ. وَقَدْ أُفِيدَ ذَلِكَ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ بِالْعُمُومِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ بِذَلِكَ الْعُمُومِ أَشْبَهَ التَّذْيِيلَ.

ومنها مرة واحدة بصيغة الجمع بلفظ (مقتدرون) بالرفع، في قوله تعالى : {فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ} (الزخرف آية 42) : متى حَصَلَتْ الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ وَالْإِرَادَةُ الْجَارِمَةُ وَجَبَ وُجُودُ الْمَقْدُورِ وَحَيْثُ لَا يَجِبُ فَإِنَّمَا هُوَ لِنَفْسِ الْقُدْرَةِ أَوْ لِعَدَمِ الْإِرَادَةِ التَّامَّةِ. وَالرَّبُّ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ يُخْبِرُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَ أُمُورًا لَمْ يَفْعَلْهَا كَمَا قَالَ {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا} . فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ ذَلِكَ لَكَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ. لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْهُ إِذْ كَانَ عَدَمَ مَشِيئَتِهِ أَرْجَحَ فِي الْحِكْمَةِ مَعَ كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَيْهِ لَوْ شَاءَهُ .

البقرة : يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20): وَصَفَ اللهُ نَفْسَهُ جَلَّ ذِكْرَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، لِأَنَّهُ حَذَّرَ الْمُنَافِقِينَ بِأَسْهٍ وَسَطُوتِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بِهِمْ مُحِيطٌ، وَعَلَى إِذْهَابِ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ قَدِيرٌ. ثُمَّ قَالَ: فَانْقُونِي أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ، وَاحْذَرُوا خِدَاعِي وَخِدَاعَ رَسُولِي وَأَهْلِ الْإِيمَانِ بِي، لَا أَجَلَّ بِكُمْ نَقْمَتِي، فَإِنِّي عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ قَدِيرٌ.

مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) : وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (قَدِيرٌ) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: قَوِيٌّ. يُقَالُ مِنْهُ: "قَدَّرْتُ عَلَى كَذَا وَكَذَا"، إِذَا قَوَّيْتُ عَلَيْهِ "أَقْدَرُ عَلَيْهِ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ قَدْرَةٌ وَقِدْرَانًا وَمَقْدَرَةٌ"، وَبِنُورٍ مِنْ غُطْفَانٍ تَقُولُ: "قَدَّرْتُ عَلَيْهِ" بِكَسْرِ الدَّالِ. فَأَمَّا مِنْ "التَّقْدِيرِ" مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: "قَدَّرْتُ الشَّيْءَ"، فَإِنَّهُ يُقَالُ مِنْهُ "قَدَّرْتَهُ أَقْدَرَهُ قَدْرًا وَقَدْرًا". قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: (أَلَمْ تَعْلَمْ) ، إِنَّمَا مَعْنَاهُ: أَمَا عَلِمْتَ. وَهُوَ حَرْفٌ جَدَّدَ أَدْخَلَ عَلَيْهِ حَرْفَ اسْتِفْهَامٍ، وَحُرُوفُ اسْتِفْهَامٍ إِنَّمَا تَدْخُلُ فِي الْكَلَامِ إِذَا بَعْنَى الْاسْتِثْنَاءَاتِ، وَإِنَّمَا بِمَعْنَى النِّفْيِ، فَأَمَّا بِمَعْنَى الْإِثْبَاتِ، فَذَلِكَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَخَلَتْ عَلَى حُرُوفِ الْجَدْدِ. وَلَكِنْ ذَلِكَ عِنْدِي، وَإِنْ كَانَ ظَهَرَ ظُهُورَ الْخُطَابِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّمَا هُوَ مَعْنَى بِهِ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: (لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا) . وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا : (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107)) ، فَعَادَ بِالْخُطَابِ فِي آخِرِ الْآيَةِ إِلَى جَمِيعِهِمْ، وَقَدْ ابْتَدَأَ أَوْلَاهَا بِخُطَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهُ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) . لِأَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الَّذِينَ وَصَفَتْ أَمْرَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ. وَذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مُسْتَفِيزٌ بَيْنَهُمْ فَصِيحٌ: أَنْ يَخْرُجَ الْمُتَكَلِّمُ كَلَامَهُ عَلَى وَجْهِ الْخُطَابِ مِنْهُ لِبَعْضِ النَّاسِ وَهُوَ قَاصِدٌ بِهِ غَيْرِهِ، وَعَلَى وَجْهِ الْخُطَابِ لِوَاحِدٍ وَهُوَ يَقْصِدُ بِهِ جَمَاعَةً غَيْرَهُ، أَوْ جَمَاعَةً وَالْمُخَاطَبُ بِهِ أَحَدُهُمْ - وَعَلَى وَجْهِ الْخُطَابِ لِلْجَمَاعَةِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ أَحَدُهُمْ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) [الأحزاب: 1-2] ، فَارْجِعْ إِلَى خُطَابِ الْجَمَاعَةِ، وَقَدْ ابْتَدَأَ الْكَلَامَ بِخُطَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُ كَمَا قَالَ جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ:

أَلَا إِنَّ جِيرَانِي الْعَشِيَّةَ رَائِحٌ ... دَعْتَهُمْ دَوَاعٍ مِنْ هَوَى وَمِنَادِحٍ

فقال: "ألا إن جيرانى العشية" فابتدأ الخبر عن جماعة جيرانه، ثم قال: "رائح"، لأن قصده - في ابتدائه ما ابتدأ به من كلامه - الخبر عن واحد منهم دون جماعتهم، وكما قال جميل أيضا في كلمته الأخرى:

خليلى فيما عشتما، هل رأيتما ... قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

وهو يريد قاتلته، لأنه إنما يصف امرأة، فكنى باسم الرجل عنها، وهو يعنيها. فكذاك قوله: (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) ، وإن كان ظاهر الكلام على وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه مقصود به قصد أصحابه. وذلك بين بدلالة قوله: (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) الآيات الثلاث بعدها - على أن ذلك كذلك.¹

- وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) : قال أهل التفسير أن قوله : فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " منسوخة بقوله : " قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ " التوبة : [29] ، وقد دللنا فيما مضى على معنى "القدير" ، وأنه القوي، فمعنى التذليل ههنا: إن الله - على كل ما يشاء بالذين وصفت لكم أمرهم من أهل الكتاب وغيرهم - قدير، إن شاء انتقم منهم بعنادهم ربهم، وإن شاء هداهم لما هداكم الله له من الإيمان، لا يتعذر عليه شيء أراد، ولا يتعذر عليه أمر شاء قضاءه، لأن له الخلق والأمر.

- وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) : وأما قوله: "إن الله على كل شيء قدير"، فإنه تعالى ذكره يعني: إن الله تعالى على جمعكم - بعد مماتكم - من قبوركم إليه، من حيث كنتم وكانت قبوركم كمن وعلى غير ذلك مما يشاء، قدير. فبادروا خروج أنفسكم بالصالحات من الأعمال قبل مماتكم ليوم بعثكم وحشركم.

¹ - ينظر : الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن : 483/2 - 484 .

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) : قال ابن جرير : " وذلك أن قائل ذلك كان -فيما ذكر لنا- عهده عامراً بأهله وسكانه، ثم رآه خاوياً على عروشه، قد باد أهله، وشتتتهم القتل والسباء، فلم يبق منهم بذلك المكان أحد، وخربت منازلهم ودورهم، فلم يبق إلا الأثر. فلما رآه كذلك بعد للحال التي عهده عليها، قال: على أي وجه يحيي هذه الله بعد خرابها فيعمرها، استنكاراً فيما -قاله بعض أهل التأويل- فأراه كيفية إحيائه ذلك بما ضربه له في نفسه، وفيما كان في إدواته وفي طعامه، ثم عرفه قدرته على ذلك وعلى غيره بإظهاره على إحيائه ما كان عجباً عنده في قدرة الله إحيائه رأيي عينه حتى أبصره ببصره فلما رأى ذلك قال: (أعلم أن الله على كل شيء قدير).¹

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذُورُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284) : تذييلٌ مقررٌ لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجبٌ لقدرته سبحانه على ما ذكر من المحاسبة وما فرغ عليه من المغفرة والتعذيب.

- آل عمران : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) : تعليل لما سبق وتحقيق له

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29) : فيقدر على عقوبتكم بما لا مزيدَ عليه إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله مبين لقوله تعالى وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ في قوله قبل : "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ الْمَصِيرُ (28) بأن ذاته المقدسة المتميزة عن سائر الذوات المتصفة بما لا يتصف به شيء

¹ - جامع البيان في تأويل القرآن : 448/5 .

منها من العلم الذاتي المتعلق بجميع المعلومات متصفةً بالقدرة الذاتية الشاملة لجميع المقدورات بحيث لا يخرج من ملكوته شيء قط .

أولمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (165) : التذييل هنا مقرر لمضمون ما قبلها داخل تحت الأمر ، وقيل : المراد منها تطيبب أنفسهم ومزج مرارة التقريع بحلاوة الوعد أي إنه سبحانه قادر على نصرتم بعد لأنه على كل شيء قدير فلا تياسوا من روح الله

- وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189) : في التذييل تقرير اختصاص ملك العالم الجثماني المعبر عنه بقطريه به سبحانه وتعالى فإن كونه تعالى قادراً على الكل بحيث لا يشد من ملكوته شيء من الأشياء يستدعي كون ما سواه كائناً ما كان مقدوراً له ومن ضرورته اختصاص القدرة به تعالى واستحالة أن يشاركه شيء من الأشياء في القدرة على شيء من الأشياء فضلاً عن المشاركة في ملك السموات والأرض وفيه تقريره لما مر من ثبوت العذاب الأليم لهم وعدم نجاتهم منه وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الأولهية مع ما فيه من الإشعار باستقلال كل من الجملتين بالتقرير .

المائدة : هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) : اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله وإظهار الاسم الجليل للتعليل وتقوية استقلال الجملة .

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19) : تذييل فيه تعليل فمن جملة مقدراته إرسال رسوله على فترة من الرسل .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (40) : استئناف بياني، جواب لمن يسأل عن انقلاب حال السارق من العقاب إلى

الْمَغْفِرَةَ بَعْدَ التَّوْبَةِ مَعَ عِظَمِ جُرْمِهِ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، فَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَوَاضِعِ الْعِقَابِ وَمَوَاضِعِ الْعَفْوِ .

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120) : تذييل مؤذن بانتهاء الكلام ، لأنّ هذه الجملة جمعت عبودية كلّ الموجودات لله تعالى ، فناسبت ما تقدّم من الردّ على النصارى ، وتضمّنت أنّ جميعها في تصرّفه تعالى فناسبت ما تقدّم من جزاء الصادقين . وفيها معنى التفويض لله تعالى في كلّ ما ينزل ، فأذنت بانتهاء نزول القرآن على القول بأنّ سورة المائدة آخر ما نزل ، وباقتراب وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما في الآية من معنى التسليم لله وأنه الفعّال لما يريد وتقديم المجرور باللام مفيد للقصر أي له لا لغيره

وجيء بالموصول (ما) في قوله (وما فيهن) دون (من) لأنّ (ما) هي الأصل في الموصول المبهم فلم يعتبر تغليب العقلاء ، وتقديم المجرور ب (على) في قوله : (على كل شيء قدير) للرعاية على الفاصلة المبنية على حرفين بينهما حرف مدّ .¹

الأنعام : وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) : أي ومن جملته ذلك فيقدر جل شأنه عليه فيمسك به ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه ورفعه أحد كقوله تعالى : فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ [يونس : 107] ويظهر من هذا ارتباط الجزاء بالشرط.

وقيل : إن الجواب محذوف تقديره فلا راد له غيره تعالى ، والمذكور تأكيد للجوابين لأن قدرته تعالى على كل شيء من الخير والشر تؤكد أنه سبحانه وتعالى كاشف الضر وحافظ النعم ومديمها ، وزعم أنه لا تعلق له بالجواب الأول بل هو علة الجواب الثاني ظاهر البطلان إذ القدرة على كل شيء تؤكد كشف الضر بلا شبهة وإنكار ذلك مكابرة .²

الأنفال : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 119/7 .

² - ينظر : روح المعاني : 147/4 .

كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41) : قَوْلُهُ : " والله على كل شيء قدير " اعتراض بتذييل الآيات السابقة وهو متعلق ببعض جملة الشرط في قوله: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فإن ذلك دليل على أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، فإن ما أسداه إليكم يوم بدر لم يكن جارياً على متعارف الأسباب المعتادة، فقدرة الله قلبت الأحوال وأنشأت الأشياء من غير مجاريها ولا يبعد أن يكون من سبب تسمية ذلك اليوم يوم الفرقان أنه أضيف إلى الفرقان الذي هو لقب القرآن، فإن المشهور أن ابتداء نزول القرآن كان يوم سبعة عشر من رمضان، فيكون من استعمال المشترك في معنياه .

براءة : إِلَّا تَتَفَرَّوْا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) : فيقدر على إهلاكهم والإتيان بقوم آخرين، وقيل: على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد فتكون الجملة تنميما لما قبل وتوطئة لما بعد: " إِلَّا تَتَضَرَّوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا... (40)

هود : إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) : فيندرج في تلك الكلية قدرته على إماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى إليهم فحوى الكتاب على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وسبق إليهم ما ينبغي أن يساق من الترغيب والترهيب وقع في ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذي تخر له صم الجبال هل قابلوه بالإقبال أم تبادوا فيما كانوا عليه من الإعراض والضلال فقيل مصدراً بكلمة التنبيه إشعاراً بأن ما يعقبها من هئاتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه ¹.

النحل : وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) : جملة " إن الله عليم قدير " تذييل تنبيهاً على أن المقصود من الجملة الدلالة على عظم قدرة الله وعظم علمه . وقدم وصف العليم لأن القدرة تتعلق على وفق العلم ، وبمقدار سعة العلم يكون عظم القدرة ، فضعيف القدرة يناله تعب من قوّة علمه لأن همّته تدعوه إلى ما ليس بالنائل ، كما قال أبو الطيّب :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

¹ - ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 184/4 .

- وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) : ومن جملة ذلك أمر إقامتها فهو سبحانه قادر عليه فالجملة في موضع التعليل. وفي الكشف على تقدير عموم الغيب وشموله لجميع ما غاب في السموات والأرض إن قوله تعالى : وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ كَالْمُسْتَفَادِ مِنَ الْأَوَّلِ وهو كالتمهيد له أي يختص به علم كل غيب الساعة وغيرها فهو الآتي بها للعلم والقدرة ، ولهذا عقب بقوله سبحانه : إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الحج : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) : أي مبالغ في القدرة وإلا لما أوجد هذه الموجودات القاتنة للحصر التي من جملتها ما ذكر وأما الاستدلال على ذلك بأن قدرته تعالى لذاته الذي نسبته إلى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها فمنشأة الغفول عما سيق له النظم الكريم من بيان كون الآثار الخاتمة المذكورة من فروع القدرة العامة اللامة ومسبباتها وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع في نحور المنكرين وتقديمه لإبراز الاعتناء به .

- النور : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) : جملة : (إن الله على كل شيء قدير) تعليل وتذييل . ووقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كلاماً مستقلاً بذاته لأن شأن التذييل أن يكون كالمثل .

- العنكبوت : فُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخُلُقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) : وجملة (إن الله على كل شيء قدير) تذييل ، أي قدير على البعث وعلى كل شيء إذا أَرَادَهُ ، وإظهار اسم الجلالة لتكون جملة التذييل مستقلة بنفسها فتجري مجرى الأمثال

الروم : فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) : تذييل مقرر لمضمون ما قبله أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها إحيائهم لما أن نسبة قدرته إلى الكل سواء .

فاطر : الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : جملة " إن الله على كل شيء قدير " تعليل لجملة " يزيد في الخلق ما يشاء " .

- فصلت : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) استئناف ابتدائي قصد به تهديد الذين أهملوا الاستدلال بآيات الله على توحيده ، وفي التذييل تعليل لآته في قوّة قوله لو قال : لآته على كل شيء قدير .

الشورى : أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9) : فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شيء ، قال ابن عاشور : عطف جملة " وهو على كل شيء قدير " لإثبات هذه الصفة لله تعالى تذكيراً بانفراده بتمام القدرة ، ويفيد الاستدلال على إمكان البعث قال تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (الروم : 27) ، ويفيد الاستدلال على نفي الإلهية عن أصنامهم لأن من لا يقدر على كل شيء لا يصلح للإلهية : قال تعالى : (أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) (النحل : 17) وقال : (لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقُونَ) (النحل : 20) وقال : (وإن يسلبهم الذُّبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه) (الحج : 73) ، والغرض من هذا تعريض بإبلاغه إلى مسامح المشركين ، ولما كان المقصود إثبات القدرة لله تعالى عطف الجملة على التي قبلها لأنها مثلها في إفادة الحكم ، وكانت إفادة التعليل بها حاصلة من موقعها عقبها ، ولو أريد التعليل ابتداءً لفصلت الجملة ولم تعطف .¹

- اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) لما لم يقرب بقوله " على كل شيء " قرن بغيره من أسماء الله واقتران القدة بالعلم لبيان أنه ذو علم بمن يحتاج ذا من ذلك وهذه من تلك والمزيج من العدم وقادر على كله فلعلمه بالأصلح لم يقدر .

الأحقاف : أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) : {أَوْلَمْ يَرَوْا} الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والرؤية قلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا علماً جازماً متأخماً للمشاهدة

¹ - التحرير والتتوير : 40/25 .

والعيان {أَنَّ الله الذى خلق السماوات والأرض} ابتداءً من غير مثال بجنتديه ولا قانون بنتحيه {وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ} أي لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلاً أو لم يعجز عنه يقال عيبت بالأمر إذا لم يعرف وجهه وقوله تعالى {بِقَادِرٍ} في حيز الرفع لأنه خبر أن كما ينبىء عنه القراءة بغير باءٍ ووجه دخولها في القراءة الأولى اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على أن وما في حيزها كأنه قيل أو ليس الله بقادر {على أن يحيى الموتى} ولذلك أجب عنه بقوله تعالى {بلى أنه على كل شيء قدير} تقريراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود .

- الحديد : له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير (2) : جملة "وهو على كل شيء قدير" تفيد مفاد التذليل لجملة "يحي ويميت" لتعميم ما دل عليه قوله : "يحي ويميت" من بيان جملة "له ملك السماوات والأرض" ، وإنما عطف بالواو وكان حق التذليل أن يكون مفصلاً لقصد إيثار الإخبار عن الله تعالى بعموم القدرة على كل موجود ، وذلك لا يفيت قصد التذليل ، لأن التذليل يحصل بالمعنى .

الحشر : وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير (6) : فيفعل ما يشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة وأخرى على غيرها .

التغابن : يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (1) : جملة "وهو على كل شيء قدير" معطوفة على اللتين قبلها وهي بمنزلة التذليل لهما والتبيين لوجه القصيرين فيهما ، فإن التقدير على كل شيء هو صاحب الملك الحق وهو المختص بالحمد الحق ، وفي هذا التذليل وعد للشاكرين ووعيد وترهيب للمشركين ، والاختصار على ذكر وصف "قدير" هنا لأن المخلوقات التي تسبح الله دالة على صفة القدرة أولاً لأن من يشاهد المخلوقات يعلم أن خالقها قادر .

الطلاق : الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً (12) : {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير} متعلق بخلق أو ينزل أو بمضمر يعمهما أي فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر قادر على كل شيء {وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً} لاستحالة صدور الأفاعيل المذكورة ممن ليس كذلك ويجوز أن يكون العامل في اللام بيان ما ذكر من الخلق وتنزل الأمر أي

أَوْحَى ذَلِكَ وَبَيَّنَّهُ لَتَعْلَمُوا بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَشَاهَدُونَهَا وَالَّتِي تَتَلَقَّوْنَهَا مِنَ الْوَحْيِ مِنْ عَجَائِبِ الْمَصْنُوعَاتِ أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ شَيْءٌ مَا أَصْلًا .

التحريم : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَغَفِرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) : تذييل مشعر بتعليل الدعاء كناية عن رجاء إجابته لهم .

الملك : تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) : لما شمل قوله : " وهو على كل شيء قدير " تعلق القدرة بالموجود والمعدوم أتبع بوصفه تعالى بالتصرف الذي منه خلق المخلوقات وأعراضها لأن الخلق أعظم تعلق القدرة بالمقدور لدلالته على صفة القدرة وعلى صفة العلم . ففي العطف بقوله : " وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " تتميم للمعنى .

وروده منصوبا : " قديرا "

النساء : وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا (133) أكثر فواصل آي النساء منصوبة وأكثر أسماء الله وصفاته وردت فيها أخبارا لكان وفي هذه جعل قديرا خبرا لكان وقيد بقوله : " على ذلك إشارة إلى الإحياء والإماتة لبيان أنه من كان لم يزل قديرا في الأزل لا شك ولا بد لا يزال على ذلك قديرا إلى الأبد .

وتأييدها آية الفرقان : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54): ففواصل الآي في هذه السورة كلها منصوبة فجاءت مثلها وجعل قديرا خبرا عن الرب بدلا من لفظ الجلالة لأنه ذكر قبله أفعال الربوبية والخلق : أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53) ثم قال : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) أي : فربك لم يزل متصفاً بخبر كان ، ولا يزال كذلك ، وأن ذلك حصل له من نفسه ، فلم يزل متصفاً في نفسه إذا كان من لوازم نفسه ، ولهذا لا يزال لأنه من نفسه .

وآية الأحزاب : في كل آية اقترن التقدير بقوله " على كل شيء " جاء خبراً عن الله نكرة مرفوعاً إلا في آية النساء وهذه الآية : وَأُورَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27) ولعل علتة نصبه في هذه أن فواصل الآي في هذه السورة كلها منصوبة فجاءت مثلها .

وكذلك آية الفتح : وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) ، فواصل الآي فيها كلها منصوبة فجاءت مثلها و" كان " هنا تدل على الدوام والاستمرار الذي يعم جميع الأوقات، كما قال علماء النحو: إن "كان" تستعمل بمعنى: بقي على حاله، واستمر شأنه، وسيستمر من غير انقطاع، ولا تقيد بزمن، نحو: كان الله غفوراً رحيمًا¹ .

المطلب الثاني : المجيد

جاء وصفا للقرآن : ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) و البروج : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21)

ووصفا للباري على قراءة الرفع وللعرش على قراءة الجر في آية البروج : ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ

وهو اسم دال على من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة فمنه استمجد المرخ والغفار وأمجد الناقة علفا ومنه {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنا بطلب الصلاة

¹ - ينظر : المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي (المتوفى: 285هـ) - المقتضب - ت : محمد عبد

الخالق عظيمة - عالم الكتب. - بيروت - ص : 119 / 4 .

من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم كما علمناه لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه ، ولأجل هذا وصف به القرآن الذي هو كلام الله والعرش الذي هو أعظم مخلوقاته وأعلاها وأوسعها .

وقرأ الحسن وعمر بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان «المجيد» بالجر صفة للعرش ومجده علوه وعظمته وحسن صورته وتركيبه ، فإنه قيل العرش أحسن الأجسام صورة وتركيبا وسعة وعظما.

المطلب الثالث : الأعلى :

هذه الصفة ادعاها فرعون مع الربوبية : فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) يقول ليس لي رب فوقى، فأنا الأعلى فَأَخَذَهُ اللَّهُ بِعَقَبِيَّةٍ قَوْلِهِ: نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى - 25- وكان بينهما أربعين سنة، الأولى قوله: « ... مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي [القصص: 38] والآخرة قوله «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى»

ووصف بها الرحمن نفسه في سورة الأعلى : سَبَّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) : أي نزه اسمه عز وجل عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة وعن إطلاقه على غيره بوجه يُشعرُ بتشاركهما فيه وعن ذكره لا على وجه الإعظام والإجلال والأعلى إمّا صفة للرب وهو الأظهر أو للاسم وقد مضى في أول البحث الخلاف في تأويلها .

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) : فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه ، وقال تعالى: {وإن كنتم تنكرون الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما} [الأحزاب: 29] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. .

وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن «النبي - صلى الله عليه وسلم - : أنه كان يدعو: اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحييني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيما لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء،

وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقاءك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين» .
فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقاءه. وعند الجهمية لا وجه له سبحانه، ولا ينظر إليه، فضلا أن يحصل به لذة. كما سمع بعضهم داعيا يدعو بهذا الدعاء فقال: ويحك! هب أن له وجهها، أفنتد بالنظر إليه؟¹

المطلب الرابع : القاهر

الأنعام : وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ (61) : والقاهر: الغالب المكره الذي لا ينفلت من قدرته من عدي إليه فعل القهر ، وجملة " هو القاهر فوق عباده " عطف على جملة : " وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون (60) [الأنعام: 60] ، والمناسبة هنا أن النوم والموت خلقهما الله فغلبا شدة الإنسان كيفما بلغت فبين عقب ذكرهما أن الله هو القادر الغالب دون الأصنام. فالنوم قهر، لأن الإنسان قد يريد أن لا ينام فيغلبه النوم، والموت قهر وهو أظهر، ومن الكلم الحق: سبحان من قهر العباد بالموت .

المطلب الخامس : العزيز

آل عمران : مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (4) : قوله : " والله عزيز ذو انتقام" استئناف بياني ممدد إليه بقوله: نزل عليك الكتاب بالحق لأن نفس السامع تتطلع إلى معرفة عاقبة الذين أنكروا هذا التنزيل.
وشمل قوله: الذين كفروا بآيات الله المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة، لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله- هنا- لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله لأنه معجزة. وعبر عنهم بالموصول إيجازا لأن الصلة تجمعهم، والإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو قوله: لهم عذاب شديد.

¹ - ابن القيم - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : 24/3 .

وعطف قوله: والله عزيز ذو انتقام على قوله: إن الذين كفروا بآيات الله لأنه من تكلمة هذا الاستئناف: لمجيئه مجيء التبيين لشدة عذابهم إذ هو عذاب عزيز منتقم كقوله: فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر [القمر: 42].¹

– المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدِيًّا بِالْغِ كَعَبَةٍ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَّسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) وقوله: والله عزيز ذو انتقام تذييل. والعزيز الذي لا يحتاج إلى ناصر، ولذلك وصف بأنه ذو انتقام، أي لأن من صفاته الحكمة، وهي تقتضي الانتقام من المفسد لتكون نتائج الأعمال على وفقها.

إبراهيم: فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47): (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ) لم يرد به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا الْآيَةَ وقوله كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي كما قيل فإنه لا اختصاص له بالتعذيب لا سيما الأخروي بل ما سلف آنفاً من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمُ الْآيَةَ كما يُفصح عنه الفاء الداخلة على النهي الذي أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بإنجاز وعده المذكور المقرون بالأمر بإنذارهم يوم إتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الأمم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم في القرآن العظيم فكأنه قيل وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا وبما أجبناهم به وفرعناهم بعدم تأملهم في أحوال من سبقهم من الأمم الذين أهلكتناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم بإهلاكهم فذم على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافنا رسلنا وعدنا ، وقوله " إن اله عزيز " أي : غالب لا يماكر وقادر (ذو انتقام) لأولياته من أعدائه والجملة تعليل للنهي المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال إن الله لا يُخلفُ الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المُشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير إليه بالفعل وعبر عنه بالمكر.²

¹ - ينظر : تحرير والتنوير : 150/3 .

² - ينظر : تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 60/5 .

والجدير بالذكر هنا التنبيه على أنه لا يسمى الله إطلاقاً من غير تقييد: "المنتقم" استناداً إلى هذه الآي التي أخبر فيها بأنه: "ذو انتقام" لأنه جاء مقيداً .

المطلب السادس : العظيم

في قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الواقعة آية 74) ، وقد سبق الاسم الكريم (العظيم) في هذه الآية بالأمر بالتسبيح باسم ربنا تعالى، ومعنى هذا الأمر: أن ننزهه عما لا يليق بشأنه كما يذكر الإمام الشوكاني¹

وتنزيهه سبحانه على هذا الوجه معناه إثبات كل صفات الكمال له تعالى، وهذا الأمر من مباحث توحيد الله عز وجل.

- وفي قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الواقعة آية 96) .

أقول: وما ذكرته في الآية السابقة هو ما أقرره في هذه الآية؛ لأن الأمر فيهما واحد.

- وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} (الحاقة آية 33) .

أقول: وقد سبق الاسم الكريم (العظيم) في هذه الآية بذكر حال الذي يؤتى كتابه بشماله - يوم تعرض الخلائق على الله - فيدخل في سلسلة طولها سبعون ذراعاً ثم يرمى في الجحيم، وبيان أنه ما كان يؤمن بالله (العظيم) فلم يطعه، ولم يؤيد ما أوجبه تعالى عليه من حقوق سبحانه، فضلاً عن حقوق العباد، والإيمان بالله يترتب عليه الائتمار بما أمر، والانتهاز عما نهى، وهذا الإيمان إنما يعني توحيد الله عز وجل.

- وفي قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الحاقة آية 52) ، قد سبق الاسم الكريم (العظيم) في هذه الآية بالأمر بتنزيه الله تعالى عما لا يليق، إذ إنه لا يأتي منه إلا بكل خير، والقرآن الكريم جاء من عنده تعالى، لذلك كان حق اليقين؛ فجاءت الآية السابقة (وإنه لحق اليقين) أي: أن القرآن لأنه من عند الله؛ فهو حق لا يحول حوله ريب، ولا يتطرق إليه شك، والقرآن هو كلام الله تعالى، وكلامه سبحانه صفة من صفاته، والصفات من مباحث توحيد الله عز وجل.

¹ - ينظر: الشوكاني - فتح القدير: 5 / 162.

المطلب السابع: الغني

قد ورد اسم (الغني) سبحانه في القرآن الكريم دون أن يقترن بغيره من أسماء الله تعالى الحسنى خمس مرات على ما يلي:

1- في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} (آل عمران آية 97) ، وقد سبق اسم (الغني) سبحانه في هذه الآية الكريمة ببيان وجوب أداء حج بيت الله الحرام لكل من يستطيع السبيل لبلوغه، وإبراز أن الحج إنما هو لله وحده، واعتبر المستطيع الذي يتقاعس عن أداء هذا الركن من أركان الإسلام كافراً، وكفره عليه، فلن يضر الله به شيئاً، إذ إن الله غني عنه وعن عبادته وعن العالمين جميعاً، وتجريد العبادة لله وحده هو من توحيده سبحانه.

وقد قال الإمام ابن كثير في بيان قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} : إن من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه. وروى سعيد بن منصور عن عكرمة قال: لما نزلت: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} قالت اليهود: فنحن مسلمون، قال الله عز وجل: فأخصمهم فحجهم، يعني فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلاً"، فقالوا: لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا، قال الله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} ¹

وقال الإمام الشوكاني في بيان الآية ذاتها: قيل إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه، وقيل المعنى: ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجباً، وقيل: إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر، وما شرع الله تعالى لعباده هذه الشرائع إلا لنفعهم ومصالحتهم، وهو - تعالى شأنه وتقدس سلطانه - غني لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع ².

- وفي قوله تعالى: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} (العنكبوت: 6) وقد سبق اسم (الغني) سبحانه في هذه الآية ببيان أن جهاد الإنسان - وهو عبادة عدت ذروة سنام الإسلام - لا ينفع سواه، وهكذا شأن كل أعماله، ولا ينفع الله شيئاً، فهو سبحانه غني عن

¹ - تيسير العلي القدير المجلد: 1/ 295 - 296.

² - فتح القدير: 363/1 .

كل العالمين، ويتبين أن ذكر العبادة التي تجرد الله تعالى - وهذا من توحيده - سبق ذكرها اسمه (الغني) سبحانه وتعالى.

وقد ذكر الإمام ابن كثير في بيان هذه الآية الكريمة: أن من جاهد فإنما يعود جهاده على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيء.¹

وقال الإمام الشوكاني في بيان الآية نفسها: أن من جاهد الكفار وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات فإنما يجاهد لنفسه، أي ثواب ذلك له لا لغيره، ولا يرجع إلى الله سبحانه من نفع ذلك شيء، فلا يحتاج إلى طاعة العالمين كما لا تضره معاصيهم.²

2- وفي قوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} (الزمر آية 7) .

فاسمه الكريم (غني) ذكر معه بيان أن عدم توجيه العبادات لله تعالى لعدم الإيمان به لا يضر الله شيئاً، بل ضرره على صاحبه لعدم توحيده، ورغم هذا فالله تعالى لا يرضى لعباده أن يكفروا، ولكنه يرضى لهم أن يشكروا.

ويتبين من هذا ومما سبق من الآيات أن الأسماء الحسنى تذكر غالباً مقترنة مع بيان توحيد الله عز وجل، مما يؤكد أهمية توحيد صاحب هذه الأسماء الكريمة.

وقد قال الإمام ابن كثير في بيان هذه الآية الكريمة: إن الله تعالى يخبر عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني عما سواه كما قال موسى عليه السلام: {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} ، وكما جاء في صحيح مسلم: "يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً"، ومع ذلك فالله لا يحب الكفر لعباده ولا يأمر به، ولكن يحب لهم أن يشكروا ويزيدهم من فضله

وقال الإمام الشوكاني في بيان الآية ذاتها: إنه تعالى غير محتاج إليكم، ولا إلى إيمانكم، ولا إلى عبادتكم له، فإنه الغني المطلق، ومع كون كفر الكافر لا يضره كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن فهو سبحانه لا يرضى لأحد من عباده الكفر، ولا يحبه، ولا يأمر به.³

¹ - تيسير العلي القدير: 284 / 3.

² - الشوكاني - فتح القدير: 193 / 4.

³ - تيسير العلي القدير: 497 / 3.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} هل هي عامة أم خاصة؟ فذهب فريق إلى أنها عامة لعباد الله جميعا؛ فالكفر غير مرضي لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر؛ فقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: والله ما رضي الله لعبد ضلالة، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكن رضي لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته.

وذهب فريق - منهم ابن عباس رضي الله عنهما، على ما أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات في قوله: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} - أنهم عباده المخلصون الذين قال عنهم: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}؛ فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله وحببها إليهم، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة أن المعنى: لا يرضى لعباده المسلمين الكفر.¹

1- وفي قوله تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} (يونس آية 68) .

أقول: إن من لديه أدنى ذرة من عقل يعلم يقينا أن الله سبحانه لا يمكن أن يتخذ ولدا، لأن اتخاذ الولد مظهر من مظاهر الحاجة، إذ إن المعهود في الإنسان أنه يتخذ الولد لحاجته إليه ليحمل اسمه ويبقى ذكره بعد موته، وليعيّنه في حياته إذا عجز أو كبر، وليمده بما يقتات به إذا افتقر، والله تعالى - وله المثل الأعلى - لا يتصور عاقل أن يتخذ له ولدا، لأن اتخاذ الولد دليل على حاجة متخذه إليه، والمحتاج إلى غيره لا يصلح أن يكون إلها، فسبحان الله العلي الكبير أن يحتاج لغيره، فهو (الغني) عن خلقه جميعا، وآية ذلك أنه خالق السموات والأرض وما فيها وما بينهما، ومالك الخلق جميعا ومدبر أمره وحده سبحانه وتعالى.

وتجريد الربوبية لله تعالى على هذه الصورة لينبني عليه توحيد الألوهية ثم توحيد الأسماء والصفات أكمل تجريد لتوحيد الله عز وجل؛ ومن ثم نرى أن أسماء الله تعالى تذكر غالبا بإقرار قضية توحيد الله تبارك وتعالى لعظيم أهميته في صحة الأعمال.

وقد ذكر الإمام ابن كثير في بيان هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ينكر على من ادعى أن له ولدا، {سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ} أي تنزهه عن أن يكون له ولد، بل هو الغني عن كل ما سواه، إذ كيفي كون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك وعبد له؟²

¹ -فتح القدير الجزء : 4 / 453 - 454.

² - تيسير العلي القدير: 2 / 309.

وذكر الإمام الشوكاني في بيان الآية نفسها: أن هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً، فرد ذلك عليهم بقوله: {سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ} فتنزهه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين، وبين أنه غني عن ذلك، وأن الولد إنما يطلب للحاجة، والغني المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، وإذا انتفت الحاجة انتفى لولده، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه، والأزلي القديم لا يفتقر إلى ذلك، ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان فقال: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} وإذا كان الكل له وفي ملكه فلا يصح أن يكون شيء مما فيها ولداً؛ للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوة.¹

1- وفي قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (محمد آية 38) .

وقد سبق اسم (الغني) سبحانه في هذه الآية الكريمة ببيان نوع من أنواع العبادة وهو الإنفاق، وأنه لا يكون مقبولاً إلا إذا جرد الله تعالى وحده، وأن الذي لا يكون موحداً بالله ومؤمناً بأسمائه الحسنی وصفات كماله العليا - ومنها أنه الغني وغناه مطلق لأنها نهاية له - فيبخل بالإنفاق خالصاً لوجهه تعالى، فإنما يقع ضرر ذلك عليه وحده، ولا يضر الله شيئاً، لأنه سبحانه هو الغني وخلقته هو الفقراء إليه، وإن استمروا على عدم توحيدهم مدبرين فإن الله قادر على أن يذهبهم ويأت بأقوام غيرهم آخرين يعرفون الله تعالى ويخلصون له توحيداً وأعمالهم. وهذا يستفاد منه أن توحيد الله عز وجل في غاية الأهمية، وفاقده على خطر عظيم.

وقد قال الإمام ابن كثير في بيان الآية الكريمة: إن من يبخل أضاع على نفسه الأجر وعود الوبال عليه، والله الغني عما سواه، وفقير إليه ما عداه، ولذا قال تعالى: {وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ} أي بالذات إليه فوصفه بالغنى، ووصف الخلق بالفقر لازم لهم لا ينفكون عنه، كما ذكر تعالى أنهم إن تولوا عن طاعته واتباع شرعه استبدل قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم، ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره .

وقال الإمام الشوكاني في بيان الآية ذاتها: إنكم أيها المؤمنون تدعون لتتفقوا في الجهاد وفي طريق الخير فمنكم من يبخل بما يطلب منه ويدعى إليه من الإنفاق في سبيل الله، وإذا كان

¹ - فتح القدير لجزء الثاني ص 460.

منكم من يبخل باليسير من المال فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال، ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس بمنعها الأجر والثواب ببخله، فإن الله هو الغني المطلق المنتزه عن الحاجة إلى أموالهم، وأنتم الفقراء إلى الله وإلى ما عنده من الخير والرحمة، وأنكم إن تعرضوا عن الإيمان والتقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم أطوع لله منكم ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي عن الإيمان والتقوى .

وهذا يستفاد منه أن الإيمان بالله تعالى وحده وتجريد الأعمال جميعا له في غاية الأهمية، وفاقدا ذلك على خطر عظيم.

المطلب الثامن : القوي :

الأنفال : كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) : وقوله سبحانه : **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ أي أنه سبحانه لا يغلبه غالب فيدفع عقابه عن أراد معاقبته غافر : **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22) :** وجملة: إنه قوي شديد العقاب تعليل وتبيين لأخذ الله إياهم وكيفيته وسرعة أخذه المستفادة من فاء التعقيب، فالقوي لا يعجزه شيء فلا يعطل مراده ولا يتريث، وشديد العقاب بيان لذلك الأخذ على حد قوله تعالى: فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر [القمر: 42] .

المبحث الرابع : انفراد أسماء وصفات الجمال

المطلب الأول : الرحمن / الرحيم

اسم الله : الرحمن

مرّ في البحث أنّ أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم ولما كان هذا الاسم مختصا به تعالى حسن مجيئه مفردا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالاته على صفة الرحمن كاسم الله تعالى فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجيء قط

تابعاً لغيره بل متبوعاً وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول دال أن الرحمة صفة والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} {إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب .

قال ابن عاشور : " وقد ذكر جمهور الأئمة أن وصف الرحمن لم يطلق في كلام العرب قبل الإسلام وأن القرآن هو الذي جاء به صفة الله تعالى فلذلك اختص به تعالى حتى قيل إنه اسم له وليس بصفة واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [الفرقان: 60] وقال: وهم يكفرون بالرحمن [الرعد: 30] وقد تكرر مثل هاتين الآيتين في القرآن وخاصة في السور المكية مثل سورة الفرقان وسورة الملك وقد ذكر الرحمن في سورة الملك باسمه الظاهر وضميره ثماني مرات مما يفيد الاهتمام بتقرير هذا الاسم لله تعالى في نفوس السامعين فالظاهر أن هذا الوصف تنوسي في كلامهم، أو أنكروا أن يكون من أسماء الله.¹

الفاتحة : الحمد لله ربّ العالمين (1) الرحمن الرحيم (2) : لما كان التأليه من العباد لله، والربوبية منه لهم ، كانت الرحمة هي التعلق والسبب الواصل بين الله وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة ، ولذا كان اقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته، ف {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] مطابق لقوله {رب العالمين - الرحمن الرحيم} [الفاتحة: 2 - 3] فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء .

وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود،

¹ - التحرير والتنوير : 172/1 .

ورب محمود، ورحمن محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

البقرة: وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (163): لم يطلق في القرآن الإله بالإفراد على المعبود بغير حق، وبهذا تستغني عن إكداد عقلك في تكلفات تكلفها بعض المفسرين في معنى وإلهكم إله واحد.

والإخبار عن إلهكم بإله تكرير ليجري عليه الوصف بواحد والمقصود وإلهكم واحد لكنه وسط لفظ إله بين المبتدأ والخبر لتقرير معنى الألوهية في المخبر عنه كما تقول عالم المدينة عالم فائق وليجيء ما كان أصله مجيء النعت فيفيد أنه وصف ثابت للموصوف لأنه صار نعتا إذ أصل النعت أن يكون وصفا ثابتا وأصل الخبر أن يكون وصفا حادثا، وهذا استعمال متبع في فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره ليبنى على وصف أو متعلق كقوله إلهها واحدا [البقرة: 133]. وقوله: وإذا مروا باللغو مروا كراما [الفرقان: 27] وقوله: لا إله إلا هو تأكيد لمعنى الوحدة وتنصيب عليها لرفع احتمال أن يكون المراد الكمال كقولهم في المبالغة هو نسيج وحده، أو أن يكون المراد إله المسلمين خاصة كما يتوهمه المشركون ألا ترى إلى قول أبي سفيان: «لنا العزى ولا عزى لكم» وقوله: الرحمن الرحيم وصفان للضمير، أي المنعم بجلائل النعم ودقائقها وهما وصفان للمدح وفيهما تلميح لدليل الألوهية والانفراد بها لأنه منعم، وغيره ليس بمنعم وليس في الصفتين دلالة على الحصر ولكنهما تعريض به هنا لأن الكلام مسوق لإبطال ألوهية غيره فكان ما يذكر من الأوصاف المقتضية للألوهية هو في معنى قصرها عليه تعالى، وفي الجمع بين وصفي الرحمن الرحيم ما تقدم ذكره في سورة الفاتحة على أن في ذكر صفة الرحمن إغائة للمشركين فإنهم أبوا وصف الله بالرحمن كما حكى الله عنهم بقوله: قالوا وما الرحمن [الفرقان: 60].

سورة الرعد: كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب (30): اللطيفة في ذكر الرحمن هنا كون الرحمن هو البليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته فلم يشكروا نعمه سبحانه لا سيما ما أنعم به عليهم بإرسالك إليهم وإنزال القرآن الذي هو مدار المنافع الدينية والدنيوية عليهم بل قابلوا رحمته ونعمه بالكفر ومقتضى العقل عكس ذلك، وكان الظاهر - بنا - إلا أنه التفت إلى الظاهر وأوثر هذا الاسم الدال على المبالغة في الرحمة

للإشارة إلى أن الإرسال ناشئ منها كما قال سبحانه: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ :
[الأنبياء: 107]

سورة الإسراء : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا
بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) " كَانِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
«يَقُولُ فِي دُعَائِهِ يَا اللَّهُ يَا رَحْمَنُ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: مُحَمَّدٌ يَنْهَانَا أَنْ نَدْعُو إِلَهَيْنِ، وَهُوَ يَدْعُو
إِلَهَيْنِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}
[الإسراء: 110] « . أَيِ الْمَدْعُوعِ إِلَهٍ وَاحِدًا، وَإِنْ تَعَدَّدَتْ أَسْمَاؤُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف: 180].

ولما كان لفظ الجلالة هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، وكان قد ورد في النحل
من التتويه به ما لم يرد في غيرها مع أنه عد فيها من النعم ما لم يعد في غيرها، ومنها تعليم
الإنسان البيان، وذلك أليق باسم الرحمن {الرحمن علم القرآن} [الرحمن: 1] الآيات، وكانت
الرحمة دنيوية وأخروية من الخالق ومن الخلائق قد كررت في هذه السورة ثماني مرات {عسى
ربكم أن يرحمكم} ، {جناح الذل من الرحمة} ، {وقل رب ارحمهما} {ابتغاء رحمة من ربك} ،
{ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم} ، {إنه كان بكم رحيمًا} ، {إلا رحمة من ربك} خزائن رحمة ربي
وكان ذلك ظاهراً في إرادة عمومها، فكان اسم الرحمن به أليق، وقع الجواب بقوله تعالى: {قل
ادعوا الله} أي الملك الأعظم ذا الجلال والإكرام في ذات إحاطته {أو ادعوا الرحمن} في معنى
استغراقه بالرحمة، أي سمو - أي أوقعوا الدعاء مسمين في حال دعائكم - ربكم الذي سبحانه
في السجود بأي اسم أردتم مما أذن فيه، فاهتفوا بهذا الاسم الدال على الجلال، واستحقاق
مسماه الدعاء لذاته، أو بهذا الاسم الدال على الجمال واستحقاقه الدعاء لإنعامه، مطلقاً وفي
حالة السجود {أيًّا ما تدعوا} أي به من أسمائه فقد حصلت به على القصد، فإن المسمى واحد
وإن تعددت أسمائه الدالة على الشرف. ولما كان في الرحمن جمال ظاهر في باطنه جلال،
لأن عموم الرحمة لبعض نعمة، ولبعض استدراج ونقمة، فكان لذلك جامعاً لجميع الأسماء
الحسنى والصفات العلى، سبب عن ذكر كل من الاسمين: العلم الجامع، والوصف الواقع
موقعه، قوله: {فله} أي المسمى بهذين الاسمين وحده، وهو الواحد الأحد {الأسماء الحسنى}
هذان الاسمان وغيرهما مما ورد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو دال على
التحميد والتمجيد والتقديس والتعظيم .

سورة مريم : " قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا " : (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ) فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه فضلاً عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثيله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها وقوله تعالى (إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا) أي تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه أي فإني عائدة به أو فتعوذ بتعوذي أو فلا تتعرض لي.

فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26): الله أكبر في لطيفة هذه الآية : لما تعوذت في الآية قبل بالرمن أتها الرحمة منه بعيسى عليه السلام كان بكلمة من الرحمن : قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) فلا عجب أن يخبرها الرحمة المسداة إليها أن تنذر نذرا شكرا لرحمة ونعمة الرحمن ، قال : " فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) .

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45): {يا أبت لا تعبد الشيطان} فإن عبادتك للأصنام عبادة له إذ هو الذي يسو لهالك ويغريك عليها وقوله {إن الشيطان كان للرحمن عصياً} تعليل لموجب النهي وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب أن المطيع للعاصي عاصٍ وكلٌّ من هو عاصٍ حقيقٌ بأن يسترد منه النعم وينتقم منه والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير والإقتصاد على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لأنه ملاكها أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه وقوله {يا أبت إنني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن} تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلي به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التذكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية وإظهار الرحمن للإشعار بأن وصف

الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ {فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} أي قريباً له في اللعن المخدّ وذكرُ الخوف للمجاملة وإبراز الاعتناء بأمره¹ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبتنا إذا تئلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجداً وَبُكياً (58) : هذه الآية بيان لأهل الصراط المستقيم المنعم عليهم المذكورين في فاتحة الكتاب ولولا الرحمن المنعم عليهم ما هتدوا الصراط المستقيم فالرحمن الذي ذكر في الفاتحة لا بد من ذكره هنا . جنّات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مائياً (61): لا شك أن الهداية أعظم رحمة والفوز بعدها بالجنّات تمام الرحمة فلا جرم يقرنان بالرحمن في سورة النعم والرحمات . ثم لننزعن من كل شيعه أيهم أشد على الرحمن عتياً (69): على النقيض من الآيتين السابقتين المذكور فيهما أهل الرحمة ذكر هنا أهل العتو والنقمة فذكر الرحمن هنا لتفضيح عتوهم، لأن شديد الرحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطغيان .

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75): النكته في ذكر الرحمن دون لفظ الجلالة "الله" لأن "الله" هو المعبود فلا ينتظر من من لم يعبد وعصي عصياناً أن ينعم ويرزق فنذكر باسمه الرحمن لأنه يرزق في الدنيا العصاة والعتاة وشرار الخلق فهو رحمن العالمين في الدنيا ورحيم بالمؤمنين في الآخرة .

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78): واختير هنا من أسمائه الرحمن، لأن استحضار مدلوله أجدر في وفائه بما عهد به من النعمة المزعومة لهذا الكافر في الآية قبل: "أفأريت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا (77)" ، فهي تشير إلى قصة خباب بن الأرت مع العاص بن وائل السهمي. ففي «الصحيح»: أن خباباً كان يصنع السيوف في مكة، فعمل للعاص بن وائل سيفاً وكان ثمنه ديناً على العاص، وكان خباب قد أسلم، فجاء خباب يتقاضى دينه من العاص فقال له العاص بن وائل: لا أقضيكه حتى تكفر بمحمد، فقال خباب (وقد غضب): لا أكفر بمحمد حتى يمينك الله ثم يبعثك. قال العاص: أو مبعوث أنا بعد الموت؟ قال: نعم. قال (العاص متهكماً): إذا كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دينك»

¹ - ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 267/5 .

. فنزلت هذه الآية في ذلك. فالعاص بن وائل هو المراد بالذي كفر بآياتنا، ولأن في ذكر هذا الاسم توركا على المشركين الذين قالوا وما الرحمن [الفرقان: 60].

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85): فالمتقون يحشرون إلى الرحمن الذي آمنوا به ودعوه امتثالاً لأمره: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن... ويحشر الكفار إلى شديد العقاب لأنهم قالو: وما الرحمن وفي ذكر الرحمن هنا نكتة لطيفة وهي كونه وسعت رحمته كل شيء حتى يوم الحشروما بعده، فهم في أمس الحاجة إلى ربهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة وينزلهم ضيوفا في دار رحمته.

قال الألوسي رحمه الله: " قال القاضي: ولاختيار الرحمن في هذه السورة شأن، ولعله أن مساق الكلام فيها لتعداد النعم الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها فكأنه قيل: هنا يوم نحشر المتقين إلى ربهم الذي غمرهم من قبل برحمته وشملهم برأفته وحاصله يوم نحشرهم إلى من عودهم الرحمة وفي ذلك من عظيم البشارة ما فيه، وقد قابل سبحانه ذلك بقوله جل وعلا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ كَمَا تَسَاقُ الْبَهَائِمُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا أَي عَاطِشًا¹.

لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87): وذلك العهد حفظهم في دنياهم ما أخذ عليهم- يوم الميثاق- من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم. فلما ذكر الرحمن حين ذكر عباد المتقين في هذه السورة من قبل ناسب ذكره هنا لأنهم يتقوا على عهد منه لهم بشفاعة بعضهم لبعض.

قال ابن جرير: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، قوله (لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) قال: المؤمنون يومئذ بعضهم لبعض شفعاء (إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) قال: عملا صالحا.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا): أي بطاعته، وقال في آية أخرى (لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَدَّىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) ليعلموا أن الله يوم القيامة يشفع المؤمنين بعضهم في بعض، ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "إِنَّ فِي أُمَّتِي رَجُلًا لَيَدْخِلُنَّ اللَّهُ بِشَفَاعَتِهِ الْجَنَّةَ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي

¹ - روح المعاني : 451/8 .

تَمِيم" ، وكنا نحدّث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته.¹

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88): حكايةً لجناية اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً إثر حكاية عبدة الأصنام بطريق عطفِ القصة على القصة .

أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92): {أن دعوا للرحمن ولدا} منصوبٌ على حذف اللام المتعلقة بتكاد أو مجرورٌ بإضمارها أي تكاد السموات يتفطرن والأرض تنشق والجبال تخر لأن دعوا له سبحانه ولداً وقيل اللام متعلقة بهذا وقيل الجملة بدل من الضمير المجرور في منه كما في قوله :

... على جوده لضعن بالماء حاتم

وقيل خبرٌ مبتدأ محذوف أي الموجب لذلك أن دعوا الخ وقيل فاعلٌ هداً أي هداها دعاء الولد والأول هو الأولى ودعوا من دعا بمعنى سمى المتعدّي إلى مفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول كل ما دعي له ولداً أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ادعى إلى فلان أي انتسب إليه وقوله تعالى {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} حالٌ من فاعل قالوا أو دعوا مقررة لبطلان مقالته واستحالة تحقق مضمونها أي قالوا اتخذ الرحمن ولداً أو أن دعوا للرحمن ولداً والحال أنه ما يليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يُطلب له لو طلب مثلاً لاستحالته في نفسه ووضع الرحمن موضع الضمير للإشعارِ بعلّة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إما نعمة أو منعمٌ عليه فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولداً .

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) : أي ما منهم أحدٌ من الملائكة والثقلين {إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا} إلا وهو مملوكٌ له يأوي إليه بالعبودية والانقياد وقرئ آتِ الرحمن على الأصل .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96): السر في إسناد الود إلى الرحمن توقف المودة على الرحمة تصدقا لقوله: وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً [الروم/ 21] وقوله: إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ [هود/ 90] .

¹ . جامع البيان في تأويل القرآن : 255/18 .

سورة طه:

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) : معلوم أنّ بناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرا، كقوله تعالى {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] ثم استوى على العرش الرحمن {الفرقان: 59} فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى {ورحمتي وسعت كل شيء} [الأعراف: 156] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ «فهو عنده على العرش» .

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضع عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله في الآية: {الرحمن على العرش استوى} وقوله {ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً} [الفرقان: 59] .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90): قوله تعالى " وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ " بكسر همزة إن عطا على إِنَّمَا فتنتم به إرشاد لهم إلى الحق أثر زجرهم عن الباطل. والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق. وفي ذلك تذكير لتخليصهم من فرعون زمان لم يوجد العجل. وكذا على ما قيل تنبيه على أنهم متى تابوا قبلهم. وتعريف الطرفين لإفادة الحصر أي وإن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فلا تَسْمَعُ إِلا هَمْساً (108) يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) : استثناء من أذن له الرحمن من عموم الشفاعة باعتبار أن الشفاعة تقتضي شافعا، لأن المصدر فيه معنى الفعل فيقتضي فاعلا، أي إلا أن يشفع من أذن له الرحمن في أن يشفع، فهو استثناء تام وليس بمفرغ . وفي ذكر الرحمن تهويل لأمر الكفار لكفرهم به وتسلية وتبشير للمؤمنين بالرحمن .

سورة الأنبياء: " وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) " : قوله تعالى " سبحانه " أي أنه تقدس وتعالى فما يليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يُتطلب له لو طُلب مثلاً لاستحالته في نفسه ووضع الرحمن موضع الضمير للإشعار بعلّة الحُكم بالتبنيه على أنّ كلّ ما سواه تعالى

إما نعمةٌ أو مُنعمٌ عليه فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولداً وقد صرح له قومٌ به عز قائلاً .

" وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ (36) ": {وهم} أي والحال أنهم على حال كانوا بها أصلاً في الهزء، وهي أنهم {بذكر الرحمن} الذي لا نعمة عليهم ولا على غيرهم إلا منه، وكرر الضمير تعظيماً بما أتوا به من القباحة فقال: {هم} أي بظواهرهم وبواطنهم {كافرون} أي ساترون لمعرفتهم به، فلا أعجب ممن هو محل للهزء لكونه أنكر ذكر من لا نعمة منه ولا نقمة أصلاً بالسوء، وهو يذكر من كل نعمة منه بالسوء ويهزأ به وعبر عن الله تعالى باسم الرحمن توركا عليهم إذ كانوا يأبون أن يكون الرحمن اسماً لله تعالى: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا " [الفرقان: 60] .

" قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) ": أي وأنتم نائمون. ولما كانت مدافعة عذابه سبحانه غير ممكنة لنائم ولا يقظان قال: {والنهار} أي وأنتم مستيقظون. ولما كان لا منعم بكلاية ولا غيرها سواه سبحانه، ذكرهم بذلك بصفة الرحمة فقال: {من الرحمن} الذي لا نعمة بحراسة ولا غيرها إلا منه حتى أمنتهم مكره ولو بقطع إحسانه، فكيف إذا ضربتم بسوط جبروته وسطوة قهرة وعظومته.

ولما كان الجواب قطعاً: ليس لهم من يكلؤهم منه وهو معنى الاستفهام الإنكاري، قال مضرباً عنه: {بل هم} أي في أمنهم من سطواته {عن ذكر ربهم} الذي لا يحسن إليهم غيره {معرضون*} فهم لا يذكرون أصلاً فضلاً عن أن يخشوا بأسه وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان .

" قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112) ": والرحمن عطف بيان من ربنا لأن المراد به هنا الاسم لا الوصف توركا على المشركين، لأنهم أنكروا اسم الرحمن وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا [الفرقان: 60] .

وتعريف المستعان لإفادة القصر، أي لا أستعين بغيره على ما تصفون، إذ لا ينصرنا غير ربنا وهو ناظر إلى قوله تعالى: وإياك نستعين [الفاحة: 5]

سورة الفرقان: " الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) ": أي السطنة القاهرة والاستيلاء الكلي العام الثابت صورةً ومعنى ظاهراً وباطناً بحيث لا زوال له أصلاً ثابت

للرحمن يؤمّنذ فالمُلكُ مبتدأً والحقُّ صفته وللرحمن خبرة ويومئذ ظرفٌ لثبوتِ الخبرِ للمبتدأ وفائدةُ التقييدِ أنّ ثبوتِ المُلكِ المذكورِ له تعالى خاصّةً ويومئذٍ وأمّا فيما عداهُ من أيّامِ الدُّنيا فيكونُ لغيرهِ أيضاً تصرّفٌ صوريٌّ في الجُملةِ وقيل المُلكُ مبتدأً والحقُّ خبرُهُ وللرحمنُ متعلّقٌ بالحقِّ أو بمحذوفٍ على التبيينِ أو بمحذوفٍ هو صفةٌ للحقِّ ويومئذٍ معمولٌ للملكِ وقيل الخبرُ يومئذٍ والحقُّ نعتٌ للملكِ وللرحمنِ على ما ذكرُ وأياً ما كان فالجُملةُ بمعناها عاملةٌ في الظرفِ أي ينفردُ اللهُ تعالى بالمُلكِ يومَ تشقُّقِ وقيل الظرفُ منصوبٌ بما ذكرُ فالجُملةُ حينئذٍ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ أحواله وأهواله وإيراده تعالى بعُنوانِ الرَّحْمَانِيَةِ لِلإِيذَانِ بآنِ اتصافه تعالى بغايةِ الرَّحْمَةِ لا يهُونُ الخُطبَ على الكُفْرَةِ لعدمِ استحقاقِهِمِ للرَّحْمَةِ كما في قوله تعالى يأيها الإنسان ما غرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ والمعنى أنّ المُلكَ الحَقِيقِيَّ يومئذٍ لِلرَّحْمَنِ {وَكَانَ} ذلكَ اليومَ مع كونِ المُلكِ فيه اللهُ تعالى المبالغِ في الرَّحْمَةِ لعبادِهِ {يَوْمًا عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيرًا} شَدِيدًا لَهُمُ وتقدِيمُ الجارِّ والمجرورِ لمُراعاةِ الفواصلِ وأمّا للمؤمنينِ فيكونُ يَسِيرًا بِفَضْلِ اللهِ تعالى وقد جاءَ في الحديثِ أَنَّهُ يهُونُ يومُ القِيَامَةِ على المؤمنِ حتّى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ صلّاها في الدُّنيا والجُملةُ اعتراضٌ تذييلي مقرر لما قبله .¹

" الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا (59) " : مرّ ذكر النكتة في ذكر الرحمن مع الاستواء .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ :

لما جرى وصف الله تعالى بالرحمان مع صفات أخر استطرد ذكر كفر المشركين بهذا الوصف، ووصف الله تعالى باسم (الرحمن) هو من وضع القرآن ولم يكن معهودا للعرب، وأمّا قول شاعر اليمامة في مدح مسيلمة:

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا ... وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

فذلك بعد ظهور الإسلام في مدة الردة، ولذلك لما سمعوه من القرآن أنكروه قصدا بالتورك على النبيء صلى الله عليه وسلم وليس ذلك عن جهل بمدلول هذا الوصف ولا بكونه جاريا على مقاييس لغتهم ولا أنه إذا وصف الله به فهو رب واحد وأن التعدد في الأسماء فكانوا يقولون: انظروا إلى هذا الصابيء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو الله ويدعو الرحمن. وفي ذلك نزل

¹ - ينظر : تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 213/6 .

قوله تعالى: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. وقد تقدم في آخر سورة الإسراء [110] وهذه الآية تشير إلى آية سورة الإسراء.

والخبر هنا مستعمل كناية في التعجيب من عنادهم وبهتانهم، وليس المقصود إفادة الإخبار عنهم بذلك لأنه أمر معلوم من شأنهم.

والسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادتهم وإنما كانوا يطوفون بالأصنام وواو العطف في قولهم وما الرحمن لعطفهم الكلام الذي صدر منهم على الكلام الذي وجه إليهم في أمرهم بالسجود للرحمان، على طريقة دخول العطف بين كلامي متكلمين كما في قوله تعالى: قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي [البقرة: 124]. وما من قوله وما الرحمن استفهامية.

والاستفهام مستعمل في الاستغراب، يعنون تجاهل هذا الاسم، ولذلك استفهموا عنه بما دون (من) باعتبار السؤال عن معنى هذا الاسم.

والاستفهام في أنسجد لما تأمرنا إنكار وامتناع، أي لا نسجد لشيء تأمرنا بالسجود له¹ "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) " : في نسبتهم إلى الرحمن ثم الإطناب بذكر صفاتهم الطيبة تعريض بأن الذين أبوا السجود للرحمان وزادهم نفورا هم على الضد من تلك المحامد، تعريضا تشعر به إضافة عباد إلى الرحمن. سورة الشعراء: " وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) " : في هذه الآية بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذكر من الآية المُلجبة لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بآياتهم أو بمحذوف هو صفة الذكر وأياما كان فيه دلالة على فضله وشرفه وشاعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جنائيتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى المحض منفعتهم أشنع وأقبح أي ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية أو من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إلا جددوا إعراضاً عنه على وجه التكذيب والاستهزاء وإصرار

¹ - ينظر التحرير والتنوير : 61/19

أعلى ما كانوا عليه من الكفر والضلال والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال محله نصب على الحالية من مفعول يأتيهم بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أي ما يأتيهم من ذكر في حال من الأحوال إلا حال كونهم معرضين عنه .

سورة النمل: " إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) ": {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ} استئناف وقع جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه فقالت إنه من سليمان {وَأَنَّهُ} أي مضمونه أو المكتوب فيه {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} وفيه إشارة إلى سبب وصفها إياه بالكرم وقرئ أنه وأنه بالفتح على حذف اللام كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وبكونه مُصدراً باسم الله تعالى وقيل على أنه بدل من كتاب وقرئ أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم على أن المفسرة

سورة يس: " إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) ": إثارة اسمه الرحمن في قوله: من خشي الرحمن دون اسم الجلالة للإشارة إلى أن هذا المتقي يخشى الله وهو يعلم أنه رحمان، ولقصد التعريض بالمشركين الذين أنكروا اسمه الرحمان وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [الفرقان: 60] .

والمعنى على الذين خشوا: خشي صاحب هذا الاسم، فأنتم لا حظ لكم في الجنة لأنكم تتكبرون أن الله رحمان بله أن تخشوه. قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ : قال البقاعي رحمه الله : " قالوا { أي أهل القرية: {ما أنتم} أي وإن زاد عددكم {إلا} ولما نقض الاستثناء النفي زال شبهة ما تلبس فزال عملها فارتفع قوله: {بشر مثلنا} أي فما وجه الخصوصية لكم في كونكم رسلاً دوننا، ولما كان التقدير: فما أرسلتم إلينا بشيء، عطفوا عليه قوله: {وما أنزل الرحمن} أي العام الرحمة، فعموم رحمته مع استوائنا في عبوديته تقتضي أن يسوي بيننا في الرحمة فلا يخصكم بشيء دوننا، وأعرفوا في النفي بقولهم: {من شيء} .

ولما كان الإتيان على ما ذكر محتملاً للغلط ونحوه، قالوا دافعين لذلك: {إن} أي ما {أنتم إلا تكذبون} * أي حالاً ومالاً .¹

¹ . نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 106/16 .

"أَتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ (23) " :
ذكر الرحمن تعريضاً بتكبيهم به وتوحيده له فكأن المعنى الرحمن الذي تكفرون به أنا أرجو
رحمته وشفاعته وإن اتختم من دونه آلهة فلا أبغي عنه بدلاً لأن من يرحم هو من يريدني
بالضر لا من لا يملك لا رحمة ولا ضراً .

" قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) " : أوتي في
التعبير عن اسم الجلالة بصفة الرحمان إكمالاً للتحسر على تكذيبهم بالبعث بذكر ما كان
مقارناً للبعث في تكذيبهم وهو إنكار هذا الاسم كما قال تعالى: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن
قالوا وما الرحمن [الفرقان: 60]

سورة فصلت : حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ (3) : نسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم للايذان بأنه مدارٌ للمصالح الدينية والدنيوية
واقعٌ بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} .

سورة الزخرف : " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)
وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَنَّكَتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (19)
وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) " : {وقالوا}
أي بعد عبادتهم لهم ونهيبهم عن عبادة غير الله: {لو شاء الرحمن} أي الذي له عموم الرحمة
{ما عبدناهم} لأن عموم الرحمة يمنع الإقرار على ما لا ينبغي ولكنه لم يشأ عدم عبادتنا لهم
فعبدناهم طوع مشيئته، فعبادتنا لهم حق، ولولا أنها حق يرضاه لنا لعجل لنا العقوبة.

ولما كان كأنه قيل: بماذا يجابون عن هذا، قال منبهاً على جوابهم بقوله دالاً على أن أصول
الدين لا يتكلم فيها إلا بقاطع: {ما لهم بذلك} أي بهذا المعنى البعيد عن الصواب الذي قصدوا
جعله دليلاً على حقية عبادتهم لهم وهو أنه سبحانه لا يشاء إلا ما هو حق ويرضاه ويأمر به،
ومن أن الملائكة إناث، وأكد الاستغراق بقوله: {من علم} أي لأنه لو لزم هذا لكان وضعه
بعموم الرحمة حينئذ اضطرارياً لا اختيارياً فيؤدي إلى نقص لا إلى كمال، وكان أيضاً ذلك
يؤدي إلى إيجاب أن يكون الناس كلهم مرضياً عنهم لكونهم على حق، وذلك مؤد بلا ريب إلى
كون النقيضين معاً حقاً، وهو بديهي الاستحالة.

" وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) " : لقوة تعليله سبحانه عدم الحكم القدرى والشرعى بوجود المانع منه حسن ذكر الرحمن الذي لا ينبغي كفران نعمه وحمته للعالمين مسلمهم وكافرهم .

" وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) " : ذكر الرحمن في جملة فعل الشرط فيه تبرير وتعليل للحكم الذي أتى في جوابه .

" وَسئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ (45) : اختلف أهل التأويل في معنى قوله: (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا) ومن الذين أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمسألتهم ذلك، فقال بعضهم الذين أمر بمسألتهم ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مؤمنو أهل الكتابين: التوراة، والإنجيل، وقال آخرون: بل الذي أمر بمسألتهم ذلك الأنبياء الذين جُمِعوا له ليلة أُسْرِي به ببيت المقدس.

وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: عني به: سل مؤمني أهل الكتابين. فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يقال: سل الرسل، فيكون معناه: سل المؤمنين بهم وكتابهم؟ قيل: جاز ذلك من أجل أن المؤمنين بهم وكتابهم أهل بلاغ عنهم ما أتوهم به عن ربهم، فالخبر عنهم و عما جاءوا به من ربهم إذا صحَّ بمعنى خبرهم، والمسألة عما جاءوا به بمعنى مسألتهم إذا كان المسئول من أهل العلم بهم والصدق عليهم، وذلك نظير أمر الله جلَّ ثناؤه إيانا برد ما تنازعنا فيه إلى الله وإلى الرسول، يقول: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) ومعلوم أن معنى ذلك: فردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله، لأن الرد إلى ذلك رد إلى الله والرسول. وكذلك قوله: (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا) إنما معناه: فاسأل كتب الذين أرسلنا من قبلك من الرسل، فإنك تعلم صحة ذلك من قبلنا، فاستغنى بذكر الرسل من ذكر الكتب، إذ كان معلوماً ما معناه.¹

" فالأمر بالسؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر وتحققه كما في قول السموأل أو الحارثي:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم

وقول زيد الخيل:

سائل فوارس يربوع بشدتنا

¹ - ينظر : تفسير الطبري : 611/21 . و : مفاتيح الغيب : 479/13 .

وقوله {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَفْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [يونس: 94] إذ لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم في شك حتى يسأل، وإلا فإن سؤاله الرسل الذين من قبله متعذر على الحقيقة. والمعنى استقر شرائع الرسل وكتبهم وأخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة. وفي الحديث واستفت قلبك أي تثبت في معرفة الحلال والحرام.

وجملة {أجعلنا} بدل من جملة {واسأل} ، والهمزة للاستفهام وهو إنكاري وهو المقصود من الخبر، وهو رد على المشركين في قولهم {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ} [الزخرف: من الآية 22] أي ليس آباؤكم بأهدى من الرسل الأولين إن كنتم تزعمون تكذيب رسولنا لأنه أمركم بإفراد الله بالعبادة. ويجوز أن يجعل السؤال عن شهرة الخبر. ومعنى الكلام: وإنا ما أمرنا بعبادة آلهة دوننا على لسان أحد من رسلنا. وهذا رد لقول المشركين {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} [الزخرف: من الآية 20] و {من} في قوله {مِنْ قَبْلِكَ} لتأكيد اتصال الظرف بعامله. و {من} في قوله {مَنْ أَرْسَلْنَا} بيان ل {قبلك} .

فمعنى {أجعلنا} ما جعلنا ذلك، أي جعل التشريع والأمر، أي ما أمرنا بأن تعبد آلهة دوننا. فوصف آلهة ب {يعبدون} لنفي أن يكون الله يرضى بعبادة غيره فضلا عن أن يكون غيره إليها مثله وذلك أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام وكانوا في عقائدهم أشتاتا فمنهم من يجعل الأصنام آلهة شركاء لله، ومنهم من يزعم أنه يعبدهم ليقربوه من الله زلفى، ومنهم من يزعمهم شفعاء لهم عند الله. فلما نفي بهذه الآية أن يكون جعل آلهة يعبدون أبطل جميع هذه التمحلات.

وأجري {آلهة} مجرى العقلاء فوصفوا بصيغة جمع العقلاء بقوله {يعبدون} ومثله كثير في القرآن جريا على ما غلب في لسان العرب إذ اعتقدوهم عقلاء عالمين.¹ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) : لا شك أن نظم هذه الآية دقيق ومعضل ولذلك اختلف العلماء في معنى {إن} في هذه الآية .

فقال جماعة من أهل العلم إنها شرطية ، واختاره غير واحد ، وممن اختاره ابن جرير الطبري والذين قالوا إنها شرطية ، اختلفوا في المراد بقوله : فأنا أول العابدين . فقال بعضهم : فأنا أول العابدين لذلك الولد .

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 662/25 - 663 .

وقال بعضهم : فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولداً .

وقال بعضهم : فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد وقالت جماعة آخرون : إن لفظة { إن } في الآية نافية .

والمعنى ما كان لله ولد ، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله : { فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } ثلاثة أوجه الأول وهو أقربها : أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله ، المنزهين له عن الولد وعن كل ما لا يليق بكماله ، وجلاله .

والثاني أن معنى قوله { فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } : أي الأنفين المستكفين من ذلك يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له .

والعرب تقول : عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر على القياس ، وعابد أيضاً سماعاً ، إذا اشتدت أنفته واستكافه وغضبه ، ومنه قول الفرزدق :
أولئك قومي إن هجوني هجوتهم ... وأعد أن أهجو كليياً بدارم
فقوله : وأعد ينفي أنف وأستكف .

ومنه أيضاً قول الآخر :

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ... ويعبد عليه لا محالة ظالماً

وفي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه المشهورة : أنه جاء بامرأة من جهينة تزوجت ، فولدت لسته أشهر ، فبعث بها عثمان لترجم ، اعتقاداً منه أنها كانت حاملاً قبل العقد لولادتها قبل تسعة أشهر ، فقال له علي رضي الله عنهما : إن الله يقول : { وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا } [الأحقاف : 15] ، ويقول جل وعلا : { وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ } [لقمان : 14] فلم يبق عن الفصال من المدة إلا ستة أشهر .

فما عبد عثمان رضي الله عنه ، أن بعث إليها ، لترد ولا ترجم .

ومحل الشاهد من القصة ، فوالله : [ما عبد عثمان] أي ما أنف ولا استكف من الرجوع إلى الحق .

الوجه الثالث : أن المعنى { فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } أي الجاحدين النافين أن يكون لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

قال ابن قتيبة : " لما قال المشركون : لله ولد ، ولم يرجعوا عن مقالتهم بما أنزله الله على رسوله ، عليه السلام ، من التبرؤ من ذلك - قال الله سبحانه لرسوله عليه السلام : قُلْ : لهم

إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ أَي : عندكم في ادعائكم. فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ أَي : أول الموحدين ، ومن وَّحَّدَ اللَّهُ فَقَدَ عَبْدَهُ ، ومن جعل له ولداً أو ندّاً ، فليس من العابدين ، وإن اجتهد .
ومنه قوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [النازعات : 56] ، أَي إِلَّا لِيُوحِّدُونِ .
قال مجاهد : يريد إن كان لله ولد في قولكم ، فأنا أول من عبد الله ووحدّه ، وكذبكم بما تقولون .

وبعض المفسرين يجعل إن بمعنى (ما) ، وليس يعجبني ذلك.¹

أما الشنقيطي رحمه الله ففي تحقيق هذه المسألة يرجح المصير إلى القول بأن إن نافية ، وأن القول بكونها شرطية لا يمنع أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء .
قال : وإنما اخترنا أن { إن } هي النافية لا الشرطية ، وقلنا إن المصير إلى ذلك متعين في نظرنا لأربعة أمور :

الأول : إن هذا القول جار على الأسلوب العربي ، جرياناً واضحاً ، لا إشكال فيه ، فكون إن كان بمعنى ما كان كثير في القرآن ، وفي كلام العرب كقوله تعالى : { إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً } [يس : 29] أي ما كانت إلا صيحة واحدة .

فقولك مثلاً معنى الآية الكريمة : ما كان لله ولد فأنا أول العابدين ، الخاضعين للعظيم الأعظم ، المنزه عن الولد أو الأنفين المستكفين ، من أن يوصف ربنا بما لا يليق بكماله وجلاله ، من نسبة الولد إليه ، أو الجاحدين النافين ، أن يكون لربنا ولد ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً لا إشكال فيه ، لأنه جار على اللغة العربية ، التي نزل بها القرآن ، دال على تنزيه الله ، تنزيهاً تاماً عن الولد ، من غير إيهام ألبتة لخلاف ذلك .

الأمر الثاني : أن تنزيه الله عن الولد ، بالعبارات التي لا إيهام فيها ، هو الذي جاءت به الآيات الكثيرة ، في القرآن كما قدمنا إيضاحه ، في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : { وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } [الكهف : 4] الآية . وفي سورة مريم في الكلام على قوله

¹ - ابن قتيبة - تأويل مشكل القرآن - ت : إبراهيم شمس الدين - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان : 217 .

تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا } [مريم : 88 - 89] والآيات الكثيرة التي ذكرناها في ذلك تبين أن (إن) نافية .

فالنفي الصريح الذي لا نزاع فيه يبين أن المراد في محل النزاع النفي الصريح .
وخير ما يفسر به القرآن القرآن فكون المعبر في الآية : وما كان للرحمن ولد بصيغة النفي الصريح مطابق لقوله تعالى في آخر سورة بني إسرائيل { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا } [الإسراء : 111] الآية . وقوله تعالى في أول الفرقان { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ } [الفرقان : 2] الآية . وقوله تعالى : { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ } [المؤمنون : 91] الآية . وقوله تعالى : { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } [الإخلاص : 3] وقوله تعالى { أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الصافات : 151 - 152] إلى غير ذلك من الآيات .
وأما على القول بأن إن شرطية وأن قوله تعالى : { فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } جزء لذلك الشرط فإن ذلك لا نظير له ألبتة في كتاب الله ، ولا توجد فيه آية تدل على مثل هذا المعنى .
الأمر الثالث : هو أن القول بأن (إن) شرطية لا يمكن أن يصح له معنى في اللغة العربية ، إلا معنى محذور ، لا يجوز القول به بحال ، وكتاب الله جل وعلا ، يجب تنزيهه عن حمله على معان محذورة لا يجوز القول بها .

وإيضاح هذا أنه على القول بأن (إن) شرطية ، وقوله : { فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } جزء الشرط لا معنى لصدقه ألبتة إلا بصحة الربط بين الشرط والجزاء .¹

ثم بين رحمه الله الراجح من أقوال المحققين طريقة الربط بين مقدمة الشرط وجزائه : " والتحقق الذي لا شك فيه أن مدار الصدق والكذب في الشرطية المتصلة ، منصب على صحة الربط بين مقدمها الذي هو الشرط وتاليها الذي هو الجزء ، والبرهان القاطع على صحة هذا ، هو كون الشرطية المتصلة ، تكون في غاية الصدق مع كذب طرفيها معاً ، أو أحدهما لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها ، فمثال كذبهما معاً مع صدقها قوله تعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ } [الأنبياء : 22] فهذه قضية في غاية الصدق كما ترى ، مع أنها لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها كان كل واحد من طرفيها ، قضية كاذبة بلا شك ، ونعني بأداة الربط لفظة لو من الطرف الأول ، واللام من الطرف الثاني ، فإنهما لو أزيلا وحذفا صار الطرف الأول

¹ - أضواء البيان : 251/7 .

كان فيهما آلهة إلا الله ، وهذه قضية في منتهى الكذب ، وصار الطرف الثاني فسدنا أي السماوات والأرض ، وهذه قضية في غاية الكذب كما ترى .

فاتضح بهذا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين الطرفين وعدم صحته . فإن كان الربط صحيحاً فهي صادقة ، ولو كذب طرفاها أو أحدهما عند إزالة الربط . وإن كان الربط بينهما كاذباً كانت كاذبة كما لو قلت : لو كان هذا إنساناً لكان حجراً ، فكذب الربط بينهما وكذب القضية بسببه كلاهما واضح .

وأمثلة صدق الشرطية مع كذب طرفيها كثيرة جداً كالأية التي ذكرنا ، وكقولك لو كان الإنسان حجراً لكان جماداً ، ولو كان الفرس ياقوتاً لكان حجراً ، فكل هذه القضايا ونحوها صادقة مع كذب طرفيها لو أزيلت أداة الربط .

ومثال صدقها مع كذب أحدهما ، قولك لو كان زيد في السماء ما نجا من الموت فإنها شرطية صادقة لصدق الربط بين طرفيها ، مع أنها كاذبة أحد الطرفين دون الآخر ، لأن عدم النجاة من الموت صدق ، وكون زيد في السماء كذب ، هكذا مثل بهذا المثال البناني ، وفيه عندي أن هذه الشرطية التي مثل بها اتفاقية لا لزومية ، ولا دخل للاتفاقيات في هذا المبحث . والمثال الصحيح : لو كان الإنسان حجراً لكان جسماً .

واعلم أن قوماً زعموا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات منصب على خصوص التالي الذي هو الجزاء ، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك . وزعموا أن هذا المعنى هو المراد عند أهل اللسان العربي .

والتحقيق الأول . ولم يقل أحد ألبتة بقول ثالث في مدار الصدق والكذب في الشرطيات . فإذا حققت هذا ، فاعلم أن الآية الكريمة ، على القول بأنها جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها ألبتة بحال على واحد من القولين اللذين لا ثالث لهما إلا على وجه محذور لا يصح القول به بحال .

وإيضاح ذلك أنه على القول الأخير ، أن مصب الصدق والكذب ، في الشرطيات إنما هو التالي الذي هو الجزاء ، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك . فمعنى الآية عليه باطل بل هو كفر .

لأن معناه أن كونه أول العابدين يشترط فيه أن يكون للرحمن ولد ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

لأن مفهوم الشرط أنه إن لم يكن له ولد ، لم يكن أول العابدين ، وفساد هذا المعنى كما ترى .
وأما على القول الأول الذي هو الصحيح أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة
الربط بين طرفي الشرطية .

فإنه على القول بأن الآية الكريمة جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها ألبتة أيضاً ، إلا
على وجه محذور لا يجوز المصير إليه بحال ، لأن كون المعبود ذا ولد ، واستحقاقه هو ، أو
ولده العبادة ، لا يصح الربط بينهما ألبتة إلا على معنى هو كفر بالله ، لأن المستحق للعبادة لا
يعقل بحال أن يكون ولداً أو والداً .

وبه تعلم أن الشرط المزعوم في قوله { فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } إنما يعلق به محال لاستحالة كون
الرحمن ذا ولد .

ومعلوم أن المحال لا يعلق عليه إلا المحال .

فتعليق عبادة الله التي هي أصل الدين على كونه ذا ولد ظهور فساده كما ترى ، وإنما تصدق
الشرطية في مثال هذا لو كان المعلق عليه مستحيلاً ، فادعاء أن (إن) في الآية شرطية مثل
ما لو قيل : لو كان معه آلهة لكننت أول العابدين له ، وهذا لا يصدق بحال ، لأن واحداً من
آلهة متعددة ، لا يمكن أن يعبد ، فالربط بين طرفيها مثل هذه القضية لا يصح بحال .

ويتضح لك ذلك بمعنى قوله : { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ
عَلَى بَعْضٍ } [المؤمنون : 91] الآية .

فإن قوله إذا : أي لو كان معه غيره من الآلهة ، لذهب كل واحد منهم بما خلق واستقل به ،
وغالب بعضهم بعضاً ولم ينتظم للسموات والأرض نظام ولفسد كل شيء .

كما قال تعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء : 22] ، وقوله تعالى : { قُلْ
لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } [الإسراء : 42] على
الصحيح الذي هو الحق من التفسيرين .

ومعنى ابتغائهم إليه تعالى سبيلاً هو طلبهم طريقاً إلى مغالبتة كما يفعله بعض الملوك مع
بعضهم .

والحاصل : أن الشرط إن علق به مستحيل فلا يمكن أن يصح الربط بينه وبين الجزاء ، إلا إذا
كان الجزاء مستحيلاً أيضاً لأن الشرط المستحيل لا يمكن أن يوجد به إلا الجزاء المستحيل .

أما كون الشرط مستحيلاً والجزاء هو أساس الدين وعماد الأمر . فهذا مما لا يصح بحال ¹ . ولا شك في أن كل شرطية صدقت مع بطلان مقدمها الذي هو الشرط وصحة تاليها الذي هو الجزاء لا يصح التمثيل بها لهذه الآية بوجه من الوجوه .

ثم بين غلط الرازي كغيره من أهل العلم في التمثيل لهذه الآية ، قال : وأن ما ظنه الفخر الرازي من صحة التمثيل لها بذلك غلط فاحش منه بلا شك ، وإيضاح ذلك أن كل شرطية كاذبة الشرط صادقة الجزاء عند إزالة الربط لا بد أن يكون موجب ذلك فيها أحد أمرين لا ثالث لهما ألبتة .

وكلاهما يكون الصدق به من أجل أمر خاص لا يمكن وجود مثله في الآية الكريمة التي نحن بصددنا ، بل هو مناقض لمعنى الآية .

والاستدلال بوجود أحد المتناقضين على وجود الآخر ضروري البطلان .
ونعني بأول الأمرين المذكورين كون الشرطية اتفافية لا لزومية أصلاً .

وبالثاني منهما كون الصدق المذكور ، من أجل خصوص المادة .

ومعلوم أن الصدق من أجل خصوص المادة لا عبرة به في العقليات ، وأنه في حكم الكذب لعدم اضطراده ، لأنه يصدق في مادة ويكذب في أخرى .

والمعتبر إنما هو الصدق اللازم المضطرد ، الذي لا يختلف باختلاف المادة بحال .

ولا شك أن كل قضية شرطها محال لا يضطرد صدقها إلا إذا كان جزؤها محالاً خاصة .

فإن وجدت قضية باطلة الشرط صحيحة الجزاء ، فلا بد أن يكون ذلك ، لكونها اتفافية أو لأجل خصوص المادة فقط .

فمثال وقوع ذلك لكونها اتفافية قولك : إن كان زيد في السماء لم ينج من الموت . فالشرط الذي هو كونه في السماء باطل والجزاء الذي هو كونه لم ينج من الموت صحيح .

وإنما صح هذا لكون هذه الشرطية اتفافية .

ومعلوم أن الاتفافية لا علاقة بين طرفيها أصلاً .

فلا يقتضي ثبوت أحدهما ولا نفيه ثبوت الآخر ولا نفيه ، فلا ارتباط بين طرفيها في المعنى أصلاً وإنما هو في اللفظ فقط .

فكون زيد في السماء لا علاقة له بعدم نجاته من الموت أصلاً ، ولا ارتباط بينهما إلا في اللفظ

¹ . نفسه : 253 .

فهو كقولك : إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل .

وقد قدمنا إيضاح الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : { وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا } [الكهف : 57] فراجعه . ومعلوم أن قوله { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وِلْدٌ } لم يقل أحد إنها شرطية اتفاقية ولم يدع أحد ، أنها لا علاقة بين طرفيها أصلاً .

ومثال وقوع ذلك لأجل خصوص المادة فقط ، ما مثل به الفخر الرازي لهذه الآية الكريمة ، مع عدم انتباهه لشدة المنافاة بين الآية الكريمة وبين ما مثل لها به ، فإنه لما قال ¹ : إن الشرط الذي هو { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وِلْدٌ } باطل ، والجزاء الذي هو : { فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } صحيح مثل لذلك بقوله : إن كان الإنسان حجراً فهو جسم ، يعني أن قوله : إن كان الإنسان حجراً شرط باطل فهو كقوله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وِلْدٌ } فكون الإنسان حجراً وكون الرحمن ذا ولد كلاهما شرط باطل .

فلما صح الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله : إن كان الإنسان حجراً فهو جسم دل ذلك على أن الجزاء الصحيح في قوله : { فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } يصح ترتيبه على الشرط الباطل الذي هو { إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وِلْدٌ } .

وهذا غلط فاحش جداً ، وتسوية بين المتتافيين غاية المنافاة ، لأن الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله : إن كان الإنسان حجراً فإنما هو جسم إنما صدق لأجل خصوص المادة لا لمعنى اقتضاه الربط ألبتة .

وإيضاح ذلك أن النسبة بين الجسم والحجر ، والنسبة بين الإنسان والجسم هي العموم والخصوص المطلق في كليهما .

فالجسم أعم مطلقاً من الحجر ، والحجر أخص مطلقاً من الجسم ، كما أن الجسم أعم من الإنسان أيضاً عموماً مطلقاً ، والإنسان أخص من الجسم أيضاً خصوصاً مطلقاً : فالجسم جنس قريب للحجر ، وجنس بعيد للإنسان ، وإن شئت قلت : جنس متوسط له .

¹ - ينظر : مفاتيح الغيب : 493/13 . 494 . وكلام الفخر الرازي في هذه الآية الكريمة الذي يقتضي إمكان صحة الربط بين طرفيها على أنها شرطية لا شك في غلظه فيه .

وأما إبطاله لقول من قال : إن المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين له والمكذبين لكم في ذلك ، فهو إبطال صحيح ، وكلامه فيه في غاية الحسن والدقة ، وهو يقتضي إبطاله بنفسه ، لجميع ما كان يقرره في الآية الكريمة .

وإيضاح ذلك أن تقول في التقسيم الأول :

الجسم إما نام أي يكبر تدريجاً أو غير نام ، فغير النامي كالحجر مثلاً ، ثم تقسم النامي تقسيماً ثانياً؟ فتقول :

النامي إما حساس أو غير حساس ، فغير الحساس منه كالنبات .

ثم تقسم الحساس تقسيماً ثالثاً فتقول :

الحساس إما ناطق أو غير ناطق ، والناطق منه هو الإنسان .

فاتضح أن كلاً من الإنسان والحجر يدخل في عموم الجسم ، والحكم بالأعم على الأخص صادق في الإيجاب بلا نزاع ولا تفصيل .

فقولك : الإنسان جسم صادق في كل تركيب ، ولا يمكن أن يكذب بوجه ، وذلك للملابسة الخاصة بينهما من كون الجسم جنساً للإنسان ، وكون الإنسان فرداً من أفراد أنواع الجسم ، فلأجل خصوص هذه الملابسة بينهما ، كان الحكم على الإنسان بأنه جسم صادقاً ، على كل حال ، سواء كان الحكم بذلك ، غير معلق على شيء أو كان معلقاً على باطل أو حق .

فالاستدلال يصدق هذا المثال على صدق الربط بين الشرط والجزاء في قوله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } بطلانه كالشمس في رابعة النهار .

والعجب كل العجب من عاقل يقوله ، لأن المثال المذكور إنما صدق لأن الإنسان يشمل مسمى الجسم .

أما من كان له ولد فالنسبة بينه وبين المعبود الحق هي تباين المقابلة ، لأن المقابلة بين المعبود بحق وبين والد أو ولد هي المقابلة بين الشيء ومساوي نقيضه .

لأن من يولد أو يولد له لا يمكن أن يكون معبوداً بحق بحال .

ثم راح الشنقيطي يوضح القضية بأقوال النظار وإجماعهم وهو الخبير بهذا الفن " علم الكلام " قال : وإيضاح المنافاة بين الأمرين أنك لو قلت : الإنسان جسم لقلت الحق ولو قلت : المولود له معبود ، أو المولود معبود . قلت الباطل الذي هو الكفر البواح .

ومما يوضح ما ذكرنا إجماع جميع النظار على أنه إن كانت إحدى مقدمتي الدليل باطلة ، وكانت النتيجة صحيحة أن ذلك لا يكون إلا لأجل خصوص المادة فقط ، وأن ذلك الصدق لا عبرة به ، فحكمه الكذب ولا يعتبر إلا الصدق اللازم المضطرد في جميع الأحوال .

فلو قلت مثلاً : كل إنسان حجر ، وكل حجر جسم ، لأنتج من الشكل الأول كل إنسان جسم ، وهذه النتيجة في غاية الصدق كما ترى .

مع أن المقدمة الصغرى ، من الدليل التي هو قولك : كل إنسان حجر في غاية الكذب كما ترى .

وإنما صدقت النتيجة لخصوص المادة كما أوضحنا ، ولولا ذلك لكانت كاذبة لأن النتيجة لازم الدليل والحق لا يكون لازماً للباطل فإن وقع شيء من ذلك فلخصوص المادة كما أوضحنا .

وبهذا التحقيق تعلم ، أن الشرط الباطل لا يلزم وتطرد صحة ربطه إلا بجزء باطل مثله .

وما يظنه بعض أهل العلم من أن قوله تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } [يونس : 94] كقوله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } [الزخرف : 81] فهو غلط فاحش والفرق بين معنى الآيتين شاسع فظن استوائها في المعنى باطل .

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى : { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ } الآية معناه المقصود منه جار على الأسلوب العربي ، ولا إيهام فيه ، لأننا أوضحنا سابقاً أن مدار صدق الشرطية على صحة الربط بين شرطها وجزئها ، فهي صادقة ولو كذب طرفاها عند إزالة الربط كما تقدم إيضاحه قريباً .

فربط قوله : { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ } [يونس : 94] بقوله { فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ } [يونس : 94] ربط صحيح لا إشكال فيه ، لأن الشاك في أمره شأنه أن يسأل العالم به عنه كما لا يخفى ، فهي قضية صادقة ، مع أن شرطها وجزءها كلاهما باطل بانفراده ، فهي كقوله { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء : 22] فهي شرطية صادقة لصحة الربط بين طرفيها ، وإن كان الطرفان باطلين عند إزالة الربط .

أما قوله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ } [الزخرف : 81] على القول بأن إن شرطية لا تمكن صحة الربط بين شرطها وجزئها ألبتة ، لأن الربط بين المعبود وبين كونه والداً أو ولداً لا يصح بحال .

ولذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب » فنفي الطرفين مع أن الربط صحيح ، ولا يمكن أن ينفي صلى الله عليه وسلم هو ولا غيره الطرفين في الآية الأخرى ، فلا يقول هو ولا غيره : ليس له ولد ولا أعبد .

وعلى كل حال ، فالربط بين الشك وسؤال الشاك للعالم أمر صحيح ، بخلاف الربط بين العبادة وكون المعبود والداً أو ولداً فلا يصح .

فاتضح الفرق بين الآيتين وحديث : « لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب » رواه قتادة بن دعامة مرسلًا .

وينحوه قال بعض الصحابة . فمن بعدهم ، ومعناه صحيح بلا شك .¹

وأورد الشيخ -رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} قول الزمخشري الذي أساء الأدب مع كلام الله، وضرب لهذه الآية مثلاً بقوله: "ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذبا عليه عذاباً سرمداً، فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله .

وسنذكر هنا كلامه القبيح للتنبيه على شناعة غلظه ، الديني واللغوي .

قال في الكشاف ما نصه : { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ } [الزخرف : 81]

وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له: «2» كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفى الولد والإطناب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، فهو في صورة إثبات الكيونة والعبادة، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها. ونظيره أن يقول العدلي للمجبر «1» . إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذبا عليه عذاباً سرمداً، فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله، فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفى أن يكون الله تعالى خالقاً للكفر، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا، مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذهاب إليه، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه. ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له:- أما والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تظلي:- لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك.²

¹ - أضواء البيان : 256/7 .

² - الكشاف : 265/4 . وقد حذا حذوه ابن عاشور في التحرير والتنوير : 296/25 - 297 .

ثم علق الشنقيطي على هذا القول بعد إيراد قائله : " وفي كلام هذا من الجهل بالله وشدة الجراءة عليه ، والتخبط والتناقض في المعاني اللغوية ما الله عالم به . ولا أظن أن ذلك يخفى على عاقل تأمله .

وسنبين لك ما يتضح به ذلك أولاً قال : إن كان للرحمن ولد وضح ذلك ببرهان صحيح تورودونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته ، والانقياد له كما يعظم الرجل ، ولد الملك لتعظيم أبيه .

فكلامه هذا لا يخفى بطلانه على عاقل ، لأنه على فرض صحة نسبة الولد إليه ، وقيام البرهان الصحيح والحجة الواضحة على أنه له ولد ، فلا شك أن ذلك يقتضي ، أن ذلك الولد لا يستحق العبادة ، بحال ، ولو كان في ذلك تعظيم لأبيه ، لأن أباه مثله في عدم استحقاق العبادة والكفر بعبادة كل والد وكل مولود شرط في إيمان كل موحد ، فمن أي وجه يكون هذا الكلام صحيحاً .

أما في اللغة العربية فلا يكون صحيحاً ألبتة .

وما أظنه يصح في لغة من لغات العجم فالربط بين هذا الشرط وهذا الجزاء لا يصح بوجه . فمعنى الآية عليه لا يصح بوجه ، لأن المعلق على المحال لا بد أن يكون محالاً مثله . والزمخشري في كلامه كلما أراد أن يأتي بمثال في الآية خارج عنها اضطر إلى أن لا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً .

فضره للآية المثل بقصة ابن جبير مع الحجاج ، دليل واضح على ما ذكرنا وعلى تناقضه وتخبطه .

فإنه قال فيها إن الحجاج قال لسعيد بن جبير : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى .

قال سعيد للحجاج : لو علمت إن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك .

فهو يدل على أنه علق المحال على المحال ، ولو كان غير متناقض للمعنى الذي مثل له به الزمخشري لقال : لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله .

فقوله : لو علمت أن ذلك إليك في معنى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ } ، فنسبة الولد والشريك إليه معناهما في الاستحالة وادعاء النقص واحد .

فلو كان سعيد يفهم الآية كفهمك الباطل لقال : لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله .

ولكنه لم يقل هذا ، لأنه ليس له معنى صحيح يجوز المصير إليه .

وكذلك تمثيل الزمخشري للآية الكريمة في كلامه القبيح البشع الشنيع الذي يتقاصر عن التلفظ به كل كافر .

فقد اضطر فيه أيضاً إلى ألا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً شنيعاً فإنه قال فيه : ونظيره أن يقول العدلي للمجبر : إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله .

فانظر قول هذا الضال في ضربه المثل في معنى هذه الآية الكريمة بقول الضال الذي يسميه العدلي : إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب إلخ .

فخلق الله للكفر في القلوب وتعذيبه على كفرهم ، مستحيل عنده كاستحالة نسبة الولد لله ، وهذا المستحيل في زعمه الباطل ، إنما علق عليه أفضح أنواع المستحيل وهو زعمه الخبيث أن الله إن كان خالقاً للكفر في القلوب ، ومعذباً عليه فهو شيطان لا إله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فانظر رحمك الله فظاعة جهل هذا الإنسان بالله ، وشدة تناقضه في المعنى العربي للآية . لأنه جعل قوله : إن كان الله خالقاً للكفر ومعذباً عليه بمعنى « إن كان للرحمن ولد » في أن الشرط فيهما مستحيل ، وجعل قوله في الله أنه شيطان لا إله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

كقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أول العابدين . فاللزم لكلامه أن يقول : لو كان خالقاً للكفر فأنا أول العابدين له ، ولا يخفى أن الادعاء على الله أنه شيطان مناقض لقوله : أنا أول العابدين .

وقد عرضت عن الإطالة في بيان بطلان كلامه ، وشدة ضلاله ، وتناقضه لشناعته ووضوح بطلانه ، فهي عبارات مزخرفة ، وشقشقة لا طائل تحتها...

واعلم أن الكلام على القدر ، وخلق أفعال العباد ، قدمنا منه جملاً كافية في هذه السورة الكريمة ، في الكلام على قوله تعالى : { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف : 20] ، ولا

يخفى تصريح القرآن بأن الله خالق كل شيء ، كما قال تعالى : { اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [

الزمر : 62] الآية ، وقال تعالى : { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان : 2] . وقال : {

هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ } [فاطر : 3] ، وقال تعالى : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر :

[49] .

فالإيمان بالقدر خيره وشره الذي هو من عقائد المسلمين جعله الزمخشري يقتضي أن الله شيطان، سبحانه الله وتعالى عما يقوله الزمخشري علواً كبيراً .¹

وما قاله ابن جرير وغير واحد من أن القول بأن إن نافية يلزمه إيهام المحذور الذي لا يجوز في حق الله .

قالوا : لأنه إن كان المعنى ما كان الله ولد فإنه لا يدل على نفي الولد ، إلا في الماضي ، فللكفار أن يقولوا إذا صدقت لم يكن له في الماضي ولد .

ولكن الولد طراً عليه ، بعد ذلك لما صاهر الجن ، وولدت له بناته التي هي الملائكة .

وإن هذا المحذور يمنع من الحمل على النفي لا شك في عدم صحته لدلالة الآيات القرآنية بكثرة على أن هذا الإيهام لا أثر له ولو كان له أثر لما كان الله يمدح نفسه بالثناء عليه بلفظة كان الدالة على خصوص الزمن الماضي في نحو قوله تعالى { وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء : 158] ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء : 17] ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء : 96] ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا } [الأحزاب : 27] ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا } [النساء : 34] إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب حصرها .

فإن معنى كل تلك الآيات أنه كان ولم يزل .

فلو كان الكفار يقولون ذلك الذي زعموه الذي هو قولهم : صدقت ما كان له ولد في الماضي ولكنه طراً له لقالوا مثله في الآيات التي ذكرنا .

كأن يقولوا { كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء : 24] في الماضي ولكنه طراً عليه عدم ذلك وهكذا في جميع الآيات المذكورة ونحوها .

وأيضاً فإن المحذور الذي زعموه لم يمنع من إطلاق نفي الكون الماضي في قوله تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا } [مريم : 64] ، وقوله { وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا } [الكهف : 51] وقوله { وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص : 59] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة .

ومن أوضحها في محل النزاع قوله تعالى { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ } [المؤمنون : 91] الآية .

¹ - أضواء البيان : 258/7 .

ولم يمنع من نفي القرآن للولد في الزمن الماضي في قوله تعالى { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ } [المؤمنون : 91] فإن الكفار لم يقولوا يوماً ما : صدقت ما اتخذته في الماضي ولكنه طراً عليه اتخاذه .

وكذلك في قوله { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً } [الفرقان : 2] وقوله { لَمْ يَلِدْ } [الإخلاص : 3] ، لأن لم تنتقل المضارع إلى معنى الماضي .

والكفار لم يقولوا يوماً صدقت لم يتخذ ولداً في الماضي ، ولكنه طراً عليه اتخاذه ولم يقولوا لم يلد في الماضي ، ولكنه ولد أخيراً .

والحاصل أن الكفار لم يقرروا أن الله منزه عن الولد لا في الماضي ولا في الحال ، ولا في الاستقبال .

ومعلوم أن الولادة المزعومة حدث متجدد .

وبذلك تعلم أنما زعموه من إيهام المحذور في كون إن في الآية نافية لا أساس له ولا معول عليه ، وأن ما ادعوه من كونها شرطية ليس له معنى في اللغة العربية إلا المعنى المحذور الذي لا يجوز في حق الله بحال

سورة: "ق": "مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) إيثار اسمه الرحمن في قوله: من خشي الرحمن دون اسم الجلالة للإشارة إلى أن هذا المتقي يخشى الله وهو يعلم أنه رحمان، ولقصد التعريض بالمشركين الذين أنكروا اسمه الرحمان وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [الفرقان: 60] .

والمعنى على الذين خشوا: خشي صاحب هذا الاسم، فأنتم لا حظ لكم في الجنة لأنكم تتكبرون أن الله رحمان بله أن تخشوه.

سورة الرحمن : الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ : صدر هذه السورة بالاسم الدال على عموم الرحمة براءة للاستهلال، مفتتحاً لها بأعظم النعم وهو تعليم الذكر فمن مقتضى اسمه {الرحمن} اثبتت جميع النعم، ولذا ذكر في هذه السورة أمهات النعم في الدارين.

ولما كان لا شيء من الرحمة أبلغ ولا أدل على القدرة من إيصال بعض صفات الخالق إلى المخلوق نوع إيصال ليتخلقوا به بحسب ما يمكنهم منه فيحصلوا على الحياة الأبدية والسعادة السرمدية قال: {علم القرآن *} .

سورة الملك : الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاطُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَاقَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19): من دقائق القرآن أنه أثر اسم الرحمن في قوله: ما يمسكهن إلا الرحمن في سورة الملك [19] ، وقال: ما يمسكهن إلا الله في سورة النحل [79] إذ كانت آية سورة الملك مكية وآية سورة النحل القدر النازل بالمدينة من تلك السورة، وأما قول بعض شعراء بني حنيفة في مسيلمة:

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا ... وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا
فإنما قاله بعد مجيء الإسلام وفي أيام ردة أهل اليمامة، وقد لقبوا مسيلمة أيامئذ رحمن اليمامة وذلك من غلوهم في الكفر.

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20): غر الكافرين الشيطان فكفروا بالرحمن، فاتخذوا من دونه أوثانا فما ازدادوا إلا خزيا وخذلانا .
قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29): {قُلْ هُوَ الرحمن} أي الذي أدعوكم إلى عبادته مولى النعم كلها {أمننا به} وحده لَمَّا علمنا أن كل ما سواه إما نعمة أو منعم عليه {وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} لا على غيره أصلاً لَعَلِمْنَا بأن ما عداه كائنًا ما كان بمعزلٍ من النفع والضرِّ {فَسَتَعْلَمُونَ} عن قريب البتة {مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} منَّا ومنكم وقرىءَ فسيعلمون بالياءِ التحتانية .

اسم الله : الرحيم : اقترن الرحيم وأرحم الراحمين وخير الراحمين وواسع الرحمة بالرب في كل مكان ورد فيه منفردا عن غيره من الأسماء الحسنی .

والمطرد في الكتاب العزيز مهما جرى ذكر المغفرة طلبا أو إخبارا ورود ما به يقوى رجاء السائل ويطمع تعلقا به المتذلل الراغب كقوله تعالى: "إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنة فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين " فقوله هنا: "وأنت خير الراحمين " توسل مناسب لما تقدم من طلب المغفرة والرحمة وفي سورة يوسف قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " وفي سورة القصص: "قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم " فهذا كله مناسب للطلب وهو كثير فى الكتاب العزيز وجار على ما تمهد .

الأعراف : قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)

{قال} استئناف مبني على سؤالٍ نشأ من حكايةِ اعتذار هرون عليه السلام كأنه قيلَ فماذا قال موسى عند ذلك فقيل قال {رَبِّ اغْفِرْ لِي} أي ما فعلتُ بأخي من غير ذنبٍ مقررٍ من قبله {وَلَاخِي} إن فرطَ منه تقصيرٌ ما في كفهـم عما فعلوه من العظيمة استغفر عليه السلام لنفسه ليُرضي أخاه ويُظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شامتُهُم به ولأخيه للإيذان بأنه محتاجٌ إلى الاستغفار حيث كان يجبُ عليه أن يقاتلَهُم {وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ} بمزيد الإنعام بعد عُقران ما سلف منا {وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} عطف للخبر على الطلب وفيه ما فيه من تيقن الإجابة والمعنى : فلا عَزَوْ في انتظامنا في سلك رحمتِكَ الواسعةِ في الدنيا والآخرة والجملةُ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله .

الأنعام : فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147) : يقول تعالى: فإن كذبتك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، {فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله، {وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} وقال {وَأَنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} وقال تعالى: {نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} وقال تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} وقال {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} والآيات في هذا كثيرة جداً.

يوسف : قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92): تذييل فيه تأكيد وتعليل مناسب لما أخبرهم به من أنه سيغفر لهم ، وقال فيه أرحم الراحمين الذي تتضاءل الذنوب وتتمحي أمام رحمته التي لا يتعاضم عليها ذنب إلا ما وعد بعدم رحمته كالشرك . وهي تصدق لقول أبيه : " قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)

سورة الإسراء : رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66): جملة إنه كان بكم رحيمًا تعليل وتنبية لموقع الامتحان ليرفضوا عبادة غيره مما لا أثر له في هذه المنة.

سورة الأنبياء : وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83): عطف للخبر على الطلب وفيه تعريض بطلب كشف الضر عنه بدون سؤال فجعل وصف نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصف ربه بالأرحم تعريضا بسؤاله، كما قال أمية بن أبي الصلت:

إذا أتى عليك المرء يوما ... كفاه عن تعرضه الثناء

وكون الله تعالى أرحم الراحمين لأن رحمته أكمل الرحمات لأن كل من رحم غيره فإما أن يرحمه طلبا للثناء في الدنيا أو للثواب في الآخرة أو دفعا للرقعة العارضة للنفس من مشاهدة من تحقق الرحمة له فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وأما رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية.

سورة الممنون : إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109): سأله بالإيمان والعمل الصالح الذي جعله سبباً لإجابة الدعاء لأن هذه الأعمال أمر الله بها ووعد الجزاء لأصحابها فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله (3): (193) : {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} .

فالواو في قوله : وأنت خير الراحمين . أفادت التعليل أي لأنك خير الراحمين .

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118): المقصود من الجملة خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بأن يدعو ربه بالمغفرة والرحمة. وفي حذف متعلق اغفر وارحم تفويض الأمر إلى الله في تعيين المغفور لهم والمرحومين، والمراد من كانوا من المؤمنين ويجوز أن يكون المعنى اغفر لي وارحمي، بقرينة المقام ، وأمره بأن يدعو بذلك يتضمن وعدا بالإجابة. وهذا الكلام مؤذن بانتهاء السورة فهو من براعة المقطع.

سورة يس : سَلَامٌ قَوْلًا مِّنْ رَبِّ رَحِيمٍ (58): قال ابن عاشور: " استئناف قطع عن أن يعطف على ما قبله للاهتمام بمضمونه، وهو الدلالة على الكرامة والعناية بأهل الجنة من جانب القدس إذ يوجه إليهم سلام الله بكلام يعرفون أنه قول من الله: إما بواسطة الملائكة، وإما بخلق أصوات يوقنون بأنها مجعولة لأجل أسماعهم كما سمع موسى كلام الله حين ناداه من جانب الطور من الشجرة " ¹ وهذا قول المعتزلة نفاة كلام الله يقولون بخلق كلامه ليسمعه خلقه وقد تبعتهم الأشعرية فيه كما بينا سالفاً .

¹ - التحرير والتتوير : 44/23 .

والحق أنهم يرونه من فوقهم ويكلمهم كما تواترت بذلك الأحاديث .

المطلب الثاني : غافر / الغفار/ الغفور

نوح : فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) : ومعنى استغفروا ربكم، ءامنوا إيماننا يكون استغفاراً لذنبكم فإنكم إن فعلتم غفر الله لكم.

وعلل ذلك لهم بأن الله موصوف بالغفران صفة ثابتة تعهد الله بها لعباده المستغفرين، فأفاد التعليل بحرف (إن) وأفاد ثبوت الصفة لله بذكر فعل كان وأفاد كمال غفرانه بصيغة المبالغة بقوله غفاراً.

سبأ : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) : جملة : " بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ " استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به أي بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم مافيها من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطت من يشكره .

الإسراء : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) : قال ابن كثير : " قال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله: { [فإنه] (12) كان للأوابين غفوراً } قال: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب.

فالأواب هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه ، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: {إِن إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} [الغاشية: 25] ، وفي الحديث الصحيح، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من سفر قال : آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون" ¹ وفي ذكر الأوبة إشارة إلى الرجوع من الذنوب . التي تحتاج إلى مغفرة - إلى الطاعة ، فحسن ذكر اسمه " غفوراً " نكرة لتعم كل ذنب بعد الأوبة .

الأعراف : وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاي أَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) : وإنما جاز عطف جملة:

¹ - رواه البخاري في صحيحه برقم (1797) من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما

"وأنت خير الغافرين" لأنها خبر في معنى طلب المغفرة العظيمة، فعطف على الدعاء، كأنه قيل: فاغفر لنا وارحمنا واغفر لنا جميع ذنوبنا، لأن الزيادة في المغفرة من آثار الرحمة.

فاللطيفة في انفراد وصف الرحمة و المغفرة عن غيرهما من الأسماء هي في اقتران كل منهما باسم " الرب" بصيغة الخطاب كما أشرنا قريبا .

المطلب الثالث : التواب :

سورة النصر : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3) : هذه الجملة بمدلولها الصريح ومدلولها الكنائي ومستتبعاتها تعليل لما تضمنته الجملة التي قبلها من معنى صريح أو كنائي يناسبه التعليل بالتسبيح والحمد باعتبارهما تمهيدا للأمر بالاستغفار كما تقدم أنفا لا يحتاجان إلى التعليل، أو يغني تعليل الممهّد له بهما عن تعليلهما ولكنهما باعتبار كونهما رمزا إلى مداناة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون ما في قوله: إنه كان توابا من الوعد بحسن القبول تعليلا ومدلولهما الكنائي، وأما الأمر بالاستغفار فمناسبة التعليل له بقوله: إنه كان توابا ناهضة باعتبار كلتا دلالتيه الصريحة والكنائية، أي أنه متقبل استغفارك ومتقبلك بأحسن قبول، شأن من عهد من الصفح والتكرم.

وفعل كان هنا مستعمل في لازم معنى الاتصاف بالوصف في الزمن الماضي.

وهو أن هذا الوصف ذاتي له لا يتخلف معموله عن عبادته فقد دل استقراء القرآن على إخبار الله عن نفسه بذلك من مبدأ الخليقة قال تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم [البقرة: 37] .

ومقتضى الظاهر أن يقال: إنه كان غفارا، كما في آية: فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا [نوح: 10] فيجري الوصف على ما يناسب قوله: واستغفره، فعدل عن ذلك تلطفا مع النبي صلى الله عليه وسلم بأن أمره بالاستغفار ليس مقتضيا إثبات ذنب له لما علمت أنفا من أن وصف (تواب) جاء من تاب عليه الذي يستعمل بمعنى وفقه للتوبة إيماء إلى أن أمره بالاستغفار إرشاد إلى مقام التأدب مع الله تعالى، فإنه لا يسأل عما يفعل بعباده، لولا تفضله بما بين لهم من مراده، ولأن وصف (تواب) أشد ملائمة لإقامة الفاصلة مع فاصلة أفواجا لأن

حرف الجيم وحرف الباء كليهما حرف من الحروف الموصوفة بالشدة، بخلاف حرف الراء فهو من الحروف التي صفتها بين الشدة والرخوة.¹

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: "أن رسول الله ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة إلا قال في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن" فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته وما ينبغي له قال تعالى 33:72، 73 {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

المطلب الرابع : الحميد :

الحج : وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) وذكر الحميد هنا وحده وذكر العزيز قبله في آية إبراهيم : الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) ... والنكته في ذكر العزيز في آية إبراهيم اشتمال السورة على ذكر المكذبين لرسولهم وكيف عزّهم وغلبهم وقهرهم وأضلهم الله بعزته وحكمته واقتترانه بالحميد لأنه حميد في ذاته غني عن حمد الحامدين وحميد على عزته وحكمته وكل صفاته وأفعاله وإن عادت بالعذاب على الضالمين ، وذكر الحميد أيضا فيه إشارة إلى قول أبي الأنبياء - خير الحامدين - وقد سميت السورة باسمه . : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) وذكر الحميد وحده في آية الحج :

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (19)

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 596/30 - 597 . وروح المعاني : 496/15 .

جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ
(23) وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ
وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا
تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَدْنَىٰ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ
يَأْتُونَكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ (28)
ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29) بالنظر فيما أوردناه من سباق
ولحاق هذه الآية تظهر لطيفة ذكر الحميد وحده ، فالآيات أولاً ذكرت خصمين كافرين جاحدين
ومؤمنين حامدين شاكرين ثم ذكر أنّ مصير الخصم الأول عذاب الحريق ولا شك قد ضلوا
الطريق ثم ذكر الذين هداهم إلى حمده والفوز بجناته فناسب قولهم الطيب ألا وإن أعظمه حمد
الله على كل حال ذكر اسمه الحميد مضافاً إليه الصراط وهذا قد أشارت إليه الفاتحة : الحمد لله
رب العالمين ... إهدنا الصراط المستقيم ... وكذا قوله في يونس : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَاتٍ النَّعِيمِ (9) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10) {هُوَ الْحَيُّ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر آية 56) وقال في الزمر :
وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ
الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)

المطلب الخامس : الرؤوف

البقرة : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (207) : قوله:
{والله رؤوفٌ بالعباد} فمن رَأْفَتِهِ أنه جعل النَّعِيمَ الدَّائِمَ جزاءً على الْعَمَلِ الْقَلِيلِ الْمُنْقَطِعِ، ومن
رَأْفَتِهِ جَوَّزَ لَهُمْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ إِبْقَاءً عَلَى النَّفْسِ، وَمِنْ رَأْفَتِهِ أَنَّهُ لَا يَكْفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا، وَمِنْ رَأْفَتِهِ
وَرَحْمَتِهِ أَنَّ الْمُصِرَّ عَلَى الْكُفْرِ مِائَةَ سَنَةٍ، إِذَا تَابَ - وَلَوْ فِي لَحْظَةٍ - أَسْقَطَ عَنْهُ عِقَابَ تِلْكَ
السنين، وأعطاه الثواب الدائم.

وَمِنْ أَفْتِهِ أَنَّ النَّفْسَ لَهُ وَالْمَالُ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْتَرِي مَلَكَهُ بِمَكْلِهِ؛ فَضُلًّا مِنْهُ وَرَحْمَةً وَإِحْسَانًا وَامْتِنَانًا.
آل عمران : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
 وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (30) : قوله: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} هو
 تأكيد للوعيد، ثم قال: {والله رءوف بالعباد} فيه وجوه:

الأول: أنه رءوف بهم، حيث حذرهم من نفسه، وعرفهم كمال علمه وقدرته، وأنه يمهّل ولا
 يمهّل، ورجبهم في استيجاب رحمته، وحذرهم من استحقاق غضبه.
 قال الحسن: «ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه» .

الثاني: أنه رءوف بالعباد، حيث أمهّلهم للتوبة والتدارك والتلافي.

الثالث: أنه لما قال: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} - وهو للوعيد - أتبعه بالوعد، وهو قوله: {والله رءوف
 بالعباد} ، ليعلم العبد أن وعد رحمته غالب على وعيده.

الرابع: أن لفظ «العباد» في القرآن مختص بالمؤمنين، قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ
 عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: 63] ، وقال: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [الإنسان: 6] ، فعلى هذا
 لما ذكر وعيد الكفار والفساق ذكر وعد أهل الطاعة، فقال: {والله رءوف بالعباد} ، أي: كما هو
 منتقم من الكفار والفساق فهو رءوف بالعباد المطيعين.¹

المطلب السادس : الكريم

الانفطار : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) : هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس
 من أنه إرشاد إلى الجواب؛ حيث قال: {الكريم} حتى يقول قائلهم: غره كرمه. بل المعنى في
 هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم-أي: العظيم-حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما
 لا يليق؟ كما جاء في الحديث: "يقول الله يوم القيامة: ابن آدم، ما غرك بي؟ ابن آدم، ماذا
 أجبته المرسلين؟".

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان: أن عمر سمع رجلاً يقرأ:
 {ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} فقال عمر: الجهل² .

¹ - أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ) - اللباب في علوم الكتاب - ت
 عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ط : 1 / 1419 هـ - 1998م -
 ص : 156/5 .

² - ذكره السيوطي في الدر المنثور (439/8) وعزاه لابن المنذر وسعيد بن منصور أيضا.

وقال أيضا: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا أبو خلف، حدثنا يحيى البكاء، سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: {يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} قال ابن عمر: غره-والله-جهله. قال: وروي عن ابن عباس، والربيع بن خثيم والحسن، مثل ذلك. وقال قتادة: {ما غرك بربك الكريم} شيء، ما غر ابن آدم غير هذا العدو الشيطان. وقال الفضيل بن عياض: لو قال لي: "ما غرك بي لقلت: ستورك المرخاة. وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: {ما غرك بربك الكريم} لقلت: غرني كرم الكريم. قال البغوي: وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال: {بربك الكريم} دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لفته الإجابة¹.

وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل؛ لأنه إنما أتى باسمه {الكريم}؛ لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء. وقد حكى البغوي، عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا نزلت هذه الآية في الأسود بن شريق، ضرب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعاقب في الحالة الراهنة، فأنزل الله: {ما غرك بربك الكريم}؟² **العلق**: اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) : قوله {اقرأ وربك الأكرم} {الذي علم بالقلم} {علم الإنسان ما لم يعلم}. سمي ووصف نفسه بالكرم وبأنه الأكرم بعد إخباره أنه خلق ليتبين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم إلى الغايات المحمودة كما قال في موضع آخر {الذي خلق فسوى} {والذي قدر فهدى} وكما قال موسى عليه السلام {ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى} وكما قال الخليل عليه السلام {الذي خلقتني فهو يهدين} فالخلق يتضمن الابتداء والكرم تضمن الانتهاء كما قال في أم القرآن {رب العالمين} ثم قال {الرحمن الرحيم} ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد. لا يراد به مجرد الإعطاء بل الإعطاء من تمام معناه فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن. والكرم كثرة الخير ويسرته. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم: {لا تسموا العنب الكرم فإنما الكرم قلب المؤمن} وهم سموا العنب "الكرم" لأنه أنفع الفواكه يؤكل رطبا ويابس ويصير فيتخذ منه أنواع. وهو أعم وجودا من النخل يوجد في عامة البلاد والنخل لا يكون إلا في البلاد الحارة. ولهذا قال في رزق الإنسان {فلينظر الإنسان إلى

¹ - معالم التنزيل للبغوي (356/8) .

² - معالم التنزيل للبغوي : (356/8) .

طعامه} {أنا صببنا الماء صبا} {ثم شققنا الأرض شقا} {فأنبتنا فيها حبا} {وعنبا وقضبا} {وزيتونا ونخلا} {وحدائق غلبا} {وفاكهة وأبا} {ممتاعا لكم ولأنعامكم} فقدم العنب. وقال في صفة الجنة {إن للمتقين مغازا} {حدائق وأعنابا} ومع هذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تسميته بالكرم وقال: {الكرم قلب المؤمن}. فإنه ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيرا من قلب المؤمن. والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم. فقد وصف القرآن بالكرم ووصف رزق الجنة بالكرم قال تعالى {أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم}. قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن. وقال الزجاج: الزوج النوع والكرم المحمود. وقال غيرهما {من كل زوج} صنف وضرب {كريم} حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام. يقال: " نخلة كريمة " إذا طاب حملها و " ناقة كريمة " إذا كثر لبنها.

وعن الشعبي: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لثيم. والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه وفيهم من يهينه. قال تعالى {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} وقال تعالى {ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء} وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: {وإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب}. وكرائم الأموال: التي تكرم على أصحابها لحاجتهم إليها وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها. وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف لها. فدل على أنه الأكرم وحده بخلاف ما لو قال " وربك أكرم ". فإنه لا يدل على الحصر وقوله {الأكرم} يدل على الحصر. ولم يقل " الأكرم من كذا " بل أطلق الاسم ليبين أنه الأكرم مطلقا غير مقيد. فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه.¹

قال ابن عطية: ثم قال له تعالى {اقرأ وربك الأكرم} على جهة التأنيس كأنه يقول: امض لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص فهو ينصرك ويظهرك.² ولم يوصف الرحمن باسم " كريم " غير معرف إلا مقرونا بالغني : النمل : قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم (40)

¹ - ينظر : مجموع الفتاوى : 293/16 .

² - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : 502/5 .

وهذا لأن جنس الكرم له وحده ومنه وحده ولذلك لما قرن باسمه الآخر غني وصف معه بكريم
نكرتين ليفهم منه أن كرمه منه وحده لأنه غني عن سواه أما وصف العرش بالكريم معرّفاً في
الفرقان : " فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) : فلا يقدح فيما قلناه
فقد ذكر بأنه مربوب والمربوب مفنقر إلى ربه ، والله أعلم .

المطلب السابع : المولى / الولي / النصير

لما كان الله مالك الملك هو الولي المحبوب المعبود المتولى الناصر لأوليائه وأحبائه اقترن ذكر
الولي بالنصير وبالحب وبالعبادة التي هي منتهاه واقترن ذكر من دعا وتولى وعبد معبوداً من
دون الله بوصف الضلال والظلم في سائر القرآن وذلك لأن تولى غير الله وعبادته وطلب
النصرة منه شرك والشرك ظلم عظيم كما ذكر في غير ما آية :

البقرة : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ
(107) / وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى
وَلَنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) /
وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ
اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا
كُنَّا نَدْرَأُ فَنَنْتَبِرَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ
(167) / اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ
يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)

آل عمران : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) يَا
أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65)
ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)
وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69)

مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا
الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ
اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ
مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150)

النساء : وانظر كيف يكفي الله أوليائه ولاية ونصرة ويقصم أعداءهم اليهود أهل الضلالة
والحسد واللطيفة في توسط آية الولاية والنصرة بين آيتين الأولى في ضلالة اليهود وتتمتها في
تفصيل ذلك بذكر تحريفهم القرآن ولعنهم وكفرهم : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ
يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى
بِاللَّهِ نَصِيرًا (45) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ
غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً (46)

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75)
وقوله : " وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا " بمعنى كن ولينا ونصيرنا فهما
صفتان له دل على ذلك قوله : " من لَدُنْكَ " فهو يشبه قوله في صفة رحمته " رَبَّنَا آتِنَا مِنْ
لَدُنْكَ رَحْمَةً " ثم قال لبيان أن النصر والقوة مع أوليائه : الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا
(76) .

كل من دعى غير الله فهو ضال وإنما يدعو شيطانا اتخذه وليا من دون الله : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
 أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116) إِنَّ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ
 عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَاضِلَّيْنَهُمْ وَلَأُمْنِيَّيْنَهُمْ وَلَا مَرْثِيَّيْنَهُمْ فَلَئِبْتَكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْثِيَّيْنَهُمْ
 فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119)

ثم فقد توهم اليهود والنصارى وادعاء كونهم أولياء الله وأحباءه : لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ
 الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وفيها تنفيذ
 دعوى كل مدع للولاية بلا عمل صالح مقبول عند الله ، ثم بين جزاء الأولياء حقًا : وَمَنْ يَعْمَلْ
 مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)

ثم بين أنه إذا كان الله وليا للمؤمنين لا ينبغي لهم موالات أعدائه الكافرين لأنه ينصرهم وأولئك
 لا ناصر لهم ، قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
 أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ
 تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)

ثم بين نصيب الفريقين من الولاية والنصرة بالبرهان والقرآن : " فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
 وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174)

المائدة : نفى الله ملك النصره لكل معبود سواه : قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ
 ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76)

بيان تبرأ عيسى عليه السلام - أكثر الخلق عبادة وتوليا من دون الله - من عابديه ومستنصريه ،
 ثم ختام السورة بذكر الملك المولى الحق القدير : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ
 لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ
 إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116)
 ... لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)

الأنعام : إثبات التقوى لمن لم يتخذ وليا ولا شفيعا من دون الله : وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) .

وصف من يدعو من دون الله بالضلالة : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا اتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57) / نفي تحقق اسم الولي لغير الله ونفي الشفاعة لمن لم يتولى الله : وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تُسَبَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) إثبات الهداية لأوليائه وضدها لمن يدعو من دونه أوليائه سواء : قُلْ أَنْدَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ انْتَبِهْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَهُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71)

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)

الأعراف : بيان كون القرآن أنزل ليذكر المؤمنين بتولي الله وحده : المص (1) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3) وشاهد هذه الآيه آية النساء : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) .

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ (30) / فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ

نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (37)

بيان إخلاف البشر وعدهم الله بولايته وحده وعبادته وحده ثم شركهم به واتخاذهم أولياء من دونه : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبِّهَما لِنُزُلِّنَا صَالِحًا لِنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِفُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ (195) إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198) .

الأنفال : نصره الله لكل مؤمن على كل كافر ولو بعد حين : قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِن تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ (40)

ولقد تتبعنا في القرآن الكريم عبارات : " من دون الله " و " من دونه " و " من دونك " فوجدنا القرآن في حديثه عن الإشراك بالله وتولي غيره يقرن الألفاظ الدالة على العبادة كيعبد ويدعو ويتولى وما في معناها بقوله : من دون الله " أو باستعمال الضمير عائدا إلى لفظ الجلالة قبله : " من دونه " ولم يفتن البتة باسم من أسمائه غير الرحمن والنكتة في ذلك كون الرحمن علما كذلك على البارئ تعالى لا ينصرف إلى غيره وذلك ليعلم الذي ينبغي أن يدعو وحده ولم يدعو ومن ثم يعلم غيره ممن يدعو وتوضيح ذلك أنه لو قيل : إن الذين يدعون من دون السميع مشركون " فليس بالضرورة صدق هذا الخبر لأن لا قرينة تفصل في كون السميع هنا هو الله لأنه ليس علما عليه بل وصف يشركه في معناه غيره أمّا الله والرحمن فيراد بهما ذاته وهما

علمين لا يطلقان على غيره ، وهذا مصداقا لقوله : {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: 110] أما مجيء عبارة : "من دون الله " أو : " من دونه " والهاء عائدة إلى لفظ الجلالة " الله " قبلها في كل المواضع التي ذكرنا والتي لم نذكر حتى سورة الجن - وذلك لضيق المقام وطول المقام - إلا في الزمر جاءت : " وَسئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ (45) وذلك أن الرحمن ذكر في هذه السورة ست مرّات لنفي الشرك عنه فلا جرم أن يأتي في هذه لتوكيد نفيه في الرسائل السابقة كلها ولفظ الجلالة ذكر ثلاث مرّات لا غير في تنتين حكاية عن عيسى عليه السلام : " وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) وفي الباقية حكاية عن المشركين : " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) ، وفي الملك : أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) لكثرة ورود الرحمن فيها أيضا .

المطلب الثامن : الهادي والنور

النور : اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) / أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40) : اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : قال ابن كثير : " قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {الله نور السموات والأرض} يقول: هادي أهل السموات والأرض ، وقال ابن جرير: حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقي، حدثنا وهب بن راشد، عن فرقد، عن أنس بن مالك قال: إن إلهي يقول: نوري هادي ، واختار هذا القول ابن جرير، رحمه الله."¹

¹ - تفسير ابن كثير : 71/6 .

وفي الآيات الآتية بيان كون نوره هو هداه :

الأعراف : مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

المائدة : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15)

التوبة : يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)
الزمر : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)

الصف : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8)

الفصل الثاني :

النكت في اقتران الأسماء والصفات في تذييل الآيات

المبحث الأول : اقتران أسماء وصفات الألوهية فيما بينها

المطلب الأول : الله / إله والواحد وأحد

اللطيفة التي لم نجدها في كتاب وإنما هي منّة الوهاب أنّ اسم الله " الواحد " كلما ورد مقترنا باسمه " الإله " ورد كلاهما نكرة مسبوقة بتوكيد على اختلاف أساليبه والنكتة في ذلك ترسيخ إخلاص العبادة للمعبود الواحد ونفي الإشراك في عبادته ولم يأت في اقترانه بالإله إلا صفة لم يأت البتة خبرا عنه وفي هذه الثلاثة عشر موضعا وردا نكرتين " إله واحد " مرتبطين بالله تعالى فكأن المعنى الذي دارت عليه كل هذه الآي هو : " إنّما الله إله واحد " فالكلام في قوة : " الإخبار عن المعبود بأنه واحد ومن بدائع اللطائف إضافة إلى اقتران "واحد" بإله بعده اقترانه معرّفا موصوفا بالقهار وذلك أن الواحد نكرة يطلق على الله وعلى غيره في الاستفهام والنفي والإثبات فجعل وصفا لإله هو الله في الإثبات كما في الآي ولما عرف لئلا ينصرف لغيره من خلقه قرن بالقهار الذي معه أمن اللبس أما " أحد " لَمَا كان لا يطلق في إثبات على أي أحد من الخلق قاطبة لأنه بمعنى واحد فرد من جميع جهات الوجدانية أخبر به عن الله في سورة إخلاص توحيد المعبود الصمد وسيأتي بيان النكتة في ذكره في سورة الإخلاص أما هذا فموضع ذكر آيات الواحد نكرة وصفا للإله نكرة أيضا :

وَالْهَكُّمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) : البقرة

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171):النساء

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73): المائدة

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَأِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19) : الأنعام

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31): التوبة

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52): إبراهيم

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51): النحل.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110): الكهف.

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108): الأنبياء

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34): الحج

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهِنَا وَإِلَهُكُمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46): العنكبوت .

إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ (4): الصافات .

أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (5): ص .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6): فصلت .

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84): الزخرف

المستخلص من هذه الآيات كلّها أنّ وصفه بـ " واحد " لنفي تعدد وكثرة المعبودات وحصرها في واحد ففي الآيات إقرار لئلا إله إلا الله ، أمّا في وصفه بـ " أحد " تنزيه للمعبود الواحد عن الشبيه والمثل والكفى .

ولم يرد اسم الله " أحد " إلا مرة واحدة في الآية الأولى من سورة الإخلاص في قوله تعالى :
" قل هو الله أحد (1) "

قال أهل النحو : قوله: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}: في «هو» وجهان، أحدهما: أنه ضميرٌ عائِدٌ على ما يفهم من السياق، فإنه يُروى في الأسباب: أنهم قالوا لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ وَأَنْسُبْهُ. وقيل: قالوا له: أَمِنْ نُحَاسٍ هُوَ أَمْ مِنْ حَدِيدٍ؟ فَنَزَلَتْ. وَحِينَئِذٍ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «الله» مبتدأً، و «أحدٌ» خبره. والجملةُ خبرُ الأول. ويجوزُ أَنْ يَكُونَ «اللهُ» بدلاً، و «أحدٌ» الخبر. ويجوزُ أَنْ يَكُونَ «اللهُ» خبراً أوَّلَ، و «أحدٌ» خبراً ثانياً. ويجوزُ أَنْ يَكُونَ «أحدٌ» خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو أحدٌ. والثاني: أنه ضميرُ الشانِ لأنه موضعُ تعظيمٍ، والجملةُ بعده خبره مفسّرة.¹

وقد قال أهل التفسير في " أحد " في الآية : أنه بمعنى واحد وأصله وحد، وربما يعتضد من قال بهذا بقراءة من قرأ: " قل هو الله الواحد " فيجعل هذه القراءة مفسرة للاخرى وهي قراءة شاذة خارجة عن خط المصحف فليست مما يقطع به ، أما القول بأن أحداً هنا مرادف لواحد وبمعناه من كل جهة فقول ليس ببدع، ولذلك جرى عليه أكثر كلام المفسرين، ولكن فيه ادعاء ترادف للفظين من غير حامل قطعي أكثر من وقوع أحد في بعض المواضع مستغنى به عن واحد كالواقع في العدد عند التركيب أو العطف في قولك أحد عشر، وواحد وعشرون وشبه ذلك، ولا ينكر من كلامهم الاستغناء بالشئ عن الشئ لتقارب ما أو نسبة واشتراك في طرف ما، وما أراك تجد في كلامهم لفظ أحد المجرد عن التركيب والإضافة والعطف واردا في معنى واحد ومرادفاً له على القطع أبداً. وإذا ثبت هذا وجب إجراء الكلام على إبقاء كل واحدة من اللفظتين على ما استقر لها في المعنى وإلا يعدل عن ذلك ما وجدت عنه مندوحة.

وقد أوضح الاعتبار الفرق بين أحد وواحد من جهة اللفظ وحكمه ومن جهة المعنى.

¹ - السمين الحلبي - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: 149/11 .

أما الفارق اللفظي فإن لفظ واحد قد فرقوا فيه بين المذكر والمؤنث، قالوا: واحد وواحدة فألحقوا مؤنثة الهاء، وجمعه فقالوا: وحدان. وأما أحد فلم يلحقه علامة تأنيث ولا جمعه.

وفرق ثان وهو أنهم استعملوا واحداً في الواجب وغير الواجب تقول: جاءني رجل واحد ومررت برجل واحد، قال تعالى (وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (البقرة: 163) و (إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (النساء: 171) و (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ) (سبأ: 46) أي بخصلة واحدة أو بموعظة واحدة، ومن غير الواجب (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ) (القمر: 24)، (أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا) (ص: 5)، أما أحد فلا يقع مفرداً عن إضافة أو تركيب في كلام واجب أصلاً، فلا تقول: جاءني أحد ولا مررت بأحد ولا ورد في كتاب الله سبحانه في كلام واجب إلا قوله سبحانه: (قل هو الله أحد) ويقع في غير الواجب وهو باب الذي اختص به، تقول: ما جاءني أحد وما مررت بأحد، قال تعالى: (وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) (الكهف: 26)، (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف: 110)، (وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) (الكهف: 38)، (لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ) (الجن: 22)، (وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) (الجن: 2) (ولم يكن له كفوا أحد) (الإخلاص : 04) وذلك كثير جداً.

وفرق ثالث وهو أن واحداً يقع تابعاً في أكثر موارد، وهو الوجه فيه، لأنه يجري صفة وإن كان الوصف به عارضاً كما في الأعداد، لكنه قد أجرى صفة، وحكم ما ليس بخاص من الصفات لزوم التبعية، ولا يقع أحد تابعاً أصلاً إلا في نادر فلا تقول: جاءني رجل أحد كما تقول: رجل واحد ولا ما شابه ذلك فهذه فروق (ثلاثة) من جهة حكم اللفظ.

وأما الفرق من جهة المعنى فإن واحداً يقع على كل مفرد كان، مما يتصف بالعقل والعلم أو لا يتصف، تقول: رجل واحد وجمل واحد، وهذا خلاف حكم أحد فإنه لا يقع إلا لأولى العلم والعقل من الملائكة والإنس والجن.

وفرق ثان يستفاد من قول إمام الصنعة "سيبويه" رحمه الله: "ولا يجوز لأحد أن تضعه في موضع واجب، لو قلت كان أحد من آل فلان لم يجز لأنه إنما وقع في كلامهم نفيًا عاماً. يقول الرجل: أتاني رجل، يريد واحداً في العدد لا اثنين فيقال: ما أتاك رجل، أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول أتاني رجل لا امرأة فيقال: ما أتاك رجل، أي امرأة أتتك. ويقول: أتاني اليوم رجل، أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجل، أي أتاك الضعفاء. فإذا قال: ما أتاك أحد صار نفيًا عاماً لهذا كله"¹، وهو أنك تقول: ما جاءني رجل واحد فيحتمل ذلك ثلاث معان: أحدها أن

¹ - سيبويه - الكتاب : 55/1 .

تريد ما جاءني رجل واحد بل جاءني أكثر، والثاني أن تريد ما جاء رجل عناء وقوة بل جاء الضعفاء، والثالث أن تريد النفي العام أي ما جاءني رجل واحد ولا أكثر ولا قوي ولا ضعيف. والثالث أن تريد النفي العام أي ما جاءني رجل واحد ولا أكثر ولا قوي ولا ضعيف. فإذا قلت ما جاءني أحد لم يتحمل غير معنى واحد وهو النفي العام وهذا أوضح فارق بين لفظ واحد وأحد. فإن قال قائل: قد تقرر فرق ما بين لفظ واحد وأحد فما الحاصل المعتمد في معنى أحد ومقتضاه؟ قلت: معناه وحدة لا غيرية معها ولا اثنيية، وإليه يشير ما فسره به أهل اللغة، قال صاحب العين: الوحد المنفرد وهو أوجد في هذا الأمر أي منفرد. وقد استشعر الفرق بين المفسرين من قال: أحد بمعنى واحد فرد من جميع جهات الوجدانية: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: 11) وهو قول بعض جلة المفسرين وقد أحسن. أما اقتصاد الزمخشري على تراكبه في البيان وتوفر حظّه من علم اللسان على أن قال ك أحد بمعنى واحد وأصله وحد ولم يزد على هذا فغير مناسب لمسلكه. وقال بعض الأئمة الفرق بين أحد وواحد أن الواحد المنفرد بالذات والأحد المنفرد بالمعنى ومنه في أسمائه تعالى: الواحد - الأحد. وقيل واحد اسم لمفتاح العدد ومن جنسه وأحد لنفي ما يذكر معه من العدد، وقيل أحد يدل على محض الوحدة، ألا ترى أنه ناف لما يرد معه يريد في نحو قولك: ما أتاني أحد لانتقاء الواحد وما سواه، بخلاف قولك: ما أتاني واحد إذ قد يحتمل أن يراد أنه أتاك أكثر من واحد، وقد تقدم هذا، ولا يحتمل ذلك قولك: ما أتاني أحد. ومن المعلوم المطرد أن حكم اللفظ المنفي لا يغير موجب في غير ما اقتضته أداة النفي وأن يبقى الكلام فيما عدا حكم النفي على ما كان ولا يتغير منه شيء سوى انتقاله من الإيجاب إلى النفي، وكذلك الحكم في كل أداة تدخل على لفظ الواجب من تمنّ أو استفهام أو عرض أو غير ذلك، هكذا كلام العرب. ولفظ أحد لا يتناول بوضعه غير الوحدة فلو تكلم به في الواجب فقل جاءني أحد لكان معناه: أحد لا ثاني له بوجه، ولو قلت: جاءني واحد لم يلزم فيه ذلك بل كان يحتمل أن تريد: جاءني واحد يعتد به ويعتمد، ولم ينتف أن يجيء معه من لا يعتد به أو يعتمد عليه، إذ ليس يمنع بوضعه الزائد على واحد إذا غايره من حيث ذكر.

فإذا تقرر أن حكم أحد من مقتضى الوحدة ما ذكر، تبين أنه لا يتصور ولا يصح بمعناه في واجب حيث يراد المخلوق المحدث، لأن كلا من المخلوقات له النضير والمثيل، حتى إن المتباعدات والمتباينات متماثلة من حيث الافتقار وانسحاب سمات الحدوث ودلائل عدم

الاستقلال إلى غير ذلك من شواهد الحدوث، فكلها لا تتفك عن وجود النظراء والأنداد، فلم يصح وقوع لفظ أحد في كلام واجب يقع فيه لفظ أحد لمخلوق لما تبين، وصح ورود ذلك في حق الخالق جل جلاله لانفراده بالوحدانية وتنزيهه عن النظير والمثيل، فورد لفظ أحد حيث صح معناه من الكلام الواجب، وامتنع حيث لا يصح معناه. أما غير الواجب فيصح فيه معنى أحد لصحة معنى الكلام، لأنك إذا قلت: ما أتاني أحد انتفى كل ما يمكن وصفه بالإتيان بمقتضى العموم، فانتهى ما وقع عليه لفظ أحد وانتفى النظير والمثيل، وصح هذا في المخلوق. بخلاف أن لو قلت: أتاني أحد فإنك فيه تتكلم بما لا يصح معنى ولا يعقل، إذ ليس في المخلوقات من لا مثيل له.

فلما كان لفظ أحد بالنظر إلى المخلوقين يصح معناه في غير الواجب ورد من كلامهم حيث يصح معناه وامتنع حيث لا يستقيم معناه، ووضع قول أئمة اللسان أنه لا يرد في الواجب، يريدون في محاورات المخلوقين وتخاطبهم، إذ لا يصح معناه هناك، فأما في حق الخالق جل جلاله فهو موضعه الذي يصح فيه ولا يتعداه، ولم يتعرض النحويون لعله امتناعه في الواجب، بل اكتفوا بتقرير السماع من غير تعرض للعلة، إذ لا يبنى لهم على ذلك قانون تتسع جهاته وتنتشر مسائلة. وإذ وضحت العلة تبين وجه وروده في السورة الكريمة، ولم يحتج إلى ادعاء اشتراك ولا تأويل، والله أعلم.¹

المطلب الثاني : الحق

لم يرد اسمه " الحق " إلا مقترنا بغيره من الأسماء : الله والمولى الربّ والملك وجاء قبلها القاهر وبعدها القدير والعلي الكبير ورب العرش الكريم ومسبوقا ومتلوا بذكر الحقّ وصفا لغير الله وهذا لمن يمعن التدبر مستعينا بالحق تبارك وتعالى تعنّ له لطائف المعارف من حدائق دقائق الحقائق ، فالمولى الذي يلي الأمور ولا يليها إلا القدير ولا يقدر كل القدرة إلاّ العلي الكبير ربّ العرش الكريم الواسع القاهر فوق عباده فهذا هو الرب الملك الحقيق بتولي كل الأمور ألا وهو

¹ - ينظر : ابن الزبير الثقفي الغرناطي - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه المتشابه للفظ من آي

التنزيل: 513 / 2 - 514 .

الله الحق ولكن كل هذه الحقائق كذب بها كثير من الخلائق ولا بد أن تحقيق بهم في يوم لا محالة لاحق ، ولا ينفعهم مولى ولا نصير من دون مولاهم الحق وهذا أوان إيراد الآي :

1 - قوله : " ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62) " وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : { وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّقْتَهُ رُسُلُنَا لَهُمْ لَا يَفْرَطُونَ } (الأنعام آية 61) ومعنى الآيتين الكريمتين : أن الله تعالى فوق عرشه الذي هو أكبر مخلوقاته قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء يرسل ملائكته يحفظون عباده، حتى إذا حان أجل أحدهم توفته الملائكة الموكلون بذلك، ولا يجاوزون الحد فيما أمروا به من الإكرام والإهانة، فإن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين. ثم بعد الحشر ترد الخلائق إلى الله مولاهم الحق أي مالكمهم الذي يلي أمورهم فيحكم فيهم بعدله، وهو أسرع الحاسبين لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر الروية والتدبر وقد سبقت الآية بذكر الحق مرادا به كتابه ودينه : وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (55) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا اتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57) إضافة إلى ذلك ففي قوله خير الفاصلين تمكين بياني في البديع لتتوافق الفواصل : المجرمين - المهتدين - خير الفاصلين . واللطفية البيانية في قوله " وهو أسرع الحاسبين " في التذليل لأجل التكميل لأنه ذكر استعجال المشركين للحساب في موضعين في الآية (57) وفي (58) : قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) وفيه تمكين للفواصل قبل هذه الآية : أعلم بالضالمين - في كتاب مبين - أسرع الحاسبين ، وتليت بذكره : " وكذب به قومك وهو الحق قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَاٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) الأنعام .

2 - " هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30) " يونس : أي في ذلك المكان وفي ذلك الموقف تلبوا أي تذوق وتختبر كل نفس جزاء ما

أسلفت من العمل، ورد المشركين بعد ذلك إلى الله مولاهم الحق أي إلى ربهم الملك الحق¹ الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، وضاع وبطل ما كانوا يفترون، من أن الآلهة التي لهم حقيقة بالعبادة لتشفع لهم إلى الله وتقربهم إليه ، فمن أسلف نقيض الحق بمخالفة شرعة المعبود الحق في دار لبس فيها الباطل بالحق فتولّى فيها غيره بغير وجه حق فيوم يحشر الناس إلى دار الملك الحق عين الحق أن لا يصير الضال عن الحق في نعيم أهل الحق .

والآيات الآتية شاهدة لما ذكرنا :

"فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32)" [يونس] ووتتلون غير ربكم الذي يملك وحده حقاً وعدلاً نواصيكم .

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) [طه] هذا ذكر الملك صراحة .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) [الحج] هذه أوصاف الملك من الإحياء والإماتة والقدرة على كل شيء والعلو والكبرياء

وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) [المؤمنون] لأن أهواءهم مختلفة والحق واحد لا يتعدد .

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116): المؤمنون .

¹ - يراد بالمولى - مقترنا بالمؤمنين : الناصر والولي : (الله مولى الذين آمنوا) (وأن الكافرين لا مولى لهم) أي لا ناصر يدفع عنهم كما يؤخذ من مقابله، وهذا لا يخالف قوله (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق)، فإن المولى فيه بمعنى المالك لا بمعنى الناصر. ينظر: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: 1307هـ) . فتح البيان في مقاصد القرآن - ت : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت عام النشر: 1412 هـ - 1992 م

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79): النمل : قال أهل التفسير أَنَّ الْحَقَّ الْمُبِينِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أُرِيدَ بِهِ الدِّينَ الْبَيِّنَ ، وَلَا عَجَبَ الْبَيِّنَةُ أَنْ يُوَصَفَ دِينَ اللَّهِ بِمَا وَصَفَ بِهِ اللَّهُ فِي آيَةِ النُّورِ : يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) ، لِأَنَّ الْحَقَّ الْبَيِّنَ الْمُبِينِ لَا يَشْرَعُ بِاطِّلا كَيْفَ " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ " الْأَنْعَامِ : 73.

المبحث الثاني : اقتران أسماء وصفات الربوبية فيما بينها

المطلب الأول : الخالق مع الوكيل والخالق مع العليم

الأنعام : ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) : قوله تعالى: ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْآيَةَ تَتَضَمَّنُ تَقْرِيرًا وَحَكْمًا إِخْلَاصًا أَمْرًا بِالْعِبَادَةِ وَإِعْلَامًا بِأَنَّهُ حَفِيزٌ رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ فِعْلٍ وَقَوْلٍ وَفِي هَذَا الْإِعْلَامِ تَخْوِيفٌ وَتَحْذِيرٌ لِمَنْ ذَكَرَهُمْ مِنْ قَبْلِ : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَدٌّ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ، وَقَدْ مَرَّتِ الْآيَةُ مَعَنَا .

الحجر : إِنْ رَبِّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ (86) : جَمَلَةٌ " إِنْ رَبِّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ " فِي مَوْقِعِ التَّعْلِيلِ لِأَمْرٍ بِالصَّفْحِ عَنْهُمْ ، أَيْ لِأَنَّ فِي الصَّفْحِ عَنْهُمْ مَصْلَحَةٌ لَكَ وَلَهُمْ يَعْلَمُهَا رَبُّكَ ، فَمَصْلَحَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّفْحِ هِيَ كَمَالُ أَخْلَاقِهِ ، وَمَصْلَحَتُهُمْ فِي الصَّفْحِ رَجَاءُ إِيمَانِهِمْ ، فَاللَّهُ الْخَالِقُ لَكُمْ وَلَهُمْ وَلِنَفْسِكَ وَأَنْفُسِهِمْ ، الْعَلِيمُ بِمَا يَأْتِيهِ مِنْكُمْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ [سورة فاطر : 8] .

ومناسبة لقوله تعالى: وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) ظاهرة. وفي وصفه بالخالق العليم إيماء إلى بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله يخلق من أولئك من يعلم أنهم يكونون أولياء للنبي صلى الله عليه وسلم وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين

ولدوا، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده»، وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذنين للنبي صلى الله عليه وسلم: دعاني داع غير نفسي وردني ... إلى الله من أطردته كل مطرد يعني بالداعي النبي صلى الله عليه وسلم.

وتلك هي نكتة ذكر وصف الخلاق دون غيره من الأسماء الحسنى. يس : أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم (81) : في هذه الجملة تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض .

الزمر : اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون (63) قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (64) : قوله تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ كلام مستأنف دال على الوجدانية، وهو عموم معناه الخصوص ، والوكيل: القائم على الأمر، الزعيم بإكماله وتتميمه ، و استئناف ابتدائي تمهيد لقوله: قل أغير الله تأمروني أعبد [الزمر: 64] في ذكر تمسك الرسول صلى الله عليه وسلم والرسل من قبله بالتوحيد ونبذ الشرك والبراءة منه والتصلب في مقاومته والتصميم على قطع دابره، وجعلت الجمل الثلاث من قوله: الله خالق كل شيء إلى قوله: السماوات والأرض مقدمات تؤيد ما يجيء بعدها من قوله: قل أغير الله تأمروني أعبد [الزمر: 64] .

وقد اشتمل هذا الاستئناف ومعطوفاته على ثلاث جمل وجملة رابعة: فالجملة الأولى: الله خالق كل شيء وهذه الجملة أدخلت كل موجود في أنه مخلوق لله تعالى، فهو ولي التصرف فيه والمقصود من هذا إثبات حقيقة، وإلزام الناس بتوحيده لأنه خالقهم، وليس في هذا قصد ثناء ولا تعظيم، والمقصود من هذه المقدمة تذكير الناس بأنهم جميعا هم وما معهم عبيد لله وحده ليس لغيره منة عليهم بالإيجاد.

الجملة الثانية: وهو على كل شيء وكيل وجيء بها معطوفة لأن مدلولها مغاير لمدلول التي قبلها. والوكيل المتصرف في شيء بدون تعقب ولما لم يعلق بذلك الوصف شيء علم أنه موكل إليه جنس التصرف وحقيقته التي تعم جميع أفراد ما يتصرف فيه، فعم تصرفه أحوال

جميع الموجودات من تقدير الأعمال والآجال والحركات، وهذه المقدمة تقتضي الاحتياج إليه بالإمداد فهم بعد أن أوجدتهم لم يستغنوا عنه لمحة ما.

الجملة الثالثة: له مقاليد السماوات والأرض وحيء بها مفصولة لأنها تفيد بيان الجملة التي قبلها فإن الوكيل على شيء يكون هو المتصرف في العطاء والمنع.

وهذه المقدمة تشير إلى أن الله هو معطي ما يشاء لمن يشاء من خلقه، ومن أعظم ذلك النبوءة وهدى الشريعة فإن جهل المشركين بذلك هو الذي جرأهم على أن أنكروا اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة دونهم، واختصاص أتباعه بالهدى فقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا [الأنعام: 53]. فهذه الجمل اشتملت على مقدمات ثلاث تقتضي كل واحدة منها دلالة على وحدانية الله بالخلق، ثم بالتصرف المطلق في مخلوقاته، ثم بوضع النظم والنواميس الفطرية والعقلية والتهديبية في نظام العالم وفي نظام البشر. وكل ذلك موجب توحيده وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم والاستمساك بعروته كما رشد بذلك أهل الإيمان.

فأما الجملة الرابعة وهي: والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون فتحتمل الاعتراض ولكن اقترانها بالواو بعد نظائرها يرجح أن تكون الواو فيها عاطفة وأنها مقصودة بالعطف على ما قبلها لأن فيها زيادة على مفاد الجملة قبلها، وتكون مقدمة رابعة للمقصود تجهيلاً للذين هم ضد المقصود من المقدمات فإن الاستدلال على الحق بإبطال ضده ضرب من ضروب الاستدلال. لأن الاستدلال يعود إلى ترغيب وتنفير فإذا كان الذين كفروا بآيات الله خاسرين لا جرم كان الذين آمنوا بآيات الله هم الفائزين، فهذه الجملة تقابل جملة وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم [الزمر: 61] المنتقل منها إلى هؤلاء الآيات، وهي مع ذلك مفيدة إنذارهم وتأفين آرائهم، لأن موقعها بعد دلائل الوحدانية وهي آيات دالة على أن الله واحد يقتضي التنديد عليهم في عدم الاهتداء بها.

ووصف الذين كفروا بآيات الله بأنهم الخاسرون لأنهم كفروا بآيات من له مقاليد خزائن الخير فعرضوا أنفسهم للحرمان مما في خزائنه وأعظمها خزائن خير الآخرة.

وآيات الله هي دلائل وجوده ووحدانيته التي أشارت إليها الجمل الثلاث السابقة.

والإخبار عن الذين كفروا باسم الإشارة للتنبيه عن أن المشار إليهم خسروا لأجل ما وصفوا به قبل اسم الإشارة وهو الكفر بآيات الله. وتوسط ضمير الفصل لإفادة حصر الخسارة فيهم وهو

قصر ادعائي بناء على عدم الاعتداد بخسارة غيرهم بالنسبة إلى خسارتهم فخسارتهم أعظم خسارة.¹

المطلب الثاني : السميع مع ما اقترن به " العليم ، البصير ، القريب

يلاحظ أن اسم (السميع) ورد مقترنا باسم (العليم) اثنتين وثلاثين مرة وعشر مرات مقترنا باسم (البصير) . ومرة واحدة باسم (القريب)

أما اقتران اسم (السميع) باسم (العليم) واسم (البصير) فإن سمعه مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم. فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء .

وأما اقتران اسم (السميع) باسم (القريب) ، وإضافته إلى الدعاء، فإنه سبحانه وهو فوق عرشه يسمع كل حركة وسكنة ولفظة من خلقه. وكل دعاء من عباده، فيجيب من يدعو له لشدة قربه منهم، فهو عليٌّ في قربه قريب في علوه. كما قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (البقرة آية 186) وكما قال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا مَا تُوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} (ق آية 16) ، وكما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته".

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (السميع العليم) : وقبل الشروع في بيان لطائف التعقيب نذكر لطيفة تقديم صفة السمع على العلم ذلك أن متعلقاتها وإن كانت غير متناهية إلا أنها ليست كتعلقات صفة العلم في الكثرة .

وتقدم السمع على العلم في الذكر حيث وقع هو من باب التقدم بالرتبة فإنه خبر يتضمن التخويف والتهديد فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب كالأصوات وهمس الحركات فإن من سمع حسك وخفي صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك أنه يعلم وإن كان علمه تعالى متعلقا بما ظهر وبطن وواقعا على ما قرب وشطن ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم، هذا وفي باب الدعاء لأن المدعو يسمع ثم لإحاطة علمه بحال الداعي الذي سمع دعاءه إن شاء أجاب وإن شاء منع .

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 54/24 - 55 - 56 ، و شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : 54/1 .

1- {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} البقرة:127: الجملة تعليلٌ لاستدعاء التَّقبُّلِ لا من حيثُ أن كونه تعالى سمعياً لدعائهما عليهما بنياتهما مصححٌ للتقبُّلِ في الجملة بل من حيثُ إنَّ علمه تعالى بصحة نياتهما وإخلاصهما في أعمالهما مستدعٍ له بموجبِ الوعدِ تفضُّلاً وتأكيداً الجملة لغرض كمالِ قوَّةِ يقينهما بمضمونها وقصرُ نعتي السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاصِ دعائهما به تعالى وانقطاعِ رجائهما عما سواه بالكلية .

2- {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} البقرة:137: تذييلٌ لما سبق من الوعدِ وتأكيدٌ له والمعنى أنه تعالى يسمع ما تدعون به ويعلم ما في نيتك من إظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك أو وعيد للكفرة أي يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم مما لا خير فيه وهو معاقبهم عليه ولا يخفى ما فيه من تأكيد الوعد السابق فإن وعيد الكفرة وعد للمؤمنين .

3- {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} آل عمران: 35 : لما كان حسن إجابة المهتوف به الملتجأ إليه على حسب إحاطة سمعه وعلمه عللت سؤالها في التَّقبُّلِ بأن قصرت السمع والعلم عليه سبحانه فقالت: {إنك أنت} أي وحدك {السميع العليم *} فقالت كما قال سلفها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام {ربنا تقبل منا} [البقرة: 127] ، أي فلا يسمع أحد قولي مثل سمعك، ولا يعلم أحد نيتي مثل علمك ولا أنا، فإن كان فيهما شيء لا يصلح فتجاوز عنه.

4- {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} المائدة 76 : قوله: {والله هو السميع العليم} «هو» : يجوز أن يكون مبتدأً ثانياً، و «السميع» خبره، و «العليم» خبر ثانٍ أو صفة، والجملة خبر الأول، ويجوز أن يكون فصلاً، وقد عُرف ما فيه، ويجوز أن يكون بدلاً. وهذه الجملة الظاهر فيها أنها لا محل لها من الإعراب، ويحتمل أن تكون في محل نصبٍ على الحال من فاعلِ «تَعْبُدُونَ» أي: أتعبدون غير الله والحال أن الله هو المستحق للعبادة لأنه يسمع كل شيء ويعلمه، وإليه ينحو كلامُ الزمخشري فإن قال: {والله هو السميع العليم} متعلق ب «أتعبدون» أي: أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون؟ أتعبدون العاجزَ واللَّهُ هو السميع العليم؟ انتهى. والرباطُ بين الحال

وصاحبها الواو، ومجيء هاتين الصفتين بعد هذا الكلام في غاية المناسبة، فإن السميع يسمع ما يُشكَى إليه من الضُرِّ وطلب النفع ويعلم موافعهما كيف يكونان؟¹

5- {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الأنعام 13: وَهُوَ السَّمِيعُ أَي الْمَبَالِغُ فِي سَمَاعِ كُلِّ مَسْمُوعٍ فَيَسْمَعُ هَوَاجِسَ كُلِّ مَا يَسْكُنُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الْعَلِيمُ أَي الْمَبَالِغُ فِي الْعِلْمِ بِكُلِّ مَعْلُومٍ مِنَ الْأَجْنَاسِ الْمَخْتَلِفَةِ وَالْجُمْلَةِ مَسْوُوقَةٌ لِإِبْرَاهِيمَ لِإِحْاطَةِ سَمْعِهِ وَعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ إِحْاطَةِ قُدْرَتِهِ جَلِّ شَأْنِهِ أَوْ لِلْوَعِيدِ عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَلِذَا خَصَّ السَّمْعَ وَالْعِلْمَ بِالذِّكْرِ.

6- {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الأنعام 115

7- {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الأنفال 61 : الأمر بالتوكل على الله، بعد الأمر بالجنوح إلى السلم، ليكون النبيء صلى الله عليه وسلم معتمدا في جميع شأنه على الله تعالى، ومفوضا إليه تسيير أموره، لتكون مدة السلم مدة تقوى واستعداد، وليكفيه الله شر عدوه إذا نقضوا العهد، ولذلك عقب الأمر بالتوكل بتذكيره بأن الله السميع العليم، أي السميع لكلامهم في العهد، العليم بضمايرهم، فهو يعاملهم على ما يعلم منهم. وقوله: فاجنح لها جيء بفعل اجنح لمشاكلة قوله جنحوا....

وطريق القصر في قوله: هو السميع العليم أفاد قصر معنى الكمال في السمع والعلم، أي: فهو سميع منهم ما لا تسمع ويعلم ما لا تعلم. وقصر هذين الوصفين بهذا المعنى على الله تعالى عقب الأمر بالتوكل عليه يفضي إلى الأمر بقصر التوكل عليه لا على غيره.

8- {وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} يونس 65 : جملة: هو السميع العليم مستأنفة وإجراء هذا الخبر على اسم الجلالة الواقع ركنا في الجملة التعليلية يجر معنى التعليل إلى هذه الجملة فتفيد الجملة تعليلا آخر أو تكملة للتعليل الأول، لأنه إذا تذكر المخاطب أن صاحب العزة يعلم أقوالهم وأحوالهم زاد ذلك قوة في دفع الحزن من أقوالهم عن نفسه لأن الذي نهاه عن الحزن من أقوالهم وتطوالهم أشد منهم قوة ومحيط علمه بما يقولونه وبأحوالهم. فهو إذا نهاك عن الحزن من أقوالهم ما نهاك إلا وقد ضمن لك السلامة منهم مع ضعفك وقوتهم لأنه يمدك بقوته وهو أعلم بتكوين أسباب نصرك عليهم.

¹ - ينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : 379/4 - 380 .

9- {فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} يوسف 34 : جملة إنه هو السميع العليم في موضع العلة ل فاستجاب المعطوف بفاء التعقيب، أي أجاب دعاءه بدون مهلة لأنه سريع الإجابة وعلیم بالضمائر الخالصة ، فالسمع مستعمل في إجابة المطلوب، يقال: سمع الله لمن حمده. وتأكيد به ضمير الفصل لتحقيق ذلك المعنى.

10- {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الأنبياء 4 : وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر «قل ربّي» ، وقرأ حمزة والكسائي «قال ربي يعلم» على معنى الخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، واختلف عن عاصم، قال الطبري رحمه وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الإهماز¹، وقوله تعالى {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أسروه من النجوى فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم اعتراضاً تذييلي مقرر لمضمون ما قبله متضمنٌ للوعيد

11- {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} الشعراء 220 : موقع إنه هو السميع العليم موقع التعليل للأمر ب قل في : " فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)، وللأمر ب : " وتوكل على العزيز الرحيم (217) ، فصفة السميع مناسبة للقول، وصفة العليم مناسبة للتوكل، أي إنه يسمع قولك ويعلم عزمك ، وضمير الفصل في قوله: هو السميع العليم للتقوية.

وليس بعيدا وجود لف ونشر في قوله : الذي يراك حين تقوم (218) وتقلبك في الساجدين (219) إنه هو السميع العليم (220) فالسميع نشر على الذي يراك حين تقوم في جوف الليل فهو يسمعك ، والعلیم نشر على : " وتقلبك في الساجدين " فهو يعلم ذلك حين كنت تتقلب من صلب نبي إلى آخر . والله أعلم .

12- {مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} العنكبوت 5 : {وهو السميع العليم} ولم يذكر صفة غيرهما، لأنه سبق القول في قوله: {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا} وسبق القول بقوله: {وهم لا يفتنون} وبقوله: {فليعلمن الله الذين صدقوا} وقوله: {أم حسب الذين يعملون السيئات} ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما يدرك بالبصر، ومنه ما لا يدرك به، والعلم يشملهما، فقال: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي يسمع ما قالوه، ويعلم من صدق فيما قال، ومن كذب أو علیم بما يعمل فيثيب ويعاقب.

¹ . ابن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : 73/4 .

13- {وَكَايِّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {العنكبوت 60
وجملة: وهو السميع العليم عطف على جملة: الله يرزقها وإياكم. فالمعنى:

الله يرزقكم وهو السميع لدعائكم العليم بما في نفوسكم من الإخلاص لله في أعمالكم وتوكلكم
ورجائكم منه الرزق.

14- {وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {فصلت 36 : وقال
تعالى : {وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {الأعراف 200 : وردت
الصفتان في سورة الأعراف على طريقة التكرير ووردتا في السورة الأخرى معرفتين وزيد قبلهما
الضمير الواقع فصلا فقليل: "إنه هو " وللسائل أن يسأل عن وجه التعريف والتكرير؟ وعن زيادة
الضمير؟

والجواب عن السؤالين: أن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من
الحجارة والخشب التي وبخوا بعبادتها في قوله في موضع آخر: "أتعبدون ما تتحنون " فوصفت
هنا بأنها لا تخلق شيئا ولا يستطيعون لهم نصرا "وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم
ينظرون إليك وهم لا يبصرون " فنفي عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة المشى وآلة البطش
بقوله: "ألم أرجل يمشون بها أم لهم أيدي يبطشون بها " ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شئ يلحقها
بشبه الأحياء فضلا عما فوق ذلك فورد الصفتان بقوله: "سميع عليم " موردا لم يتقدمه ما يوهم
صلاحية شئ من ذلك لغيره تعالى مما عبده من دونه مما قصد هنا ولا ذكر دعوى شئ من
ذلك من مدع فيستدعي ذلك التوهم مفهوما ينفية فجاء على ما يجب.

أما آية الأعراف فتقدم قبلها قوله تعالى: " ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعلمون " وقوله
تعالى: "وقيضنا لهم قرناء فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم " وقوله تعالى: "أرنا الذين أضلنا
من الجن والإنس " فحصل من هذا أن مضليهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن وكلا الصنفين
موصوف بالسمع والبصر وممن ينسب إليه علم بخلاف المقدم ذكر في الأعراف فلما تقدم في
سورة السجدة من يظن منه الغنى ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم ناسبه التعريف في الصفة
ليعطى بالمفهوم نفى ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضى
التخصيص فقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بدليل الخطاب فصار الكلام في
قوم أن لو قيل: الله هو السميع العليم لا غيره وأحرز الفصل بالضمير هذا المعنى مع إعطاء
المفهوم إياه ولم يكن ورود ما في سورة الأعراف من التكرير ليناسب الوارد متقدما في سورة

السجدة ولا التعريف الوارد في الصفتين العليتين في سورة السجدة ليناسب ما تقدم آية الأعراف ف جاء كل على ما يناسب والله أعلم.¹ هذا تخريج ابن الزبير الغرناطي رحمه الله .

أما ابن القيم فقال : " قال تعالى: {وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} وفي موضع آخر {إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} وقد تقدم أن السمع المراد به هاهنا سمع الإجابة لا مجرد السمع التام وتأمل سر القرآن الكريم كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة هو الدال على تأكيد النسبة واختصاصها وعرف الوصف بالألف واللام في سورة حم لاقتضاء المقام لهذا التأكيد وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه فإن الأمر بالاستعاذة في سورة حم وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم كما قال الله تعالى والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه وأن لا يسيء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وآثر الله تعالى وما عنده على حظه العاجل فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه: {وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} وأما في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان بل بالإعراض وهذا سهل على النفوس غير مستعص عليها فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال: {وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.²

15- {رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {الدخان} 6 : نذكر الآيات التي سبقت لتتضح نكتة التنزيل : حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) أي إن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة؛ لأن المحتاجين إما أن يذكروا حاجتهم بألسنتهم أول يذكروها فإن ذكروها فهو سميع، وإن لم يذكروها فهو تعالى عالمٌ بها.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (سميعاً عليماً)

¹ - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه المتشابه اللفظ من آي التنزيل : 1/ 223 .

² - بدائع الفوائد : 92/3 .

1- {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} النساء: 148: في التذييل بقوله : " وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا " تَحْذِيرٌ مِنَ التَّعَدِّي فِي الْجَهْرِ الْمَأْدُونِ فِيهِ، يَعْنِي: فَلْيَتَّقِ اللَّهُ وَلَا يَقُلْ إِلَّا الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُهُ، عَلِيمٌ بِمَا تُضْمِرُهُ، وَقِيلَ: سَمِيعٌ لِدُعَاءِ الْمَظْلُومِ، عَلِيمٌ بِعِقَابِ الظَّالِمِ. وذكر «عليما» بعد «سميعا» لقصد التعميم في العلم، تحذيرا من أن يظنوا أن الله غير عالم ببعض ما يصدر منهم.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (سميع عليم)

1- {فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة: 181: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ فيسمع أقوال المبدلين والموصين ويعلم بنياتهم فيجازيهم على وفقها ، وفي هذا وعيد للمبدلين ووعد للموصين.

2- {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة: 224 : قوله: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} حَتَمَ بِهِاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ لِنَقْدَمُ مَنَاسِبَتَهُمَا، فَإِنَّ الْحَلْفَ مَتَعَلِّقٌ بِالسَّمْعِ، وَإِرَادَةُ الْبِرِّ مِنْ فِعْلِ الْقَلْبِ مَتَعَلِّقَةٌ بِالْعِلْمِ. وَقَدَّمَ السَّمِيعَ لِنَقْدَمُ مَتَعَلِّقَهُ وَهُوَ الْحَلْفُ.

3- {لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة: 226-227، فحتم حكم الفاء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة والإحسان إليها، بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل، فكما رجع إلى التي هي أحسن، رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة: وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم، فإن الطلاق لما كان لفظاً يسمع ومعنى يقصد عقبه باسم السميع للنطق به العليم بمضمونه.

4- {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة: 244 : وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يسمع ما يقوله المتخلفون عن القتال والمتبادرون إليه ، ويعلم ما انطوت عليه النيات ، فيجازي على ذلك، ففيه وعد ووعيد .

5- {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة: 256 : لما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن في الصفات سَمِيعٌ من أجل النطق وَعَلِيمٌ من أجل المعتقد.

7- إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} آل عمران 34 : وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أي سميع لما يقوله الخلق ، عليم بما يضمرونه. أو : سميع لما تقوله امرأة عمران ، عليم بما تقصد. أو : سميع لما تقوله الذرية عليم بما تضرمه. ثلاثة أقوال.

وقال الزمخشري : عليم بمن يصلح للاصطفاء ، أو : يعلم أن بعضهم من بعض في الدين. انتهى.

قال أبو حيان : " والذي يظهر أن ختم هذه الآية بقوله وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مناسب لقوله آل إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ لأن إبراهيم عليه السلام دعا لآله في قوله : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ «1» بقوله : فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ «2» وحمد ربه تعالى فقال : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ «3» وقال مخبرا عن ربه : إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ «4» ثم دعا ربه بأن يجعله مقيم الصلاة وذريته ، وقال حين بنى هو وإسماعيل الكعبة رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا «5» إلى سائر ما دعا به حتى قوله : وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ «6» ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أنا دعوة إبراهيم».

فلما تقدمت من إبراهيم تضرعات وأدعية لربه تعالى في آله وذريته ، ناسب أن يختم بقوله : وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وكذلك آل عمران ، دعت امرأة عمران بقبول ما كانت نذرته لله تعالى ، فناسب أيضا ذكر الوصفين ، ولذلك حين ذكرت النذر ودعت بتقبله ، أخبرت عن ربه بأنه السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أي : السميع لدعائها ، العليم بصدق نيتها بنذرها ما في بطنها لله تعالى.¹

8- {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الأعراف 200 : مرّ قريبا التعليق عليها .

9- {قَلِمَ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الأنفال 17: وقوله: إن الله سميع عليم تذييل للكلام و (إن) هنا مفيدة للتعليل والربط أي فعل ذلك لأنه سميع عليم، فقد سمع دعاء المؤمنين واستغاثتهم وعلم أنهم أهل لعنايته ونصره فقبل دعاءهم ونصرهم.

10- {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ

¹ . البحر المحيط : 112/3 - 113 .

اللَّهِ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ { الأنفال 42 : وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ الواو استئنافية وان واسمها واللام المزحلقة وسميع خبر أول لإن وعليم خبر ثان .

والمعنى سميع عليم بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه ، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الكفر والإيمان على الاعتقاد والقول ، أما اشتمال الايمان على القول فظاهر لاشتراط إجراء الأحكام بكلمتي الشهادة ، وأما اشتمال الكفر عليه فبناء على المعتاد فيه أيضا .

11- { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نُّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ { الأنفال 53 : وقوله وَأَنَّ عَطْفَ عَلَى الْأُولَى، وَسَمِيعٌ عَلِيمٌ أَي لِكُلِّ وَبِكُلِّ مَا يَقَعُ مِنَ النَّاسِ فِي تَغْيِيرِ مَا بِأَنْفُسِهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ سِرٌّ وَلَا جَهْرٌ .

12- { وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ { التوبة : 98 : وجملة: والله سميع عليم تذييل، أي سميع ما يحتاجون به وما يدبرونه من التردد، عليم بما يبطنونه ويقصدون إخفائه فلا يخلو من الوعيد والتهديد .

13- { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ { التوبة 103: وجملة: والله سميع عليم تذييل مناسب للأمر بالدعاء لهم. والمراد بالسميع هنا المجيب للدعاء. وذكره للإشارة إلى قبول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم. ففيه إيماء إلى التتويه بدعائه.

وذكر العليم إيماء إلى أنه ما أمره بالدعاء لهم إلا لأن في دعائه لهم خيرا عظيما وصلاحا في الأمور.

14- { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ { النور 21 : قوله: والله سميع عليم تذييل بين الوعد والوعيد، أي سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبة إشاعتها، وسميع لمن ينكر على ذلك، عليم لما في نفسه من كراهة ذلك فيجازي كلا على عمله.

وإظهار اسم الجلالة فيه ليكون التذييل مستقلا بنفسه لأنه مما يجري مجرى المثل .

15- { وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ { النور 60 : جملة: والله سميع عليم مسوقة مساق التذييل للتحذير من التوسع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعا،

فوصف «السميع» تذكير بأنه يسمع ما تحدثن به أنفسهن من المقاصد، ووصف «العليم» تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب وتبرجهن ونحوها

16- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الحجرات1: جملة إن الله سميع عليم في موضع العلة للنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله وللأمر بتقوى الله.

والمعنى إنَّ اللهَ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ ، عَلِيمٌ بِنِيَاتِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ.

والعليم أعم وذكرها بين الصفتين كناية عن التحذير من المخالفة ففي ذلك تأكيد للنهي والأمر.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (سميعاً بصيراً)

1- {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} النساء58 : أي: إذا حكمت بالعدل، فهو يسمع ذلك، لأنَّه سَمِيعٌ لِكُلِّ الْمَسْمُوعَاتِ، وَإِنْ أَدَيْتَ الْأَمَانَةَ، فَهُوَ بَصِيرٌ بِكُلِّ الْمَبْصُرَاتِ يَبْصُرُ ذَلِكَ، وَهَذَا أَعْظَمُ أَسْبَابِ الْوَعْدِ لِلْمَطِيعِ، وَأَعْظَمُ أَسْبَابِ الْوَعِيدِ لِلْعَاصِي. وإليه الإشارة بقوله - عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» .

2- {مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} النساء 134 : {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} : في ضمن هذا التذييل : أتى أسمع ما يردون به عليك وما يقابلون به رسالاتي وأبصر ما يفعلون ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان أحدهما قابلوها بقولهم صدقت ثم عملوا بموجبها والثاني قابلوها بالتكذيب ثم عملوا بخلافها فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: لموسى {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} (طه : 46)، هو يسمع ما يجيبهم به ويرى ما يصنعه ، وهذا لا يعم سائر المواضع بل يختص منها بما هذا شأنه والسبب الثاني أن إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين السامع والمسموع أشد من إنكارها لرؤيته مع بعده وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: "اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول فقال: الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا" رواه البخاري ومسلم والترمذي ولم يقولوا أترون الله يرانا فكان تقديم السمع أهم والحاجة إلى العلم به أمس وسبب ثالث وهو أن حركة اللسان بالكلام أعظم حركات الجوارح وأشدّها تأثيراً في الخير

والشر والصلاح والفساد بل عامة ما يترتب في الوجود من الأفعال إنما ينشأ بعد حركة اللسان فكأن تقديم الصفة المتعلقة به أهم وأولى وبهذا يعلم تقديمه على العليم حيث وقع .¹

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (السميع البصير)

1 - {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} {الإسراء: 1} قال الألوسي رحمه الله : على تقدير كون الضمير له تعالى كما هو الأظهر وعليه الأكثر فليطابق قوله تعالى : بِعَبْدِهِ ويرشح ذلك الاختصاص بما يوقع هذا الالتفات أحسن مواقعه وينطبق عليه التعليل أتم انطباق إذا لمعنى قربه وخصه بهذه الكرامة لأنه سبحانه مطلع على أحواله عالم باستحقاقه لهذا المقام ، قال الطيبي : إنه هو السميع لأقوال ذلك العبد البصير بأفعاله بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الهوى مقرونة بالصدق والصفاء مستأهلة للقرب والزلفى ، وأما على تقدير كون الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو البقاء عن بعضهم وقال : أي السميع لكلامنا البصير لذاتنا وقال الجلي : إنه لا يبعد ، والمعنى عليه إن عبدي الذي شرفته بهذا التشريف هو المستأهل له فإنه السميع لأوامري ونواهي العامل بهما البصير الذي ينظر بنظرة العبرة في مخلوقاتي فيعتبر أو البصير بالآيات التي أريناها إياها كقوله تعالى ما زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى [النجم : 17] فقيل لمطابقة الضمائر العائدة عليه وكذا لما عبر به عنه من قوله سبحانه : «عبده» ، وقيل : للإشارة إلى اختصاصه صلى الله عليه وسلم بالمنح والزلفى وغيوبة شهوده في عين بي يسمع وبني يبصر ، ولا يمتنع إطلاق السميع والبصير على غيره تعالى كما توهم لا مطلقا ولا هنا ، قال الطيبي : ولعل السر في مجيء الضمير محتملا للأمرين الإشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم إنما رأى رب العزة وسمع كلامه به سبحانه كما في الحديث المشار إليه أنفا فافهم تسمع وتبصر ، وتوسط ضمير الفصل إما لأن سماعه تعالى بلا إذن وبصره بلا عين على نحو لا يشاركه فيه تعالى أحد وإما للإشعار باختصاصه صلى الله عليه وسلم بتلك الكرامة.²

ولله الحمد ، التذليل على المعنيين غصة في حلق كل معطل فإذا عاد الضمير لله فهو إثبات لسمعه وبصره من غير تشبيه ولا تمثيل وإن عاد للرسول ففيه إثبات لرؤيته الله فيكون شوكة في أبصار الجهمية العميان وفيه إثبات للإسراء بالجسد والروح على فرض رؤيته لآيات الله لا لله .

¹ - ابن القيم - بدائع الفوائد : 81/1 - 82 .

² - روح المعاني : 15/8 .

لأن النكتة في ذكر البصير الإشارة إلى الإسراء بالجسد ليبصر النبي بعينه لا في منامه وزعم ابن عطية أن قوله تعالى : إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وعيد للكفار على تكذيبهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمر الإسراء أي إنه هو السميع لما تقولون أيها المكذبون البصير بما تفعلون فيعاقبكم على ذلك.¹

2- {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَفْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} غافر 20 : تقرير لسمعته و بصره لعلمه وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتوسيط ضمير الفصل مفيد للقصر وهو تعريض بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر فكيف ينسبون إليها الإلهية، وإثبات المبالغة في السمع والبصر لله تعالى يقرر معنى يقضي بالحق .
3- {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} غافر 56 : ولما كان المستعاذ منه في سورة حم المؤمن هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر قال : إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم بباليغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير، فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عيانا قال : إنه هو السميع البصير .

4- {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الشورى 11 : قال ابن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) معناه ليس له نظير «وهو السميع البصير» أي سامعاً للمسموعات بصيراً للمرئيات.

فإن قيل: قوله: {وهو السميع البصير} يفيد الحصر، فما معنى هذا الحصر مع العباد أيضاً موصوفون بكمونهم سميعين بصيرين؟! .

فالجواب: «السمعي البصير» لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال والكمال في كل الصفات وليس إلا الله، فهذا هو المراد من هذا الحصر.²
الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (سميع بصير)

¹ - المحرر الوجيز : 436/3 .

² - أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي - اللباب في علوم الكتاب : 175/17 .

1 - {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {الحج 61} : هذه الآية جاءت ضمن خمس آيات ذيلت بأسمائه تعالى في أكثر سور القرآن استفتاء لأسمائه وصفاته : وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَفُورٌ (60) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) : فقوله : {وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} أي: أنه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، فكذلك يدرك المسموع والمبصر، ولا يجوز المنع عليه، وذلك كالتحذير من الإقدام على ما لا يجوز في المسموع والمبصر وفي الآية لف ونشر لطيف حيث لفّ الليل والنهار ونشر عليهما سميع وبصير في كليهما .

2- {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {الحج 75} : تعليل لمضمون جملة الله يصطفي لأن المحيط سمعه وبصره و علمه بالأشياء هو الذي يختص بالاصطفاء. وليس لأهل العقول ما بلغت بهم عقولهم من الفطنة والاختيار أن يطلعوا على خفايا الأمور فيصلطوا للمقامات العليا من قد تخفى عنهم نقائصهم بله اصطفاء الحجارة الصماء.

3- {مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنُكُمُ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {لقمان 28} : ما أشبه سياق هذه الآيات بسياق آيات وقد مضى التعليق عليها .

4- {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {المجادلة 1} : سميع لما تتاجيه وتتضرع إليه بصير بمن يشكوا إليه ، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله، عز وجل: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} إلى آخر الآية¹

¹ . المسند (46/6) .

وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقا فقال: وقال الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة، فذكره¹ وأخرجه النسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من غير وجه، عن الأعمش، به². هذا قول أهل الأثر .

وليت شعري كيف صَوَّغَ النظر لمن يزعم أنه أهله حتى أول في هذه سمع بمعنى استجاب قال ابن عاشور : والسماع في قوله: سمع معناه الاستجابة للمطلوب وقبوله بقرينة دخول قد التوقعية عليه فإن المتوقع هو استجابة شكواها³. فكيف يصنع بقوله : " والله يسمع تحاوركما " الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (سميع قريب)

{قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ } سبأ50 : هذا نص صريح في أن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحصل بالوحي ، فيا عجا ! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة قوله «سميع» أي يسمع إذا ناديته واستغنت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير ليس كمن يسمع من بعيد ولا يلحق الداعي.

وقد اقترن القريب بالمجيب : وَالْيَ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قال شيخ الإسلام : ليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب من كل شيء أصلا بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام؛ كقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} فهو سبحانه قريب ممن دعاه. وكذلك ما في " الصحيحين " {عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير؛ فقال: يا أيها الناس؛ اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته} فقال: " إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم " لم يقل إنه قريب إلى كل موجود وكذلك قول صالح عليه السلام {فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب} هو كقول شعيب {واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود} ومعلوم أن قوله {قريب مجيب} مقرون بالتوبة والاستغفار أراد به قريب مجيب لاستغفار المستغفرين

1 - صحيح البخاري برقم (7385)

2 - سنن النسائي الكبرى برقم (11570) وسنن ابن ماجه برقم (188) وتفسير الطبري (5/28) .

3 - التحرير والتنوير : 06/28 .

التائبين إليه كما أنه رحيم ودود بهم وقد قرن القريب بالمجيب. ومعلوم أنه لا يقال إنه مجيب لكل موجود وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه فكذلك قربه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة كاسمه: السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب لا يجب أن تتعلق بكل موجود؛ بل يتعلق كل اسم بما يناسبه واسمه العليم لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوماً تعلق بكل شيء.¹

المطلب الثالث : الخبير مع ما اقترن به : العليم، الحي، الرحمن، الحكيم، اللطيف ، البصير

اقترن الخبير مع العليم نكرتين رفعا مرتان ونصبا مرة ، ومعرفتين رفعا مرة ، ونكرة بعد الحي والرحمن والحكيم مرة ونكرة مع اللطيف ثلاث مرات وفي كل هذه الآي سبقتة هذه الأسماء ، وسبق في اقترانه بالبصير خمس مرات نكرتين رفعا في ثنتين ونصبا في ثلاث :

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا / النساء (35) : يعلم ما يقصد الحكمان ، وكيف يوفقا بين المختلفين ، ويخبر خفايا ما ينطقان به في أمر الزوجين.

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ / لقمان (34) : لما خصص أولاً علمه بالأشياء المذكورة بقوله: {إن الله عنده علم الساعة} ذكر أن علمه غير مختص بل هو عليم مطلقاً بكل شيء وليس علمه بظاهر الأشياء فقط بل هو خبير بظواهر الأشياء وبواطنها.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ / الحجرات (13) : أي عليم بظواهركم يعلم أنسابكم خبير ببواطنكم لا يخفى عليه أسراركم فاجعلوا التقوى زادكم.

{وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ } التحريم 3 : قال ابن عاشور : وإيثار وصفي العليم الخبير هنا دون الاسم العلم لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علما وخبرا بكل شيء.

¹ - مجموع الفتاوى : 493/5 .

والعليم: القوي العلم وهو في أسمائه تعالى دال على أكمل العلم، أي العلم المحيط بكل معلوم. والخبير: أخص من العليم لأنه مشتق من خبر الشيء إذا أحاط بمعانيه ودخائله ولذلك يقال خبرته، أي بلوته وتطلعت بواطن أمره فيتضح أن اتباع وصف العليم بوصف الخبير إيماء إلى أن الله علم دخيلة المخاطبة وما قصدته من إفشاء السر للأخرى.¹

الر كتابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمِ خَبِيرٍ / هود(1) : وَحَكِيمٍ أَي مُحْكَمٍ، وَخَبِيرٍ أَي ذُو خَبْرَةٍ بِالْأُمُورِ أَجْمَعِ وَفِي قَوْلِهِ: مِنْ لَدُنْ حَكِيمِ خَبِيرٍ لَفٌّ وَتَشْرُّ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَحْكَمَهَا حَكِيمٌ وَفَصَّلَهَا خَبِيرٌ عَالِمٌ بِمَوَاقِعِ الْأُمُورِ. ثم بين التفصيل فقال {ألا تعبدوا إلا الله} فهذا فصل الألوهية ثم قال {إنني لكم منه نذير وبشير} وهذا فصل النبوة ثم قال: {وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه} فهذا فصل التكليف وما وراءه من الوعد والوعيد .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ/ الحج (63) : قال الألوسي رحمه الله : " إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ أَي مُتَفَضِّلٌ عَلَى الْعِبَادِ بِإِيصَالِ مَنَافِعِهِمْ إِلَيْهِمْ بِرَفْقٍ وَمِنْ ذَلِكَ إِنْزَالُ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وَاحْضِرَارُ الْأَرْضِ بِسَبَبِهِ خَبِيرٌ أَي عَلِيمٌ بِدِقَائِقِ الْأُمُورِ وَمِنْهَا مَقَادِيرُ مَصَالِحِ عِبَادِهِ.

وقال ابن عباس : لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط ، وقال مقاتل : لطيف باستخراج النبات خبير بكيفية خلقه ، وقال الكلبي : لطيف بأفعاله بأعمال عباده ، وقال ابن عطية : اللطيف هو المحكم للأمر برفق ، ونقل الآمدي أنه العالم بالخفيات ، وأنت تعلم أنه المعنى المشهور للخبير ، وفسره بعضهم بالمخبر ولا يناسب المقام كتفسير اللطيف بما لا تدركه الحاسة.² وجملة إن الله لطيف خبير في موقع التعليل للإنزال، أي أنزل الماء المتفرع

عليه الاضرار لأنه لطيف، أي رفيق بمخلوقاته، ولأنه عليم بترتيب المسببات على أسبابها. يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ/ لقمان (16) : - يجوز أن تكون من كلام لقمان فهي كالمقصد من المقدمة أو كالنتيجة من الدليل، ولذلك فصلت ولم تعطف لأن النتيجة كبدل الاشتمال يشتمل عليها القياس ولذلك جيء بالنتيجة كلية بعد الاستدلال بجزئية. وإنما لم نجعلها تعليلاً

¹ - التحرير والتنوير : 28 / 354 .

² - روح المعاني : 183/9 .

لأن مقام تعليم لقمان ابنه يقتضي أن الابن جاهل بهذه الحقائق، وشرط التعليل أن يكون مسلماً معلوماً قبل العلم بالمعلل ليصح الاستدلال به.

- ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان تعليماً من الله للمسلمين.

واللطيف: من يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق، فهو وصف مؤذن بالعلم والقدرة الكاملين، أي يعلم ويقدر وينفذ قدرته، وتقدم في قوله وهو اللطيف الخبير في سورة الأنعام [103]. ففي تعقيب يأتي بها الله بوصفه ب (اللطيف) إيماء إلى أن التمكن منها وامتلاكها بكيفية دقيقة تناسب فلق الصخرة واستخراج الخردلة منها مع سلامتهما وسلامة ما اتصل بهما من اختلال نظام صنعه. وهنا قد استوفى أصول الاعتقاد الصحيح.

{وَأذْكَرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} {الأحزاب 34} : جملة إن الله كان لطيفاً خبيراً تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة. والتعليل صالح لمحاميل الأمر كلها لأن اللطف يقتضي إساءة النفع بكيفية لا تشق على المسدى إليه.

وفيما وجه إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر والنهي ما هو صلاح لهن وإجراء للخير بواسطتهن، وكذلك في تيسيره إياهن لمعاشرة الرسول عليه الصلاة والسلام وجعلهن أهل بيوته، وفي إعدادهن لسماع القرآن وفهمه، ومشاهدة الهدى النبوي، كل ذلك لطف لهن هو الباعث على ما وجهه إليهن من الخطاب ليتلقين الخبر ويبلغنه، ولأن الخبير، أي العليم إذا أراد أن يذهب عنهن الرجس ويظهرهن حصل مراده تاماً لا خلل ولا غفلة، فمعنى الجملة أنه تعالى موصوف باللطف والعلم كما دل عليه فعل كان فيشمل عموم لطفه وعلمه لطفه بهن وعلمه بما فيه نفعهن.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (خبير بصير)

1- {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} {الإسراء 17} : {وكفى بِرَبِّكَ} أي كفى ربك {بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادئ الأعمال الظاهرة أو لعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات أيضاً وفيه إشارة إلى أن البعث والأمر وما يتلوها من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فإن ذلك حاصل قبل ذلك وإنما هو لقطع الأعدار وإلزام الحجة من كل وجه

2- {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} الإسراء 30 : إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا أَي خَبِيرًا بَصِيرًا بِمَن يَسْتَحِقُّ الغِنَى وَيَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «إِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ» وَقَدْ يَكُونُ الْغِنَى فِي حَقِّ بَعْضِ النَّاسِ اسْتِدْرَاجًا، وَالْفَقْرُ عُقُوبَةً، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ هَذَا وَهَذَا.

3- {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} الإسراء 96 : يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُجَّةِ عَلَى قَوْمِهِ فِي صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ: أَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ، عَالِمٌ بِمَا جِئْتُمْ بِهِ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَا لَانْتَقَمَ مِنِّي أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [الْحَاقَّة: 44- 46] . وَقَوْلُهُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا أَي عَلِيمًا بِهِمْ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِنْعَامَ وَالْإِحْسَانَ وَالْهَدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الشَّقَاءَ وَالْإِضْلَالَ وَالْإِزَاغَةَ، وَجَمَلَةٌ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا تَعْلِيلٌ لِلَاكْتِفَاءِ بِهِ تَعَالَى وَلِهَذَا قَالَ: " وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) .

4- {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} فاطر 31 : " إِنْ اللهُ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ " تَذْيِيلٌ جَامِعٌ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَاتُ قَبْلَهُ مِنْ تَفْضِيلِ بَعْضِ عِبَادِ اللهِ عَلَى بَعْضٍ وَمِنْ انْطَوَاءِ ضَمَائِرِهِمْ عَلَى الْخَشْيَةِ وَعَدَمِهَا، وَإِقْبَالَ بَعْضِهِمْ عَلَى الطَّاعَاتِ وَإِعْرَاضِ بَعْضٍ، وَمِنْ تَفْضِيلِ بَعْضِ كُتُبِ اللهِ عَلَى بَعْضِ الْمَقْتَضِي أَيْضًا تَفْضِيلِ بَعْضِ الْمُرْسَلِينَ بِهَا عَلَى بَعْضٍ، فَمَوْقِعُ قَوْلِهِ: إِنْ اللهُ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ مَوْقِعُ إِقْنَاعِ السَّامِعِينَ بِأَنَّ اللهُ عَلِيمٌ بِعِبَادِهِ وَهُوَ يَعَامِلُهُمْ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنْهُمْ، وَيَصْطَفِي مِنْهُمْ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ خَلَقَهُ كَفْنَا لِاصْطِفَائِهِ، فَأَلْقَمَ بِهِذَا الَّذِينَ قَالُوا: أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا [ص: 8] حَجْرًا، وَكَأَوْلَيْكَ أَيْضًا الَّذِينَ يَنْكُرُونَ الْقُرْآنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْلَةٌ أَنَّهُ جَاءَ مَبْطَلًا لِكِتَابِهِمْ.

والخبير: العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفية. والبصير: المبصر للأمور المبصرة. وتقديم الخبير على البصير لأنه أشمل. وذكر البصير عقبه للعناية بالأعمال التي هي من المبصرات وهي غالب شرائع الإسلام، وقد تكرر إرداف الخبير بالبصير في مواضع كثيرة من القرآن ، والتأكيد ب إن واللام للاهتمام بالمقصود من هذا الخبر.

2- {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} الشورى 27 : محيط بخفايا أموالهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم ما يليق بشأنهم فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا ورؤي أن أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت وقيل نزلت في العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعوا .

المطلب الرابع : العليم مع ما اقترن به " الحكيم ، الفتاح ، الواسع ، والأول والآخر والظاهر والباطن

صفتا الحكمة والعلم هما مصدر الخلق والأمر ، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته ، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال ، فالعلم يتضمن الحياة و لوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام ، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر ، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها ، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب .

1- {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} البقرة : 32: " أنت " يحتمل ثلاثة أوجه، أن يكون تأكيداً لاسم إن فيكون منصوب المحل، وأن يكون مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر إن، وأن يكون فصلاً وفيه الخلاف المشهور، وهل له محل إعراب أم لا؟ وإذا قيل: إن له محلاً، فهل بإعراب ما قبله كقول الفراء فيكون في محل نصب، أو بإعراب ما بعده، فيكون في محل رفع كقول الكسائي؟ وأنت في إنك أنت العليم الحكيم ضمير فصل، وتوسطه من صيغ القصر فالمعنى قصر العلم والحكمة على الله قصر قلب لردهم اعتقادهم أنفسهم أنهم على جانب من علم وحكمة حين راجعوا بقولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها [البقرة: 30] أو تنزيلهم منزلة من يعتقد ذلك على الاحتمالين المتقدمين، أو هو قصر حقيقي ادعائي مراد منه قصر كمال العلم والحكمة عليه تعالى.

و «الحكيم» خبر ثانٍ أو صفة للعليم، وهما فعيل بمعنى فاعل، وفيهما من المبالغة ما ليس فيه.

والحكم لغة: الإتقان والمنع من الخروج عن الإرادة، ومنه حكمة الدابة وقال جرير:

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكِمُوا سَفَهَاءَكُمْ ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا

وَقَدَّمَ «العليم» على «الحكيم» لأنه هو المتصلُّ به في قوله: «عَلَّمَ» وقوله: «لَا عَلَّمَ لَنَا» ،
فَنَاسَبَ اتِّصَالَهُ بِهِ، وَلِأَنَّ الْحِكْمَةَ نَاشِئَةٌ عَنِ الْعِلْمِ وَأَثَرٌ لَهُ، وَكَثِيرًا مَا تُقَدَّمُ صِفَةُ الْعِلْمِ عَلَيْهَا،
وَالْحَكِيمُ صِفَةٌ ذَاتِ إِنْ فُسِّرَ بِذِي الْحِكْمَةِ، وَصِفَةٌ فِعْلٍ إِنْ فُسِّرَ بِأَنَّهُ الْمُحْكَمُ لَصْنَعَتِهِ.¹

2- {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} يوسف : 83 : قال سيدنا يعقوب : " إنه هو العليم الحكيم " تعليلا لرجائه من
الله بأن الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرقة. حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم
بعد التفرق.

3- {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَعَلْنَا رَبِّيَ حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ
الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} يوسف : 100 : إن
ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم : جملة إنه هو العليم الحكيم مستأنفة أيضا أو
تعليل لجملة إن ربي لطيف لما يشاء. وحرف التوكيد للاهتمام، وتوسيط ضمير الفصل للتقوية
فقد أخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس واسمه اللطيف يتضمن
علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية ومنه التلطف كما قال أهل الكهف
"وليتلطف ولا يشعرون بكم أحدا" فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه والقاءه في
السجن وبيعه رقيقا ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محنا ومصائب
وباطنها نعمًا وفتحًا جعلها الله سببا لسعادته في الدنيا والآخرة ، ومن هذا الباب ما يبتلّي به
عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها
إلى سعادتهم في العاجل والآجل وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وهذا كله مما
يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة التي لا تتركها
عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة والتعرف إلى عباده بأسمائه
وصفاته فكم في أكل آدم من الشجرة التي نهى عنها وإخراجها بسببها من الجنة من حكمه بالغة
لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها .

¹ - ينظر : السمين الحلبي - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : 267 .

4- { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (1) {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} {التحرير: 2: وهذا الاستفهام استفهام إنكار يتضمن النهي؛ فإن الله لا يستفهم لطلب الفهم والعلم فإنه بكل شيء عليم؛ ولكن مثل هذا يسميه أهل العربية " استفهام إنكار " واستفهام الإنكار يكون بتضمن الإنكار مضمون الجملة: إما إنكار نفي إن كان مضمونها خبرا وإما إنكار نهي إن كان مضمونها إنشاء. والكلام إما خبر وإما إنشاء. ، فوجه الدلالة في قوله : { قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم } أن هذا نص عام في كل يمين يحلف بها المسلمون أن الله قد فرض لها تحلة وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة بعد تقدم الخطاب بصيغة الأفراد للنبي مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة لكان مخالفا للآية كيف وهذا عام لم تخص منه صورة واحدة لا بنص ولا بإجماع بل هو عام عموما معنويا مع عموم اللفظي فإن اليمين معقودة توجب منع المكلف من الفعل فشرع التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة ، وبهذا تعلم لطيفة التذليل بالعليم الحكيم ، فهو العليم بما يصلحكم فيحملكم على الصواب والرشد والسداد وهو الحكيم فيما يشرعه، أي يجري أحكامه على الحكمة. وهي إعطاء الأفعال ما تقتضيه حقائقها دون الأوهام والتخيلات.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (علينا حكيماً)

1- {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلَهُمُ الثُّلُثُ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ

عَلِيمًا حَكِيمًا} {النساء: 11} وقوله : " فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ " أي هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْصِيلِ الْمِيرَاثِ وَإِعْطَاءِ بَعْضِ الْوَرِثَةِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ، هُوَ فَرَضٌ مِّنَ اللَّهِ حَكَمَ بِهِ وَقَضَاهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا، وَيُعْطِي كَلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ يَحْسَبُهُ، وَلِهَذَا قَالَ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا.

2- {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} {النساء: 17} : وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله

عليهم وكان الله عليهما حكيمًا قال سفيان الثوري كل من عمل ذنبا من خلق الله فهو جاهل كان جاهلا أو عالما إن كان عالما فمن جاهل منه وإن كان لا يعلم فمثل ذلك وقوله ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيمًا قال قبل الموت وقال ابن عباس رضى الله عنهما ذنب المؤمن جهل منه قال فتادة اجمع اصحاب رسول الله أن كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة وقال السدى كل من عصى الله فهو جاهل قالوا ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد فإنه لو رأى امرأة تتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته فلا بد من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه فحينئذ يكون وقومه في المعصية صادرا عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم¹ ، ولذلك عقب بكونه هو العليم الحكيم وخلقه في موقعة الذنوب يؤتون من قبل عدم العلم أو عدم العمل به الذي هو عدم الحكمة أما ربنا فله كمال العلم والحكمة فيبني أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة فالجملة التذييل اعتراضية مقررة لمضمون ما قبلها وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلّة الحكم فإنّ الألوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات الكمال .

3- {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُجِّلْ لَكُمْ مَّا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } النساء 24 : وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا مُنَاسِبٌ ذِكْرِ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ بَعْدَ شَرْحِ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ .

4- {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } النساء 92 : يشتمل الحد مع التوبة على مصلحتين عظيمتين: مصلحة زجر النفوس عن مثل تلك الجريمة وهي أهم المصلحتين فإن الدنيا في الحقيقة ليست دار كمال الجزاء وإنما كمال الجزاء في الآخرة وإنما الغالب في العقوبات الشرعية الزجر والنكال وإن كان فيها مقاصد آخر كما أن غالب مقصود العدة براءة الرحم وإن كان فيها مقاصد آخر ولهذا كانت هذه المصلحة مقصودة في كل عقوبة مشروعة.

¹ - ينظر : ابن القيم - مفتاح دار السعادة : 93 .

والمصلحة الثانية: تطهير الجاني وتكفير خطيئته إن كان له عند الله خير أو عقوبة والانتقام منه إن لم يكن كذلك وقد يكون زيادة في ثوابه ورفعته في درجاته ، ونظير ذلك المصائب المقدرة في النفس والأهل والمال فإنها تارة تكون كفارة وطهورا وتارة تكون زيادة في الثواب وعلوا في الدرجات وتارة تكون عقابا وانتقاما.¹ ولأجل هذه الحكم التي لا تعلم ذيلت الآية بالعليم الحكيم .

5- {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } النساء 104 : وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا أَي هُوَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا يُفَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ وَيُقَدِّدُهُ وَيُمْضِيهِ .

6- {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } النساء : 111 : أَي مِنْ عِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ، وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ كَانَ ذَلِكَ .

7- {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } النساء 170 : {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} عليمًا بما يكون منكم من كفر وإيمان فيجازيكم عليه ، حكيماً في تكليفكم مع علمه تعالى بما يكون منكم. ففيه ترغيب للمؤمنين بعلمه وحكمته وترهيب لمنكريهما .

8- {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } الأحزاب:1: أي : مبالغاً في العلم والحكمة فيعلم جميع الأشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة ولا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للأمر والنهي مؤكداً لوجوب الامتثال بهما .

9- {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } الفتح : 4 : للسائل أن يسأل عن نكتة تعقيب جنود السماوات في الآية الأولى بقوله: (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) وتعقيب الثانية : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (الفتح: 7) بقوله: (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)؟ والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الثانية لما تقدمها قوله تعالى: (لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوَاءِ

¹ - ينظر : ابن تيمية - الصارم المسلول على شاتم الرسول : 432 .

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (الفتح: 5 - 6)،
 ناسب هذا المتقدم، من فعله تعالى بالفريقين، من مجازاة المؤمنين بالنعيم المقيم، وتعذيب
 المنافقين وغضبه عليهم ولعنهم وإعداده لهم جهنم، وصفه تعالى بالعزة ليعلم أنه سبحانه لا
 مغالب له وأن الكل تحت قهره، إذ لعزته يفعل في الكل ما يريد وما تقتضيه حكمته، إذ هو
 العزيز في ملكه الحكيم في أفعاله.

ولما لم يتقدم الآية المتقدمة ما يقتضي القصر كهذه، وإنما قبلها قوله سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
 السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح: 4)، وهذا تعريف بإنعامه سبحانه
 ورحمته، فأعلم سبحانه أنه العليم بمن يرحمه، كما قال تعالى: (رُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) (الإسراء: 54)،
 وقال تعالى: (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: 125)، وقال تعالى: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
 رِسَالَتَهُ) (الأنعام: 124)، وجاء كل من الآيتين على ما يجب، والله أعلم.

10- {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} {الإنسان: 30} : أي : عَلِيمًا حَكِيمًا
 معناه يعلم ما ينبغي أن يبسر عبده إليه، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو فله الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ،
 وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ثُمَّ قَالَ: يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
 وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا أَي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ
 يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (عليم حكيم)

1- {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {
 النساء: 26} : وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أَي فِي شَرَعِهِ وَقَدْرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ.

2- {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {الأنفال: 71} : والله
 عليم حكيم تذييل للتعليل، أي عليم بما في قلوبهم حكيم في معاملتهم على حسب ما يعلم منهم.

3- {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {التوبة: 15} : و قال فيما
 بعد: " ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم " فاستوت الآيتان في إعلامه
 تعالى نبيه والؤمنين أنه يتوب على من يشاء وفي ختم الآيتين بصفيتين من صفاته سبحانه ثم
 اختلفت الصفتان ففيل في الأولى "عليم حكيم " وفي الثانية "غفور رحيم"؟

ووجه ذلك والله أعلم أن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلا بها من الآي في كفار مكة
 وفعلهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من التضيق والاحراج وبدئهم بالقتال يوم

بدر ونقضهم العهد فى قصة خزاعة فى صلح الحديبية وهذا كله مبسوط فى كتب السير والتفسير فأمر الله تعالى بقتالهم وخرزيم والنصر عليهم وشفاء صدور من آمن من خزاعة وغيرهم ممن آذوه قال تعالى: "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صور قوم مؤمنين " ثم قال تعالى: "وبتوب الله على ما يشاء " كأبى سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبى جهل إلى من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهادهم فى الاذاية والصد عن سبيل الله ثم قال "والله عليم حكيم " أى بما فى القتال وفى طى ما جرى من ذلك كله بتقديره السابق أولاً إذ لا تتحرك ذرة إلا بإذنه وتقدم علمه أولاً وما فى ذلك من الحكمة وختم أفعالهم السيئة بالأوبئة والرجوع إليه سبحانه بسابق سعادة لمن شاهدها له منهم فهذا وجه النظم والتناسب فيه واضح.

وأما الآية الثانية فسببها - والله أعلم - ما جرى يوم حنين من تولى الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ولم يثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم أحد إذ لم يبرح عليه السلام من مكانه فلم يثبت معه إلا القليل من العدد القليل فنادى العباس رضى الله عنه بآل الانصار فاستجاب ناس وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ومكن نبيه والمسلمين أعدائهم والقصة معروفة فختمت هذه الآية بقوله تعالى: "والله غفور رحيم " تأنيساً لمن فرّ من المسلمين فى ذلك اليوم وبشارة لهم بتوبة الله عليهم وإن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحمة من الله سبحانه فجاء كل هذا على ما يناسب ولا يلائم خلافه والله أعلم.¹

4- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } التوبة 28 : قوله: " إن الله عليم حكيم " تعليل لقوله: وإن خفتم عيلة أي أن الله يغنيكم لأنه يعلم ما لكم من المنافع من وفادة القبائل، فلما منعكم من تمكينهم من الحج لم يكن تاركاً منفعتكم فقدر غناكم عنهم بوسائل أخرى علمها وأحكم تدبيرها.

5- {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } التوبة 60 : قوله: فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ

¹ - ينظر : ابن الزبير الغرناطي - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل :

أَيُّ حُكْمًا مُقَدَّرًا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَفَرَضِهِ وَقَسَمِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أَيُّ عَلِيمٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبِوَاطِنِهَا وَبِمَصَالِحِ عِبَادِهِ حَكِيمٌ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ وَيَسْرَعُهُ وَيَحْكُمُ بِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

6- {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} التوبة 97 : قَوْلُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أَيُّ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَلِّمَهُ الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ، حَكِيمٌ فِيمَا قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالنِّفَاقِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ

7- {وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} التوبة 106 : أَيُّ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

8- {لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} التوبة 110: وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَيُّ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حَكِيمٌ فِي مُجَازَاتِهِمْ عَنْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

9- {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَمَهَا عَلَى أَبِيكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} يوسف 6 : جملة إن ربك عليم حكيم تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل، لأنه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة، وتصدير الجملة ب إن للاهتمام لا للتأكيد إذ لا يشك يوسف - عليه السلام - في علم الله وحكمته. والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل. والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف - عليه السلام - وتأمله لمثل تلك الفضائل. وإضافة الرب إليه فيه بيان العناية به لعلمه وحكمته ومناسبة لأول الآية : وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ .

10- {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} الحج 52 : قَوْلُهُ: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} جملة اعتراض. وإليه نحا الحوفي. والثاني: أنها متعلقة ب «يَنسَخُ» وإليه نحا ابن عطية. وهو ظاهر أيضاً. الثالث: أنها متعلقة بألقى، وليس بظاهر.

11- {وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} النور 18 / 12- {لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {

النور 58 / 13- (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ { النور 59 : لا تخفى نكتة التذييل بالعلم والحكمة بعد بيان الأحكام الشرعية ، لكن لسائل أن يقول: لم قال في الأولى: (الآيات) وفي الثانية والثالثة : (آياته؟)

والجواب أنه لما تقارب اللفظ الواحد عدل عن تكراره بلفظ واحد فيما تقارب، على عادة العرب في استئصالها تكرر اللفظ الواحد بعينه في بيت واحد من الشعر أو ما تقارب من الكلام، ما لم يحمل على ذلك حامل من المعنى، فجيء بالآيات في الأولى معرفاً بالألف واللام للعهد فيما تقدم من المعبرات الواضحة الدلالة، وفي الآية الثانية مضافاً إلى الضمير (المتصل) لتحصل نسبة الآيات لمن هي له تعالى، كانت الثانية هي المضافة لأنها مع ما تعطيه من النسبة مبينة للأولى بياناً تأكيدياً، إذ من المعلوم أنها آياته سبحانه، فجاء ذلك على ما يجب، ومن الوارد على هذا الرعي - والله أعلم - قوله في سورة البقرة: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (البقرة: 219، ثم قال تعالى بعد آي: (وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (البقرة: 221)، فهذا مثل الوارد في سورة البقرة، والله أعلم.

14- واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون (7) {فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ { الحجرات 8 : جملة والله عليم حكيم تذييل لجملة واعلموا أن فيكم رسول الله إلى آخرها إشارة إلى أن ما ذكر فيها من آثار علم الله وحكمته.. والواو اعتراضية.

15- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَنَّهُمْ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ { الممتحنة 10 : ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم، أي هذا حكم الله، وهو عدل بين الفريقين إذ ليس لأحد أن يأخذ بأحد جانبيه ويترك الآخر. قال الزهري: لولا العهد لأمسك النساء ولم يرد إلى أزواجهن صدق. وجملة يحكم بينكم يجوز كونها حالا من اسم الجلالة أو حالا من حكم الله مع تقدير ضمير يربط الجملة بصاحب الحال تقديره: يحكمه بينكم، وأن تكون استئنافية.

وقوله: والله عليم حكيم تذييل يشير إلى أن هذا حكم يقتضيه علم الله بحاجات عباده وتقتضيه حكمته إذ أعطى كل ذي حق حقه.

آيتا العلم والفتح :

1 - قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ : سبأ (26) ، واقتران الفتح بالعلم لنكته تدرك حين يتنبه لما يحتمل الفتح من معنى الحكم والقضاء والنصرة بالحق الموقوفين على العلم ، والآيتان قبل هذه دليل ما نقول : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) ودليل ما ذكرناه من معنى الفتح قوله تعالى في سورة الأنفال : " إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَّ عَنْكُمْ فِئْتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19) : " وذلك أن عاتكة بنت عبد المطلب رأت في المنام، كأن فارسا دخل المسجد الحرام، فنادى: يا آل فهو من قريش انفروا في ليلة أو ليلتين، ثم صعد فوق الكعبة، فنادى مثلها، ثم صعد أبا قبيس فنادى مثلها. ثم نقض صخرة من الجبل فرفعها المنادى فضرب بها الجبل فانفلقت فلم يبق بيت بمكة إلا دخلت قطعة منه فيه فلما أصبحت أخبرت أباها العباس وجلا وعنده أبو جهل بن هشام فقال أبو جهل: يا آل قريش ألا تعذرونا من بني عبد المطلب، إنهم لا يرضون أن تنبأ رجالهم حتى تنبأت نساؤهم، ثم قال أبو جهل للعباس: تنبأت رجالكم وتنبأت نساؤكم والله لتنتهن، وأوعدهم ، فقال العباس: إن شئتم ناجزناكم الساعة ، فلما قدم ضمضم بن عمرو الغفاري قال: أدركوا العير أولا، تدركوا. فعمد أبو جهل وأصحابه فأخذوا بأستار الكعبة، ثم قال أبو جهل: " اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم القبيلتين". ثم خرجوا على كل صعب وذلول ليعينوا أبا سفيان فترك أبو سفيان الطريق وأغز على ساحل البحر فقدم مكة وسبق أبو جهل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى مَاءِ بَدْرٍ، فلما التقوا قال أبو جهل: اللهم اقض بيننا وبين محمد ، اللهم أينما كان أحب إليك، وأرضى عندك فانصره. ففعل الله - عز وجل - ذلك، وهزم المشركين، وقتلهم، ونصر المؤمنين فأنزل الله في قول أبي جهل: «إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ» يقول إن تستنصروا فقد جاءكم النصر فقد نصرت من قلتم وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْقِتَالِ وَإِنْ تَعُودُوا لِقِتَالِهِمْ نَعُدْ عَلَيْكُمْ

بالقتل والهزيمة بما فعلنا ببدر وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً يَعْنِي جماعتكم شيئاً وَلَوْ كَثُرَتْ فِتْنَتُكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي النِّصْرِ لَهُمْ" ¹.

2 - قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ : الأعراف (89) ، والنكته في دعاء شعيب بخير الفاتحين لأنه على يقين بخيرية حكم الله وقضائه بينه ومن آمن معه وبين من كفر به ، وعليه ففتح الله عليهم هو حكم وقضاء بالحق ونصرة ، وخصومته مع قومه في الآيات من قبل شهادة لهذا : وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87) .

الوسع والعلم والحكمة:

من أسمائه سبحانه وتعالى الواسع و هو الذي وسع رزقه جميع خلقه و وسعت رحمته كل شيء وغناه كل فقر . وقال ابن الأنباري الواسع من أسماء الله الكثير العطاء الذي يسع لما يسأل قال وهذا قول أبي عبيدة . ويقال الواسع المحيط بكل شيء من قوله (وسع كل شيء علما) . وقال أبو إسحق في قوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) يقول أينما تولوا فاقصدوا وجه الله تيممكم القبلة إن الله واسع عليم يدل على أنه توسعة على الناس في شيء رخص لهم قال الأزهري أراد التحري عند إشكال القبلة والسعة نقيض الضيق . وقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة) قال الزجاج إنما ذكرت سعة الأرض ها هنا لمن كان مع من يعبد الأصنام فأمر بالهجرة عن البلد الذي يكره فيه على عبادتها كما قال تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) . وقوله تعالى (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا

¹ - أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: 150هـ) - تفسير مقاتل بن سليمان - ت : عبد الله محمود شحاته - دار إحياء التراث - بيروت - ط : 1 / 1423 هـ - ص : 105/2 - 106 .

لموسعون) أراد جعلنا بينها وبين الأرض سعة جعل أوسع بمعنى وسع . وقيل أوسع الرجل صار ذا سعة وغنى . وقوله (وأنا لموسعون) أي أغنياء قادرين . ويقال أوسع الله عليك أي أغناك ورجل موسع وهو المليء و توسعوا في المجلس أي تفسحوا و السعة الغنى والرفاهية على المثل و وسع عليه يسع سعة و وسع كلاهما رفهه وأغناه وفي النوادر اللهم سع عليه أي وسع عليه ورجل موسع عليه الدنيا متمتع له فيها و أوسعته الشيء جعله يسعه .
* قال امرؤ القيس:

فتوسع أهلها أقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع وري

ولما كان الواسع هو الذي بيده ملكوت كل شيء وبيده الملك والجود والفضل ذيل به بعد ذكر الملك والفضل وقرن بالعليم لأن الإفضال والجود يمنحان بعلم وسع كل شيء أيضا وحكمة بالغة ، ولذلك قال تعالى : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما والفضل والنعم داخلة في رحمته وينيل منها حتى الكفار به في الدنيا لأنهم داخلين في قوله وسعت كل شيء ، وهو لم ينلهم ذلك جهلا منه بل بعلمه وحكمته اللذان يحاط بشيء منهما .

1- {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٍ} البقرة 115 : {إن الله واسع عليم} يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإفضال والجود وأما قوله: {عليم} فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم. فواسع تذييل لمدلول والله المشرق والمغرب والمراد سعة ملكه أو سعة تيسيره وهو عليم بمن يتوجه لقصد مرضاته قال شيخ الإسلام : " وهذه الآية تدل على جواز استقبال جميع الجهات نسخ ذلك في حق العالم القادر في صلاة الفرد فيبقى في حق الجاهل بالقبلة والعاجز عن استقبالها لخوف ونحوه في حق المنتفل في السفر لم ينسخ وهذا لأن الأصل جواز استقبال الوجه إلى جميع الجهات لكن إذا لم يكن بد من الصلاة إلى واحدة منها عين الله سبحانه لنا استقبال أحب الوجوه إليه ووجب ذلك فإذا تعذر ذلك بالجهل وبالعجز سقط هذا الوجوب حينئذ لأن الإيجاب حينئذ محال.¹

¹ - ابن تيمية - عمدة الفقه - ت : خالد بن علي بن محمد المشيخ - دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط :

1/ 1418هـ/1997م - ص : 543 .

2- {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَأَتَىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة 247 : أي ذو سعة وهو الذي يعطي عن غنى، وعليم بمن هو أهل لها . ففي التذييل تعليل فيه رد على المنكرين لملك طالوت .

3- {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة 261 : ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنی مطابقين لسياقها وهما الواسع العليم فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطفه فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغني واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه .

4- {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة 268 : وعد الشيطان المؤمن الفقر ليس شفقة عليه، ولا نصيحة له، كما ينصح الرجل أخاه ولا محبة في بقائه غنيا، بل لا شيء إليه من فقره وحاجته. وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه، فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه إنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه، وفضلا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه إما في الدنيا أو في الدنيا والآخرة.

فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق أي الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم.

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الأسمين واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ فإنه واسع العطاء عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله، فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكل شيء عليم.

5- {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } آل عمران 73 : ردُّ لهم وإبطالُ لما زعموه بالحجة الباهرة وتأكيد الكلام ب (إن) لتنزيلهم منزلة من ينكر أن الفضل بيد الله ومن يحسب أن الفضل تبع لشهواتهم وجملة والله واسع عليم عطف على جملة " إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء " أي أن الفضل بيد الله وهو لا يخفى عليه من هو أهل لنوال

فضله ، {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ} أي يجعل رحمته مقصورةً على {مَنْ يَشَاءُ} والله ذو الفضل العظيم 74 { كلاهما تذييلٌ لما قبله مقررٌ لمضمونه .

6- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {المائدة 54 : هذه الآيات العزيزة فيها عبرة لأولي الألباب. فإن الله تعالى أنزلها بسبب أنه كان بالمدينة النبوية من أهل الذمة من كان له عزٌ وسعة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أقوام من المسلمين عندهم ضعف يقين وإيمان، وفيهم منافقون يُظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، مثل عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وأمثاله، وكانوا يخافون أن تكون للكفار دولة، فكانوا يوالونهم، ويباطنونهم¹ ، ففي التذييل بقوله : ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " تذكير وتثبيت للمؤمنين وتحذير وتهديد للمنافقين .

7- {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {النور 32 : رغبتهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى، فقال: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} وَجَمَلَةٌ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ مُؤَكَّدَةٌ لِمَا قَبْلَهَا وَمُقَرَّرَةٌ لَهَا، والمراد أن سُبْحَانَهُ ذُو سَعَةٍ لَا يَنْقُصُ مِنْ سَعَةٍ مُلْكِهِ غِنَى مَنْ يُغْنِيهِ مِنْ عِبَادِهِ عَلِيمٌ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ، يُغْنِي مَنْ يَشَاءُ وَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ .

{وَأَنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا} {النساء 130 : واسع الفضل والرحمة حكيمًا فيما أمر به ونهى عنه وسبق ذكر أزلية وأبدية أخبار كان إن كان اسمها الله وذيل بالاسمين منصوبين لتمكين الفواصل .

قوله تعالى: "وَأَنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)" والله ما فى السماوات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا (131) والله ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيفا (132) "

¹ -وعلى قول الجمهور نزلت في حال عبادة بن الصامت لما تبرا من أوليائه من يهود ، وتمسك بولايتهم عبد الله بن أبي بن سلول من دوار الدوائر عليه . وقيل إنها في أبي لبابة بن عبد المنذر لما سأله اليهود ما الرسول صانع بهم ؟ فأشار إلى حلقه بالذبح . وقيل غير ذلك . انظر ابن كثير 68/2-69 والقرطبي 216/6 وما بعدها ، وما ذكر في المتن ملخص لهذه الأسباب وجامع لها .

للسائل أن يسأل عن لطيفة اختلاف ما أعقبت به هذه الآي الثلاث من أوصافه العلية سبحانه وتعالى: "وكان الله واسعاً حكيماً" وفي الثانية: "وكان الله غنياً حميداً" وفي الثالثة: "وكفى بالله وكيلاً" يسأل عن ذلك وعن تكرار إخباره تعالى وقوله "ولله ما في السموات وما في الأرض" ثلاث مرات مع تقارب الكلام واتصاله.

والجواب عن الأول: إنه لما قال سبحانه في الزوجين عند عدم انقيادهما لحسن المعاشرة "وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته" قال الزمخشري: "يرزقه زوجاً خيراً من زوجته وعيشاً أهناً من عيشه" ولما قال "يغني الله كلا من سعته" ناسب هذا ذكر ما يقتضى من صفاته عموم وجوه الإحسان وأنه لا نفاذ لما عنده مما به قوام عيشهم وكمال حال كل واحد منهم من الرزق والسكن والتأنيس وأنه سبحانه المنفرد بعلم وجه الحكمة في تألفهم فقال "وكان الله واسعاً حكيماً" أي كثير العطاء جم الإحسان عليم بخفيات مصالح العباد فقوله "وكان الله واسعاً حكيماً" عقب ما تقدمه من قوله "وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته" أوضح شئ في المناسبة ثم اتبع بما يلائم ذلك ويزيده وضوحاً من إخباره تعالى من أن السموات والأرض وما فيهما ملكه تعالى فقال "ولله ما في السموات وما في الأرض" ثم أتبع سبحانه أنه بما يرجع إلى عموم إحسانه إلى من تقدم من المخاطبين بكتبه المنزلة رحمة لعباده وإحسانه كما أحسن إلى المواجهين بهذا الكتاب والمهيمن من على هذه الخطاب فقال "ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله" وأعلم سبحانه أنه محسن إليهم لأن تقواهم إياه تعالى مثمرة لهم السلامة من عذابه والنجاة من أليم عقابه وأنه ليس به إلى تقواهم من حاجة ولا يعود إليه سبحانه من كل ذلك منفعة إذ هو الغني عنهم وعن عبادتهم فقال: "وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض" فهو الغني عنكم وعن عبادتكم كما قال تعالى في آية أخرى: "وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد" وقال تعالى: "فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد" وإذا كان الكل ممن في السموات والأرض ملوكاً له سبحانه وتحت قهره وفي قبضته يفعل فيهم ما يشاء ولا يكون منهم إلا ما يشاءه ويريده وهو الغني الحميد ثم أكده بقوله "ولله ما في السموات وما في الأرض" لما بنى عليه من قوله "وكفى بالله وكيلاً" أي حافظاً لجميع ذلك منفرداً بتدبيره وإمساك السموات والأرض ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده فختام الآية بهذه الصفة من أنسب شئ وأبينه والله أعلم.¹

¹ - ابن الزبير الغرناطي - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل : 110 .

- هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحديد : 03) اللطيفة في اقتران "العليم بكل شيء" بالأول والآخر والظاهر والباطن لأنه لا يكون شرعا وعقلا إلا بها وهذه هي إحاطة العلم أزلا وأبدا ظاهرا وباطنا .

المبحث الثالث : اقتران الأسماء والصفات الدالة على الجلال فيما بينها.

المطلب الأول : المقتدر مع العزيز :

{كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر 42] : اللطيفة في قران العزيز بالمقتدر مقابلة ملك مقتدر فالعزيز من المجرمين المكذبين ينتصر وينتقم كما عقب به في آيات الشعراء والمليك لضيوفه وأوليائه في مقعد صدق ينعم ويكرم وكلاهما وصف للقدير المقتدر .

المطلب الثاني : عزيز ذي انتقام

{وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} { الزمر 37 : ومن يهد الله فما له من مضل اعتراض بين جملة أليس الله بكاف عبده وجملة " أليس الله بعزيز ذي انتقام " قصد من هذا الاعتراض أن ضلالهم داء عياء لأنه ضلال مكنون في نفوسهم وجبلتهم قد ثبتته الأيام، ورسخه تعاقب الأجيال، فران بغشاوته على ألبابهم، فلما صار ضلالهم كالمجبول المطبوع أسند إيجاده إلى الله كناية عن تعسر أو تعذر اقتلعه من نفوسهم.

وأريد من نفي الهادي من قوله: فما له من هاد نفي حصول الاهتداء، فكني عن عدم حصول الهدى بانتفاء الهادي لأن عدم الاهتداء يجعل هاديتهم كالمنفي. وقد تقدم قوله في سورة الأعراف [186] من يضل الله فلا هادي له.

والآيتان متساويتان في إفادة نفي جنس الهادي، إلا أن إفادة ذلك هنا بزيادة من تنصيحا على نفي الجنس. وفي آية الأعراف ببناء هادي على الفتح بعد (لا) النافية للجنس فإن بناء اسمها على الفتح مشعر بأن المراد نفي الجنس نصا. والاختلاف بين الأسلوبين تفنن في الكلام وهو من مقاصد البلغاء.

وتقديم " له " على " هاد" للاهتمام بضميرهم في مقام نفي الهادي لهم لأن ضلالهم المحكي هنا بالغ في الشناعة إذا بلغ بهم حد الطمع في تخويف النبيء بأصنامهم في حال ظهور عدم اعتداده بأصنامهم لكل متأمل من حال دعوته، وإذ بلغ بهم اعتقاد مقدرة أصنامهم مع الغفلة عن قدرة الرب الحق، بخلاف آية الأعراف فإن فيها ذكر إعراضهم عن النظر في ملكوت السماوات والأرض وهو ضلال دون ضلال التخويف من بأس أصنامهم.¹

المطلب الثاني : العلي مع العظيم والكبير

1- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } البقرة 255 : لا جرم تختم أعظم آية في كتاب الله باسمين دالين على عظمة الذات وعلوها .

2- {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } الشورى 4 : هذه الآية ذكر فيها ما ذكر في آية الكرسي : " لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " فذيلت بما ذيلت به تلك لبيان أنه أعلى من كل ما يعلو خلقه من سماء وبيان أنه أعظم من كل خلقه .

1- {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } الحج 62 / 2- {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } لقمان 30 / 3 - {وَلَا تَتَّبِعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } سبأ 23 / 4- {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } غافر 12 : هذه الآيات الأربع سيقت تقريبا لسياق واحد ألا وهو نفي الشرك به ودعاء غيره ممن لا علو له ولا كبر ولا حكم فينفع عابديه ودعائه فكل إله هذا شأنه باطل لا محالة لأنه يعلى عليه فيقهر ويكبره غيره فيصغر ولذلك ذيلت أربعها باسميه العلي الذي لا يعلى عليه فهو القاهر فوق عباده والكبير الذي يصغر ويحقر دونه كل جبار متكبر ، فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا.

¹ - ينظر : التحرير والتنوير : 14/24 .

ولذلك على القول بأن المشركين هم المعنيون بقوله : { حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } سبأ 23 ، يقولون ذلك لأنه يوم تقوم الساعة يتبين لهم أن الألوهية الحقّة لله العلي الكبير وحده .

1- {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} الرعد 9 : قوله: {عالم الغيب والشهادة} أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء. {الكبير} الذي هو أكبر من كل شيء، {المتعال} أي: على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعاً وكرهاً

وقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ} : يجوز أن يكون مبتدأً وخبره {الكبير المتعال} ، وأن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هو عالمٌ. وقرأ زيد بن عليّ «عالمٌ» نصباً على المدح. ووقف ابن كثير وأبو عمرو في روايةٍ على ياء «المتعال» وصلاً ووقفاً، وهذا هو الأشهرُ في لسانهم، وحذفها الباقيون وصلاً ووقفاً لحذفها في الرسم. واستسهل سيبويه حذفها في الفواصل والقوافي ولأن «أل» تعاقبُ التتوين، فَحُذِفَتْ معها إجراءً لها مُجْرَاهَا ، " وقد أَلَفَ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ بُنُ الصَّائِغِ كِتَابًا سَمَّاهُ إِحْكَامُ الرَّأْيِ فِي أَحْكَامِ الْآيِ قَالَ فِيهِ: اعْلَمْ أَنَّ الْمُنَاسِبَةَ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يُرْتَكَبُ لَهَا أُمُورٌ مِنْ مُخَالَفَةِ الْأُصُولِ قَالَ وَقَدْ تَنَبَّعْتُ الْأَحْكَامَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي آخِرِ الْآيِ مُرَاعَاةً لِلْمُنَاسِبَةِ فَعَثَرْتُ مِنْهَا عَلَى نَيْفٍ عَنِ الْأُرَيْعِينَ حُكْمًا ، وذكر منها : السَّادِسُ: حَذْفُ يَاءِ الْمُنْقُوصِ الْمُعْرَفِ نَحْوُ: {الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} {يَوْمَ النَّادِ} "1.

المبحث الرابع : اقتران الأسماء والصفات الدالة على الجمال فيما بينها

المطلب الأول : الرحيم مع ما اقترن به : الغفور / البرّ / التّوّاب / الرّؤوف / العفوّ

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (غفور رحيم) تقدم الغفور على الرحيم بالطبع حيثما ورد في القرآن إلا موضعاً واحداً لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة والسلامة تطلب قبل الغنيمة وفي الحديث أن النبي قال: لعمر بن العاص " أبعثك وجهاً يسلمك الله فيه ويغنمك وأرغب لك رغبة من المال " صحيح فهذا من الترتيب البديع بدأً بالسلامة قبل الغنيمة وبالغنيمة قبل الكسب وأما قوله: {وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} فسيأتي بيان

¹ - ينظر : السيوطي - الإتيان في علوم القرآن : 340/3 .

نكتة خروجه عن الأصل الذي ذكرنا . وأكثر الأسماء ارتباطا بالأحكام هذان فما اقتربنا به من أي لا بد من طول اللبائثة في استنباط نكتة الاقتران لأتتهما يحملان حكما من رب العالمين ومستخرج اللطيفة في هذه كالمفتي كلاهما موقَّع عن رب العالمين .

1- {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} البقرة 173 : إن الله غفور . إن أطعتم الله في إسلامكم، فاجتنبتم أكل ما حرم عليكم، وتركتم اتباع الشيطان فيما كنتم تحرمونه في جاهليتكم- طاعة منكم للشيطان واقتفاء منكم خطواته - مما لم أحرمه عليكم = لما سلف منكم، في كفركم وقبل إسلامكم، في ذلك من خطأ وذنب ومعصية، فصافح عنكم، وتارك عقوبتكم عليه، "رحيم" بكم إن أطعتموه.

2- {فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} البقرة 182 : وأما قوله: "إن الله غفور رحيم"، فإنه يعني: والله غفور للموصي فيما كان حدث به نفسه من الجنف والإثم، إذا ترك أن يَأْثِمَ ويجنف في وصيته، فتجاوز له عما كان حدث به نفسه من الجور، إذ لم يمض ذلك فيغفل أن يؤاخذ به "رحيم" بالمصلح بين الموصي وبين من أراد أن يحيف عليه لغيره، أو يَأْثِمَ فيه له.

3- {فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} البقرة 192 : يعني تعالى ذكره بذلك: فإن انتهى الكافرون الذين يقاتلونكم عن قتالكم وكفرهم بالله، فتركوا ذلك وتابوا، "فإن الله غفور" لذنوب من آمن منهم وتاب من شركه، وأتاب إلى الله من معاصيه التي سلفت منه وأيامه التي مضت "رحيم" به في آخرته بفضلته عليه، وإعطائه ما يعطي أهل طاعته من الثواب بإنابته إلى محبته من معصيته.

4- {لَنْتُمْ أَفْبُضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} البقرة 199 : أي اطلبوا تغطية الذنوب وسترها من الله لأنه الساتر لعبده برحمته، أو الساتر لذنوب عباده ففي التذليل بالغفور الرحيم تعليل وتعليم للحجاج .

5- {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} البقرة 218 : قال ابن الجوزي : " قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا، في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل القرآن بالرخصة لأصحاب عبد الله بن جحش في قتل ابن الحضرمي، قال بعض المسلمين: ما لهم أجر، فنزلت هذه الآية ، والثاني: أنه لما نزلت لهم

الرخصة قاموا، فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزاة نعطي فيها أجر المجاهدين، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وقال: هاجروا من مكة إلى المدينة، وجاهدوا في طاعة الله ابن الحضرمي وأصحابه. ورَحِمَتَ اللَّهُ: مغفرته وجنته. قال الشعبي: أول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش، وأول مغنم قسم في الإسلام: مغنمه¹، وعليه فالتذييل للتأكيد .

6- {لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نَّسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} البقرة 226 : يؤلون أي: يحلفون، والآية: اليمين، فيحلف أن لا يقربها أبدا فيتركها لا أيما ولا ذات بعل قوله تعالى: تریص أربعة أشهر، أي: انتظار أربعة أشهر، والتریص: التثبت والتوقف، فإن فآؤ: رجعوا عن اليمين بالوطف، فإن الله غفور رحيم، وإذا وطئ خرج عن الإيلاء، وتجب عليه كفارة اليمين عند أهل العلم، وقال الحسن وإبراهيم النخعي وقتادة: لا كفارة عليه لأن الله تعالى وعد بالمغفرة فقال: فإن الله غفور رحيم، وذلك عند الأكثرين في إسقاط العقوبة لا في الكفارة.²

7- {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 31 : هذه الآية محك لمن يدعي حبَّ الله ، والشأن أن يحبَّك الله ولكي يحبَّك عليك بشرطه وهو اتباع رسوله لتتال حبه ولازمه مغفرة ذنوبك وتغطيتها والتجاوز عن العتاب عليها لأنَّ الحبيب غفور ودود ، وفيها بيان عظيم نفع السنة والعرض عليها .

8- {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 89 : سياق الآية : كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين (86) أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (87) خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون (88) فإن الله غفور رحيم"، يعني: فإن الله لمن فعل ذلك بعد كفره "غفور"، يعني: سائر عليه ذنبه الذي كان منه من الردة، فتارك عقوبته عليه، وفضيحته به يوم القيامة، غير مؤاخذه به إذا مات على التوبة منه - "رحيم"، متعطف عليه بالرحمة.

9- {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 129 : أكد معنى قوله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) بالقول العام وذكر الحجة الساطعة في ذلك وهي ملكة الأشياء، إذ ذلك مقتض

¹ - زاد المسير في علم التفسير : 183/1 .

² - ينظر : البغوي : معالم التنزيل في تفسير القرآن : 297/1 - 298 .

أن يفعل بحق ملكه ما شاء، لا اعتراض عليه ولا معقب لحكمه، وذكر أن الغفران أو التعذيب إنما هو بمشيئته وحسب السابق في علمه، ثم رجا في آخر ذلك تأنيسا للنفوس وجلبا لها إلى طاعته، وذلك كله في قوله تعالى: **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** وما في قوله ما في السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إشارة إلى جملة العالم. قال القرطبي رحمه الله: " قال علماؤنا: قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُوا رَأْسَ نَبِيِّهِمْ) اسْتِبْعَادٌ لِتَوْفِيقٍ مَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ" تَقْرِيبٌ لِمَا اسْتَبْعَدَهُ وَإِطْمَاعٌ فِي إِسْلَامِهِمْ، وَلَمَّا أُطْمِعَ فِي ذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمَسْحُ الدَّمَ عَن وَجْهِهِ وَيَقُولُ: (رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ¹.

10- {وَمَنْ لَّمْ يَسْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَاذْكُرُونَهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصِنْتِ فَإِنَّ أُنْتِ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} النساء 25 : قوله : {والله غفور رحيم} وهذا كالمؤكد لما ذكره؛ لأن الأولى ترك هذا النكاح يعني أنه وإن حصل ما يقتضي المنع من هذا النكاح إلا أنه تعالى أباحه لاحتياجكم إليه، فكان ذلك من باب المغفرة والرحمة.

11- {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} المائدة 3 : قوله: "فإن الله غفور رحيم" معناه: فإن الله لمن أكل ما حرمت عليه بهذه الآية أكله، في مخمصة، غير متجانف لإثم = "غفور رحيم"، يقول: يستر له عن أكله ما أكل من ذلك، بعفوه عن مؤاخذته إياه، وصفحه عنه وعن عقوبته عليه = "رحيم"، يقول: وهو

¹ . الجامع لأحكام القرآن : 199/4 .

به رفيق. ومن رحمته ورفقه به أباح له أكل ما أباح له أكله من الميتة وسائر ما ذكر معها في هذه الآية، في حال خوفه على نفسه من كلب الجوع وضر الحاجة العارضة ببدنه.

12- إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (33) {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 34 : قال شيخ المفسرين : الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض " إلى قوله:"فاعلموا أن الله غفور رحيم"، نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن يقدر عليه، لم يكن عليه سبيل. وليس تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل، أو أفسد في الأرض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه. ذلك يقام عليه الحد الذي أصاب.

حدثنا بشار قال، حدثنا روح بن عبادة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد:"إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم"، قال: هذا لأهل الشرك، إذا فعلوا شيئا في شركهم، فإن الله غفور رحيم، إذا تابوا وأسلموا.¹

13- والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (38) {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 39: وقوله:"إن الله غفور رحيم" يقول: إن الله عز ذكره سائر على من تاب وأتاب عن معاصيه إلى طاعته ذنوبه، بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة، وتركه فضيحته بها على رعوس الأشهاد "رحيم" به وبعباده التائبين إليه من ذنوبهم .

14- لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (72) لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (73) {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 74 : يقول تعالى ذكره: أفلا يرجع هذان الفريقان الكافران القائل أحدهما:"إن الله هو المسيح ابن مريم"، والآخر القائل:"إن الله ثالث ثلاثة" عما قالوا من ذلك، ويتوبان مما قالوا ونطقا به من كفرهما، وبسألان ربهما المغفرة مما قالوا =والله غفور"، لذنوب التائبين من خلقه،

¹ - جامع البيان في تأويل القرآن : 278/10 .

المنيبين إلى طاعته بعد معصيتهم="رحيم" بهم، في قبوله توبتهم ومراجعتهم إلى ما يجب مما يكره، فيصفح بذلك من فعلهم عما سلف من أجرامهم قبل ذلك ، وقوله : {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} جملةٌ حاليةٌ من فاعلٍ يستغفرونه مؤكدةٌ للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار أي والحالُ أنَّه تعالى مبالغٌ في المغفرة فيغفرُ لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله .

15- {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 98 : وقوله تعالى: {اعلموا أنَّ الله شديدُ العقابِ وأنَّ الله غفورٌ رحيمٌ} ، لما ذكر تعالى أنواعَ رَحْمَتِهِ لعباده: " أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) ذكر بَعْدَهُ شِدَّةَ الْعِقَابِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ.

16- {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} الأنعام 54: تأويل الكلام : " إذا جاءك، يا محمد، القوم الذين يصدِّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا، فيقرِّون بذلك قولاً وعملاً مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة، فلا تؤيسهم منها، وقل لهم:"سلام عليكم"، أمانة الله لكم من ذنوبكم، أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها "كتب ربكم على نفسه الرحمة"، يقول: قضى ربكم الرحمة بخلقه "أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم".

17- {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} الأنعام 145 : {فإن الله غفور} ، فيما فعل من ذلك، فسائر عليه بتركه عقوبته عليه، ولو شاء عاقبه عليه ، {رحيم} ، بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه، ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه.

18- {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} الأنعام 165 : يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:"إن ربك"، يا محمد، لسريع العقاب لمن أسخطه بارتكابه معاصيه، وخلافه أمره فيما

أمره به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما منحه من فضله وطوله، توليا وإدبارا عنه، مع إنعامه عليه، وتمكينه إياه في الأرض، كما فعل بالقرون السالفة ، (وإنه لغفور) ، يقول: وإنه لسائر ذنوب من ابتلى منه إقبالا إليه بالطاعة عند ابتلائه إياه بنعمة، واختباره إياه بأمره ونهييه، فمغط عليه فيها، وتارك فضيخته بها في موقف الحساب .

19- {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} الأعراف153 : هذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابل من كل تائب إليه من ذنب أتاه، صغيرة كانت معصيته أو كبيرة، كفرا كانت أو غير كفر، كما قبل من عبدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل وارتدادهم عن دينهم: إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين (152) ، والخطاب في قوله: إن ربك لمحمد صلى الله عليه وسلم على الوجه الأظهر، أو لموسى على جعل قوله: إن الذين اتخذوا العجل مقولا من الله لموسى ، وفي تعريف المسند إليه بالإضافة توسل إلى تشريف المضاف إليه بأنه مريب لله تعالى، وفي ذكر وصف الربوبية هنا تمهيد لوصف الرحمة.

وتأكيد الخبر بإن ولام التوكيد وصيغتي المبالغة في لغفور رحيم لمزيد الاهتمام به ترغيب للعصاة في التوبة، وطرذا للقنوط من نفوسهم، وإن عظمت ذنوبهم، فلا يحسبوا تحديد التوبة بحد إذا تجاوزته الذنوب بالكثرة أو العظم لم تقبل منه توبة.

وضمير: من بعدها الثاني مبالغة في الامتتان بقبول توبتهم بعد التلمي من السيئات. وحذف متعلق لغفور رحيم لظهوره من السياق، والتقدير: لغفور رحيم لهم. أو لكل من عمل سيئة وتاب منها.

20- وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165) : {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ} لَأَنَّمَا هُوَ آتٍ هُوَ سَرِيعٌ قَرِيبٌ. وقيل: هو الهلاك في الدنيا «وإنه لغفور رحيم». قال عطاء: سريع العقاب لأعدائه، غفور رحيم لأوليائه رحيم بهم، وأكد قوله: «لغفور» [باللام] دلالة على سعة رحمته، ولم يؤكد سرعة العقاب بذلك هنا، وإن كان قد أكد ذلك في سورة الأعراف في الآية التالية لهذه؛ لأن هناك المقام مقام تخويف وتهديد، وبعد ذكر قصة المعتدين في السبب وغيره، فناسب تأكيد

العقَاب هُنَاكِن وَأَتَى بِصِيغَتِي الْغُفْرَانَ وَالرَّحْمَةَ، وَلَا بِصِيغَةٍ وَاحِدَةٍ؛ دَلَالَةٌ عَلَى حِلْمِهِ، وَسِعَةٌ مَغْفِرَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ.¹

21. {وَإِذِ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} {الأعراف 167 : إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ} والمراد التَّحْذِيرُ مِنْ عَذَابِهِ فِي الْآخِرَةِ مَعَ الدَّلَّةِ فِي الدُّنْيَا {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} لَمَنْ تَابَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْيَهُودِيَّةِ، وَآمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ.

ولعلَّ لطيفة أخرى في زيادة اللام في الأعراف هي أن آية الأنعام لما تقدمها قوله تعالى: "قل إنني هُدى ربي إلى صراط مستقيم" ثم استمر ما بعد على خطابه صلى الله عليه وسلم لما منحه الله تعالى إلى قوله: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ... الآية"، فهذا له صلى الله عليه وسلم ولأُمَّته فِجَاءُ الْخَبَرِ مِنْ قَوْلِهِ: "إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ" بِغَيْرِ لَامِ التَّكْثِيرِ مَنَاسِبًا لِلْحَالِ إِذْ هُوَ لَاءُ الْمَذْكُورِينَ لَيْسُوا بِجَمَلَتِهِمْ مِمَّنْ اسْتَحَقَّ عِقَابًا، وَمِنْ عَوَاقِبِ مَنْ أَهْلُ الْقِبْلَةِ فَعِقَابُهُ مَنقُوعٌ بِفَضْلِ اللَّهِ فَلَا حَامِلَ عَلَى التَّكْثِيرِ لِأَنَّ ذِكْرَ الْعِقَابِ هُنَا تَخْوِيفٌ يَحْمِلُ الْمُؤْمِنَ عَلَى اسْتِحْبَابِ الرِّغْبِ وَالرَّهْبِ وَمَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ.

وأما آية الأعراف فقد ورد قبلها قوله تعالى: "وَإِذِ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ" وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمَقْصُودِينَ بِهَذَا الْوَعِيدِ وَذَكَرَ مَرْتَكِبَاتِهِمْ السَّيِّئَاتِ فَتَخَلَّصَتْ الْآيَةُ لِلْمُسْتَحْقِينَ الْعِقَابَ بِمَجْتَرِحَاتِهِمْ الْمَفْصُحَةَ بِكُفْرِهِمْ فَنَاسِبٌ تَأْكِيدُ الْخَبَرِ الْمُنْبِئِ بِعِقَابِهِمْ وَسُوءِ مَآلِهِمْ وَجَاءَ كُلُّ عَلَى مَا يَجِبُ وَيُنَاسِبُ.

22- {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {الأنفال 69 : {وَاتَّقُوا اللَّهَ} فَلَا تَقْدَمُوا عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَعْهَدِ إِلَيْكُمْ فِيهِ {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ} لَمَّا فَعَلْتُمْ مِنْ قَبْلِ {رَحِيمٌ} بِإِحْلَالِ مَا غَنِمْتُمْ.

23- {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {الأنفال 70 : قَالَ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : " نَزَلَتْ فِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَكَانَ أَسْرَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَ أَحَدَ الْعَشْرَةِ الَّذِينَ ضَمِنُوا طَعَامَ أَهْلِ بَدْرٍ وَكَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَوْبَتِهِ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ بَعِثِينَ أَوْقِيَةً مِنَ الذَّهَبِ لِيَطْعَمَ بِهَا النَّاسَ، فَأَرَادَ أَنْ يَطْعَمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَاقْتَتَلُوا وَبَقِيَتِ الْعِشْرُونَ أَوْقِيَةً مَعَهُ، فَأَخَذَتْ مِنْهُ فِي الْحَرْبِ، فَكَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحْتَسِبَ الْعِشْرِينَ أَوْقِيَةً مِنْ فِدَائِهِ فَأَبَى، وَقَالَ: «أَمَا شَيْءٌ خَرَجْتَ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَيَّ قِتَالَنَا، أَفَلَا

¹ - اللباب في علم الكتاب : 540/8 .

أتركه لك» ، وكلف فداء بني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد تركتني أنكف قريشا ما بقيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فأين الذهب الذي دفعته أم الفضل وقت خروجك من مكة فقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم» ، يعني بنيه ، فقال له العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي عز وجل» ، قال العباس: أشهد أنك صادق! وأن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل، فذلك قوله تعالى: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى، الذين أخذتم منهم الفداء إن يعلم الله في قلوبكم خيرا، أي: إيماناً، يؤتكم خيراً مما أخذ منكم، من الفداء، ويغفر لكم، ذنوبكم والله غفور رحيم، قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله عنها عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمال كثير، وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية، وأعطاني زمزم، وما أحب أن لي به جميع أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل.¹ وكفى بهذا بياناً لنكتة التذليل .

24- {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} التوبة:5: قوله: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} أي: دعوهم ليتصرفوا في أمصارهم، ويدخلوا مكة «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» لمن تاب «رَحِيمٌ» به. وهو تعليل للأمر بتخلية السبيل، واحتجوا بهذه الآية على قتل تارك الصلاة؛ لأنَّ الله تعالى أباح دم الكفار مطلقاً ثم حرَّمها عند التوبة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإذا لم توجد الثلاثة، فإباحة الدِّم بحالها. قال الحسين بن الفضل: «هذه الآية تنسخ كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء».²

25- لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين (25) ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين (26) {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} التوبة: 27 : ثم للتراخي الرتبي، عطف على جملة ثم أنزل الله سكينته على رسوله إلى قوله وذلك جزاء الكافرين [التوبة: 26] . وهذا إشارة إلى إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة فإنهم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين تائبين، وسألوه أن

¹ - معالم التنزيل : 311/2 .

² - ينظر : اللباب في علم الكتاب : 19/10 .

يرد إليهم سبيهم وغنائمهم، فذلك أكبر منة في نصر المسلمين إذ أصبح الجند العدو لهم مسلمين معهم، لا يخافونهم بعد ذلك اليوم.

والمعنى: ثم تاب الله عليهم، أي على الذين أسلموا منهم فقله: يتوب الله من بعد ذلك دليل المعطوف بـثم ولذلك أتى بالمضارع في قوله: يتوب الله دون الفعل الماضي: لأن المقصود ما يشمل توبة هوازن وتوبة غيرهم، للإشارة إلى إفادة تجدد التوبة على كل من تاب إلى الله لا يختص بها هوازن فتوبته على هوازن قد عرفها المسلمون، فأعلموا بأن الله يعامل بمثل ذلك كل من ندم وتاب، فالمعنى: ثم تاب الله عليهم ويتوب الله على من يشاء.

وجملة: والله غفور رحيم تذييل للكلام لإفادة أن المغفرة من شأنه تعالى، وأنه رحيم بعباده إن أنابوا إليه وتركوا الإشراف به.

26- {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} التوبة 91 : جملة والله غفور رحيم تذييل والواو اعتراضية، أي شديد المغفرة ومن مغفرته أن لم يؤاخذ أهل الأعدار بالقعود عن الجهاد. شديد الرحمة بالناس ومن رحمته أن لم يكلف أهل الإعدار ما يشق عليهم.

27- {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} التوبة 99 : {سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ} وعد لهم بإحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة كما أن قوله عز وعلا والله سميعٌ عليمٌ وعيدٌ للأولين عقيب الدعاء عليهم والسين للذلة على تحقق ذلك وتقرره البتة وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} تلي لتحقق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقي

28- {وَأَخْرَجُوا عَتَرُفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} التوبة 102 : عسى الله أن يتوب عليهم"، يقول: لعل الله أن يتوب عليهم "وعسى" من الله واجب، وإنما معناه: سيتوب الله عليهم، ولكنه في كلام العرب على ما وصفت "إن الله غفور رحيم"، جملة تعليلية في قوة لأن... يقول: إن الله ذو صفح وعفو لمن تاب عن ذنوبه، وسائر له عليها - "رحيم"، به أن يعذبه بها .

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قول من قال: نزلت هذه الآية في المعتزفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتركهم الجهاد معه،

والخروج لغزو الروم، حين شخص إلى تبوك - وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة.¹

29- {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} {هُود} 41 : {إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ} لمن آمن منهم {رَحِيمٌ} حيث خلصهم ، وقوله: {إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} فيه سؤال، وهو إن كان ذلك وقت إظهارِ الضرِّ، فكيف يليق به هذا الذكر؟ .

والجواب: لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا في أنفسهم أننا إنما نجونا ببركة علمنا بالله تعالى نبههم بهذا الكلام لإزالة ذلك العجب، فإنَّ الإنسان لا ينفك من أنواع الزلاتِ وظلماتِ الشبهات، وفي جميع الأحوال، فهو محتاجٌ إلى إعانةِ الله، وفضله، وإحسانه، وأن يكون غفوراً لذنوبه رحيماً لعقوبته.

30- {وَمَا أُبْرِيُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} {يوسف} 53 قال جمع من أهل التفسير أنه من قول يوسف : "وما أبريء نفسي إن النفس لأماراة بالسوء إلا من رحم ربي إن ربي غفور رحيم " لأنَّ هذا من تمام معرفته بربه ونفسه فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها فإنها أماراة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر برعته قيل هذا وإن كان قد قاله طائفة فالصواب أنه من تمام كلامها فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدلّ عليه وهو قول النسوة {مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ} وقول امرأة العزيز {أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر ثم اتصل بها قوله {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ} فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه ويضمّر فيه قول لا دليل عليه فإن قيل فما معنى قولها {لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ} قيل هذا من تمام الاعتذار قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت ذلك أي قولي هذا وإقرارى ببراءته ليعلم أنني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته وإن خنته في وجهه في أول الأمر فالآن يعلم أنني لم أخنه في غيبته ثم اعتذرت عن نفسها بقولها وما أبريء نفسي ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبريء نفسها وهي أن النفس أماراة بالسوء فتأمل ما أعجب آخر هذه المرأة أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها ثم اعتذرت عن نفسها ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام

¹ - جامع البيان : 474/14 .

يوسف عليه السلام لفظا ومعنى وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال {وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ} (29).¹

31- {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} إبراهيم 36 : قول الخليل عليه السلام فيه استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره ، فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة {وإن ربك لهُو العزيز الرحيم} [الشعراء: 9] ومن هاهنا كان قول المسيح عليه السلام {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: 118] أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة، وهي كمال القدرة، وعن حكمة، وهي كمال العلم، فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني، فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها، فهذا أحسن من ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فانت، فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لا سيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل الله ولدا، واتخذها إلها من دونه، فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة .

32- {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} النحل 18 : قد يسأل عن عنكته تعقيبها بقوله : "إن الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" وعن تعقيب آية : {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ} (إبراهيم: 34) بقوله : "إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ" لا سيما ومطلعهما واحد والجواب عنه، والله أعلم: أن آية إبراهيم تقدمها قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

¹ - ابن القيم - روضة المحبين ونزهة المشتاقين - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - ط : 1403هـ/1983 م - ص : 320 .

كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (إبراهيم: 28)، ثم قوله: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) (إبراهيم: 30)، ثم ذكر إنعامه على عباده في قوله: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) (إبراهيم: 32) إلى قوله: (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) (إبراهيم: 34)، فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه ودرور إحسانه ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار .

أما آية النحل فلم يتقدمها غير ما نبه سبحانه وعباده المؤمنين من متوالي آلائه وإحسانه، وما ابتدأهم (به) من نعمة من لدن قوله: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ) (النحل: 4)، ثم تواتت (آيات) الامتتان والإحسان فقال تعالى: (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ) (النحل: 5)، فذكر تعالى بعضاً وعشرين من أمهات النعم إلى قوله منبهاً وموقظاً من الغفلة والنسيان: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل: 17)، ثم أتبع بقوله سبحانه: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) (النحل: 18)، فناسب ختام هذا قوله: (إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل: 18) فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

33- {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل: 110: لما كانت هذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، أكدت مقابلتها باللام وهو مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله "يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (111) .

34- {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِيُغَيِّرِ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل: 115: يقول تعالى ذكره مكذبا المشركين الذين كانوا يحرمون ما ذكرنا من البحائر وغير ذلك: ما حرم الله عليكم أيها الناس إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذبح للأنصاب، فسمي عليه غير الله، لأن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته، فمن اضطر إلى ذلك أو إلى شيء منه لمجاعة حلت فأكله (غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) يقول: ذو ستر عليه أن يؤاخذ به فأكله ذلك في حال الضرورة، رحيم به أن يعاقبه عليه ، وأكدت جملة التذليل وقرنت بفاء الجواب بلاغا من الله للتيسير على عباده المؤمنين ودفعاً للشك في الدين .

35- {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل: 119: هذا حض من عباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءا بجهالة بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدا للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مفارقة الذنب. فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها. وانظر كيف أخبر في الآيتين 110 و 119 بالغفور الرحيم عن المبتدأ المسبوق بإنّ " ربك " ردا للعجز على الصدر إشارة إلى لطيفة كون الرب الذي منّ عليك وله وحه المنّة يمنّ على من اتبعك وهاجر معك وعلى من أذنب وتاب بالغفران والرحمة .

36 والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون (4) {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} النور: 5 : ذكر في حد القذف ثلاثة أحكام: جلد ثمانين وترك قبول شهادتهم أبدا وإنهم فاسقون {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وأن التوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقذوف وترفع الفسق بلا تردد وهل ترفع المنع من قبول الشهادة؟ فأكثر العلماء قالوا ترفعه.¹

37- {وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} : النور: 22 : النكته في هذه الآية يكفيها فهم الصديق للتحضيض من الله المختوم بذكر وصفين جميلين له في جملة حالية : " أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " فاستجاب وعاد للنفقة على مولاه مسطح بن أبي أثاة وكان قد اتلى " حلف " أن لا ينفق عليه بعد وقوعه في حادثة الإفك بقذف بنته الصديقة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

38- {وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتَعُنَّو عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} النور: 33 : ذكر ابن كثير عدة آثار بأسانيدھا في هذه الآية: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء} أنها: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها: مسيكة، كان يكرهها على الفجور - وكانت لا بأس بها - فتأبى. فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية إلى قوله {ومن يكرههن

¹ - ينظر : تفسير ابن كثير : 13/6 - 14 . و مجموع الفتاوى لابن تيمية : 305 / 15 .

فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم، وقوله تعالى من بعد إكراههن أي كونهن مكرهات على أن الإكراه مصدر من المبني للمفعول فإن توسطه بين اسم إن وخبرها للإيدان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة وكان الحسن البصري رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول لهن والله لهن والله في تخصيصها بهن وتعيين مدارهما مع سبق ذكر المكرهين أيضاً في الشرطية دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية كأنه قيل لا للمكروه ولظهوره هذا التقدير اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط فتجوز تعلقها بهم بشرط التوبة استقلالاً أو معهن إخلالاً بجزالة النظم الجليل وتهوين لأمر النهي في مقام التهويل وحاجتهن إلى المغفرة المنتبئة عن سابقة الإثم إما باعتبار أنهن وإن كن مكرهات لا يخلون في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية وإما باعتبار أن الإكراه قد يكون قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار بالمرّة وإما لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه والتشديد في تحذير المكرهين ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة لولا أن تداركهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر في حقهن فما حال من يكرهن في استحقاق العذاب .¹

أما ابن عاشور فقد قال فيها : " هذا صريح في أنه حكم متعلق بالمستقبل لأنه مضارع في حيز الشرط، وهو صريح في أنه عفو عن إكراه.

والذي يشتمل عليه هذا الخبر جانبان: جانب المكرهين وجانب المكرهات بفتح الراء، فأما جانب المكرهين فلا يخطر بالبال أن الله غفور رحيم لهم بعد أن نهاهم عن الإكراه إذ ليس لمثل هذا التبشير نظير في القرآن.

وأما الإمام المكرهات فإن الله غفور رحيم لهن. وقد قرأ بهذا المقدر عبد الله بن مسعود وابن عباس فيما يروى عنهما وعن الحسن أنه كان يقول غفور رحيم لهن والله. وجعلوا فائدة هذا الخبر أن الله عذر المكرهات لأجل الإكراه، وأنه من قبيل قوله: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} . وعلى هذا فهو تعريض بالوعيد للذين يكرهون الإمام على البغاء.

ومن المفسرين من قدر المحذوف ضمير من الشرطية، أي غفور رحيم له، وتأولوا ذلك بأنه بعد أن يقلع ويتوب وهو تأويل بعيد.

¹ - ينظر : تفسير أبي السعود- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : 174/6 .

وقوله: {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} دليل جواب الشرط إذ حذف الجواب إيجازا واستغنى عن ذكره بذكر علته التي تشملته وغيره. والتقدير: فلا إثم عليهن فإن الله غفور رحيم لأمثالهن ممن أكره على فعل جريمة.

والفاء رابطة الجواب ، وحرف إن في هذا المقام يفيد التعليل ويغني غناء لام التعليل.¹

39- {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {النور 62} : لما كان الإذن كالدليل على كمال الإيمان والمميز للمخلص من غيره أعاده مؤكدا بأسلوب أبلغ فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي إن الذين لا ينصرفون إذا كانوا معك أيها الرسول في أمر جامع إلا بإذنك لهم، طاعة منهم لله ولك، وتصديقا بما أتيتم به من عنده أولئك هم المؤمنون حقا. ولما ذكر ما يلزم المؤمن من الاستئذان أعقبه بما يفعله الرسول حينئذ فقال: {فَإِذَا اسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ} أي فإذا استأذنتك لبعض ما يعرض لهم من مهام أمورهم فأذن لمن شئت منهم أن ينصرف لقضاء ما عرض له، بحسب ما تقتضيه المصلحة التي تراها، كما وقع لعمر رضى الله عنه حين خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك، حيث استأذن فى الرجوع إلى أهله فأذن له صلى الله عليه وسلم وقال له: ارجع فليست بمنافق.

{وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي وادع الله أن يتفضل عليهم بالعفو عن تبعات ما بينه وبينهم، إنه غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.²

40- وَأَنْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) {إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} {النمل 11} : قوله: {إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ} للمفسرين فيه وجهان:

¹ - التحرير والتنوير : 182/18 .

² - ينظر : تفسير المراعي - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ط : 1 / 1365 هـ - 1946 م -

ص : 140/18 .

أحدهما: أنه استثناء منقطع، لأن المرسلين معصومون من المعاصي، وهذا هو الظاهر الصحيح، والمعنى: لكن من ظلم من سائر الناس، فإنه يخاف فإنه تاب وبدل حسناً بعد سوء فأني غفورٌ رحيمٌ.

والثاني: أنه متصلٌ، وللمفسرين فيه عبارات، قال الحسن: إن موسى ظلم بقتل القبطي، ثم تاب فقال: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} [القصص: 22] لكن التحقيق - والله أعلم - القول الثاني هو الصواب ، لأن سبحانه أخبر عن صفات المتقين وأنهم يقع منهم ظلم النفس والفاحشة لكن لا يصرون على ذلك، وقال تعالى: {والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون} [الزمر: 33-35] فهؤلاء الصديقون المتقون قد أخبر سبحانه أن لهم أعمالاً سيئة يكفرها، ولا ريب أنها ظلم للنفس وقال موسى: {رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم} [القصص: 16] ، وقال آدم عليه السلام: {قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} [الأعراف: 23] ، وقال يونس عليه السلام: {لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين} [الأنبياء: 87] ، وقال تعالى: {إنني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم} [النمل: 11] .

وإذا كان ظلم النفس لا ينافي الصديقية والولاية، ولا يخرج العبد عن كونه من المتقين، بل يجتمع فيه الأمران يكون ولياً لله صديقاً متقياً وهو مسيء ظالم لنفسه، علم أن ظلمه لنفسه لا يخرج عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه، إذ هو مصطفى من جهة كونه من ورثة الكتاب علماً وعملاً، ظالم لنفسه من جهة تقريطه في بعض ما أمر به وتعديه بعض ما نهى عنه، كما يكون الرجل ولياً لله محبوباً له من جهة ومبغوضاً له من جهة أخرى، وهذا عبد الله حمار كان يكثر شرب الخمر والله يبغضه من هذه الجهة، ويحب الله ورسوله ويحبه الله ويواليه من هذه الجهة، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لعنه وقال: إنه يحب الله ورسوله ونكتة المسألة أن الاصطفاء والولاية والصديقية وكون الرجل من الأبرار ومن المتقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التجزيء والانقسام والكمال والنقصان كما هو ثابت باتفاق المسلمين في أصل الإيمان، وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفى من وجه ظالماً لنفسه من وجه آخر.

وظلم النفس نوعان: نوع لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والصديقية والاصطفاء وهو ظلمها بالشرك والكفر، ونوع يبقى معه حظه من الإيمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف، فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل أشكالها بحمد الله.

41- إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (30) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (31) {نُزُلًا مِّنْ غُفُورٍ رَّحِيمٍ} فصلت 32 : ما أعظم تناسب وصف الجنة بالنزل الذي تزول فيه المخاوف من عاقبة الذنوب والحزن والقنوط من نيل الرحمة ففي التذليل بالغفور والرحيم من ناحية البيان نشر على ألا تخافوا ولا تحزنوا وفي لطيف المعنى قضاء عليهما أبد الآبدين ، والله أعلم .

42- {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} الحجرات 5 : في تعقيب هذا اللوم بقوله: والله غفور رحيم إشارة إلى أنه تعالى لم يحص عليهم ذنبا فيما فعلوا ولا عرض لهم بتوبة. والمعنى: والله شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس لأن القوم كانوا جاهلين.

43- {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} الحجرات 14 : يقول تعالى ذكره: إن الله ذو عفو أيها الأعراب لمن أطاعه، وتاب إليه من سالف ذنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبكم، رحيم بخلقه التائبين إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذنوبهم على ما تابوا منه، فتوبوا إليه يرحمكم.

44- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} الحديد 28 : وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ أي مبالغ في المغفرة والرحمة فلا بدع إذا آتاكم كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَغَفَرَ لَكُمْ .

45- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} المجادلة 12 : قوله: (فإن لم تجدوا) يقول تعالى ذكره: فإن لم تجدوا ما تتصدقون به أمام مناجاتكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، (فإن الله غفور رحيم) يقول: فإن الله ذو عفو عن ذنوبكم إذا تبتم منها، رحيم بكم أن يعاقبكم عليها بعد

التوبة، وغير مؤاخذكم بمناجاتكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تقدموا بين يدي نجواكم إياه صدقة ، لأنه قال بعدها : {أشفتكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب

الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون (13) }

46- {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ }
المتحنة 7 : {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم} أي من أقاربكم المشركين {مودة} بأن يوافقكم في الدين وعدهم الله تعالى بذلك لما رأى منهم من التصلب في الدين والتشدد لله في معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم ومقاطعتهم إياهم بالكلية تطيباً لقلوبهم ولقد أنجز وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحاب والتصافي ما تم لله قديرٌ { أي مبالغ في القدرة فيقدر على قلب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة لله غفورٌ رحيمٌ} فيغفر لمن أسلم من المشركين ويرحمهم وقيل غفورٌ لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم .

47- {يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنيْنَ ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروفٍ فبأيعهن واستغفر لهن الله إن الله غفورٌ رحيمٌ } المتحنة 12 : {فبأيعهن واستغفر لهن الله} عما مضى {إن الله غفورٌ} بتمحيق ما سلف {رحيمٌ} بتوفيق ما انتفت في التعقيب تعليل .

48- {يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفورٌ رحيمٌ } التغابن 14: روى ابن جرير في قوله: (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) قال: كان الرجل يسلم، فيلومه أهله وبنوه، فنزلت: (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم) ¹.

وقوله: (وإن تعفوا وتصفحوا) يقول: إن تعفوا أيها المؤمنون عما سلف منهم من صدهم إياكم عن الإسلام والهجرة وتصفحوا لهم عن عقوبتكم إياهم على ذلك، وتغفروا لهم غير ذلك من الذنوب (فإن الله غفور رحيم) لكم لمن تاب من عباده، من ذنوبكم (رحيم) بكم أن يعاقبكم عليها من بعد توبتكم منها. فجملة فإن الله غفور رحيم دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر والتقدير وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم لأن الله غفور رحيم، أي للذين يغفرون ويرحمون، وجمع وصف رحيم الخصال الثلاث.

¹ - ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن : 425/23 .

49- { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

التحريم 1 : ذيل بجملة والله غفور رحيم استئناسا للنبي صلى الله عليه وسلم من وحشة هذا الملام، أي والله غفور رحيم لك مثل قوله: عفا الله عنك لم أذنت لهم [التوبة: 43] .

50- { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُعَدِّدُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَٰنَ أَنْ لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا نَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمًا أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا نَزَّلَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } { المزملة 20:

جملة إن الله غفور رحيم تعليل للأمر بالاستغفار، أي لأن الله كثير المغفرة شديد الرحمة. والمقصود من هذا التعليل الترغيب والتحريض على الاستغفار بأنه مرجو الإجابة. وفي الإتيان بالوصفين الدالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (غفوراً رحيماً)

1- { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ يَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا } { النساء 23:

2- لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (95) { دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } { النساء 96 : قال أبو جعفر: وأولى التأويلات بتأويل قوله: "درجات منه"، أن يكون معنياً به درجات الجنة، كما قال ابن محيريز. لأن قوله تعالى ذكره: "درجات منه": ترجمة وبيان عن قوله: "أجراً عظيماً"، ومعلوم أن "الأجر"، إنما هو الثواب والجزاء. وإذ كان ذلك كذلك، وكانت "الدرجات" و"المغفرة" و"الرحمة" ترجمة عنه، كان معلوماً أن لا وجه لقول من وجه معنى قوله: "درجات منه"، إلى الأعمال وزيادتها على أعمال القاعدين عن الجهاد، كما قال قتادة وابن زيد: وإذ كان ذلك كذلك، وكان الصحيح من تأويل ذلك ما ذكرنا، فبين أن معنى الكلام: وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين من غير أولي الضرر، أجراً عظيماً، وثواباً جزيلاً

وهو درجات أعطاهموها في الآخرة من درجات الجنة، رفعهم بها على القاعدين بما أبلوا في ذات الله.

" ومغفرة" يقول: وصفح لهم عن ذنوبهم، فتفضل عليهم بترك عقوبتهم عليها "ورحمة"، يقول: ورأفة بهم="وكان الله غفورا رحيمًا"، يقول: ولم يزل الله غفورا لذنوب عباده المؤمنين، يصفح لهم عن العقوبة عليها "رحيمًا" بهم، يتفضل عليهم بنعمه، مع خلافهم أمره ونهيه، وركوبهم معاصيه.¹

3- {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } النساء100: في إبهام هذا الأجر وجعله حقا واجبا عليه تعالى إيدان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه، والله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئا، إذ لا سلطان فوق سلطانه.

وما أعظم الفارق بين هذا الوعد المؤكد وبين وعد تاركي الهجرة لضعف أو عجز بأنهم محل رجاء وطمع عند الله.

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أي وكان شأن الله الغفران أزلا وأبدا لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله، والرحمة الشاملة لهم بعطفه وإحسانه.

4- إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (105) {وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } النساء106: يعني جل ثناؤه بقوله: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله"، "إنا أنزلنا إليك" يا محمد - "الكتاب"، يعني: القرآن - "لتحكم بين الناس"، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم - "بما أراك الله"، يعني: بما أنزل الله إليك من كتابه - "ولا تكن للخائنين خصيما"، يقول: ولا تكن لمن خان مسلما أو معاهدا في نفسه أو ماله - "خصيما" تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خانه فيه - "واستغفر الله"، يا محمد، وسله أن يصفح لك عن عقوبة ذنبك في مخاصمتك عن الخائن من خان مالا لغيره - "إن الله كان غفورا رحيمًا"، يقول: إن الله لم يزل يصفح عن ذنوب عباده المؤمنين، بتركه عقوبتهم عليها إذا استغفروه منها - "رحيما" بهم.

فافعل ذلك أنت، يا محمد، يغفر الله لك ما سلف من خصومتك عن هذا الخائن.

¹ - ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن : 99/9 .

وقد قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن خاسم عن الخائن، ولكنه هم بذلك، فأمره الله بالاستغفار مما هم به من ذلك ، وذكر أن الخائنين الذين عاتب الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم في خصومته عنهم: بنو أبيرق ، واختلف أهل التأويل في خيانتها التي كانت منه، فوصفه الله بها.¹

5- {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} النساء 110 : المراد بالاستغفار التوبة وطلب العفو من الله عما مضى من الذنوب قبل التوبة، ومعنى يجد الله غفورا رحيمًا يتحقق ذلك، فاستعير فعل يجد للتحقق لأن فعل وجد حقيقته الظفر بالشيء ومشاهدته، فأطلق على تحقيق العفو والمغفرة على وجه الاستعارة.

ومعنى غفورا رحيمًا شديد الغفران وشديد الرحمة وذلك كناية عن العموم والتعجيل، فيصير المعنى يجد الله غافرا له راحما له، لأنه عام المغفرة والرحمة فلا يخرج منها أحد استغفره وتاب إليه، ولا يتخلف عنه شمول مغفرته ورحمته زمانا، فكانت صيغة غفورا رحيمًا مع يجد دالة على القبول من كل تائب بفضل الله.

6- {وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} النساء 129 : وقال وفي الآية قبلها : "وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً " (128) فيهما سؤال: عن قوله "خبيرا" في الأولى و"غفورا" في الثانية.

والجواب والله أعلم: أن الآية الأولى فيما بين المرأة وزوجها فإذا خافت منه وأرادت تآلفه وبقائه وكيونتها في عصمته فلا جناح عليهما أن تعطى شيئا من نفسها وتترك بعض حقها كأن تؤثر ضررتها في القسمة أو تترك هي حظها كما فعلت سودة رضى الله عنها أو تهب له من حالها لا جناح عليهما في هذا ولا على زوجها في قبول ذلك منها وإن كان الطبع يأبى من إسقاط حق أو تنقصه لما جبلت عليه النفوس وإليه الإشارة بقوله تعالى: "وأحضرت الأنفس الشح" ثم قال تعالى: "وإن تحسنوا وتتقوا" فندب كلا منهما إلى الإحسان والتقوى والزوج أخص بذلك وأولى وأن يحتمل كل منهما من صاحبه ويصبر فإن الله مطلع عليه خبير بما يكنه ويخفيه،

¹ - ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن : 175/9 .

ثم قال: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بيم النساء ولو حرصتم " لأن القلوب لا تملك ولا بيد الإنسان فسادها ولا صلاحها فإن عدل في القسمة والمحادثة والإنفاق والنظر وبشاشة الوجه وجميل الملاقاة وفرضنا اجتهاده في هذا كله حتى تحصل المساواة لم يقدر أن يميل بقلبه إلى كلهن على حال سواء: "فلا تميلوا كل الميل " بل على الإنسان أن يجتهد وفي الحديث عنه عليه السلام: "اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك "، "فتذروها كالمعلقة " لا ممسكة ولا مطلقة ثم قال تعالى: "وإن تصلحوا وتتقوا " والمراد ما استطعتم وكان في إمكانكم فإن الله يغفر لكم ما سوى ذلك.

والآية الأولى مقصودها يستدعى ما ختمت به من أنه تعالى خبير بأفعال عباده وأعمالهم الظاهرة والباطنة ومساق هذه الأخرى يستدعى مغفرته تعالى إذ قد عرفت الآية أن العدل لا يستطاع فإن لم تكن المغفرة هلك الملك فورد أعقاب كل آية بما يناسب والله أعلم.

7- {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} النساء 152 : وكان الله غفوراً رحيماً أي غفوراً لهم ما سلف من كفرهم، رحيماً بهم.

8- {وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً (5) {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} الفرقان 6 : قُلْ {يا محمد {أَنْزَلَهُ} أي القرآن {الذي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي يعلم كل سر خفي في السموات والأرض يعني أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام من غير تعليم دل ذلك على أنه من عند علام الغيوب ثم قال : {إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} فذكر الغفور في هذا الموضع لوجهين: أحدهما : أنه لما أنزله لأجل الإنذار وجب أن يكون غفوراً رحيماً، غير مستعجل بالعقوبة.

الثاني: أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العقاب صباً، ولكن صرف عنهم كونه غفوراً رحيماً، يمهل ولا يعاجل.

9- والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثماً (68) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (69) {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} الفرقان 70 : وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح وهو حقيقة التوبة قال

ابن عباس رضى الله عنهما: "ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت وفرحه بنزول 1: 48 {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.

قال ابن القيم: "واختلفوا في صفة هذا التبديل وهل هو في الدنيا أو في الآخرة على قولين: فقال ابن عباس وأصحابه: "هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها فبدلهم بالشرك إيماننا وبالزنا عفة وإحساننا وبالكذب صدقا وبالخيانة أمانة".

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة وأعمالهم السيئة عوضها صفات جميلة وأعمالا صالحة كما يبذل المريض بالمرض صحة والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: "هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة فيعطيهن مكان كل سيئة حسنة".

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذى في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله: "إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها فيقال: عملت يوم كذا وكذا وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من كبارها فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة فيقول: إن لي ذنوبا ما أراها ههنا قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه".

والاستدلال به لا يتضح إلا بعد تمهيد قاعدة إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته وهي أن الذنب لا بد له من أثر وأثره يرتفع بالتوبة تارة وبالحسنات الماحية تارة وبالمصائب المكفرة تارة وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة وكذلك إذا اشتد أثره ولم تقو تلك الأمور على محوه فلا بد إذا من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان ليخلص ذهب إيمانه من خبثه فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح وهي أقوى الأسباب وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار فإذا تطهر بالنار وزال أثر الوسخ والخبث عنه أعطي مكان كل سيئة حسنة فإذا تطهر بالتوبة النصوح وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار

وأحب إلى الله وإزالة النار بدل منها وهي الأصل فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول ذلك أن التائب قد بدل كل سيئة حسنة بندمه عليها إذ هو توبة تلك السيئة والندم توبة والتوبة من كل ذنب حسنة فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار فتأمله فإنه من أطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة وقد تكون دونها وقد تكون فوقها وهذا بحسب نصح هذه التوبة وصدق التائب فيها وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها¹.

10- {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } الأحزاب 5
يَغْفِرُ لِلْمُخْطِئِ وَيَرْحَمُهُ وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُ، أَوْ غَفُورًا لِلذُّنُوبِ رَحِيمًا بِالْعِبَادِ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَنْ يَغْفِرُ لَهُ وَيَرْحَمُهُ مَنْ دَعَا رَجُلًا لِغَيْرِ أَبِيهِ خَطَأً. أَوْ قَبْلَ النَّهْيِ عَنِ ذَلِكَ.

11- {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ عَافًا رَحِيمًا } الأحزاب 24 : {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} أي لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث إلى التوبة وقوله تعالى: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (25) رجوع إلى حكاية بقية القصة وتفصيل تنمة النعمة المشار إليها إجمالاً بقوله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) وانظر كيف قابل جزاء المؤمنين : {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} برد الكافرين بغيظهم : " وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا " .

12- {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْحِفَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } الأحزاب 50 : التعقيب بجملة وكان الله غفورا رحيمًا تذييل لما شرعه من الأحكام للنبي صلى الله عليه وسلم لا للجملة المعترضة، أي أن ما أردناه من نفي الحرج عنك هو من متعلقات صفتي الغفران والرحمة اللتين هما من تعلقات الإرادة والعلم فهما ناشئتان عن صفات الذات،

¹ - ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : 301/1 .

فذلك جعل اتصاف الله بهما أمرا متمكنا بما دل عليه فعل كان المشير إلى الأزلية والأبدية كما ذكرناه في مواضع كثيرة.

13- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا { الأحزاب 59 : أَي لِمَا سَلَفَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ عِلْمٌ بِذَلِكَ .

14- {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {الأحزاب 73 : : وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا أَي مبالغاً في المغفرة والرحمة حيث تاب على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم فرطاتهم وأثابهم بالفوز العظيم على طاعتهم نسأل الله تعالى أن يتوب علينا ويغفر لنا ويثيبنا بالفوز العظيم إنه جل جلاله وعم نواله غفور رحيم.

15- {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {الفتح 14: : وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ المتصرف في الكل كما يشاء يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ أن يغفر له وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ أن يعذبه من غير دخل لأحد في شيء من غفرانه تعالى وتعذيبه جل وعلا وجوداً وعدماً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا مبالغاً في المغفرة لمن يشاء ولا يشاء سبحانه إلا لمن تقتضي الحكمة المغفرة له ممن يؤمن به سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وأما من عداه من الكافرين المجاهرين والمنافقين فهم بمعزل من ذلك قطعاً وفي تقديم المغفرة والتذليل بكونه تعالى غفورا بصيغة المبالغة وضم رحيماً إليه الدال على المبالغة أيضاً دون التذليل بما يفيد كونه سبحانه معذباً مما يدل على سبق الرحمة ما فيه.

وفي الحديث " كتب ريكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق رحمتي سبقت غضبي " وهذا السبق على ما أشار إليه في أنوار التنزيل ذاتي وذلك لأن الغفران والرحمة بحسب الذات والتعذيب بالعرض وتبعيته للقضاء والعصيان المقتضي لذلك وقد صرح غير واحد بأن الخير هو المقضي بالذات والشر بالعرض إذ لا يوجد شر جزئي إلا وهو متضمن لخير كلي، وفصل ذلك في شرح الهياكل، وقال بعض الأجلة: المراد بالسبق في الحديث كثرة الرحمة وشمولها وكذا المراد بالغلبة الواقعة في بعض الروايات، وذلك نظير ما يقال: غلب على فلان الكرم ومن جعل الرحمة والغضب من صفات الأفعال لم يشكل عليه أمر السبق ولم يحتج إلى جعلن ذاتياً كما لا يخفى والآية على ما قال أبو حيان لترجية أولئك المنافقين بعض الترجية إذا آمنوا حقيقة، وقيل:

لحسم أطماعهم الفارغة في استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم، وفسر الزمخشري مَنْ يَشَاءُ الأول بالتائب والثاني بالمصّر ثم قال: يكفر سبحانه السيئات باجتتاب الكبائر ويغفر الكبائر بالتوبة وهو اعتزال منه مخالف لظاهر الآية¹.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (الغفور الرحيم)

1- {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {يونس 107} : وهذه الآية تشبه قوله تعالى: "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" فورد جواب الشرط الثانى فى آية الأنعام بقوله: "فهو على كل شىء قدير" وفى يونس بقوله: "فلا راد لفضله" وقال فى الأولى: "وَإِنْ يَمْسَسْكَ" وفى آية يونس: "وَإِنْ يَرِدْكَ" وأعقت آية يونس بقوله: "وهو الغفور الرحيم" فخص هاتين الصفتين العليتين من صفاته تعالى فهذه ثلاث أسئلة للوسائل أن يسأل عن توجيهها وموجب ما ورد عليه ما ذكر؟

والجواب عن الأول والله أعلم أن مدار الآية الأولى وهى آية الأنعام على أنه سبحانه المنفرد بالخلق والاختراع والمتصرف فى عباده بما يشاء والقدير على كل شىء ونفى هذه الصفات عن سواه سبحانه وتنزيل هذا عل ما افتتحت به السورة من قوله تعالى: "الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور" وقوله: "هو الذى خلقكم من طين" وقوله "وهو الله فى السماوات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم" وقوله فيمن أهلكه من القرون بكفرهم: "مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا...." الآية وقوله: "قل لمن ما فى السماوات والأرض... الآية وقوله: "قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض... الآية فدارت هذه الآى كلها على التعريف بوحدانيته تعالى وانفراده بخلق الأشياء وملكها وقهرها ولم يقع فيها تعرض إلى أن أحدا من خلقه يمنع أو يدفع أو يتعاطى استبدادا بشىء وإن كان قد يفهم بعض ذلك من الجارى أثناء الكلام كقوله: "ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" وقوله: "قل أغير الله أتخذ وليا... الآية"

بل فى قوة الجارى فى هذه الآى أن المشار إليهم بمخالفة مقتضاها أخذوا إلى ترك التغير واشبهوا البهائم فى البعد عن النظر وكأنهم يرون أن الأفعال وما يتجرد فى العالم من المدركات المشاهدات من الأجسام والأعراض على كثرة تنوعها واختلاف شياتها وأشكالها زججت بأنفسها

¹ - ينظر الألوسى - روح البيان : 13 / 255 .

لا عن فاعل تقدمها أوجدها بالقدرة والاختيار بل تكونت بأنفسها فقبل مرتكبهم بالتعريف بقدرته تعالى على كل شئ وأنه الموجد لما فى العالم العلوى والسفلى وقيل له عليه السلام: "وإن يمسسك الله بضر .." الآية

إعلاما بأن ما يكون من هذا فمنه تعالى لأنه المنفرد بالخلق والتقدير على كل شئ فهذا حاصل ما تقتضيه آية الأنعام.

وأما آية يونس فقد ذكر قبلها حال من ظن أن غيره تعالى يضر أو ينفع قال تعالى: "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " فقد نسبوا لهم النفع بالشفاعة وقال تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ..." الآية

وقال تعالى: "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ..." الآية
وقال تعالى: "قل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده " وقال تعالى: "قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق " فدارت هذه الآيات على أنهم توهموا نفع ما اتخذوه معبودا من شركائهم فبطل توهمهم واضمحل باطلهم واتبع ما تقدم بقوله جل وتعالى لنبيه عليه السلام: "ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك " ثم بقوله تعالى: "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله " وحصل من هذا أن كل ما عبد دونه سبحانه وتوهم أنه يضر أو ينفع ليس كما ظنوه قال تعالى: "وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه " فناسب ما تقدم من التنصيص على انفراده تعالى بالخلق والأمر.

والجواب عن السؤال الثانى والله أعلم: أن قوله تعالى هنا: "وإن يردك بخير " ولم يقل: "وإن يمسسك بخير " كما فى آية الأنعام أنه تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى: "إن الذين حقت كلمة ربك لا يؤمنون ..." الآية

فهو إعلام منه سبحانه بجرى الخلائق على ما قدر لهم أزلا وسبق به حكمه تعالى ثم أعقب بقوله تعالى: "ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا " فهذا تأكيد للغرض المذكور من جرى العباد على ما قدر لهم وما شاءه سبحانه فيهم وإن ذلك لا يرده راد ولا يعارضه معارض فناسب هذا قوله تعالى: "وإن يردك بخير فلا راد لفضله " أتم مناسبة ثم وقع بعد هذا قوله تعالى: "يصيب به من يشاء من عباده " وإصابته سبحانه من يشاء بالخير هو المراد بقوله فى آية الأنعام: "وإن يمسسك بخير " فاجتمع فى آية يونس الأمران معا وكان قد قيل: وإن يمسسك

بخير ويردك به فلا راد لما أصابك به وأراده لك ففي هذه الآية من إمعان المقصود وتأكيده ما ليس في آية الأنعام ليطابق هذا التأكيد والإمعان ما تقدم من قوله تعالى: "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون" وقوله: "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا" ولم يتقدم في آية الأنعام مثل هذا فوقع الاكتفاء هناك بقوله: "وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير" فجاء كل على من هذا على أتم مناسبة وأوضح ملاءمة والله أعلم.

2- قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين (97) {قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} يوسف 98 : وعدهم بالاستغفار لهم في مستأنف الزمان، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة، لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء وأكد بضمير الفصل لتقوية الخبر.

3- {نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الحجر 49 وقال بعدها : " وأن عذابي هو العذاب الأليم" 50 : هذا القران مثل : " إن ربك لسريع العقاب وأنه لغفور رحيم " (167) الأعراف ، ومثل : اعلموا أن الله شديد العقاب وإن الله غفور رحيم (98) المائدة :

ففي قوله : نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) قال الزخشي في كشافه : لما أتم ذكر الوعد والوعيد في قوله من قبل : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44) أتبعه نَبِيُّ عِبَادِي تَقْرِيراً لما ذكر وتمكيناً له في النفوس. وعن ابن عباس رضى الله عنه: غفور لمن تاب، وعذابه لمن لم يتب. وعطف وَنَبِيُّهُمْ على نبي عبادي، ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم.¹

ولعل أحسن النكت في هذه الآية ما ذكره الفخر الرازي : " اعلم أن عباد الله قسمان : منهم من يكون متقيا ، ومنهم من لا يكون كذلك ، فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية فقال : نَبِيُّ عِبَادِي.

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، فههنا وصفهم بكونهم عبادا له ، ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف

¹ - الكشاف : 580/2 .

الحكم بكونه غفورا رحيمًا ، فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفورا رحيمًا ومن أنكر ذلك كان مستوجبا للعقاب الأليم. وفي الآية لطائف : إحداها : أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله : عِبَادِي وهذا تشريف عظيم. ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا / صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج لم يزد على قوله : سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ [الإسراء : 1]. وثانيها : أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة : أولها : قوله : أَنِّي.

وثانيها : قوله : أَنَا. وثالثها : إدخال حرف الألف واللام على قوله : الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ولما ذكر العذاب لم يقل أنني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال : وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ. وثالثها : أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة. ورابعها : أنه لما قال : نَبِيُّ عِبَادِي كان معناه نبيء كل من كان معترفا بعبوديتي ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى. وعن قتادة قال : بلغنا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : «لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى ما تورع من حرام ، ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه» أي قتلها" ¹.

و قال الغزالي رحمه الله في «منهاجه» : «ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الرجاء والخوف قوله تعالى: نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ، ثم قال في عَقِبَهُ: وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ لئلاَّ يستولي عَلَيْكَ الرجاء بِمَرَّةٍ، وقوله تعالى: شَدِيدَ الْعِقَابِ [غافر: 3] ، ثم قال في عقبه: ذِي الطَّوْلِ [غافر: 3] ، لئلاَّ يستولي عَلَيْكَ الخوف، وَأَعْجَبُ من ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: وَيُحَدِّثُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ [آل عمران: 30] ، ثم قال في عقبه: وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ [آل عمران: 30] ، وَأَعْجَبُ منه قَوْلُهُ تَعَالَى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ [ق: 33] ، فَعَلَّقَ الخشية باسم الرحمن، دون اسمِ الْجِبَّارِ أو المنتقمِ أو المتكبرِ ونحوه، ليكون تخويفاً في تأمينٍ، وتحريكاً في تسكينٍ كما نقول: «أما تخشى الوالدة الرحيمة، أما تخشى الوالد الشفيق» ، والمراد من ذلك أن يكون الطريق عدلاً، فلا

¹ - مفاتيح الغيب : 149/19 .

تذهب إلى أَمْنٍ وَقنوطٍ جعلنا الله وإياكم من المتدبرين لهذا الذكر الحكيم، العاملين بما فيه، إنه الجواد الكريم انتهى.¹

4- {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} القصص 16: جملة إنه هو الغفور الرحيم تعليل لجملة فغفر له علل المغفرة له بأنه شديد الغفران ورحيم بعباده، مع تأكيد ذلك بصيغة القصر إيماء إلى أن ما جاء به هو من ظلم نفسه وما حقه من الأمور التي ذكرناها.

5- {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الزمر 53 : هذه الآية بشرى عظيمة للمؤمنين قوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ} : قيل في هذه الآية من أنواع المعاني والبيان أشياء حسنة، منها: إقباله عليهم ونداؤهم، ومنها: إضافتهم إليه إضافة تشريف، ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: {مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} ، ومنها: إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى، ومنها: إعادة الظاهر بلفظه في قوله: «إِنَّ اللَّهَ» ، ومنها: إبراز الجملة من قوله: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} مؤكدة ب «إِنَّ» ، وبالفصل، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الآية السابقة.

6- {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الشورى 5 : جملة " ألا إن الله هو الغفور الرحيم " تذييل لجملة والملائكة يسبحون بحمد ربهم ... لإبطال وهم المشركين أن شركاءهم يشفعون لهم، ولذلك جاء في هذه الجملة بصيغة القصر بضمير الفصل، أي أن غير الله لا يغفر لأحد. وصدرت بأداة التنبيه للاهتمام بمفادها.

7- {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الأحقاف 8 : وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن وإشعاراً بحلم الله تعالى عنهم مع عظم جرائمهم .
الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (الرحيم الغفور)

¹ - نقلا عن الثعالبي أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (المتوفى: 875هـ) - الجواهر الحسان في تفسير القرآن - ت : الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود - دار إحياء التراث العربي - بيروت ، لبنان - ط : 1 - 1418 هـ - ص : 402/3 .

1- {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ} : هذه الآية الوحيدة في القرآن التي قدّم فيها الرحيم على الغفور حيثما اقترنا وذلك لنكتة اللف والنشر فقدّم الرحيم لينشر على ما ذكر من رحمة الله في الآية قبله من كل ما يلج في الأرض من ماء هو رحمة من الله لعباده وقد صرّح به : " وما ينزل من السماء " ويدخل فيه الذكر الحكيم فهو أعظم رحمة وذكر بعده الغفور نشرًا على ما يخرج من الأرض من ذنوب وخطايا وأعمال ناقصة مليئة بالخلل تعرج في السماء تحتاج المغفرة والستر من رب الأرض والسماء ، فهو رحيم عند الإنزال حيث ينزل الرزق من السماء غفور عندما يعرج إليه الأرواح والأعيان والأعمال ، والله أعلم .

الرحيم الودود

1- {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} هود 90 : جملة واستغفروا ربكم عطف على جملة لا يجرمكم شقاقي ، وجملة إن ربي رحيم ودود تعليل الأمر باستغفاره والتوبة إليه، وهو تعليل لما يقتضيه الأمر من رجاء العفو عنهم إذا استغفروا وتابوا. وتفنن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنه ربهم كيلا يستمروا على الإعراض وللتشرف بانتسابه إلى مخلوقيته ، ففي قوله : {إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} ؛ ذكر رحمته وودّه؛ كما قال تعالى: {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} ، فشعيب عليه السلام أراد وصفاً يبيّن لهم أنه سبحانه يغفر الذنب، ويُقبل على التائب؛ وهو كونه ودوداً وودّه سبحانه هو لمن تاب إليه وأتاب إليه؛ كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} ، وقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} ، فلا يستوحش أهل الذنوب، وينفرون منه كأنهم حمرٌ مستنفرة؛ فإنه ودودٌ رحيمٌ بالمؤمنين، يُحبُّ التوابين، ويُحبُّ المتطهّرين.

كما قال تعالى: {وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ} ؛ فذكر (الودود) في الموضعين لبيان مودّته للمذنب إذا تاب إليه، بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ودّ فيه.

التواب الرحيم

1- {فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} البقرة 37 : التوبة: الرجوع، ومعنى وصف الله تعالى بذلك أنه عبارة عن العطف على عباده وإنقاذهم من العذاب، ووصف

العبد بها ظاهرٌ لأنه يَرْجِعُ عن المعصيةِ إلى الطاعةِ، والثَّوَابُ الرَّحِيمُ صفتا مبالغةٍ، ولا يختصَّان بالباري تعالى. قال تعالى: {يُحِبُّ التَّوَابِينَ} [البقرة: 222] ، ولا يُطْلَقُ عليه «تائب» وإن صُرِّحَ بفعله مُسْتَدًّا إليه تعالى، وقُدِّمَ الثَّوَابُ على الرحيم لمناسبةِ «فَتَابَ عليه» ولأنه موافقٌ لِحُتْمِ الفواصلِ بالرحيم.

2- {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَنُتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ} {البقرة: 54} : قد علقنا على هذا التذييل عند ذكر الباري ، ولا بأس نذكر لطيفة أخرى لهذا التذييل : فجملة: إنه هو التواب الرحيم خبر وثناء على الله، وتأكيده بحرف التوكيد لتنزيلهم منزلة من يشك في حصول التوبة عليهم لأن حالهم في عظم جرمهم حال من يشك في قبول التوبة عليه وإنما جمع التواب مع الرحيم لأن توبته تعالى عليهم كانت بالعفو عن زلة اتخاذهم العجل وهي زلة عظيمة لا يغفرها إلا الغفار، وبالنسخ لحكم قتلهم وذلك رحمة فكان للرحيم موقع عظيم هنا وليس هو لمجرد الثناء.

3- {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ} {البقرة: 128} : {إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ} وهو تعليلٌ للدعاء ومزيدٌ استدعاءً للإجابة والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ويعظم حسناتهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وليست التوبة نقصاً؛ بل هي من أفضل الكمالات وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى: {وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً} {يلعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات} فغاية كل مؤمن هي التوبة ثم التوبة تتنوع كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين. والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار: عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم. فقال آدم: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} وقال نوح: {رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين} وقال الخليل: {ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب} وقال هو وإسماعيل: {ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريرتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم} وقال موسى: {أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين} {واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك} وقال

تعالى: {فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} . وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء والله تعالى {يحب التوابين ويحب المتطهرين} وفي أواخر ما أنزل الله على نبيه: {إذا جاء نصر الله والفتح} {ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا} {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في افتتاح الصلاة: {اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني بالثلج والبرد والماء البارد} " وفي الصحيح أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح: " {اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت} " وفي الصحيح أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: " {اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله علانيته وسره أوله وآخره} فإذا قال القائل: أي حاجة بالأنبياء إلى العبادات والطاعات؟ كان جاهلا؛ لأنهم إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم فكيف يقال: إنهم لا يحتاجون إليها فهي أفضل عبادتهم وطاعتهم. وإذا قال القائل: فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب والاستغفار كذلك يل له: الذنب الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة كما قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة أحسن منه حالا قبل الخطيئة ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر؛ فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصا ولا عيبا؛ بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانا وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم؛ فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها .

4- إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {البقرة 160: {وأنا التواب الرحيم} أي المبالغ في قبول التوب ونشر الرحمة اعتراض تذييلي محقق لمضمون ما قبله والالتفات إلى التكلم للافتتان في النظم الكريم .

5- خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {التوبة 104: {وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره

مع زيادة معنى ليس فيه أي ألم يعلموا أنه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وأن ذلك سنة مستمرة له وشأن دائم والجملتان في حيز النصب بيعلما بسد كل واحدة منهما مسد مفعوليه ، ولا شك أن قبول التوبة من الرحمة فتعقيب التواب بالرحيم في غاية المناسبة.

6- {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} التوبة 118: قال أهل العلم : التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة وأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته.

وعليه فجملة إن الله هو التواب الرحيم تذييل مفيد للامتنان.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (تواباً رحيماً)

1- {وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَدْوَهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً} النساء 16: قال ابن كثير : " قَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي الرَّجُلَيْنِ إِذَا فَعَلَا - لَا يُكْنَى، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ اللَّوْاطَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ رَوَى أَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»¹.

وقال ابن عاشور : " وأما قوله والذان يأتيانها فهو مقتض نوعين من الذكور فإنه تنثية الذي وهو اسم موصول للمذكر، وقد قوبل به اسم موصول النساء الذي في قوله: واللاتي يأتيان الفاحشة ولا شك أن المراد ب الذان صنفان من الرجال: وهما صنف المحصنين، وصنف غير المحصنين منهم، وبذلك فسره ابن عباس في رواية مجاهد، وهو الوجه في تفسير الآية، وبه يتقوم معنى بين غير متداخل ولا مكرر. ووجه الإشعار بصنفي الزناة من الرجال التحرز من التماس العذر فيه لغير المحصنين. ويجوز أن يكون أطلق على صنفين مختلفين أي الرجال والنساء على طريقة التغليب الذي يكثر في مثله، وهو تفسير السدي وقتادة، فعلى الوجه الأول تكون الآية قد جعلت للنساء عقوبة واحدة على الزنى وهي عقوبة الحبس في البيوت، وللرجال

¹ - تفسير ابن كثير : 206/2 .

عقوبة على الزنى، هي الأذى سواء كانوا محصنين بزوجات أم غير محصنين، وهم الأعزبون. وعلى الوجه الثاني تكون قد جعلت للنساء عقوبتين: عقوبة خاصة بهن وهي الحبس، وعقوبة لهن كعقوبة الرجال وهي الأذى، فيكون الحبس لهن مع عقوبة الأذى. وعلى كلا الوجهين يستفاد استواء المحصن وغير المحصن من الصنفين في كلتا العقوبتين، فأما الرجال فبدلالة تثنية اسم الموصول المراد بها صنفان اثنان، وأما النساء فبدلالة عموم صيغة نسائكم.

وضمير النصب في قوله: يأتيناها عائد إلى الفاحشة المذكورة وهي الزنا. ولا التفات لكلام من توهم غير ذلك. والإيذاء: الإيلام غير الشديد بالفعل كالضرب غير المبرح، والإيلام بالقول من شتم وتوبيخ، فهو أعم من الجلد، والآية أجملته، فهو موكول إلى اجتهاد الحاكم.

وقد اختلف أئمة الإسلام في كيفية انتزاع هذين العقوبتين من هذه الآية: فقال ابن عباس، ومجاهد: اللاتي يأتين الفاحشة يعم النساء خاصة فشمّل كل امرأة في سائر الأحوال بكرة كانت أم ثيباً، وقوله: والذان تثنية أريد بها نوعان من الرجال وهم المحصن والبكر، فيقتضي أن حكم الحبس في البيوت يختص بالزواني كلهن، وحكم الأذى يختص بالزناة كلهم، فاستفيد التعميم في الحالتين إلا أن استفادته في الأولى من صيغة العموم، وفي الثانية من انحصار النوعين، وقد كان يغني أن يقال: واللاتي يأتين، والذين يأتون، إلا أنه سلك هذا الأسلوب ليحصل العموم بطريقتين مع التنصيص على شمول النوعين.

وجعل لفظ (اللاتي) للعموم ليستفاد العموم من صيغة الجمع فقط.

وجعل لفظ (واللذان) للنوعين لأن مفرده وهو الذي صالح للدلالة على النوع، إذ النوع يعبر عنه بالمذكر مثل الشخص، ونحو ذلك، وحصل مع ذلك كله تفنن بديع في العبارة فكانت بمجموع ذلك هاته الآية غاية في الإعجاز، وعلى هذا الوجه فالمراد من النساء معنى ما قابل الرجال وهذا هو الذي يجدر حمل معنى الآية عليه.

والأذى أريد به هنا غير الحبس لأنه سبق تخصيصه بالنساء وغير الجلد، لأنه لم يشرع بعد، فقيل: هو الكلام الغليظ والشتم والتعبير. وقال ابن عباس: هو النيل باللسان واليد وضرب النعال، بناء على تأويله أن الآية شرعت عقوبة للزنا قبل عقوبة الجلد.

واتفق العلماء على أن هذا حكم منسوخ بالجلد المذكور في سورة النور، وبما ثبت في السنة من رجم المحصنين وليس تحديد هذا الحكم بغاية قوله: أو يجعل الله لهن سبيلاً بصارف معنى

النسخ عن هذا الحكم كما توهم ابن العربي، لأن الغاية جعلت مبهمة، فالمسلمون يتقربون ورود حكم آخر، بعد هذا، لا غنى لهم عن إعلامهم به.¹

2- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ النساء: 64 : لعلموه مبالغاً في القبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة وإن فسّر الوجدان بالمصادفة كان قوله تعالى تواباً حالاً ورحيماً بدل منه أو حالاً من الضمير فيه وأياً ما كان ففيه فضلٌ ترغيبٌ للسامعين في المسارعة إلى التوبة والاستغفارٍ ومزيدٌ تنديمٍ لأولئك المنافقين على ما صنعوا لما أن ظهورَ تباشيرِ قبولِ التوبةِ وحصولِ الرحمةِ لهم ومشاهدتهم لآثارهما نعمةً زائدةً عليهما موجبةً لكمال الرغبة في تحصيلها وتماح الحسرة على فواتها.

وقد أطلق الله سبحانه في القرآن اسم الوجود على نفسه صريحاً في مواضع، فقال تعالى ﴿يجد الله غفورا رحيمًا - لوجدوا الله توابا رحيمًا﴾ [النساء: 110 - 64] ﴿ووجد الله عنده﴾ [النور: 39] الوجود: الظفر بحقيقة الشيء. وفي القرآن تعلق باسم أو صفة، قال الله تعالى ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا﴾ [النساء: 64] فهذا وجود مقيد بظفرهم بمغفرة الله ورحمته لهم، وكذلك قوله تعالى ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا﴾ [النساء: 110] ومعناه: أنه يجد ما ظنه من مغفرة الله له حاصلة، وكذلك ﴿ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾ [النور: 39] فهذا وجدان الكافر لربه عند حسابه له على أعماله .

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (رعوف رحيم)

1- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: 143: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تحقيقٌ وتقريرٌ للحكم وتعليلٌ له فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضي لا محالة أن لا يُضيعَ أجورهم ولا يدعَ ما فيه صلاحهم والباء متعلقة برعوف ورحيم .

2- ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة: 117: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾

¹ - التحرير والتنوير : 273/4 .

تكريرٍ للتأكيد وتنبيةً على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة والمراد أنه تاب عليهم لكي يودتهم ، {إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ} استئنافٌ تعليليٌّ فإن صفةَ الرَّأْفَةِ والرحمةِ من دواعي التوبةِ والعفوِ ويجوز كونُ الأولِ عبارةً عن إزالةِ الضررِ والثاني عن إيصالِ المنفعةِ وأن يكونَ أحدهما للسوابقِ والآخِرُ لِلوَاحِقِ ، وبين الرُّؤُوفِ والرحيمِ فرق لطيف وإن تقاربا في المعنى، قال الخطابي: قد تكون الرحمة مع الكراهة ولا تكاد الرَّأْفَةُ تكون معها، وقيل الرَّأْفَةُ عبارة عن السعي في إزالةِ الضررِ، والرحمة عبارة عن السعي في إيصالِ النفعِ. والله أعلم .

4- {وَتَحْمِلُ أُنْفَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} النحل:7: بخلقه حيث جعل لهم هذه المنافع لإزالة التعب والنصب وهذا عين الرَّأْفَةِ

5- {أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} النحل: 47 : {فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها.

6- {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} الحج: 65 : {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} حيث هيأ لهم أسباب معاشهم وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية

7- {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ} النور: 20 : {وَأَنَّ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ} عطفٌ على فضلِ الله وإظهارُ الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابةِ والإشعارِ باستتباعِ صفةِ الألوهيةِ للرأفةِ والرحمةِ وتغييرُ سبكه وتصديره بحرفِ التحقيقِ لما أن بيانُ اتِّصافِهِ تعالى في ذاته بالرأفةِ التي هي كمالُ الرَّحْمَةِ والرَّحِيمِيَّةِ التي هي المبالغةُ فيها على الدوامِ والاستمرارِ لا بيانُ حدوثِ تعلقِ رأفتهِ ورحمتهِ بهم كما أن المراد بالمعطوفِ عليه وجوابُ لولا محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليه

8- {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} الحديد: 9 : {وَأَنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} حيثُ يهديكم إلى سعادةِ الدارين بإرسالِ الرسولِ وتنزيلِ الآياتِ بعد نصبِ الحُججِ العقليةِ .

9- {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ} الحشر: 10 : {رَبَّنَا إِنَّكَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ} أي مبالغ في الرَّأْفَةِ والرحمةِ فحقيقٌ بأن تجيبَ دُعاءَنَا .

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (البر و الرحيم)

1- والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين (21) وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون (22) يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم (23) ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون (24) وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (25) قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين (26) فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم (27) {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} الطور 28 : يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتتانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل، بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: {ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء} وقوله: إنه هو البر الرحيم قرأه نافع والكسائي وأبو جعفر بفتح همزة (أنه) على تقدير حرف الجر محذوفا حذفاً مطرداً مع (أن) وهو هنا اللام تعليلاً ل ندعوه، وقرأه الجمهور بكسر همزة (إن) وموقع جملتها التعليل.

والبرّ: المحسن في رفق.

والرحيم: الشديد الرحمة وتقدم في تفسير سورة الفاتحة. وضمير الفصل لإفادة الحصر وهو لقصر صفتي البر والرحيم على الله تعالى وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد ببرور غيره ورحمة غيره بالنسبة إلى برور الله ورحمته باعتبار القوة فإن غير الله لا يبلغ بالمبرة والرحمة مبلغ ما لله وباعتبار عموم المتعلق، وباعتبار الدوام لأن الله بر في الدنيا والآخرة، وغير الله بر في بعض أوقات الدنيا ولا يملك في الآخرة شيئاً.

المطلب الثاني : الغفور مع ما اقترن به : الحليم / الشكور / الودود / العفو / الكريم

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (غفور حليم)

1- {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ فُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} البقرة 225 : قوله: والله غفور حليم تذييل لحكم نفي المؤاخذة، ومناسبة اقتران وصف الغفور بالحليم هنا دون الرحيم، لأن هذه مغفرة لذنب هو من قبيل التقصير في الأدب مع الله تعالى،

فذلك وصف الله نفسه بالحليم، لأن الحليم هو الذي لا يستفزّه التقصير في جانبه، ولا يغضب للغفلة، ويقبل المعذرة.

2- {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} البقرة 235

3- {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} آل عمران 155: لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ حِينَ اسْتَارَتْ قُلُوبُهُمْ بِنُورِ النَّدَمِ وَالتَّوْبَةِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ وبمقتضى ذلك ظهرت المخالفات وأردفت بالتوبة ليكون ذلك مرآة لظهور صفات الله تعالى.

ومن هنا جاء «لو لم تذبوا لأتى الله تعالى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» .

4- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} المائدة 101 : {والله غفورٌ حلِيمٌ} اعتراضٌ تذييليٌّ مقرّر لعفوه تعالى أي مبالغٌ في مغفرة الذنوب والإغضاء عن المعاصي ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم .

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (غفور شكور)

1- إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور (29) {لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} فاطر 30 : والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته ويغفر له إذا تاب إليه فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لاساءته إنه غفور شكور .

وقد تقدم ذكر حقيقة شكر العبد وأما شكر الرب تعالى فله شأن آخر كشأن صبره فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور بل هو الشكور على الحقيقة فإنه يعطى العبد ويوفقه لما يشكره عليه ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره ويشكر الحسنة بعشر أمثالها الى أضعاف مضاعفة ويشكر عبده بقوله بأن يثنى عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى ويلقى له الشكر بين عبادته ويشكره بفعله فإذا ترك له شيئا أعطاه أفضل منه وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة وهو الذى وفقه للترك والبذل وشكره على هذا وذاك .

2- والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير (31) ثم أورتنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير (32) جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير (33) {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} فاطر 34 : انظر الى الفرق بين قول الله عن نفسه في الآية 30 : " إنه غفور شكور " بصيغة الغائب المتاجر معه تعليلا وتأكيدا وترغيبا للتجارة معه ثم قال في هذه : 34 "إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ" حكاية لقول المؤمنين الذين تاجروا معه وتحققوا من ربهم المنعم عليهم ما أخبرهم به عن نفسه فزادوا وصفه توكيدا : "إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ" يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ويتوب اليه فاعل القبيح فيغفر له حتى كأنه لم يكن قط من أهله إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسابان والسيئة عنده بواحدة ومصيرها الى العفو والغفران وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والارض الى آخر الزمان إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار وسماء عطاءه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار ويمينه ملى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

3- {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} الشورى 23 : جملة إن الله غفور شكور تذييل وتعليل للزيادة لقصد تحقيقها بأن الله كثيرة مغفرته لمن يستحقها، كثير شكره للمتقربين إليه. والمقصود بالتعليل هو وصف الشكور، وأما وصف الغفور فقد ذكر للإشارة إلى ترغيب المقترفين السيئات في الاستغفار والتوبة ليغفر لهم فلا يقتطوا من رحمة الله.

الآيات التي ورد بها اسما الله تعالى (الغفور و الودود)

{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} البروج 14 : لا إله إلا الله، نعم الربُّ ونِعْمَ إِلَهُهُ أَحِبُّهُ وَأَخْشَاهُ

نرجوا مغفرته ورضاه فهو المتودد إلى أوليائه بالمغفرة

وفعول معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل؛ كقول النبي [صلى الله عليه وسلم] : "تزوجوا الودود الولود" وفعول بمعنى فاعل كثير؛ كالصبور، والشكور، وأما بمعنى مفعول، فقليل.

وأيضاً: فَإِنَّ سِيَاقَ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوَدُّ عِبَادَهُ؛ كَمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرْحَمُهُمْ وَيَغْفِرُ لَهُمْ؛ فَإِنَّ شَعِيباً قَالَ: {وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}؛ فذَكَرَ رَحْمَتَهُ وَوَدَّه؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} وَهُوَ أَرَادَ وَصْفًا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيُقْبَلُ عَلَى التَّائِبِ؛ وَهُوَ كَوْنُهُ وَدُودًا؛ كَمَا قَالَ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُنتَهِرِينَ} وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنِ النَّبِيِّ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] أَنَّ اللَّهَ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِ أَشَدَّ مِنْ فَرَحِ مَنْ فَقَدَ رَاحِلَتَهُ بِأَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ، ثُمَّ وَجَدَهَا بَعْدَ الْيَأْسِ.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (عفوًا غفورًا)

1- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا {النساء 43 : {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} تَعْلِيلٌ لِلتَّرْخِيسِ وَالتَّيْسِيرِ وَتَقْرِيرٌ لَهُمَا فَإِنَّ مَنْ عَادَتُهُ الْمُسْتَمِرَّةُ أَنْ يَعْفُوَ عَنِ الْخَاطِئِينَ وَيَغْفِرَ لِلْمُذْنِبِينَ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَيْسِرًا لَا مَعْسِرًا ، وَالْعَفْوُ كَمَالُ وَالْقُدْرَةُ كَمَالُ وَالْعَفْوُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَيْنُ الْكَمَالِ ، وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ يَقُولَانِ سَبَّحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حَلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَاثْنَانِ يَقُولَانِ: سَبَّحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ، فَمَا كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَفَا، وَلَا كُلُّ مَنْ عَفَا يَعْفُو عَنِ الْقُدْرَةِ، وَلَا كُلُّ مَنْ عَفَا يَكُونُ حَلِيمًا، وَلَا كُلُّ حَلِيمٍ عَالِمٌ، فَمَا قَرْنَ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ أَزِينُ مِنْ حَلْمٍ إِلَى عِلْمٍ، وَمَنْ عَفَا إِلَى قُدْرَةٍ، وَمَنْ مَلَكَ إِلَى حَمْدٍ، وَمَنْ عَزَا إِلَى رَحْمَةٍ .

2- إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) {قُلْ أُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} {النساء 99 : وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} تَذْيِيلٌ مَّقْرَرٌ لَمَّا قَبْلَهُ بِأَتَمِّ وَجْهِهِ وَيَدْخُلُ مَعَهُمُ الْجَاهِلُ الْمُقْلِدُ الَّذِي لَا بَصِيرَةَ لَهُ فَهَذَا لَا يَكْفُرُ وَلَا يَفْسُقُ وَلَا تَرُدُّ شَهَادَتَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَحُكْمِهِ حَكْمَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَكُلُّهُمْ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (عفو غفور)

1- {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْتُهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} الحج: 60 : قوله: (إن الله لعفو غفور) يقول تعالى ذكره: إن الله لدو عفو وصفح لمن انتصر ممن ظلمه من بعد ما ظلمه الظالم بحق، غفور لما فعل ببيادئه بالظلم مثل الذي فعل به غير معاقبه عليه فهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله حيث شرع العدل فقال: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى: 40] . ثُمَّ نَدَبَ إِلَى الْفُضْلِ، فَقَالَ: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: 40] . وَلَمَّا نَدَبَ إِلَى الْعَفْوِ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَا لَوْمَ عَلَى الْمُنتَصِفِ، لِئَلَّا يُظَنَّ أَنَّ الْعَفْوَ فَرَضٌ فَقَالَ: {وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} [الشورى: 41] ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ السَّبِيلَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الظَّالِمِينَ فَقَالَ: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الشورى: 42] ، ثُمَّ لَمَّا رَفَعَ عَنْهُمْ السَّبِيلَ نَدَبَهُمْ مَعَ ذَلِكَ إِلَى الصَّبْرِ وَالْعَفْوِ فَقَالَ: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: 43] . فَهَذَا أَحْسَنُ شَرْعٍ وَأَحْكَمُهُ يُرَغَّبُ فِي الصَّبْرِ وَالْغَفْرِ وَالْعَفْوِ وَالْإِصْلَاحِ بِغَايَةِ التَّرْغِيبِ، وَيَذَكَّرُ مَا فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ وَحَمِيدِ الْعَاقِبَةِ، وَيَرْفَعُ عَنِ الْمُنتَصِفِ مِمَّنْ ظَلَمَهُ الْمَلَامَ وَالْعَدْلَ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ وَلَا سَبِيلَ إِذَا انْتَصَرَ بَعْدَمَا ظَلَمَ. فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَأْتِيَ شَرِيعَةٌ بِأَنْ تَجْعَلَ عَلَى الْمُنتَصِفِ سَبِيلًا مَعَ عَدْلِهِ وَهِيَ لَا تَجْعَلُ عَلَى الظَّالِمِ سَبِيلًا مَعَ ظُلْمِهِ؟¹

2- {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأْتِهِمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} {المجادلة: 2} : أعقب "لعفو" بقوله: غفور فقوله: وإن الله لعفو غفور في معنى: إن الله عفا عنهم وغفر لهم لأنه عفو غفور، يغفر هذا وما هو أشد.

والعفو: الكثير العفو، والعفو عدم المؤاخذة بالفعل أي عفو عن قولهم: الذي هو منكر وزور. والغفور: الكثير الغفران، والغفران الصفح عن فاعل فعل من شأنه أن يعاقبه عليه، فذكر وصف غفور بعد وصف (عفو) تتميم لتمجيد الله إذ لا ذنب في المظاهرة حيث لم يسبق فيها نهي، ومع ما فيه من مقابلة شيين وهما منكر وزور، بشيين هما (عفو غفور) . وتأکید الخبر في قوله تعالى: وإن الله لعفو غفور لمشاكلة تأكيد مقابله في قوله: وإنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا.

¹ - ينظر : ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : 110/5 - 111 .

وعلم من القرآن أن الإقدام على الظهر من الزوجة حرام حرمة شديدة ، كما دل عليه قوله تعالى: وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا، فما صرح الله تعالى بأنه منكر وزور فحرمة شديدة كما ترى. وبين كونه كذبا وزورا بقوله: ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم، وقوله تعالى: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم.

وأشار بقوله تعالى: وإن الله لعفو غفور، أن من صدر منه منكر الظهر وزوره، إن تاب إلى الله من ذلك توبة نصوحا غفر له ذلك المنكر والزور وعفا عنه، فسبحانه ما أكرمه وما أحلمه.

المطلب الثالث : الولي الحميد

1- {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} الشورى 28 : ذكر صفتي الولي الحميد دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة لأن الولي يحسن إلى مواليه والحميد يعطي ما يحمد عليه. ووصف حميد فعيل بمعنى مفعول. وفي هذا تحريض على توليه حمده وحده .

المطلب الرابع : الشكر زيادة على الحلم

{إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} التغابن 17: (والله شكور) يقول: والله ذو شكر لأهل الإنفاق في سبيله، بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا في الدنيا في سبيله (حليم) يقول: حليم عن أهل معاصيه بترك معاجلتهم بعقوبته وفي التذليل نشر للشكور على : " يضاعفه لكم " وللحليم على : " يغفر لكم " .

المطلب الخامس : نعم المولى و نعم النصير:

- {وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ} الأنفال 40 {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِبِرَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ} الحج 78 فالله سبحانه وتعالى نعم المعين والناصر لأوليائه على أعدائهم. وهو نعم المولى لمن تولاه ، ونعم النصير لمن استنصره.

المبحث الخامس : مطلق الاقتران بين الأسماء والصفات

المطلب الأول : الألوهية مع ما بقي من معان

- اقتران الله مع الربّ : كثر اقتران هذين الاسمين العظيمين في الآية نفسها وذلك لإلزام المشركين المقربين بصفات وأفعال الربّ كالخلق والرزق والتدبير والملك وغيرها الإقرار بعبوديته وحده فربهم الذي يعرفون هو الله الذي لا إله حق إلا هو فمن سفاهة الأحلام أنّهم عن صراط إخلاص العبادة لربهم لناكبون مستتكفون .

نحو قول الباري في علاه : " [المؤمنون : الآيات]

- اقتران لفظ الجلالة " الله " مع غيره من صفات الربوبية وصفات الجلال وصفات الجمال

لا شك أنّ أكثر الأسماء والصفات، والأفعال الإلهية، وأحوال الخلق مرتبطة بلفظ الجلالة " الله " وهذا أمر بدهي لأنه هو اسم الذات وما عداه من الأسماء إذا ما اقترن به كانت صفات وبما أنّنا سنذكر ورود أسماء الله غيره في القرآن فلن نذكر اقترانه بها هنا .

- اقتران اسمه " الواحد " مع اسم الجلال " القهار "

قد ورد اسم الله " الواحد " في القرآن الكريم ست مرات مقترنا باسمه " القهار " و اللطيفة العامة في اقتران الواحد حيث ما ورد بالقهار في القرآن وتعريفهما وسبق الواحد للقهار ومجيئهما بتينك الصيغتين لتظهر على الخلق - الذي هو آحاد لحقتها الكثرة لم يثبت مخلوق البتة ليس له مكثّر من جنسه أو قاهر مسلط عليه من ضده أوغير جنسه - آثار القهر وسمات الضعف والعجز ويتيقن العبد أن القهار لا يكون إلا واحداً، وأنه يستحيل أن يكون له شريك، بل القهر والوحدة متلازمان: فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار، ومن سواه مريبوب مقهور، له ضد ومناف ومشارك: فخلق الرياح وسلط بعضها على بعض تصادمها وتكسر سورتها وتذهب بها، وخلق الماء وسلط عليه الرياح تصرفه وتكسره، وخلق النار وسلط عليها الماء يكسرها ويطفئها، وخلق الحديد وسلط عليه النار تذيبه وتكسر قوته، وخلق الحجارة وسلط عليها الحديد يكسرها ويفتتها، وخلق آدم وذريته وسلط عليهم إبليس وذريته، وخلق إبليس وذريته وسلط عليهم الملائكة

يشردونهم كل مشرد ويطردونهم كل مطرد، وخلق الحر والبرد والشتاء والصيف وسلط كلا منها على الآخر يذهبه ويقهره، وخلق الليل والنهار وقهر كلا منهما بالآخر، وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر لكل منه مضاد ومغالِب، فاستبان للعقول والفطر أن القاهر الغالب لذلك كله واحد وأن من تمام ملكه إيجاد العالم على هذا الوجه وربط بعضه على بعض وإحواج بعضه إلى بعض وقهر بعضه ببعض وابتلاء بعضه ببعض وامتزاج خيره بشره، وجعل شره لخيره الفداء .

أما " الواحد " فجاء هو والقَهَّار معرفتين في خمس آيات - من ناحية الإعراب - صفتين للفظ الجلالة الذي لا لفظ أعرف منه في قوله تعالى: { يَا صَاحِبِي السَّجْنِ الْأَرْبَابِ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ (39) } (يوسف آية 39) فأولئك الأرباب من يدعوهم يتشتت أمره ومن منهم القَهَّار ومن منهم المقهور فلا خير فيهم لأنَّ الرب المعبود واحد قد قهرهم كلهم الخير كله في عبادته لأنه قادر مقتدر قاهر قَهَّار ، وقوله: { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) } (إبراهيم آية 48) لا أنسب من ختم هذه الآية بهذين الاسمين العظيمين فأى وحدانية وقهر أعظم من تبديل كل الوجدان بعد إبادة سالف الأكوان وإبراز المكلفين واحد واحدا لله الواحد القَهَّار ، وقوله: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) } (ص آية 65) ومن اتخذ معبودا غير الله حقيق أن ينذر بأنه تعدى على حق الله فأريد تهويل الإنذار فناسب ذكر وصف الواحد القَهَّار، وقوله: { لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) } (الزمر آية 4) ذكر الواحد والقهار هنا تذييل وتعقيب للتوكيد الذي لا يترك ريبة في استحالة الولد من الإله لأنه لو وقع لانقسمت وتكثرت وحدانية الإلهية على الأب وابنه تعالى الله ربنا عن هذا وتقدّس ، أما مناسبة ذكر القهار فلقدرته التامة على اصطفائه من خلقه ما يشاء من رسل وأنبياء لا بنات ولا أبناء فكان في الآية لفّ ونشر ، وقوله: { يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) } (غافر آية 16) القول في هذه الآية ما قيل في آية إبراهيم : 48 ، وإن كان ذكرهما هنا أظهر لاقترانهما بذكر الملك الذي استوفاه تعالى من كل ملوك الدنيا .

وفي آية واحدة جاء خبرين معرفين عن الضمير "هو" العائد إلى الله في قوله: { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16) } (الرعد آية 16) . ففي هذه الآية استدراج للمشركين بالله بالإقرار بالربوبية والتعزير على الإشراك في العبودية وضرب الأمثال المقربة لفهم استحالة استواء الخالق والمخلوق لاستنتاج كون الخالق واحداً لا شريك قهر كل من خلق ففي الإخبار عنه " بخالق كل شيء " إشارة إلى وحدانية نفعه وضره وملكه وقهره وانتفاء ملك وقهر أي واحد آخر سواه لأن ما سواه مخلوق مملوك مريبوب مقهور فكيف يكون شريكاً لهذا الذي استغرق وحده الخلق والملك والقهر، فخالق كل شيء لا بد أن يكون واحداً ولكي يكون واحداً لا بد أن يكون قهاراً لما سواه فلما كان لا يعرف إلا بهذا استحق جنس الوحدانية والقهر المطلق .

- قريب منه اقتران أحد مع الصمد :

الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)}

لفظ " أحد " لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده، وإنما يستعمل في غير الله في النفي، قال أهل اللغة يقول : لا أحد في الدار، ولا تقل فيها أحد؛ ولهذا لم يجيء في القرآن إلا في غير الموجب، كقوله تعالى : {فَمَا مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } [الحاقة : 47] ، وكقوله : {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ } [الأحزاب : 32] ، وقوله : {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ } [التوبة : 6] ، وفي الإضافة كقوله : {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ } [الكهف : 19] ، {جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ } [الكهف : 32] .

وأما اسم {الصَّمَدُ} ، فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم ، فلم يقل : الله صمد، بل قال : {اللَّهُ الصَّمَدُ} فبيّن أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه، فإنه المستوجب لغايته على الكمال، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه؛ فإنه يقبل التفرق والتجزئة، وهو - أيضاً - محتاج إلى غيره، فإن كل ما سوي الله محتاج إليه من كل وجه، فليس لأحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك

وتعالى وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ، ويتفرق، ويتقسم، وينفصل بعضه من بعض، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه، كما لا يمكن تنثية أحديته بوجه من الوجوه، فهو أحد لا يمثاله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه، كما قال في آخر السورة: { لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص : 4] ، استعملها هنا في النفي، أي : ليس شيء من الأشياء كفوا له في شيء من الأشياء؛ لأنه أحد .

قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أنت سيدنا فقال : [السيد الله] ¹ ودل قوله : [الأحد، الصمد] على أنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد؛ فإن الصمد : هو الذي لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال : { قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ } [الأنعام : 14] ، وفي قراءة الأعمش وغيره : [ولا يطعم] بالفتح . وقال تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات : 56 : 58] ، ومن مخلوقاته الملائكة، وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون، فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غني وكمال جعله لبعض مخلوقاته؛ فلماذا فسر بعض السلف الصمد : بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد : المصمد الذي لا جوف له، فلا يخرج منه عين من الأعيان، فلا يلد .

ولذلك قال من قال من السلف : هو الذي لا يخرج منه شيء، ليس مرادهم أنه لا يتكلم، وإن كان يقال في الكلام : إنه خرج منه، كما قال في الحديث : " ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه " يعني : القرآن، وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسليمة : إن هذا لم يخرج من إل . فخرج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه، ويبلغ إلى غيره ليس بمخلوق في غيره، كما يقول الجهمية : ليس بمعنى أن شيئاً من الأشياء القائمة به يفارقه، وينتقل عنه إلى غيره، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين، أن تفارق الصفة محلها، وتنتقل إلى غير محلها، فكيف بصفات الخالق جل جلاله . وقد قال تعالى في كلام المخلوقين :

¹ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ: حَدَّثَنَا بَشْرُ بْنُ الْفَضْلِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مَسْلَمَةَ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ مُطَرِّبٍ قَالَ: قَالَ أَبِي: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، قَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ»، قَالُوا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، قَالَ: فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِبَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»، [قال الشيخ الألباني]: صحيح . ينظر : البخاري - الأدب المفرد - ت : محمد فؤاد عبد الباقي - دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان - ط : 3 / 1409 - 1989 - ص : 83 .

{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} [الكهف : 5] ، وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم، وسمعت منه ليس خروجها من فيه، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته، وانتقل إلى غيره، فخرج كل شيء بحسبه، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم ألا ينقص من محله؛ ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء، وهو باق على حاله لم ينقص، فقول من قال من السلف : الصمد : هو الذي لم يخرج منه شيء، كلام صحيح، بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه .

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد؛ وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين، وما كان من المتولد عيّنًا قائمة بنفسها، فلا بد لها من مادة تخرج منها، وما كان عرضًا قائمًا بغيره، فلا بد له من محل يقوم به .

فالأول : نفاه بقوله : {أحد} ، فإن الأحد : هو الذي لا كفؤ له ولا نظير، فيمتنع أن تكون له صاحبة، والتولد إنما يكون بين شيء ين، قال تعالى : {أَتَى يَكُونُ لَهُ وُلْدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام : 101] ، ففني سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، وبأنه خالق كل شيء، وكل ما سواه مخلوق له، ليس فيه شيء مولود له .

والثاني : نفاه بكونه سبحانه الصمد، وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمنى الذي ينفصل من أبيه وأمه، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر، وإلى أن يخرج منهما شيء، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى فإنه أحد، فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيرًا، وهو صمد لا يخرج منه شيء، فكل واحد من كونه أحدًا، ومن كونه صمدًا يمنع أن يكون والدًا، ويمنع أن يكون مولودًا بطريق الأولى والأخرى .

وكما أن التوالد في الحيوان لا يكون إلا من أصلين سواء كان الأصلان من جنس الولد، وهو الحيوان المتوالد، أو من غير جنسه، وهو المتولد فكذلك في غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين، سواء كانا خشبتين، أو كانا حجرًا وحديدًا، أو غير ذلك، قال الله تعالى : {قَالُمُورِيَاتٍ قَدْحًا} [العاديات : 2] ، وقال تعالى : {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنَّنَّكُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَاتًا لِلْمُؤْمِنِينَ} [الواقعة : 71 : 73] ، وقال تعالى : {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ} [يس : 57]

78 : 80] ، قال غير واحد من المفسرين : هما شجرتان يقال لأحدهما : المرخ، والأخرى : العفار . فمن أراد منهما النار؛ قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ - وهو ذكر- على العفار- وهو أنثى - فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى . وتقول العرب : في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار . وقال بعض الناس : في كل شجرة نار إلا العناب، {فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} [يس : 80] ، فذلك زنادهم .

وقد قال أهل اللغة الجوهري وغيره : الزند : العود الذي يقدح به النار، وهو الأعلى . والزندة السفلى فيها ثقب، وهي الأنثى، فإذا اجتمعا قيل : زندان .

وقال أهل الخبرة بهذا : إنهم يسحقون الثقب الذي في الأنثى بالأعلى كما يفعل ذكر الحيوان في أنثاه، فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار، فتتولد النار من مادة الذكر والأنثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة، وسحق الأنثى بالذكر وقدحها به يقتضي حرارة كل منهما، ويتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار، كما أن إيلاج ذكر الحيوان في أنثاه بقدح وحك فرجها بفرجه، فتقوي حرارة كل منهما، ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى، ويتولد منهما الولد.¹

ولعلّ النكتة النكتاء في اقتران صفة واحد بإله والواحد بالقهّار وأحد بالصمد أنّ إله لَمَّا جاء نكرة اقترن بواحد نكرة لإفادة معبود واحد ثمّ لَمَّا عرّف هذا المعبود اقترن بالواحد معرّفًا ولتأكيد وتعليل استحقاقه للألوهية والعبودية له وحده عزّز بوصف القهّار معرّفًا ، مبالغًا فيه ، مطلقًا عن كلّ ظرف لإفادة قهره لكلّ إله آخر قد يتخذ ثانيًا مع هذا الواحد ، ولمّا أريد تعريف ونسب الله . الإله الواحد القهّار لكل ما سواه وصف بما لا يوصف به غيره في الإثبات بلفظ ظاهره نكرة لكنّ معناه معرفة لأنّه خبر عن من لا يعرف بمشابهة معرفة بل يعرف بمخالفة كل معرفة وزيد عليه وصف الصمد توكيدا وتعليلًا ثمّ زيد التعليل بـ " لم يلد ولم يولد " ثمّ علّل بما ليس بعده تعليل بـ " لم يكن له كفوا أحد" فجانست أحد وصفا لله أحد وصفا لغيره وطابقتها والسورة لمن تدبرها كل آية تعلّل بما بعدها إقبالا وإدبارا ، والله أعلم .

¹- ينظر : مجموع فتاوى ابن تيمية : 17 / 240 - 241 - 242 . بتصريف طفيف .

المطلب الثاني : الربوبية مع الجلال

- الحي مع القيوم

قد اقترن اسم (الحي) في القرآن أربع مرات مع اسم القيوم وذلك على ما يلي:
1- في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (البقرة آية 255) .

قوله تعالى: {الله لا إله إلا هو} : مبتدأ وخبر، وجيء باسم الذات هنا لأنه طريق في الدلالة على المسمى المنفرد بهذا الاسم، فإن العلم أعرف المعارف لعدم احتياجه في الدلالة على مسماه إلى قرينة أو معونة لولا احتمال تعدد التسمية، فلما انتفى هذا الاحتمال في اسم الجلالة كان أعرف المعارف لا محالة لاستغنائه عن القرائن والمعونات، فالقرائن كالتكلم والخطاب، والمعونات كالمعاد والإشارة باليد والصلة وسبق العهد والإضافة. و«الحي» فيه سبعة أوجه، أحدها: أن يكون خبراً ثانياً للجلالة. الثاني: أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي: هو الحي. الثالث: أن يكون بدلاً من قوله: «لا إله إلا الله هو» فيكون في المعنى خبراً للجلالة، وهذا في المعنى كأول، إلا أنه هنا لم يُخبر عن الجلالة إلا بخبر واحد بخلاف الأول. الرابع: أن يكون بدلاً من «هو» وحده، وهذا يبقى من باب إقامة الظاهر مقام المضمير، لأن جملة النفي خبر عن الجلالة، وإذا جعلته بدلاً محلّ الأول فيصير التقدير: الله لا إله إلا الله. الخامس: أن يكون مبتدأ وخبره {لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ} . السادس: أنه بدل من «الله» السابع: أنه صفة لله، وهو أجودها، لأنه قرىء بنصبيهما «الحي القيوم» على القطع، والقطع إنما هو في باب النعت، لا يقال في هذا الوجه الفصل بين الصفة والموصوف بالخبر، لأن ذلك جائز حسن [نقول: زيد قائم العاقل]¹.

وقد ورد اسم (الحي) في الآيتين المذكورتين مقترباً باسم (القيوم) بعد إقرار وتجريد توحيد الألوهية لله تعالى سبحانه ، فعلى فرض " الحي القيوم " مبتدأ وخبره " لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ " يكون المعنى تعليلاً لكونه المعبود وحده ، فمعناه : " اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِأَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ وَالَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ ذَا غَيْرِهِ الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ

¹ - السمين الحلبي - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : 539/2 .

إِلَّا بِإِذْنِهِ وَهُوَ وَحْدَهُ مَنْ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَهُمْ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ لِأَنَّهُ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ {

ومما لأجله كانت آية الكرسي أعظم آية في القرآن ما تضمنته من الإيجاز الذي لا مطمح فيه لتقليد أو محاكاة ويمكن القول: إن البيان اتحد بالمبين في تصوير الملك الحقيقي الذي لا ينازع فيه بأرشق عبارة وأدق وصف، وفيها ما يسمى بالفصل في علم المعاني، وهو حذف العاطف للدلالة على أن كل صفة من صفات هذا الملك العظيم مستقلة بنفسها، وذلك على النحو التالي:

أ- الجملة الأولى: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم» وقد بين فيها قيامه سبحانه بتدبير الخلق وتنسيق شئونهم، وإحكام معاشتهم وهمينته عليه دون أن يكون ساهيا عنه طرفة عين.

ب- الجملة الثانية: «له ما في السموات وما في الأرض» وقد بين فيها أنه مالك لما يدبره غير منازع في ملكه.

ج- الجملة الثالثة: «من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه» وقد بين فيها كبرياء شأنه وتضائل الجميع أمام قدرته التي لا تحد.

د- الجملة الرابعة: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» وقد صور فيها إحاطته بأمر الخلق وأحوالهم بحيث لا يغرب عنه شيء.

ه- الجملة الخامسة: «وسع كرسيه السموات والأرض» إلى آخر الآية، وقد نوّه فيها بتعلقه بالمعلومات كلها وكل شيء عنده بمقدار.

3- إيجاز الإيجاز: فقد اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من آيات الله سبحانه، وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعا فيها اسم الله تعالى ظاهرا في بعضها ومستكنّا في بعضها الآخر، وذلك على الترتيب التالي:

1- الله، 2- هو، 3- الحي، 4- القيوم، 5- ضمير لا تأخذه، 6- ضمير له، 7- ضمير عنده، 8- ضمير بإذنه، 9- ضمير يعلم، 10- ضمير علمه، 11- ضمير شاء، 12- ضمير كرسيه، 13- ضمير يئوده، 14- وهو، 15- العلي، 16- العظيم، 17- الضمير المستكنّ الذي اشتمل عليه المصدر وهو «حفظهما» فإنه مصدر مضاف إلى المفعول وهو الضمير البارز ولا بد له من فاعل وهو الله، ويظهر ذلك عند فكّ المصدر فيقول:

ولا يتوَّده أن يحفظهما هو. وقد حاول أحد الأعلام أن يوصلها الى واحد وعشرين موضعاً، ويعتبر الأسماء المشتقة الواردة فيها تحتاج الى ضمير كالحى والقيوم والعلّي والعظيم، فيكون كل واحد باثنين وبذلك تضاف أربعة مواضع الى المواضع السبعة عشر، فيكون المجموع واحداً وعشرين موضعاً. وقد نازعه علم آخر فقال: هذا لطيف جداً ولكن المشتق لا يقع على موصوفه إلا باعتبارها محتملاً لضمير، فلا يمكن أن يتميز بحكم الانفراد عن الضمير، ولهذا فالاسم المشتق لا يحتلّ الضمير بعد صيرورته بالتسمية علماً، ألا تراك إذا قلت:

زيد كريم فإن «كريم» لم يقع على زيد إلا لأنه يتحمل ضميره، حتى إذا جرّدت النظر اليه لم تجده مختصاً بزيد بل لك أن توقعه على كل موصوف بالكرم من الناس. وهذا من أدق مباحث علم المعاني لمن تدبّره¹.

2- وفي قوله تعالى: {الم اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} (آل عمران آية 1، 2).

اللطيفة في تصدير هذه الآية سورة آل عمران التي بينت عقائد النصارى الباطلة المحرفة من بعد وفاة عيسى عليه السلام هي بيان أنّ المعبود الذي لا ينبغي أن يعبد غيره لا بد أن يكون حياً قيّوماً وحده وأتى بأل لقصر الحياة والقيومية الكاملتين عليه .

قال صاحب التحرير والتنوير: " وجيء بالاسم العلم: لتربية المهابة عند سماعه، ثم أردف بجملة لا إله إلا هو، جملة معترضة أو حالية، رداً على المشركين، وعلى النصارى خاصة. وأتبع بالوصفين الحي القيوم لنفي اللبس عن مسمى هذا الاسم، والإيماء إلى وجه انفراده بالإلهية، وأن غيره لا يستأهلها لأنه غير حي أو غير قيوم، فالأصنام لا حياة لها، وعيسى في اعتقاد النصارى قد أميت، فما هو الآن بقيوم ولا هو في حال حياته بقيوم على تدبير العالم، وكيف وقد أُوذي في الله، وكذب، واختفى من أعدائه " ².

3- وفي قوله تعالى: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} (طه آية 111)

وقد ورد اسم (الحي) في الآية المذكورة مقترناً باسم (القيوم) كذلك، مع بيان أن وجوه الخلائق ذلت وخضعت لجبارها (الحي) الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيّم على كل شيء،

¹ - ينظر: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: 1403هـ) - إعراب القرآن وبيانه - دار الإرشاد للشئون

الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) - ط: 1415/4 هـ - ص: 385/1 .

² - التحرير والتنوير: 147/3 .

ولا قوام لشيء إلا به ، وكذلك مع بيان أنه من يلقى ربه (الحي القيوم) على شيء من الظلم - وهو الشرك - فإنه يكون خائبا خاسرا .¹

فقول الله عز وجل : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } ، اللطيفة في ذكره في ثلاثة مواضع من القرآن، أن كل موضع فيه أحد أصول الدين الثلاثة؛ وهي التوحيد، والرسول، والآخرة ، هذه التي بعث بها جميع المرسلين، وأخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله : { وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام : 150] فقال في أعظم آية : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } ، وقرنها بقوله : " لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ... " الآية .

وزاد في آل عمران : { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ } [آل عمران : 3، 4] ، وهذا إيمان بالكتب والرسول .
وقال في طه : { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا } [طه : 109 . 111] وهذا إخبار عن اليوم الآخر .

الملك مع القدوس :

1 - {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الحشر 23

في هذه الآية تعدد صفات العظمة والجلال كلها معرفة وقد أخبر عن اسمين عظيمين يتضمنان صفات الجمال كلها في الآية قبل هذه : هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) وأخبر بعدها بصفات الربوبية : هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ " ثم قال له الأسماء الحسنی يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24) ، فناسب ذكر أعضم الأسماء في المعاني الأربعة الألوهية والربوبية والجمال والجلال في ختام سورة تسمى الحشر فمن تصور يوم الحشر ونظر في هذه الآي تنبّه لما ابتداء : هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) يخبر أنه الله وأن أعظم وصف له أن لا معبود سواه ، فليتذكر أهل الحشر الذي كانوا يعبدون من دونه ، فتنقطع آمال

¹ - محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت 1250) - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - ط : دار

الكفار والمشركين ، ثم يأتيك بصفته : عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ ، لم يخف عليه شيء ، فتسيء
 ضنون المذنبين ، فيعيد رجاءهم : هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، ثم يعيد خبر أنه الله و أن أعظم وصف
 له أن لا معبود سواه لأنه وحده الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ تقدس عن الظلم وسلم من كل نقص
 الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الذي آمن عباده من جورهِ، وآمن أوليائه من عذابه، وصدّق عباده المؤمنين
 المهيمن الشاهد لأعمال عباده الحافظ لها الأمين عليها لا يظلمهم ولا يلتهم من أعمالهم
 شيئاً، الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ العزيز في انتقامه المنيع فلا ينتصر منه من عاقبه العلي القهار لا
 يدركه أحد الْمُتَكَبِّرُ المتعالي فوق خلقه سُبْحَانَهُ تنزيها وتبرئة مما يقول المشركون ، ثم يخبر
 بأنه الله الموصوف بأنه الخالق البارئ المصور الذي يقدر ثم يسوي وبعده ثم يصور ثم يخبر
 بأن هذه الأسماء الدالة على كمال الخلق وكمال العظمة وكمال الجمال والرحمة التي تستلزم
 معرفتها تسبيحه وعبادته وحده هي إشارة إلى أسمائه الحسنى ، ثم الختام لأهل الحشر بأنه
 العزيز في انتقامه ممن كفر به الْحَكِيمُ فيما خلقه لأن حكمته لا يرى فيها خلل، الحاكم بعزته
 بين من كفر ومن شكر ، والله أعلم .

2- {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} الجمعة 1

يقول تعالى ذكره: يسبح لله كل ما في السموات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمه
 طوعا وكرها، (الملك القدوس) الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في السموات
 والأرض وما فيهما، القدوس: وهو الطاهر من كل ما يضيف إليه المشركون به، ويصفونه به
 مما ليس من صفاته المباركة (العزيز) يعني الشديد في انتقامه من أعدائه (الحكيم) في تدبيره
 خلقه، وتصريفه إياهم فيما هو أعلم به من مصالحهم. فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مُقَدَّسًا
 وَمُنَزَّهًا عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ، ثم إذا كان خلق السموات والأرضِ بِأَجْمَعِهِمْ فِي تَسْبِيحِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَهُ
 الْمُلْكُ فالتعقيب بهذه الأسماء للتعليل .

وقد قال ابن عاشور : " افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى
 براعة استهلال لأن الغرض الأول من السورة التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الأشغال
 التي تشغل عن شهودها وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصا على
 الابتياح من غير وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة.

وللتبنيه على أن أهل السماوات والأرض يجددون تسبيح الله ولا يفترون عنه أوثر المضارع في قوله: يسبح... ومناسبة الجمع بين هذه الصفات هنا أن العظيم لا ينصرف عن مجلس من كان عنده إلا عند انفضاض مجلسه أو إيدانه بانصرافهم.

والقدّوس: المنزّه عن النقص وهو يرغب في حضرته. والعزیز: يعتز الملتقون حوله. فمفارقتهم حضرته تفريط في العزة. وكذلك الحكيم إذا فارق أحد حضرته فاته في كل آن شيء من الحكمة كما فات الذين انفضوا إلى العير ما خطب به النبي صلى الله عليه وسلم إذ تركوه قائما في الخطبة.¹

- الرزاق ذو القوة المتين

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (56) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (57) {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} الذاريات 58 : إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (58) تعليل لجملي ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون [الذاريات: 57] والرزق هنا بمعنى ما يعم المال والإطعام. والرزاق: الكثير الإرزاق، والقوة: القدرة. وذو القوة: صاحب القدرة. ومن خصائص (ذو) أن تضاف إلى أمر مهم، فعلم أن القوة هنا قوة خلية من النقائص. والمتين: الشديد، وهو هنا وصف لذي القوة، أي الشديد القوة، وقد عد المتين في أسمائه تعالى. فالمعنى أنه المستغني غنى مطلقا فلا يحتاج إلى شيء فلا يكون خلقه الخلق لتحصيل نفع له ولكن لاتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله: إلا ليعبدون [الذاريات: 56] . وإظهار اسم الجلالة في إن الله هو الرزاق إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضاه: إني أنا الرزاق، فعدل عن الإضمار إلى الاسم الظاهر لتكون هذه الجملة مستقلة بالدلالة لأنها سيرت مسير الكلام الجامع والأمثال.

وحذفت ياء المتكلم من ليعبدون ويطعمون للتخفيف، ونظائره كثيرة في القرآن. وفي قوله: إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين طريق قصر لوجود ضمير الفصل، أي: لا رزاق، ولا ذا قوة، ولا متين إلا الله وهو قصر إضافي، أي دون الأصنام التي يعبدونها.

فالقصر قصر أفراد ببتنزيل المشركين في إشراكهم أصنامهم بالله منزلة من يدعي أن الأصنام شركاء لله في صفاته التي منها: الإرزاق، والقوة، والشدة فأبطل ذلك بهذا القصر، قال تعالى: إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه [العنكبوت:

¹ - التحرير والتنوير : 28 / 206 .

[17] ، وقال: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب [الحج:73] .

- العزيز مع الحكيم ، العليم ، الوهاب :

لما كانت العزة من جنس القدرة والقوة وهاتين إن لم يكن معهما حكمة بل كان القوي القادر يفعل ما يريد بلا نظر في العاقبة ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله كان فعلها فسادا كصاحب شهوات الغي والظلم الذي يفعل بقوته ما يريد من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس فإن هذا وإن كان له قوة وعزة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شره وفساده فاقتران العزة بالحكمة دليل تمام الملك وإحاطة العلم فإن حقيقة الملك إنما تتم بالعطاء والمنع والإكرام والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والتولية والعزل وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل، قال تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب} [آل عمران: 26- 27] ، وقال تعالى: {يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن} [الرحمن: 29] ، يغفر ذنبا ويفرج كربا ويكشف غما وينصر مظلوما ويأخذ ظلما ويفك عانيا ويغنى فقيرا ويجبر كسيرا ويشفي مريضا ويقبل عثرة ويستتر عورة ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويعطى سائلا ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواما ويضع آخرين يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك .

وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم: " أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك ". فإنه سبحانه رب كل شيء وخالق كل شيء، والمستعاذ منه واقع بخلقه

ومشيئته، ولو شاء لم يكن، فالفرار منه إليه والاستعاذة منه به ولا ملجأ منه إلا إليه ولا مهرب منه إلا إليه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فشهود العبد أمره تعالى ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الحمد والتشمير وبذل الوسع والقيام بالأمر والرجوع على نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير، فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنة العظيمة، وبين شهود التقصير والإساءة منه وتطلب عيوب نفسه وأعمالها.

1- {رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} البقرة 129: وقد استجيبت دعوة إبراهيم وعلت آيات الإجابة بما عللت آية الدعاء: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الزمر: (1) ، حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) الشورى ، يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2) وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) والتعرض لو صفى العزة والحكمة للإيدان بظهور أثرهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيته من غير مُدافعٍ ولا ممانعٍ وبابتداءٍ جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة .

2- {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} (5) {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 6 : {إن الله} بما له من صفات الكمال التي منها القيومية {لا يخفى عليه شيء} وإن دق ، ولما كان تقريب المعلومات بالمحسوسات أقيد في التعليم والبعد عن الخفاء قال وإن كان علمه سبحانه وتعالى لا يتقيد بشيء : {في الأرض ولا في السماء} أي ولا هم يقدرون على أن يدعوا في عيسى عليه الصلاة والسلام مثل هذا العلم ، ثم أنه تعالى لما أجاب عن شبههم أعاد كلمة التوحيد زجراً للنصارى عن قولهم بالتثليث ، فقال : {لا إله إلا هو العزيز الحكيم} فالعزيز إشارة إلى كمال القدرة والحكيم إشارة إلى كمال العلم ، وهو تقرير لما تقدم من أن علم المسيح ببعض الغيوب ، وقدرته على الإحياء والإماتة في بعض الصور لا يكفي في كونه إلهاً فإن الإله لا بد وأن يكون كامل القدرة وهو العزيز ، وكامل العلم وهو الحكيم .

3- {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18 : وقوله تعالى: قَائِمًا بِالْقِسْطِ.

«القسط» هو العدل. فشهد سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيدِهِ، وبالوحدانية في عدله. والتوحيد والعدل: هما جماع صفات الكمال. فإن التوحيد يتضمن تفردَهُ سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه. والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة.

وختم بقوله: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فتضمنت الآية توحيدَهُ وعدله، وعزته وحكمته.

فالتوحيد يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها، وعبادته وحده لا شريك له.

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذي جعله مستحقاً.

والعزة تتضمن كمال قدرته، وقوته وقهره.

والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهي، وخلق وقدر، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد.

فاسمه «العزیز» يتضمن الملك. واسمه «الحكيم» يتضمن الحمد.

وأول الآية يتضمن التوحيد، وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير .

وذلك أفضل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله.

و «الحكيم» الذي إذا أمر بأمر كان المأمور به حسناً في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان المنهى عنه قبيحاً في نفسه، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً، وإذا فعل فعلاً كان صواباً. وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره.

وهذا الوصف على الكمال: لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب.

ففيها: الشهادة له بالتوحيد والعدل والقوة، والعلم والحكمة، ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف. إلا أهل السنة، وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.¹

4- {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 62 : أي أن ما قصّ الله عليكم من أمر عيسى هو الحق، وأن المستحق لعبادته هو الله، لا إله غيره، وأن لا عزة ولا عزّ ولا حكم ولا حكمة إلا له تعالى في الحقيقة، فهو الذي لا تلحقه ذلّة ولا تعتريه جهالة، وكل من حصل له شيء من العزّ والحكم فمنه مستفاد.

ومن نظر في الآيات الثلاث وجدها ختمت بنفي الألوهية عن غير الله إشارة إلى من اتخذ عيسى إلها فلا جرم سوق صفتي العزة والحكم أو الحكمة الدالتين على كمال القوة وكمال العلم فأين عيسى عليه السلام من هذين الكمالين ؟

5- {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} آل عمران 126 : التوكيد بالنفي والاستثناء في قوله : " وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ " صريح في أنه قد وقع الإمداد الموعود لكن أثره إنما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصل وأما النصر الحقيقي فليس ذلك إلا من عنده تعالى لذلك حسن التذيل للتعليل بصفتي العزيز الذي لا يغلبه أحد فينتصر عليه وعلى من والاه والحكيم الذي إذا علم الخير في النصر قضاه وإذا رأى في هزيمة حزيه حكمة أمضاها .

6- {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} المائدة 118: لعل لطيفة تعن بالنظر في ثلاثة آي البقرة التي تثبت العزة والحكمة لله وحده ، فهذا ردّ من عيسى صريح على من ألوهه في الدنيا فلازم تأليهم له نسبة العزة والحكم له فتبرأ منهما ونسبهما لصاحبهما فكان جزاءهم من وجد في رحله فهو جزاءه ، وللطيفة أخرى فيها تصديق الذكر الحكيم بعضه بعضا ، فعيسى من أولي العلم الذين يشهدون أن الله لا إله إلا هو قائما بالقسط وهو العزيز الحكيم ففي قوله هذا إبطال لشهادتهم بتأليهم في الدنيا فهم شهدوا كذبا وجهلا وهو شهد الله صدقا وعدلا ، وبذلك هذا على عدم نجاة الكفار والمشركين وعدم نيلهم شفاعة الشافعين .

وقال ابن القيم عن لطيفة التذليل بهذين الاسمين : " ولم يقل الغفور الرحيم وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة بل مقام براءة منهم فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأشعر باستعطافه

¹ - ينظر : ابن القيم - التفسير القيم : 177 .. 188.

ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه ولجهله بمقدار إساءته إليه والكمال: هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب¹.

7- {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} إبراهيم 4 في هذا التذييل تعليل للهداية والإضلال لأن لا حجة للضلال على الواحد القهار السلام من كل ضلم وجور الذي تقديره كله بين العدل والفضل ، فالرسل تبين والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

8- {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} النحل 60 : جعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعال تفضيل أي أعلى من غيره فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف وأي مثل أدنى من هذا تعالى الله عن قول المعطلين علوا كبيرا.

فمثل السوء لعادم صفات الكمال ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملا وهي الإيمان والعلم والمعرفة واليقين والعبادة لله والتوكل عليه والإنابة إليه والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والصبر والرضا والشكر وغير ذلك من الصفات التي اتصف بها من آمن بالآخرة فلما سلبت تلك الصفات عنهم وهي صفات كمال صار لهم مثل السوء فمن سلب صفات الكمال عن الله وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته ومشيبته وحياته وسائر ما وصف به نفسه فقد جعل له مثل السوء ونزله عن المثل الأعلى فإن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمر الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره ولما كان الرب تعالى هو الأعلى ووجهه الأعلى وكلامه الأعلى وسمعه الأعلى وبصره وسائر

¹ - مدارج السالكين : 379/2 .

صفاته عليا كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان لأنهما إن تكافأ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر وإن لم يتكافأ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده يستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة ونظير هذا القهر المطلق مع الوحدة فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحدا إذ لو كان معه كفؤ له فإن لم يقهره لم يكن قهارا على الإطلاق وإن قهره لم يكن كفؤا وكان القهار واحدا، وبهذا تدرك نكتة التذليل بالعزیز الذي لا يقهر ولئلا يظن مع هذه الغلبة جورا وظلما بسبب الجهل أردف بالحكيم . والله وحده العلي العليم .

9- {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} النمل 9 : في إيثار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع وهو الإشارة الجمالية إلى روح إرساله عليه السلام. أي: أنا الله لا تلك المعبودات التي عكف عليها قوم فرعون، العزيز الغالب القاهر لكل عات متمرّد، الحكيم في البعثة والإرسال، والتفضل والإفضال. ثم أمره تعالى أن يلقي عصاه من يده ليريه دليلا واضحا على أنه القادر على كل شيء، بقوله وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَاتِ، أسرع حركة وأكثره اضطرابا وَلَى أَي مِنَ الْخَوْفِ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ أَي لم يرجع على عقبه من شدة خوفه يا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ أَي لحفظي لهم وعنايتي بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم.

وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة. وتشجيع له بنزع الخوف. إذ لا يتمكن من أداء الرسالة، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه.

10- {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} العنكبوت 26 : هذا ظن الخليل بربه ، يدرك تماما نصرته وحكمته في تدبيره خلقه بهجرانه دار يذل فيها دينه

11- {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} العنكبوت 42 : هو العزيز الحكيم صدقا وعدلا ونفعا لمن يدعو نصرته وفضلا ومن يدعى من دونه لا عزة له ولا حكم ولا علم ولا حكمة فمن يدعو من دون العزيز الحكيم كأنما يدعو عدما .

12- {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الروم 27 : وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَي كامل القدرة على الممكنات شامل العلم بجميع الموجودات فيعلم الأجزاء في الأمكنة ويقدر على جمعها وتأليفها

13- إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ 8 {خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} لقمان 9 : وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل كامل

العلم يفعل الأفعال كما ينبغي فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر

14- {قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} سبأ 27 : (كَلَّا) رَدْعٌ وتنبية، والمعنى ارْتَدِعُوا عَنْ هَذَا الْقَوْلِ وَتَنَبَّهُوا عَنْ ضَلَالَتِكُمْ، بل هو الله الواحد الذي ليس كمثلته شيء ، فلا عزة لغيره فالعزير لا بد أن يكون ولا حكمة لغيره لأن الحكيم لا يدبر شريكا في ألوهيته .

15- {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فاطر 2 : فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن الله فالأمر كله لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وهو مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ولذلك قال في التذليل وهو أي وحده العزيز الحكيم فمن جنى ثمرة العلم واطلع على لطائف الفهم استعاذ به منه وفرّ منه إليه وجعل ملجأه منه إليه فالأمر كله له لا يملك أحد معه منه شيئا فلا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه ولا يضر سم ولا سحر ولا شيطان ولا حيوان ولا غيره إلا بأذنه ومشيئته يصيب بذلك من يشاء ويصرفه عن يشاء فاعرف الخلق به وأقواهم بتوحيده من قال في دعائه وأعوذ بك منك فليس للخلق معاذ سواه ولا مستعاذ منه إلا وهو ربه وخالقه ومليكه وتحت قهره وسلطانه ثم ختم الدعاء بقوله لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك اعترافا بأن شأنه وعظمته ونعوت كماله وصفاته أعظم وأجل من أن يحصيها أحد من الخلق أو بلغ أحد حقيقة الثناء عليه غيره سبحانه .

16- {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} الزمر 1: هذا الكتاب هو كلام العزيز الحكيم ففي ذكر صفتي قائله تعريف به وترغيب فيه وترهيب من مسه بأي تحريف .

17- {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} غافر 8 : وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (9) جملة إنك أنت العزيز الحكيم اعتراض بين الدعوات استقصاء للرغبة في الإجابة بداعي محبة الملائكة لأهل الصلاح لما بين نفوسهم والنفوس الملكية من التناسب. واقتران هذه

الجملة بحرف التأكيد للاهتمام بها. و (إن) في مثل هذا المقام تغني غناء فاء السببية، أي فعزتك وحكمتك هما اللتان جرأتانا على سؤال ذلك من جلالك، فالعزة تقتضي الاستغناء عن الانتفاع بالأشياء النفيسة فلما وعد الصالحين الجنة لم يكن لله ما يرضه بذلك فلا يصدر منه مطل، والحكمة تقتضي معاملة المحسن بالإحسان.

وانظر إلى جمال لم يذكره لا أهل التفسير ولا أهل البيان إنك أنت وذلك هو العزيز الحكيم والفوز العظيم فماذا عسانا نسمي هذا الفن ؟

18- {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {الشورى 3} : فيها إشارة إلى قوله لموسى : " إني أنا الله العزيز الحكيم " فكما قصصت عليك حكمتي في اختياره وعزتي في انتصاره فحظك من ذينك كحظ كل نبي أختاره .

19- {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {الجاثية 2} مرّ ذكر نكبتها وسيأتي ذكر نكبتها مع آية الأحقاف .

20- {فَللهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (36) وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (37) {

يقول تعالى ذكره (فله الحمد) على نعمه وأياديه عند خلقه، فإياه فاحمدوا أيها الناس، فإن كل ما بكم من نعمة فمنه دون ما تعبدون من دونه من آلهة ووثن، ودون ما تتخذونه من دونه ربا، وتشركون به معه (رب السماوات ورب الأرض) يقول: مالك السماوات السبع، ومالك الأرضين السبع و (رب العالمين) يقول: مالك جميع ما فيهن من أصناف الخلق، وله الكبرياء في السماوات والأرض يقول: وله العظمة والسلطان في السماوات والأرض دون ما سواه من الآلهة والأنداد (وهو العزيز) في نعمته من أعدائه، القاهر كل ما دونه، ولا يقهره شيء (الحكيم) في تدبيره خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء كيف شاء، والله أعلم.

21- {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {الأحقاف 2} : مرّ ذكر نكبتها ونذكر نكته جامعة لآية الزمر وآية الجاثية وهذه الآية فلفظ ثلاثتها واحد ، وقد ختمت بقوله من الله العزيز الحكيم إشارة إلى كونه وحده كذلك فلا إله غيره قادر على إنزال وحي كهذا فمالكم أيها المشركون كيف تحكمون ، ولتوكيد هذا فتش في الآيات بعدها تجد ذكر شركهم ، قال بعد الأولى : إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين (2) ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن

الله لا يهدي من هو كاذب كفار (3) كيف لا وقد ترك عبادة الواحد القهار ، وقال بعد الثانية : إن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين (3) وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون (4) واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (5) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون (6) ويل لكل أفاك أثيم (7) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (8) وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين (9) من وراءهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم (10) لأن ما اتخذوه وليا لا عزة له ولا قهر .

وقال بعد الثالثة : مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ انْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7) ، فانظر للكفار كيف جعلوا كلام العزيز الحكيم سحرا مبينا .

22- {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الحديد 1

23- {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الحشر 1 : والقول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في أول سورة الحديد [1] ، إلا أن التي في أول سورة الحديد فيها: ما في السماوات والأرض وها هنا قال: ما في السماوات وما في الأرض لأن فاتحة سورة الحديد تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات فجمع ذلك كله في اسم واحد هو ما الموصولة التي صلتها قوله: في السماوات والأرض. وأما فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية وهي خذلان بني النضير فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي ما الموصولة الثانية التي صلتها في الأرض، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن كما سيأتي في مواضعها. وأوثر الإخبار عن سبح لله ما في السماوات وما في الأرض بفعل

المضي لأن المخبر عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج أهل النضير .

24- {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الممتحنة 5 :

وكذا في سورة المائدة كما مرّ : "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم " فورد في هاتين الآيتين وصفه تعالى بهاتين الصفتين المشيرتين إلى العزة والقهر وإنما ورد المطرد في الكتاب العزيز مهما جرى ذكر المغفرة طلبا أو إخبارا ورود ما به يقوى رجاء السائل ويطمع تعلقا به المتذلل الراغب كقوله تعالى: "إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آتنا فاعفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين " فقوله هنا: "وأنت خير الراحمين " توسل مناسب لما تقدم من طلب المغفرة والرحمة وفي سورة يوسف قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " وفي سورة القصص: "قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم " فهذا كله مناسب للطلب وهو كثير في الكتاب العزيز وجر على ما تمهد وأما وصفه سبحانه بالعزة والملكية والحكمة فإنما يرد حيث يراد معنى الاقتدار والاستيلاء والقهر وإحاطة العلم وإفراده سبحانه بالخلق والأمر والربوبية والتعالى وما يرجع إلى هذا كقوله تعالى: "وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم " وقوله تعالى: "وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ...

" ثم قال تعالى: "وهو العزيز الحكيم " وقوله تعالى: "ولله جنود السماوات والأرض ...

" ثم قال: "وكان الله عزيزا حكيما " وقوله تعالى: "سبح لله ما في السماوات والأرض ...

" ثم قال: "وهو العزيز الحكيم " وهذا كثير مطرد حيث يراد معنى القهر والملكية والإحاطة والاقتدار فللسائل أن يسأل عن وجه ورود آيتي المائدة والممتحنة معقبتين بما ذكر؟

والجواب عن ذلك والله أعلم: يتفصل في الآيتين: أما آية المائدة فمبنية على التسليم لله سبحانه وأنه المالك لكل يفعل فيهم ما يشاء فلو ورد هنا عقب آية المائدة: "وإن تغفر لهم فأنت الغفور الرحيم " لكان تعريضا بطلب المغفرة ولم يقصد ذلك بلآية وإنما قيل ذلك على لسان عيسى عليه السلام تبريا وتسليما لله سبحانه وليس موضع طلب مغفرة لهم وإنما هو متصل من حالهم وتسليم لله فيهم قال القرطبي رحمه الله: "لم يقل "الغفور الرحيم لأن مخرجه على التسليم ولأن في ذكر الغفور تعريضا للسائل والكلام لتسليم الأمرين والحكمة تقتضيهما وكأنه قال: فالمغفرة لا تنقص من عزك ولا تخرج عن حكمتك.

وأما قوله في سورة الممتحنة: "ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم" فالجواب عندى هنا أن قوله: "إنك أنت العزيز الحكيم" مبنى على قوله: "لا تجعلنا فتنة للذين كفروا" فإن المراد لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيكون سبب فتنهم فلا تفعل ذلك بنا فأنت القادر على كفهم ونصرنا عليهم فانك العزيز الذى لا معارض لما تريده ولا مانع مما تشاؤه لما كان المؤمنون يعلمون أن ما يصيبهم من مصيبة إنما هي بما كسبت أيديهم سألو المغفرة من مجترحاتهم وأورد سؤالهم مورد جمل الاعتراض فقدم وهو قوله: "واغفر لنا ربنا" فإن الكلام فى تقدير التقديم والتأخير: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا إنك أنت العزيز الحكيم واغفر لنا ربنا، فقدم قوله: "واغفر لنا ربنا" أثناء الكلام إحرزا لأدابهم ومعتقدهم الإيماني فقد تبين حال المناسبة فى آية العقود وآية الممتحنة بين الآيتين وبين ما أعقبتا به وأنه لا يمكن على ما تقرر سواء والله أعلم بما أراد.

26- {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {الصف: 1} : فى إجراء وصف العزيز عليه تعالى هنا إيماء إلى أنه الغالب لعدوه فما كان لكم أن ترهبوا أعداءه ففقروا منهم عند اللقاء ، وإجراء صفة الحكيم إن حملت على معنى المتصف بالحكمة أن الموصوف بالحكمة لا يأمركم بجهاد العدو عبثا ولا يخليهم يغلبونكم ، وإن حملت على معنى المحكم للأمر فكذاك.

27- {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {الجمعة: 1} مَرَّ التعليق عليها و نذكر هنا نكتة جامعة لهذه السور متشابهة المطالع : ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن أهل السماوات والأرض يسبحون لله، أي ينزهونه عما لا يليق - بينه الله - جل وعلا - فى آيات أخر من كتابه كقوله تعالى فى سورة الحشر: سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم الآية [59 \ 1] ، وقوله فى الصف: سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم الآية : 1، وقوله فى التغابن : يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير الآية : 1 وقوله فى سورة الحديد: سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (1) وزاد فى سورة بني إسرائيل أن السماوات السبع والأرض يسبحن لله مع ما فىهما من الخلق وأن تسبيح السماوات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقهه أى لا نفهمه، وذلك فى قوله تعالى: تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فىهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم [17 \ 44]

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن تسبيح الجمادات المذكور فيها وفي قوله تعالى: وسخرنا مع داود الجبال يسبحن [21 \ 79] ، ونحو ذلك تسبيح حقيقي يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

والآية الكريمة فيها الرد الصريح على من زعم من أهل العلم أن تسبيح الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها، لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها يفهمها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله: إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس إلى قوله: لآيات لقوم يعقلون [2 \ 164] ، وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن.

وقد قدمنا إيضاح هذا في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: والله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال الآية [13 \ 15] ، وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض الآية [18 \ 77] ، وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها الآية [23 \ 72] ، وفي غير ذلك من المواضع.

وقد عبّر تعالى هنا في أول الحديد بصيغة الماضي في قوله: سبح لله الآية [57 \ 1] ، وكذلك هو في الحشر، والصف، وعبر في الجمعة والتغابن، وغيرهما بقوله: يسبح بصيغة المضارع. قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك التسبيح لله هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل. ذكر معناه الزمخشري وأبو حيان.

وقوله: وهو العزيز الحكيم [57 \ 1] ، قد قدمنا معناه مرارا، وذكرنا أن العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، وأن العزة هي الغلبة، ومنه قوله: والله العزة ولسوله [63 \ 8] ، وقوله: وعزني في الخطاب، أي: غلبني في الخصام، ومن أمثال العرب: من عز بز، يعنون: من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يختشى ... إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

والحكيم: هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها.

28- {وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الجمعة 3 : بعزته وحكمته لحاق الآخرين منهم بهم ، فقوله: وهو العزيز الحكيم تذييل للتعجب من هذا التقدير الإلهي لانتشار

هذا الدين في جميع الأمم. فإن العزيز لا يغلب قدرته شيء. والحكيم تأتي أفعاله عن قدر محكم.

29 - إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} التغابن 18: في الآيتين نشرين ولفين الصدقة والذنوب لَفٌ نشر عليهما الشكر والحلم ثم الشكر والحلم لَفٌ نشر عليهما عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
- الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (عزيزاً حكيماً)

1- {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء 56 : قوي قاهر لا يغلب قادر على كل شيء حكيم يضع الرحمة والرأفة في مكانها ولا يعذب إلا بعدله وكمال علمه وبعد إقامة حجته ، ففي التذييل تعليل لأنه قد يَقَعُ فِي الْقَلْبِ تَعَجُّبٌ مِنْ كَوْنِ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ يُعَدُّبُ هَذَا الشَّخْصَ الضَّعِيفَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ الْعَظِيمِ ، فقيل: ليس هذا بعجب؛ لأنه القادرُ الغالبُ، فكما أنه رحيمٌ فهو أيضاً حَكِيمٌ، والحكمةُ تَفْتَضِي ذلك.

2- وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (157) {رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء 158: قوله {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ، والمراد بالعِزَّة: كَمَالُ الْقُدْرَةِ، ومن الْحِكْمَةِ: كمال العلم، نبّه بهذا على أَنَّ رَفَعَ عِيسَى - عليه السلام - إِلَى السَّمَوَاتِ وَإِنْ [كَانَ] كَالْمُتَعَدِّرِ عَلَى الْبَشَرِ، لَكِنَّهُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ النَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِي وَحِكْمَتِي؛ كقوله - تعالى - : {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} [الإسراء: 1] فَإِنَّ الْإِسْرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُتَعَدِّرًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ مُحَمَّدٍ، إِلَّا أَنَّهُ سَهْلٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ - تعالى .

3- {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء 165 : ذيل بالعزيز كقوله لكليمه موسى إنني أنا الله العزيز الحكيم فعزته بها بعث الرسل وبها نصرهم وغلب أعداءهم وبحكمته جعل لهم أتباعا تسلية لهم وحمهم وأتباعهم كما بين ذلك حين ذيل في آي الشعراء بعد ذكر قصصهم وهلاك مكذبيهم ونجاتهم : إنّه هو العزيز الرحيم ، وفي الآية وما عقبت به دلالة الأمة إلى الخير وتبشيرهم بالثواب المعدّ إن فعلوه، وتحذيرهم من الشرّ وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه.

وقال ابن خطيب الريّ : " في هذه الآية جواب عن شبهة اليهود وتقديره أن المقصود من بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يبشروا الخلق على اشتغالهم بعبودية الله وأن يندروهم على الإعراض عن العبودية فهذا هو المقصود الأصلي من البعثة فإذا حصل هذا المقصود فقد كمل الغرض وتمّ المطلوب وهذا المقصود الأصلي حاصل بإنزال الكتاب المشتمل على بيان هذا المطلوب ومن المعلوم أنه لا يختلف حال هذا المطلوب بأن يكون ذلك الكتاب مكتوباً في الألواح أو لم يكن وبأن يكون نازلاً دفعة واحدة أو منجماً مفرقاً بل لو قيل إن إنزال الكتاب منجماً مفرقاً أقرب إلى المصلحة لكان أولى لأن الكتاب إذا نزل دفعة واحدة كثرت التكاليف وتوجهت بأسرها على المكلفين فيثقل عليهم قبولها ولهذا السبب أصر قوم موسى عليه السلام على التمرد ولم يقبلوا تلك التكاليف أما إذا نزل الكتاب منجماً مفرقاً لم يكن كذلك بل ينزل التكاليف شيئاً فشيئاً وجزءاً فجزءاً فحينئذ يحصل الانقياد والطاعة من القوم وحاصل هذا لجواب أن المقصود من بعثة الرسل وإنزال الكتب هو الإعذار والإنذار وهذا المقصود حاصل سواء نزل الكتاب دفعة واحدة أو لم يكن كذلك فكان اقتراح اليهود في أنزال الكتاب دفعة واحدة اقتراحاً فاسداً وهذا أيضاً جواب عن تلك الشبهة في غاية الحسن ثم ختم الآية بقوله وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا يعني هذا الذي يطلبونه من الرسول أمر هين في القدرة ولكنكم طلبتموه على سبيل اللجاج وهو تعالى عزيز وعزته تقتضي أن لا يجاب المتعنت إلى مطلوبه فكذلك حكمته تقتضي هذا الامتناع لعلمه تعالى بأنه لو فعل ذلك لبقوا مصرين على لجاجهم وذلك لأنه تعالى أعطى موسى عليه السلام هذا التشريف ومع ذلك فقومه بقوا معه على المكابرة والإصرار وللجاج والله أعلم.¹

4- {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} {الفتح: 7} : قوله: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (الفتح: 4)، ثم قال بعد: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (الفتح: 7)، للسائل أن يسأل عن تعقيب جنود السماوات في الآية الأولى بقوله: (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) وتعقيب الثانية بقوله: (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)؟

¹ - الرازي - مفاتيح الغيب : 88/11 .

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الثانية لما تقدمها قوله تعالى: (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (الفتح: 5 - 6)، ناسب هذا المتقدم، من فعله تعالى بالفريقين، من مجازاة المؤمنين بالنعيم المقيم، وتعذيب المنافقين وغضبه عليهم ولعنهم وإعداده لهم جهنم، وصفه تعالى بالعزة ليعلم أنه سبحانه لا مغالب له وأن الكل تحت قهره، إذ لعزته يفعل في الكل ما يريد وما تقتضيه حكمته، إذ هو العزيز في ملكه الحكيم في أفعاله.

ولما لم يتقدم الآية المتقدمة ما يقتضي القصر كهذه، وإنما قبلها قوله سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح: 4)، وهذا تعريف بإنعامه سبحانه ورحمته، فأعلم سبحانه أنه العليم بمن يرحمه، كما قال تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) (الإسراء: 54)، وقال تعالى: (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: 125)، وقال تعالى: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (الأنعام: 124)، وجاء كل من الآيتين على ما يجب، والله أعلم.

5- لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} الفتح: 19: وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا كَامِلَ الْقُدْرَةِ حَكِيمًا حَيْثُ جَعَلَ هَلَاكَ أَعْدَائِهِ عَلَى أَيْدِيكُمْ لِيُنْصِرَكُمْ عَلَيْهِ أَوْ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِعْزَازَ قَوْمٍ وَإِذْلَالَ آخَرِينَ فَإِنَّهُ يَذَلُّ مَنْ يَشَاءُ بِعَزَّتِهِ وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، فَهِيَ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ تَذِيلٌ لَجُمْلَةٍ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا لِأَنَّ تَيْسِيرَ الْفَتْحِ لَهُمْ وَمَا حَصَلَ لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَغَانِمِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَثَرِ عِزَّةِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَتَعَاصَى عَلَيْهَا شَيْءٌ صَعْبٌ، وَمِنْ أَثَرِ حِكْمَتِهِ فِي تَرْتِيبِ الْمَسَبِّبَاتِ عَلَى أَسْبَابِهَا فِي حَالَةِ لَيْظِنِ الرَّائِي أَنَّهُ لَا تَيْسِرَ فِيهَا أَمْثَالَهَا.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (عزيز حكيم)

1- {فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} البقرة: 209 : نَبَّهَ بِقَوْلِهِ {يَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ} أَنَّ أَعْظَمَ الذَّنْبِينَ مَا كَانَ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ وَالْبَيِّنَةِ، وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِمَنْ يَبْصُرُ عَنْ رُكُوبِ ذَنْبٍ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِذَا أُرِدْتُمْ ذَنْبًا فَادْكُرُوا عِزَّ اللَّهِ وَحِكْمَتَهُ، [فِي الْعِلْمِ بَعْزُهُ عِلْمٌ بِقُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِ الْمَذْنِبِ]، وَفِي الْعِلْمِ بِحِكْمَتِهِ عِلْمٌ بِأَنَّهُ غَيْرُ ظَالِمٍ فِي عِقَابِهِ وَفِي الْعِلْمِ بِهَيْدِينَ أَنْزَجَارِ سَكَنِ ارْتِكَابِ الذَّنْبِ.

2- {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ { البقرة 220 : ولما نزلت: }وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ { (الأنعام: 152)، عزلوا أموال اليتامى، حتى جعل الطعام يفسد، واللحم ينتن، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت: {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ { (البقرة: 220): وبهذا تعلم لطيفة التذليل فالعزيز ماشاء كان ولكن لحكمته لا يشاء العنت والمشقة لعباده المؤمنين وأوليائه الصالحين وهو أصدق القائلين " لا يكلف الله نفسا إلا وسعها... " البقرة : (286).

3- {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ { البقرة 228 : وقوله: والله عزيز حكيم العزيز: القوي، لأن العزة في كلام العرب القوة ليخرجن الأعرز منها الأدل [المنافقون: 8] وقال شاعرهم: وإنما العزة للكاثر والحكيم: المتقن الأمور في وضعها، من الحكمة كما تقدم.

والكلام تذييل وإقناع للمخاطبين، وذلك أن الله تعالى لما شرع حقوق النساء كان هذا التشريع مظنة المتلقي بفرط التحرج من الرجال، الذين ما اعتادوا أن يسمعو أن للنساء معهم حظوظا، غير حظوظ الرضا والفضل والسخاء، فأصبحت لهن حقوق يأخذنها من الرجال كرها، إن أبوا، فكان الرجال بحيث يرون في هذا ثلما لعزتهم، كما أنبأ عنه حديث عمر بن الخطاب المتقدم، فبين الله تعالى أن الله عزيز أي قوي لا يعجزه أحد، ولا يتقي أحدا، وأنه حكيم يعلم صلاح الناس، وأن عزته تؤيد حكمته فينفذ ما اقتضته الحكمة بالتشريع، والأمر الواجب امتثاله، ويحمل الناس على ذلك وإن كرهوا.

4- {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ { البقرة 240 : يعني تعالى ذكره:"والله عزيز"، في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده من الرجال

والنساء، فمنع من كان من الرجال نساءهم وأزواجهم ما فرض لهن عليهم في الآيات التي مضت قبل: من المتعة والصداق والوصية، وإخراجهن قبل انقضاء الحول، وترك المحافظة على الصلوات وأوقاتها ومنع من كان من النساء ما ألزمهن الله من التريص عند وفاة أزواجهن عن الأزواج، وخالف أمره في المحافظة على أوقات الصلوات -"حكيم"، فيما قضى بين عباده من قضاياها التي قد تقدمت في الآيات قبل قوله: "والله عزيز حكيم"، وفي غير ذلك من أحكامه وأقضيته.

5- {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } البقرة 260 : لما إبراهيم كان خليلاً لما سلف له من قدم صدق، سأل الله أن يريه كيف يحيي الموتى، فأعطاه سؤاله، في الوقت على أقرب الوجوه ولم يكن العزيز من الخلّة بمنزلة إبراهيم ولم يرد العلم فلما أقدم أبلاه الله تعالى في نفسه، وأراه ذلك في ذاته، ولأن إبراهيم تضرع وسأل وقال أرني، وغيره أخرج الكلام مخرج المنكر المتعجب من قدرة الله عز وجل وقال: (أني يحي) ولا يخفى ما بين اللفظين من الضراعة والغلظة، ولهذا ختم آية عزيز بقوله: {أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وآية إبراهيم بقوله {وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ، وفي إعلام إبراهيم بالعزة وتيقنّها تثبیت وتسليّة له ورفع لدرجته في العلم والإيمان وفيها بيان قدرته على البعث وفي ذكر الحكمة بيان بأن البعث للحساب عين الحكمة والتنزّه عن العبت في الخلق .

6- {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } المائدة 38 : قدّم السارق على السارقة هنا { والسارق والسارقة } وأما في آية الزنا فقد قدم الزانية على الزاني { الزانية والزاني فاجلدوا } [النور : 2] والسرّ في ذلك أن الرجل على السرقة أجرأ والزنى من المرأة أقبح وأشنع ، فناسب كلا منهما المقام .

اللطيفة الثانية : قال الأصمعي : قرأت هذه الآية وإلى جنبي أعرابي فقلت : (والله غفور رحيم) سهواً ، فقال الأعرابي : كلام من هذا؟ قلت : كلام الله ، قال : أعد فاعدت : والله غفور رحيم فقال : ليس هذا كلام الله فتنبهتُ فقلت { والله عزيز حكيم } فقال : أصبت ، هذا كلام الله ، فقلت : أنتقرأ القرآن؟ قال : لا ، قلت : فمن أين علمتُ أنني أخطأتُ؟ فقال : يا هذا ، عزّ ، فحكم ، فقطع ، ولو غفر ، ورحم لما قطع « أقول : هذا يدل على نكاء الأعرابي وشدة الترابط

والانسجام بين صدر الآية وآخرها ، وفي هذا التذييل إشارة إلى أن عزة الناس وتنظيم حياتهم وإتقانها بإقامة حدود الله .

اللطفية الثالثة : قال بعض الملحدين في الاعتراض على الشريعة الغراء بقطع اليد بسرقة القليل ونظم ذلك شعراً :

يُدُّ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسَجِدٍ وَدَيْتٍ ... مَا بِالْهَأُ فُطِعْتُ فِي رِبْعِ دِينَارٍ
تَحَكَّمْ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ ... وَأَنْ نَعُودَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

فأجابه بعض الحكماء بقوله :

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ... ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

قال شيخ الإسلام : " ثبت بهذه الآية أن من تاب بعد أن قدر عليه لم تسقط عنه العقوبة فهي كقوله : " {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، فأمر بقطع أيديهم جزاء على ما مضى ونكالا عن السرقة في المستقبل منهم ومن غيرهم وأخبر أن الله يتوب على من تاب ولم يدرأ القطع بذلك لأن القطع له حكمتان: الجزاء والنكال والتوبة تسقط الجزاء ولا تسقط النكال فإن الجاني متى علم أنه إذا تاب لم يعاقب لم يردع ذلك الفساق ولم يزرهم عن ركوب العظائم فإن إظهار التوبة والإصلاح لمقصود حفظ النفس والمال سهل.

ولهذا لم نعلم خلافا يعتمد في أن السارق أو الزاني لو أظهر التوبة بعد ثبوت الحد عليه عند السلطان لم يسقط الحد عنه وقد رجم النبي صلى الله عليه وسلم ماعزا والغامدية وأخبر بحسن توبتهما وحسن مصيرهما.¹

وَلَا يَجُوزُ بَعْدَ ثُبُوتِ الْحَدِّ بِالْبَيِّنَةِ أَوْ بِالِإِقْرَارِ تَأْخِيرُهُ لَا بِحَبْسٍ وَلَا بِمَالٍ يَفْتَدِي بِهِ وَلَا غَيْرِهِ بَلْ تَقْطَعُ يَدُهُ فِي الْأَوْقَاتِ الْمَعْظَمَةِ وَغَيْرِهَا فَإِنَّ إِقَامَةَ الْحَدِّ مِنَ الْعِبَادَاتِ كَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ إِقَامَةَ الْحَدِّ لَا تَأْخُذُهُ رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ فَيَعْطَلُهُ وَيَكُونُ قَصْدُهُ رَحْمَةً الْخَلْقِ بِكَفِّ النَّاسِ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ لَا شِفَاءَ غِيظِهِ وَإِزَادَةَ الْعُلُوِّ عَلَى الْخَلْقِ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ إِذَا أَدَبَ وَلَدَهُ فَإِنَّهُ لَوْ كَفَّ عَنْ تَأْيِيبِ وَلَدِهِ كَمَا تُشِيرُ بِهِ الْأُمُّ رِقَّةً وَرَأْفَةً لِفَسَادِ الْوَالِدِ وَإِنَّمَا يُؤَدِّبُهُ رَحْمَةً بِهِ وَإِصْلَاحًا لِحَالِهِ مَعَ أَنَّهُ يُوَدُّ وَيُؤْتِرُ أَنْ لَا يَحُوجَّهُ إِلَى تَأْدِيبٍ وَبِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الَّذِي يَسْقِي الْمَرِيضَ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ

¹ - ينظر : الصارم المسلول على شاتم الرسول : 363 .

وبمنزلة قطع العُضو المتأكل والحجم وقطع العُرُوق بالفُساد وَتَحُو ذَلِك بَل بِمَنْزِلَةِ شَرِبِ الْإِنْسَانَ
الدَّوَاءِ الْكَرِيهِ وَمَا يَدْخُلُهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ لَيْنَالٍ بِهِ الرَّاحَةَ .

7- {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ} الأنفال 10 : إن الله عزيز حكيم" يقول: إن الله الذي ينصركم، وبيده نصر من يشاء من
خلقه= "عزيز"، لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه، لأنه خلقه= "حكيم"،
يقول: حكيم في تدبيره ونصره من نصر، وخذلانه من خذل من خلقه، لا يدخل تدبيره وهن ولا
خلل.

وفي ذكر الحكيم نكتة وهي أنه لو كان من الحكمة . التي فيها لا محالة خير لكم . خذلانكم
ونصرة أعدائكم لنصرهم عليكم ، وقد كان ذلك لحكمته في أحد .

8- {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ} الأنفال 49 : ظن المنافقون أن العزة والغلبة للأكثر عددا وهذا منطقهم الفسد الذي
فيه شك في الله وعدم توكل وثقة في العزيز القهار ، أما قوله: (ومن يتوكل على الله) ، فإن
معناه: ومن يسلم أمره إلى الله، ويثق به، ويرض بقضائه، فإن الله حافظه وناصره لأنه "عزيز"،
لا يغلبه شيء، ولا يقهره أحد، فجاره منيع، ومن يتوكل عليه مكفي.

وهذا أمر من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله وغيرهم، أن يفوضوا أمرهم إليه،
ويسلموا لقضائه، كيما يكفيهم أعداءهم، ولا يستذلهم من ناوأهم، لأنه "عزيز" غير مغلوب، فجاره
غير مقهور- "حكيم"، يقول: هو فيما يدبر من أمر خلقه حكيم، لا يدخل تدبيره خلل.

9- {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ
إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} الأنفال 63 : حكم بالألفة بين الأنصار بعد العداوة، وحكم بالنصر على
أعدائه ، فهو عزيز يقهر من يخذعونك حكيم ينصر من يتبعونك

10- {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} الأنفال 67 : جملة : والله عزيز حكيم عطف على جملة: والله يريد
الآخرة عطا يؤذن بأن لهذين الوصفين أثرا في أنه يريد الآخرة، فيكون كالتعليل، وهو يفيد أن
حظ الآخرة هو الحظ الحق، ولذلك يريده العزيز الحكيم.

فوصف العزيز يدل على الاستغناء على الاحتياج، وعلى الرفعة والمقدرة، ولذلك لا يليق به إلا
محبة الأمور النفيسة، وهذا يومئ إلى أن أوليائه ينبغي لهم أن يكونوا أجراء كقوله في الآية

الأخرى: والله العزة ولسوله وللمؤمنين [المنافقون: 8] فلأجل ذلك كان اللائق بهم أن يربأوا بنفوسهم عن التعلق بسفاسف الأمور وأن يجنحوا إلى معاليها.

ووصف الحكيم يقتضي أنه العالم بالمنافع الحق على ما هي عليه، لأن الحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه.

11- {إِلَّا تَتَّصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} التوبة 40 هذا الذي ذكر في الآية فعل العزيز الحكيم ، فالعزة مع الحكمة علة لما صنع بالفريقين .

12- {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} التوبة 71 : جملة: " إن الله عزيز حكيم " تعليل لجملة سيرحمهم الله أي: أنه تعالى لعزته ينفع أوليائه وأنه لحكمته يضع الجزاء لمستحقه ، وهذا التذييل يوجب المبالغة في الترغيب والترهيب لأن العزيز هو من لا يمنع من مراده في عبادته من رحمة أو عقوبة والحكيم هو المدبر أمر عبادته على ما يقتضيه العدل والصواب .

13 - وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " لقمان : (27) لما كان كل شيء هو أثر لأسمائه وصفاته وكل شيء هو أثر لخلقه وأمره كان حقا أن لا يسع كلامه أي شيء مخلوق لأن المخلوق يستحيل أن يحيط بالخالق ختم الآية باسمين يتضمنان كل الأسماء الحسنى والصفات العلى ، العزيز للربوبية والجلال والحكيم للجمال ولا تجتمع هذه إلا لله الرحمان .

فاخبر عن عدم نفاذ كلماته لعزته وحكمته وهذان وصفان ذاتيان له سبحانه وتعالى لا يكون إلا كذلك .

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (العزيز العليم)

1- {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} الأنعام 96 : هذا الفعل الذي وصفه أنه فعله، وهو فلقه الإصباح، وجعله الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، تقدير الذي عز سلطانه، فلا يقدر أحد أراده بسوء وعقاب أو انتقام، من الامتناع منه - "العليم"، بمصالح خلقه وتديبيرهم لا تقدير الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا

تبصر، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله، ولا تضر ولا تنفع، وإن أريدت بسوء لم تقدر على الامتناع منه ممن أَرادها ، فالمعنى : أخلصوا، أيها الجهلاء، عبادتكم لفاعل هذه الأشياء، ولا تشركوا في عبادته شيئاً غيره. لأن هذه الآية سيقت للاستدلال بالربوبية والخلق والعلم والعزة والقدرة على توحيد الله بالعبادة ففيها رد على من ذكر في الآية قبل : "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون (93)

2- إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون (76) وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين (77) {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} النمل 78 : وربك العزيز في انتقامه من المبطل منهم ومن غيرهم، لا يقدر أحد على منعه من الانتقام منه إذا انتقم العليم بالمحق المحسن من هؤلاء المختلفين من بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، ومن غيرهم من المبطل الضال عن الهدى.

3- {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} يس 38 : قوله (ذلك تقدير العزيز العليم) معناه: هذا الذي وصفنا من جري الشمس لمستقر لها، تقدير العزيز في انتقامه من أعدائه، العليم بمصالح خلقه، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يخفي عليه خافية. وهذه الآية كآية الأنعام جاءت بعد ذكر أعداء الله وأنبيائه المشركين : يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) فسيقت بعد ذلك أدلة خلقه وعزته وقدرته وعلمه للاستدلال بها على حقه في العبودية وحده فحسن التذييل بقوله : (ذلك تقدير العزيز العليم) .

4- {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} 2 غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (3) غافر: لما كان الكتاب فيه الإخبار عن خلقه والتبين لأمره وكان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته قرن تعالى بين الإسمين من هذه الثلاثة كثيرا كقوله وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم وقال تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم وقال حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم وقال في حم بعد ذكر تخليق

العالم ذلك تقدير العزيز العليم وذكر نظير هذا فقال فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم .

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته فهو عليم بخلقه وأمره .

قال ابن عاشور : وصف الله بوصفي العزيز العليم [غافر: 2] هنا تعريض بأن منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأن الله يعلم ما تكنه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك، ورمز إلى أن القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله. وهذا وجه المخالفة بين هذه الآية ونظيرتها من أول سورة الزمر التي جاء فيها وصف العزيز الحكيم [الزمر: 1] على أنه يتأتى في الوصف بالعلم ما تأتى في بعض احتمالات وصف الحكيم في سورة الزمر. ويتأتى في الوصفين أيضا ما تأتى هنالك من طريقي إعجاز القرآن. وفي ذكرهما رمز إلى أن الله أعلم حيث يجعل رسالته وأنه لا يجاري أهواء الناس فيمن يرشحونه لذلك من كبرائهم وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: 31].

وفي إتباع الوصفين العظيمين بأوصاف غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ترشيح لذلك التعريض كأنه يقول: إن كنتم أذنبتم بالكفر بالقرآن فإن تدارك ذنبكم في مكنتم لأن الله مقرر اتصافه بقبول التوبة وبغفران الذنب فكما غفر لمن تابوا من الأمم فقبل إيمانهم يغفر لمن يتوب منكم.

وتقديم غافر على قابل التوب مع أنه مرتب عليه في الحصول للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعد لتدارك أمره فوصف غافر الذنب وقابل التوب تعريض بالترغيب، وصفتا شديد العقاب ذي الطول تعريض بالترهيب.¹

5- {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} فصلت 12 : قوله: (ذلك تقدير العزيز العليم) معناه : هذا

¹ - التحرير والتنوير : 77/24 - 78 .

الذي وصفت لكم من خلقي السماء والأرض وما فيهما، وتزييني السماء الدنيا بزينة الكواكب، على ما بينت تقدير العزيز في نعمته من أعدائه، العليم بسرائر عبادته وعلانيتهم، وتديبرهم على ما فيه صلاحهم.

وهذه أيضا سبقت بذكر المشركين بالله المقرين بكونه المتصف بالخلق والجلال والعظمة {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} {الزخرف 9: " حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) 6- {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} {الزخرف 9: أي لِيُسِنِدَنَّ خَلْقَهَا إِلَى مَنْ هَذَا شَأْنُهُ فِي الْحَقِيقَةِ وَفِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا أَنَّهُمْ يُعْبَرُونَ عَنْهُ بِهَذَا الْعُنْوَانِ وَسُلُوكُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ اتِّصَافَهُ تَعَالَى بِمَا سُرِدَ مِنْ جَلَاتِلِ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَبِمَا يَسْتَلْزِمُهُ ذَلِكَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ أَمْرٌ بَيْنَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَأَنَّ الْحِجَّةَ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ شَاوًا أَوْ أَبَوًا، وَلَمَّا جَعَلَ الْقَوْلَ كَأَنَّهُ جَوَابُهُمْ زَادَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِهِمْ. فَقَالَ: " الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14) ، ثُمَّ فَضَحَهُمُ بِالْإِخْبَارِ عَنْ حَالِهِمُ الْمَنَافِي لِإِجَابَتِهِ وَإِجَابَتِهِمْ وَصَرِيحَ كُفْرِهِمُ الْمَنَافِي لِحَقِّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِهِمْ: " وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) .

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (العزيز الوهاب)

{أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} {ص 9: يعنى ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاعوا ويصرفوها عن شاعوا ويتخيروا للنبوة بعض صنابيرهم ويترفعوا بها عن محمد وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته ثم رشح هذا المعنى فقال: {أم لهم}

أي خاصة {ملك السماوات والأرض} ولما كان الحكم على ذلك لا يستلزم الحكم على الفضاء قال: {وما بينهما} أي لتكون كلمتهم في هذا الكون هي النافذة ويتكلموا في الأمور الإلهية ويسندوا ما شأؤوا من الأمور الجليلة إلى من شأؤوا، ثم بين عجزهم وبكتهم وقرعهم ووبخهم بما سبب عن ذلك من قوله: {فليرتقوا*} أي يتكلفوا الرقي إن كان لهم ذلك {في الأسباب*} أي الطرق الموصلة إلى السماء ليستوا على العرش الذي هو أمانة الملك فيدبروا العالم فيخصوا من شأؤوا بالرسالة ليعلم أن لهم ذلك وأنه لا يسوغ لأحد أن يختص دونهم بشيء.

العلي مع الحكيم :

1- {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} الشورى 51 : وقوله: (إنه علي حكيم) يقول تعالى ذكره إنه يعني نفسه جل ثناؤه: ذو علو على كل شيء وارتفاع عليه، واقتدار. حكيم: يقول: ذو حكمة في تدبيره خلقه ، فجعل من الحكمة أن يكلم خلقه كما وصف وإلا ما صح اسمه العلي لو استوى ومن يكلم من خلقه في العلو ، فعلوه الذي لا يعلى عليه يقتضي هذه الأنواع من التكليم .
وينحو هذا قال السمرقندي : " إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ يَعْنِي: أَعْلَى مِنْ أَنْ يَكَلَّمَ أَحَدًا فِي الدُّنْيَا مُوَاجِهَةً، وَلَا يَرَاهُ فِيهَا أَحَدٌ عَيْنَانًا حَكِيمٌ حَكَمَ أَلَا يَكَلَّمَ أَحَدًا فِي المُوَاجِهَةِ، وَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ."¹

العليم مع القدير :

1- {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} النحل 70 : عليم بوجه الحكمة في وفاة كل في وقت معين في الصبا أو الشباب أو الكهولة أو الشيخوخة وأرذل العمر الذي لا يعلم فيه المرء بعد علمه شيئاً وهو قدير على كل هذا .

2- {أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} الشورى 50 : لما تضمنت الآية الإعلام بانفراده سبحانه بملك السماوات والأرض وقهره جميع (من) فيهن، وأنه الخالق لكل شيء فلا اختيار لمخلوق ولا مشيئة، وكل صادر منه إحسان، فيهب لمن يشاء إناثاً، وقدم

¹ - أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373هـ) - بحر العلوم : 250/3 .

ذكر الإناث لكرهه العرب إياهن، فأشار بتقديم ذكرهن إلى أن فلعهم وكرهتهم معارضة لما نفذت به مشيئته، ثم قال: (وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ)، وجاء لفظ الذكور معرّفًا ليشير بما تعطيه الألف واللام من العهدية إلى حالهم من الفضل ودرجة التقدم على الإناث، فكأنه في قوة أن لو قيل: الذين من أمرهم و (من) شأنهم، بتوازن تقديم الإناث وتعريف الذكور، فقدم ذكر الإناث لإرغام العرب، وعرف الذكور لشرف المنزلة، ثم قال: (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا) أي على التساوي عددًا، ثم قال: (وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا)، فجعل من هذا كله أن الفعل لا يشركه فيه غيره، يفعل في ذلك كله ما أراد. فلما تضمنت الآية قهر العباد وانفراده سبحانه بالخلق والأمر ناسبها الختام بقوله تعالى: (إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) أي عليم بوجه الحكمة في ذلك، قدير على ما يريد.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (العليم القدير)

1- {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} الروم 54 : {وَهُوَ الْعَلِيمُ} بأحوالهم {القدير} على تغييرهم وهذا الترديد في الأحوال أبين دليل على الصانع العليم القدير.

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (علياً قديراً)

1- {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} فاطر 44 : جملة التذييل أفادت التعليل لأن من لا ليُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ لا بد أن يتصف بإحاطة علم وإحاطة قدرة وهذا داخل فيما مضى من تعيب الآيات بقوله : " إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " و قوله : " إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " والله أعلم .

المطلب الثالث : الربوبية مع الجمال

الحلم بعد العلم :

{وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ النُّصْبُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي التُّلْثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ

يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ { النساء 12 : وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
أي عليم بمن جار أو عدل في وصيته حَلِيمٌ على الجائر لا يعاجله بالعقوبة وهذا وعيد ، وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَلِيمٌ أي عليم بمن جار أو عدل في وصيته حَلِيمٌ على الجائر لا يعاجله بالعقوبة وهذا
وعيد والله أعلم ، فلا يغتر بالإمهال .

وبذلك على هذا قوله بعدها : " تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا
خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ " .

{لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ { الحج 59 : وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ يحتمل أنه عليم
بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم ويحتمل أن يكون المراد أنه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك
في الجنة وأما الحليم فالمراد أنه لطمه لا يعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية بل يمهل
ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة .

{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ
أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَلِيمًا { الأحزاب 51 : قوله تعالى: وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ خبر عام، والإشارة به هنا إلى
ما كان في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص، وكذلك يدخل
في المعنى أيضا المؤمنون. وعلى هذا فالتذييل بالعليم لتأكيد هذا ، وقوله " حَلِيمًا " صفة
تقتضي صفحا وتأنيسا في هذا المعنى، إذ هي خواطر وفكر لا يملكها الإنسان في الأغلب
ففي ذكر الحليم منح فسحة للإنبابة من مثل هذا والله أعلم .

- الشكر مع العلم :

{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا { النساء 147 : اللطيفة في
ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم كما يأبى إضاعة سعيهم
باطلا فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء ، بل هو الذى يعطى العبد لعلمه
بحاله ما يحسن به الى نفسه ويشكره على قليله بالاضعاف المضاعفة التى لا نسبة لإحسان
العبد اليها فهو المحسن بإعطاء الاحسان وإعطاء الشكر فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه!

- الحكيم الحميد :

{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} فصلت 42 : يعني: القرآن تنزيل من الله تعالى، الحكيم في أمره، المحمود في فعاله فكتاب هذا شأن قائله لا شك يدعو إلى كل خير وصلاح ونعمة وفلاح .

خير الحافظين وأرحم الراحمين :

قال هل آمنكم عليه إلا كما آمنتمكم على أخيه من قبل قاله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . يوسف : 64 . اللطيفة في اقتران خير حافظاً بأرحم الراحمين وصفين لله تعالى في قول يعقوب لبنيه لما أرادوا أخذ ابنه " بنيامين " تفضيل حفظه ورحمته على كل حفظ ورحمة مثل قوله أحسن الخالقين وخير الرازقين وقرنهما بقوله " هل آمنكم عليه إلا كما آمنتمكم على أخيه من قبل " لأنهم قالوا له ذلك حين أرادوا أخذ يوسف من قبل وما حفظوه ولا رحموه ، وفي هذه المرة لما قال لهم : " قاله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين " لم يخيبه الله فحفظ له دعاءه وحفظ له أبناءه ورحمه بأن أزال وحشته ليوسف وأقر عينه برجوع ولديه ونبوة يوسف وملكه وعلمه وحفظه : " وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين (54) قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم (55) وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين (56) ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون (57) .

المطلب الرابع : الجلال مع الجمال

- ذو الجلال والإكرام :

1- {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} الرحمن 27 / 2- {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} { الرحمن 78 : فالله سبحانه وتعالى ذو العظمة والكبرياء والفضل والجود و الجلال الباهر، والمجد الكامل والإكرام لأوليائه.

- العزيز مع الرحيم والغفور والحميد : الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (العزيز الرحيم)

- 1- {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الشعراء 9
- 2- {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الشعراء 68

3- {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الشعراء 104

4- {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الشعراء 122

5- {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الشعراء 140

6- {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الشعراء 159

7- {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الشعراء 175

8- {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الشعراء 191: جعلت هذه الآيات تعقيباً على آيات ذكر فيها بعض أنبياء الله ودعائهم أقوامهم ثم نجاتهم ومن آمن معهم برحمة الله وهلاك من عاداهم بعزة الله ، فهو سبحانه يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد ثم يقول إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك وتوحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهاناً للمؤمنين ثم يذكر مصدر ذلك كله وأنه عن أسمائه وصفاته فصدور هذا الإهلاك عن عزته وذلك الإنجاء عن رحمته ثم يقرر في آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير ويجيب عن شبه المكذبين له أحسن جواب وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية فضرب الأمثال والأقيسة فدلالة القرآن سمعية عقلية. لذلك ما أعظم وقع هذه الآية :

9- {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} الشعراء 217 في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

10- {يَبْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الروم 5 : ذكرت هذه بشارة للرسول بنصرة أهل الكتاب على المجوس ففيها تصديق لما عقّب به في الشعراء وفيها إشارة إلى كون النصر مشيئته المطلقة لا يشركه فيها أحد وكذا يصيب برحمته من يشاء .

11- {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} السجدة 6 : جيء بالإشارة إلى اسم الجلالة بعد ما أجري عليه من أوصاف التصرف بخلق الكائنات وتدبير أمورها للتنبيه على أن المشار إليه باسم الإشارة حقيق بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل تلك الصفات المتقدمة كما تقدم في قوله تعالى: أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [5] ، وكما قال الفرزدق مفتخراً :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جريير المجامع

لا جرم أن المتصرف بذلك الخلق والتدبير عالم بجميع مخلوقاته ومحيط بجميع شؤونها فهو عالم الغيب، أي: ما غاب عن حواس الخلق، وعالم الشهادة، وهو ما يدخل تحت إدراك الحواس، فالمراد بالغيب والشهادة: كل غائب وكل مشهود. والمقصود هو علم الغيب لأنهم لما

أنكروا البعث وإحياء الموتى كانت شبهتهم في إحالته أن أجزاء الأجسام تفرقت وتخللت الأرض، ولذلك عقب بقوله بعده وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد [السجدة: 10] . وأما عطف والشهادة فهو تكميل واحتراس.

ومناسبة وصفه تعالى ب العزيز الرحيم عقب ما تقدم أنه خلق الخلق بمحض قدرته بدون معين، فالعزة وهي الاستغناء عن الغير ظاهرة، وأنه خلقهم على أحوال فيها لطف بهم فهو رحيم بهم فيما خلقهم إذ جعل أمور حياتهم ملائمة لهم فيها نعيم لهم وجنبهم الآلام فيها. فهذا سبب الجمع بين صفتي العزيز والرحيم هنا على خلاف الغالب من ذكر الحكيم مع العزيز.

12- {تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} يس5 : لعل نكتة إضافة التنزيل إلى العزيز الرحيم الإشارة بالبشارة للرسول برحمة العزيز التي نالها كل نبي ورسول ومن تبعهم والوعيد لكن كفار عنيد بالعذاب الشديد من العزيز الحميد ، وفي ذكر سياقها دليل ذلك : يس (1) والقرآن الحكيم (2) إنك لمن المرسلين (3) على صراط مستقيم (4) {تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} يس5 لتندر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (6) لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون (7) ، وفي بقية السورة ما يؤكد هذا .

13- {إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} الدخان42 : بذكر ما قبلها تتضح نكتتها : إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين (40) يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون (41) موعد المكذبين والمؤمنين فالعزیز نشر على المكذبين الذين في طي " أجمعين " فينتقم منهم والرحيم نشر على المؤمنين الذين هم الفريق الثاني في طي " أجمعين " فريحهم ربهم الرحيم .
الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (عزيز غفور)

1- ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (27) لَوْ مِنَ النَّاسِ وَالْذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ { فاطر28 : {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المنيب حقه أن يخشى .

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (العزيز الغفور)

1- {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} {الملك 2} : في العزيز تهديد ووعيد لمن لم يحسن العمل وتنزيه للخالق عن العبث وفي الغفور ترغيب للنجاة من بتدارك ما لا بد منه من زلل .

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (العزيز الغفار)

1- قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار (65) {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} ص 66 : في ذكر العزيز تهديد لكل مشرك جحود كَفَّار ووعيد بنقمة العلي الجبار وفي الغفَّار فسحة لتوبة كلِّ ديار وتختل الفاصلة بالغفور دون الغفَّار

2- {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} {الزمر 5} العزيز ذكره تعلقه لهذه الأخبار التي ذكرت دليلاً على أجل يرجى فيه من العزيز أن يكون غفَّاراً .

3- {تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} غافر 42 : دعاءهم إلى العزيز تحذير وتهويل لو تفكروا ينفي عنه الشرك به بإذن الله الاعتبار والغفَّار ترغيب في توحيد أولئك الكفَّار .

الآيات التي ورد بها اسم الله تعالى (العزيز الحميد)

1- {الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} {إبراهيم} : وهاتان الصفتان يفيدان الرهبة والرغبة فالعزيز يفيد التخويف والانتقام من المكذب والحميد يفيد الترغيب في الرحمة للمصدق، والسير إلى الله لا بد فيه من جناحين واحد للرجاء وواحد للخوف والرهبة .

2- {وَيُزَيِّدُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} {سبأ 6} : فمن اغتر بالحميد الغفور الرحيم ونسي العزيز شديد العقاب تتكبد الطريق ومن قتله خوف نقمة العزيز أخذت بيدت الشياطين واجتالته عن الطريق ونكتة أخرى في إيثار وصفي العزيز الحميد هنا دون بقية الأسماء الحسنى هي الإيماء إلى أن المؤمنين حين يؤمنون بأن القرآن هو الحق والهداية استشعروا من الإيمان أنه صراط يبلغ به إلى العزة قال تعالى: والله العزة ولسوله وللمؤمنين [المنافقون: 8] ، ويبلغ إلى الحمد، أي الخصال الموجبة للحمد، وهي الكمالات من الفضائل والفواضل.

3- {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} {البروج 8} : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ

أَيُّ مَا أَنْكُرُوا مِنْهُمْ وَمَا عَابُوا " إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " استئناف مفصَّحٌ عن براءتهم
عَمَّا يَعَابُ وَيَنْكُرُ بِالْكَلِيَّةِ عَلَى مِنْهَا جُ قَوْلِهِ :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ ضَيُوقَهُمْ تَلَامُ بِنَسِيَانِ الْأَحْبَةِ وَالْوَطَنِ

وإجراء الصفات الثلاث على اسم الجلالة وهي: العزيز. الحميد. الذي له ملك السماوات والأرض لزيادة تقرير أن ما نقموه منهم ليس من شأنه أن ينقم بل هو حقيق بأن يمدحوا به لأنهم آمنوا برب حقيق بأن يؤمن به لأجل صفاته التي تقتضي عبادته ونبذ ما عداه لأنه ينصر مواليه ويثيبهم ولأنه يملكهم، وما عداه ضعيف العزة لا يضر ولا ينفع ولا يملك منهم شيئاً فيقوى التعجيب منهم بهذا.

- العفو بعد القدرة

{إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوا أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} النساء 149 في الآية حث للمؤمنين بأن يتصفوا بصفات الجمال من عفو عند المقدرة : ففي الآية إخبار عن التجاوز أنه خير من الانتصار، فقال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا يَعْنِي إِنْ تَطَهَّرُوا حَسَنَةً أَوْ تُخْفُوا يَعْنِي الْحَسَنَةَ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ يَعْنِي يَتَجَاوَزُ عَنْ ظَالِمِهِ وَلَا يَجْهَرُ بِالسُّوءِ عَنْهُ، فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى عِبَادِهِ فَيَعْفُو عَنْهُمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَى الْعُقُوبَةِ لَكُمْ، فَيَعْفُو عَنْكُمْ، وَمِثْلُ هَذَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ يَبِينُ فِيهِمَا أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

الغني ذو الرحمة :

{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} (الأنعام آية 133) .

ذكر أهل التفسير في بيان قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} إلى قوله {قَوْمٍ آخَرِينَ} أنه الغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، وهو مع ذلك رحيم بهم، فإن شاء أذهبهم إذا خالفوا أمره، ويستخلف من بعدهم ما يشاء من قوم آخرين يطيعونه، كما أذهب القرون الأولى وأتى بمن بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بغيرهم، كما قال تعالى: {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ} (محمد : 38)

وقال الإمام الشوكاني في بيان الآية ذاتها: وربك الغني عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم، لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم، ومع كونه غنيا عنهم؛ فهو ذو رحمة بهم لا يكون

غناه مانعا من رحمته لهم. وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة في هذا المقام، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم، هي غاية التفضل والتطول، إذ لو شاء لاستأصل العصاة بالعذاب المفضي إلى الهلاك، ويستخلف من بعد إهلاكهم ما يشاء من خلقه ممن هو أطوع له وأسرع إلى امتثال أحكامه منهم؛ مثل ما استخلف غيرهم الذين أنشأهم من ذرية قوم آخرين أهلكهم - قيل: هم أهل سفينة نوح - ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم، ولا استخلف غيرهم رحمة لهم، ولطفا بهم " 1.

الحميد المجيد :

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ [هود : 73] :
 الحميد هو الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محموداً وإن لم يحمده غيره فهو حميد في نفسه والمحمود من تعلق به حمد الحامدين وهكذا المجيد والممجد والكبير والمكبر والعظيم والمعظم والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود فمن أحببته ولم تشن عليه لم تكن حامداً له حتى تكون مثلياً عليه محباً له وهذا الثناء والحب تبع للأسباب المقتضية له وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير فإن هذه هي أسباب المحبة وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل كان الحمد والحب أتم وأعظم والله سبحانه له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه ما والإحسان كله له ومنه فهو أحق بكل حمد وبكل حب من كل جهة فهو أهل أن يحب لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه وإحسانه ولكل ما صدر منه سبحانه وتعالى وأما المجد فهو مستلزم للعظمة والسعة والجلال والحمد يدل على صفات الإكرام والله سبحانه وتعالى ذو الجلال والإكرام وهذا معنى قول العبد لا إله إلا الله والله أكبر ف لا إله إلا الله دال على ألوهيته وتفرد فيه فألوهيته تستلزم محبته التامة والله أكبر دال على مجده وعظمته وذلك يستلزم تعظيمه وتمجيده وتكبيره ولهذا يقرن سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيراً كقوله {رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} هود 73

وقوله تعالى {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا} الإسراء 111 فأمر بحمده وتكبيره

1 - الشوكاني - فتح القدير: 2/ 164 - بتصرف قليل.

وَقَالَ تَعَالَى {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} الرَّحْمَن 78

وَقَالَ تَعَالَى {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} الرَّحْمَن 27

وَفِي الْمَسْنَدِ وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ أَلْطُؤًا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ حَدِيثِ صَحِيحِ يَعْنِي الزَّمُوهَا وَتَعَلَّقُوا بِهَا فَالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ هُوَ الْحَمْدُ وَالْمَجْدُ ، فَذَكَرَ هَذَيْنِ الْأَسْمِينَ الْحَمِيدِ الْمَجِيدِ عَقِيبَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ مُطَابِقَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : {رَحْمَةً اللَّهُ وَبَرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} هُود 73 .

وَلَمَّا كَانَتْ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ ثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَتَكْرِيمُهُ وَالتَّنْوِيهِ بِهِ وَرَفْعُ ذِكْرِهِ وَزِيَادَةُ حُبِّهِ وَتَقْرِيْبِهِ كَمَا تَقْدَمُ كَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ فَكَانَ الْمُصَلِّيُّ يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَزِيدَ فِي حَمْدِهِ وَمَجْدِهِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ هِيَ نَوْعُ حَمْدٍ لَهُ وَتَمْجِيدٍ هَذَا حَقِيقَتُهَا فَذَكَرَ فِي هَذَا الْمَطْلُوبِ الْأَسْمِينَ الْمُنَاسِبِينَ لَهُ وَهِيَ الْأَسْمَاءُ الْحَمِيدِ وَالْمَجِيدِ وَهَذَا كَمَا تَقْدَمُ أَنَّ الدَّاعِيَ يَشْرَعُ لَهُ أَنْ يَخْتَمَ دَعَاءَهُ بِاسْمٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى مُنَاسِبٍ لِمَطْلُوبِهِ أَوْ يَفْتَتِحَ دَعَاءَهُ بِهِ وَتَقْدَمُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} الْأَعْرَافُ 180.¹

المغفرة مع العقاب والقوة :

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ" [غافر: 03]
وقد ورد في القرآن الكريم "غافر" مرة واحدة مضافا إلى الذنب، ومعطوفا عليه (قابل التوب) في قوله سبحانه: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} (غافر: 3) ومعنى هذا أنه يغفر ما سلف من الذنب. ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع له. ثم يأتي بعد قوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} قوله سبحانه: {شَدِيدِ الْعِقَابِ} أي لمن تمرد وطغى. كقوله تعالى: {رَبِّيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ 49 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) } (الحجر) وكثيرا ما يقرن سبحانه هذين الوصفين في مواضع عديدة من القرآن الكريم وسبب ذلك أن يبقى العبد دائما بين الرجاء والخوف .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، والحمد لله رب العالمين .

¹ - ينظر : ابن القيم - جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام : 316 - 317 .

الخاتمة :

لايفك بحث الباحث عن كونه فعل فاعل، قد يبتدىء بخاطرة تقلّب في القلب، يجعلها همًا ومشكلة يطرحها ليتدبر ويفترض في سبل نيل مخرج وحلّ يفكّ به عقدها ويكشف كنهها ليرتاح من شروده ويفرح ويلتذّب برودة العرفان للمجهول يومها.

وليست الطريق صراطا مستقيما ، وليس كل من ركبها حازم خزيت بل هو عنوان على رأسها مفترض، ولأواءها وشعابها واردة، والكلُّ لها على متنها كلاله ، فليس مسكا في ختامها مجزوما وإنّما هو مآل آل إليه السالك في مسلكه والباحث في مبحثه.

فخاتمة بحث الباحث كمثل الموقف الذي يجعله السالك لدرجه حدا، إن سألته عن مسلكه قال وجدت كذا ومررت بكذا وخبرت واستنتجت كذا وكذا، فكذلك الشأن في مسيرة بحثنا إن أزلنا الإبهام عن كذا وكذا قلنا؛ بحثنا ضمّ عدّة مباحث ، فخاتمته هي ضمّ لنتائج مباحثه فقد وجدنا أن :

- راجح الأقوال في علاقة الاسم بالمسمّى هو أنّ الاسم للمسمى لقوله تعالى : " والله الأسماء الحسنى فادعوه بها "

- الكمال المطلق بكل وجه من الوجوه ثابت لله نقلا وعقلا .

- قدّم البحث قواعد لأهل السنة فيما يوصفُ به الربُّ تبارك وتعالى، فعلى المسلم معرفتها ومراعاتها ثم يشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلباً عاقلاً ولساناً قائلًا ومحللاً قابلاً، وإلاّ فالسكوت أولى به فجَنَابُ الربوبية أجلُّ وأعزُّ مما يخطر بالبال أو يعبر عنه المقال: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علماً.

- سبيل الله في كتابه التفصيل في ذكر صفاته الحسنى وأفعاله الحكيمة والعموم في نفي السلوب والنقص عنه إلاّ لقرينة أونكته عارضة .

- المتكلمون معتزلتهم وأشاعرتهم ورثوا تقديم العقل على النقل عن الفلاسفة وإن كان همّ المعتزلة الذود عن حياض الدين وأصوله والردّ على الفلاسفة وكذا حال الأشاعرة مع المعتزلة .

- لا تدخل تاء المبالغة في أوصاف الله تعالى نحو رحّالة وعلامة وفهامة ولا نحو خليفة وربيعة ولا نحو داهية وطاغية ولا نحو همزة وحطمة وحُفظة .

- صفات الله الاختيارية ينفىها المتكلمون بشبهة حلول الحوادث وأنه تعالى منزّه عن حلول الحوادث.

- مصطلحات المتكلمين في وصف الله عامة فيها حق وباطل فلا تقبل بالكليّة فيقبل ما تحتمله من باطل ولا تردّ بالكليّة فيردّ ما فيها من حق وإنما يستفصل فيها .

- وجود الله جلّ وعلا لا أول له وهو في كل لحظة من وجوده يفعل ما يشاء كيف يشاء فجميع ما سوى الله كلّه مخلوق حادث بعد عدم ، إلا أنّ الله لم يسبق عليه زمن هو فيه ممنوع الفعل سبحانه وتعالى عن ذلك . فظهر أن وجود حوادث لا أول لها إن كانت بإيجاد من لا أول له لا مُحال فيه وكل فرد منها كائناً ما كان فهو حادث مسبق بعدم لكن محدثه لا أول له وهو في كل وقت يحدث ما شاء كيف شاء سبحانه وتعالى .

- أسماء الله وصفاته تحتل أكثر من معنى فيراد بالصفة في آية ما يراد بها في أخرى نحو المولى والبصير والسميع والحفيظ والجبار والعزيز .

- أكثر الأسماء عقبت بها الآيات منفردة : العليم

- أكثر الأسماء اقترانا في تدبيل الآيات : الغفور الرحيم و العزيز الحكيم

- العزيز والحكيم يتضمنان كل الأسماء الحسنى وكلّ معاني الربوبية والجلال والجمال .

- في وصف الله باسم منفرد كمال وفي اقتران اسمين أو صفتين كمال آخر ففي وصفه بالعليم كمال وبالعليم الحكيم كمال من اقترانهما .

- تُعقّبُ الآيات بالأسماء والصفات إما لتمكين فواصل الآي وإمّا لتكميل المعنى وإمّا لإعلام المكلفين حكم الله المذكور في الآية قبل ولا سيما التعقيب بالغفور الرحيم وإمّا لتعليل حكم وهذا كثير وإمّا لبشارة المؤمنين ونذارة المكذّبين وإمّا لتسليتهم وترغيبهم وتبكييت أعدائهم وتهديدهم وإمّا لإقرار توحيده ونفي الشرك عنه ولا شكّ لحكم ونكت ولطائف تعجز أمامها المعارف .

وختاماً الله نسأل أن يكتب لما في هذا البحث من حقّ ذيوعا وانتشارا ننال به مغفرة وتبشارا وأن يهيئاً لما فيه من غلط بصيرا منظارا فيجعل له حدا وانحصارا إنه كان عزيزا غفّارا .

“ Research’s summary ”

There is no doubt that ALLAH is the creator and all other things are his creatures . thus no one , nothing can resemble him , and he has attributes which belong to him . we can know there meanings however , we don’t know there characters , there meanings made Philosophers and Contesters in a great trouble because they feared to compare the creator with what has created , that is why they negated these meanings . Beside , they said that ALLAH is neither inside universe or out of it . The followers of the ‘ SUNNAH’ believe that ALLAH is superior and higher than every thing besides no thing resembles him and he is all hearing and the all seeing .

For these reasons we talked about the meaning of these names and attributes and their derivatives for example : ALLAH God : The Name of the Creator of the Universe and all that it contains. Derives from the word "Ilah" which means "the One deserving all worship", the One to Whom all hearts submit in love, fear, reverence, desire, trust and sincerity, and to Whom all limbs submit in all forms of worship such as prayers, supplications, sacrifices, invocations, et...

In the applied chapter we tried to know the secrets which lie beneath the end of "Ayets" when sometimes they end with a certain name of ALLAH or a certain attribute another time they end with another one and other times the "Ayets" end with 2 names .

In this chapter we classified the names and attributes of ALLAH into groups according to their meanings :

1* Names refers to being “GOD” : ALLAH – ELWAAHID- ELAHAD- ELHAQQ

2* Names refers to being “LORD” : ELRABB- ERRAZZAQ- ESSAMIE- ELBASSIR , the Creator, the Inventor of all things, the Bestower of forms...

3*Names and attributes of “ MAJESTY” : the King, the Holy, the One Free from all defects, the Giver of security, the Watcher over His creatures, the All-Mighty, the Compeller, the Supreme...

4* Names and attributes of “ BEAUTY” : The Most Beneficent, the Most Merciful ...

قائمة المصادر والمراجع :

القرآن الكريم بروايتي ورش وحفص الكتب :

- THE TELEOLOGICQL ETHICS OF FAKHER AL-DIN AL-RAZI by _1
:Ayman shihadeh \ BRILL : LEIDEN – BOSTON \ 2006 –
- 2_ إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي، أبو إسحاق ابن قرقول (المتوفى: 569هـ) -
مطالع الأنوار على صحاح الآثار - ت : دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث - وزارة
الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر - ط : 1/1433 هـ - 2012 م
- 3_ ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ت : - عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي،
بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، 1417هـ / 1997م
- 4_ ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم
الشيبياني الجزري (المتوفى: 606هـ) - النهاية في غريب الحديث والأثر - ت : طاهر أحمد
الزاوي - محمود محمد الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م
- 5_ ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: 597هـ) -
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا - دار
الكتب العلمية، بيروت - ط : 1412 هـ - 1992 م .
- 6_ ابن الجوزي - زاد المسير في علم التفسير - ت عبد الرزاق المهدي - دار الكتاب العربي -
بيروت - ط : 1422/1 هـ
- 7_ ابن الجوزي - زاد المسير في علم التفسير - ت : عبد الرزاق المهدي - دار الكتاب العربي
- بيروت - ط : 1 - 1422 هـ
- 8_ ابن حزم الظاهري - الإحكام في أصول الأحكام - ت : الشيخ أحمد محمد شاكر قدم له:
إحسان عباس - دار الآفاق الجديدة، بيروت .

9_ ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. ص : 105/4، الأعلام، لخير الدين الزركلي، طبعة دار العلم للملايين، 1986م .

10_ ابن القيم شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (المتوفى: 751هـ - بدائع الفوائد - دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان - ص: [18/1] .

11_ ابن القيم - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، - دار المعرفة - بيروت. 1398هـ/1978 .

12_ ابن القيم - مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة - اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلبي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: 774هـ) - ت : سيد إبراهيم - دار الحديث، القاهرة - مصر - ط : 1/1422هـ - 2001م

13_ ابن القيم - نونية ابن القيم - الكافية الشافية - مكتبة ابن تيمية، القاهرة - ط : 3/1417هـ
14_ ابن القيم - اجتماع الجيوش الإسلامية - ت : عواد عبد الله المعتق - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض - الطبعة: الأولى، 1408هـ / 1988م

15_ ابن القيم - التبيان في أقسام القرآن - محمد حامد الفقي - دار المعرفة، بيروت، لبنان

16_ ابن القيم - التفسير القيم - ت : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان - دار ومكتبة الهلال - بيروت - ط : 1-1410 هـ

17_ ابن القيم - الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعتلة - ت : علي بن محمد الدخيل الله - دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط : 1/1408هـ

18_ ابن القيم - الكافية الشافية - مكتبة ابن تيمية، القاهرة - ط : 2/1417هـ

19_ ابن القيم - روضة المحبين ونزهة المشتاقين - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - ط : 1403هـ/1983م

ابن القيم - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - دار المعرفة، بيروت، لبنان - ط : 1398هـ/1978م

21_ ابن القيم - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - ت : محمد حامد الفقي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط : 2/1393-1973 / ت : محمد المعتصم بالله البغدادي

- دار الكتاب العربي - بيروت - ط : 3/1416 هـ - 1996م

- 22_ ابن القيم - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان - د ت
- 23_ ابن القيم - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ت - محمد حامد الفقي - مكتبة المعارف، الرياض - د ت .
- 24_ ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (المتوفى: 840هـ) - الرّوضُ الباسمُ في الدّبِّ عن سنّة أبي القاسم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - د ت
- 25_ ابن بَطَّة العكبري (المتوفى: 387هـ) : الإبانة الكبرى - ت : رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري - دار الراجحة للنشر والتوزيع، الرياض .
- 26_ ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني الدمشقي - التدمرية - ت : محمد بن عودة السعوي - مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط : 06
- 27_ ابن تيمية - بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية - ت : موسى الدويش مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية - الطبعة: الثالثة، 1415هـ/1995م
- 28_ ابن تيمية - جامع الرسائل - ت : محمد رشاد سالم - دار العطاء - الرياض - ط : 1 / 1422هـ - 2001م
- 29_ ابن تيمية : الحسنة والسيئة - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - د ت
- 30_ ابن تيمية - الصفدية - ت : محمد رشاد سالم - مكتبة ابن تيمية ، مصر - ط : 2 / 1406
- 31_ ابن تيمية - الفتاوى الكبرى - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط : 1 / 1408هـ - 1987م - ص : [478/6] .
- 32_ ابن تيمية - النبوات - ت : عبد العزيز بن صالح الطويان - أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية : ط : 1 / 1420هـ/2000م
- 33_ ابن تيمية - بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية - ت : مجموعة من المحققين مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - ط : 1 / 1426هـ

- 34_ ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل - ت : الدكتور محمد رشاد سالم - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية - ط : 2، 1411 هـ - 1991 م
- 35_ ابن تيمية - دقائق التفسير - ت : محمد السيد الجلند - مؤسسة علوم القرآن - دمشق - ط : 1404 .
- 36_ ابن تيمية - شرح العقيدة الأصفهانية - ت : محمد بن رياض الأحمد - المكتبة العصرية - بيروت - لبنان ، ط 1425/1 هـ
- 37_ ابن تيمية - عمدة الفقه - ت : خالد بن علي بن محمد المشيخ - دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط : 1/ 1418 هـ/1997 م
- 38_ ابن تيمية - مجموع الفتاوى - ت : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - ط : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية : 1416 هـ/1995 م
- 39_ ابن تيمية - مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - ت : محمد رشيد رضا - طبعة : لجنة التراث العربي د ، ت / طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1412 هـ 1992 م
- 40_ ابن تيمية - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية - محمد رشاد سالم - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ط : 1/ 1406 هـ - 1986 م
- 41_ ابن تيمية - الرسالة الأكمالية فيما يجب على من صفات الكمال - مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة، مصر - ط : 1403 هـ/1983 م
- 42_ ابن حبان - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان - ت : شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط : 2/ 1414 - 1993
- 43_ ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزرازي (المتوفى: 837هـ) - خزنة الأدب وغاية الأرب - ت : عصام شقيو - دار ومكتبة الهلال - بيروت، دار البحار - بيروت - الطبعة الأخيرة 2004م
- 44_ ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ت: إحسان عباس - دار صادر - بيروت ط : 1900
- 45_ ابن رشد الحفيد (المتوفى: 595هـ) - تلخيص السفسطة - ت : محمد سليم سالم - دار الكتب، القاهرة - 1972 .

- 46_ ابن رشد الحفيد (المتوفى: 595هـ) - فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال - ت : محمد عمارة - دار المعارف - ط : 2 د ت
- 47_ ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله شرف الملك الفيلسوف المعروف (المتوفى: 428هـ) - الإشارات والتنبيهات - ت : سليمان دنيا - دار المعارف - مصر - ط : 3 / 1958
- 48_ ابن عربي - فصوص الحكم - ت : عبد الرازق القاشاني - دار آفاق للنشر والتوزيع - القاهرة - 2016 .
- 49_ ابن فارس - مجمل اللغة لابن فارس - ت : زهير عبد المحسن سلطان - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط : 1 / 1986 م
- 50_ ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي - مقاييس اللغة - ت : عبد السلام محمد هارون - دار الفكر : 1399هـ - 1979م
- 51_ ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفى: 276هـ) - غريب الحديث - ت : عبد الله الجبوري - مطبعة العاني - بغداد - ط : 1 / 1397 هـ
- 52_ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي - تفسير القرآن العظيم - ت : محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت ط : 1 / 1419 هـ
- 53_ ابن منظور أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي - لسان العرب - دار صادر - بيروت
- 54_ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: 324هـ) - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - عنى بتصحيحه: هلموت ريتز - دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا) - ط : 2 / 1400 هـ - 1980 م
- 55_ أبو الحسن الأشعري - اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع - ت : حمود غرابة - مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة : 1975 . وطبعة أخرى - ت : ريتشارد يوسف مكارثي - المطبعة الكاثوليكية - بيروت : 1952.
- 56_ أبو الحسن الأشعري - رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب - ت : عبد الله شاکر محمد الجندي - عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية - ط : 1413هـ

57_ الإبانة عن أصول الديانة - ت : فوقية حسين محمود - دار الأنصار - القاهرة - ط : 1 / 1397 هـ .

58_ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ) - الوسيط في تفسير القرآن المجيد - تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس - قدمه وقرضه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط : 1 / 1415 هـ - 1994 م

59_ أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: 150هـ) - تفسير مقاتل بن سليمان - ت - عبد الله محمود شحاته - دار إحياء التراث - بيروت - ط : 1 / 1423 هـ

60_ أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي (المتوفى: 558هـ) - الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار - ت : سعود بن عبد العزيز الخلف - أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية - 1 / 1419 هـ / 1999 م

61_ أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم دار إحياء التراث العربي - بيروت - د ت

62_ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: 1307هـ) . فتح البيان في مقاصد القرآن - ت : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت

63_ أبو العباس أحمد بن محمد الفيومي - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير - المكتبة العلمية - بيروت - لبنان - د ت

64_ أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني - ت : سمير جابر - دار الفكر - بيروت - د ت

65_ أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري النهرواني (المتوفى: 390هـ) - الجليس الصالح الكافي والأئيس الناصح الشافي - ت : عبد الكريم سامي الجندي - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط : 1 / 1426 هـ - 2005 م

66_ أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير - دار الكتب العلمية - ط : 1 / 1419 هـ . 1989 م

67_ أبو القاسم اسماعيل ابن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني (ت : 535 هـ) . الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة - ت : محمد بن المدخلي - دار الراية : 1419 هـ 1999 م

68_ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502 هـ) - تفسير الراغب الأصفهاني - ت : محمد عبد العزيز بسيوني - كلية الآداب - جامعة طنطا - ط : 1 / 1420 هـ - 1999 م

69_ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت : 502 هـ) - المفردات في غريب القرآن - ت : صفوان عدنان الداودي - دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت - ط : 1412/1 هـ -

70_ أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (ت : 340) - اشتقاق أسماء الله الحسنى - ت : عبد الحسين المبارك - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - ط : 2 / 1406 هـ

71_ أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373 هـ) - بحر العلوم .

72_ أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التيمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: 489 هـ) - تفسير القرآن - ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم - دار الوطن، الرياض - السعودية - ط : 1 / 1418 هـ - 1997 م

73_ أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التيمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: 489 هـ) - الانتصار لأصحاب الحديث - ت : محمد بن حسين بن حسن الجيزاني - مكتبة أضواء المنار - السعودية - ط : 1 / 1417 هـ - 1996 م

74_ أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنيأوي - الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان - مكتبة ابن عباس، مصر - ط : 1 / 1426 هـ - 2005 م

75_ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: 311 هـ) - كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ت: عبد العزيز بن إبراهيم الشهبان - مكتبة الرشد - السعودية - الرياض - ط : 1414 هـ - 1994 م

- 76_ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ) - الاقتصاد في الاعتقاد - وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط : 1424/1 هـ - 2004 م - ص : 35 - 36 - 37 .
- 77_ أبو حامد الغزالي - قواعد العقائد - ت : موسى محمد علي عالم الكتب - لبنان - ط : 2/ 1405 هـ - 1985 م
- 78_ أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - دار المعرفة - بيروت - د : ط / ت
- 79_ أبو حامد الغزالي - تهافت الفلاسفة - ت : سليمان دنيا - دار المعارف، القاهرة - مصر - ط : 1 د ت .
- 80_ أبو حامد الغزالي - محك النظر - ت : أحمد فريد المزيدي - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان أبو حامد الغزالي - معيار العلم في فن المنطق - ت : سليمان دنيا - دار المعارف - مصر - 1961 م
- 81_ أبو حامد الغزالي - المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى - ت : بسام عبد الوهاب الجابي - الجفان والجابي - قبرص - ط : 1407 / 1 - 1987 م
- 82_ أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ) - اللباب في علوم الكتاب - ت عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ط : 1419 / 1 هـ - 1998 م .
- 83_ أبو حيان التوحيدي - الإمتاع والمؤانسة - ت : أحمد أمين - وأحمد الزين . منشورات المكتبة العصرية، بيروت - صيدا - لبنان .
- 84_ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ) - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1392 / 2
- 85_ أبو زكريا يحيى بن إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو بكر بن أبي طاهر الأزدي السلماسي (المتوفى: 550هـ) - حاشية كتاب - منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - ت : محمود بن عبد الرحمن قدح - مكتبة الملك فهد الوطني - الطبعة: الأولى، 1422 هـ 2002/ م

- 86_ أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (المتوفى: 280هـ) - الرد على الجهمية - ت : بدر بن عبد الله البدر - دار ابن الأثير - الكويت - ط : 2 / 1416هـ - 1995م
- 87_ أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: 388هـ) - شأن الدعاء - ت : أحمد يوسف الدقاق - دار الثقافة العربية - ط : 1 / 1404 هـ - 1984 م
- 88_ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ) - العقيدة رواية أبي بكر الخلال - ت : عبد العزيز عز الدين السيروان - دار قتيبة - دمشق - سوريا - ط : 1 / 1408 هـ
- 89_ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ) - مسنده - ت : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون - إشراف : د : عبد الله بن عبد المحسن التركي - مؤسسة الرسالة - ط : 1 / 1421 هـ - 2001 م .
- 90_ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ) - الرد على الجهمية والزنادقة - ت : صبري بن سلامة شاهين - دار الثبات للنشر والتوزيع - ط : 1 د ت .
- 91_ أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي - سلسلة الآثار الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين - جمعها وخرجها وذكر بعض فوائدها - راجعه وقدم له: فضيلة الشيخ عبد الله بن صالح العبيلان - دار الفاروق للطباعة والنشر والتوزيع - ط : 1 / 1424 هـ / 2003 م
- 92_ أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ) - البرهان في علوم القرآن - ت - محمد أبو الفضل إبراهيم - ط : 1 / 1376 هـ - 1957 م - دار المعرفة، بيروت، لبنان .
- 93_ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ) - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - ت: مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب - 1387 هـ

- 94_ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ) - الاستذكار - ت : سالم محمد عطا، محمد علي معوض - دار الكتب العلمية - بيروت - ط : 1/ 1421 - 2000
- 95_ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 516هـ) - شرح السنة - ت : شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت - ط : 2 .
- 96_ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى : 276هـ) - غريب الحديث - ت : أحمد صقر - دار الكتب العلمية ط : 1398 هـ - 1978 م
- 97_ أبو هلال العسكري - الفروق اللغوية - ت : محمد إبراهيم سليم - دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر
- 98_ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفى: 708هـ) - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل - وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان .
- 99_ أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود، عماد الدين الواسطي البغدادي ثم الدمشقي، المعروف: بابن شيخ الحزامين (المتوفى: 711هـ) - النصيحة في صفات الرب جل وعلا - ت : زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط : 2 / 1394 .
- 100_ أحمد بن حنبل - مسنده : ت : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون - إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي - مؤسسة الرسالة - ط : 1/ 1421 هـ - 2001 م
- 101_ الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد الهروي - تهذيب اللغة - ت : محمد عوض مرعب - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - د ت -
- 102_ الأسفراييني، أبو المظفر طاهر بن محمد (المتوفى: 471هـ) - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين - ت : كمال يوسف الحوت - عالم الكتب - لبنان - ط : 1/ 1403 هـ - 1983م
- 103_ إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: 535هـ) - الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل

السنة - ت : محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي - دار الراجية - السعودية / الرياض - ط
1/1419 هـ - 1999م

104_ الأَعْظمي محمد ضياء الرحمن (1417 هـ . 1997م) - فصول في أديان الهند
(الهندوسية، والبوذية، والجينية، والسيخية) وعلاقة التصوّف بها - المدينة المنورة: دار البخاري
للنشر والتوزيع.

105_ الألباني أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم،
الأشقودري - صحيح الجامع الصغير - المكتب الإسلامي - د.ت.

106_ الألباني - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها - مكتبة المعارف للنشر
والتوزيع، الرياض - ط : ج 1 - 4 : 1415 هـ - 1995 م / ج 6 : 1416 هـ - 1996 م / ج
7 : 1422 هـ - 2002 م

107_ الألباني - في جلاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة - دار السلام للنشر والتوزيع - ط
: 3 / 1423 هـ - 2002 م

108_ الألويسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني - روح المعاني في تفسير القرآن
العظيم والسبع المثاني - ت: علي عبد الباري عطية - دار الكتب العلمية - بيروت - ط : 1 /
1415

109_ الألويسي نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين (المتوفى: 1317هـ) -
جلاء العينين في محاكمة الأحمدين - قدم له: علي السيد صبح المدني - رحمه الله - مطبعة
المدني - 1401 هـ - 1981 م

110_ آمال بنت عبد العزيز العمرو - الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية - رسالة
دكتوراه بكلية أصول الدين ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، الرياض

111_ الأمدى أبو الحسن سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي (المتوفى:
631هـ) - غاية المرام في علم الكلام - ت : حسن محمود عبد اللطيف - ط : المجلس الأعلى
للشؤون الإسلامية - القاهرة د ت

112_ الباقلاني القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المالكي
(المتوفى: 403هـ) - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل - ت : عماد الدين أحمد حيدر - مؤسسة
الكتب الثقافية - لبنان - ط : 1 / 1407 هـ - 1987م

- 113_ البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي - الأدب المفرد - ت : محمد فؤاد عبد الباقي - دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان - ط : 3 / 1409 - 1989
- 114_ البخاري - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري - ت: محمد زهير بن ناصر الناصر - دار طوق النجاة - ط : 1 / 1422هـ
- 115_ البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي - معالم التنزيل في تفسير القرآن - ت: عبد الرزاق المهدي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ط : 1 / 1420
- 116_ البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، د ت
- 117_ البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى 458هـ - الاعتقاد - ت : تحقيق أحمد عصام الطالب - دار الأوقاف الجديدة بيروت - د ت / ت: موسى محمد علي - : عالم الكتب - بيروت الطبعة: الثانية، 1985م
- 118_ الثعالبي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف - الجواهر الحسان في تفسير القرآن - ت : الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط : 1 - 1418 هـ
- 119_ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) بستان الواعظين ورياض السامعين - ت : أيمن البحيري - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان - ط : 2 / 1419 - 1998
- 120_ جميل صليبا - المعجم الفلسفي - دار الكتاب اللبناني - بيروت : 1978
- 121_ الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية - ت : أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - ط : 4 / 1407 هـ - 1987 م
- 122_ الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: 478هـ) - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد - ت : محمد يوسف موسى - علي عبد الحميد - مكتبة الخانجي - مصر و مكتبة : المثني ببغداد - 1369 - 1950

- 123_ الجويني أبو المعالي - العقيدة النظامية - ت : محمد زاهد الكوثري - المكتبة الأزهرية للتراث مصر - 1412 - 1992 .
- 124_ الجويني - لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة - ت : فوقية حسين محمود - عالم الكتب - لبنان - ط : 2 / 1407 هـ - 1987 م
- 124_ حكمت بن بشير بن ياسين - موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور - دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة - المدينة النبوية ط : 1 / 1420 هـ - 1999 م
- 125_ الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد - ت : بشار عواد معروف - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط : 1 / 1422 هـ 2002 م
- 126_ الدارمي عثمان بن سعيد - رد الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد - ت : محمد حامد الفقّي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط : 1 / 1358
- 127_ الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: 748هـ) - العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمتها - ت : أبو محمد أشرف بن عبد المقصود - مكتبة أضواء السلف - الرياض - الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1995 م
- 128_ الذهبي - تذكرة الحفاظ - دار الكتب العلمية بيروت-لبنان - ط : 1 / 1419 هـ - 1998 م
- الذهبي - سير أعلام النبلاء - ت : شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة - بيروت. ط : 9 / 1413 هـ. 80/20،
- 129_ الذهبي - العرش - ت: محمد بن خليفة بن علي التميمي الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية - ط : 2 / 1424 هـ 2003 م
- 130_ الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) - المطالب العالية من العلم الإلهي وهو المسمى في لسان اليونانيين " باتلوجيا " وفي لسان المسلمين علم الكلام أو الفلسفة الإسلامية - ت : أحمد حجازي السقا - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى، 1407 هـ -
- 131_ الرازي - معالم أصول الدين - ت : طه عبد الرؤوف سعد - دار الكتاب العربي - لبنان
- 132_ الرازي - مفاتيح الغيب - دار الكتب العلمية - بيروت - ط : 1 / 1421 هـ - 2000 م
- 133_ الرازي - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - ت: علي سامي النشار - دار الكتب العلمية - بيروت - د ت -

134_ الرازي - أساس التقديس - ت : أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1406هـ.

135_ الرازي - الأربعين في أصول الدين ، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى 1406هـ

136_ الرمّاني - الخطابي - الجرجاني - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . ت : محمد خلف الله - محمد زغلول سلام . دار المعارف - مصر 1976 - ص : 97.

139_ الزبيدي - تاج العروس من جواهر القاموس - ت : مجموعة من المحققين - ط : دار الهداية

140_ الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل - معاني القرآن وإعرابه - ت : عبد الجليل عبده شلبي . عالم الكتب - بيروت - ط : 1 - 1408 هـ - 1988 م

141_ الزركشي - البرهان في علوم القرآن - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه - ط : 1 / 1376 هـ - 1957 م

142_ الزركشي - معنى لا إله إلا الله - ت : علي محيي الدين علي القرة راغي - دار الاعتصام - القاهرة - ط : 3 / 1405 هـ / 1985 م -

143_ زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (المتوفى: 926هـ) - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن - ت : محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان - ط : 1 / 1403 هـ - 1983 م

144_ الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد - أساس البلاغة - ت : محمد باسل عيون السود - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط : 1 / 1419 هـ - 1998 م

145_ الزمخشري - الكشاف عن حقائق التأويل و غوامض التنزيل . دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - ط : 3 / 1407 هـ

146_ السمين الحلبي أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (المتوفى: 756هـ) - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون - ت : أحمد محمد الخراط - دار القلم، دمشق .

147_ السهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (المتوفى: 581هـ) - نتائج الفكر في النحو - دار الكتب العلمية - بيروت - ط : 1 / 1412 - 1992 م .

- شأن الدعاء - ت : أحمد يوسف الدقاق - دار الثقافة العربية - الطبعة: الأولى، 1404 هـ -
1984 م
- 148_ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر - الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور -
دار الفكر - بيروت - د ت .
- 149_ السيوطي - معترك الأقران في إعجاز القرآن - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط
: 1408/1 هـ - 1988 م
- 150_ السيوطي - الإتيان في علوم القرآن - ت : محمد أبو الفضل إبراهيم - الهيئة المصرية
العامة للكتاب - الطبعة: 1394هـ/ 1974 م
- 151_ شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (743هـ) - شرح الطيبي على مشكاة المصابيح
المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) - ت : عبد الحميد هندراوي - مكتبة نزار مصطفى الباز
مكة المكرمة - الرياض - ط : 1/ 1417 هـ - 1997 .
- 152_ الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (المتوفى: 1393هـ)
- الأسماء والصفات نقلا وعقلا - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - الطبعة: السنة الخامسة،
العدد الرابع، ربيع ثاني 1393 هـ مايو 1973 م .
- 153_ الشنقيطي - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - دار الفكر للطباعة و النشر و
التوزيع بيروت - لبنان - 1415 هـ - 1995 م
- 154_ الشهرستاني أحمد أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر - الملل والنحل ، مؤسسة
الحلبي د ت .
- 155_ الشوكاني محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (المتوفى: 1250هـ) - دار ابن
كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت - الطبعة: الأولى - 1414 هـ
- 156_ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان - التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية -
دار العاصمة للنشر والتوزيع .
- 157_ صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذري
الصالحى الدمشقي (المتوفى: 792هـ) - شرح العقيدة الطحاوية - ت: جماعة من العلماء،
تخريج: ناصر الدين الألباني - دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة (عن مطبوعة
المكتب الإسلامي) الطبعة المصرية الأولى، 1426 هـ - 2005 م

- 158_ الطبري أبو جعفر محمد بن جرير - جامع البيان في تأويل القرآن - ت : أحمد محمد شاكر: مؤسسة الرسالة - ط : 1 / 1420 هـ - 2000 م
- 159_ الطبري - صريح السنة - بدر يوسف المعتوق - دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت الطبعة: العدد 120 - السنة 35 - 1423 هـ / 2003 م
- 160_ عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - تح : محمود الأرنؤوط - تخ - عبد القادر الأرنؤوط - دار ابن كثير، دمشق - بيروت - 1 / 1406 هـ - 1986 م
- 161_ عبد الرحمن بن اسماعيل الصابوني - عقيدة السلف أصحاب الحديث - ت : بدر البدر - الدار السلفية - الكويت - ط : 1 / 1404
- 162_ عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود - موقف ابن تيمية من الأشاعرة - مكتبة الرشد - الرياض - السعودية - ط : 1 / 1415 هـ / 1995 م
- 163_ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي - مقدمة ابن خلدون - ت : مصطفى محمد- دار القلم - بيروت - 1984 م
- 164_ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (المتوفى: 1429هـ) - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية - (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى) - مكتبة وهبة - الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1992 م
- 165_ عبد القادر بن ملاً حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: 1398هـ) - بيان المعاني - مطبعة الترقى - دمشق - ط : 1 / 1382 هـ - 1965 م
- 166_ عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز- ت : محمد التنجي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط : 1 / 1995 .
- 167_ عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (المتوفى: 429هـ) - الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط : 3 / 1977
- 168_ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ) - الرسالة القشيرية - ت : عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف - دار المعارف، القاهرة

- 169_ عبد الله بن صالح بن عبد العزيز الغصن - دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية - ط : 1 / 1424 هـ
- 170_ عبد الله بن محمد الغنيمان - شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري - مكتبة الدار، المدينة المنورة - ط: 1 / 1405 هـ .
- 171_ عبد الله بن يوسف الجديع - العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية - دار الإمام مالك، دار الصميعي للنشر والتوزيع - ط : 2 / 1416 هـ - 1995 م
- 172_ عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري - تأويل مختلف الحديث - ت : محمد زهري النجار - دار الجيل - بيروت 1393 - 1972
- 173_ ابن قتيبة - تأويل مشكل القرآن - ت : إبراهيم شمس الدين - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - د ت .
- 174_ عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزيّ الوائلي البكري، أبو نصر (المتوفى: 444هـ) - رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت - ت : محمد با كريم با عبد الله - عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية - ط: 2 / 1423 هـ / 2002م
- 175_ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف - صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة - الدرر السنية - دار الهجرة - ط : 3 / 1426 هـ - 2006 م .
- 176_ علي بن سلطان محمد القاري - منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر - دار البشائر - بيروت - لبنان - ط : 1 / 1419 - 1998
- 177_ الغزنوي جمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد الحنفي (المتوفى: 593هـ) - كتاب أصول الدين - ت : الدكتور عمر وفاق الداعوق - دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان - ط : 1 / 1419 - 1998
- 178_ الفراء - معاني القرآن - ت : أحمد يوسف نجاتي / محمد علي نجار / عبدالفتاح إسماعيل شلبي - دار المصرية للتأليف والترجمة .
- 179_ الفراهيدي الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم - العين - ت : مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي - دار ومكتبة الهلال .

- 180_ أبو بكر الأنباري محمد بن القاسم بن محمد بن بشار- الزاهر في معاني كلمات الناس - ت : حاتم صالح الضامن - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط : 1 / 1412 هـ - 1992 م
- 181_ الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) - لسان الميزان - ت : دائرة المعارف النظامية - الهند - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان - الطبعة: الثانية، 1390هـ / 1971م
- 182_ الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب - القاموس المحيط - ت : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي - مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان / ط 8 / 1426 هـ - 2005
- 183_ القاضي أبو الحسن محمد بن أبي يعلى - طبقات الحنابلة ، ت : محمد حامد الفقي، ط: السنة المحمدية القاهرة .
- 184_ القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ) - أحكام القرآن - ت : محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط : 3 / 1424 هـ - 2003 م
- 185_ القرطبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي - الجامع لأحكام القرآن - ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية - القاهرة . ط : 2 / 1384 هـ - 1964 م
- 186_ اللالكائي شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة - ت : أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي - دار طيبة - الرياض - ط : 4 / 1416-1995 . ط : 8 - 1423 هـ / 2003 م
- 187_ المبرّد أبو العبّاس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي (المتوفى: 285هـ) - المقتضب - ت : محمد عبد الخالق عزيمة - عالم الكتب . - بيروت
- 188_ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (المتوفى : 606هـ) - جامع الأصول في أحاديث الرسول - ت : عبد القادر الأرئوط - مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان
- 189_ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ) - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - ت : محمد علي النجار - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة .

- 190_ محمد أمان الجامي - الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه - المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، الطبعة : الأولى، 1408هـ
- 191_ محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المَطِّي العسقلاني (المتوفى: 377هـ) - التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع - ت: محمد زاهد بن الحسن الكوثري - المكتبة الأزهرية للتراث - مصر - د ت
- 192_ محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (المتوفى: 406هـ) - مشكل الحديث وبيانه : ت : موسى محمد علي - عالم الكتب - بيروت الطبعة: الثانية، 1985م
- 193_ محمد بن خليفة بن علي التميمي - مقالة التعطيل والجعد بن درهم - أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط : 1 / 1418هـ / 1997م
- 194_ محمد بن خليفة بن علي التميمي - معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى - أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط : 1 / 1419هـ / 1999م
- 195_ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى : 1421هـ) - مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان - دار الوطن - دار الثريا - 1413 هـ
- 196_ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ) - شرح العقيدة الواسطية - ت : سعد فواز الصميل - دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية - ط : 5 / 1419هـ
- 197_ محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: 741هـ) - مشكاة المصابيح - ت: محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ط : 3 / 1985
- 198_ محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني - سنن ابن ماجه - ت : محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت -
- 199_ محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: 285هـ) - الكامل في اللغة والأدب - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة - ط : 3 / 1417هـ - 1997م
- 200_ محمد فاروق النبهان - المدخل إلى علوم القرآن الكريم - دار عالم القرآن - حلب - الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005

- 201_ محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: 1376هـ) - الجدول في إعراب القرآن الكريم - دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت - ط : 4 / 1418 هـ
- 202_ محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : 1403هـ) - إعراب القرآن وبيانه - دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) - ط : 4 / 1415 هـ
- 203_ مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (المتوفى: 1033هـ) - أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات - ت : شعيب الأرنؤوط
- 204_ مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري - المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ت : محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان
- 205_ مصطفى محمد حلمي - منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط : 1 / 1426 هـ
- 206_ المقرئ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (المتوفى: 845هـ) - إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع - ت : محمد عبد الحميد النميسي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط : 1 / 1420 هـ - 1999 م
- 207_ النسفي حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود - مدارك التنزيل وحقائق التأويل - ت: يوسف علي بديوي مراجعة : محيي الدين ديب مستو - دار الكلم الطيب، بيروت - لبنان - ط : 1 / 1419 هـ - 1998 م
- 208_ النوبختي، الحسن بن موسى، (1936م) ، فرق الشيعة، النجف: المطبعة الحيدريّة الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ت : صفوان عدنان داوودي - دار القلم - دمشق بيروت ط : 1 / 1415 هـ
- 209_ وهبة بن مصطفى الزحيلي - التفسير الوسيط للزحيلي - دار الفكر - دمشق - ط :

الفهرس
وقففة شكر:

1.....	: مقدمة
15.....	: الباب الأول : أدلة الأسماء والصفات وأقسامها وقواعدها واشتقاقاتها
15.....	: الفصل الأول : مدخل إلى الأسماء والصفات
16.....	: تمهيد
18.....	: المبحث الأول : تعريف الأسماء والصفات
18.....	: المطلب الأول : تعريف الاسم
23.....	: المطلب الثاني : النزاع في الاسم والمسمى
49.....	: المطلب الثالث : تعريف الصفة
55.....	: المبحث الثاني : أدلة إثبات الأسماء والصفات
57.....	: المطلب الأول : الأدلة النقلية
60.....	: المطلب الثاني : الأدلة العقلية
80.....	: الفصل الثاني : أقسام الأسماء والصفات وقواعدها واشتقاقاتها
80.....	: المبحث الأول : أقسام الأسماء والصفات وقواعدها
81.....	: المطلب الأول : أقسام الأسماء والصفات
167.....	: المطلب الثاني : قواعد في الأسماء والصفات

- 179.....المبحث الثاني : اشتقاق الأسماء والصفات
- المطلب الأول : اشتقاق اسمه العلم المتضمن لجميع معاني الأسماء والصفات
- 183.....وصفاته الخبرية
- 192.....المطلب الثاني : اشتقاق الأسماء المتضمنة لصفة ذات الله عزّ وجلّ
- 226.....المطلب الثالث : اشتقاق الأسماء المتضمنة لفعل الله عزّ وجلّ
- 281.....الباب الثاني : لطائف البيان في أسماء وصفات الرحمن بين الفراق والقران
- 282.....مدخل : في الفاصلة القرآنية :
- 304.....الفصل الأول : حكم المنان في إفراد الأسماء والصفات في تعقيب الآيات
- 305.....تمهيد :
- 307.....المبحث الأول : انفراد الأسماء والصفات الدالّة على معاني الألوهية
- 307.....المطلب الأول : اسمه الأعظم العلم الله / إله
- 311.....المبحث الثاني : انفراد الأسماء والصفات الدالّة على معاني الربوبية
- 311.....المطلب الأول : الربّ
- 312.....المطلب الثاني : الملك / المالك / المليك
- 321.....المطلب الثالث : المحيط
- 325.....المطلب الرابع : البارئ
- 326.....المطلب الخامس : الخالق

328.....	المطلب السادس : السميع
329.....	المطلب السابع : البصير
338.....	المطلب الثامن : الخبير
340.....	المطلب التاسع : العليم : عليم / عالم / عالم / عالم
393.....	المطلب العاشر : الحافظ / الحفيظ
396.....	المطلب الحادي عشر : الحسيب
398.....	المطلب الثاني عشر : الحفيّ
398.....	المطلب الثالث عشر : الرزّاق / خير الرازقين
400.....	المطلب الرابع عشر : الوارث
401.....	المطلب الخامس عشر : الوكيل
404.....	المطلب السادس عشر : القريب
405.....	المطلب السابع عشر : الوهّاب
408.....	المطلب الثامن عشر : المقيت
408.....	المطلب التاسع عشر : الحيّ
411.....	المبحث الثالث : انفراد أسماء وصفات الجلال
411.....	المطلب الأول : القدير / القدير
424.....	المطلب الثاني : المجيد

- 425.....المطلب الثالث : الأعلى
- 426.....المطلب الرابع : القاهر
- 426.....المطلب الخامس : العزيز
- 428.....المطلب السادس : العظيم
- 429.....المطلب السابع : الغني
- 433.....المطلب الثامن : القويّ
- 433.....المبحث الرابع : انفراد أسماء وصفات الجمال
- 433.....المطلب الأول : الرحمن / الرحيم
- 466.....المطلب الثاني : غافر / الغفار / غفور
- 467.....المطلب الثالث : التوّاب
- 468.....المطلب الرابع : الحميد
- 469.....المطلب الخامس : الرؤوف
- 470.....المطلب السادس : الكريم
- 473.....المطلب السابع: المولى / الولي / النصير
- 478.....المطلب الثامن : الهادي / النور
- 480.....الفصل الثاني : النكت في اقتران الأسماء والصفات في تذييل الآيات
- 481.....المبحث الأول : اقتران أسماء وصفات الألوهية فيما بينها

- 481.....المطلب الأول : الله / إله و واحد و أحد
- 486.....المطلب الثاني : الحق /
- 489.....المبحث الثاني : اقتران أسماء وصفات الربوبية فيما بينها
- 489.....المطلب الأول : الخالق مع الوكيل والخالق مع العليم
- 492.....المطلب الثاني : السميع مع ما اقترن به " العليم ، البصير ، القريب"
- المطلب الثالث : الخبير مع ما اقترن به : العليم، الحيّ، الرحمن، الحكيم
- 506.....اللطيف ، البصير
- المطلب الرابع : العليم مع ما اقترن به " الحكيم ، الفتّاح ، الواسع
- 510.....والأول والآخر و الظاهر والباطن
- 525.....المبحث الثالث : اقتران الأسماء والصفات الدالة على الجلال فيما بينها
- 525.....المطلب الأول : المقتدر مع العزيز
- 526.....المطلب الثاني : العليّ مع العظيم و الكبير
- 527.....المبحث الرابع : اقتران الأسماء والصفات الدالة على الجمال فيما بينها
- المطلب الأول : الرحيم مع ما اقترن به : الغفور / البرّ / التوّاب /
- 527.....الروؤف / العفوّ
- المطلب الثاني : الغفور مع ما اقترن به : الحليم / الشكور /
- 565.....الودود/العفوّ / الكريم

570.....	المطلب الثالث : الولي الحميد
570.....	المطلب الرابع : الشكر زيادة على الحلم
570.....	المطلب الخامس :نعم المولى ونعم النصير
571.....	المبحث الخامس : مطلق الاقتران بين الأسماء والصفات
571.....	المطلب الأول : الألوهية مع ما بقي من معان
577.....	المطلب الثاني : الربوبية مع الجلال
607.....	المطلب الثالث : الربوبية مع الجمال
609.....	المطلب الرابع : الجلال مع الجمال
616.....	الخاتمة :
618.....	الملخص باللغة الأجنبية :
619.....	قائمة المصادر والمراجع :
639.....	الفهرس :